حياة الإمام الشوكاني

المسمى

كتاب التقصار

في جيد زمان علامة الأقاليم والأمصار
شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني

تأليف

العلامة محمد بن الحسن بن علي بن أحمد بن ناصر
الشجني الحميري الذماري
المتوفى سنة ١٢٦٨هـ

حققه وعلق عليه

محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي

مكتبة الجيل الجديد صنعاء


حياة
الإمام
الشوكاني
المسمى
كتاب
التقصار
مكتبة الجيل
الجديد

حياة الإمام الشوكاني

المسمى

كتاب التقصار

في جيد زمان علامة الأقاليم والأمصار
شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني

تأليف
العلامة محمد بن الحسن بن علي بن أحمد بن ناصر
الشجني الحميري الذماري
المتوفى سنة ١٣٦٨هـ

حققه وعلق عليه
محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي

مكتبة الجيل الجديد صنعاء

١ - أبيات من نظم المؤلف في الاعتذار عما وقع من خطأ في تأليفه ص ١٢

- ترجمة أديب عالم مدني ص ٢٧٣

- فائدة في إعلام المشكلات ص ٣٤٣

قال الظاهر بيبرس

الملك العبقري في فن الحرب والفتح

المتوفى سنة ٦٧٦هـ - ١٢٧٧م

"سماع التاريخ أجدى من التجارب"

بسم الله الرحمن الرحيم

حياة الإمام الشوكاني

المسمّى

كتاب التقصار

في جيد زمان علامة الأقاليم والأمصار شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني

تأليف

العلامة محمد بن الحسن بن علي بن أحمد بن ناصر
الشجني الحميري الذماري
المتوفى سنة ١٢٦٨هـ

ولمّا وقف على هذا المؤلف الجليل ـ المولى العلامة النبيل يحيى بن المطهر بن إسماعيل، عافاه الله تعالى، قرضه بهذه الأبيات ارتجالاً:

لله ذا التِقصار في الأسفار	ضاهى ضيا الصبح في الأسفار
بنباهة ورصانةٍ وصيانةٍ	في زبره وسكينةٍ ووقار
يلتذ السامع إذ يُروى له	مما حواه ويرتضيه القاري
ثمرات شجنيّ الكمال محمَّد	زين النبال الفرد حل نمار
في ذكر أستاذ العلوم محمَّدٍ	جبل الحلوم ودرّة التقصار
لا غيره كشيوخه لحقوقهم	قد شابه التقصير للأقصار

حققه وعلق عليه
محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي

مكتبة الجيل الجديد
صنعاء

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

مكتبة الجيل الجديد
الجمهورية اليمنية
صنعاء صندوق البريد (٥٤٤)

هاتف: ٢٧٥٥١٥/٢٧٥٥١٤

﴿المقـــدمة﴾

الحمد لله الذي جعل المجدِّدين مصابيحاً لمعالم الدين، وحرساً دون شبه الملحدين، فكانوا لما حوى بنيان المعالم نوراً، ولحريم حمائها سوراً، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمد أشرف العرب محتداً[(١)] وأسعدهم مولداً، وأرفع النبيين منزلاً وأنفعهم موئلاً، وعلى آله السادة وصحبه القادة، وعلى تابعيهم وتابعي تابعيهم المتفيئين، ظلّ مساعيهم من لدن عبر الأول منهم، إلى أن تنقطع الأخبار عنهم، بفصل حشر العباد ومجيء يوم المعاد.

أما بعد، فإن العلماء لما قاموا بإعلاء كلمة الحق وحمل العامة عليها، وهداية الخاصة إليها، وجب تخليد محاسنهم، وتدوين فضائلهم، تبييضاً لوجه الزمان بسواد الدفاتر، وإنطاقاً لألسن الأقلام، باستمداد اللفظ من أفواه المحابر، وإرشاداً للأخلاف[(٢)] إلى إحياء سُنّة الأسلاف، وبثبوت هذه العلة الغائيّة يكثر أهل ذلك الشأن، فتشاد بهم أركان الإيمان لحرص المقتدين، على تقوية قواعده الممهّدة، وتنوير أبنيته المشيّدة، والبرهان على هذا أنّ الذكي إذا تمتع بالنظر في فضائل الأوائل انكفأ عن الاكتفاء إلى الاقتفاء، ليجمع في الدارين بين ذكر جميل وأجر جزيل، ومجد عاجل، ووعدٍ بالخير آجل فيصير مستشرفاً في الأولى ذروة الشرف، ومتسنّماً في الأخرى شوامخ الغُرَف.

ولما كان بحر الفضائل الرّجاف، وعَلَم العلم الذي سمت به الشّعاف[(٣)]،

---

(١) المحتد: بكسر الميم: الأصل.

(٢) الأخلاف: جمع خلف: معروف وهو الذي يجيء بعد السلف.

(٣) الشعاف: بكسر الشين المعجمة: أعالي الجبال، والشحاك: بكسر الشين المعجمة، وفتح الحاء المهملة آخره كاف، وهو عود يعرض على فم الجدي ونحوه ليمنع من الرضاع.

[redacted]

كتاب الانتصار في جيد تراجم
علامة الأقاليم والأمصار جمع
الحقير محمد بن حسن بن علي
بن أحمد بن ناصر الشجني
تاب الله عليه
وغفر له
ولوالديه

لما وقفت على هذا المؤلف الجليل المولى العلامة النبيل محمد بن المطهر بن إسمعيل عافاه الله قرضته بهذه الأبيات ارتجالا

لله ذا الانتصار في الأسفار
بمباهج ورصانة وصيانة
بلغت الساجع اذ يروى له
ثمرات شجني الكمال محمد
في ذكر أستاذ العلوم محلا
لا غيره كشيوخه لحقوقهم
[redacted]

فاق ضيا الصبح في الإسفار
في زبره وسكينة ووقار
مما جاه وبر تضنيه القار
زين النبال الفرد جل ذمار
جبل العلوم ودرة الانتصار
قد شابها التقصير للاقصار
[redacted]

[illegible] ١٢٦٢

وغير ذلك من مؤلفاته ثم عاد الى كوكبان فبقي فيه اياماً قلايل في سنة
اثنتين واربعين ومائتين والف ولم يطب له البقا فيه وعاد الى صنعا فاذن
له شيخ الاسلام في فصل خصومات من ورد اليه فصار من حكامها واكب
على الطلب على شيخ الاسلام وله فيه قصايد سنيه ورسايل بليغه بهيه وهو
دقيق الذهن حسن الفهم جيد التنزيل حسن التصور للحقايق له شغلة بالادلة
والعمل بها يعمل بما صح له ﴿ السيد العلامة البدر والنحرير الفهامه
الصدر فرد الكمال وخلاصة لباب الاكمال دستور المعالم وزينة الاكرمين
آل الامام القسم يحيى بن المطهر بن اسمعيل بن يحيى بن الحسين بن الامام القسم
ولد في شهر جمادي الاولى من شهور سنة تسعين ومائة والف وطلب العلوم
طلب المحصلين على مشايخ عصره المتصدرين فقرأ الفقه على الفقيه العلامه
سعيد بن اسمعيل الرشيدي رحمه الله وقرأ في علوم الالات على اختلافها
على المشايخ المتصدرين مثل السيد العلامه علي بن عبد الله الجلال
والقاضي العلامه عبد الله بن محمد مشحم رحمهما الله وغيرهما مثل السيد
العلامه ابرهيم بن عبد القادر فنبل في المعارف الالية وغيرها وصار
صدراً من صدور اهل العلم مع التفرغ عن جميع ما عدى الدرس والتدريس
من شغل الدنيا ومتعلقاتها فلم يكن له شغلة في غالب اوقاته بل في
جميعها ما عدى التحصيل والافادة والتدريس للطلبة يا تونه الى
مقامه الماهول بالعلم واهله فلا يرد طالباً ولا مستفيداً في اي وقت من
اوقاته باذلاً كتبه لمن طلبها منه للاستفادة عنده ومن غيره مع سعة صدر
ورقة قلب وتودد محبوك على مكارم الاخلاق ومحاسنها سالكاً طريق الانصا ف
متجافياً عن سبيل التعصب والاعتساف حريصاً على العمل بالدليل معرضاً
عن كل قايل وقيل قابلاً للحق ولو من اصغر الطلبه مع سعة صدره
وانشراح خاطره وتغاضيه عما لا يتغاضى عنه غيره من امثاله بل ربما
يسمع من بعض معاصريه حال القراة وغيرها ما يحصل مثله بين طلبة العلم
في بعض الاحيان من نفثات تكون فلا يلتفت الى ذلك بل ربما تلقى
قايله بلين الكلام واحسنه وابهجه كان لم يسمع ولم يبلغ ومن فوايده
وتحصيلاته لنفسه عافاه الله بلغة المرام في رحلته الى بيت الله الحرام
والعلم الثاقب من منحة الالطاف شرح مسالك الانصاف وتخميسها للقا ضي

٩ ــ السلوك في طبقات العلماء والملوك للبهاء الجندي
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحِوالي

١٠ ــ نظام الغريب في اللُّغة لعيسى بن إبراهيم الربعي الوَحَاظي الحميري
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحِوالي

١١ ــ العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية لعلي بن الحسن الخزجي
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحِوالي

١٢ ــ ديوان جمال الدين محمد بن حسين الوصابي الهمداني
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحِوالي

١٣ ــ الجزء الأول من مسالك الأبصار لمحمد بن صالح العصامي الصنعاني
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحِوالي

١٤ ــ نزهة المعتبر في فضل جبل صبر لعبد الفتاح المخلافي
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحِوالي

١٥ ــ التقصار في جيد علامة الأقاليم والأمصار لمحمد بن الحسن الشجني
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحِوالي

ما هو تحت الطبع :

١٦ ــ العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك لعلي بن الحسن الخزجي
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحِوالي

١٧ ــ كشف أسرار الباطنية لمحمد بن مالك الحمادي المعافري
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحِوالي

١٨ ــ وبل الغمام على شفاء الأوام لمحمد بن علي الشوكاني
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحِوالي

١٩ ــ الاختصاص ذيل تاريخ صنعاء لسري الدين بن إبراهيم العرشاني
تحقيق الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحِوالي

ما هو للمؤلف:

١ ـ اليمن الخضراء مهد الحضارة.

٢ ـ الجزء الأول من صفحة من تاريخ اليمن الإجتماعي وقصة حياتي.

٣ ـ الجزء الثاني من صفحة من تاريخ اليمن الإجتماعي وقصة حياتي.

٤ ـ الجزء الثالث من صفحة من تاريخ اليمن الإجتماعي وقصة حياتي.

٥ ـ الجزء الرابع من صفحة من تاريخ اليمن الإجتماعي وقصة حياتي.

٦ ـ حياة عالم وأمير، جزء أول.

٧ ـ حياة عالم وأمير، جزء ثاني.

ما هو تحت الطبع:

٨ ـ معجم بلدان اليمن وأنساب قبائلها.

٩ ـ صراع ثلث قرن أو الحركة الوطنية وتطورها.

١٠ ـ لسان العرب من أعلام اليمن.

١١ ـ المشايخ والأقران.

١٢ ـ العلويون باليمن.

١٣ ـ الفرقة المطرفية والحسينية والنشوانية.

١٤ ـ الإمامة والخلافة والملك والجمهوريات.

* * *

حقيقة لا بد منها

قال المؤرخ الكبير أَبُو الغَمر مُسَلَّم بن محمد بن جعفر اللحجي الهمداني الشطبي اليمني، المتوفى رحمه الله حوالى سنة خمسين وخمسمائه من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والتسليم:

إن قِلَّة الرغبة بأهل اليمن في إحياء ما يكون في بلادهم وفي أهلها من الأخبار والآثار ولهم من الفضائل والمحاسن والعجائب ما عرفت.

ومعلوم أنه قد كان في اليمن من المحاسن الحسنة في أخبار الدنيا في الجاهلية والإسلام وأخبار الدين في الإسلام وسائر مكارم الأخلاق ونوادر العجائب التي قد دون أهل العراق والحجاز ومصر والشام وخراسان ما هو دونها وأحيوا ما في طبقتها من أخبار ملوكهم وقوادهم وشعرائهم وكتّابهم وخطبائهم وفقهائهم وعبّادهم وزهادهم ووزرائهم وسوقتهم وعوامهم وغير ذلك.

ولهذا حيي الناس وماتوا:

وما على القارىء إلا أن يصوب نظره ويصعِّده في هذه الجملة ثم يفسرها ويتصورها كيف شاء ويعلل الإمام شيخ الإسلام الحافظ المجتهد محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ خمسين ومائتين وألف:

هذه الظاهرة في اليمنيين بأنها بدوافع الحسد ويثبت ذلك بالأدلة كما في كتابه «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» في ترجمة العلامة المؤرخ أحمد بن صالح أبو الرجال، وفي ترجمة ابن هطيل النحوي الصنعاني، وفي ترجمة الإمام المجتهد محمد بن إبراهيم الوزير رحمهم الله جميعاً وذلك في ج ١ : ٥٩،

٤٩٣، وفي ج ٢ : ٨١. وأيم الحق إنها كلمةُ صدق من رجل صدق صادرة عن دراسة وتَمعّنٍ فنحن اليوم وبعد قرون طويلة نعاني ما كان يعانيه آباؤنا وأجدادنا من داء الحسد والشنآن والانتقاص والنفاسة أعاذنا الله من ذلك وجنّبني وقومي كل مكروه ويعلم الله والأسف يحز في نفسي والأسى ينحت في جسمي أني لم أقصد فيما أوردته هضم قومي أو الإنتقاص من محاسنهم والمساس من مشاعرهم أو الشماتة بهم اللهم لا شماتة وهم الملا.

بل لأبعث فيهم روح النّشاط للقراءة والمطالعة والتأليف والنشر وإحياء ذخائر التراث اليمني النافع لا سيما العلوم الإنسانية والرائجة لدى الأذواق وعند كل الناس ومقبولة في كل زمان ومكان: لا تقديس لأحد ولا قدح لآخرين بما ليس فيه فالناس سواسية أمام قانون السماء إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

ولأقدح فيهم زند العمل وأوري في نفوسهم نور الأمل ولأنتزع من دخائلهم آفة الكسل وأذكي من ذكائهم رميم الجمود وأحيي من وجدانهم روح الطموح وحب العلو والعلوم وليكونوا قدوة حسنة ومثلاً أسمى وحتى يقال: هذا الشبل من ذاك الأسد وعلى حد قول الأول:

فكن رجلاً رجله في الثرى وهامة همته في الثريا

سائلاً من الله أن يوفقنا جميعاً لصالح الأعمال ويأخذ بأيدينا إلى كريم الفعال وصادق الأقوال وأن يشرح صدورنا إنه كريم متعال ومتفضل منان.

﴿ربَّنا لا تُزِغ قُلُوبَنَا بَعْدَ إذْ هَدَيْتَنا، رَبَّنا ولا تَجعل في قُلُوبنا غِلًّا لِلْذين آمنوا، رَبّنا إنك غَفُورٌ رَحيم﴾.

* * *

حول كلمة التِّقصار

قال ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ في معجمه في مادة تبراك بالكسر ثم السكون وراء وألف وكاف: موضع بحذاء تعشار وقيل ماء لبني العنبر إلى أن قال: وقال جعفر جاءَ عن العرب أربعة أسماء مكسورة الأوائل الأول «تقصار للقلادة اللازقة بالحلق» وتعشار موضع: وتبراك ماء لبني العنبر: وطلحام موضع: وحكى أبو نصر: رجل تمساح ورجل تنبال وتبيان.

وقال في مادة ترباع بالكسر ثم السكون والباء الموحدة وأنشد الفراء. قال: أنشدني أبو ثروان:

أتِمْ على الربع بالترباع غيَّره ضرب الأهاضيب والناجه العُصُفُ

وهو في كتاب ابن القطاع ترناع بالنون في ألفاظ مخصوصة جائت على تفعال بكسر أوله والترباع بالباء الموحدة لبني يربوع. والترياق: الدواء المركب النافع من السموم، ومن قرى هَرَاة تيران بلدة من هراة.

قال الحوالي: التنبال: الرجل القصير ويجيىء في اللغة اليمنية الدارجة في أقوالهم: هذا تنبال أي هذيان لا أصل له وأساطير وحديث خرافة ومن هذا النمط: المرخام: عزلة من يحصب العلو وجاءت كلمات كثيرة على هذا الوزن مثل: ترخام: وهو تكبر في صعر وعدم مبالاة من ترخم والتراخم قبيل من حمير لهم بقية انظر الجزء الثاني من الإكليل، ص ٢٩٠، والتحتاح: التصنع في المدح في نفاق وتزلف وغير ذلك. وذكر الإمام أبو سعيد السيرافي أن تفعال بالكسر أسماء وجاء منها على ستة عشر اسماً.

اللهم إلا إذا أراد ياقوت بالكلمات المبدوءة بالتاء المثناة من فوق فهذا شيء آخر.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

أضواء على حياة الإمام الشوكاني الهمداني وعصره

قليل وأقل من القليل تأليف كتاب مستقل في حق عظيم من عظماء اليمن وزعيم من زعماء الإصلاح وعلم من أعلام العرب وهو شيخ الإسلام المجتهد المجدد محمد بن علي الشوكاني الهمداني: يشرح فيه جوانب حياته ويوضح سماته وسمات عصره ويستوفي حقوقه وواجباته بما يوحي إليه ضميره ويتناول مختلف أحواله الروحية والعلمية والعملية والعقلية والثقافية والسياسية ويسايره من الطفولة إلى الشبيبة إلى الكهولة إلى الشيخوخة وهو بحق أول كتاب من نوعه ينشر ويبصر النور، وأول مؤلف يظهر مصنفه من مدينة ذمار ثاني مدن اليمن النجدية كما أن مخرجه وناشره ومحققه من نفس مدينة ذمار.

ألا وهو كتاب التقصار في جيد زمن علامة الأقاليم والأمصار: لمؤلفه الأديب المؤرخ العلامة محمد بن الحسن الشجني الذي بذل وسعه وأفرغ جهده في إبراز حقائق عظمة شيخه شيخ الإسلام الذي ملك شغاف قلبه حباً وتقديراً وأسر لبه عجباً وإكباراً واستولى مشاعره وحواسه فنثر الدرر التي كان قد حشاها في أصداف تاموره فنظمها تقصاراً في جيد زمن علامة الأقاليم والأمصار: وهو الذي نَزَّفه للقراء في حلته القشيبة والحائز حفاوةً بالغة من قبل العلماء الجلّة من بزوغ شمسه وطلوع بدره على أبناء جنسه. والشجني إذ كتب عن شيخه شيخ الإسلام فإنما كتب عن مشاهدة وعيان ومجالسة تلميذ لشيخه ومعاشرة ولد لوالده.

وقد قيل: إن أحسن وأوثق من يكتب التاريخ والتراجم من كتب عن مشاهدة وعيان.

إضافة أن كتابة التاريخ رسالة إنسانية ومسؤولية خطيرة الشأن فمن كتب عن صدق وأمانة فقد أمن من العثار وسلم من جرح ذرب اللسان .

والإمام شيخ الإسلام أكبر وأكثر من أن يكتب الكرام الكاتبون المؤلفات الطوال والمصنفات الكبار في حياته: فمجال القول ذو سعة، والمورد العذب كثير الزحام.

وممن ورد هذا المنهل العذب فتناول دراسةً لحياة شيخ الإسلام الأستاذ الفاضل المناضل أحد الأحرار الأوائل قاسم غالب التعزي الأشعري والأستاذ المفضال محمود زايد إبراهيم المصري في كتاب أسماه:

«من أعلام اليمن شيخ الإسلام المجتهد محمد بن علي الشوكاني»

ونشر وتلقفته أيدي الشباب المستنير حتى نفد وانعدم في المكتبات والأسواق.

كما أخرج الأخ الكريم محمد بن حسن بن أحمد الغماري مؤلفاً أسماه «الشوكاني المفسر» حاز به جائزة الدكتوراة من جامعة أم القرى، وطبعاً أنه لم يقتصر على الشوكاني المفسر: بل تشعب كتابته إلى مباحث أخرى.

والإمام الشوكاني ترجم لنفسه في مؤلفه البدر الطابع، بمحاسن من بعد القرن السابع، ج ٢ ــ ٢١٤، استغرقت ترجمته في خمس عشرة صفحة عدا نتفاً كثيرة متناثرة في ثنايا من ترجم لهم من معاصريه وممن ترجم لشيخ الإسلام تلميذه الأديب الكاتب المؤرخ لطف الله بن أحمد جحاف الهمداني في كتابه: درر نحور العين في سيرة الإمام المنصور وأعلام دولته الميامين.

كما ترجم له تلميذه الأمثل الحسن بن أحمد عاكش في كتابه:

«حديقة الزهر» في تراجم القرن الثالث عشر

وترجمه شيخه العلامة إبراهيم بن عبد الله الحوثي في تاريخه:

«نفحات العنبر لفضلاء اليمن الذين في القرن الثاني عشر»

وهذه الثلاثة مؤلفات لم تمتد إليها يد الكتبة بالنشر والتحقيق. وهناك رجال فضلاء عنوا بأخبار تراث شيخ الإسلام بالنشر والتحقيق ووضعوا لها مقدمات بالتعريف بالإمام الشوكاني كمثل الأستاذ الشيخ محمد منير المصري الذي نشر له

إرشاد الفحول، في تحقيق الحق إلى علم الأصول، ونيل الأوطار، شرح منتقى الأخبار وغيرها، وكالعلامة المؤرخ محمد بن محمد زبارة في نيل الوطر ومقدمة الفتح القدير، والبدر الطالع، والأستاذ قاسم غالب وزملائه في مقدم السيل الجرار، الذي طبع منه جزءان. وزاملهم فيهما الأستاذ محمود زايد، ثم تفرّد في تحقيق ونشر السيل الجرار كاملاً شاملاً في أربع مجلدات وقدم له مقدمة ضافية رائعة، وممن سلك هذه الطريق الحسنة الولد الدكتور الحسين بن عبد الله بن الحسين العمري في مقدمة تحقيق ونشر «در السحابة» وفي ديوان شيخ الإسلام كما وعد اعتزامه على تأليف كتاب مستقل في حياة الإمام شيخ الإسلام فحيهلا رافقه التوفيق.

كم ترك الأول للآخر

وأنا ــ أعوذ بالله من قولة أنا، أدلي دلوي بين الدلاء فتجيء بحمأة وقليل ماء وأسهم بوضع لبنة متينة في هذا الصرح الشامخ لدراسة مدرسة وحياة الإمام شيخ الإسلام مستلهماً الجوانب التي تنبض بالحياة والرقة والعظمة وتضيء إضاءة جديدة.

وإن كنت جيئت سكيتاً عاجزاً عن الكتابة التحليلية والصياغة الرصينة والبلوغ إلى ذروة الجودة وقمة الرضا.

كيف وقد بلغت من الكبر عتياً وذهب مني الأطيبان فدقّ عظمي وضعف تفكيري وانسل مني ما كنت منه أتسلى.

وصرت أنسى أنني أنسى

سائلاً من الله حسن الختام وأن يوزعني شكر نعمته ولعل هذا من حسن الختام، وكلٌ ينفق مما أتاه الله.

* * *

عصر الإمام شيخ الإسلام

نتناول دراسة عصر شيخ الإسلام من ناحية واحدة وهي الناحية الثقافية. أما الناحية الاقتصادية والناحية السياسية وغيرهما فقد لمحنا إلى ذلك في كتابنا «حياة عالم وأمير» وإن كانت الحالة السياسية تتطلب مزيداً من البيان وبحاجة لوقفة قصيرة في هذه الوريقات فنقول أن الحالة السياسية في عصر الإمام الشوكاني تعتبر هي الكل في الكل فهو الصمام لدولة الثلاثة أئمة الذين هم الإمام المنصور بالله علي وابنه المتوكل على الله أحمد وابنه الإمام المهدي عبد الله الذين أسلموا للإمام شيخ الإسلام القيادة المهمة وأوسدوا إليه أعظم مرفق حساس من مرافق الدولة وكانوا على حق وبصيرة إذ أعطوا القوس باريها والبيت بانيها ألا وهو القضاء الأعلا الذي ينطوي تحته مهام الدولة وإسعادها وسعادتها فقد قاد الإمام شيخ الإسلام شراع القضاء إلى ساحل النجاة بأمانة وصرامة وإخلاص إذ كانت الدولة أو بعبارة أوضح: الإمامة: في حالة احتضار وفي آخر رمق من حياتها يتردد حشرجة الموت في حنجرتها فتداركها الإمام شيخ الإسلام من السقوط في وحل الفوضى والفساد بحكمته النافذة وعبقريته الفذة وفي كياسة وحذق وأمانة مخلصة بكل ما أتاه الله من مواهب سامية وذكاء خارق، وكان رجل الساعة والمنقذ الوحيد فأمسك بحبل الشريعة الغرّاء مقتدياً وعاملاً بالكتاب والسنّة وما أدى إليه إجتهاده بيد من حديد ورأي سديد وبأس شديد وبتوفيق من الله مديد بعفة ونزاهة وسطوة لا يخاف في الله لومة لائم فسوى في مجلسه بين الغني والفقير والسيد والمسود والقريب والبعيد حتى أمن الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم كما أمنت الدولة هذه الناحية بكل معنى بالأمن والدعة: ولم يترك الثلاثة الأئمة: الإمام الشوكاني للقضاء فحسب، بل

أشركوه في السياسة ومشاورته في مهام الدولة وفي المواقف الحرجة الخطيرة فخاض غمارها في حذر ورويَّة ويخرج منها فائزاً موفقاً.

وقد استبان الأمر واضحاً وجلياً بعد وفاته ووفاة قرينه الإمام المهدي عبد الله كيف انتشرت فوضى الإمامة ومعها الناس بأبشع صورها وأرذل أساليبها وانقلب الكل إلى عوادي كاسرة ووحوش كاشرة. ونرجع إلى الحالة الثقافية في عصر الإمام شيخ الإسلام فنقول غير مبالغين إنه من أنضر عصور اليمن المحصور بين جبال شمخ والمتقوقع بين مدينتي ذمار وصعدة ونموذجاً حياً في العلوم التقليدية والآداب والفنون وبالخصوص علم السنة وكتبها المشهورة المتوقعة وانتشارها في تلك الرقعة بالقوة والاجتهاد بعد أن حرمت منها دهراً طويلاً.

وفيما إذا تجاوزنا عصر الإمام الفيلسوف الحسن بن أحمد الهمداني فإن عصر شيخ الإسلام امتداد قبس من الإمام نشوان بن سعيد الحميري المتوفى سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م فهو أول من فكَّ الحصار على تلك الأفكار الجامدة المتحجرة والمنطوية على نفسها.

ويسري هذا القبس والإضاءة إلى الإمام المجتهد الأواه محمد بن إبراهيم الوزير المتوفى سنة ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م وهو صاحب العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم الذي طبع ونشر أخيراً.

ويتسلم الراية الإمام المجتهد صالح بن المهدي المقبلي المتوفى سنة ١٠٨٥هـ / ١٦٧٤م مؤلف المنار والعلم الشامخ المطبوعين وغيرها.

ويقبض زمامها برتابة ووثاقة الإمام المجتهد الحسن بن أحمد الجلال المتوفي سنة ١٠٨٢هـ / ١٦٧١م مؤلف ضوء النهار الذي نشر حديثاً.

ويضيء هذه المسيرة التَّقيَّة الإمام الحافظ حجة الله محمد بن إسمعيل الأمير المتوفى سنة ١١٨٢هـ / ١٧٦٨م مؤلف سبل السلام وغيره.

ويستن بسنته تلميذه البار التقي الأمير الخطير عبد القادر بن أحمد شرف الدين الكوكباني المتوفى سنة ١٢٠٧هـ / ١٧٩٢م.

ويتوج هذه المجرة الوضاءة والنضال في سبيل الحق تلميذه إمام المعقول والمنقول المجدد المجتهد الحافظ شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م الذي يعد عصره عهد النضوج والرسوخ بل عصر النهضة الحديثة والانقلاب والتغيير كمنذر إلى الثورة المجيدة.

وهؤلاء المصابيح المتألقة في سماء اليمن كل اليمن قد واجهتهم تحديات وعقبات صعبة المرتقى وانحرافات شاذة فذللوا صعابها شأن كل مصلح وصححوا الانحراف ونفوا عنها زغل الجهل بالقوة والصمود والمقاومة.

فالإمام نشوان مثلاً حورب وأوذي من قبل النفوس الضعيفة والعصبية الممقوتة ومن أنصاف الآلهة ولكنه لشدة شكيمته وقوة إيمانه بترهم بمقوله وسيفه البتّار ودفنهم تحت الثرى وبقي العلم المنشور.

وكذلك الإمام المجتهد محمد بن إبراهيم الوزير الذي تحداه بأذى شديد شيخه علي بن محمد المتوفى سنة ٨٢٧هـ وحزبه فقهره وأنزل به وبحزبه الخزي والعار وظل الإمام محمد نجماً متألقاً وضوءاً لامعاً وصوتاً مدوياً لم يأفل نجمه ولا غاب بدره كلما تجدد الزمن تجدد ذكره في حين اختفى ذلك الصوت اللاغب والمعارض اللاهث، والبقاء للأصلح.

والإمام المقبلي قد نال شئبوباً من الآلام والمصائب وطورد فنجا بجلده فجاور بمكة المكرمة ومات بها.

وفي كل واد بني سعد

فقد لقي بمكة المكرمة أعداء نبزوه بأنه «رافضي» فقال مقولته المشهورة:

لأن أكون ناصبياً باليمن خير لي من أن أكون رافضياً بمكة

ولكنه صرعهم وأخفى صوتهم.

وأمّا المجتهد المطلق الكبير والحافظ الشهير محمد بن إسمعيل فإنه لم يقف قلمه ولسانه ووعظه وبيانه ومؤلفاته واجتهاداته على مصارعة التقليد الأعمى بل جهر صوته المدوي عالياً ونادى بكل جرأة وإيمان بالعمل بالدليل وخاض معركة سياسية

بجسارة وشكيمة فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ونشر القصائد الرنّانة والطنانة والرسائل الحماسية والخطب النارية التي ألهبت جلود الطغاة الطغام ورقي المنابر مرشداً ومندداً وواعظاً وهادياً حتى حبس وشرد شأن كل مصلح يستعذب العذاب في سبيل الحق وفي ذات الله. وإذا أردت أن تعرف هذا الإمام المجتهد فانظر ديوانه ومؤلفاته وكتاب ابن الأمير وعصره.

وأما تلميذه الإمام الأمير الخطير عبد القادر بن أحمد شرف الدين فإنه كان له من عشيرته العزيزة ركناً شديداً وحارساً أميناً للذب عنه وعن مبادئه الحقة واجتهاداته الصائبة سالكاً نفس الطريق حتى بلغ الغاية وضرب صيته كل مضرب وهو بحق علماً شامخاً من أعلام اليمن وصفه تلميذه شيخ الإسلام وصفاً دقيقاً وأثنى عليه ثناء عطراً.

وأما شيخ الإسلام فقد أفرغ آلامه وصب أوجاعه وشخّص أحواله وشرح ما عاناه وقاساه في مستهل شبيبته ومبتدإ دراسته وما جيء به من أعداء العلم والفضيلة وأسرى التقليد وخصوم السنّة والقرآن وأعان هؤلاء الزعانف قوم آخرون من ذوي السلطان والشيطان، في كتابه «أدب الطلب» الذي طبع ونشر عن طريق مركز الدراسات والبحوث اليمني على علاته فجزاهم الله خيراً كما أشار إلى محنته تلميذه الشجني في مؤلفه «التقصار» الذي بين يدي القارىء، ص ٩٧ فهما بذلك كفوا مشقة البحث والتنقيب. أما كتب من ترجموا للإمام من معاصريه: فلم يذكروا محنته وما لقي من عنت ومشقة بحلوة ولا مرة بل أسدلوا عليها ستاراً كثيفاً كناسين أو متناسين مع أنها دروس حياة مصلح كبير يقتدي بها الشباب الصالح ويتأسى الخلف بسنة السلف والأبناء بالآباء.

كما أنا لم نسجل محنة الإمام شيخ الإسلام هنا إذ هي كالتكرار وإعادة للمأساة فمن أحب الاطلاع على محنته وكفاحه وبطولته فالتقصار بين يديه وأدب الطالب في متناول اليد فليرجع إليهما وكفى.

هذا وكانت المعركة التي خاضها الإمام شيخ الإسلام مع أسرى التقليد وحيداً فريداً في الميدان فتخلى أعز أصدقائه عنه وأخلص خلصائه حتى مشيخته

فانتصر بفضل ثباته وإيمانه على زعانفة الجهل الذين كانوا يحتشدون عليه المرة تلو المرة والكرة إثر الكرة فمزق شملهم وفرق جمعهم منشداً لسان حاله:

لا أبالي بجمعهم كل جمع مؤنث

وتجلت المعركة على كسر قيود كان مغلغلاً بها المجتمع الصنعاني وأسرى التقليد ولثباته وقوة إيمانه استطاع أن يحقق الآتي:

١ ـ أن أدخل دراسة علم الحديث النبوي وكتب السنة المحمدية كالأمهات الست وغيرها إلى الجامع الكبير بعد أن كانت ممنوعة منذ عهد. وكانت هذه أكبر خطوة جبارة خطاها الإمام شيخ الإسلام بقيامه بالتدريس لذلك في بحبوحة الجامع المقدس.

٢ ـ أن الإمام ترجم أقواله إلى الأفعال فعمل بالسنّة فأظهر التأمين والضم والرفع وكل ما هو ثابت لديه وتبعه الجيل المستنير بما فيهم تلامذته بعد ما كان محرماً في الجامع المقدس وغيره.

٣ ـ انتشار كتاب السنة في الوسط الصنعاني وغيرها مثل ذمار وصعدة وصارت في متناول اليد بالنسخ والنقل والشرح والتعليق من غير ما حرج ولا مشقة.

٤ ـ إعلان اجتهاده بما صح لديه الدليل من القرآن الكريم والسنة المحمدية وكان هذا القيد من القيود المبهمة التي حطمها ومزق إهابها كل ممزق ويتمثل هذا الاجتهاد في أمرين اثنين:

الأول في الفتوى وهذا المرفق عظيم إذ الناس يحتاجون إلى الإفتاء في أمور دينهم وأمور دنياهم وقد تصدر للفتوى وهو في إبان شبابه وصدر حياته وكان يفتي باجتهاداته وما صح لديه الدليل وبلغت شهرته بالفتوى إلى أقصى اليمن فكانت ترد إليه من كل حدب وصوب ويجيب عليها بما صح لديه لا يتقيد بالمذهب الزيدي ولا بغيره لا يخاف في الله لومة لائم.

وكانت فتاويه أحد مصارع أعدائه وإذلالهم ناهيك أنه كان لا يأخذ على فتواه أجراً رغم احتياجه مما كثر تهافت الناس على فتواه وكان يعاتب لعدم قبض الأجرة، فيجيب بقوله:

«أنا أخذت العلم بلا ثمن فأريد أنفقه كذلك».

وفتاويه في مجموع له سيكون البحث عليه إنشاء الله.

الثاني: أنه بث أفكاره وآرائه واجتهاداته في كتبه التي ألفها مثل الفتح القدير ونيل الأوطار وإرشاد الفحول والسيل الجرار وغيرها. كما أفردها في التأليف مثل الدرر البهية ومن نباهته وحذقه وبعد نظره أن مؤلفاته المستقلة كانت مختصرة موجزة مفيدة جداً وكأنه نظر إلى المستقبل البعيد بعين البصيرة وإلى الغيب بستر رقيق وبأن الناس لا يميلون إلا إليها ويفضلونها على المطولات كمثل ما يفعل اليوم وما نشاهده.

اجتاز الإمام شيخ الإسلام هذه المراحل بصلابة وكسر هذه القيود بجرأة ورسّخها في مجتمعه بالعمل حتى صارت مذهباً يعرف بمذهب الشوكاني وترامت اجتهاداته وفتاويه ومؤلفاته إلى «الهند» فتمذهب بها أقوام وطبعت ونشرت كتبه هنالك.

ومما امتاز به عصر الإمام الشوكاني أنها راجت فيه بضاعة الأدب وكثر قالة الشعر وتبودلت المراسلات بين الأدباء بالنظم والنثر وانتظمت مجالس الأنس للمذاكرة والنقاش في سائر العلوم والفنون آمنين مغبة الاجتماع إذ الدولة لا تعبأ لذلك لوجود شيخ الإسلام معهم وفيهم.

كما زخر في عصره التأليف في كل فن خصوصاً في التاريخ وتراجم الرجال التي تعد بالعشرات وكذلك تأليف شروح علم الحديث والتعليق عليها وقراءة المنطق والفلسفة وغيرهما كما زخر بالكتّاب والأدباء الرواد والغرباء فكانت مدرسة الإمام تستوعب هذا كله في أمن واستقرار واعتزاز.

* * *

الإمام شيخ الإسلام رمز المستقبل

هـذه إحدى جـوانب عصر الإمـام الشوكـاني الهمداني وبعض مـلامـح عهده وكمـا كان عصـره عصر نهضـة وتجديـد وتحول وانقـلاب فقد كـان رمزاً للمستقبـل ومؤشـراً للثورة المجيـدة فقد كنت وغيـري من الزمـلاء وجميـع أحرار اليمن نـدرس كتب شيـخ الإسلام ونتتبـع آثاره وآثار زعماء الإصلاح المتقدمي الـذكر فنحن نعتبـر أنفسنا من أحفاد مدرسته ومدرسة الشيـخ محمد عبده المصري وشيخه السيـد جمال الـدين الأفغاني والسيـد محمد رشيـد رضا وأميـر البيان شكيب أرسـلان والكواكبـي وأضرابهم.

مولد الإمام الشوكاني

إنما تكلمت هنا عن مولد الإمام لأنه خامرني الشـك في تحديـد مولـده. ففي مخطوطنا «التقصـار» أن مولـده سنة ١١٧٢ اثنتين وسبعين ومـاية وألف بـالقلم كتابـة وبـالأعداد مصحـح بـالهامش أيضاً وتكرر هـذا من علامتنـا الشجني في ص بينما في ترجمة المؤلف نفسه في البـدر الطالـع ج٢ ــ ٢١٤ أن مـولده سنـة ١١٧٣ هو بالأرقام وباللفظ وكما نعرف أنه يحصل اللبس بين الـرقمين الاثنين والثلاثـة لهذا رجحنا كلام شيـخ الإسلام فصاحب البيت أدرى بالذي فيه والإنسان بصيرة نفسه.

هـذا وإذا جاز لنـا التعليل وإيـراد النكتة بمـذاقة فنجـد أن مولـد الإمام شيـخ الإسلام سنة ١١٧٣هـ / ١٧٦٠م قـد وافق الثورة الفـرنسية والثـورة الأمريكيـة اللتان كان لهما دوي هائل وهزة عنيفة في العالمين الإسلامي والافرنجي إلى أن مولده تزامل مع مولد الثورتين وكان له شأن بلـغ بـه مبلغاً كبيـراً أشبه بمـا يكون انقـلاب فكري وتغيير فهمي وثورة في العلوم والآداب.

* * *

نسب الإمام الشوكاني وتصحيحه ومناقشته

للأنساب أهمية قصوى عند العرب جاهلية وإسلاماً ولليمن الصدارة في هذا المجال.

والإمام شيخ الإسلام قد حذا حذو أعلامنا الأوائل وسلسل نسبه الوضاء إلى أبي البشر صلوات الله عليه لمغزى سياسي عميق أكثر منه مغزى ديني وافتخار مما يدل على نباهته وبعد نظره ورسوخ قدمه في مجال السياسة.

واللبيب الحاذق يفهم كل الفهم ما قصد الإمام شيخ الإسلام وما وراء ذلك من معان سامية لا يحوجني إلى بيان الأمر.

والأديب الشجني في كتابه التقصار: لم يورد نسبه أي نسب شيخه الإمام اعتماداً على ما ساقه في ترجمة والده علي بن محمد الشوكاني في البدر الطالع ج ١ ــ ٤٧٨. وكذلك من ترجم له من ذكرناهم إلا أن الأستاذ قاسم غالب التعزي أدرك المغزى الذي لمحنا إليه فشرح ذلك شرحاً وافياً.

وذكرته هنا للأهمية ثم لتصحيحه ومناقشته وإليك نصه كما في ترجمة والده ثم بعد تصحيحه ومناقشته: قال هو:

علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن صلاح بن إبراهيم بن محمد بن العليف بن محمد بن رزق ينتهي نسبه إلى «خيشنة» بخاء معجمة مفتوحة فمثناة تحتية فشين معجمة مفتوحة فنون فهاء ابن زياد بالمعجمة ثم موحدة مفتوحة مشددة وبعد الألف مهملة بن قسم بن مرهبة الأكبر من مالك من ربيعة بن الدعام الذي كان يذكره الهادي في خطبه لكونه من أنصاره وله العناية في خروجه من الرس إلى اليمن بن إبراهيم بن ردي بن مالك هكذا وقع نسب خيشنه في بعض كتب

الأنساب ووقع نسبه في كتاب الشريف أبي علامة المؤيد المعروف بروضة الألباب في معرفة الأنساب. هكذا خيشنة بن زياد بن قسم ربيعة بن مرهبة بن أجدع بن سعيد بن مسعود بن وائل بن الحارث الأصغر بن ربيعة بن الحارث الأكبر بن ربيعة بن مرهبة الأكبر بن الدعام بن مالك بن ربيعة. انتهى.

وفي مشجر الأشرف الغساني أن الدعام بن إبراهيم هو ابن إياس بن حجل بن عارة بن أزهر بن ثمامة بن سعد بن عارة بن عبد بن عليان. انتهى.

وفي كتاب أبي نصر البهلاوني أن الدعام بن إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن حجل بن الحسين بن عبد الله بن الأزهر بن ناشر بن حجل بن عميرة بن عبد بن عليان بن أرحب بن الدعام بن معاوية.

ثم اتفقوا فقالوا: ابن صعب بن دومان بن بكيل بن خيران بن نوف بن تبع بن عمرو بن همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة: وفي بعض الكتب المذكورة سابقاً ابن الخيار بن ربيعة بن كهلان: ثم اتفقوا فقالوا: ابن النبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود عليه السلام.

ثم مضى في سياق نسبه إلى آدم أبي البشر، عليه السلام.

وقال في آخر ترجمة أبيه وإنما قلت أن رزق ينتهي نسبه إلى خيشنة ولم أقل رزق بن خيشنة لقصد الاحتياط لأن الشك معي حاصل.

وهذا سياق نسب الإمام الشوكاني الهمداني على وجه الصحة والاتفاق هو: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن صلاح بن إبراهيم بن محمد بن العليف بن محمد بن رزق بن خيشنة بن زياد بن زيد بن معاوية بن عامر بن ربيعة بن أجد بن سعد بن مسعود بن وائل بن الحارث الأصغر بن ربيعة بن الحارث الأكبر بن مالك بن ضيغم بن محمد بن الأزهر بن الحسين بن محمد بن الحسين بن الأمير الخطير الدعام بن إبراهيم بن عبد الله بن إياس الأصغر بن الأزهر بن إياس بن حجل وهو عبد الله بن عميرة بن الأزهر بن عميرة بن سعد بن عبد بن عليان بن أرحب.

وفي عبد بن عليان يلتقي نسب الإمام الشوكاني والإمام الفيلسوف أبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني مؤلف الإكليل وغيره من العلوم والآداب.

وأرحب واسمه مرة بن الدعام الأصغر بن مالك بن ربيعة بن الدعام بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان بن بكيل بن جشم بن حيران بن نوف بن همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن نبي الله هود عليه السلام وبقية النسب إلى آدم أبي البشر معروف. والأمير الخطير الدعام بن إبراهيم بن عبد الله بن إياس هو الذي يقول فيه الهمداني في الجزء العاشر من الإكليل، ص ١٧٩ سيد همدان والزايد على من تقدمه نجدة وفروسية وجوداً وحلماً ونباهة ووفاء وصبراً وصوناً وأطال الثناء عليه إلى أن قال: ثم لام العلوي يحيى بن الحسين بعد ذلك وأسلم إليه بلد همدان فأنت ترى من هذا أن الدعام لا عناية له بخروج العلوي من الرس إلى اليمن.

وانظر سيرة الهادي كيف يشتم الدعام جزاء إحسانه وهكذا صنيعهم مع زعماء اليمن.

ومصداق كلام الإمام الشوكاني الهمداني في سلسلة نسبه إلى الأمير الدعام هو ما نسوقه لك عن غاية الأماني ليحيى بن الحسين بن المؤيد بن القاسم المتوفى سنة ١٠٩٠هـ، ص ٢٠٤، قوله وفي هذه السنة أي ٣٠١هـ خالف أولاد الدعام وفارقا أباهما ووثبا على مدينة «غرق» فنهباها وأخرباها بعد أن خرج منها عباد بن عبد الله عامل الناصر بن الهادي إلى المراشي فالتجأ إلى جبل ملح ثم إلى بران فهزمهما إلى جبل نهم ثم إلى مراد واستعمل الناصر على «غُرق» علي بن محمد العلوي وعلى أثافت أخاه القاسم بن محمد وخرج الناصر في طلب ابني الدعام.

حتى غشيهم والتجأ إلى ملح وبران ثم إلى حريب ثم إلى خولان العالية.

فأنت ترى من هذه الوثيقة أن ابني الدعام التي صرحت بعض المصادر أن أحدهما الحسين بن الدعام أحد أجداد الإمام شيخ الإسلام نزح مع أخيه إلى خولان العالية ومن خولان العالية في شوكان وأثروا فيها وتناسلوا إلى أن أنجبت هذه الأسرة الكريمة علماً من أعلامها ذائع الصيت ألا وهو الإمام شيخ الإسلام الشوكاني الهمداني الذي شرفت به شوكان كما شرفت أرحب بالإمامين الإمام الفيلد الحسن بن أحمد الهمداني وبالإمام محمد بن علي الشوكاني الهمداني.

وغرق بضم المعجمة وفتح الراء وقاف آخر الحروف كانت مدينة بالجوف وهي التي تسمى سوق الدعام وبرَّان وملح قريتان حيَّتان من نهم ومسورة بلدة آهلة بالسكان لمرهبة في نهم والمراشي وادي وجبل من برط: وحريب هي التي تسمى اليوم حريب القرامش معروفة: ومراد قبيلة مشهورة من مشارق ذمار وأُثافت بضم الهمزة وثاء مثلثة وآخره تاء مثناة من فوق كانت مدينة في حاشد في بني صريم وهي اليوم ومن قبل خراب.

المناقشة لما ساقه الشوكاني في نسبه

١ ـ أنه حصل للإمام الشوكاني الشك فيما بين رزق وخيشنة واعتذر وعذره مقبول وصححنا ذلك من مشجر علامه كما أن علامه قال وأكثر عقب: خيشنة بمشارق صنعاء ونواحي بني بهلول وهذا مصادف لكلام الشوكاني.

٢ ـ إن الإمام رفع نسبه إلى قسم بن ربيعة ثم إلى مرهبة ثم إلى الدعام فخلط بين مرهبة وبين الدعام على أساس أن الدعام من ولد مرهبة والحال أن مرهبة بن الدعام الأصغر أخ لأرحب بن الدعام الأصغر ثم تسلسل من مرهبة بن الدعام الأصغر بطون مذكورة في الجزء العاشر من الإكليل كما تسلسل أرحب بن الدعام الأصغر إلى بطون مذكورة في الجزء العاشر من الإكليل ومن بطن عبد بن عليان بن أرحب بن الدعام الأصغر تسلسل نسب الشوكاني إلى الأمير الخطير الدعام بن إبراهيم بن عبد الله بن إياس عن طريق ابنه الحسين بن الدعام وإلخ.

فلا يمت إلى مرهبة بن الدعام الأصغر بأي سبب كما سقنا النسب واضحاً ووصلنا الفروع بالأصول على وجه الصحة من أوثق المصادر وأصحها وأعلاها الجزء العاشر ثم من مشجر علامة وغيرها.

٣ ـ إن الإمام الشوكاني وهم بأن الأمير الدعام بن إبراهيم كان له عناية بدخول العلوي يحيى بن الحسين إلى اليمن من الرس وإنما الذي جاء بالعلوي المذكور هم آل بني فطيمة من خولان قضاعة كما في سيرة الهادي والجزء الأول من الإكليل.

* * *

شخصيَّة الإمام شيخ الإسلام

حدثني والدي غير مرة عن والده الحسين بن أحمد الأكوع الحوالي أنه عرف الإمام شيخ الإسلام معرفة عيان ومشاهدة ومجالسة عندما نزل الإمام المهدي عبد الله إلى اليمن الأسفل وشيخ الإسلام معه ومكثا بمدينة ذمار أياماً. وأن شيخ الإسلام ربعة القامة عظيم الهامة كأنه من رجال شنوءة كريم الأخلاق متواضعاً موطي الأكتاف رحب الذراع.

وقال تلميذه لطف الله جحاف الهمداني وله رغبة ومحبة في العلم وما رأيت أنشط منه في التدريس وفيه نفاسة ومحبة للاجتماع بالصدور من الناس محباً للعيشة الأنيقة ولبس الثياب الفاخرة مع انسجام طبع ورقة.

وعلى كل فإن شخصية الإمام شخصية فذة فرضت نفسها على المجتمع اليمني قاهرة لأهل زمانه وهبه الله لليمن ولليمنيين متين الأخلاق والصبر على المكاره ولؤلؤة ثقبتها عناية الله.

أقوال علماء الإسلام في شيخ الإسلام

عده الأستاذ الكبير الشيخ أحمد أمين المصري الكاتب المشهور في كتابه: زعماء الإصلاح، ص٢١ من زعماء الإصلاح وكفى بشهادة هذا الإمام فخراً وسؤدداً: فقال وفي اليمن ظهر أعلم علمائه وإمام أئمته وهو الإمام الشوكاني المولود سنة ١١٧٢هـ «كذا»: والذي سار على هذا النهج وألف كتابه القيم «نيل الأوطار شارحاً فيه منتقى الأخبار» عارضاً فيه الأحاديث النبوية مجتهداً في فهمها وفي استنباط الأحكام الشرعية منها ولو خالف المذاهب الأربعة محارباً التقليد داعياً إلى الاجتهاد غير مبال بما حدث من حروب كلامية شعراً بينه وبين علماء زمانه كان أشدها في

صنعاء مما اضطره إلى أن يؤلف حول ذلك رسالة سماها «القول المفيد في حكم التقليد» ساق فيه كما جرى فارجع إليه.

كما اعترف بعظمته الإمام مفتي الديار المصرية في حينه محمد عبده وتلميذه السيد محمد رشيد رضا فقد كان اعتمادهما على كتب الإمام شيخ الإسلام في التفسير وأصول الفقه والاجتهادات: وكذلك الشيخ محمد منير الذي سارع إلى طبع ونشر بعض كتب الإمام الشوكاني.

ومرة اجتمعت بالقاهرة المعزية بالشيخ العلامة عبد القادر عطا من كبار مشايخ الأزهر وتجاذبنا أطراف الحديث إلى آن مرينا بالإمام شيخ الإسلام فقال بما لفظه: ذلك عالم فظيع أين كتبه نطبعها وننشرها.

وهناك مقولات أخرى لعلماء أجلاء ركناها رعاية للاختصار فالعظيم عظيم في كل مكان وزمان.

«شجاعة الإمام الشوكاني وبطولته»
الرأي قبل شجاعة الشجعان

والإمام قد جمع بين أصالة الرأي وشجاعة القلب والجنان وتلميذه الأديب محمد بن الحسن الشجني لم يقصر في حق شيخه فتناول هذه الناحية فذكر بطولة شيخه من الطفولة وما بعدها في ص ٢٨ وص ٤٨، ٥١، ٥٤، وإنما نذكر هنا بطولته الأدبيّة والمعنوية فإنها هي الشجاعة الخارقة وفي كتابه «أدب الطلب» ما يغني عن الخبر فقد بذل نفسه وأي أغلى من النفس في ذات الله فريداً وحيداً في أيام شبيبته التي يحرص كل إنسان أن يعيش فيها منعماً منغمساً بلذات الحياة.

فمن شجاعته الأدبية المعنوية إصدار فتاويه بما ثبت لديه بالدليل وبالاجتهاد ولو خالفت كما قلت المذاهب الأربعة والمذهب الزيدي الهادوي بالذات وإقبال الناس والعمل بها ومن هذا الاقبال تخوف أنصاف الآلهة فأعلنوها حرباً عليه وأقاموا الدنيا وأقعدوها دونما جدوى لرسوخ قدم الإمام وقوة جأشه وعدم الاكتراث بهم.

ومن شجاعته أنه تناول «متن الأزهار» الذي يعده الزيدية «الكتاب المقدس»

بالشرح المسمى السيل الجرار ونقض عقده واحدة واحدة سيما المراكز المهمة من جملتها غسل الفرجين وإنه من أعضاء الوضوء ومثل حي على خير العمل أنها من ألفاظ الأذان وغير ذلك فارجع إليه أي إلى السيل الجرار فهو مطبوع وفي متناول اليد لتعرف الإمام وقدرته وعلمه وثباته.

ومن بطولة الإمام أنه درس السيل الجرار في الجامع الكبير وحضر تدريسه العلماء الكبار وأولاد الخلفاء وغيرهم للاستماع منه وهم له كارهون ولم يبال بذلك سوءاً.
ومن بطولاته أنه أهدى بنسخة من السيل الجرار بخطه وأوقفها لخزانة مدرسة ذمار تحدياً للرفض وأسرى التقليد، انظر ص ٩٧ من التقصار.

ومن بسالته النادرة أنه تناول كتاب شفاء الأوام للأمير الحسين بن بدر الدين المتوفى سنة ٦٦٢هـ بالحاشية والتعليق عليه المسمى «وبل الغمام» على شفاء الأوام الذي سيظهر بتحقيقنا مطبوعا إن شاء الله.

وشفا الأوام الذي يقول فيه بعض الأدباء من منظومة له:

* ما في الشفا شفاء *

والشفاء كما ستطلع عليه قريباً محذوف الأسانيد وأكثره مراسيل ودرسه في الجامع الكبير بعد شرحه وتشريحه وحضر تدريسه عالم من العلماء وكم له من هذه المواقف البطولية في عصر قائم على العصبية المذهبية والسلالية المتعجرفة.
وأما بطولته القيادية للجيوش وعند أزمات النفوس فيكفيه فخراً وقفته الجبارة في حادثة كوكبان، ص ٦٠ من التقصار حيث سلم الإمام المهدي عبد الله قيادة الجيش لشيخ الإسلام وغادر المعركة إلى صنعاء فوقف الإمام في المعركة وعالج الموقف بشجاعة نادرة وحنكة سياسية فائقة حتى قادهم إليه وأنزلهم على حكمه بدون سفك قطرة دم وأدخلهم صنعاء وهذه هي البطولة من رجل علم وتقوى.
ومثل ذلك موقفه مع ابن سيف الدين العلفي والضلعي والفاليعي وعلي بن سعيد الحاج العنسي وموقفه مع أسرة الإمام المهدي عبد الله التي حكيناها في ص ٦١ من كتابنا عالم وأمير، الجزء الأول. وله مواقف بطولية غير هذه.

* * *

زهد الإمام شيخ الإسلام وعفته ونزاهته

تناول الأديب الشجني زهد شيخه ونزاهته وعفته، بما يغنينا عن الإعادة ولكننا نتلمس الجوانب المضيئة المتروكة.

ففي الأثر: «وازهد عمّا في أيدي الناس يحبك الناس» وما أعظم هذا الأثر في النفوس وكيف يأخذ بمجامع القلوب لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وغنى النفس والقناعة كنز لا ينفد

والزهد والعفة هو التقشف في المطعم والمشرب والملبس وعدم مد اليد بالسطو على أموال الناس بالقوة أو مدها باحتراف والسؤال أعطوك أم لم يعطوك.

وشيخ الإسلام زهدت نفسه وهو في إبان شبابه وفي حاجة ماسة فقد كان يصدر الفتوى بدون أجر ويقول مقالته السالفة الذكر. كما زهد عن أموال الناس في حال غناه حينما تربع أريكة القضاء الأعلا وصار في قبضته السلطتين الروحية والسياسية وكان الحاكم بأمره وأغدق عليه الثلاثة أئمة بالمقرر الواسع الذي حكاه تلميذه لطف الله بن أحمد جحاف الهمداني في ترجمة شيخ الإسلام بقوله:

وأقطعه صدقات «رصابه» وجبل اللوز، وصدقة الرونة، وسعوان وشوكان وشوبان وتنعم وشيئاً واسعاً غير هذا؛ ومن صدقات بيت راجح وأضاف إليه صدقة بيت قبّان وصدقة بيت الحيمي وصدقة بيت التوهمي.

هذه قرى نذكرها إجمالاً فرصَابَهْ قرية كبيرة في أسفل حقل جهران وجبل اللوز معروف في خولان العالية وكذلك تنعم والرونة بلدة من سعوان وسعوان من خولان شرقي شعوب صنعاء وشوكان بلدة ومسقط رأس الإمام شيخ الإسلام وشوبان بلدة على لهوة سد شاحك من خولان العالية وبيت قبان وبيت راجح وغيرهما أسر لهم أوقاف باقية إلى يومنا هذا.

ورغم ضخامة موارد الصدقات هذه كما يبدو فقد كان الإمام شيخ الإسلام غني النفس ينفقها في سبيل المعروف لذوي قرابته وللأرامل والأيتام والسائل والمحروم ولم يستحوذها لنفسه فلا فجر عيناً ولا بنى بيتاً ولا ملك أرضاً ولا تطاول عنقه للرشوة ولا مد يده لحطام الدنيا ولا ولا.

وقد حكينا قصة استقالته وأنه ما كان يملك غير الدواة التي أرجعها للإمام في كتابنا عالم وأمير، جزء أول، ص ٦٠. وكما حكاه تلميذه الأديب الشجني في التقصار، ص ٧٢ أن الإمام شيخ الإسلام افتقر إلى الإنفاق والصدقة والمواساة في سنة الحطمة إلى أن يسلِّم سلاحه ـ السيف ـ إلى تلميذه العلامة يحيى بن المطهر لينفقه لمن يراه مستحقاً وأنه لم يبق معه وفي حوزته غير هذا السيف سلاحه الوحيد.

أما سلاحه العلمي فإنه ينفقه كل حين في مصابرة وجهد.

الإمام شيخ الإسلام المجدد المجتهد

جاء في الأثر من اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر كما جاء في حديث معاذ بن جبل الأنصاري لما أرسله النبي ﷺ إلى اليمن حين سأله إذا قدمت عليهم اليمن فاحتكموا إليك فبم تحكم بينهم قلت بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قلت: بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قلت: أجتهد رأيي فقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله.

والله سبحانه وتعالى قد منح العقل السليم حق التصرف في مصالح أمور دنياه فيما لم يرد فيه أية قرآنية ولا سنة نيّرة وجعل العقل مناط التكليف وخاطبه في غير ما آية بأولي الألباب ولقوم يعقلون. وقال إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي المتوفى سنة ٢٠٠ مائتين من الهجرة كل قول يرد على صاحبه إلا صاحب هذا القبر. وأشار إلى الضريح الشريف ﷺ وقال الإمام محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ أربع ومائتين مخاطباً لأصحابه: إذا صح الحديث فارموا بقولي وراء الحائط وكذا قال الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٥٠ خمسين ومـاية ومثلهما قال الإمام عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي الحميري المتوفى سنة ١٥٧هـ سبع وخمسين ومائة. ومثلهم قال الإمام أحمد بن حنبل

الشيباني المتوفى سنة ٢٤١ واحد وأربعين ومائتين وغيرهم من الأئمة الكبار المعول عليهم والمرجوع إلى أقوالهم قالوا بهذه المقالة ولكن جاء بعدهم أصحابهم وأتباعهم فجمدوا على التقليد ثم أوصدوا أبواب الاجتهاد وأغلقوها بأغلاق الجمود والعصبية وإلا ففيهم فطاحلة مثل الإمام العز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء ومثل ابن دقيق العيد والحافظ ابن حجر العسقلاني وأضرابهم من الأعلام الشوامخ.

والمذهب الزيدي الهادوي فتح باب الاجتهاد على مصراعيه ولكنه حبر على ورق فمن قام وخرج منهم مجتهداً مثل من ذكرناهم آنفاً رموه بالكفر ومزقوا إهابه وسلقوه بألسنة حداد.

فهذا الإمام الكبير نشوان بن سعيد الحميري يقول في مقطوعة له:

إذا جادلت بالقرآن خصمي ... أجاب مجادلاً بكلام يحيى

فقلت كلام ربي عنه وحي ... أتجعل قول يحيى عنه وحيا

ويقودهم الجهل إلى أن يملأوا حواشي شرح الأزهار بعد أن يوردوا الحديث النبوي بقولهم «والمذهب خلافه».

فأين الفرار من قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فما أتاكم الرَّسُولُ فَخذُوه ومَا نَهاكُم عَنْه فانتَهوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إن كنتم تحِبُّونَ اللَّه فاتَّبِعُوه﴾.

وقوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رَسُولِ الله أسْوَةٌ حَسَنَة لمن كَانَ يرجو الله واليومَ الآخِر وذكر الله كثيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

والأحاديث في هذا كثيرة.

والتقليد والتشيع فرسا رهان يقودان صاحبهما إلى عبادة الأوثان.

والإسلام دين توحيد لا شرك فيه.

وقال الحافظ ابن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦هـ:

العلم قال الله قال رسوله ... والنّصُ والإجماع فاجهد فيه

وحـذار من نصب العداء سفاهـة بـين الـنبـي وبـين كــل فـقيــه

وقال الإمام المجتهد محمد بن إبراهيم الوزير من مقطوعة له:

العلم ميــراث النبـي كــذا أتى في النص والعلمــاء هم وراثــه
مـا ورث المختـار غيـر حـديثـه فينــا فـذاك متــاعــه وأثــاثــه

والإمام شيخ الإسلام خاتمة المجتهـدين والمجددين الـذي نحر التقليـد في عقر داره له القصائد الرنانة الموجودة في هذا السفر والرسـائل الحـاسمة والمؤلفـات الزاخرة في التشديد على أسرى التقليد إلى أن قال في بعض كتبه:

والذي أدين الله به أنـه لا رخصة لمن يعلم من لغـة العرب مـا يفهم به كتـاب الله بعـد أن يقيم لسانـه من علم النحو والصـرف وشطر من أمهـات كليات الأصـول الفقه في ترك العمل بما يفهمه من آيات الكتاب العزيز فإذا انضم إلى ذلك الاطلاع على كتب السنـة المطهـرة التي جمعهـا الأئمـة المعتبـرين وعمـل بهـا المتقـدمـون والمتـأخرون كـالصحيحين وما يلحق بهمـا إلى أن قال: فلم يـأت في هذه الشـريعة الغراء ما يدل على وجه التمسك بالآراء بل جاء في كتاب الله على لسان رسول الله ﷺ الآيات البينات مثل وما أتاكم الرسول فخذوه وساق الآيات السالفة الذكر.

معطيات الإمام شيــخ الإسلام

إن معطياتـه جسيمة وضخمـة وفي ذروة الجودة والكمال والاتقان كجـود يديـه وغنى نفسه وشجاعة جأشـه لا من حيث الكثرة بـل من حيث الاستفادة ومحتـوياتهـا فهولـم يبخل عن التـأليف في شتى العلوم المعروفـة لذلـك التاريـخ ورزقت مؤلفـاته تلك الحظوة في حياته وبعدها إلى ما شاء الله.

قال تلميذه لطف الله جحاف الهمداني في ترجمته لشيخه المذكور:

وله مصنفات تدل على قوة الساعد وسعة الاطلاع ورزق السعادة في تصانيفـه مـع القضاء وتناقلها من يلوذ به وذكروها في دروسهم ثم عدد بعض مؤلفاته.

وتلميـذه العلامـة الشجني بلَّ الله ثـراه قد استـوعب مؤلفات شيخـه في نفس التقصـار إلا ما نـدَّ عليه كمـا تجد ذلـك في ص ٩٦ حيث قال: أعـدها ولا أعـددها ونحن نشـارك المذكـورين في تسجيل كـل مصنفـاتـه مـرتبـة على حـروف المعجم

وسنشير إلى ما طبع منها وما لم يطبع وما ذكره الشجني وما ندّ عنه.

هذا وأهيب بشباب الثورة وشباب الجامعات وبالأدباء والكتاب أن يقوموا بتحقيق ونشر كتب الإمام شيخ الإسلام وغيره ممن ذكرناهم مصابيح الدجى ومنارات الهدى فهم مسؤولون أمام الوطن والأجيال المتلاحقة وأن لا نكون عالة على غيرنا.

ملاحظات

من الملاحظات التي دعتني إلى تسجيلها أن السعادة التي رزقت مصنفات شيخ الإسلام وانتشارها شرقاً وغرباً وتقبلها الجمهور بالقبول وكونت في الهند مذهباً لأمرين اثنين:

١ ــ الأمر الأول سعادة الله وعنايته بهذا الرجل الفذ منذ شب عن الطوق ومن المهد إلى اللحد والسعادة لا شك أرزاق وهو أمر لا غبار عليه.

٢ ــ الأمر الثاني هو نفس الشيء فقد لاحظته السعادة وعناية الله باعتلائه منصب القضاء الأعلا وصار في حينه الكل في الكل فزاده هذا المنصب علواً ورفعة وانتشار صيته وذيوع ذكره والناس بطباعهم يقبلون على ذي الولاية والرياسة ويلتمسون منه النفع والافادة ويتحببون إليه بكل وسيلة لقاء عوض خصوصاً من مثل هذا الإمام.

مع أن تبادل المنافع بين الناس أمر ضروري وعلى حد قول الأول:

* لا بد للناس من الناس *

ولكن ما بال السعادة لاحظته في مصنفاته واجتهاداته بعد مماته، قلنا هي عناية الله والله يؤتي فضله من يشاء.

عناية الله أغنت عن مضاعفةٍ من الدروع وعن عال من الأُطم

وأضرب لك مثلاً وعلى سبيل المثال أن الإمارة والسلطان يجذبان الناس إليهما.

الإمام يحيى بن حمزة المتوفى بهران مدينة ذمار سنة ٧٤٩هـ ذي التأليف

الكثيرة والعديدة المفيدة والتي تعد أصولاً لمؤلفات الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى المتوفي سنة ٨٤٠هـ كيف هي كاسدة مهجورة بين المجتمع اليمني وغيره اللهم إلا النادر قد طبع على أيدي كريمة غير يمنية وكيف انتشار كتب الإمام أحمد بن يحيى المرتضى خصوصاً مؤلفاته الفقهية كالأزهار والبحر وكيف تناقله المجتمع الزيدي بالنسخ والقراءة والشرح والتعليق والاختصار. وامتلأت الخزائن بها والعمل بما فيها ونسخت حتى مؤلفات أهل عصره كالزهور للقاضي يوسف بن عثمان المتوفى سنة ٨٣٢ والتذكرة للعلامة النحوي والكواكب وغير ذلك. وما تلك إلا الحظوة والسعادة التي رزقت كتب الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى وإلا الامارة وتسلسلها والإمامة وتنقلها في أحفاده الذين منهم الإمام شرف الدين المتوفى سنة ٩٦٥هـ فهؤلاء رسَّخوا العقيدة في كتب جدهم فتقرب الناس إلى القراءة بها والاعتناء فيها بالنقل والنسخ وغير ذلك وما ذاك إلا الولاية جذبتهم إلى ذلك لينالوا حظاً من الدنيا.

ومثل ذلك مصنفات ابن حجر العسقلاني الشافعي والإمام محمود العيني الحنفي كيف اشتهرت مؤلفات ابن حجر وكسدت كتب العيني لكثرة ولاية الأول وعَكَسها في الثاني إضافة إلى العناية بكتب الحافظ ابن حجر من أهل مذهبه.

هذه نظرية ربما أنها أصابت المحز والله من وراء القصد.

وفاة الإمام شيخ الإسلام وأين دُفن

كانت وفاة الإمام سنة ١٢٥٠هـ - ١٧٦٠م ودفن بمقبرة خزيمة المشهورة التي كانت تسمى قديماً «المضمار» الذي وقفه مقبرة لأهل صنعاء ابن المنذر الحميري كما ذكره الإمام الحسن بن أحمد الهمداني في الجزء الثاني، ص ٦٧، طبعة ثالثة.

راجع كتابه الإكليل

ولم يذكر الوفاة تلميذه العلامة الشجني رغم أنه عاش بعد شيخه ستاً وثلاثين سنة وبعد تأليفه «التقصار» الذي انتهى منه سنة ١٢٤١هـ ولم يلحق في كتابه المذكور وفاة شيخه ولا الأحداث التي تلاحقت بعد ذلك والعذر للعلامة الشجني أن بوفاة شيخ الإسلام انفرط ذلك الصمام وشبت نار الفوضى وتضعضعت الأحوال وظهرت حسائف النفوس وأضغان القلوب وصار كل أمر مشغول بخويصة نفسه ورهين كسبه وقد اعتذر له الإمام بن الإمام أحمد بن محمد بن علي الشوكاني في

كلمته التي في ديباجة التقصار التي صورناها بما نصه.

وذلك بعد الديار وعدم كمال الاختبار.

وهذا وإن كان من الأعذار ولكن العذر ما ذكرناه ثم إن العلامة الشجني امتحن بالسجن والنفي إلى صنعاء كما نبين ذلك قرْيباً فلم يتسنَّ له الإضافة إلى كتابه التقصار.

الإمام الشوكاني والإمام الأرعن الناصر

جرت للإمام شيخ الإسلام قضيتان بعد وفاته رفعته قدراً وزادته فخراً أحدهما بعد وفاته ولم يذكرها غير الحرازي في حوليات يمانية، ص ٦٧.

والقضية الثانية في عصرنا.

فالأولى أنه لما قام الإمام الناصر عبد الله بن الحسن بن أحمد بن الإمام المهدي العباس في خضم الفوضى سنة ١٢٥٦هـ وكان شديد العصبية متهوراً في قمع أهل السنة وإحياء البدعة فسولت له نفسه ومزاجه المحترق مع بعض أنصاره الذين على شاكلته أن ينبشوا على رفاة وجثمان شيخ الإسلام وإحراقها علناً بعد إخراجها فكان قدرُ الله أقدر من دسائسهم إذ قام في وجوه هؤلاء الشرذمة بعض العلماء وذوي الرأي فصدوهم عن هذه الجريمة النكراء وخوفوهم بقيام ثورة عارمة ضدهم فارتدعوا وماتوا بغيظهم ونكسوا على أعقابهم.

القضية الثانية التي في عصرنا هي أن الحكومة الجمهورية العربية اليمنية لما رأت اضطراراً إلى توسيع الطريق العامة الممتدة غرباً إلى عصر وشرقاً إلى باب اليمن لتلتقي طريق صنعاء الحديدة بطريق صنعاء تعز وطبيعي أنها تمر على مقبرة خزيمة المليئة بالأموات من جميع الطبقات وصادف أن قبر الإمام شيخ الإسلام الذي ما زال معروفاً جاء على مخطط الطريق فاجتمع العلماء وفي مقدمتهم وزير التربية والتعليم الأستاذ قاسم غالب التعزي وقرروا نقل رفات جثمان الإمام من مضجعه الأول الذي شق منه الطريق المعروف اليوم بشارع الشهيد محمد بن محمود

الزبيري وكـان نقله في موكب جنـائزي رائـع إلى مسجـد الفليحي المعروف وصلى عليه بعد تكفينه وتحنيطه من جديد وأقيمت له فيما بين صلاة العشائين في المسجـد المـذكور حفلة تـأبين كبيرة حضـرها العلمـاء والكبراء والـوزراء وغيرهم وكـان هـذا الحادث في شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٣٨٦هـ الموافق ١٩٦٧م.

فرحم الله الإمام شيـخ الإسلام فقد كان سعيداً حيـاً وميتاً وعنـاية الله تـلاحظه وعين الله تـرعاه. انتهى تسجيـل الأضواء على عصـر الإمام شيـخ الإسـلام وحياتـه الحافلة بجلائل الأعمال.

فإلى تلميذه مؤلف التقصار:

* * *

التعريف بمؤلف التقصار

إن التعريف بالمعرفة بمثابة تحصيل الحاصل:

والشمس إذ تخفى على ذي رمد نصف النهار فذاك محصول العما

ولكن جرت العادة بمثل هذه الحالة وعلى هذا النمط أن يترجم لمؤلف الكتاب ويتحدث عن شخصيته ويقدمه للقراء بصورة متكاملة الملامح.

وكحق واجب واعتراف بفضله ولما قدمه لوطنه ورهطه وخدمته للعلم.

فهو العلامة القاضي محمد بن الحسن الشجني كان صدراً من الصدور الكبار وطوداً عالياً لا يجارى في مضمار سباق غايات وصاحب آيات تزينت به مدينة ذمار كزينة السماء بالكواكب وأبهى من الجواهر في أجياد الكواعب:

قاض إذا التبس الأمران عن له رأي يفرق بين الماء واللبن

ولقد أحسن الأديب العلامة الشجني بأسلوبه اللبق بتكليف بعض أدباء عصره أن يترجم له في متن كتابه «التقصار» ص ٤٠٢ فأغنانا عن الإشادة به وبمؤلفه ولكن كيلا تخلو مقدمتنا من الإسهام بهذه الفضيلة وبث ما لدينا من معلومات كان الحري في هذا المضمار خصوصاً ولن نسوق الترجمة كاملة بل نكتفي من القلادة ما أحاط بالعنق ومن الأثر بالموثر ونقتطف غرتها لدلالة البعض على الكل ونحيل القارىء إلى صلب الكتاب ص ٤٠٢، قال:

هو القاضي العلامة الأديب الفرد الكامل الفهامة الأديب المتصرف ببلاغته وفصاحته في بدائع المحاسن ومحاسن البدائع كيف شاء والمحلي جيد بلده العاطل عن فضيلة الأدب بعقود فرائد نظمه والإنشاء مالك أعنة القوافي وناهج طريقها والمشار إليه بين الأدباء بترجيعها وتنميقها: الناظم لحلى عقودها والراقم لوشي برودها هذه هي الغرة الشادخة التي اقتطفناها من الترجمة ثم ذكر مولد المؤلف وأن ذلك سنة ١٢٠٠هـ مائتين وألف من الهجرة النبوية أو بعدها بقليل ثم سلسل نسبه كما ترجم لوالده في ص ٣١٧.

أضواء على نسب العلامة الشجني

نورد نسب العلامة الشجني على ما حكاه مترجمه ثم نلقي أضواء على ذلك، قال: هو محمد بن الحسن بن علي بن ناصر بن عبد الله بن علي بن أحمد بن إسمعيل الشجني الذماري بلداً ووقف النسابون عند إسمعيل الشجني الذماري كما أن المترجمين لمؤرخنا الشجني لم يناقشوا لفظ: الشجني هل هو منسوب إلى بلد أو إلى غير ذلك.

ونحن نسلط عليه أضواء كاشفة. فالشجني نسبة إلى شجن بكسر الشين المعجمة وسكون الجيم ثم نون وشجن هي التي كانت تسمى قديماً شجنان بن يعرب بن قحطان بن هود عليه السلام فهو ذا منسوب إلى البلد.

وسميت شجن بعزلة من ناحية مغرب عنس الذي كان يسمى قديماً مخلاف مُقرى ويسكنه آل مغيث وآل الأوزاع الحميريين ويشكل اليوم ناحية مربوطة بأعمال ذمار.

فآل الشجني من جذم قحطان بن نبي الله هود عليه السلام نسبوا إلى شجنان وهذا بعيد وإلى المغيثيين والأوزاع وهذا أقرب للصواب.

وبيت الشجني متأثل في القدم عامر بالعلم والتقوى والثرى اتخذوا من مدينة ذمار وطناً ومسكناً.

ومنهم الحجة علي بن أحمد بن ناصر الشجني أحد أعلام ذمار المقررين للمذهب الزيدي الهادوي وفيهم اليوم بقية صالحة.

هذا وما زال المترجِمُ لمؤرخنا الجليل ينحدر لؤلؤاً في نعوته إلى أن بلغ قوله: قال شيخ الإسلام وقد أطربته قطعة كتبها إليه بعد وقعة بئر العزب في القضية الشهيرة لما استولى عليها البغاة في عام ثلاث وثلاثين ومائتين وألف، وكان شيخ الإسلام مقيماً بها فكتب إليه صاحب الترجمة كتاباً يهنئه بالسلامة من المعرة قوله انظر إلى هذه البلاغة البليغة التي جاء بها صفواً عفواً من دون تكلف في تعريف

معاهده زاد الله في رجال الكمال من أمثاله. انتهى. انظر ص ٤٠٢.

وقال جامع هذه الترجمة للمؤلف غفر الله له: قال شيخ الإسلام في حق المترجم له وقد جمع مؤلفاً في ترجمتي وذكر فيه شيوخي وتلامذتي وقد أوقفني على كراريس منه وكل من وقف عليه من العلماء انبهر لبلاغته وحسن مسلكه وجودة فقره وبلاغة كلماته.

سمع على شيخ الإسلام في صحيح البخاري مع جماعة من علماء ذمار عند وصوله إلى هنالك مع الإمام المهدي رحمه الله وله عليه سماعات في بعض كتب الأدب مع وفادات يفدها صاحب الترجمة إلى صنعاء تقضي وصوله لدفع ما يرد على أهل بلدة من الواردات التي لا يعتادونها وقد فاز بالقدح المعلا، ودفع عنه بسعيه كل بلوى.

وقد أجاز له شيخ الإسلام في جميع معلوماته ومسموعاته وإجازاته ذكرت بلفظها. انظر ص ٤٠٣.

وكانت إجازة شيخ الإسلام لتلميذه في رجب سنة ١٢٢٩هـ وعمر التلميذ تسع وعشرون سنة مما يدل على نبوغه وحيازته الشرف مبكراً.

أعجوبة

من الفقر التي سقناها قريباً من كلام شيخ الإسلام في تلميذه محمد بن الحسن الشجني البار التقي الذي صار منه أكثر من ابن وأعظم من تلميذ قضى معظم حياته في تحبير كتابه التقصار في جيد علامة الأقاليم والأمصار ولم يترك فيه ناحية من عظمة شيخه المجدد إلا طرقها وملأ فراغها وأفاض القول فيها كما اعتصر شؤون أفكاره في مدح شيخه بغرر القصائد وجواهر الفرائد.

وكانت قد تجسدت في شيخه شيخ الإسلام صور الحنان والعطف والمعوان على نوائب الدهور ونفخ في روحه نور البصيرة.

ومن هذا التبادل الفياض بين الولد والوالد وبين التلميذ وشيخه تقضي العجب كل العجب وتصير باهتاً محتاراً عندما تبحث ترجمة تلميذه مؤرخنا محمد بن الحسن

الشجني بين المحمديين من «البدر الطالع» فيرتد بصرك حاسراً حينما لم تجد اسمه بينهم ولا الإشارة إليه مع أن المترجم للشجني يقول في الفقرات السالفة الذكر قريباً: قال شيخ الإسلام في حق المترجم له إلخ فهذه الفقرة دليل لا غبار عليه أن شيخ الإسلام ترجم للشجني. فهل يا ترى ما تفسير هذا الإغفال وهل يرجع ذلك إلى الإمام شيخ الإسلام أو أنه سهى إدراج ترجمة تلميذه البار محمد بن الحسن من قائمة المحمديين وتراجمهم وهو ما هو وداً وقرباً وشموخاً ونباهة على أنه قد أجازه وأثنى عليه أو أنه أدركه ضعف الإنسان وحصول النقص الذي يلحق ببني البشر مهما بلغ أوج الكمال فإنه معرض للخطأ والنسيان وأن المتفرد بالكمال هو الله الملك العزيز الجبار وأدرك هذا الضعف العلامة زبارة في كتابه نيل الوطر في ترجمة مؤرخنا محمد بن الحسن الشجني، ج ٢ فلم يتنبه إلى هذه الأعجوبة بل نقل ترجمة صاحبنا من نفس كتابه «التقصار» مع زيادة الوفاة وذكر أولاده.

مؤرخنا الأديب وأهل مدينة ذمار

كان العلامة محمد بن الحسن الشجني الحميري كبير أناس وبيضة البلد علماً وفضلاً وأدباً ووجاهة ورئيساً مبجلاً يذب عن أهل ذمار كل مكروه ويذود عنهم كل سوء كما يشير إلى ذلك في مواطن من التقصار ورغم هذا فهو يشكو من أهل بلده ومسقط رأسه ويتبرم من سوء أعمالهم ولا غرابة فالعالم ذو الفضائل الذي له قدر ومقام محمود يبتلى بمثل هذا:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

وأول نفثة صدرت منه في ص ٧، ٨، ٢٥٥ ثم توالت منه أنات وأنات متوجعاً تارة وساخطاً شامتاً أخرى.

ولا أحب إيرادها هنا فالتكرار ممل ولأني أحس في قرارة نفسي بالألم والنكاية لأن ذمار مسقط رأسي وملاعب أترابي وأحبائي:

بلاد بها حل الشباب تمائمي ... وأول أرض مس جسمي ترابها

منشئاً كل حين قول أبي تمام:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزل

وإني أيضاً لا أزيد الطين بلة فأشتم ذمار وأهلها بل أدعو لهم بالتوفيق اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون.

وقد أوسعت لها مكاناً وأفردت لها في مادتها فصلاً خاصاً حللت جفاء أهلها وأخلاقهم في كتابنا «معجم بلدان اليمن وأنساب قبائلها».

ولكني أقول كلمة موجزة: الحمد لله الذي أخرجني من هذه القرية الظالم أهلها بالرفض والجمود والحقد والشنآن وأبدلني منها بلدة طيبة ورب غفور ألا وهي مدينة أب التي صارت لي وطناً ثانياً نعمت بها دهراً وأخرجت مني إنساناً ناطقاً وبلبلاً صادحاً محباً لأوطانه وأقوامه إذ يصدق فيه المثل العربي:

* المرء حيث يوجد لا حيث يولد *

ومن لطائف الاتفاق أني عشت ما بين مسقط رأسي ذمار وبين قرية الذاري وصنعاء عشرين عاماً وعشت بمدينة أب في أرخى حال وأنعم بال اثنتين وعشرين سنة إلى أن حصلت النكبة سنة ١٣٦٣هـ / ١٩٤٨م. انظر: ج ٣ وج ٤ من تاريخنا صفحة من تاريخ اليمن الاجتماعي وقصة حياتي، وكتاب صراع ثلث قرن.

محنة علماء السنة بمدينة ذمار بما فيهم العلامة الشجني

حدثني والدي عن والده الحسين بن أحمد الأكوع الحوالي أن الإمام الناصر السابق الذكر لما عاد من اليمن الأسفل سنة ١٢٥٦هـ فاراً بجلده من قبضة العساكر المتغلبين هنالك انعكست تلك الهزيمة الشنعاء إلى سموم حقد مسعورة وعصبية حاقدة وجهل مركب نفثها على العلماء الجلة والأفاضل الوادعين ومن لا ذنب له غير حب العلم والأدب والتقوى والهدى فقبض على كوكبة منهم وزج بأفاضل علماء السنة من أهل ذمار في غياهب السجون مكبلين بالحديد مثخنين بالزناجير ومن جملتهم جدي الحسين بن أحمد ومنهم العلامة محمد بن الحسن الشجني. ولما عزم الإمام المذكور صنعاء استصحب البعض منهم إلى صنعاء مغلغلين بالحديد حيث أودعوا سجن غمدان واستمر بقاء الشجني في الحبس كما يظهر مما يأتي إلى أن قتلت همدان الإمام بوادي ضهر وبقتله ارتاحت همدان وارتاحت البلاد والعباد من جوره وعسفه وهوجه وعصبيته. وقال الأديب الشاعر علامتنا الشجني قصائد في

الناصر الأرعن مدحاً وقدحاً. وحاولت جاهداً العثور على القصيدة التي قالها العلامة الشجني بعد مقتل الإمام وسألت عنها حفيده الأديب عبد الله بن يحيى الديلمي وأكَّد لي أنها غير موجودة لديه ولا أعتقد ذلك لعلمي أنه لم يبق من ورثة المؤرخ الشجني غير والدة الأديب الديلمي وأنها استحوذت على كل تراثه خصوصاً مكتبته وما يتبعها واعتذر لي وقبلت اعتذاره وأرسل لي بالأبيات الآتية قال أنها للمؤرخ الشجني قالها من جملة قصيدة للامام الناصر وهو في الحبس والأبيات مما يحفظه منها وهي ما يلي :

ألا من مبلغ عني الإماما ... سلام شيخ يعقبه سلاما
ويخبره بأني صرت فرداً ... بغمدان أحوم ولا أحامي
وخلفي صبية وضعاف قوم ... يرون اليوم في التقدير عاما
فمهلاً ناصر الإسلام مَهلا ... فأنت أحق من رحم الأياما
ورفقاً ناصر الإسلام واعطف ... على العلماء فضلاً واختتاما
وجاءتك الخلافة باشتياق ... إليك وأنت أعلاهم مقاما
وما رضيت سواك بها كفيلاً ... وقد جهدوا لخطبتها لزاما

ويظهر أنه ندم من استعطافه هذا بعد مقتل الامام كما يبدو من قصيدته التي هجا بها الناصر وشمت به وهي قصيدة طويلة عصماء لم أعثر منها الآن غير الأبيات التالية في كتاب المدارس، ص ٣٨٠ للأخ العلامة القاضي إسمعيل بن علي الأكوع الحوالي وهي :

لقد فتكت همدانُ باللصِّ فتكةً ... فلِلَّه همدان وعصبةُ يام
ثلاث سنين سمنوه ضحية ... إلى أن غدا ثوراً بغير سِنام
طغى فرماه العدل حكماً بفارة ... فأشبه فار السَّدِّ فار غُرامِ
فلو كنت بواباً على باب جنَّةِ ... لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وبنو الفار بطن في ضهر اشتركوا في قتل الناصر الأرعن وفار السد هو الذي أخرب سد مأرب المشهور في بعض الأقوال وعرام بالضم أحد جبلي وادي ضهر الشمالي.

وهذه الحادثة لم يذكرها المؤرخ زبارة.

تولّي أديبنا الحجة المؤرخ الشجني القضاء

حدثني الأخ الأديب الشاعر عبد الله بن يحيى الديلمي السالف الذكر أن جده من قبل الأم محمد بن الحسن الشجني الحميري تولى القضاء في قضاء مدينة ذي السفال المشهورة وفي ناحية المخادر حيث اطلع على وثائق بين أوراقه تدل دلالة واضحة على ذلك.

وقد اطلعت أيضاً بين أوراقنا التي سلمت من النهب والسلب على وثائق معاملات شرعية بخط علامتنا المذكور تدل على أنه كان الفيصل النزيه والحاكم العدل وأنه كان من أعمدة علماء ذمار في الإصدار والإيراد.

ومن هنا عرفت جودة خط مؤرخنا الشهير وحسن سبكه في تنسيق المعاملات وجزالة تعبيره مما يدل على أنه قاضي بمعنى الكلمة رحمة الله تغشاه.

خزانة كتبه

لقد كان مؤرخنا الكبير ثري الأدب ثري المال ثري النسب فقد عثرت على بعض كتب خزانة العلامة محمد بن الحسن الشجني الحميري رحمه الله وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على ثرى مكتبته العلمية بالكتب الثمينة القيمة ومعظمها بخطوط مختلفة منها ديوان الحماسة بخط قديم جداً ومنها مستدرك الحاكم النيسابوري وديوان البحتري ونفح الطيب وديوان البهاء زهير وتاريخ الكامل لابن الأثير وتاريخ ابن خلكان والأمهات الست والقاموس والمقامات الحريرية ونيل الأوطار والسيل الجرار وغير ذلك.

وكما كان غنياً بالمكتبة العلمية الذي أخرجت منه عملاقاً في الأدب والشعر والحديث والفقه بل وأخرجته من الجمود والركود إلى عالم النور.

وكان أيضاً ثري المال متسلسل ذلك ولا يزال الثرى والفقه في آل الشجني بمدينة ذمار متوارثاً إلى ذا الحين وفقهم الله.

وفاة مؤرخنا الشجني

كانت وفاة أستاذنا الجليل محمد بن الحسن الشجني الحميري بمدينة ذمار كما حكى ذلك المؤرخ العلامة محمد بن محمد زبارة رحمه الله في ج ٢ ـ ٢٥٧، في كتابه نيل الوطر قال: وقبل وفاته بثمانية عشر يوماً مات ولده العلامة علي بن محمد بن الحسن الشجني وولده محمد بن محمد بن الحسن توفي بعد عوده من الحج.

وبموت أستاذنا الجليل محمد بن الحسن الشجني وموت ولديه علي ومحمد انقطعت ذريته من الذكور ولم يبق إلّا السيدة فاطمة بنت محمد بن محمد بن الحسن الشجني التي تزوجت بالوالد المفضال يحيى بن محمد الديلمي رحمه الله فأنجبت ثلاثة أولاد علي بن يحيى مات شاباً ومحمد بن يحيى مولده سنة ١٣٢٦هـ ونال حظوة من العلم والفقه والفهم وواظب على قراءة كتب السنة عنه والدي والعمل بها وكان براً تقياً وتوفي سنة ١٤٠٥هـ وثالثهم عبد الله بن يحيى شاعر مجيد يحفظ الأدب ويحسن إلقاء الشعر بنغمة جيدة ونبرات تجذب الأسماع ولا زال في قيد الحياة عمره الله وكان الوالد الحجة عبد الله بن محمد العيزري رحمه الله يقول في الأخ عبد الله بن يحيى الديلمي أنه ورث الشعر من جدّه محمد بن الحسن الشجني.

* * *

منهــج التحقيق

إن منهـج تحقيقنا لكتاب «التقصـار، في جيد زمن علامـة الأقاليم والأمصـار» هي في مـا أظن النسخـة الـوحيـدة في جـودة الخط البين الـواضـح الحسـن الضبط بشكل حروفه فلا سقط ولا نقص ولا غلط ولا شيء يشين الكتاب إضافـة إلى هوامشـه القيمـة التي أدرجناهـا في تعليقـاتنـا منبهـاً على ذلـك، وإذا قلنـا أنهـا أصـح نسـخ التقصـار التي حاولنـا بكل جهـد استعارتهـا من أربابهـا للتوثيق فبخلوا كمـا هو دأب اليمانيين غير محاذرين عذاب كتمان العلم، كما أن المسؤولين عن مكتبات الجامع الكبير المقدس قد وضعوا العراقيل لعدم إعارة أي كتاب مخطوط وخالفوا نصوص الواقفين فباءوا بالإثم.

وفي خزانة الجامـع الكبير المُقَدَّس نسخة واحدة سقيمة الخط انتهى نـاسخها الـذي لم يذكـر اسمه ولا ذكـر مالكهـا. . انتهى من تـأليفـه في آخـر نهـار الجمعـة ١٥ شوال سنة ١٢٤١هـ وقد طالعتها بإمعان فلم أجد ما يغنينا أو تضيف لنـا معلومات وفائدة إلاّ أنهـا أفادتنـا أيضاً أن مؤلف التقصـار انتهى في تأليفـه لكتابـه المذكـور سنة ١٢٤١هـ ولم تكن بخط المؤلف المعروف لدينا.

أما نسختنا فيقول كاتبها بما لفظه:

وكان الفراغ من تحصيله بعناية الـمخدوم به شيـخ الإسـلام حفظه الله تعـالى وبارك في أيامه آخر نهار الجمعة خامس عشر شوال سنة ١٢٤٢هـ بقلم الحقيـر أسير الذنوب والمآثم، محمد بن محمد بن قاسم، غفر الله له ولوالديه.

فقد اتفقت النسختان، نسخة الجامـع المقدس في تاريـخ الشهـر وعدد أيـامه واختلفتـا في تاريـخ السنـة فنسخة الجـامـع المقـدس سنـة ١٢٤١هـ ونسختنـا سنـة ١٢٤٢هـ فبينهمـا سنة واحـدة واستفدنـا من نسختنـا أنها كتبت بعنـايـة الإمـام شيـخ

الإسلام محمد بن علي الشوكاني الهمداني وصارت إلى ولده العلامة علي بن محمد الشوكاني كما في ديباجة الصفح المصورة ويبدو أن أكثر التعليقات التي في التقصار لعلي بن محمد رحمهم الله جميعاً.

أما مضامين كتاب التقصار فالكتاب يعرف من عنوانه كما يقدم نفسه بنفسه ولزيادة البيان فالمؤلف علامتنا الشجني قسم مؤلفه إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول في مولد شيخ الإسلام ونشأته وما يتبع ذلك، القسم الثاني في تراجم أشياخه ومن أخذ عنهم، القسم الثالث في تراجم تلاميذه وذكر فضائلهم وإثبات ما عثر من نظمهم ورسائلهم.

كما قدم اعتذاره وتهيبه على الإقدام لهذا الموضوع ثم استأنس لذلك وشجعه على ما هنالك ذكر من سبقه في هذا المضمار.

ولم يقف على هذه المباحث المذكورة بل خاض بمقدرة ونباهة ذكر استطرادات نفيسة أحداثاً وأدباً وفكاهات وحكايات وعظة وعبرة مما يستوقف اللبيب إلى اقتطافها ونزع العضة من أعطافها وسلسل ذكر الأئمة القاسميين بسنيهم ومدة حكمهم ومقر أعمالهم.

والخلاصة أن التقصار كاسمه قلادة على جيد الدهر وجوهرة ثمينة لم يسمح الزمان بمثله في مفخرة الأقاليم والأمصار وروضة أنيقة وجنان مورقة يتنزه فيها القارىء ويقطف من ناضج ثمارها ويتقلب في فنونه وأفنانه ويسبح في غياضه وحياضه العذبة المذاق ويهصر من غصونه الدانية ما لذ وطاب في غبطة وسرور ويعيش مع تلك الأجيال ويضيف عمر إلى أعماره وعظة إلى أسفاره وأسفاره.

على أنه قد عِيْبَ على علامتنا الشجني التكرار كما أشار إلى ذلك العلامة علي بن محمد الشوكاني في صدر كلمته المذكورة آنفاً وهو محجوج بما قاله أبو حيان التوحيدي في الذخائر والبصائر، ج ٤، ص ٢٨٣ أنه لا يخلو مُصَنِّف إلا ويلج بالتكرار والإعادة وضرب مثلاً بفطاحلة العلماء مثل يعقوب بن السكيت

وأبي عمرو الجاحظ وأبي زيد الأنصاري.

وإلى هنا انقضى تسجيل ما أردناه وبالله التوفيق سائلاً من الله حسن الختام والعفو والغفران.

وسبحان الله العظيم وسبحان الله وبحمده.

بتاريخه تسع ٩ جمادى الأولى سنة ١٤١٠هـ عشر وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والتسليم.

الموافق ١٩٨٩/١٢/٧م.

رقمه:

محمد بن علي بن الحسين بن علي الأكوع الحِوالي

كلمة الأخ العلامة

علي حمود بن علي بن حسن بن عبد الوهاب الديلمي

عضو المحكمة العليا للنقض والاقرار حول كتاب التقصار وهي

التعريف بالكتاب

التقصار درة ثمينة في تراث الأدب اليمني المزدهر أرخ فيه مؤلفه لشيخ الإسلام الإمام محمد بن علي الشوكاني رحمه الله وترجم لمن أخذ عنهم الشوكاني وتخرج بهم كما ترجم لتلامذة شيخ الإسلام وذكر فضائلهم هذا هو موضوع الكتاب إجمالاً لكن المؤلف رحمه الله استطرد بيده الطولى وذكائه النادر فجمع في كتابه عن لباب الأدب ومكنونه ما تقربه العين ويثلج به الصدر بحسن ترسل يوصل إلى سمو الغاية ونبل المقصد وبعبارات فذة يحوطها إشراقة الفهم بما تشهد له بالسبق بين معاصريه كما يجد القارىء لهذه السفر الثمين متعة بما يقرأ للمؤلف من نقد بارع عميق أو ثناء جميل زاهر نضير.

أما المؤلف فهو العلامة محمد بن حسن بن علي بن أحمد بن ناصر الشجني الذماري العالم الشاعر الكاتب الناقد ولادته سنة ١٢٠٠ هجرية من بيت تحف به روعة العلم وجلال الفضل أنجب عظماء على جانب كبير من الدراية والفضل منهم مؤلف هذا الكتاب الذي احتل المركز الأعلى في صف المؤلفين العارفين تغمده الله برحمته وغفرانه.

* * *

التعريف بالكتاب

التقصار درة ثمينة في تراث الأدب اليمني المزدهر ألفه مؤلفه لشيخ الإسلام الإمام محمد بن علي الشوكاني رحمه الله وترجم لمن أخذ عنهم الشوكاني وتخرج بهم كما ترجم لتلامذة شيخ الإسلام وذكر فضائلهم هذا أهم موضوع الكتاب إجمالاً لكن المؤلف رحمه الله استطرد بيده الطولى وذكائه النادر فجمع في كتابه من لباب الأدب ومكنون ما تقر به العين ويثلج به الصدر بحسن ترسل يوصل إلى سمو الغاية ونيل المقصد ويعطي [illegible] إشراقة الفهم بما اشتهر بالسبق بين معاصريه كما يجد القارئ لهذا السفر الثمين متعة بما يراه للمؤلف من نقد بارع عميق أو ثناء جميل زاهر نضير.

أما المؤلف فهو العلامة محمد بن حسن بن علي بن أحمد بن ناصر الشجني الذماري [illegible] ولا ذكر لشكله [illegible] من بيت [illegible] العلم [illegible] الفضل [illegible] كثير من العلماء واشتهر منهم مؤلف هذا الكتاب الذي [illegible]

[illegible] ١٩٩٠ [illegible] صفر [illegible]

عضو مجلس [illegible]

[illegible]

شكر وتقدير

لا يشكر الله من لا يشكُر الناس.

وإني أزجي شكري الجميل وثناي العاطر للأخ العلامة الأمثل حاكم قضاء ريمه سابقاً وعضو المحكمة العليا حالياً أحمد بن محمد المهدي بإهدائه «كتاب التقصار، في جيد زمن علامة الأقاليم والأمصار» للعلامة الأديب محمد بن الحسن الشجني رحمه الله فالله يهديه خير الجزاء فإنما أهداه للعلم والمعرفة والأدباء والكتاب ضاعف الله أجره ورفع قدره.

كما أخص بالثناء المستطاب والشكر الجزيل كلًّا من الولد العلامة عضو المحكمة العليا للنقض والابرام عبد الله بن أحمد الأكوع الحوالي والولد النبيل القاضي حمود بن أحمد الأكوع الحوالي لما قاما به من خدمة العلم بالمقابلة للتجارب الأولى للتقصار على أصله وتصحيحها تصحيحاً شاملاً ثم وضع الفهارس كاملة أيضاً سائلاً من الله أن يجعلهما من حماة الذمم وحماة الذمار وأن يرفع منزلتهما ويصلح أولادهما وأن يكونا خير خلف لخير سلف.

* * *

الأستاذ الحجة المفسر المحدث المؤرخ الفقيه المنطقي الجدلي النظار شمس الملة وجمال الجلّة، وترجمان الأدلة، والبدر الذي لا يعتريه محاق الأهلّة، سلطان المجتهدين، ونبراس الموحدين، وكعبة المسترشدين، وواحد المجددين وشحاك الملحدين، بدر الدين ودرّة تاجه، ومصباح منهاجه، سيف السنّة ومحيي رسومها، وإمام منطوقها ومفهومها، وكاشف أسرارها بإطلاعه بدور أقمارها في أفلاك مدارها حتى استفاض على الأرض بساط أنوارها، مفخرة اليمن شيخ الإسلام قاضي القضاة أبو علي مُحمَّد بن علي الشوكاني، أحق من يتحلى جيد الدهر بتعليق جواهره، وتُملى بل تتلى على تعاقب الأيام آيات موارده ومصادره، فهزّني هوى الهوى وصبا الصبوة[١] ورياح الارتياح إلى «كسر»[٢] كتاب يتضمن نشر معاليه الزهر، ورسم مساعيه الغُرّ لأجر أقتنيه، لا لوفر أبتغيه، ولعوضٍ أحتسبه، لا لغرض أكتسبه.

ورتبته على أربعة أقسام[٣] سأذكرها في أوله لفاً وستأتي إنشاء الله في أعطافه نشراً، ولا يغرب عنك أني كنت شرعت فيه منذ أيام ثم ثبّطني عن الاطراد وحال بيني وبين ما يراد محنة نزلت بي من بعض الألفاف، ورعاع الأطراف، فعاقتني عن المضي والاستمرار، لمواصلة التسيار[٤] وتكرار الأسفار، من ذمار إلى صنعاء، ومن صنعاء إلى ذمار:

كأنما أنا من حلٍّ ومرتحلٍ ... موكّل بفضاء الله أقطعهُ[٥]

---

(١) الصبوة: جهل الفتوة وغوى الشباب.

(٢) ما بين القوسين في الأصل ولم تظهر الكلمة.

(٣) لعل المؤلف وهم أنه قسمه على أربعة أقسام والصحيح أنه مقسم على ثلاثة كما سيأتي.

(٤) التسيار: السير.

(٥) البيت من قصيدة محمد بن زريق البغدادي والتي أولها:

لا تعذليه فإن العذل يوجعه ... قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه

والمحفوظ بفضاء الله أذرعه، ويأتي له ذكر.

فهجرت ما سمح به الخاطر، في جيوب القماطر[١] وفزعت إلى الحضرة التي هي مضرع اللهيف، ومهرع الضعيف، ومنزع المسيف، ومفزع المشروف والشريف[٢] حضرة ظل الله المديد، وركن الإسلام الشديد، أمير المؤمنين المهدي لدين الله رب العالمين[٣] أقام الله به قناة الدين، وأرغم بطول بقائه آناف المعاندين، وعمر بالعدل أيامه، كما رفع بالمجد أعلامه، فأدالني من ذلك العادي حتى صار أُحْدوثةً في النادي[٤]، وعبرة للحاضر والبادي، بحميد سعي شيخ الإسلام، ونافس ذلك الزعنفة[٥] علينا جماعة من أهل الشقاق ومتفيهقة ما كان يليه من الرستاق[٦]:

فالحرُّ مُمْتَحَنٌ بأولاد الزّنا[٧]

وكانت العمال قد داستهم بالأقدام مباشرة، وعركتهم على ضرائب الخراج بضروب المصادرة، لأن النقص ممزوج بخلقهم، مركوز في جِبلّتهم[٨]:

وذو النقص في الدنيا بذي الفضل مُولَعُ[٩]

ما ضرَّني حسدُ اللئام ولم يزل ذو الفضل يحسده ذوو التقصيرِ[١٠]

لقد زادني حباً لنفسي أنني بغيض إلى كل امرىء غير طائلِ[١١]

---

(١) القماطر: جمع قمطر: بالكسر معروف وهو وعاء تصان فيه الكتب كالملف ونحوه.

(٢) مضرع: من الضراعة وهي الاستكانة والخشوع؛ والمسيف: الأسيف: الحزين.

(٣) المهدي لدين الله تأتي ترجمته للمؤلف.

(٤) دالني: أي قضى وانتصف من الغريم بالحق. والنادي: مجتمع الناس.

(٥) الزعنفة: بكسر الزاي وفتحها وهو القصير والقصيرة والمراد بذلك أسافل الناس.

(٦) المتفيهقة: متعلم الفقه ومدعيه وليس بفقيه والرستاق عند غيرنا كالمخلاف عندنا.

(٧) هذا مصراع بيت للمتنبي وأوله:

إن المشير عليك فيّ بضلّة فالحر ....

(٨) الجبلّة: الطبيعة.

(٩) لا أعرف قائله.

(١٠) لا أعرف قائل هذا البيت.

(١١) هذا البيت للطرماح بن حكيم الطائي الشاعر المشهور، من شعراء الدولة الأموية وديوانه مطبوع، انظر تفسير الدامغة.

وإني شقيّ باللئام ولن ترى شقياً بهم إلا كريم الشمائلِ

ثم لما غلب عليهم الحسد، وفشى فيهم اللؤم واللدد، راموا تقليد الجلّة، بمثل ما في أعناقهم من أطواق الذلة، ولأجل تلك الهنات والتّرات المتواترات[١]، قلّ أن ارتاح إلى توريق فإنها ما زالت ترتمي بي أيادي الحوادث إلى حضيض فأشخط بالشخط[٢] على ما رسمت من لفظي، وقد ترفعني راحات السكون إلى سطوح الاستراحة فأعلّق ما علق بحفظي، ولكنه جاء كتابي هذا بعد تحبيره، وكمال تهذيبه وتحريره، طرازاً موشى، وديباجاً غير مُغشى، فدونك في أرباض[٣] القراطيس، متعة المسامر ونزهة الجليس، فإنها لما تباعدت نوبات رسمه، وتراخت يد التحصيل، عن تعجيل كتبه ورقمه، كنت لإرجاع النظر وترديده فيه، أبالغ في إظهار ما أضمرت في سرِّ خوافيه، فحيناً أبدل المعاني، وتارة أحوِّل المباني، فسَمَا حسناً، وراق لفظاً ومعنًى:

ما خطَّ كفُّ امرىءٍ شيئاً وراجعه إلا ولاح له تبديل ما فيهِ
وذا يقول كذا الأولى وذاك كذا وإن يكن هكذا تسمو قوافيه[٤]

نعم وإن لما سلف من شيخ الإسلام، لهجتُ بإرسال أعنة الأقلام، في ميادين الكلام، ورغبت في هذا المقصد ووقفت لاستجدائه بكل مرصد، وطالما تلقاني كلما وردت إلى حضرته ببشاش وإكرام، وطلاقة وجه وابتسام، وإن شكوت إليه ما يلمّ بي بالغ في تأنيسي بالتسلية، وتهوين الأمر عليّ بالتأسية، ورقَّ لما أبْثثْتُه من الشكوى، وشرحته من البلوى، وهكذا نتائج همته العالية، ودواعي شيمته الزاكية،

---

(١) الهنات: جمع هنة وهي الخصال الرذيلة، والترات: جمع ترة وهي الذحول والأحقاد بالدماء.

(٢) كأنه فاسخط: من السخط وهو عدم الرضا، بالشخط بالشين والخاء المعجمتين كذا في الأصل ولعلها بالشين المعجمة والحاء المهملة: البعد وهو الذي يؤديه سياق الكلام.

(٣) الأرباض: جمع ربض وهو ما حول المدينة كالسور ونحوه، وأصله من مربض الغنم.

(٤) لا أعرف قائل هذين البيتين.

لا تزال عاطفة له على النزّاع[1] من أهل العلم إلى حضرة الخليفة حفظه الله، فليعلم المطّلع أنه حفزني ذلك التلقي والبشاش إلى البدار مع الاقتدار على نظم منثور آثاره، ولف شمل بعض المتفرقات من محاسن أخباره، تقرباً إلى حقه بما يقتضيه، ونؤدي شرط المكافأة فيه، فالإنسان صنيعة الإحسان، واصطناع المعروف إلى أهله عروس صداقها الشكر، وعوضها حسن الثناء بجميل الذكر، وهذا جُهْدُ المقلِّ ولا تقصير منه إذا كافأ بما يُسْتقل ولو بالبشر يقيمه، والذكر الجميل يديمه:

فَلْيُسْعد النطق إن لم يسعد الحال[2]

شكرتك إن الشكر حبل من التقى ... وما كلّ منْ أوليته صالحاً يقضي[3]

وكرم الأخلاق، وطيب الأعراق من البواعث والدواعي إلى شكر المساعي:

أبى لي أبٌ لي أن أقوّضَ عنكم ... خيامِيَ أو ألهى بكم غير مُعْتني

وهل أرتضي نسيانكم بعد فضلكم ... أينسى كريم الأصل إحسان محسنِ[4]

ولأن هذا الشيخ الجليل، والصدر الأفخم النبيل، قد أصبح غرة في جبين الزمان، وأمة وسطاً في أخائر الأعيان، وأضحى نسيج وحده، وسقط ما قدح الدهر من زنده، لم يزل مذ نشأ للعلم خادماً، ولمتفرقات الفوائد جامعاً وراسماً، عارياً من العوراء كاسياً من العلياء[5]، يجتزىء بالبلغة عن الزاد والجرعة من الثماد[6] ويكتفي بأدنى ملابس الاقتصاد، حتى جاءته الدنيا وهي راغمة، وماجت إليه بحار نفائسها متلاطمة، وهو يوزعها بين راجيه خلجاناً، ويقطعها فيهم جداولاً وغدراناً.

---

(١) النزّاع: بتشديد الزاي أي الذين ينزعون إلى العلم والفضيلة وينتمون إلى ذلك.

(٢) هذا المصراع الثاني من قصيدة للمتنبي وأوله:

لا خيل عندك تهديها ولا مال

(٣) البيت لأبي نخيلة.

(٤) لا أعرف قائلهما.

(٥) سقط الزند: ما يتطاير من شرار النار،

(٦) الثماد: بفتح الثاء المثلثة: الماء القليل، والعوراء: الخصال الذميمة.

جاءته عارضة عليه نفسها فأبى فعادت عودةَ المخسورِ
هذا هو الورع الشحيح وهكذا شيمُ القضاة بمقتضى المسطورِ[1]

فوجب التنويه بذكره، والتنبيه للأخير عصراً على غضارة وشهرة، فليتيقظ للأسباب التي أسرعتْ بي إلى إهداء هذه الأسجاع إلى مخارق الأسماع.

فالسيف لولا جوهر في حده لم تبد فيه فضيلة للصيقلِ[1]

فلا ينسبني المطلع إلى المغالاة، فإنه لم يبق من أهل الوفاء وإخوان الصفاء، وحفظة الإخاء، من يوماً إليه في هذا الزمن العاطل غير هذا الإنسان الكامل.

أزالت بك الأيام عُتْبي كأنما بنوها لها ذنب وأنت لها عذرُ[2]

ولا خفا أنه قد سبقني أعلام النقاد، من العلماء الأدباء الأفراد، فوضعوا تاريخاً وتراجماً مختلفة الأنحاء لا يكاد يأتي عليها الحصر كثرة وهم فريقان:

فالفريق الأول: يتحف كل منهم الملوك والأمراء والسلاطين والوزراء طمعاً في نيل الرغائب، وتعرّضاً لاستماحة العطايا والمواهب، أو تطفلاً للدخول في الأعمال، أو تصدياً لبلوغ رتب الآمال.

والفريق الثاني: معشر يرغبون في تقييد محامد العلماء الأعلام لما كانوا حماةً للدين وحججاً للإسلام.

ومن هذا الفريق الأخير أبو عبد الله شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر السخاوي[3] القاهري الشافعي فمن موضوعاته «الجواهر والدرر» في

---

(١) لا أعرف قائل هذا البيت، والصيقل: الذي يصقل السيوف ويثقفها.

(٢) لا أعرف قائل هذا البيت.

(٣) السخاوي: ترجم له شيخ الإسلام الشوكاني في البدر الطالع (ج ٢ ـ ١٨٦) وأنه ولد في ربيع الأول سنة ٨٣١هـ ووفاته مجاوراً بالمدينة المنورة في عصر يوم الأحد سادس شعبان سنة ٩٠٢هـ، له مؤلفات عديدة من أشهرها «الضوء اللامع لأهل القرن السابع» طبع في سبع مجلدات. وغلبت عليه محبة شيخه ابن حجر فلا يخرج عن أقواله وآرائه.

ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر»[1]، كما نقل ذلك العيدروس في كتابه «الضوء السافر، بمن في القرن العاشر»[2]، وكذلك الأديب الشريف عبد الله بن علي الوزيري اليمني الصنعاني الذي ألَّف «نشر العبير بفضائل علامة العصر الأخير» وجعله بتعريف العلامة علي بن يحيى البرطي[3] وكذلك الأديب الرحال أحمد بن محمد الشهير بالمقرّي المالكي الأشعري الأندلسي التّلمساني[4] فإنه وضع «نفح الطيب، بأخبار لسان الدين بن الخطيب».

والموضوع لأجله وإن كان وزيراً، فقد كان عالماً شهيراً، فإن الباب الثالث من القسم الثاني الذي رسمه باسمه في ذكر مشايخه، والباب السادس في عدِّ مصنفاته، والباب السابع في نعت تلامذته، فقد سوّلت لي نفسي مزاحمة أهل هذا الفريق، وأن أزاملهم مرافقة لهم في الطريق على أن حكمي معهم حكم الحشّاش

---

(١) كما ترجم الشوكاني لابن حجر واسمه أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المصري المولد والوفاة، فمولده سنة ٧٧٣ ووفاته آخر ذي الحجة سنة ٨٥٢هـ وله مصنفات كثيرة ولو لم يكن له إلا «فتح الباري، شرح البخاري» لكفاه فخراً.

(٢) والعيدروس هو محيي الدين عبد القادر بن عبد الله العيدروس الحضرمي، من أعيان القرن العاشر والقرن الحادي عشر وكتابه «الضوء السافر، في أعيان القرن العاشر» مطبوع.

(٣) عبد الله بن علي الوزير هو الأديب الشاعر المفلق. ترجم له الشوكاني في البدر الطالع ج ١ وكانت وفاته سنة ١١٤٧هـ كما ترجم للعلامة البرطي (ج ١ ـ ٥٠١) وكانت ولادته سنة ١٠٦١هـ ووفاته ١١١٥هـ والبرطي نسبة إلى جبل برط المشهور المطل على الجوف من الشمال والذي يسكنه من همدان قبيلة ذو غيلان محمدي وحسيني.

(٤) المقري: نسبة إلى (مقرة) بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة، بلدة من قرى تلمسان، والمالكي نسبة إلى مذهب الإمام مالك بن أنس الأصبحي الحميري والأشعري نسبة إلى الإمام علي بن إسماعيل الأشعري والأندلسي نسبة إلى الفردوس المفقود المسمى اليوم «أسبانيا» وتلمسان مدينة بالمغرب العربي، ولد المقري بها ونشأ سنة ٩٩٢هـ وكان كثير التجوال وآخرها أقام بمصر وتوفي بها سنة ١٠٤١ وكتابه «نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، وذكر لسان الدين الخطيب» قد طبع عدة طبعات، وابن الخطيب هو لسان الدين الوزير الخطير والكاتب القدير وأحد حسنات الدهر أبو عبد الله محمد بن عبد الله الغرناطي، ولادته بغرناطة سنة ٧١٣هـ وتوفي بمدينة فاس من المغرب مسجوناً سنة ٧٧٦هـ.

والحطاب وحالب اللبن حيث يسير في خفارة أرباب القوافل الجامعة، وأهل التجارات الواسعة:

فإن توافق في معنًى بنو زمن فإن جُلَّ المعاني غير متّفق
قد يبعد الشيء عن شيء يشابهه إن السماء نظير الماء في الزرقِ

فلا غرْو إذا كانت مجلوباتي كاسدة لأنها مزجاة غير موافقة وبضاعة من أردت مرافقته رابحة نافقة، ولكن إذا لم أدرك المعسور، فلا عذر لي في ترك ما هو عليَّ ميسور، وقد وهمت أن لي شاة في ذلك القطيع وإن لم يدرك الظالع شأو الظليع[1]، وقد تفخمت واجتهدت ومدحت تأليفي هذا آنفاً وافتخرت، لا إعظاماً لقدره بل لسابق عنايتي في جمعه وزبره، وإلا فجملة ما يمكن إفصاحي به هنا من الاعتذار، في ضمن التماسي من الإخوان الاغتفار، ما خطر لي من الارتجال، لصلاحه بحكم الحال، قولي:

من جاء بالنَّزر من مجلوب فكرته فلا تَهِنْه ازدراءً بالذي جَلَبا
وخذ بمكرمة الأخلاق مغتفراً عيوبه فالتلقي بالبشاش حِبَا
وإن ترى زائفاً في النقد تحسبه من خالص التبر فاستر غِشَّه حَسَبا
وغضّ جفنك عنه غير منتقد حتى يظن بكف الصيرفي ذهبا
إن الكريم له في الاعتذار يدٌ لِتِربه إن هفا يوماً إذا كتبا[2]

وقد كنت عند إن ابتديت في هذا المحصَّل عازماً على إكماله إذا أوقفني، الطلب على مُعين لي على هذا المقصد فأستصرخه، أو أعثرني الاستقراء على مجموع يكون لي مرجعاً فأستنسخه إن لم يكن قد ارتاح غيري من أهل صنعاء إلى مثل ما أردت، فأما إذا كان قد تقدمني أحد إلى مثله فإنني لا أطلق عناناً لأفراس قلمي،

---

(١) الظالع: بالظاء المشالة الذي يعرج في مشيته، والظليع: السمين يضرب مثلاً أن الضعيف قد يسبق القوي.

(٢) النزر: القليل، والإزدراء: الاحتقار، والحبا بكسر الحاء المهملة: العطاء، والترب: بكسر التاء المثناة من كان شبيهك في السن والولادة.

ولا أنشر لواء لجيوش كلمي، لأن الإعادة مملولة عادة، والتكرير ليس إلا تكثير، لا سيما وأولئك أصح قرائحاً وطبعاً، وأكثر تحصيلاً وجمعاً، والخارجون عن سورهم، يستصبحون بنورهم، ويستمدون من بحورهم، فما لذمار والانتداب، لتأليف الآداب، أطرق كرى إن النعام في القرى، ليس بعشك فادرجي ولا ببيتك فاخرجي[1].

نعم فبحثت واستقريت فلم أجد سابقاً على الشرط الملتزم، ولا متقدماً عليَّ حسبما تكفلت به بحكم القلم ولم ألق معيناً لي على ذلك إلا الفاضل المشتهر، يحيى بن المطهر[2] فإنه أبقاه الله كتب لي كراساً صغيراً، قال في آخره:

ويكفيني هذا الإلماع، وفي نباهة المتصدي أطماع، فأخذت فيما نحوت إليه، وجهدت في إكمال ما عزمت عليه، على أن مثلي في إمتاع تلك الأسماع، بما أنمَّقه وألفِّقه من الفِقَر والأسجاع، مثل من يهدي إلى الجبل الحجر، أو بمثابة من تبضع التمر إلى هجر[3]:

وإنك واستبضاعك الشعر عندنا كمستبضع تمراً إلى أرض خيبر[4]

وفي ظني أن عثور الأديب منهم على هذه المادة تحمله على التمثل بقول

---

(١) اطرق: أي أرخِ عينيك لتنظر إلى الأرض، وأصل المثل: أطرق كرى إن النعام في القرى، يضرب مثلاً للمعجب بنفسه، وكرى: طائر معروف وكذلك النعام، والعش بالضم: بيت الطائر الذي يجمعه من دقائق العيدان في أفنان الشجر، وادرجي: امشي، وهذه أمثلة معروفة تضرب لمن يتعاطى ما ليس من مهنته.

(٢) يحيى بن المطهر تأتي ترجمته للمؤلف.

(٣) الحجر من أصل الجبل فكيف يهدى إليه، وهجر: بالتحريك كانت مدينة في البحرين مشهورة بكثرة التمر.

(٤) لا أعرف قائل هذا البيت، وخيبر بلدة وواحة في أخريات شمال الحجاز بينها وبين المدينة المنورة ثمانية أيام لذلك التاريخ واليوم وقد عبد إليها الطريق أربع ساعات واشتهرت بغزوة خيبر سنة ثمان من الهجرة. انظر: السيرة النبوية.

أبي الطيب[1]:

فـآجـرك الإلـه عـلى عليـلٍ ... بعثت إلى المسيح بـه طبيبـا

وأما من جمعتني وإياهم المحلة سكنى، والكهولة سناً، فليس فيهم إلا أديب أو أديبان هما لعدم اعتراف القاصرين بفضلهما غريبان:

غـرَّبته العُلى على كثـرة النـا ... س فأضحى في الأقربين جنيبا[2]

وهكـذا أنا في أهلي وفي وطني ... إن النفيس غـريب أينما كـانا[3]

* * *

وما غربة الإنسان في شقة النوى ... ولكنهـا والله في عـدم الشكـلِ

وإني غــريب بين بُستٍ وأهلهـا ... وإن كان فيها أسرتي وبها أهلي[4]

وأما من عداهما فإنهم وإن حفظوا أشياء فهم كما قال مروان بن أبـي حفصة[5] فكأنه عناهم بما نصّه:

زوامـل للأشعـار لا علم عندهم ... بجيِّـدهـا إلا كـعلم الأبـاعـرِ

لعمرك ما يـدري البعير إذا غـدا ... بأوساقه أو راح ما في الغـرائرِ[6]

---

(١) أبـو الطيب: هـو أحمـد بن الحسين الجعفي المـذحجي نسبـاً الكـوفي بلداً وهـو المشهـور بالمتنبي شاعر الخلود، مولـده سنة ٣٠٣هـ ووفـاته شهيـداً سنة ٣٥٤هـ وإنمـا لقب بالمتنبـي لأنه ادعى النبوة، وطبـع ديـوانه عـدة طبعات وعليـه شروح تقـارب الخمسين شرحـاً. انظر: ابن خلكان (ج ١ ــ ١٠٧) وغيره.

(٢) الجنيب: الغريب، ولا أعرف قائل هذا البيت.

(٣) لا أعرف قائل هذا البيت.

(٤) هـذان البيتان لأبـي الفتـح البستي المتـوفى سنـة ٤٨١هـ. انـظر ابن خلكـان (ج ١ ــ ٤٥٣) وبست: بضم الباء الموحدة مدينة في أعالي أفغانستان.

(٥) مروان بن أبـي حفصة: شاعر مفلق من شعراء الدولة العباسية اختص بالأميـر الجواد معن بن زائدة الشيباني وله فيه غرر القصائد، ولد سنة ١٠٥هـ وتوفي سنة ١٨١هـ. انظر: ابن خلكـان (ج ٤ ــ ٢٧٦).

(٦) الزوامل: الحوامل، والأوساق: جمـع وسق والوسق ستون صاعاً.

هذا وإن الأدب الغض هو إمَّا استعمال ما يُحمَد قولاً وفعلاً، أو الأخذ بمكارم الأخلاق، أو الوقوف على المستحسنات أو تعظيم من فوقك، والرفق بمن دونك، وأي رسم صدق عليه من أوّل هذه الأربعة أو الثالث أو الرابع فهو يتناول هذا الموضوع من جملة علم المحاضرات وهو من أقسام الأدب ولا يبعد أن يتناول الثاني منها لأن التنويه بفضائل الأفاضل والثناء عليهم، هو من الأخذ بمكارم الأخلاق فلا يجهل الناظر ولا أريد القاصر بل الأديب المحاضر إنه لا يعتب من جمد فهمُه، وقلَّ من الأدب حظه وقسْمه إذا انقبض عند الاطلاع على كتابي هذا لقصور باعه، ولا يلام من يحسُّ منه التقطيب عند سماعه فالجهل معذرة للجاهل، وأما المعرفة فهي حجة على المتجاهل، وصاحبها وإن أظهر الخلاف فهو يغلب على قلبه الإنصاف والاعتراف، ومن لا يقع منه هذا المجموع موقع الإحسان، فليس العلم من صناعته، ولا هو موجود في أعلاق بضاعته[1]، فليعضّ الأديبُ بنانَ حرصه على حسن أدبه عضّا، ولا يقصُّه على من كان غليظ القلب فظّا.

فمن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وها هنا من التلميح، إشارة للبيب إلى التصريح بالفقيه الثرثار الذي يطلق المعرفة على التنحنح والاستنشار، ومن إذا شارف على الاستفادة بعض المشارفة عمد إلى لبْس السراويل المخرفجة حتى يطأها بعقبيه وارتدى تأبطاً حتى يصافح الرداء هبريتيه[2] وجهم عمامته بضرب من الحشايا والأمتعة ثم يجعل نتيجة هذه الهيئة المنكرة التحامل على التكفير والتفسيق لجماعة من السلف الصالح بلا حجة يبديها ولا شبهة يبتديها، وتارة ينجرّ به التشمُّس[3] إلى الجرأة والوقوع في أعراض جماعة

---

(١) الأعلاق: جمع علق بالكسر: النفيس من الجواهر.

(٢) الفقيه الثرثار: كثير الهذيان، والتنحنح: ترجيع الصوت من أعلا الصدر، والاستنشار: نثر ما في الأنف، والسراويل المخرفجة: الواسعة، وارتدى: لبس الرداء كاللحفة يجعلها تحت إبطيه، والإبط: ما تحت لحم العضد وتقول له العامة: الزغن، والهبرية: لحم الساقين وجهم عمامته كبّرها بأن حشاها بشيء من الخرق وغيره.

(٣) التشمس: النفور في حمق.

من العلماء المجتهدين الذين رَعَف بهم الزمان، لقوة الإيمـان وأنت إذا حققت أمره لم تجد له مورِّطاً في هذا الأمر الشنيـع سوى الجهل من جهة والحسد للفضـلاء من أخـرى، فيصغي آنيتهم ويصغِّر منـزلتهم، ويرى بسفـه عقله أن ذلك جـائز لنقيصتـه ساتراً لما ينكشف من عورته فيجذبهم إلى مشاركته ويطلق عليهم مثل سمته:

تلك المساعي إذا ما أخّرت رجلاً ‏ ‏ ‏ أحبَّ للنـاس عيباً كـالذي عـابهْ
كذاك من كان هدم المجد غايته ‏ ‏ ‏ فـإنـه لبنـاة المجـد سبـابـهْ[1]

ولعمري ما أتاه التقصير إلا من قبله، ولا قعد به عن الكمال إلا اختياره، وإلا فلو سعى سعيهم لشاركهم في الفضيلة، ورفـع نفسه عن حضيض الـرذيلة، أو عجز عن اللحاق وعرف تقدمهم في حلبة السباق على أن لسان حـال كلّ عَلَم منهم قـول أبـي الحسن علي بن محمد التهامي[2] حيث يقول:

عمري لقد أوطأتهم طرق العلى ‏ ‏ ‏ فعَمُـوا ولم يـطأوا على الآثـارِ
لو أبصروا بعيونهم[3] لاستبصروا ‏ ‏ ‏ وعمى البصائر من عمى الأبصارِ
هلّا سعوا سعي الكـرام فأدركـوا ‏ ‏ ‏ أو سـلمـوا لـمـواقـع المقـدارِ

وإني لأكثـر التعجب لجـريِ هـذه العـادة السيئـة في أكثر العصـور حيث لا يعترفون بفضائل من كان بين ظهرانيهم وإن سبق في المضمـار، وجلّى في ميدان فضـلاء الأعصار، ولا يلهجـون بالثنـاء إلا على القـديم زمنـاً وإن قصـر بـاعـه ونـزر اطلاعه:

المـرء مـا دام حيّـاً يستهـان بـه ‏ ‏ ‏ ويعـظم الرزء فيـه حين يُفتقد[4]

---

(١) لا أعرف قائل هذين البيتين.

(٢) التهامي المذكور ترجم له ابن خلكان (ج ٣ ــ ص ٦٠) وقتل شهيداً في خزانة البنـود بقاهـرة مصر القائل فيها الداخل فيها مفقود والخـارج منها مـولود وذلـك سنة ٤١٦هـ وديـوانه مـطبوع والثلاثة أبيات المذكورة من قصيدته العصماء التي يرثي فيها ولده.

(٣) كذا في الأصل وفي الديوان وجواهر الأدب: «لو أبصروا بقلوبهم».

(٤) لا أعرف قائل هذا البيت.

وحسبه عندهم قدم العهد وسيلة، وكثرة الاتباع فضيلة، فالحكم لله في إنفاذ مُراده وتصريف أحوال عباده:

أولع الناس بامتداح القديم ... وبذمّ الحديث غير الذميم
ليس إلا لأنهم حسدوا الحيّ ... ورقوا على العظام الرميم[1]

أو كما قال ابن الرومي[2]:

حسدوا الفتى إن لم ينالوا سعيه ... والقوم أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قُلن لوجهها ... حسداً وبغياً إنه لذميم

وأما حصر أقسام مؤلفي هذا فهي ثلاثة:

القسم الأول: في ذكر ولادة شيخ الإسلام ونشأته وكيفية طلبه، وتدرجه في رتب الكمال ونعت خِلاله، وإبراز جميل خِصالِه، ورسم ما جبله الله عليه من صلابة الدِّيّن والورع الدَّال على صدق اليقين، وعدّ مؤلفاته، وبعض رسائله، وذكر طرف مما علق بحفظي من نظمه، وربما يعرِّج بالقلم قدم السلوك إلى نشر ما طوت الأيام من صحائف الملوك، ومتعلقات بأمر البلدان، وأنموذجات من تراجم الأدباء الأعيان في هذا القسم والثاني والثالث فذلك مما يرتضيه الإمتاع، وتقتضيه بواعث الإتباع، رغبة في ذكر الشيء مع ما يماثله أو ما يدانيه أو ما يتعلق به، وإن كان خارجاً عن المقصود فالحديث يعرض لما يجري في الحديث قبله، وإن لم يكن من بابه ولكنه يذكر به كما قال أبو العباس المبرد[3] في كامله وذاك إما معنى لطيف أو خبر

---

(١) البيتان لابن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٤٦٣هـ.

(٢) ابن الرومي هو أبو الحسن علي بن العباس الرومي، شاعر مطبوع مكثر وديوانه مطبوع وترجمه ابن خلكان (ج ٣ ـ ٤٢) ومولده ببغداد سنة ٢٢١هـ ووفاته بها سنة ٢٨٣هـ والمحفوظ عندي أن هذين البيتين لأبي الأسود الدؤلي ومنها:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

(٣) أبو العباس المبرد: هو محمد بن يزيد الثمالي الأزدي البصري عَلَم من أعلام النحو واللغة والأدب ترجمه ابن خلكان (ج ٣ ـ ٤٤١) وسرد نسبه إلى قحطان، وكانت ولادته بالبصرة سنة ٢١٠هـ وتوفي سنة ٢٨٦هـ وله مؤلفات كثيرة أشهرها (الكامل) طبع كثيراً.

ظريف أو مسألة فقهية أو مواردة أدبية ولأن الشؤون للشجون، يتعدى إلى ما وراء موضوعات الفنون، لا سيما علم التاريخ فإن القلم واللسان يكثران في شعابه وشعافه التنقل والجولان.

والقسم الثاني: في تراجم من أخذ عنهم وتخرج بهم مع ذكر ولادتهم ووفياتهم.

والقسم الثالث: في تراجم تلامذته وذكر فضائلهم وإثبات ما عثرت عليه من نظمهم ورسائلهم، وتوفية حق كل منهم ممن وفّى النظر والانتقاد، حتى بلغ رتبة الاجتهاد أو كاد، بسبب التحصيل عليه وتكرير الحضور للاستفادة بين يديه، ولا أتكفل باستيفائهم بَيْد أني أترجم المشاهير منهم فغالبهم ما بين حاكم ومُفْت ومحدث ومدرّس وأديب، ولم أقتصر على البعض إلا لأن فيهم على تَعدُّدِ أعيانهم، وتباين بلدانهم، اليمني، والتهامي، والنجدي، والشامي، والسني، والإمامي، فحصرهم إن لم يكن متعذراً فهو متعسِّر، وذكرت بعض الآخذين عنه من له شعر سائر، وذكر طائر من المستجيزين منه.

وها أنا أشرع في المقصود، وأستعين بالله على نيل الأرب المنشود:

القسم الأول
في
ذكر ولادته ونشأته وكيفية طلبه وهلمّ جراً

* * *

﴿مولد الشوكاني﴾

كان مولـده عام اثنتين وسبعين ومـائة وألف، ثم لمـا ترعـرع وحسر عن وجه التمييـز قناع الـطفولـة، وأكمل قـراءة القرآن شَغُفَ بـالعلوم، وضبـطهـا من طـريقي المنطوق والمفهوم بفـطنة وقّـادة، وقريْحـة نقّادة، وهمّـة أبيّة ونفس زكيّـة، وفضائـل رضيّة، وشمائل مرضيّة، يحرّر المباحث تحريراً شافياً، ويقررها تقريراً وافياً، ويدقق النـظر في المقالات، ويجـوّد البحث في التعقبات والانتقـادات، مـع حضـور في الخاطر، وصحة في الحاسة وصدق في الفكـرة، وسلامـة في القريحـة، أكبَّ على أصول العلم وفروعه، ومفرده ومجموعه، فنظر في الفقه واللغـة، والنحو والصـرف، والمعاني والبيان، والبديـع والاشتقاق والمنطق وأصول الفقه وعلم الكلام.

ثم انبرى للتأليف مراهقاً أو بالغاً سن التكليف، بذهن يختـرق حُجب الغوامض المتعبـة للأفكـار بالتـدقيق، وفهم يتمثل لـه المعقولات، تمثـال المحسـوسـات من قسمي التصوّر والتصديق فكأنما عناه حمزة الحنفي[1] بقوله:

بَلغْتَ لعشـرٍ مضت من سِنيْـك ... مـا بـلـغ السـيِّـد الأشيـبُ

---

(١) حمزة الحنفي هو ابن بِيْض: بكسر الباء الموحدة من بيض: شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية، كوفي خليـع ماجن، وكان منقطعاً إلى المهلب بن أبـي صفرة الأزدي وولـده ثم إلى أبان بن الوليـد، وبلال بن أبـي بـردة الأشعري، واكتسب بشعـره مالاً عـظيماً بلـغ ألف ألف درهم ولم يدرك الدولة العباسية، والحنفي نسبة إلى بني حنيفة: قبيلة من نجد.

فهمُّك فيها جسام الأمور وهَمُّ لداتك أن يلعبوا[1]

ثم لما استفاد في هذه العلوم المتقدم ذكرها أتم استفادة وعرف من مسالك شعابها المعتسف والجادّة، شمَّر تشمير الطالب الراغب لطلب الحديث والنظر في علومه متناً ورجالاً، وتصحيحاً وإعلالاً.

---

(١) هذان البيتان لحمزة بن بيض الحنفي، من قصيدة يمدح بها أبا خراش مخلد بن يزيد بن المهلب، وكان مخلد أحد الأسخياء الممدوحين، وفد على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يكلمه في أمر أبيه وقد حبسه عمر، وكان أبوه قد ولاه جرجان فاجتاز في طريقه بالكوفة فأتاه حمزة بن بيض الحنفي في جماعة من أهل الكوفة فقام بين يديه وأنشده:

أتيناك في حاجة فاقضها وقل مرحباً يجب المرحب
ولا تتكلنا إلى معشر متى يَعِدوا عِدَة يكذبوا
فإنك في الفرع من أسرة لهم خضع المشرق والمغرب
وفي أدب فيهم ما نشأت فنعم لعمرك ما أدّبوا
وجُدْتَ فقلت ألا سائل فيسأل أو راغب يَرْغَبُ
فمنك العطية للسائلين وممن ببابك أن يطلبوا

فقال: هات حاجتك فقضاها وقيل أمر له بمائة ألف، وقدم على مخلد رجل قد زاره قبل ذلك فأجازه وقضى حقه فلما عاد إليه قال له مخلد: ألم تكن أتيتنا فأجزناك، قال: بلى، قال: فما الذي ردّك إلينا، قال: قول الكميت فيك:

فأعطى ثم أعطى ثم عدنا فأعطى ثم عدت له فعادا
مراراً ما أعود إليه إلا تبسَّم ضاحكاً وثنى الوسادا

فأضعف ما كان أعطاه. قال قبيصة المهلبي: وهب مخلد من لدن خروجه من مرو الشاهجان إلى أن ورد دمشق ألف ألف درهم، فلما أراد الدخول على عمر لبس ثياباً مستنكرة وقلنسوة لاطيّة فقال له عمر: لقد شمرت، فقال له: إذا شمرتم شمرنا وإذا سبلتم أسبلنا، ثم قال له: لقد وسع الناس عفوك فما بالك حبست هذا الشيخ فإن تك عليه بينة عادلة فاحكم عليه وإلا فيمينه أو فصاله على ضياعه، فقال يزيد: أما اليمين فلا تتحدث العرب أن يزيد بن المهلب صبر عليها ولكن ضياعي فيها وفاء لما يطلب، ومات مخلد وهو ابن سبع وعشرين سنة، فقال عمر: لو أراد الله بهذا الشيخ خيراً لأبقى له هذا الفتى ويقال أن مخلداً أصابه الطاعون فمات وصلى عليه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ثم قال: «اليوم مات فتى العرب» وأنشد متمثلاً:

﴿مشـايخـه﴾

ولقي المشـايخ العـظام كالعـلامة المجتهـد أبـي إبراهيم عبـد القادر بن أحمـد الكوكباني والعـالم المتألـه علي بن إبراهيم بن عـامر، والمحقق الـرحال يـوسف بن محمد بن علاء الدين المزجـاجي والمتفنن المتقن الحسن بن إسماعيـل المغربـي، والضيـاء المتبحر صِـدِّيق بن علي المزجـاجي وستأتي تـرجمـة كـل واحـد منهم في موضـع ذكره من القسم الثاني إنشاء الله تعالى.

فروى عن هؤلاء الخمسة الأمهات والمصنفات والمسنـدات، والمستخرجـات والمستدركات والمسلسلات سماعاً وإجازة، وحصل سنداً عالياً جداً فكان بينـه وبين رسول الله ﷺ أربعة عشر رجلاً.

وبيانه أنه رويٰ عن شيخه السيد عبد القادر بن أحمد عن محمد بن الطيب عن محمد بن أحمد الفاسي عن أحمد بن محمد العجل عن القطب النهروالي عن النور أبـي الفتـوح عن أبـي يـوسف الهـروي[1] عن محمـد بن شـاذبخت عن يحيـى بن

على مثـل عمرو تـذهب النفس حسـرة ... وتـضحـى وجـوه القـوم مـغبـرة سـودا

ورثاه حمزة بن بيض الحنفي بأبيات منها:

وعُـطِّلت الأسـرة مـنـك إلا ... سـريـرك يـوم تـحـجـب بـالـثـيـاب

وآخـر عـهـد بـابـك يـوم يـحـثـى ... عـلـيـك بـدابـق سـهـل الـتـراب

ابن خلكان (ج ٥ ــ ٣٧٢) ومات مخلد في حدود سنة مائة من الهجرة.

(١) قال في هامش الأصل: ما لفظه: قوله عن أبـي يوسف هذا غلط فهو بـابا يـوسف بن عبد الله الهروي وقال لقيه الطاووسي وله من العمر ثـلاث مايـة وسبـع سنين وسأل مشـايخ بلده عنه

عمار بن شاهان عن الفربري عن البخاري قال في صحيحه: حدثنا مكي بن إبراهيم، قال حدثنا يزيد بن أبي عديد، عن سلمة بن الأكوع، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تقوّل عليّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار».

وهذه غاية ليس في وقته مثلها في العُلُو غاية فقد روى هذا الأثر المتواتر في المائة الثالثة عشر من الهجرة وليس بينه وبين النبي ﷺ إلا أربعة عشر رجلاً.

وقرأ في تفسير القرءان متتبعاً خفيات نكاته، وناظراً في دراياته ورواياته ثم لما فهم هذه العلوم فَهْمَ مَنْ آنس منها رُشداً وذاقها ذوق المشتار من مجاج النحل شهداً[١]، صار مطلق الاجتهاد ملك بنانه وطَوّع قلمه ولسانه، هيْناً ليْناً إذا قاده انقاد، وإذا أناخه استناخ، فباحث وناظر، وتعقب واعترض، وناقش وانتقد حتى سلّم له فحول المعاصرين، وأصبحوا بين يديه خاضعين غير مفاخرين، وكان إذا تشذّر لمباراته معاند أو جاحِد[٢] أو استشرف لمقاولته مكابر أو حاسد، قطع لسانه ببيّنات الحجج، وحسم مادته بواضحات البراهين وقطْع اللجج، فانتشر ذكره وبعد صيته وصارت الركبان بمعاليه وتحدّث السمّار ببركة أماليه، واستحكمت على قلوب الموافقين محبته، وتمكنت بأرواع[٣] المخالفين هيبته، فصار بحراً موروداً، وكهفاً مقصوداً، يغشاه المتأدب المتهذب، ويخشاه المتمذهب المتعصّب، وكان إذا قصده قاصد مكروه من ألْسِنَةِ جهلة أهل العصبية كما هو جاري عادة أسرى التقليد منهم لاستيلاء غشاوة العماية على أبصارهم والعَمَهِ على بصائرهم وانطباع أثر العصبية في

فقالوا إنهم لا يعرفونه هم وآباؤهم إلا كذلك وأجدادهم وكذلك ضبطه العلّامة المجتهد أحمد بن محمد قاطن في كتابه. وضبطه العلامة إبراهيم الكردي صاحب «الأمم الأعلام» وكذا وقع الوهم من المصنف في قوله عن القطب النهرواني بالنون وهو قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي: باللام منسوب إلى نهروالة بلدة من بلاد الهند. قال في الإعلام بأسانيد الأعلام هو صاحب «الأعلام بأخبار بيت الله الحرام».

(١) المشتار: الذي يجني العسل من خلايا النحل ومجاجه: خالصه، والشهد: العسل.

(٢) تشذر: تهيأ للقتال ونحوه.

(٣) بأرواع: كأنه جمع روع: الفزع ومنه أفرخ روعه أي ذهب فزعه وسكن.

عقولهم وضمائرهم تلقاهم بالزَّبر والجَبْه[1] والتثريب والتوبيخ، بقلب جريء وأنفٍ حميّ، وعزم ذكيّ ورأيٍ بالصواب رويّ، فتنادت جميع طلبة العلم في صنعاء المحروسة بشعاره، والاقتفاء لآثاره، والوقوف عند إصداره وإيراده، لعلمهم بانهيار علل أضداده العليلة، واضمحلال شبههم الركيكة الكليلة، ولم يبق خارجاً عن هديه، ومخالفة أمره ونهيه إلا من غلب عليه الحسد له على ما أتاحه الله وقدره له من حظ العلم الموفور، وقضاه من تيسُّر نجاح ذلك السعي المشكور، والخير الذي يبقى على الأيام أثره، ولا يخلو عن الزمان ذكره ومفخره.

* * *

(١) الزبر: الزجر، والجبه: مواجهة الأمر بصرامة.

﴿توليته للقضاء الأعلا﴾ [1]

ثم لما طاب نشره، واستتبّ بدره، وفاض بحره وزخر، وقذف من الفوائد بفرائد الدرر، ولمعت أنوار كماله، وطلعت شموس سعادته وإقباله، واشتهر عنه أمران يقلّ وجودهما في شيب الزمان، ودع عنك الأحداث والفتيان، وهما العلم المدروس، والورع المحروس، استدعاه أمير المؤمنين المنصور بالله أبو أحمد علي بن المهدي رضوان الله عليهما وعرض عليه تولي قضاء القضاة ــ في شهر رجب من شهور سنة ١٢٠٩ تسع ومائتين وألف في عامة ديار مملكته من أرض اليمن ثقة باضطلاعه بالأمر وأمانته، ورغبة في ورعه وعفافه ونزاهته، فحاول الاستعفاء عن ذلك وأدلى بمعاذير كثيرة منها ما هو عليه من الاشتغال بالدروس، وتقييد أوابد الفوائد في الطروس، فلم يقبل الإمام المنصور منه معذرة، وصرّح له في خلال المراجعة أنه لا يعفيه واستدل لتعيّن الأمر عليه، بفقد من يسدّ مسدّه فيه فحجّه في المقال، بما فرض من القبول والامتثال على أنه حاول التنصّل عن القضاء، وهو متلفع بجلباب من الرضا رغوباً عن الميل إلى النيل وفطاماً للنفس عن ارتضاع ثدي الشره والهلاع، مع إضاقة لديه، وصفورة في يديه[2]، وقتر في معاشه، وخشونة في رياشه وثَمَّ[3] أمر الإمام بالخلع عليه، وتسليم مرسوم ولاية القضاء إليه

---

(١) هذا العنوان منا.

(٢) إضاقة: أي ضائقة أي أنه في ضنك العيش، والهلاع: الهلع: الحزن على شظف العيش وصفورة اليدين أي خالية من الدرهم والدينار.

(٣) ثمَّ هنا: فتح الثاء المثلثة وتشديد الميم أي هنا ظرفية.

فتولاه بنفس كصفحة الشمس نظافة وطهارة، أو النهر يـدرك الناظـر إليه لصفـاء لونـه قراره، وقام بهذه الوظيفة العسرى قيام شريـح بها[1] بين يدي عمر مسدداً مرضيّاً في حـالتي الورد والصـدر، مشكوراً مـذكوراً على ألسنـة الناقلين عن العيـان والخبـر، موصوفاً بالزهد والتقشف، والعفة في أندية البادية والحضر.

* * *

(١) شـريـح: بضم الشين المعجمـة وهـو المشهـور بشـريـح القـاضي ابن الحـارث الكنـدي الحضـرمي، له صحبـة تولى القضـاء لأربعة من الخلفـاء وهم عمر وعثمـان وعلي ومعـاويـة ولا يعرف عنه إلا العفاف والإنصاف وله قضايا وحكايات يطول ذكرها ولما تولى القضاء قال: أصبحت ونصف النـاس أعـداء لي. وتـوفي سنـة ٧٧هـ عن مـائـة وثمـان سنين، تـرجمـه ابن خلكان (ج ١ ــ ١٦٧).

﴿صورة من ورع الشوكاني وتقشفه﴾(١)

وهـا أنا أشيـر في هذا القسم الخـاص به إلى مـا يتعيّن عليّ شرحـه في هـذا المقام من تورّعه عن الدرهم والدينار، لما تمكن في بحبوح رتبة القضاء، ومـا جُبل عليـه من إغلاظ المقـال للجانف عن الحق عـظيماً كـان أو حقيراً رئيسـاً أو مرؤوسـاً شريفاً أو مشروفاً من دون مداجاة ولا مداراة ولا مراعاة مداهنة ولا محاباة:

وفضـاضة يلقى بهـا العاصين لا　　　يلويـه كـونهم ذوي إكـرامـهِ(٢)

أمـا الأمـوال فـإنهـا تستـوي هي والتـراب في عينيـه لا يشكـو سـالبهـا إشـارة ولا نطقاً، ولا يشكر واهبها شكراً يصير به رقّاً، ولا يرغب في نوال، ولا يتوخّى رضا رئيس ولا وال، هـذا إذا كانت من المـال الحـلال، التي يسـوغ لـه قبضهـا من بيت المال. وأما الهدية فيأبـى قبولها على الإطلاق ولا يستجيز قبضها من أمير ولا مأمـور في حالتي اليسر والإملاق.

حكى لي بعض العـارفين عن أحمـد بن علي بن محمـد بن أحمـد الـشطي الصعدي القاضي(٣) وكان قد عزم صحبة شيـخ الإسـلام لينظر لـه في صغار الأمـور الواردة في تلك الرحلة التي لا يحتاج إلى توليهـا بنفسه أنـه لما وصـل أمير المؤمنين المتوكل على الله أحمد بن المنصور بالله رضي الله عنهما إلى اليمن الأسفل(٤) في سنة

---

(١) العنوان منا.

(٢) لا أعرف قائل هذا البيت.

(٣) تأتي ترجمته للمؤلف، والصعدي نسبة إلى صعدة المدينة المشهورة بشمال اليمن.

(٤) انظر تحديد اليمن الأسفل في قرة العيون ص ٣٢ ــ الطبعة الأولى.

ست وعشرين ومائتين وألف وكان شيخ الإسلام في صحابته كما ذلك جاري عادة الخلفاء يستصحبونه في نهضاتهم فأقام بإقامة الإمام في إب أو في ذي جبلة[1] فزاره الأمير علي ابن أحمد بن علي بن سعد الجماعي[2] وكان شاباً خيّراً كثير الصِّلة والإنفاق موصوفاً بمحبة أهل الفضل على الإطلاق وكان حينئذٍ هو العامل على البلاد التعزيّة وما يتصل بها من ولاية الحجريّة[3]، ونُقِلَ عنه من فعل الخير، واصطناعه إلى مستحقيه غرائب، فلما دخل على شيخ الإسلام جعل العارضة له من النقد نحو ألف قرش وكان قد استشعر عدم قبوله لما يهديه إليه، ويعرضه عليه فلما سأله ذلك وقابله بالرد، أقسم له بأغلظ ما يكون من الأيمان في خلال المحاورة إنك لو لم تكن قاضياً لأهديت هذا القدر من المال لما أجده في نفسي من صدق الولاء لأرباب الفضل ومحبة العلم وأهليه فلم يقبل منه ذلك البتة[4].

* * *

(١) إب: بكسر الهمزة وجبلة وتسمى ذو جبلة هما مدينتا مخلاف جعفر المناخي. انظر قرة العيون ومفيد عمارة والمعجم.

(٢) لم يترجم الإمام الشوكاني لهذا الأمير علي بن أحمد بن سعد الجماعي في كتابه البدر الطالع ولا في زبارة في ملحق البدر على أن شهرته لا زالت إلى يوم الناس هذا وله ذرية باقية لهم رئاسة ومنهم اليوم مشايخ المذيخرة، وكان يسكن هذا الأمير قرية الأصيلع من عزلة بني حماد المعافر وله فيها ذرية ومآثر، والجماعي: نسبة إلى قبيلة جماعة المشهورة الخولانية القضاعية.

(٣) التعزية: نسبة إلى مدينة تعز. والحجرية هي المعافر.

(٤) ألبتة منصوبة على المصدر، والبت: القطع، ومعنى ذلك الجازم الذي لا رجعة فيه.

﴿شجاعة الشوكاني في ذات الله تعالى﴾[١]

وأما عزْمَاته على الرؤساء وأهل الجبروت فقد أسلفت الإشارة إليها في جملة النعوت، ولقد أخبرني والدي طاب ثراه أنه نقل إليه في مبدإ ولاية شيخ الإسلام القضاء: ما حاصله أنه جرى تلاحي فيما بينه وبين أحمد بن إسماعيل الفائعي[٢] الوزير الصنعاني وكان ذلك بين يدي الإمام المنصور بالله رضوان الله عليه بسبب ظلامة جرت منه على بعض الرعايا فصال على السيد أحمد صولة نقعت لونه ولم يرد معها جواباً.

ومن ذلك واقعة صدرت من علي بن سعيد الحاج العنسي[٣] وكان رجلاً جسوراً عسوفاً لا يرقّ لشاكٍ، ولا يرحم عبرة باكٍ، واستكتبه الشريف الأفخم والرئيس الأعظم أبو أحمد محمد بن المنصور[٤] لما فوّض إليه والده ولاية ذمار، وكان قد أشفى منظوم أمرها على الانتشار وتوالى على ما يدانيها من الديار مثار الأشرار، ووقع التعدي من أهل «الحدا»[٥] على قطع السبيل بالغزو والمغار، وذلك في حدود سنة اثنتين وعشرين أو ثلاث وعشرين ومائتين وألف، فلّما وصل إليها وكل إلى ابن الحاج أمْر تدبيره مفوَّضاً في تقديمه وتأخيره، واختاره لمهمات شأنه، وأسرار ديوانه، ويومئذٍ

---

(١) العنوان منا.

(٢) أحمد بن إسماعيل الفائعي. لم يترجم له الشوكاني في كتابه ولا زبارة في الملحق وترجم له بنيل الوطر (ج ١ ــ ٧١) ترجمة كبيرة ولم يذكر مولده وذكَر وفاته في تاسع صفر سنة ١٢١٩هـ ولم يسبق ذكر لما ذكره المؤلف.

(٣) لعلي بن سعيد العنسي هذا في الأوساط الشعبية ذكر وأشعار قيلت فيه إلى يوم الناس هذا.

(٤) لم يترجم لمحمد بن المنصور علي لا الشوكاني ولا زبارة في الملحق ولا في نيل الوطر.

(٥) الحدا: قبيلة تقع مساكنها شمال شرقي مدينة ذمار نسبت إلى الحدا بن نمران بن مراد بن مذحج لها فلتات في التاريخ في السلب والنهب وفتكات أحياناً.

نكب المتوكل وزير أبيه المنصور بالله، وهو الفقيه حسن بن حسن العُلُفي[1] ومن لديه من ذويه، وعشيرة أبيه وذلك ليلة الأحد ثاني وعشرين شهر رجب من عام ثلاث وعشرين، وكان إيقاع المتوكل به قبل أن يقعد على سرير الخلافة، وكان من أقرباء الوزير المذكور رجل يسمى علي بن سيف الدين العلفي، وهو ذو دثور وإقطاع وسلاح وكراع[2] فبادر علي بن سعيد العنسي بجماعة إلى مستقر ابن سيف الدين من محلة (رداع)[3] فقبضوا عليه، واستصفوا لابن الحاج جميع ما لديه ووصلوا به إلى ذمار فوضع عليه المصادرين حتى أتى على جميع ما يملكه من المنقول ولم يبق له سوى إقطاعه فتعذر على ابن الحاج حيازتها بالنقل وإحرازها بالربط والعقل، فتعلّله بما لا يلزمه، وطلب منه مالاً يغرمه، وما ذاك إلا أنها خيّلتْ له بوارق الأطماع، تملّك ما فضل لابن سيف الدين من الضياع فأعرب ابن سيف الدين عن نفسه بالخطاب بأنه لم يبق له ما يفتدي به من أليم العذاب فأكرهه ابن الحاج على أن يبيع منه إقطاعه وأن يملكه بمرسوم حاكم ضيّاعَه فباع منه ابن سيف الدين جميع عقاره وهو كاره، ليفتدي بذلك البيع من إساره، ودالت الدولة بعد اضمحلال تلك الصولة، ثم مضى ابن سيف الدين لسبيله، وطلع بدر إنصاف خلفه بعد أفوله، فأفضى بهم وابن الحاج الخصام إلى مقام الأستاذ المقام شيخ الإسلام، فبحث عن صورة الواقع، وتبين له الظلم من المرافَع للمرافع فحكم بإرجاع الملك لأهليه، وردّ الحق لمستحقيه وكان يومئذ لابن فارع الوزير[4] ميل إلى ابن الحاج إذ هما رضيعا لبان الظلم وفرسا رهانه، فشكى ابن الحاج إليه صورة الواقع، وما دهاه من الأخذ للمظلوم منه فأذن له ابن فارع باسترجاع الأرض عن فائل رأيه إيثاراً لحق إخائه ووفاء له بما وعده من نصره وولائه:

---

(١) لم يترجم الشوكاني للعلفي وكذا زبارة في الملحق وترجمه بنيل الأوطار (ج ١ ـ ٣٤٤) ولم يذكر مولده ولا وفاته والحال أنه نقل عن البدر الطالع وليس موجود فيه بعد البحث.

(٢) الدثور: جمع دثر: المال الكثير، والكراع: الخيل وآلة السلاح.

(٣) رداع: بفتح الراء مدينة عامرة، نزهة نظرة ذات بساتين وحدائق وتقع في الشرق من ذمار لمسافة تسع ساعات تقريباً، واليوم بالسيارات دون الساعتين.

(٤) كذا في الأصل وصوابه (فائع) إذ هو المذكور في السياق.

وأنت أخي فابشر بنصري فإننا رضيعا لبان الجور طفلين في المهد
سيكفيك في منع اليتيم تراثه شريكك في ظلم المساكين بالعهد[1]

فلما صافح ذلك الكلام مسامع شيخ الإسلام اعتذر عن إنفاذ الرقوم ورغب عن التصدر لفصل الخصوم، فضرع ابن فارع إليه وكرر الاعتذار بين يديه، ورجع على نفسه بالملامة، وطلب منه اغتفار عثرته بصريح الندامة، وتألَّى أن لا يعود إلى ذريعة[2] تقضي بتعرضه مخالفة أحكام الشريعة.

وقريب من هذه الصورة ما أخبرني به بعض العصريين أن الشيخ المعروف بعبد الله الضلعي أو الفرح[3] السهو مني وكان من أعيان الأمراء وأكابر الرؤساء، وصل إلى صنعاء عام إحدى عشرة ومائتين وألف منقلباً من ولاية أحد الثغور فقدم بين يدي نجواه لرتوت الدولة وأنيابها[4] ووجوه أبوابها كرائم أموالٍ ومعكمات أثقال مصونة وغرائب مضنونة[5] واختار من نفيسها شيئاً من المبار، وتحف الأمصار، وأرسلها إلى شيخ الإسلام فقبل كل منهم الذي أهداه ما عداه فإنه قابله بالإعراض، وعدم الاستعراض وأجاب عليه برده، معتذراً إليه من تجشمه قبول رفده، ولمضيِّ عدة من الجديدين[6] روفع إليه في جمهور من الدين، وحين

(١) لا أعرف قائل هذين البيتين، ورضيعا لبان مثل يضرب لمن اشترك في جريمة أو غيرها، واللبان: بكسر اللام اللبن أو ما يخرج بعد الولادة ويصنع منه اللبا.
(٢) تألَّى: حلف اليمين، والذريعة: الوسيلة.
(٣) قال في هامش الأصل: هو الشيخ الماجد الكريم عبد الله بن ناجي الضلعي فراقم هذه مطلع على القصة ولم يترجم له فيما ذكرنا، ولبني الضلعي بقية في عيال سريح شمال صنعاء، والفرح: أسرة كريمة من مخلاف عمار.
(٤) الرتوب: جمع رتب رئيس البلد، وأنيابها: جمع ناب وهو السيد الكبير في القوم.
(٥) معكمات: كل شيء معكوم وهو المسدود المختوم، والمضنون: بالضاد المعجمة كل ما يضن به وكان في الأصل بالطاء وهو خطأ.
(٦) تجشمه: من الجشمة وهو انقباض في حياء، والرفد: العطاء، والجديدين الليل والنهار. قال ابن دريد في مقصورته:
إن الجديدين إذا ما استوليا على جديد أدنياه للبلا

تقاضاه الغريم التوفير، أدلَّ[1] في موقف الخصام بمعاذير، واعتلّ في الحال بإفلاسه وخفة أردانه وخلوّ أكياسه فتلطّف القاضي للغريم في إمهاله، فأبى إلا تسليم نقده وتنجيز ماله وأفرط في اللجاج، لما به إلى حقه من الاحتياج، واغتناماً لتقاضيه، لدى من يحب أن يغضب الظالم ولا يرضيه، فالتفت شيخ الإسلام إلى من كان بحضرته من الحكام، فقال لهم قد كدت أحابيه برغيبته المشؤومة وكنت قد رددتها عليه كما هي مختومة، وكان الشيخ الفرح[2] قد طوى كفّاً من ذهب أحمر في قرطاس، كما يطوي الحاكم رقومات الأحكام ويجعل عليها قرطاساً، جامعاً لها، فلما رآه شيخ الإسلام ارتاع، وبادر بإرجاعه في تلك الساع، وإنما فعل الشيخ المذكور كذلك لئلا يطّلع أحد على ما هنالك، ورأى ذلك من ألطف المسالك.

فلعمري لقد كذب الحاكم الذي يزعم أنه يقبض الهدية من الخصْم المبطل، ويبرم الحكم عليه صدعاً بما ندب الشرع إليه، حاشا وكلّا فما أراه إذا كان قد سقط على الدينار، سقوط الفراش على النار إلا تخبط إذا حكم، وتورط إذا نقض أو أبرم، ثم حثى شيخ الإسلام حفظه الله على ركبتيه وتحدر على ذلك الرجل تحدر السيل إلى قرارة الوادي، وقال له: قد أوجبت عليك تسليم ما لديك أو يدقّ القيد على رجليك، فشكى الفقدان، وعدم الوجدان فلما رآه يأبى إلا اللداد أهاب بالصّاغية[3] فذهبت به إلى الحداد، فلما رأى الهوان والحصول في حضرة السجّان دعى بذلك الضعيف، وأطلق عليه ماله من تليد وطريف[4].

فكهاتين الواقعتين[5] فلتكن صوادع الأحكام وصوادر النقض والإبرام، وكفعله في ردّ صنيعة الأمير الجماعي، فليكن الورع الشحيح والتصرف في أسواق أهل

---

(١) أدلّ: كذا في الأصل وصوابه أدلى.

(٢) فيما سبق الضلعي أو الفرح وهنا قطع بالفرح.

(٣) الصّاغية: أعوان الحاكم من الجنود.

(٤) التليد: القديم، والطريف: الجديد.

(٥) كذا في الأصل وصوابه: فهاتان الواقعتان.

المتجـر الربيـح، وكفى بمـا ذكرتـه برهـاناً على تـديّنه وعفـافه، وحجـة على صدق ما ينقل من جميل أوصافـه، وإن كان شـرحها كـالإخبار، عن ضـوء النهار، والقمـر النـوار الـذي لا يخفى على الأبصـار، وحسبـه أن ليس لـه على الأرض دار من معموراته، ولا ضيعـة من كسبـه، فكـل الأخبـار عنـه إلى علم النـاس بـه فـإني وإن أسهبت في المقـال عنه عـاجـز عن استقصـاء النهـايـة، قـاصـر عن بلوغ الغـايـة، ومـا سطرتـه قطرة من البحـر الزّجـاف، أو ذرة من الجبل المتنـائي الأطـراف، ولكن غزارة الغدير، تدل على أنه مقتطـع من فرات نمير.

* * *

﴿ومن محاسنه﴾

ومن محاسنه الغرّ، ومناقبه الزهر، سجية غذاه الله بها، وجِبِلَّة على ارتضاع أحلابها، من تقليده الأعمال، ذوي الهيئات، وتخصيصه بها أهل البيوتات، فلا يطرح في مقام الخصام، ما يتسبّب عنه الدخل والارتزاق، إلا وألقاه على أحد الحاضرين، من العلماء ذوي الاستحقاق، جرياً على عادته المألوفة، وقاعدته المعروفة، وهو لا يُنْغض رأسه إلى الاستئثار عليهم بقليل ولا كثير، ولا يطمح بصره إلى المشاركة لهم في نقير ولا قطمير، صيانة لرونق العلم وجلاله، وحفظاً لمنصبه الشريف عمّا يفتّ في عضده، ويخدش في وجه جماله مع همة بين شوابك النجوم، وعصمة من لدن الحيّ القيّوم، صرفتاه عن الرتاع حول رباع الأطماع، ولأنه عَرَفَ مقدار الدنيا، وأنها كالسراب، فصارت في عينه أدق من التراب، لا يروقه زبرجُها، ولا يستهويه رائجها، لم يزل متمكناً من وظيفة القضاء، أثيراً عند الخلفاء، من سنة تسع ومائتين وألف إلى وقتنا عام أحد وأربعين وذلك، حين تحرير هذه الأسطر وهي تتطفل عليه، فيأباها، ويرى النجاة فيما عداها.

لما رأى الدنيا الدنيّة شلوةً ... ذفراء بين خوامع ونسُورِ
لواه خوف الله عنها راضياً ... ممّا يسوغ لمثله بيسير(١)

وأما جلالة قدره ونباهة ذكره، فأمر قد انتشر واستطار وملأ جميع الأقطار،

---

(١) البيتان لا أعرف قائلهما، والشلو: العضو المبتور، والذفرى بالفتح والكسر: المنتنة الريح، والخوامع: الضباع، وألواه: أعرض عنها.

وسارت به القوافل، وصقلته المشاهد والمحافل، فتكفي بـه الإشارة لقصور العبارة.

وذلك أنه لما كان في الدولة المنصورية، والدولة المتوكلية والدولـة المهدويـة سنـان قناتهـا الحديـد وإنسان مقلتهـا الحديـد[1]، وسماء فضلهـا وشمس عـدلهـا، والصدر الذي عليه التعويل، إذا ورد أيّ أمر ثقيل:

النـاس جسـم وإمـام الهـدى رأس وأنـت العـين في الرأس[2]

* * *

(١) الحديد الأول: المعدن المعروف والحديد الثاني: من الحدة وهي دقة النظر والذهن الوقاد.

(٢) لا أعرف قائل هذا البيت.

﴿الشوكاني يتولى جواب الرسائل والمرسومات﴾

فكان كلما ورد إلى الحضرة المعمورة إنشاء الله بالعدل والإنصاف لأخْيَر الأخلاف، وأفضل الأسلاف، من بني عبد مناف ـ واردٌ من الشرق ومصر والشام، وبلاد الأروام فلا يزال للمساء والصباح راجعاً إليه في خطابه، ومتردداً في المغدى والمراح إلى كنف جنابه فيرى من وفور الحرمة وظهور الحشمة وكرم الطِّباع، وحسن الاستماع والفخامة في الخطاب مع الإمتاع ما يعجب منه لمواقع الصواب المفضول، وجوامع الجواب، والإيجاب عند الحصول، فإذا انتهى بأهل مجلسه قدم السلوك إلى المذاكرة في غضون المحاضرة، رأى من سرعة بادرته، وغزارة مادته وكمال إفادته، ما ينبغي نقله بالتسويد وتعليقه وحفظه بالتقييد، وتوريقه فإذا حضر ورْد قرآءة الحديث، وراتب إملاء شروحه صافح سمعه من المقال، وترتيب الاستدلال وصريح التعليل، وصحيح التأويل وجودة الاستنباط، ومناسبة الفرع للأصل في الارتباط، ما يذهب به إلى رفض إمامه السابق، ويرغب معه إلى تقليد الإمام الحاضر اللاحق.

ولذاك قد فاق النبي محمدٌ　　　كلَّ البريَّة وهو آخر مُرسل(١)

فترى ذلك الوارد لأجل ما يراه، ينقلب إلى قطره ناشراً لجميل ذكره يملأ الأرض ثناء والسماء دعاء.

---

(١) لم أجد قائل هذا البيت وذكره في (ريحانة الألباء، ص ٥) بلفظ (أوَما ترى أن النبي محمداً، فاق البرية. . .).

لـولا بـدائـع صنـع الله مـا نبتت   تلك الفضائل في لحْمٍ ولا عصب[1]

ومـع هـذا فتجـده أنصـح الخلق لسلطانـه وأحسن أربـاب المملكـة تسـديـداً وتوفيقاً بين أعوانه فلا يضمر له غشاً، ولا يـرضى بأن يـرى في جانب الخـلافة عبثاً ولا رَحشاً[2] نظراً منه إلى ما جاءت به الأدلة من الأمر بطاعات الأئمـة، إذ صلاحهم صلاحٌ للأمة.

ومـا زلت توليـه النصيحة يـافعـاً   إلى أن بـدا في العـارضين قتيـر
إذا غـالـه أمـر فـإمـا كفيتـه   وإمـا عليه بـالكفاء تشيـر[3]

واهتماماً برعْيه الرعيّة، وأخذاً بأطراف العدل في القضية، وإشفاقـاً عليهم من شامل الهيـج، وعارض الاضطراب والهرج وما زال الله سبحـانه يـدفـع به عن هـذه الدولة القاسميّة خلدهـا الله وأهلها وأمن بلادها ورعيتهـا من شوائب الفتن، ونـوائب المحن ما لا يعهد مثله منذ خرج الأتراك من أرض اليمن[4] إلى وقتنا هذا.

فمن ذلـك فتنة النجـدي التي صمَّت وعمَّت[5]، واشتدّ بـلاؤها، وعمَّ بلواهـا حتى تـأججت بأطـراف اليمن نارهـا، واشتعلت بحمّى وطيسها أقـطارهـا، واتصلت بالأغوار والأنجاد. وعصـف أعصار دخانها بجميـع البلاد، فحلّق قتامها بجوّ الحجاز سحاباً، وانهلّ به عارض وبلها شرراً والتهابـاً، فعجز عن دفعهـا الملوك، وأذعن لها المالك والمملوك، ودكدكت الصياصي، وحزّت بشفرتها النواصي، وهـابها كـل داني وقاصي، فلما أنـاخت كلكلهـا بتهـامة الشـام وتلك الأطراف، واشتم ريـح أنفـاسها

---

(١) لم أجد لمن هذا البيت.

(٢) رحشاً: بالراء والحاء المهملتين والشين المعجمـة: لم أجد هـذه المادة في القـاموس ولا في شمس العلوم. وفي القـامـوس: تـرخش: تحـرك، واتخش: اضـطرب أي بـالـراء والخـاء والشين.

(٣) غير معروف قـائل هـذين البيتين، واليافـع: من بلـغ سن البلوغ، والقتيـر: الشيب، ثم تبين أن هذين البيتين لأبـي نواس يمدح الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر.

(٤) كان خروج الأتراك من اليمن للمرة الأولى بالصلـح سنة ١٠٤٤هـ.

(٥) النجدي: هو الداعية محمد بن عبد الوهاب.

رعايا مخلاف أبي عريش والأشراف[1] في عام اثنتي عشرة مايـة وسبع عشرة، فكتبوا إلى الإمام المنصور بالله يشكون إليه ما دهمهم، ويستغيثون بـه مما أهمّهم فلما حصل بذلك اليقين عند الإمام وعلم أن ذلك ليس بأضغاث أعلام.

* * *

(١) في هامش الأصل ما لفظه: وذلك بعد التاريخ المذكور بأعوام فذاك التاريخ لم ينتشر أمر النجدي لا كما ذكر فلم يكن إلا في سنة ١٢١٧ وما بعدها. والشام المراد به في عرفنا: الشمال ومخلاف أبي عريش هو المخلاف السليماني نسبة إلى سليمان بن طرف الحكمي كما كان يسمى مخلاف حكم نسبة إلى حكم بن سعد العشيرة المذحجي، وأبو عريش بلدة عامرة لها ذكر في أقدم التواريخ وقد أفضْنا القول فيها في المعجم.

﴿الإمام الشوكاني
يحلّ عقدة الإمام﴾

استدعى رضي الله عنه شيخ الإسلام واستخلى له مقعده وألقى إليه من ذلك ما أقامه وأقعده فعرف شيخ الإسلام من حال الإمام شدة القلق، وتوسم من جفنيه لما راعه آثار الأرق.

وكان الإمام رحمه الله معروفاً بثبوت الجأش لا يرتاع لما يرتاع له أمثاله من الواردات فأجاب عليه بأن مثل ذلك لا يخلو في الزمان ويكون مصيره عن قريب إلى تلاشي وخذلان، ولكن ينبغي الآن حسم هذه المادة، والمبادرة إلى الحزم لهذه الواردة فقال الإمام: وما ذاك فقال تأهيب أمير من الأمراء يكون صحبته جيش نافع تسكن به هذه الدهماء، ويخفي بوقوفه هناك ما عسى أن يراق من الدماء وليس شيء الآن أهم من المبادرة بذلك ليكون تسكيناً لمن هنالك، فهذه كتب أشراف أبي عريش ورسلهم ما زالت تأتي يتلو بعضها بعضاً ولا آمن أن يكون ذلك منهم من باب إقامة الحجة لهم والبراءة كونهم في الحقيقة عمالاً في قطر من أقطاركم منتمين في ولايتها إليكم، وقد جرت عادة صاحب نجد ومركز هذه الفتنة أن من بادر إلى دعوته، وشمله نظام دولته جعله أميراً على تلك البلاد القائم بها ثم يأمره بجهاد من يليه ممن لم يكن قد أجابها ويبيح لهم دماءهم وأموالهم ويكون حكمه نافذاً فيهم كيف شاء وأنه يخشى من الأشراف أن يلجوا في غمارها، وأن يصطلوا بنارها ثم ينعطفون على البلاد التهامية بمن في تلك البلاد من الأعراب، فيجلّ الخطب ويعظم الأمر، ويصير بعض رعيتنا علينا، وإن بادرتم بمن يكون رداً لهم من العدوّ، وحاجزاً عن اللحوق بهم كانوا لنا على عدونا، فلما سمع الإمام

هذه المقالة هشّ إليها، وبنى أمره على التعويل عليها، وكان لكلام شيخ الإسلام أسمع، ولما رآه بثاقب رأيه أطوع، وكان وزير الإمام على تلك البلاد وما إليها الفقيه حسن بن حسن العُلُفي، وكان قصير الرأي كثير البدا، وكان الأمر المشار به من التجهيز منوطاً به فما زال في اضطراب وانقلاب حتى انضمّ أشراف أبي عريش في سمط النجدي وكرّ أصحابه على بندر اللحية وبلادها[1].

وكان قصارى ما أنتج رأي الوزير المذكور بتاقله وتساهله أن جعل في بندر اللحية نحواً من ألف رجل من عسكر حاشد وهم قوم لا يؤكل بهم الكتف[2] إنّما هم كالسَّراب المضمحل:

فإن تك قيس قدَّمتك لنصْرها　　　فقد هلكت قيس وذلّ نصيرها[3]

فما هو إلا أن علموا أن الأشراف قد قصدوا المحل الذي هم فيه فخرجوا منه بلا طعنة ولا ضربة.

وكان زعيم الأشراف وقائد ذلك الجيش بالنواصي والآناف، الشريف حمود بن محمد[4] اجتمع فيه من خلال المجد ما تفرق فيمن عداه من الإقدام والكرم، والرأي والدهاء، فكان الأمر من استيلاء الأشراف على ما يليهم من بلاد الإمام، كما قال له شيخ الإسلام، وكشف له عن وجهه، ولكنه لا رأي لمن لا يطاع: ومثله كما قال الحكيم:

ويَعْرفُ وجه الرأي حتى كأنما　　　تخاطبه من كلّ أمر عواقبه

---

(١) اللحية: بضم اللام ميناء على البحر الأحمر طرف وادي مور. ولم تظهر كميناء يتحدث عنها إلا في القرن السابع الهجري.

(٢) أصل المثل لا يعرف من أين يأكل الكتف يضرب له لصاحب الغباوة والجهل وكان في الأصل (الكذف) بالدال وهم.

(٣) لا أعرف قائله.

(٤) الشريف حمود: ترجم له الشوكاني (ج ١ ـ ٢٤٠)، وقال مولده بعد سنة ١١٦٠هـ وكانت وفاته سنة ١٢٣٣هـ وله سيرة موسومة «بنفح العود، بذكر دولة الشريف حمود» طبعت.

فلما استمكنت اللحية وبلادها بعقد ولاء الأشراف وتصرفوا فيها تصرف المالك في ملكه بلا شبهة ولا اختلاف، عرف الوزير سوء رأيه وأن في تدبير ذلك تدميره، وأن شيخ الإسلام قد كان رأى ذلك من وراء ستر رقيق، وانكشف له عاقبة الأمر انكشاف اليقين والتحقيق، وسقط ما في يده، وتمنّى أن أمّه لم تلده.

فلما رأى الإمام ذلك، وعرف أن الورى قد أصبحوا[1] في شباك المهالك، استدعى شيخ الإسلام وقال له: قد عصيناك فيما مضى، وها نحن نتلقى أمرك بالرحب والرضا، فأجاب عليه أن الرأي الآن أن تعملوا بذلك الرأي الأول وتحصيل المبادرة بأمير عظيم، يصحبه جيش منتخب يكون قبالة الأشراف ليمنعهم عن سائر البلاد التهاميّة ويقاتلهم على ما قد صار منها تحت أيديهم فأمر الوزير بتعجيل الأمير وتحصيله فما زال الوزير كما قال الشاعر:

أقام على الأهواز خمسين ليلة ... يدبر أمر الملك حتى تدمّرا
فدبَّر أمراً كان أوله عمى ... وأوسطه بلوى وآخره خرا[2]

ولا مانع ممّا قضاه الله سبحانه.

ثم انتهى الأمر إلى استيلاء الأشراف على نطاق القطر التهامي، إذ لم يكن به مدافع منهم ولا محامي، في أمور جرت، وقضايا اتفقت.

* * *

---

(١) كذا في الأصل، وصواب العبارة «قد أصبح» بالإفراد، إلا أن يراد الإمام والوزير ومن لف معهم.

(٢) البيتان لا أعرف قائلهما ولم يذكرهما ياقوت في معجمة، والأهواز كورة من إيران قبالة البصرة.

﴿مراسلات الشوكاني لعلماء نجد﴾

وكان أهل نجد يتطلعون لمسائل العلوم، ويبحثون عن جليِّها والمكتوم، فما زال ذو الأمر فيهم ومن إليه المرجع في أمورهم وهو الشيخ عبد العزيز تدور بينه وبين من في ديرته[1] من علمائهم وكبرائهم وبين شيخ الإسلام مسائل علميّة، ويستدعون من مصنفاته إليهم وتدور الكتب بينهم في هذا الأمر فما برح شيخ الإسلام كتب الله سعْيه يجاولهم مرة ويصاولهم أخرى، ويعدهم تارة ويوعدهم مرّة، فحيناً بالإرعاد والإبراق، وحيناً يمنّيهم بالائتلاف والاتفاق، ويرسل إليهم رسولاً ويستدعي منهم آخر، وما زال ذلك دأبه ودأبهم ولسان حاله ينشدهم قول الحماسي[2] في أبياته:

أناة وحلماً وانتظاراً بكم غداً ... فما أنا بالواني ولا الضَّرِع الغِمْرُ

حتى أقام المقال مقام الفعال، وأناب سود الأقلام مقام البيض عند الالتْحام، فجرى بالمداد من الأمداد، ما يجري بالقناة في الجلاد، على صهوات الجياد،

(١) عبد العزيز هو ابن محمد بن سعود مؤسس الدولة السعودية في نجد حوالي سنة ١٢٠٠ ولها تاريخ مسطور، والديرة: بكسر الدال: مجموعة بيوت مشتق من الدير للرهبان.

(٢) الحماسي: كل شاعر دون من شعره في ديوان الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي وقد طبع ديوان الحماسة وشروحه عدة طبعات وعندي نسخة مخطوطة في أول القرن السابع كانت ملكاً لصاحبنا العلامة الأديب المؤرخ محمد بن الحسن الشجني اشتريتها من بعض آل الشجني.

فكان في سنان قلمه، من حربه وسلمه كما قال أخو إياد [١] وثقيف مخاطباً لقومه:

فــقــلِّدوا أمــركــم لله درّكــم رحب الذراعِ بأمر الحرب مضطلعا
لا مُترفاً إنْ رخاء العيش ساعـده ولا إذا عضّ مكـروه بـه خشعـا

أو كقول الآخر [٢]:

إذا مـا انتضى أقـلامـه لمهمّـة تـرى عنده عبـد الحميد كبـاقلٍ
فتنفث في قلب العـدو مكـائـداً وهيهات أن يرقى لها سحر بابلِ
فسائل به أيّ الكتائب في الوغى تخبرْك عن كتبٍ له ورسـائلٍ [٣]

وينشد لسان حاله مخـاطباً بـه الإمام وأهـل دولته قـول عمرو بن معـدي كرب الزبيدي [٤]:

ولـو أن قومي أنـطقتني رمـاحهم نــطقتُ ولكن الـرمــاح أجـرّت

ويسلي نفسه بقول الآخر [٥]:

لك العزُّ إنْ مـولاك عزَّ وإنْ يهُن فأنت لدى بحبـوحة الهُـون كائن

أو بقول طرفة بن العبد [٦]:

---

(١) أخو إياد: هو أبو داود الإيادي وإياد قبيلة من نـزار كانت تنـزل ريف العراق، وأبـو إياد شـاعر جاهلي فحل وثقيف يقال إنها بطن من إياد كانتِ تسكن الطائف ولها بقية إلى عهدنا.

(٢) لا أعرف قائله.

(٣) عبـد الحميد هـو الكاتب المشهـور الذي لازم الخليفـة مروان بن محمـد الأموي وقتـل معـه ويضرب به المثل بالكتابة والوفاء، وباقل شخص عرف بالعي وعدم القدرة للكلام.

(٤) عمرو بن معدي الزبيدي نسبة إلى قبيلة زبيد: بضم الـزاي، فارس العـرب ونجدهـا وشاعـر مجيد والصحابي الجليل. له أخبار كثيرة تؤلف رواية وقصة لو كان لليمنيين همـة وله ديـوان شعـر. انظر أخباره الإكليل الأول والثـاني وصفة جـزيرة العـرب والأغـاني. وهـذا البيت من مقطوعة له ذكرها في ديوان الحماسة.

(٥) لا أعرف قائله.

(٦) طرفة بن العبد: شاعر مشهور، أحد شعراء المعلقات السبـع وديوان شعره مطبوع وترجمنا له في الجزء الأول من الإكليل.

وأعلم علماً ليس بالشك إنه   متى[1] ذلّ مولى المرء فهو ذليل

فأثمر سعيه المشكور، وفعله المذكور المشهور، أنْ كتب صاحب نجد إلى الأمراء الذين قد أظلوا على الدولة[2] القاسمية خلّد الله ملكها أن لا يمسُّوها بسوء ولا بمكروه، وأن يقفوا دونها، وإلا فما كان دونها حاجز ولا عنها دافع ولا ناصر فلم تزل الدولة قائمة الأركان، مستمسكة البنيان، ما عدا تهامة فقد صارت تحت يد الأشراف.

* * *

---

(١) كذا في الأصل وفي رواية إذا ذلّ.

(٢) كذا في الأصل «أظلوا» بالظاء المشالة من الظل المعروف، ولعله أطلوا: بالطاء المهملة أي أشرفوا على الدولة وقاربوا وهو الصواب.

﴿الإمام الشوكاني يتولى البيعة للإمام المتوكل أحمد﴾

وفي أثناء هذه الأحوال انتقلت الدولة القاسمية خلَّدها الله إلى سيفها وأميرها أحمد بن أمير المؤمنين المنصور وتكنى بالمتوكل على الله.

وكان القائم ببيعته، والناظم لأهلها في سلك دعوته، وانتظام دولته شيخ الإسلام، وكان أول من وضع يده على يده، وبايع له الناس بعد أن شرط شروطاً قبل صفقته، منطوية على إقامة كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ وكان المتلقي لبيعة الخاصة والعامة شيخ الإسلام عن الإمام، وهو عن يمينه، والإمام لا يزيد على إجابة من بايعه إلا بإيجاب ما شرطه على نفسه، فنهضت البيعة شروطها، ورفلت في حُلى مُرُوطها، وكانت ليلة توفي الإمام العظيم المنصور بالله رضي الله عنه، وذلك ليلة النصف من شهر رمضان الكريم سنة ١٢٢٤هـ[1] وكان الإمام المتوكل بينه وبين أبيه المنصور بالله رضي الله عنهما بعض ما يوجب التنافر وكان سيؤدي إلى تفاقم الأمور وإحراج الصدور لولا أن دفع الله.

* * *

---

(١) حكى صورة المبايعة شيخ الإسلام في ترجمة المتوكل (ج ١ ـ ٧٧) من البدر الطالع.

﴿الشـوكـاني يحسم الخــلاف بـين المنصــور وبـين ابنــه المتوكل﴾

ذلك ببركات شيخ الإسلام، وكـان أكبر المـوجبات وأعـظمها وزيـر المنصور بالله رحمه الله الفقيه حسن بن حسن العلفي فقد كان كثير السعي بينهما بالإغراء.

فمن ذلك أن القاضي يحيى بن عبد الله العكام[1] وصل إلى باب الـدولة في سنـة ١٢٢٢هـ ومعه جمـاعة من قبـائل ذو حسين، وكـان هذا القـاضي رجلاً أحمقـاً سريـع الغضب ضيق الصدر، وكان الوزير المتقدم ذكره يعامله معاملة غيره من قضاة القبائل وعقّالهم من الاختلاف وكثرة التضرّب، فبينما الإمام المنصـور رضي الله عنه ذات يـوم قد استـدعى شيـخ الإسلام إليـه ليشاوره في بعض المهمّـات فلما وصـل وجد الوزير والمتوكل قبل أن يلي الأمر في محلّ من دار الإمام فعرّج نحـوهما حتى يفرغ الإمام من شغله فبينما هم كذلك إذ دخل بعض أصحـاب الوزيـر يقول له: هذا القاضي يحيى يريدك للاتفاق، وكـان للوزير حـاجة إلى القـاضي يحيى يرسله في أمر له فقام الوزير فخرج إليه فبينما هما يتحدثان إذ أخـذ القـاضي حمقه ونـوكه لمـا اختلفا في شيء فسلَّ جنبيّتـه وطعن بها الـوزير طعنتين ضعيفتين إحـداهما في بـطنه أخذت منها الجلد فقط، فصاحت هنالك امرأة شاهدت ذلك فخرج شيـخ الإسـلام

---

(١) ذو حسين: قبيلة من ذي غيـلان ثم شاكـر همدان أهـل بـرط والجـوف والقـاضي يحيى بن عبد الله العكام. لم يترجم له وإنما حكى المؤرخون هـذه الحادثـة والقضاة بنـو العكام بـطن من قبيلة عنس المشهـورة نـزلت وادي خب وبـرط ولهم رئـاســة متـأثلة كمـا لهم بقيـة إلى ذا الحين.

إلى الوزير، وقد كاد يهلك ذعراً وظنَّ أنه الموت فنظر ما فيه فوجد الأمر هوناً فجعل يسكنه ثم أمر بالقاضي الفاعل وكان إلى جنبه

لما أقدم على الوزير عمَّه وولدان له فقط وكان بعض القبائل من أصحابه خارج الباب فلما رأى القاضي أنه هالك لا محالة فرَّ وصاح هو ومن معه يقولون: الأسد الأسد فكان يظن من رآهما أن الأسد قد خرج من قفصه ووثاقه ووثب وراء القضاة ففرّ الناس حتى إذا انتهى القاضي إلى الباب الذي قد صار خارجاً من الدار عرف الناس تلك الفعلة فوثبوا على من بقي من أصحاب القاضي من القبائل فقتلوا منهم نحو تسعة أنفار، وفرَّ القاضي لوجهه ومن بقي معه حتى دخل في بعض بيوت من يتصل به، واجتمع عليهم عسكر الدولة وأهل صنعاء وجعلوا يحربونهم إلى ذلك البيت وهم يدافعون عن أنفسهم بالرمي بالبنادق، فلما انقضى غالب اليوم وكان المتوكل في بيت أبيه المنصور خشي المتوكل أن يأتي الليل فيهرب القاضي ومن معه من البيت ثم يخرجون إلى حيث لا يعلم بهم أو يتسورون السور ويذهبون منه عن صنعاء فعزم بنفسه وبعض خواصه إلى قريب ذلك البيت الذي تحصَّن فيه الشقي وأرسل إليه أنه يخرج ويضع يده في يده لحتّى يؤديه إلى السجن حفظاً له من أصحاب الدولة، وأهل صنعاء ففعل ولكنه لم يخرج حتى أخذ أكيد الضمان على المتوكل أنه لا ينال بشيء ولا يسلِّمه إلى أحد.

ثم إن الوزير ذهب إلى بيته راكباً بغلته ثم جعل يكرر الكتب إلى الإمام المنصور بصفة ما ناله، وقد كان استشاط غيظاً، وخرج من دائرة الحلم كون ذلك وقع في وزيره بحجرته وحَرَمه، فما زال شيخ الإسلام يدفع من غضبه ويعرِّفه أنه يليق التأنّي وعدم العجلة ريثما ينظر ما تنتهي إليه جناية الوزير، ثم إن الإمام المتوكل عرَّف شيخ الإسلام بأن القضاة ومن معهم قد صاروا في خفارته وضمانته فلا يكاد يحصل فيهم شيء فأجاب عليه بما قد بناه من الأمر هو والإمام من التأني والتوقف حتى إذا كان اليوم الثالث من يوم القضية لم يشعر شيخ الإسلام إلا برسول بكرة ذلك اليوم قبل شروق الشمس من النقيب المعهد بباب السجن يسمى النقيب فتح الله العمودي وأخبره الرسول أنه لم يشعر بعد فجر ذلك اليوم إلا بعاقل خدم الإمام

والسيّاف وعاقل الشوش أخذوا القاضي يحيى وعمه وأحد ولديه وأخرجوهم من الحبس لتضرب أعناقهم خارج القصر، فلما سمع ذلك شيخ الإسلام قام مبادرا على أعظم عجل ليركب إلى باب الإمام ليردّه عن هذا الرأي ويعرّفه بغبِّ ما سيكون بسببه فما هو إلاّ أن تهيأ للخروج إذ وصل من أخبره بقتلهم فما زاد على قوله[1].

قد كان ما خفتُ أن يكونا ... إنّا إلى الله راجعونا

فلما بلغ الإمام المتوكل ذلك أقامه وأقعده ورأى أن قد هتكت حرمته وخفرت ذمته فقعد في بيته ولم يتكرر إلى دار الإمام المنصور وكان عادته أن يذهب للسلام إلى أبيه بكرة كل يوم فاستوحش الإمام المنصور لعدم مجيئه وخشي أن يترتب على ذلك ما يكون سبباً لتفرق الحال بينهما، وكان المتوكل قد عظم في الصدور وأجلّه كبراء الدولة والصدور، فأرسل إلى شيخ الإسلام أن يأتيه على جهة المبادرة فلما وصل أخبره بعدم وصول المتوكل إليه وأن المكيدة في جانب القضاة هو أمر لا بد منه للحزم وأن التساهل عنه يؤدي إلى مفاسد عظيمة إذا حصل السكوت عما وقع في حجرته بوزيره من الإقدام وعدم الاحترام وأنه يعزم إلى الإمام المتوكل فيخبره عنه بذلك وأن في ذلك مصلحة الدولة وأهلها فعزم شيخ الإسلام إلى المتوكل.

* * *

(١) البيت الشعر لبعض المغاربة قاله عند وفاة بعض أصحابه وهو من شواهد التلخيص من علم البديع وهو الاقتباس بالآية الكريمة.

﴿كلمة الشوكاني الحازمة للمتوكل﴾

فكان أول ما أخبره شيخ الإسلام أنك إختر لنفسك أحد أمرين: إما كنت في جانب القبائل على أبيك، أو كنت مع أبيك ودولتك على أعدائك وأعداء دولتكم، أما القضاة فقد قتلوا وإحياؤهم متعذّر، وبظهور التنافر بينك وبين الإمام تحصل قوة العدو عليكما ويشعر بعضهم بعضاً أنك معهم على أبيك، فيكثر جمعهم وتحزّبهم لذلك وما زال به حتى عاد إلى عادته، وأظهر لأبيه صدق ولايته، وعرف من أين أتى، وأن الوزير المجنى عليه هو الجاني عليه ليكون ذلك إصغاراً له وإضعافاً لشأنه، لا سيّما عند القبائل، وكان ذلك بعقب إساءة أساءها إليه. وجناية جرَّها عليه.

وذلك أنه لما كان الشريف حمود، قد ملأت أجناده تهامة، وصارت المطارح على ما لم يكن قد استولى عليه منها مثل مدينة: زبيد وبندر الحُديدة[1] ما زال يسعى الوزير عند الإمام المنصور بالإغراء بينه وبين ولده، بوجوه الإغراء حتى أنه حسَّن للإمام المنصور الجزم على ولده المتوكل بالعزم إلى تهامة لمجاهدة حمود بها بجميع أصحابه الذين في الحضرة ممّن كان منتمياً إليه، وداخلاً في صحابته فأمره الإمام المنصور رحمه الله تعالى أمراً جازماً فكان كما قيل:

---

(١) زبيد: كما مرّ أشهر من أن ننوه بها فقد كانت مصدر إشعاع للعلوم والمعارف منذ بزوغ الإسلام وقد تكلمنا عنها في قرة العيون والإكليل وأفضنا القول عنها في المعجم.
والحديدة: بضم الحاء المهملة لم تظهر كميناء في التاريخ إلا في أواخر القرن الثامن الهجري وهي اليوم عروسة البحر الأحمر، انظر المعجم.

إذا سوّيت أمرك كلّ وغدٍ ضعيف كان أمركما سواء

فعزم المتوكل بنحو ألف من العسكر ومائة من الخيل المنتخبة، المعدَّة للجهاد، فلما انتهى إلى طرف بلاد الحيمة[1] مما يلي تهامة قطع الوزير إقامة الأجناد الذين ذهبوا معه، ولم تلحقه مادة لا مال ولا رجال، فعرف المتوكل قلّة جنده، وكثرة أجناد حمود وأنهم قد ملأوا تهامة خيلاً ورجلاً فشاور خاصته في العزم إلى تهامة أو عدمه فأجمع رأي من حوله من أصحاب الدولة أن يرسل بعض العسكر وأكثر الخيل إلى بندر الحديدة ليمنعوها من حمود ويعزم بمن بقي في حضرته إلى بلاد حراز[2] ليكون رداء لتهامة ويستدعي من صنعاء ما لا بدّ منه من عَدَد مال، ومدد رجال فعزم نحو حراز، والجند عزموا نحو تهامة.

فلما سمع حمود بنزولهم، وتخلّف الإمام المتوكل عنهم لقيهم إلى محلّ في تهامة يقال له «المكيمنة»[3] فما كان أسرع مما استولى أصحابه على الخيل والسلاح، وبنادق العسكر، وأسرهم جميعاً ووقع فيه صوْب يسير من أول الحرب[4] وكانت الخيل نحو ثمانين عنان من نجبائها فمكث الأسرى عند الشريف حمود ليلةً وأطلقهم فعادوا على حافرتهم، ثم عادوا إلى الإمام بحال بين داعٍ بالثبور وباك وأمّوا طريق صنعاء ولم يعرّجوا على أميرهم بحراز فدخلوا صنعاء إلى حضرة الإمام متفرقين متكتمين في أسوإ حال خاضعين الجناح، عزلاً من الخيل والسلاح فلماوصلوا صنعاء وعلم بوصولهم الوزير جعل يحسّن للمنصور رحمه الله منع ولده المتوكل من دخول صنعاء وأن يأمره بنفوذه من حراز إلى بلاد عمران[5]

---

(١) الحيمة: هي التي يسميها لسان اليمن الهمداني الأخروج وتقع غربي صنعاء. انظر: الإكليل.

(٢) حراز: مخلاف من مخاليف اليمن المشهورة، غربي صنعاء متاخمة للحيمة انظر صفة جزيرة العرب، والإكليل ج ٢، وغيرها من كتبنا.

(٣) المكيمنة: بالتصغير بلدة عامرة جميلة بتهامة قرب مدينة «باجل».

(٤) الصوب لغة دارجة للإصابة في بدن الإنسان وغيره.

(٥) عمران: مدينة شمال صنعاء لمسافة تسع ساعات واليوم قرابة ساعتين وعدادها من حاشد وهي اليوم غيرها بالأمس. انظر: صفة جزيرة العرب والمعجم.

ليتولاّها، وعضد الوزير بعض أولاد المنصور كيما يكون هو ولي العهد إن تمَّ ذلك له فجمع المتوكل من بحضرته وشاورهم في ذلك الأمر، وقد كان دار خوض[1] بينه وبين بعض الأمراء الذين معه والنُّقباء من العسكر أنه سيجمع خاصته ويأمرهم بالتأهب للعزم لولاية عمران حسب الرأي الشريف فإذا سمعوا ذلك منه نفروا، وقالوا لا بد من الرجوع بك إلى باب صنعاء ليستبين لنا حقيقة الأمر ثم نأخذ من بيوتنا من صنعاء ما نحتاج إليه في مسيرنا بعد أن نعرف حقيقة الأمر ثم أمُّوا به راجعين حتى انتهوا إلى عَصر[2] فقال لهم المتوكل: ها هنا أقعد حتى تمتاروا لأنفسكم ما تحتاجونه ثم نعزم عمران طاعة وامتثالاً لأمر الإمام.

فلما علم الإمام المنصوررضي الله عنه ووزيره بأن المتوكل قد صار في عصر أمر بتغليق أبواب بئر العزب[4] لئلا يدخل وأمر بمنعه فلما علم بذلك سائر الوزراء، وهم الفقيه حسين بن أحمد العلفي، والفقيه علي بن حسين الأنسي[4] والقاضي محمد بن علي بن عبد الواسع أعظموا الأمر وخافوا عواقبه ورأوا أن ذلك باعثاً لشرٍّ يكون بين أصحاب الدولة إذ قد أخذت الحميَّة سائر الجند في صنعاء.

وكان المتوكل قد خلف في قصر صنعاء من يثق به وفي سائر الأبواب، فعزموا إلى حضرة الإمام ولم يجسر أحد منهم أن يكلمه في ذلك.

* * *

(١) خوض لغة دارجة من خاض في الأمر: تفاوض فيه. ومنه قوله تعالى: ﴿وكنا نخوض مع الخائضين. .﴾ (سورة المدثر: آية ٤٦).

(٢) عصر: بلدة من ضاحية صنعاء غرباً وقد دخلت اليوم فيما يسمى صنعاء.

(٣) بئر العزب: حيّ من أحياء صنعاء القديمة من جهة الغرب ولم تظهر حياً من أحيائها إلا في أوائل القرن الثاني عشر الهجري وسماه لسان اليمن المضمار وسمي هذا الحيّ بئر العزب باسم شخص يلقب العزب.

(٤) حسين بن أحمد العلفي لم يذكره الشوكاني ولا زبارة وعلي بن حسين الأنسي ذكره زبارة بنيل الوطر (ج ٢ ـ ١٣١) وأن وفاته سنة ١٢٢٣هـ، وأما القاضي محمد بن علي بن عبد الواسع فيأتي ذكره للمؤلف.

﴿الشوكاني حلّال الأزمات﴾

واستدعى الإمام شيخ الإسلام فلما وصل إلى حضرته رأى أولئك الأعيان المتقدم ذكرهم فلما رأوه أيقنوا بانكشاف هذه القضيّة وكان الأمر كما قيل:

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم   خُضُعَ الرقاب نواكس الأبصار

وكلم الإمام في ذلك كلاماً لا يجسر من عداه أن يواجهه بمثله وأمر الإمام القاضي محمد بن علي بن عبد الواسع بأن يعزم لفتح الأبواب للمتوكل ويأمره بالدخول، فما هو إلا أن أمر القاضي محمد نقيب الأبواب بذلك إذ أقبل المتوكل بمن معه على وجه أن أصحابه أكرهوه على الدخول فالتقاه القاضي محمد وأخبره بحصول الإذن له، ثم دخل به الجند إلى دار الإمام، وقد كان أمر الإمام أنه لا يأتيه بل يعزم بيته فلم يجد الإمام بدأ من مواجهة ولده ثم خرج من عند أبيه إلى مستقره، وصلح الأمر واتفق الحال.

ثم لما كان سنة ١٢٢٣هـ وكانت سنة لم يعهد مثلها في الشدّة في اليمن فبينما الناس يقاسون شدتها وقحطها وقد أجحفت بصغيرهم وكبيرهم إذ خرجت قبائل القبلة يتقدمهم القاضي عبد الله بن حسن العكام أبو القاضي يحيى المتقدم ذكره في قصة قتله ـ أخذاً بثأر ولده يحيى بن عبد الله فوقع الناس بين شدتين عظيمتين: شدة السنة وشدة تضييق القبائل على صنعاء فكاد أهلها أن يهلكوا جميعاً وصادف أن الوزير المذكور لم يعط الأجناد معتادهم الشهري.

وقد كان بعد أن طعن بيد القاضي يحيى بن عبد الله في سنة ١٢٢٢هـ استمر

حاله بالبقاء في بيته، وعدم الخروج إلى دَار الإمام وشكى أنه لا يأمن على نفسه الغدر به إن خرج، وكان يكتب إلى الإمام في محتاجات الأمور فعذره الإمام فجعل على نفسه شبكاً من حديد فيه بعض الطاقات يكلم من أتاه منها، وجعل ببعض البيوت التي تلي بيته عسكراً تهويلاً للقضية.

فلما اشتد الحال بمن في صنعاء إلى غاية ورأى الناس أنهم هالكون إن دام ذلك عليهم لا محالة، وقع بين المتوكل وأصحابه ورؤساء الأجناد مُراودة في قبض الوزير وذويه من أقاربه، وكان شيخ الإسلام في ذلك الوقت في عقابيل مرض حصل معه[1] فأجمع رأي المتوكل ومن معه بأن يأمر بعض الفرسان من الجند وبعض العسكر بأن يجتمعوا ثم يأتوا إلى باب المتوكل شاكين مادتهم من السبار والجامكية[2] فوصلوا وعليهم سيوفهم فقط وتوجعوا مما لحقهم بسبب انقطاع ذلك فأمر المتوكل بعض أصحابه بأن يذهب إلى الوزير ويأتيه به ليتراودوا في شأن الجند حتى تطيب نفوسهم ثم يعود إلى بيته فامتنع من المجيء وتعلَّل بتعلّلات فكرّر المتوكل إرسال الرسل إليه فخشنوا له القول[3] وعرفوه أن لا بدَّ من وصوله فوصل فلما حصل في قبض المتوكل أرسل لذويه وأهل طينته من أهله الذين قد صدَّرهم في بعض الأمور حتى إذا ما تكاملوا عنده وقع التقريع له عن شأن تأخير أرزاق الجند والسكوت عن القاضي عبد الله البرطي القاطع لسُبُل صنعاء عن الداخل والخارج ثم لم يزالوا لديه من نصف ذلك اليوم وكان خامس عشر شهر رجب سنة ١٢٢٣هـ إلى بعد صلاة العشاء ثم أصحبهم بعض الأجناد فطلعوا بهم إلى القصر جميعاً، وأدخلوهم بعض البيوت فيه ووكل بهم من يحفظهم.

فلما كان صباح اليوم الثاني من ذلك اليوم وعلم المنصور رحمه الله بالقبض على وزرائه أخذه ما يأخذ الملوك من الغضب، وأمر بجميع الأجناد أن يحضروا

---

(١) العقابيل: بقايا العلة.

(٢) السبار هو الطعام اليومي من الحبوب لغة دارجة. والجامكية: المقرر الشهري من النقد، والكلمة دخيلة.

(٣) خشنوا له القول: أغلظوه بقوة.

ليطلـع بهم إلى القصر فيخلص المذكورين، فبادر المتوكل بجذب الأجناد إليه وعرَّفهم أن الموجب لذلك قطع ما هو لهم وأن يده معهم على ذلك، ثم أنه أمر عسكـراً أن يقبضوا على المنصور أبواب الدار التي هو بها وكان ساكناً في دار الجامع[1] وجعل في البيوت المقابلة لأبواب دار الجامع عسكـراً يرمـون على الداخـل والخارج إليـه وعنه، وجعل في منارتي الجامـع عسكراً كذلك.

فلمّا علم المنصور الأمر وخلوَّ بابه عن الأجناد وعدم نفوذ أمره فيهم وفيما يريده عظم الأمـر عليه ووقـع من العسكـر المرتبين الـرمي إلى الدار وأصـابوا جـارية، ووقع من عسكر كان أرسلهم عبد الله بن الإمام المنصـور إلى أبيه ليحفـظونه من عسكـر أخيه المتوكل قتل رجل من أصحابه ووقـع بينهم حرب يسير.

* * *

(١) دار الجامـع كانت قبالة الباب القبلي وهي اليوم حوانيت وبنايات وغير ذلك.

﴿الشوكاني هو
الصمَّام للأحداث﴾

فلما رأى المنصور أن الأمر قد جلّ أمره أرسل بعض من بقي من أصحابه وخواصه إلى شيخ الإسلام وهو منغلق لـركّةٍ بـه من ذلك المرض لمَّا عدم الناصر والنصير مع الإمام:

سيفقدني قومي إذا جلَّ خطبها وفي الليلة الظلماء يفتقد البدرُ(١)

فعزم إليه على ما به فلما رأى العسكر المرتبين شيخ الإسلام قاصداً بيت الإمام ولم يدعوا سواه أمسكوا عن الرمي بنادقهم حتى دخل إلى الإمام فأنشد لسان حال الإمام:

دعوتك للغيار ولست أدري أمن خلفي المنيَّة أو شمالي(٢)

فقال له: قد نظرت ما كان من أحمد وها أنا قد رضيت بالموت وهذه الرصاص تقع في الطاقات وإني منتظر لإحداها تقع فيَّ وقد وقعت ببعض الخادمات رصاصة، فهوَّن عليه الأمر وعزم من ساعته إلى دار المتوكل فشنَّع عليه الأمر، وأمره بالعزم معه إلى الإمام فقال المتوكل: أمَّا الآن فأنا أخشى على نفسي منه الهلاك ولكن غداً، ثم انتهى الأمر إلى أن أصلح بينهما، إن أولئك

---

(١) البيت لأبي فراس الحارث بن سعيد الحمداني المتوفى سنة ٣٥٧هـ. ترجمته في ابن خلكان (ج ١ ــ ٣٤٩) وله، ديوانه مطبوع.

(٢) لا يعرف قائله.

المفسدين للحال بينهما يريد الوزير وقرابته يبقون تحت القبض، وإنَّ الإمام يبقى كما هو في دست الخلافة ويكون وزيره ولده المتوكل ويجعل من تحته الفقيه علي بن إسماعيل فارع[1] وكان جميع تلك الأمور التي صدرت من المتوكل إلى أبيه عن رأيه، وهو الذي آل أمره إلى الوزارة مع الإمام المتوكل كما سيأتي.

ثم إن شيخ الإسلام عاد إلى الإمام بذلك وحرَّر بينهما مرقوماً بنجاز ذلك وأخذ عليهم العهود في الوفاء به ثم أمر جميع العسكر الذين كانوا بالدار مع الإمام والذين كانوا على جوانبها على الإمام بالعزم معه إلى دار المتوكل وانجلت هذه الظلمة، وانكشفت هذه الغمَّة بعون الله سبحانه وحسن نية الساعي بينهما بما يصلحهما شكر الله سعيه.

أصبت فلا شُلَّتْ يدٌ برمكيَّة رتقْتَ بها الفتْق الذي بين هاشم

وكان بذلك التئام الحال وسداده بينهما إلى نصف شهر رمضان سنة ١٢٢٤هـ وتوفي الإمام المنصور وصفت الخلافة للإمام المتوكل كما تقدم في ذكر مبايعته.

فلما ألقت الخلافة إلى المتوكل مقاليدها، وأملت على صحيح مسامعه أسانيدها لم يكن عنده شيء أهم ولا أقدم من تشمير الساق لحرب الشريف حمود إذ هو في حكم الغاصب لتهامة على أهلها فما زالت الحرب بينه وبينه سجالاً منذ جاءت الأخبار وتضافرت واتصلت الأعلام وتواترت بأن الأتراك قد خرجوا على أهل نجد كما تقدم وذلك في سنة ١٢٢٥هـ فاشتغل الأتراك والنجود بالحرب بينهم.

* * *

---

(١) ترجم له زبارة (ج ٢ ـ ١٣٧) وقال: وزر للمتوكل أحمد سنة ١٢٢٤هـ إلى أن مات سنة ١٢٣٠هـ ثم وزر ولده عثمان ونكبه المهدي وللوزير المذكور ذرية في مدينة أب.

﴿الشوكاني يقوم بإصلاح الشأن بين المتوكل والشريف حمود﴾

ثم وقع الصلح بين الإمام المتوكل والشريف على اجتماع اليد على من عاداهما وذلك بعقب كتاب عزم من شيخ الإسلام إلى الشريف حمود يقول فيه بعد كلامه : إني أرى اليمن طعمة لمن غلب من هذين الصنفين يعني الأتراك والنجود، وإني أرى لك ولمن قبلي اتحاد كلمتكما، واجتماع يديكما على من عاداكما وثبوتكما على ما تحت أيديكما في شعر يحرضه فيه وأجاب عليه بما مقتضاه :

«إنّي لو علمت أن الأمر إليك وأن التعويل فيما ها هنا عليك، لبادرت إلى الطاعة ووافقت الجماعة، يشير إلى وزير الإمام المتوكل الفقيه علي بن إسماعيل فارع، وولده عثمان بن علي إنهما كثيرا التقلب والتضرّب ثم استمرّ الصلح بينهما أياماً.

وبعد ذلك وصلت الأخبار باستيلاء الأتراك على النجود، وإخلاء القائمين منهم بهذا المظهر عن الوجود، وتعقَّب ذلك موت الإمام المتوكل على الله رحمه الله في ثامن عشر شهر شوال سنة ١٢٣١هـ .

فقام بعده بأعباء الخلافة سليلها الضرغام وخدنها وحليلها الهمام القمقام عبد الله بن الإمام المتوكل على الله، وكان العاقد لفرائدها في سلك نظامها، والجالي لعروس زفافها، إلى بدر تمامها، شيخ الإسلام، أول من بايعه ثم بايع له من الناس من عداه على يده كما فعل لأبيه المتوكل رحمه الله[1].

---

(١) حكى البيعة المذكورة للمهدي عبد الله ـ الإمام الشوكاني في ترجمة الإمام المذكور (ج ١ ـ ٣٧٦).

ثم لما استكملت بيعة الإمامة، وقبلها الإمام من الخاصة والعامّة، تكنّى بالإمام المهدي لدين الله رب العالمين، وكان الوزير له وزير أبيه المتوكل ـ الفقيه عثمان بن علي فارع[1] بعد وفاة أبيه الفقيه علي بن إسماعيل فارع، وكانت وفاته قبل وفاة الإمام المتوكل بعام فوزر ولده للإمام المتوكل ذلك العام وأقام بها أياماً قلائل ثم نكبه واستوزر بعده الفقيه قاسم بن علي العفاري[2] وكان هذا الوزير من بيت صالح هم أهل كتابة في الدولة القاسمية ثبتوا فيها من أثنائها يحفظون محصول بيت المال ومخرَّجاته المعتادة.

فلما انتهت الوزارة إليه لم يرْعَ ما راعاه سلفه من التحفظ والديانة وملازمة النجابة، ومنصب أهله لمخالطته قرناء السوء والبطالة فبقي وزيراً بعض عام ثم نكبه ثم عاد وزيراً بعدها كما سيأتي.

ثم إن الإمام المهدي لما استقامت له الأمور، وساعده الجدّ والمقدور، اهتم بالأهم من الأمور، وهو إصلاح لمّ شعث البلاد القبلية، مثل بلاد عمران وبلاد أرحب، ولم يجر بينه وبين الشريف حمود لا حرب ولا سلم، وكان حمود منتظراً منه أحد الأمرين حتى بلغه أن الأتراك قاصدوه بجريدة منهم إلى عقر دياره من أبي عريش وتهامة فجمع أصحابه الملازمين له واستصرخ سائر القبائل حتى اجتمع إليه جمٌّ غفير من الأجناد، وجمع أمره على تلقي الأتراك إلى بعض بلاد الشام[3] وجعل بلاده من وراء ظهره واستصحب معه أميراً من الأشراف وجعله على مقدمته وهو الشريف

---

(١) لم يترجم للوزير عثمان بن علي فارع ولا رفع نسبه ولا نسب أبيه ولم يلبث بالوزارة غير سنة واحدة. ولقد حدثنا الأشياخ أنها صودرت أملاكه الكثيرة في يوم واحد ولقد كان له قصر بمدينة ذمار يقال لها الدار المرجلة على عقود ودار بمدينة إب لا زالت معروفة إلى اليوم بيد الحكومة ودار بذي السفال صار لآل باسلامة بالبيع من علي بن المهدي ثم صارت للحكومة وقصر بمينا المخا وغير ذلك من العقارات والممتلكات.

(٢) لم يترجم للوزير العفاري لا الإمام الشوكاني ولا زبارة.

(٣) المراد ببلاد الشام ما كان شمالاً.

حسن بن خالد الحازمي[1] وكان حمود تزوج ابنة المذكور، وله إلمام بالعلم ومعرفة، وكان حمود يقدمه في دينه وتدبير دنياه.

ثم برز بتلك الأجناد إلى بعض بلاد عسير[2] والتقى بالأتراك ووقعت بين الصفين ملحمة كانت بها للأشراف على الأتراك، ثم عارض الشريف حمود حِمامه[3] لما انتهى أجله واستكملت لياله وأيامه. فتوفي حتف أنفه بعد تلك الملحمة ودفن في تلك البلاد.

فلما انتهت الأخبار إلى مسامع الإمام المهدي أطال الله أيامه، بموت راعي تهامة وأنه قد قام بها ولده أحمد بن حمود بعد أبيه، وكان ذلك بعقب وقعة أوقعها الإمام بقبائل بكيل، وقد كان وزيره الفقيه قاسم العفاري لما أعاده إلى الوزارة مرة أخرى بعد نكبته الأولى وكان هو الحامل له على تلك الوقعة بقبائل بكيل لكيما يأخذ بثأره من الإمام حفظه الله لما صنع به في نكبته الأولى لعلمه بما سيترتب على ذلك كما سيأتي.

ثم أجمع الإمام أمره وأمر خيله وعسكره بالتأهب لغزو تهامة فما استكمل ذلك حتى خرج من صنعاء بمن اجتمع له وعرج على بلاد كوكبان[4] ليستطلع منها الأخبار حتى يستكمل به لحاقَ الأجناد فلما دنا منها خشي أهلها خروج معقلهم من أيديهم لما رأوه من فتكاته وعزماته، فأغلقوا أبواب الحصن دونه ومنعوا النازل منه

---

(١) ترجم للشريف الحازمي ـ المؤرخ زبارة ترجمة ضافية وثناء عاطراً وكان من العلماء المجتهدين، نابذ التقليد وحاربه وكانت ولادته سنة ١١٨٨هـ وقتل شهيداً سنة ١٢٣٤هـ عن ست وأربعين سنة. انظر: نيل الوطر، ص ٣٢٣.

(٢) بلاد عسير: هي ما تسمى سراة الأزد لأن غالب قبائلها من الأزد. انظر: صفة جزيرة العرب، ص وفي بلاد عسير، ص والمعجم.

(٣) الحمام: بكسر الحاء المهملة الموت وما أحسن قول أبي تمام:

هُنَّ الحمام فإن كسرت حِيافة ... من حائهنَّ فإنهنَّ حِمام

وكانت وفاة الشريف حمود سنة ١٢٣٣هـ.

(٤) كوكبان: تثنية كوكب ويقال له كوكبان شبام إقيان وهو حصن شامخ لا يزال عامراً، ويقع بالغرب الشمالي من صنعاء مسافة تسع ساعات واليوم بالسيارات ساعتان تقريباً.

والطالع إليه فاستقرّ مخيّمه المهدوي بمدينة شبام وما زالت الرسل تختلف بين الإمام، وآل الإمام شرف الدين أهل كوكبان حتى رماهم بالمدافع وأمر بالمطارح عليهم ودام ذلك نحو ثمانية عشر يوماً ومَنْ بالحصن مُصَمّمون على المنع وعدم الإجابة إلى طلوعه أو نزول أحدهم إليه فاتصلت الأخبار بالإمام أن القبائل المُوقَع بهم قد تداعت أحلافها واجتمعت ألفافها، وعزموا على الوثوب إلى باب صنعاء ليمنعوا الداخل إليها والخارج منها كما ستقف عليه قريباً.

* * *

﴿الشوكاني قائداً ومصلحاً﴾

فلم يجد الإمام حفظه الله بدّاً من التعويل على شيخ الإسلام بالقيام مقامه على أهل كوكبان لحتى يذعنوا بوصول من يراه شيخ الإسلام من أعيانهم إلى الإمام المهدي ويكونوا صحبته إلى صنعاء ليعرف بذلك طاعتهم وترك المطارح كما هي على كوكبان إلا قليلاً من بطانته قفل بهم إلى صنعاء ثم أمر أمراء المطارح أن يأتمروا وينتهوا لشيخ الإسلام في كل ما أمرهم به ونهاهم عنه.

فلما نهض الإمام حفظه الله إلى صنعاء وعَلِمَ أهل كوكبان بأنّ شيخ الإسلام قد أقامه الإمام المهدي مقامه في مخيّمه المهدوي، ومطارحه أرسل أهل كوكبان إليه بأن حيهلا إليك ونحن منك وإليك وقابلون حكمك وأمرك.

وكان أمر كوكبان إلى شيخيها العظيمين الجليلين السيد شرف الدين ابن أحمد بن محمد والسيد عباس بن إبراهيم بن محمد وكلاهما قد أناف عمرهما على الثمانين سنة فما زال الأمر دائراً بينهما حتى اجتمع رأي الجميع منهم على نزول ولدَيْ الشيخين والعفو عن حركتهما إلى صنعاء لما قد صارا عليه من الركّة وكان الأميران النازلان كلاهما مقلتان في رأس كوكبان وهما بالدرجة الثانية من والديهما فأحدهما الأمير عبد الله بن شرف الدين بن أحمد والآخر أحمد بن عباس بن إبراهيم[1].

---

(١) شرف الدين بن أحمد: ترجم له الشوكاني (ج ١ ـ ٢٧٤) وقال: ولادته سنة ١١٩٥هـ وأثنى عليه طيباً ولم يذكر وفاته وذكر وفاته زبارة في الهامش كما ترجم له في نيل الوطر وإنها سنة

فلما هبطا إلى شبام واستقرًّا بمقام شيخ الإسلام، أمر شيخ الإسلام بتقويض خيامهما والقفول إلى باب إمامهما، وضمَّتهم يد الجماعة، ونهضوا بتلك الساعة إلى صنعاء فكان لدخولهم شعار عظيم وكان وصولهما إلى مقام الإمام فتلقاهم بالرحب والإكرام فما هو إلا أن استقرَّت رحالهم، وانشرحت أحوالهم، إذ هبَّت ريح أهل القبلة وأشعرت بوصولهم بلا مهلة، واجتمع صحبتهم جميع القبائل من حاشد ونهم وأرحب وعمران وغيرهم لما صنع بهم الوزير الفقيه قاسم العفاري، وكان الموجب لذلك أن لقبائل بكيل تقارير من أبواب الخلفاء القاسميين أثبتت لهم من أثناء الدولة القاسمية ولم يكن لهم من أوّلها شيء ولا يألفون أبواب الخلفاء وإنما كانوا يقطعون طريق صعدة[1] فجاهدهم الإمام المهدي أحمد بن الحسن بن الإمام القاسم رضوان الله عليهم[2] ودخل إلى ديارهم وأذلَّهم وألحقهم بجملة الرعايا في المطالب الدولية حتى كان الإمام المنصور بالله الحسين بن القاسم بن الحسين بن الإمام المهدي أحمد بن الحسن بن الإمام القاسم رضي الله عنهم[3] ووقع الاختلاف بينهم وبين آل إسحاق ابن الإمام المهدي وتنازعوا الخلافة فاستعان آل إسحاق ببعضهم على

١٢٤١هـ، ولم يترجما لعباس بن إبراهيم بن محمد ولا لولديهما عبد الله بن شرف الدين ولا لأحمد بن عباس بن إبراهيم.

(١) صعدة: بالفتح والسكون: مدينة يمنية أثرية قديمة في شمال اليمن بينها وبين صنعاء ثمان مراحل قديماً واليوم بالسيارات سبع ساعات تقريباً. انظر: صفة جزيرة العرب، ص والمعجم.

(٢) ترجم الإمام الشوكاني للإمام المهدي أحمد بن الحسن في (ج ١ ـ ص ٤٣) بالبدر الطالع وأن مولده سنة ١٠٢٩هـ وتولى الخلافة سنة ١٠٨٧هـ بعد عمه المتوكل على الله إسماعيل وأنه دوّخ اليمن وأذلّ أهله إلى أن توفي سنة ١٠٨٧هـ وقد شرّح القاسمية المؤرخ المنصف يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد وكفى بقوله إذ هو شاهد من أهله.

(٣) قال الإمام الشوكاني في ترجمة الإمام المنصور: الحسين بن المتوكل قاسم بن حسين في (ج ١ ـ ص ٢٢٥) إنه بويع له في الخلافة سنة ١١٣٩هـ وذلك بعد موت أبيه الإمام المتوكل قاسم بن حسين. وجرت له أحداث يطول ذكرها ومنها منازعته آل إسحاق وغير ذلك وكانت وفاته سنة ١١٦١هـ.

الإمام المنصور واستعان الإمام بالبعض الآخر فما هدأت الفتنة بينهما إلا وقد جعل آل إسحاق لأكثر من انتصروا به منهم قطع[1] في بلاد المغارب وجعل الإمام المنصور لمن لديه بعض مقررات يسيرة فزاد في مقرراتهم الإمام المهدي العباس بن الإمام المنصور[2] وتقوّوا في أيامه، وصَالوا على سائر من عداهم من القبائل.

وما زالت مقرراتهم تنمو مع كلّ خليفة حتى أخلّت بالدولة والرعية وتعطّلت منهم المصالح التي لأجلها أثبتت لهم التقارير، فصاروا لا يوفون بذمّة، ولا يعترفون بحقّ الأئمة، بل يمكرون ويخدعون وينكثون، إن قام عدوٌ على الدولة ضعيف أقاموه وقوّوه حتى يأكلوا به الرعيَّة والدولة وإن كان العدوّ قوياً مثل الشريف حمود أكلوا به وبالدولة غير أن حمود كان يوردهم المهالك ويصول عليهم بسيفه حتى يطيعوه صاغرين.

فرأى الفقيه قاسم العفاري الوزير رأياً فائلاً اقتضاه عقله القاصر وسعيه الخاسر أن يحسِّن للإمام حفظه الله أن يجمعهم جميعاً إلى صنعاء، المحمدي والحسيني[3]، ثم يقع القبض على كبارهم إلى السجون، ثم ينادي في الجند من أصحاب الدولة وأهل صنعاء بقتل صغارهم فإذا فرغوا منهم قتلوا من في السجن من كبارهم فيستريحون من شغلتهم فلأمر قضاه الله ساغ هذا التدبير وقُبِل فاستدعاهم الفقيه قاسم جميعاً بكتب يقول إن الإمام حفظه الله تعالى سينفذ بهم إلى تهامة ليقبضها فاستعدوا جميعاً ثم أقبلوا، فلما حصلوا في صنعاء أجريت لهم الإقامات وتتابعت لهم الإحسانات، ولم يروا شواهد الأمر الذي لأجله وصلوا ورأوا من أحوال

---

(١) قطع كذا في الأصل وصوابه قطعاً، وآل إسحاق هم أولاد إسحاق بن الإمام المهدي أحمد بن الحسن وتأمل إلى هذا الصراع الأسري كيف أودى بالبلاد والعباد ثم يفسّرون تلك الدعاوى الطويلة العريضة.

(٢) الإمام المهدي هو العباس بن المنصور بن الحسين وقد لمّحنا بكلمة عنه في كتابنا (عالم وأمير) ص ٥٠. وقال الإمام الشوكاني: مولده في سنة ١١٣١هـ وتولى الخلافة سنة ١١٦١هـ ووفاته سنة ١١٨٩هـ.

(٣) المحمدي والحسيني هما قبيلتا ذي غيلان الهمدانيتان.

الوزير ما جوّزوا معه ما أضمر لهم وكتمه عنهم لخفَّة طيشه، فارتابوا وتحزبوا وما زالوا يستعدون لما عسى أن يكون وبعضهم خرج من سور صنعاء ليلاً لأنهم لا يقدرون على الخروج من الأبواب لمنعهم عن ذلك.

فلما كان ذات يوم أمر الوزير بالقبض على العُقَّال بعد جمعهم في باب الدولة وعلى كبرائهم جميعاً ثم أودعوا السجن حتى إذا كان اليوم الثاني أمر بهم في صنعاء الأجناد وأهل صنعاء أن يقتلوا من بها منهم وانضم بعضهم إلى بعض، ودافعوا عن أنفسهم بالرمي بالبنادق حتى إذا كان الليل خرج ذو حسين من فوق السور الذي بخارجة باب شعوب وخرج ذو محمد من دائرة سمْرة(١) بعد أن ثلموه حتى تمكنوا من الخروج وترك الجميع دوابهم وخيلهم وإبلهم وغيرها.

هذا وشيخ الإسلام يستغيث بالله من هذا الأمر ويكرر الكتب إلى الإمام يعرِّفه بعواقب ذلك، وأنه لا يتم ما يراد منهم:

ولو بغى جبل يوماً على جبل ... لدكَّ منه أعاليه وأسفله(٢)

وينشد لسان حاله قول نهشل بن حري النهشلي(٣):

ومولى عصاني واستبدّ برأيه ... كما لم يطع فيما أشار قصيرُ
فلما رأى ما غبَّ أمري وأمره ... وولَّت بأعجاز الأمور صدورُ
تمنّى نئيشاً أن يكون أطاعني ... وقد حدثت بعد الأمور أمورُ

ولما انقشع ليل سوادهم، وأمّوا سبيل بلادهم، ولم يقتل منهم في صنعاء إلا اليسير الحقير، أقبل الوزير على من في السجون بقطع موادهم وأزوادهم حتى آل

---

(١) سمرة: حارة من حارات صنعاء القديمة غربي السائلة مسماة لهذا التاريخ.

(٢) لا أعرف قائل هذا البيت وفي معناه قول الآخر:

لا يأمن الدهر ذو بغي ولو ملكاً ... جنوده ضاق عنها السهل والجبل

(٣) نهشل بن حري، إسلامي من بني غطفان وهو معدود من شعراء الحماسة، وقصير هو اللخمي المشهور القائل: لا رأي لمن لا يطاع، المثل المضروب السائر، ونئيش بالتصغير: شخص.

الأمـر إلى قتل كبيـر الشوف من ذو حسين وتسييبـه أيامـاً[1] ثم أمر بـدفنـه بمجتمـع القاذورات قريباً من باب شعوب كل ذلك تثويـراً لحفائـظهم، فما كـان أسرع من أن أقبل قضّهم بقضيضهم، ومن اجتمـع إليه من غيرهم كما تقدم.

وكان الوزير قد استدعى قبائـل خولان[2] بأجمعهم ثم أمرهم أن يخـرجوا قبلي صنعاء يبقـون به في شعوب والجراف والروضة[3] وجعل في بئر العزب من التوابـع الحرّاثين[4] أهل الفلاحة لا يسمنون ولا يغنون من جوع.

فلمـا كـان ليلة النصف من شهـر جمـادى الأخـرى سنـة ١٢٣٣هـ وصلوا إلى غربـي بئر العزب ثم ألقوا ما في بطون بنـادقهـم إلى الدائـر، وصاحـوا على التوابـع المذكورين فـطاروا من مراكـزهم بلا طعنـة ولا ضربـة فنقب القبائـل الدائـر أنقابـاً، وبعضهم تسور السور بسلالم قد أعدُّوها وكـان وصولهم ثلث الليل الأول فما انتصف الليـل حتى أنفذوا الأنقـاب فدخلوا فـإذا لم يكن بها أنيس غيـر أهلها، وكـان شيـخ الإسلام بها فتهاتفوا على قواعدهم وتنادبوا على أن يحـولوا بينه وبين صنعاء لعلمهم بأن به يحصل مرادهم، ويخرج كبارهم من الحبس لعظم منزلته عند الإمام، ورتبتـه عند الخاص والعام.

والصيد كل الصيـد في جوف الفـرا[5]

(١) اسم كبير الشوف النقيب علي بن عبد الله الشائف وكان من كبار ذو غيـلان له مكـانة وركـانة والشوف بطن من ذو حسين لهم بقية وتسييبه أي إهماله في الأزقة والشوارع كما ذكر المؤلف.

(٢) خولان هذه هي خولان العالية: الواقعة شرقي صنعاء.

(٣) شعوب: من ضواحي صنعاء الشمالية وكذلك الجراف، وقد دخلت فيما يسمى اليـوم صنعاء لامتداد العمران إليها، والروضـة هي التي كانت تسمى المنـظر وهي حارثيـة الدعـوة وكانت بينها وبين صنعاء ساعتان والآن اتصل العمران وصارت حياً من أحياء صنعاء.

(٤) التوابـع: هو ما يسمى اليوم الحرس الملكي أو الجمهوري.

(٥) هذا مثل وأصله أن ثلاثة رجال خرجوا يصطادون، فاصطاد أحدهم أرنباً والآخر ظبياً والثـالث حمار وحش فاستشرف الأولان وتطاولا فقال الثالث: كل الصيد في جوف الفرا أي أنه أعظم الصيد فمن ظفر به أغناه عن كل صيد.

فكان من ألطاف الله عليه السارية، وعنايته به الرحمانية أن خرج آخر الناس، في أحسن زي وأجمله، وأبهى منظر وأكمله، غير مروّع ولا فزع، ولا مستوحش ولا جزع، وقد صار بعضهم على أبوابه، وآخرون قد ولجوا من بعض الأبواب إلى بساتينه.

فلما خرج انزوى من في أبوابه منهم وتوارى وضرب بهم الرعب والمهابة من فضل الله عليه وعنايته كما أخبر بذلك كبارهم ـ شيخ الإسلام:

وقاية الله تغني عن مضاعفة　　　من الدّروع وعن عالٍ من الأطم[1]

وبهذا قد كان أخبر الدولة شيخ الإسلام بأنهم سيصنعون صنْعاً لم يكن قد عهد منهم مثله يضاهون به الصنع الذي وقع بهم:

يرى فلتات الرأي والرأي مقبل　　　كأنّ له في اليوم عيناً على غد[2]

فلحق الناس بذلك مشقة عظيمة لا سيما أهل بئر العزب فإنه ذهب جميع ما في أيديهم وما في بيوتهم وذهبت أبوابهم وطاقاتهم، وأما القتلى من أهل بئر العزب فدفع الله عنهم إلا القليل فمنهم القاضي العلامة محمد بن يحيى السحولي[3] والسيِّد العلامة يحيى بن محمد حطبة نائب الوقف، والسيد العلم قاسم بن الصادق بن المنصور حسين بن القاسم، وابن أحمد المدعي من خدم سيدي المولى حفظه الله ـ وتاهت بعد ذلك جميع القبائل ولحق الدولة بذلك خلل عظيم من فساد القبائل، ولكن لا رأي لمن لا يطاع[4].

---

(١) هذا البيت من قصيدة البردة للشيخ الحجة شرف الدين ابو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد البوصيري المصري المولود سنة ٦٠٨ والمتوفى سنة ٦٩٧هـ. والأطم: الحصون.

(٢) لم أعرف قائله.

(٣) القاضي محمد بن يحيى السحولي لم يترجم له ويأتي ذكر والده، ولم يترجم أيضاً لقاسم بن الصادق بن المنصور ولا ليحيى بن محمد حطبة.

(٤) سبق هذا المثل وانظر: أمثال الميداني.

أمــرتهم أمـري بمنعــرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد[1]
ومـا أنا إلا من غُـزَيَّـة إن غـوت غـويت وإن ترشـد غُزيـة أرشـد

ولما حصلوا ببئر العزب طلب الوزير العفاري قبائل خولان من مراتبهم ثم أمرهم بـالخـروج من بئـر العـزب وأبـاح لهم مـا وقعت عليـه أيـديهم من بيـوت أهلهـا التي لم يكن القبائل وصلوها ففعلوا فيها فعلاً أشد من فعـل البغاة واجتمعت يـد الفريقين وغيرهم على نهب المدينة وكان ذلك بسبب اتفاق كلمتهم على الدولة.

وفي نهار ذلك اليوم كتب كبار القبائل وقضاتهم كتاباً إلى شيـخ الإسلام يهنونه بالسلامة ويطلبون منه السعي في إطلاق من في السجن منهم وإرجاع خيلهم وإبلهم وسائر دوابهم، وما ذهب من سلاحهم فخـاض في ذلك واستـدعاه الإمـام حفظه الله إليه، وأمر بـالقبض على الوزيـر الفقيه قـاسم العفاري، وفـاوض شيـخ الإسلام في ضرب عنق العفاري فلم يساعده على ذلك، وبعد ذلـك أمر نقيب الحبس أن ينـزل جمـاعة من عقّـال المحبوسين إلى عنـد شيـخ الإسلام[2] ليسـدَّ هـذا الفتق فـأنـزل جمـاعة منهم النقيب عبـد الله بن أحمد الشّـائف أبـو النقيب علي المضـروب عنقـه فحضروا عند شيـخ الإسـلام فتكلموا بمـا أنطقهم رمـاح قومهم الحـداد، وتحكمـوا ولكن تحكم سيوفهم يوم الجلاد فما زالوا يفتحون أبواباً، ويغلقهـا، وطال الجدال، واتّسـع ميدان المقال فما زال حاله معهم كما قال الشاعر [3]:

وداهيـة داهى بهـا القــومَ مغْلق شديد بعورات[4] الكلام أرومهـا
أصخت لهـا حتى إذا ما وعيتهـا رميت بـأخـرى يستـديـر أميمهـا
تـرى القوم فيهـا مطرقين كـأنمـا تسـاقـوا عقـاراً لم يبـلَّ سليمهـا

---

(١) هذان البيتان لدريد بن الصمّة المشهور قتل في غزوة حنين مع كفار الطائف وهوازن والبيتان من قصيدة أوردها في ديوان الحماسة.

(٢) كذا في الأصل و (عند) الظرفية. قال النحويون: لا يدخل عليهـا من حروف الجـر إلا (من) وإن من مثل هذه العبارة لحن وإن قول العامة ذهبت إلى عنده لحن والصواب ذهبت إليه.

(٣) القائل هذه الأبيات شاعر من تميم كما في كامل المبرد (ج ١ ــ ص ٦٤).

(٤) كان في الأصل (بعـوزان) بالـزاي والنون والتصحيـح من المحفـوظات ثم من كـامل المبـرد (ج ٢ ــ ٦٤).

فلم تلقني فهـاً ولم تلق حجتي ملجلجـة أبغي لهـا من يقيمهـا

فما زالـوا في كلامهم يقربون تارة، ويبعدون أخرى وكلما بعدوا قرب أو قربوا حتى اتفقت أخـواضهم على السداد، وائتلفت أحـوالهم على الرشـاد، وحصل بعـد ذلك إطلاق من في الحبس مع إرجاع أكثر ما ذهب عليهم وخـرجوا إلى أصحـابهم الـذين في بئر العـزب، وخرجـوا منهـا بيـد الجمـع وعـزمـوا إلى بـلادهم بـطارفهم وتلادهم، ولله القائل[1]:

وفي النـاس ألفٌ منهم مثل واحد وواحــد كـالألف إن أمـرٌ عنـا

ولما خلتْ تهامة عن الشريف حمود بموته في التاريخ المذكور وقام بها ولده الشريف أحمد بن حمود فعلم الأتراك أنه لا يسدّ بها مسدّ أبيه فوقعوا عليهـا وقوع القـطا على أوكارها فقبضوا على الشريف أحمد بوجه من الخداع ثم استولوا عليها في يوم واحد.

فلما اتصلت بذلـك الأخبار اشتعلت اليمن كـاشتعال النـار، وكادت أن تميـد بأهلها لما استولوا على الشريف أحمد وجنده، ولم يقي ذلك[2] أحد ممّن كـان عنده وكانت الخيل عنـده فـوق الألـف والعساكر يعدون بالآلاف ثم استولوا على أهلهـا ومدنها وبنادرها، وهي محكمة بالرتب والولاة فـذهبت الدولـة وأهلها في يـوم واحد كأن لم تكن.

ولما اتصلت أخبار الترك بالـدولة استـدعى إمام العصـر حفظه الله أهـل دولته والخـاصة منهم بحضـرته، فـارتاع لـذلك أهـل صنعاء وبـادروا إلى سـوق الـطعـام فما كان أسرع مما ذهبوا بما فيه أجمـع لكي يستعدوا لما عسى أن يكون[3].

* * *

---

(١) القائل هـو محمد بن الحسن بن دريـد الأزدي المتوفى سنـة ٣٢١هـ من مقصورتـه المشهورة التي أولها:

يـا ظـبيـة أشـبـه شيء بـالـمـهـا تـرعى الخـزامى بين أشجـار الـنقـا

والمحفوظ وهو كذلك في المقصورة «والناس ألف منهم كواحد».

(٢) لم يقي عنه كذا في الأصل وصوابه «لم يق» من الوقاية.

(٣) وهكذا دأب أهل صنعاء في كل زمان يرجفون على أنفسهم.

﴿الشوكاني يتولى الجواب على الأتراك﴾

ولما اجتمع أهل الدولة لمقام الإمام حفظه الله ودار الكلام في أمر الأتراك أمر شيخ الإسلام أن تحفظ المحلات المرتفعة العالية على تهامة بالعسكر وكذلك المعاقل والجبال فما زال الخوض في ذلك نحو أسبوعين ثم وصلت كُتُبٌ من الأتراك مكاتبة معاهدة وأخذاً لحقيقة الحال فأجاب شيخ الإسلام عنها جواباً انطوت ألفاظه بعد أداء حق المعاهدة أن البلاد بلاد دولة صنعاء وإن الشريف إنما بسطت يده عليها بيد النجدي وإلاَّ فهو أضعف من ذلك وإنما تركته الدولة عليها لحتى تنقشع فتنة النجدي وهو بعد ذلك يكون أحقر من أن يستبد بها وإن قد كانت الدولة الصنعانية أخذت في التأهب لها لأخذها لما بلغهم هلاك النجدي بسيف السلطان حفظه الله، فما كان جواب الأتراك إلا أنهم أرسلوا رسلاً لانعقاد الصلح بينهم وبين الدولة.

وعزم من عند الدولة رسول القاضي العلامة محمد بن أحمد الحرازي(١) ثم وصل منهم رُسُل آخرون وعزم القاضي المذكور مرة أخرى ليؤدي عن شيخ الإسلام رسالتهوكان القاضي تلميذ شيخ الإسلام ثم اتفقت الأحوال بين الأتراك وبين الدولة على تسليم بلاد تهامة بأجمعها لسيدي المولى الإمام المهدي حفظه الله وسلّم لهم ما لزمهم من غرامتها لجندهم وجعل لهم من بندر الحُدَيدة شيئاً من البُن في

---

(٢) تأتي ترجمته وذكره للمؤلف.

كل عام لمطبخ السلطان، وعزموا مكة وصارت البلاد لأهلها ولله الحمد وكان ذلك في شهر رمضان سنة ١٢٣٤هـ .

فهذه نبذة مما دفع الله سبحانه من عظائم الأمور الواردة ببركة شيخ الإسلام وذلك الفضل من الله سبحانه وما أحسن قول الحطيئة[١] في بيته من القصيدة التي يمدح بها علقمة بن علاثة ويعرّض بالزِّبرقان وقومه في منافرة وقعت بينهما، ويعرض بأنه لم يكن في عصر الممدوح من أولئك من يقوم مقامه فقال:

أقلُّوا عليه لا أباً لأبيكم ... من اللّوم أو سدّوا المكان الذي سدوا

* * *

(١) الحطيئة: اسمه جرول بن أوس من عبس قبيلة شمالية ولقب بالحطيئة لقصره وهو شاعر جاهلي إسلامي: مخضرم وكان هجاءً قبيح الهجاء حتى هجا أمّه وأباه ونفسه وديوانه مطبوع وعلقمة بن علاثة بن عوف من بني عامر بن صعصعة ثم ابن كلاب بن ربيعة له رئاسة في قومه وأدرك الإسلام ولم يسلم، والزبرقان: هو ابن بدر التميمي أحد رؤساء بني تميم وأحد وفدهم إلى رسول الله ﷺ وفيهم أنزل الله ﴿الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعلمون﴾ (الحجرات).

﴿كيف كان دفاع الشوكاني عن الضعفاء﴾

وأما مدافعته عن ضعفاء خلق الله تعالى من أقويائهم وعن المظلومين من ظالميهم فذلك تأهيل أهَّله الله له منذ قام بوظيفة القضاء لا يدع قضية وصَلَتْ ولا مظلمة انتهتْ إليه، حتى يقوم فيها بما أوجب الله عليه فيكون الله له عوناً على ذلك، حتى أنه وقع بينه وبين الإمام المنصور بالله رضوان الله عليه في مظلمة وقعت من بعض أهل دولته فتوجَّع من ذلك شيخ الإسلام وكتب إليه أنه لا يمكنه البقاء على مثل ذلك، فأجاب عليه الإمام المنصور بعد إزالة تلك المظلمة جواباً بسيطاً يقول فيه: وإنما أنا منفِّذ لما قلته.

ومثل هذه الواقعة وقعت بينه وبين الإمام المتوكل على الله رحمه الله فترسَّل عليه فأجاب عليه الإمام جواباً طويلاً يقول فيه: وإن رأيت من يقوم بهذا الأمر غيري فأنا خالع نفسي منه وجاعلها سيفاً من سيوفه، ونحو هذه العبارة.

وكذلك أهل الأمر لا يرون لهم مانعاً ولا كافًّاً عن ظلمهم من يريدون ظلمه غيره ويتقون سطواته أبقاه الله وأعانه.

* * *

﴿حلم الشوكاني ومكارمه﴾

وأما في الحلم والمكارم فهو في الأول الأحنف بن قيس، وفي الثاني حاتم الطائي[1] رُتِّبت له إقطاع من الخراج الزكوي وهي تدُر عليه في كل عام، وحاصلها حصة متوفرة، وجملة مستكثرة[2] وهو لا يصطفيها، ولا يستأثر بصافيها بل اليتامى والأرامل شركاؤه فيها، وإذا وقعت الدراهم بين يديه فرَّقها حِبا، ومزَّقها أيدي سبا، وهذا خُلُقه الذي عرف به بين أصحابه، في حالتي كهولته وشبابه.

قال العَلَم المشتهر، يحيى بن المطهر[3] في أثناء الكراس الذي كتب إليَّ ومن سماحة شيخنا شيخ الإسلام في الشدة العظيمة الكائنة سنة ١٢٢٣هـ ثلاث

---

(١) الأحنف: اسمه صخر بن قيس السعدي التميمي، يضرب به المثل في الحلم. ساد تميم البصرة وشهد الفتوح في خراسان واستدعاه عمر بن الخطاب فمكث عنده سنة ثم كتب له إلى أبي موسى الأشعري وقال: أما بعد فأدن الأحنف وشاوره واعتزل يوم الجمل وشهد صفِّين مع علي، ولما انتظم الأمر لمعاوية عاتبه فأغلظ له الأحنف في الجواب فسئل معاوية عن صبره عليه فقال: هذا الذي إذا غضب غضب له مائة ألف لا يدرون فيم غضب. وكتب التاريخ والأدب مشحونة بأخباره وخطبه وكلماته. مات في الكوفة سنة ٧٢هـ وحاتم هو أبو عدي حاتم بن عبد الله الطائي نسبة إلى طيىء قبيلة من قحطان الجواد المضروب به المثل في الجود والكرم ومن لا نظير له وهو أيضاً شاعر وديوان شعره مطبوع وأخباره في كتب الأدب طافحة في ذلك.

(٢) انظر المقدمة.

(٣) تأتي ترجمته ونسبه للمؤلف.

وعشرين واثني عشر مائة التي لم يسمع بمثلها في الأعصار المتوالية أنه كتب إليّ بعد كلمات ما صورته.

وصدر هذا السيف أدفعه إلى السيد الكبسي صنو إمام الجامع المقدس وعَرِّفه لا يُغْبَن فيه وأنه سيف مجهول قطعاً، وكان قد عزم حينئذ على تفريق شيء من التفاريق على المساكين غير أنه أشفق من ذلك بعض المماسكين[1]، وكان كثيراً ما يدفع نقداً أفاد على طريق الاستفداء.

قلت: ذكرت بمكرمة السيف هذه ما حكاه القاضي أحمد بن خلكان[2] في المحمدين من ترجمة أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الملقب جمال الدين المعروف بالجواد الأصفهاني وزير أتابك زنكي صاحب الموصل المعروف بعماد الدين ابن آق سُنْقر الملقب قسيم الدولة بن عبد الله وكان مملوكاً للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي[3] بقوله:

وجاء في زمنه غلاء مفرط بالموصل فواسى حتى لم يبق له شيء وكانت أقطاعه عُشر مَغَلّ البلاد على عادة وزراء الدولة السلجوقية وأخبر بعض وكلائه أنه دخل عليه يوماً فناوله بقياراً[4] فقال له: بِعْ هذا، واصرف ثمنه إلى المحاويج فقال

(١) كذا في الأصل.

(٢) ابن خلكان هو المؤرخ الشهير القاضي شمس الدين أحمد بن محمد المولود سنة ٦٠٨ والمتوفى سنة ٦٨١هـ! ومؤلفه وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان، من أجلّ وأحسن ما أُلِّف في تراجم الرجال والتاريخ، ولقد طالعته مراراً وتكراراً فما يزيد في عيني إلا طلاوة وفي نفسي حلاوة وكلما زدته نظراً زادني حسناً وأخرج منه منشرح الصدر مبتهج الخاطر في متعة وبهجة. وقد طبع عدة طبعات ونقل إلى لغات شتى والأديب والعالم لا يستغني عنه.

(٣) هؤلاء المذكورون كلهم مترجم لهم في ابن خلكان فارجع إليه تجد المتعة التي كنت أجدها والأتابك معناه المربي لأولاد الملوك، وسلجوق: بفتح السين وسكون اللام وضم الجيم، والموصل: مدينة عراقية شمال بغداد خرج منها عالم من العلماء والأدباء والأمراء والفرسان.

(٤) البقيار: كأنه حلي من التبر المصاغ تلبسه الملوك كالتاج ونحوه إذ لم نجد تفسيره في المعاجم بين أيدينا.

لـه الوكيـل: إنه لم يبق لـك إلا هذا البقيـار الذي على رأسـك وإذا بعت هذا ربمـا تحتاج إلى بيـع البقيـار فلا تجد مـا تلبسه فقـال له: إن هـذا الوقت صعب كمـا ترى وربما لا أجد وقتاً أصنـع فيه الخير كهذا الوقت وأما البقيـار فإني أجـد عوضـه كثيراً فخـرج الوكيـل وباع البقيـار وتصدق بثمنـه فهذه الفضيلة قـريبة ممـا قبلها وذكـرتهـا لجامـع بينهما في الشبه.

* * *

﴿كيف طريقة أحكام الشوكاني وفتاويه﴾

وأما طريقته في الحكم والفتيا فبما يقتضيه الـدليل من الكتـاب والسنّة يستنبط الأحكام من التنزيل والأثر حسبما يؤديه إليه الاجتهاد والنظر ولا يرى جواز التقليد كما صرح باختياره في مؤلفاته إيقاظاً لذوي الأبصار، واقتداء بسيد المهاجرين والأنصار.

* * *

﴿كيف يقضي يومه﴾

وأما شرح قطعه الأوقات، وتوزيعه الطاعات بين الساعات، فسأذكره كما استرويته، حكى لي بعضهم أنه يصلي الصبح بإسفار، ويقبل في الأدبار على ذي ديمته[1] من الإذكار، وللفراغ يتناول مطعوم أول النهار، ثم يدخل التلاميذ عليه، بعد أن يفتح ضياء الشروق عينيه، فيلقي عليهم الدرس إلى ارتفاع الشمس، وإذا خرجوا من عنده، بما غذَّاهم به وأرواهم دخل عليه المحاويج إلى تنبيه الخليفة على قضاياهم ومتى حانت الظهر ابتدر أداءها واشتغل بطاعات مما عداها إلى إطلال العصر فيصليها لوقتها ثم ينتقل عن ذلك المقام إلى مجلس الخصام، فيفصل ما يرتفع إليه من الشجار إلى أن يهرم النهار فيصعد إلى مجلس خلوته، ويتناول طعام الطرف الأخير من اليوم قمْعاً لشهوته، وعند فراغه من العشاء يقيم على التوقيت فريضتي العشاء[2] وينتقل من مأثور النوافل والإيْتار، إلى مراجعة الدفاتر والأسفار، وتحرير المسائل وتحْبيْر الرسائل، وينام بعد انقضاء شطر الظلام، وعقب استيقاظه من غده، ينقلب متطهراً إلى مسجده، ويهينم بتلاوته ودرسه ثم يسبك يومه في قالب أمسه وهو فيما بين هذه الأوقات جميعها لا ينفك ذاكراً، يسرُّ تارة ويجهر أخرى.

* * *

(١) كذا هذه العبارة وكأنها على ذي ديمومته أي على عادته الدائمة.

(٢) فريضتي العشاء: أي المغرب والعشاء أي بأداء كل واحدة بوقتها، من باب التغليب كالعمرين لأبي بكر وعمر.

﴿نهضاته﴾

وأما نهضاته عند الأسفار، في صحابة خلفاء هذه الديار فجملتها تسع نهضات. أما الأولى ففي شهر صفر من سنة خمس وعشرين ومايتين وألف وذلك في موكب أمير المؤمنين أبو عبد الله المتوكل على الله أحمد بن المنصور رضي الله عنه واجتاز بمدينة ذمار ونزل شيخ الإسلام بدارالشريف المعمّر أبي عبد الوهاب الحسين بن يحيى الديلمي[1] وهي جديدة الجانب القبلي من المدرسة الشمسيّة[2] وأقام بإقامة الخليفة بذمار زهاء شهرين يغشاه الفقهاء والأعيان من أهلها، وفيها أسمع عليه الشريف الذكي أبو محمد عبد الوهاب بن حسين الديلمي[3] بعض صحيح البخاري وستأتي ترجمته وشرح قصة مفارقته الحياة في ترجمته من القسم الثالث.

ثم انتهى بشيخ الإسلام المسير بانتهاء الخليفة رحمه الله إلى رداع وعاد إلى صنعاء بعوده أيضاً، ولجري ذكر الحسين بن يحيى الديلمي فلنترجمه،

هو السيد العالم الأبرّ الحسين بن يحيى بن إبراهيم الديلمي من أعيان العترة وتراجمة الأسرة:

---

(١) تأتي ترجمته للمؤلف قريباً.

(٢) لا يزال البيت عامراً وملكاً لأحفاده والمدرسة الشمسية لا زالت أيضاً عامرة. انظر كتاب المدارس للأخ إسماعيل بن علي الأكوع.

(٣) تأتي ترجمته للمؤلف كما ذكر.

سيِّد ضحْكُهُ التبسُّم والمشي الهوينا ــ ونومه الإغفاء[1]

كانت ولادته سنة ١١٤٨هـ بمدينة ذمار وبها نشأ وتعلَّم العلم فقرأ الفقه على شيوخ جلّة منهم الحسن بن أحمد الشبيبي وعلي بن أحمد بن ناصر الشجني وعبد الله بن حسين دلامة[2] وآخرين ثم رحل إلى صنعاء وقرأ على البدر محمد بن إسماعيل الأمير[3] واستجاز منه وأخذ عن الحسن بن إسماعيل المغربي[4] في الكشاف وقرأ على عبد القادر بن أحمد الكوكباني وآخرين ثم عاد إلى ذمار وقد حصَّل من العلم نصيباً صالحاً فأخذ عنه الحديث جماعة من عيون أهلها، وبسابق عنايته انتشر الأثر في ذمار وقرئت كتب السنة وتصدر لقراءة الفقه بها والحديث والتفسير والنحو والصرف والأصول، وألَّف العروة الوثقى شرحاً للأزهار، وقد جمعت فأوعت ولا بأس بتصرفاته الإجتهادية فيها، وألَّف أيضاً جِلاَ الإذكار في شمائل المختار وله وراء ذلك مكتوبات ومباحثات، وأما زهده وورعه وتقشفه وتعففه فأمره قد انتشر وتجلى تجلِّي البدر ليلة الرابع عشر وجمع الله له بين الدين والدنيا، ورغد العيش والمحيّا ووسَّع له في الرزق والأجل، فانتهى بما يبغيه من خيرهما إلى ما وراء الأمل، وهو إلى عامنا هذا سنة ١٢٤١هـ على شيخوخته وكبر سنّه ملازم للطاعات ولا يفتر عن قصده للجماعات وبالجملة فهو حسنة ذمار وبدر من طلع بفلكها من الأقمار[5].

رجعنا ونهض شيخ الإسلام النهضة الثانية في أعطاف سنة ستة

---

(١) هذا البيت من قصيدة الهمزية للبوصيري المتقدم ذكره.

(٢) هؤلاء الثلاثة هم أعمدة الفقه الزيدي ومقرروه والمعول عليهم. فالحسن بن أحمد الشبيبي مولده بذمار سنة ١١٠٧هـ ووفاته بها سنة ١١٦٩هـ كذا في ملحق زبارة، ص ٦٨. وأما عبد الله بن الحسين دلامة فهو ثاني أعمدة علم الفرائض والفروع. مولده ووفاته بمدينة ذمار سنة ١١٧٩هـ وأما علي بن أحمد بن ناصر الشجني فهو جدّ المؤلف وتأتي ترجمته للمؤلف وكانت ولادته بذمار سنة ١١٢٣ ووفاته بها سنة ١٢٠١هـ.

(٣) البدر محمد بن إسماعيل الأمير هو الحجة البالغة الحافظ والمجتهد المطلق ناصر السنّة وقامع البدعة، مولده سنة ١٠٩٩ بكحلان عفار شمال غربي صنعاء ومات بصنعاء سنة ١١٨٢هـ. انظر حياته في كتاب «ابن الأمير وعصره».

(٤) تأتي ترجمة المغربي للمؤلف.

(٥) وكانت وفاة الحسين بن يحيى الديلمي سنة ١٢٤٩هـ كذا في الهامش وتعليق زبارة.

وعشـرين ومائتين وألف، في صحبـة المتوكـل أيضاً وانتهى في سفـارتـه[1] إلى ذي جبلة، وهناك كان منتهى مقصد الإمام ثم انثنى بانثنائه إلى صنعاء، وأما نهضته الثالثة فهي كالثانية مسافة وانتهاء وبينهما أو بعد أخراهما كـان خروجـه من صنعاء في لـزام المتوكل إلى كوكبان حصن الأشراف الأعلام آل شرف الدين.

وأخبرني يومئذ والدي غفر الله له، وأكرم في دار النعيم نُزله أنه انتهى إليـه أن المتـوكل رضـوان الله عنه كـان قد رأى عنـد دخولـه الحصن المذكـور أن المصلحة والعـزيمة يقضيـان تملك ديار آل شـرف الدين وعقـارهم بالقيمـة وأن تنظم جمـانـة ملكهم في سمط مملكتـه فقـد أفضى إليـه من فعلهم مـا يــدل على طمـاعيتهم في مشـاركته لمـا ظهر منهم في آخـر الدولـة المنصوريّـة من الآراء المشتركـة والإعلان بـالمنازعـة منهم في ضرب السكـة وأنـه لا يصلـح قـراب لحـدَّين[2] ولا يصـح في شريعة الاحتياط سُريَّة ملك بين سيدين[3].

* * *

---

(١) سفارة: مصدر سفر والسفارة الذي يتوسط بين جانبين ومنه السفير: أي وانتهى في سفره.

(٢) القراب: بكسر القاف: غمد السيف.

(٣) السُّرية: بالضم، الجارية قد تسراها الرجل وتملكها.

﴿صراحة الشوكاني بالمنطق﴾

فقال له شيخ الإسلام: أما ضمّ ولايتهم إلى ولايتك فمن فائل النظر. وأما ابتياعك عقارهم وديارهم بلا رضا منهم فلم يأت في تسويغه آية ولا خبر، ثم بعد ذلك أوضح له خفيّ باطن الصورة، وأنهم لم يأتوا إلا من قبيل فائل الرأي[1] والمشورة، ولم يزل مخاطباً له بالاستعطاف على أقربائه حتى ثناه عن صميم عزمه ورأيه، وعندها نزل عن ظهر التعجّل إلى أرض التمهلّ وكان ما كان من مآل الأمر إلى السداد وجري الأمور على وفق الحكم المراد، كما ذلك معلوم من أمره، وليس هذا بمحلّ استيفاء ذكره، ولكن الغرض إيضاح ما هنالك من السعي الحميد، للأستاذ الموفق السديد.

* * *

(١) فائل الرأي: فاسده.

﴿وفاة المتوكل ومدة خلافته﴾

ثم كان استيثار قضاء الله بأمير المؤمنين المتوكل على الله أسكنه الله فراديس الجنان، وبلّ ثراه بوابل الرحمة والرضوان، وذلك ليلة الأربعاء ثامن عشر شهر شوال عام إحدى وثلاثين ومائتين وألف وكانت مدة خلافته سبع سنين لأنه بويع عقيب وفاة والده الإمام المنصور بالله في شهر رمضان سنة أربع وعشرين ومائتين وألف.

هذا ولما كان القلم قد نشر أجنحة الطيران إلى وكر حمى آل القاسم خلد الله أيامهم «وارداً أصْدَر»[1] وقد تضمَّخ من عَرْف شذا عليائهم فقام في محراب هذا الطرس راكعاً وساجداً فلننشر إلى تاريخ كل خليفة منهم منذ دعي المنصور بالله القاسم بن محمد سلام الله عليه إلى وقتنا عام واحد وأربعين ومائتين وألف.

***

(١) كذا في الأصل ولعل العبارة إيراداً وإصداراً.

﴿الكلام على
ابتداء الدولة القاسميّة﴾

نعم دعي الإمام القاسم سنة ست وألف واليمن مشتعل بنيران الأتراك فلم يزل قائماً بفريضة جهادهم والحرب تصعب فيما بينه وبينهم مرة وتصخب أخرى حتى زعزع أركانهم، وضعضع سلطانهم إلى أن أفل جرم بدره، وانقضت مدة عمره سنة تسع وعشرين وألف.

فقام مقامه ولده أمير المؤمنين المؤيد بالله محمد بن القاسم رضي الله عنهما مشمِّراً على السَّاق داعياً إلى رضا المهيمن الخلّاق، ناشراً لراية الجهاد، كاشراً عن ناب النضال والجلاد، فطرد سواد الأروام بالحسن أخيه سيف الإسلام ثم دعاه داعي القضاء، حين حقّ على عمره الانقضاء عام خمس وخمسين وألف فولي ما كان يليه أرشد أولاد أبيه أمير المؤمنين المتوكل على الله إسماعيل بن المنصور بالله القاسم غفر الله لهما فنهض بتدبير المملكة نهوض آبائه أهل المجد الأثيل، ولم يزل نور سعادته يرد طرف الشمس وهو كليل إلى أن وافاه رسول الوفاة عام سبع وثمانين وألف.

فاستقل بأعباء إمرة المسلمين أمير المؤمنين المهدي أحمد بن الحسن بن القاسم رحمهم الله ولبث في الخلافة ست سنين، وعفَّر التراب منه الجبين سنة ثلاث وتسعين وألف وناب منابه في رعية الناس، والقيام بهذا الشّعار واللباس المؤيد بالله محمد بن المتوكل بن القاسم أكرم الله نُزُلهم فما زال يرعى أمر العدل كالدّاعي حتى نعاه الناعي سنة ثمان وتسعين وألف، ودعى إلى نفسه أخوه يوسف بن

المتوكل[1] وتلقب بالمنصور فما لبث في كفه إلاَّ ريث لمحها بطرفه.

ثم ابتزَّها صاحب المنصورة[2] وجوزي في أخذها منه بتلك الصورة

---

(١) يوسف بن المتوكل كان تعيس الحظ رغم علمه وكماله وأدبه فقد ادعى الإمامة فأجهز عليه صاحب المواهب فاختفى فاستدعته خولان العالية فخذلته فرام الذهاب إلى عش الإمامة (صعدة) فقبض عليه بسعاية وحبسه صاحب المواهب سبع عشرة سنة، فلما قام الإمام المنصور بن حسين رفَّه عليه وأنعم فلما مات القاسم المذكور وقام ابنه المنصور حسين خرج يوسف مع الخارجين ولم يظفر بطائل ومات غريباً بعمران البون سنة أربعين ومائة وألف ومولده سنة ثمان وستين وألف. البدر الطالع (ج ٢ ــ ص ٣٥٠).

(٢) ويلقب أيضاً «صاحب المواهب لأنها آخر عواصمه التي اتخذها» أولها مخيم في ظاهر مدينة ذمار وثانيها الخضراء من ضواحي مدينة «رداع» ولبث بها سنتين وعمرت فيها اثنا عشر ألف دار ثم غادرها للبوم والغربان إلى المواهب ــ شرق شمال ذمار بمسافة ساعة ــ وبها مات ودفن بها.

لاحظته السعادة وحالفه النصر والظفر رغم جهله وجبروته عكس «يوسف بن المتوكل» المتقدم الذكر فإنه لما مات الإمام المؤيد محمد بن المتوكل قامت قيامة الإمامة وادعاها منهم في كل سهل وجبل وهو من جملتهم، وكان مقيماً «بمنصورة الدملوة» فتألَّب عليه عشاق الإمامة من أهله وأقاربه ونازلوه وحاصروه بدون رحمة حتى كاد على وشك الاستسلام فغامر بزمرة من عساكره أهل المعافر الحجرية ففضَّ تلك الجموع وكسر شوكتهم وأسر وقتل وشرَّد وأغمد سيفه في الرقاب حلاً وحراماً فارتاع اليمن من أقصاه إلى أقصاه وبسط نفوذه عليه بجبروت وقهر.

وكان غريب الأطوار ممثلاً بارعاً جاهلاً إلا من الرهبوت. ألَّف كتاباً سماه «الشمس المنيرة» غثّ هزيل اطلع عليه الشوكاني وكان يكلف أكابر العلماء أن يقرأوه عليه، ومن دجله أنه متى شاهد موكبه الضخم الذي يملأ السهل والوهاد ترجَّل عن جواده وسجد لله شكراً وعفَّر وجهه بالتراب حتى سمي صاحب السجدة، مولده سنة سبع وأربعين وألف وانتزع الإمامة من براثن الأئمة العديدين سنة سبع وتسعين وألف هجرية ومات محاصراً من ابن أخيه الإمام القاسم بن الحسين سنة ست وعشرين ومائة وألف «البدر الطالع ج ٢ ــ ٢٩٧»، ولقد حدثنا الأشياخ أن ابن أخيه القاسم بن حسين المذكور لما دخل عليه إلى غرفته وهو مسجى هبَّت الريح بتفاعل التيار من الباب والطاقة المفتوحة فرفعت الستارة عن الجنازة فارتاع خوفاً وعاد على حافرته لولا الحرس أكدوا له بالأيمان أنه قد مات وأن الريح هي التي قشعت الستارة. هكذا يذكرها الأشياخ كصورة من صور الرعب والخوف الذي قد خامر كبار

الشجعان ولننقل إلى مسامع القارىء صورة حية عن مشاهدة البعثة الفرنسية لحياة «الملك» على حد تعبير البعثة «الإمام المهدي» التي جاءت سنة ١١٢٤هـ سنة ١٧١٢م، باستدعاء من «الملك» إلى المواهب لمداواته، موجزين كلمة البعثة في دايرة الموضوع، لأن كلمة البعثة واسعة ومتشعبة، وهذا المقال أهداه لنا الأستاذ «شلحد» رعاه الله معرّباً واضحاً، فمما حكت البعثة في كلمتها الفياضة:

أنها لما قابلت الملك بقصره بالمواهب قابلها بالترحاب والتكريم والبشاش إلى أن قالت:

وكان هذا العاهل شيخاً يبلغ من العمر سبعاً وثمانين سنة حسن الهيئة جميل الطلعة أسمر اللون وكان جالساً على سرير يغطيه السجاد ومتكئاً على الوسادات، وحوله اثنان من أولاده وبالقرب منهما بعض كبراء الدولة وأمام السرير استوى الجلساء على صفّين يمر بينهما زوار الملك، والقصر الملكي وهو على رغم سعته ورحابته يمتاز ببساطته وبساطة الأثاث الذي فيه وقلة زخرفاته بل إن البساطة تشمل شخص الملك نفسه، فلم نر له من الثياب غير شرشف رقيق أخضر اللون أو أصفر ليس فيه أي نوع من أنواع الزخرفة «وهو ما حكاه لنا الشوكاني في ترجمته». وكان عاري الساقين والرجلين يلبس الخفّ على الطريقة التركية أما ألبسته فهي لا تمتاز عن غيرها إلا بغطاء من الحرير الأبيض يسدله فوق عمامته ويعقده تحت ذقنه، ولا أدري إذا كانت هذه البساطة التي يتحلى بها القصر وصاحبه من مبادىء الديانة الإسلامية «هي من الدجل الزائف» وتبين لي أن هذا الملك يتلقب «بالإمام» أي أنه «الكاهن» الأكبر لشريعة محمد وقد تكون الأبهة والعظمة من المظاهر التي لا تتماشى مع هذا المنصب العالي أو مع الديانة الإسلامية.

أما ما يتعلق بحياة ملك اليمن الخاصة فهي تمتاز بطابعها الرتيب فهو ينهض من نومه مع شروق الشمس ويتناول الطعام في الساعة التاسعة ويرقد من جديد من الساعة الحادية عشرة إلى الثانية تماماً من بعد الظهر وعندئذ تقرع الطبول وينفخ الزمارون في آلاتهم، ولرئيس الطبالين ميزة خاصة إذ يحق له وحده أن يدخل غرفة الملك سواء كان صاحياً أو راقداً، وهو من الأتراك يلبس ثياباً رائعة ويعقد على وسطه حزاماً غريب الشكل فيه عدد من القطع والشرائط الفضية وعلى عمامته ورقة نخل موشاة باليد وسلسلة من الفضة تطوقها مراراً كالأساور بالمعصم.

وعندما يعلن رئيس الطبالين أن الملك قد صحا من نومه يدخل عليه الأمراء والكبراء ويتحدثون معه إلى وقت الصلاة أو الأعمال، ومن عاداتهم أن لا يتقدم الواحد منهم إلى الملك دون أن يأخذ بيد العاهل اليمني يضعها على ركبته ثم يقبلها بكل احترام.

وإذا هناك أمر يظهر مع بساطة هذا الأمير والأبهة الملكية فيه فهي المراسيم المتبعة عند ذهابه كل يوم جمعة إلى الصلاة في الساعة الثانية بعد الظهر ومن المعلوم أن يوم الجمعة عند المسلمين هو للتقرب من الله مثل يوم السبت عند اليهود ويوم الأحد عند المسيحيين.

يخرج أولاً ألف جندي من المشاة في نظام رائع ويطلقون النار عندما يغادرون القصر ويرى الناظر بين صفوف هذه الجنود صفين لهما رايات مقصوصة على شكل زاوية مستطيلة تسمى أعلام محمد وعليّ ويتبع المشاة مائتا فارس من الحرس الملكي على صهوات الخيل الجميلة بتمام عدتها ويحمل هؤلاء الفرسان بالإضافة إلى أسلحتهم العادية المكونة من سيف وبندقية، نصف أرماح زُيّن حديدها بالنسيج الشفاف ويأتي بعد الفرسان ضابط البيت الملكي وجلساؤه ثم يتبعهم الملك على بعض المسافة وهو يمتطي صهوة جواد أبيض من أجمل الخيول هادىءالأعصاب قد خصّص من زمان لركوب الملك وعن يمين الملك ويساره اثنان من أولاده على الخيول المسوّمة الغالية وهناك ضابط على مطية عالية يحمل مظلة الملك ليمشي تحتها متفيّئاً أشعة الشمس وهذه المظلّة من الحرير الأخضر الدمشقي مزينة بالقماش الأحمر، عرضه نحو ثمان أباهم «بوصات» وهو موشى بالخيوط الذهبية وفوق المظلة كرة من الفضة المذهبة وعلى الكرة هرم مذهب أيضاً.

وأمام الملك فارس يحمل القرآن الكريم في كيس من القماش الأحمر وإلى جانب هذا الفارس ضابط آخر يحمل راية الملك وهي من الحرير الأخضر الدمشقي مربعة الشكل، وهذا ما يسمى علم الملك وليس فيه ولا في غيره من الصور إنما زُيّن فقط بالكتابات العربية المطرزة باليد كما أن إطاره موشى بالخيوط الذهبية ووراء الملك ضابط على جواد يحمل سيف الملك وقبضة هذا السيف وغمده مرصّعان بالأحجار الكريمة وقد وضع الغمد ضمن غلاف من القماش الأحمر.

وتظل الموسيقى تعزف والطبول تقرع طول وقت السير وكل هذه الأبهة للذهاب إلى سهل قريب على بعد ربع ميل من المواهب حيث ضربت خيمة كبيرة لاستقبال الملك ولصلاته وسجوده.

وأثناء سير الملك يعترضه في طريقه خمسون جواداً من أجمل خيوله يقودها الغلمان وعليها السروج المعرّقة بالذهب والفضة والأرسان الموشاة وهي تحمل من جهة سيفاً جميلاً جداً ومن الطرف الثاني فأساً للحرب والقتال وهذه الخيول جميعها أتت من ذمار حيث توجد أهم اصطبلات الملك ويتبع هذه الخيول عدّة مماثل من الجمال بجميع عدتها ويحمل كل هجين على رأسه ريشة نعامة سوداء، ولم تقد هذه الجمال والخيول إلا ليستعرضها الملك

وبعد مرورها أمامه تدور عدة مرات حول الخيمة الملكية التي تكلمت عنها آنفاً ثم تعود من حيث أتت.

أما الملك فإنه يدخل وحده هذه الخيمة ويبقى فيها ساعة يقضي خلالها فرائض الإمامة أي إنه يهلّ بالصلاة ويلقي الخطبة وفي هذه الخطبة يحمد الله ويصلي على رسوله وعلى الملك القائم على العرش، أما الأمراء وأصحاب المناصب الذين يصحبون الملك فإنهم يصلون معه في الوقت نفسه ويقلدونه في كل شيء لأن هذه الخيمة مفتوحة ويمكن لكل فرد من الناس أن يرى الإمام.

وبعد الصلاة يمتطي الملك صهوة جواده وتقرع الطبول وتنفخ المزامير ويطلق الجنود النار عند خروجه من الخيمة ويعود إلى المواهب كما جاء منها مصحوباً بدعاء الناس ومظاهر ابتهاجهم.

وعند وصوله إلى مقره يدخل معه قسم من الخيالة إلى صحن القصر ويبقى القسم الآخر خارجه وبعد جلوسه في القصر يقوم الخيالة بالألعاب على جيادهم مقلدين المعارك فهم بين كرّ وفرّ وركض وطعن يرى الناس صورة للحروب.

وهذا الملك الذي شيّد هذه البلدة الجديدة مع قصره لإقامته بالإضافة إلى الحصن المبني بالقرب منها لم يبن في الوقت نفسه مسجداً واحداً حتى أنه يضطر أن يذهب إلى سهل خارج المدينة للصلاة كما وصفنا آنفاً، وقد يكون السبب خوف الملك العربي من أعدائه فهو لا يكتفي بوضع نفسه في مكان أمين وراء سلسلة من الجبال بل يحرص على عدم دخول جامع مغلق خوفاً من أن يسطو عليه منافسوه أو ينحّه أتباعه.

ومن الإمارات التي تدل على عظمة هذا العاهل وقوة سلطانه، هذا العدد الكثير من النساء يعولهنّ ويقال: «إن في قصره نحو ستمائة أو سبعمائة إمرأة يعشن في «سرايا» خاصة بهنّ، وهن من جنسيات ولكن يؤكد بعض العارفين أن أكثرهنّ من الشركسيات المشهورات بالجمال، وهناك أيضاً عدد من النساء العربيات وهن شديدات البياض، ويضع أكثر نساء هذه البلاد حلقات ذهبية في أنفهنّ وقد ثقبت خياشيمهن بسبب هذه الزينة علاوة على ذلك فإنهن يضعن الأساور في معصمهنّ وذراعهنّ والخلال في أرجلهن وأكثر هذه الحلى من الفضة وهي من الذهب عند المثريات، وهنّ معطرات دائماً وتفوح منهنّ روائح العطورات القوية، ومن عاداتهن أن يكحّلن عيونهنّ بالسواد وأن يدهنّ أيديهنّ وأرجلهن بمادة تكسب هذه الأعضاء الاحمرار الشديد وتجعل الأظافر حمراً أيضاً وهذا نوع من التجميل في الجزيرة العربية بل في الشرق عامة، والنساء في المواهب كما في المخا يتبادلن الزيارات عند

وهو محمد بن أحمد بن الحسن بن القاسم[1] وكان ملكاً عظيماً ماجداً فيّاضاً عجولاً ضعيف الرأي وكتب إليه ملوك فارس والأعاجِمْ وخراسان وبلاد الأروام، ثم أضحت جمرته رماداً تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدراً وما أحسن ما جاء به الحسين بن علي بن المتوكل[1] واصفاً لانقضاء أيامه وواعِظاً ومذكراً حيث قال:

ما في الأماني ما ينجي من القدر ... فانجو بنفسك إما كنت ذا حذرِ
مضى محمد المهدي وقد نفذت ... أحكامُه في جَميع الأرض فَاعْتَبِرِ
مضى محمد المهدي وفيه وفي ... آياته عبر عظمى لمعتبرِ
مضى وراح ونار الحرب مسعرة ... وللبنادق إرعاد بلا مطرِ
مضى كأن لم تكن تسطو بوادره ... بكل أشدق رحب المنخرين جري
مضى وراح وجرد الخيل سابحة ... ملء التجافيف تمشي مشي مفتخرِ
لم تمنع الخيل عنه يوم مصرعه ... حكم القضاء ولم تردد يد القدر
ورام ما رام من نصر ومن ظفر ... فعاقه الموت عن نصر وعن ظفرِ
يا طالب الأمن حث السير مبتدراً ... نحو النجاة فإن المرء في خطرِ
لا يخدعنّك من دنياك زخرفها ... فغدرها كامنٌ كالنار في الحجرِ

المساء ولكن بسبب غيرة الرجال الشديدة في هذه المدينة أصبحت نساؤها مستوحشات أكثر من نساء أي منطقة أخرى حتى أنهن لا يجسرن على الصعود على الأسطحة لشم النسيم ولم يستطع أحد من رجال البعثة من رؤية امرأة إلاّ «طيب البعثة» بحكم مهنته ويؤكد هذا الطبيب أنه لم يستطع رؤية وجه امرأة واحدة منهن على الرغم من ثقتهن به وثقة أزواجهن.

وعلى رغم تقدم سن العاهل فإنه تزوج تركية لا يزيد عمرها عن ثمانية عشر ربيعاً، ولم تتميز حفلة الزواج بأبهة خاصة.

انتهت كلمة البعثة الفرنسية التي أتحفنا بها القارىء وإنما حبّذنا تسجيلها هنا لأنها تمثل لنا تلك الصورة القديمة التي لا زالت خيوطها التي كان يمثلها الإمام يحيى حميد وكذلك النساء اليمنيات والله الموفق.

(١) قال الشوكاني في البدر الطالع (ج ١ ــ ٢٢٢) الرئيس الكبير الشاعر المشهور، ولد سنة اثنتين وسبعين وألف وكان في أيام شبابه مائلاً إلى ملاذ الدنيا والتمتع بمحاسنها مرخياً لنفسه غير كافٍّ لها من التفلت في رياض محاسن الحسان ثم تزهد وتعبد، وأورد له مقاطيع في ذلك وعندي كراريس من ديوانه وكانت وفاته سنة تسع وأربعين ومائة وألف.

كم أودعت رب ملك حفرة فغدا   بعـد الممـالـك فيهـا أيّ مفتقـرِ
أين التبـابعـة الأقيـال أين همُ   طيّ الجنادل بعد الحـزم والحذرِ

وتلقَّب بالناصـر والهادي والمـهـدي ومدة خـلافته سبـع وعشرون سنـة(١) ثم انحدرت عن تلعته الإمارة إلى فناء الحسين بن القاسم صاحب شهـارة(٢) بمفاوضـة الـرؤوس، وإجماع أعـلام آل الإمام في اليمن المحـروس، فلم ينهض بها نهـوض أمثاله فخلـع عنها لِعَامين، ثم تأطَّد عمادها ورست أوتادها بأرض المتوكـل على الله القـاسم بن الحسين وكان لقبـه تاريخـاً لعـام قيـامـه. قـال السيـد الأديب النحـريـر عبد الله بن علي الوزير في تكملة البسّامة:

ومن عجـائـب صنـع الله كنيتـه   تـاريـخ دعوتـه فـاعـدده واعتبـر

والاعتبـار يقـع بالاختبـار لأعداد أحـرف جملة حُرف، اللقب «وهـو المتوكـل على الله ربّ العالمين» فإنه تاريـخ عام ثمانية وعشرين ومائة وألف.

ثم استقرَّ قرارهـا ودار على قطبـه مدارهـا فقاد المتشمسين بـالاصطنـاع وفرق فيهم الإقطاع، والضياع إلى عام تسـع وثلاثين ومائة وألف، ومدحه كثيـر من شعراء عصره، ومنهم السيد عبد الله بن علي الـوزير رحمـه الله قال فيـه من قصيدة:

مـل عن القـول إذا لم تفعـل   لـيس إدراك الـمـنـى بـالأمـلِ
مـا الفتـى إلا همـام بـاسـل   وإمـام حـيـدريّ أو ولـي
وإذا خـالـف هـذاك وذا   فهـو في الحال كـربـات الحليِ
إنمـا القـاسـم سـرٌّ كـان في   طيّ أصـلاب الـمـلوك الأولِ
جبـل من هـيبـة يـطحـن مـا   تحتـه في السهل أو في الجبـلِ

---

(١) كذا في الأصل وفي البدر الطالع (ج ٢ ــ ٩٧)، زيادة على ثلاثين.

(٢) الحسين بن القـاسم هو المؤيـد بن محمد بن القـاسم ادعى بمعقل شهارة سنـة ١١٢٤ وظـل متـردداً بين حـوث وشهـارة إلى أن مـات سنـة ١١٣١ كـذا في الملحق، ص ٨٨ وكـذا في الـواسعي ص ٢٢٣، أنه ادعى سنـة ١١٢٤هـ وفي المقتطف ص ١٧٧ أنـه ادعى سنة ١١٢٧ وكـذا في العـرشي، ص ٦٨، وشهـارة بضم الشين المعجمة معقـل عظيم في جبـال الأهنوم شمال صنعاء وأول من اتخذه معقلاً الملك تبّـم الكامل. انظر المعجم.

وإذا بـارز قِـرنـاً وسـطـا في الـوغى قلنا عليّ يـا علي
قـالـت الأعـراب آمـنّـا بـه صـدقـوا بعـد صـريـر المنْصـلِ

ثم أفضـوا بالخـلافة اختـلاف الحرسين، إلى نـوبة المنصـور بالله الحسين، فتـلاه في الزعـامة، وتـدبير أمـر العامـة، وعارضـه آل إسحاق فغـزى بـدر سمـائهم المحاق، وما برح إماماً اثنتين وعشرين عاماً ثم قام بـالتدبيـر، وملك زمام التقـديم والتـأخير أميـر المؤمنين أبو علي العبـاس بن المنصور، وهـو الملك المهـدي الـذي أحسن سياسـة الجمهور، وحصد نواجم الشرور، ونشر رايتي العدل والجهاد، وبعث بعوث الانتقام على بغاة العبث والفساد، حتى عَمَر الهدون وشمل السكون، بسياسـة تامة، رفـرف جناح أمنها على الخاصة والعامة، وما برح محمود السيـرة المشكورة، ميمون النقيبة المأثورة المذكورة من سنة إحدى وستين إلى عـام تسـع وثمانين ومـائة وألف، والـذي عندي أنـه لم يلِ اليمن منـذ ضرب الإسـلام فيه بجـرانـه إلى زمنـه خليفة مثله[١] فرحمه الله رحمة تبرِّد مضجعه، وتحسِّن عند الله مآبه ومرجعه.

وبويـع بعده لولده المنصور بالله أبـي أحمد علي بن المهدي فدام له الإسعاد وخضعت له رقاب العباد خمس وثلاثين سنة، ومات في التـاريـخ الذي مضى ذكـره وخلفه أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو عبد الله أحمد بن المنصور ثم تلاه في الاستيلاء علي الملك وبيضتـه، وحيازة مـا كـان في قبضتـه ابنـه المـولى خليفـة العصـر أميـر المؤمنين المهدي أبو علي عبد الله بن المتوكل أدام الله دولته قاهراً لأعدائه موفّقاً في إصـدار آرائه وهكـذا أهل هـذا البيت القـاسمي النبـوي الهـاشمي، مـا مـات منهم السابق، إلا وصلى على أثره اللاحق، فتتجلى به ظلمات الطوارق، كما تستنير بنور البدر سدُفُ الغواسق.

نجـوم سماء كلّمـا انقضّ كوكب بدا كوكب تـأوي إليه كـواكبه[٢]

يمضي من قضى منهم نخبـه ولقي ربـه من مـآثـر مشهـودَة وسِيَـر في النـاس

---

(١) هذا مبالـغ فيه فالحقيقة تكشف عن نفسها فانظر التاريـخ بإمعان وعدم حيف.

(٢) كأن هذا البيت للشاعر الطمحان القيني.

محمودة، ويخلفه الآخر مختاراً للرفق والرأفة، مؤثراً لجانب مَعْدلة الإنصاف في الخلافة، ولا عجب فأهل هذا البيت القديم البناء العريض الفِناء الكريم الآباء والأبناء حقيقون برفعَة العماد، وطول النجاد، ووراثة السلطان، وامتداد عمر المملكة على مرِّ الزمان.

* * *

﴿ولادة الإمام
المهدي عبد الله وولايته﴾

وكانت ولادة خليفة عصرنا أدام الله إسعاده وأنفذ في قلوب شياطين العابثين إيعاده سنة ثمان ومائتين وألف(١) ولا يعرف منذ نشأته إلا السيف والسنان، ولا يأنس إلا الضراب والطعان.

قاد الجيوش لخمس عشرة حجةً ... ولداته إذ ذاك في أشغال
فسمت بهم هماتهم وسمت به ... هِممُ الملوك وسوْرة الأبطال(٢)

ولما قعد على دست الخلافة ساعده المقدور، وتمكنت هيبته في الصدور، ففتح من البلاد الأقاصي، واستنزل الغَلَب الغُلْب من الصياصي، ولا جرم فهو إذا رمى أصمى(٣) وإذا صال فرَّق مجامع الأوصال، يخوض قلوب المعارك فيختطف الأرواح، بطعن متدَارك ويهب الألوف ولا يرهب الحتوف:

في حالتي جود وبأسٍ لم يزل ... للتبر والأعداء منه تبار
يهب الألوف ولا يهاب ألوفهم ... هان العدوّ عليه والدينار(٤)

بهمّة تتخذ بهرام طِرْفاً، وعزيمة تنسف إهرامات مصر نَسْفاً.

---

(١) ترجم له الإمام الشوكاني (ج ١ ـ ٣٧٦) ترجمة موجزة قال في الهامش وتوفي في شهر شعبان سنة ١٢٥١هـ وهو كذلك في هامش البدر الطالع.
(٢) لا أعرف عنه شيئاً.
(٣) أصمى: أصاب.
(٤) لا يعرف قائلهما.

لــه همم لا منتـهى لـكبــارهــا وهمته الصغرى أجلُّ من الدهر[1]

وقـد مدح على ألسنـة جماعـة من أدبـاء العصـر بشعـر كـالـذهب المسبـوك، أو الجوهر المسلوك، ومنه ما مـدحه بـه عبد الـرحمن بن يحيـى الأنسي القاضي[2] وقد أوقـع بأهل بلاد عمران في شهر ربيـع سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وألف فقال:

هي غزوة المهدي المعظم شأنها فاسمـع لأفخم ما نقصُّ ونشـرح

أســد أثاروه فهــاج فــأبلســوا فمشى فضاق بهم فضاه الأفسـح

ومنها في المديـح:

يــا نـاقم الشـارات للخلفـاء من قـوم زهـوا بخــلافِهم وتبجحـوا

لبثوا سنين التيه فيــه فجاءهم جـدٌّ بجـدٌّ وربَّ جـدٍ يمــزح

في غـزوة عظْمـاء بل في بـطْشة كبـرى لصيحتها صـدى لا يبرح

يسري بأسواق القبائل من يشيـع إلى العنان وفي رَجُوزة يصبـح[3]

فيحـلق الغـادي عـليـه نهــاره ويجمُّ ليلتـه بــه الـمــتــروح

ويـطيـر للقُـطـع التي في حجّـة رعباً يزلـزل بـالحصون ويفتح[4]

وبــلاد قيفـة لا إمــام لكم وقـد فرغ الإمام لكم فخلفكم انتحوا[5]

---

(١) البيت لحسـان بن ثابت الأنصـاري الصحابي الكبيـر والشاعـر المفلق ولسـان اليمن وتـوفي بالمدينة سنة ٥٤هـ وتعمر نحو مئة وعشرين سنة وقيل أكثر من ذلك وديـوانه مـطبوع وقيـل إن البيت لغيره.

(٢) يأتي ذكره للمؤلف.

(٣) يشيـع: بلدة من جبل عيال يزيد شمـال صنعاء وإليهـا ينسب قصر يشيـع الأثـري الحميري. انظر الثاني من الإكليل. والعنان: بلدة من جبل برط يسكنهـا ذو محمد الهمدانيين ورجوزة: بلدة عامرة من جبل برط يسكنها ذو حسين الهمدانيين وبرط شمال صنعاء.

(٤) حجّة: معروفة الضبط وهي من بلد حاشد في الغرب الشمـالي من صنعاء مسـافة ثـلاثة أيـام واليوم بالسيارات ثلاث ساعات وهي اليوم أشهر منها بالماضي لأمور ذكرناها في المعجم.

(٥) قيفة: ويقال لها قائفة وهي منطقة مربـوطة بمـدينة رداع وتقـع شـرقي مدينـة ذمار نسبت إلى قائفة واسمه عامر بن مفرح بن ناجية بن مراد بن مذحـج.

هو صاحب السيف الذي لما يكن ... قد جفّ من دمكم ولا هو يمسح
يا ثامن الخلفا من الحسن الذي ... هو في ذويه هو المنار الأوضح
هذا مقدمة لفتح تهامة ... واليوم أوله الصباح الملمح

هذا ما حظر لدي منها، وأما قوله: وبلاد قيفة البيت فالعطف فيه على مضارع مرفوع وهو معتلّ الآخر فيقدّر الرفع فيه على حرف العلة المتطرف فقد جزم الفعل بلا جازم[1].

وذكرت بقوله: هذي مقدمة لفتح تهامة حيث كان تبشيراً ناطقاً، وفألاً صادقاً لأنه أتحف بها حضرة المهدي حفظه الله من قبل أن يفتح تهامة بعامين ــ ما أورده القاضي أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان في ترجمة عماد الدين زنكي ابن قطب الدين مودود المعروف بصاحب سِنْجار[2] حيث قال: ومن الاتفاقات العجيبة أن محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح صلاح الدين بن أيوب لما أخذ حلب من يد عماد الدين زنكي[3] بقصيدةٍ منها قوله:

وفَتْحُكُمْ حلباً بالسيف في صفر ... مبشّر بفتوح القدس في رجب

قال: فكان فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

وعلى ذكر الدولة المهدوية واستقرار أمرها في تهامة ونواحيها، واستدرار أحلاب قاصيها ودانيها واتساع أسواح الدولة وارتفاع أدواحها وبُسوق أفنانها وورق فروعها وأغصانها استحسنت إيراد قصيدة لي ذكرت فيها فتح تهامة، وكانت قد انتشرت الأخبار حينئذٍ بخروج الإمام أدام الله دولته في سرور وإنعام لمطالعة اليمن

---

(١) لم ينوه المؤلف بالفعل المعتل فلم يكن من الأفعال الموجودة في مقطوعة الأنسي غير قوله يسري بأسواق القبائل كما لم يكن هناك جازم فليتأمل. ويحتمل أن رفع «وبلاد قيفة» على الابتداء بدون إشكال.

(٢) سنجار: بكسر السين المهملة وسكون النون ثم جيم وألف وراء: مدينة شمال الموصل من العراق.

(٣) هؤلاء الملوك مع الشاعر في تاريخ ابن خلكان كما حكاه المؤلف فارجع إلى ذلك.

الأسفل والنظر في أعماله وعُمّاله، وإصلاح ما انتهى إليه من فساد أحواله فقلت:

يَلُومني فيه عذّالي وما علموا ... ولو رأوه لكان المغرمون هُمُ
في راحة كان شخصي من هوىً وسرىً
حتى دعاني فلبّى القلبُ والقدمُ
أفديه من شادنٍ يلوي سوالفه ... في مجلس الشرب إدلالاً ويلتثمُ
وإن مددت إليه الكف مبتغياً ... لضمّه مال نحوي وهو محتشمُ
تجري دموعي وثغر الحبّ مبتسم ... فبيننا الدرّ منثور ومنتظمُ
إن كان حب حبيبي قد برى جسدي ... فقد رضيت وإن أودى بي السقمُ
من لم يحل أثر التبريح رونقه ... فإنه في غرام القلب متهمُ
ولا يبرهن مشتاق على شغف ... إلا إذا ضرجته أدمع ودمُ
فلذّة الحب تفكير ووسوسة ... وزفرة وفؤاد الصب مضطرمُ
وقد تردّى جهام الليل جردته ... ولونها الروق لا داجٍ ولا رَثِمُ
حتى يرى فيلق الإصباح قد طلعت ... راياته وجيوش الليل تنهزمُ
مثل انهزام عداة الأريحيّ أمير ... المؤمنين إذا أجلى سوادهمُ
إمامنا القائم المهدي خير سَرِي ... مالت مقدمة الرايات والعلمُ
مملّك زانت الأيام دولته ... وزانه المجد والإقدام والكرمُ
ينوي المسير إلى بُهم العداة فما ... يثور إلا وهم في ظلّهِ بَهَمُ
طارت مشاهده في الأرض وانتشرت
فعبر الدهر عنها وهو مبتسمُ

والخيل والليل والبيداء تعرفه ... والطعن والضرب والقرطاس والقلمُ
تغشى النّقاد المراعي في خفارته ... والذئب بالقرب منها غارث وَجِمُ
ألا ترى السّادة الأشراف حين أتت ... جيوشه كيف صَمُّوا رهبة وعموا
كانوا بزاةً إذا ما ناصبوا ملكاً ... حتى دعا فاستبانوا أنهم رُخُمُ
فطبق الأسر من أخطته صرعته ... ومن أصابته صبت فوقه الرُّجم
غلت مراجل حرب كان موقدها ... إمامنا وهم الأرواح والعجم

هذا أكثرها وستمرّ بك بقيتها في ترجمة محمد بن أحمد الحرازي[1] عند ذكر الكتاب الذي أصحبتها إليه، والبيت الثامن عشر منها ـ كقول العامّة في وصف الأمير الماجد المؤمِّن للسبيل ـ «هو يدع الشاة تنام مرابضة للذئب»[2] ومنه أخذت المعنى ثم إنِّي وقفت على قصيدة ابن عنين[3] بعد إنشاء هذه القصيدة فوجدته قد سبقني إليه بقوله في ممدوحه بها:

عَدْل يبات الذئب منه على طوى ... غرثان وهو يرى الغزال الأعفرا

وقد سبق الجميع إليه الحيص بيص[4] حيث قال يمدح السلطان أبا القاسم محمود بن محمد بن ملك شاه بن ألب إرسلان السلجوقي الملقب مغيث الدين[5]:

قَيْـل تـألّفت الأضـداد خيفتـه ... فالمورد الضنك فيه الشاة والسيد[6]

ولعل الأصل فيه لقربه منه في معناه قول شاعر العرب:

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ... ركبان مكة بين الغيل والسنـدِ

---

(١) قال في هامش الأصل: لم تذكر في ترجمة المذكور، وننبه هناك ثم راجعت ذلكم فلم يذكرها.

(٢) هذا المثل جارٍ على ألسنة الناس لهذه الغاية مع تصرف: ربض الشاة ببطن الذئب.

(٣) ابن عنين هو محمد بن نصر الدين الأنصاري الكوفي الأصل الدمشقي المولد. قال ابن خلكان (ج ١ ـ ١٠٦) كان خاتمة الشعراء لم يأت بعده مثله ولا كان في أواخر عصره من يقاس به وكانت ولادته بدمشق سنة تسع وأربعين وخمسمائة ووفاته سنة ثلاثين وستمائة بدمشق، والبيت المذكور لم يورده ابن خلكان في ترجمة ابن عنين ولعل المؤلف اطلع على القصيدة بأكملها في محل آخر.

(٤) الحيص بيص: اسمه سعد بن محمد التميمي شاعر مشهور من أهل بغداد كان يلبس زي أمراء البادية ويتقلد سيفاً ولا يتكلم بغير الفصحى وديوان شعره مطبوع. توفي سنة ٥٥٤ عن اثنتين وثمانين سنة ومعنى حيص بيص وقع في شدة.

(٥) محمود بن محمد مغيث الدين أحد الملوك السلجوقية. تولى الملك وهو في سن الحلم وكان يتوقد ذكاء قوي المعرفة بالعربية ومات سنة ٥٢٥هـ بأصبهان. ابن خلكان (ج ٤ ـ ٢٦٩).

(٦) القَيْل بفتح القاف: ما دون الملك، والسيد: بكسر السين المهملة: الذئب.

ومما طالع به بعض العصريين من آل الإمام حضرة المهدي حفظه الله تعالى هذه القطعة النفيسة، وكان قد وعك بعارض ألم فاضطرب الناس وبقي أمرهم في التباس، ثم وردت الأخبار بعافيته خلّد الله أيامه وله في هذا الشعر التركيب ولي الترتيب والتهذيب وهي هذه:

بنا فلْتُفتدى ولك السلامة ... ودمت إمامنا حتى القيامة
لقد طاشت لعلتك المعالي ... وخولطت الرعايا والزعامه
فأضحت أعين الثقلين تجري ... مدامعها كهتّان الغمامه
وكم لله داعٍ فيك برءاً ... مخافة أن تُلمَّ به ظلامه
أمير المؤمنين وعكت حتى ... أطرت الدهر عن جفنٍ منامه
فلله الثنا قد منَّ جوداً ... ونعمته علينا مستدامه
بأن أولاك عافية وأجراً ... وأجداك الثواب مع السلامه
تهنَّ بما حبيت من المعالي ... وسعدك والسيادة والإمامه
تقود الجيش معقوباً بجيش ... إلى أقصى الجزيرة واليمامة
وتفتح من بلاد اللهمصراً ... وتحييها كما حييت تهامه[1]
تذلّل من صياصيها حصوناً ... عليها النضْد ملتفاً غمامه
وتوطا الفرْس خيلك صاهلات ... وتنصب للمجرِّ بها خيامه
فيعظم كل من والاك عزاً ... ومن ناواك أحقر من قلامه
وإني أيها الملك المفدى ... أمتّ إليك أسباب الرحامه
وأسترعي بها حقاً قديماً ... على أمل أبلّغه مرامه
وأنشر في البلاد لواء عزّ ... وأحظى بالرياسة والزعامه
أدكُّ بها عن المهديّ ثغراً ... وأشهد من ثنيّته ابتسامه
فإمّا خلفه أحمي وراءً ... وإمّا دونه وأرى أمامه
لآبائي حقوق سالفاتٌ ... مع آبائه لهم الكرامه

---

(١) كذا في الأصل تحييها كما حييت: بالحاء المهملة من الحياة ولو كانت اللفظتان المذكورتان بالجيم من الجباية لكان حسناً.

وحُييت السلام كودق سارٍ ... من المنّان ما شدَتِ الحمامه

ولنرجع إلى ما كنا بصدده.

ثم لما بويع الإمام المهدي حفظه الله تعالى، وكان القائم ببيعته شيخ الإسلام كما سبق، نَهَد في حمله السلاح للإصلاح مرةً إلى بلاد عمران ومرة إلى بلاد أرحب وثالثة إلى كوكبان ورابعة إلى بلاد خولان وخامسة إلى بلاد تعز، وشيخ الإسلام في جُملتِه جمال جُلَّته وطراز حُلَّته[1].

وفي هذه النهضة الخامسة نزل شيخ الإسلام نفع الله بعلومه بالدار الحمراء من مدينة ذمار[2] فحضرت عنده وأمليت من صحيح البخاري بين يديه عن أمره وكان ذلك بطلب جماعة من عارفي ذمار توصلاً إلى أن يجيزهم الصحيح وغيره من مسموعاته ومؤلفاته فأجازهم كما أشرت إلى ذلك في الباب الثاني من القسم الثالث فيما يأتي إنشاء الله تعالى وكنت ممَّن شملته تلك الإجازة العامة وذلك في شهر جمادى سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف ثم صرت من تلامذته بالسماع في رحلتي إلى صنعاء وأجاز لي إجازة خاصة فهذا ما تحققته من كِميَّة نهضاته[3].

* * *

---

(١) كذا في الأصل: فالجلة الأولى بالجيم: الرجال الأجلة العظماء والثانية بالحاء المهملة من الحلي.

(٢) الدار الحمراء: كانت قبالة قبة دادية المعروفة المشهورة إلى الشرق ما بينهما إلا الطريق.

(٣) في الهامش ما لفظه: ثم عزم صحبته بعد هذا التاريخ إلى جهران ثم إلى حراز ثم إلى الحدا وعنس وقيفة ثم إلى ذي جبلة من اليمن. تمت.

﴿تعداد مؤلفات الشوكاني﴾

وأما مؤلفاته فإنّها عديدة مفيدة جوَّد تصنيفها، وأحسن تأليفها وترصيفها، بسائطها نافعة، ومختصراتها على لطافة الحجم جامعة ورزق فيها الحظوة والسعادة لما هي عليه من كمال الإفادة فطارت في الشمال والجنوب وسارت سير المثل المضروب، وانتشرت في الأمصار، ونقلت إلى شواسع الديار، ونوازح الأقطار كنجد وعُمان، ومدائن خراسان، وما عداها من البلدان[١].

أخبرني[٢] شفاهاً في شهر شعبان من سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف أن بعض أهل الهند من صالحي أهل الطريقة خرج للحج في تلك السنة في ركب من أهل الهند وفي زمرته من ملازمي حضرته جماعة من العلماء ووصل إليه منه كتاب يستدعي به مؤلفه المسمّى بالفوائد المجموعة وسيأتي ذكره في جملة مؤلفاته ووصل إلى صنعاء من علماء الهند رجل يقال له عبد الحق ولم تكن رحلته إلا للوقوف على مؤلفاته وكان وصوله إليه في أواخر سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف، ووصل إليه أيضاً عالم من الإسكندرية يعرف بالشريف حسين الإسكندراني وفي صحبته كتب من هنالك مخبرة بأنه لم يبعث إلى صنعاء إلا لاستنقال مؤلفاته.

و ها أنا أسردها وأعدُّ منها لا أعددها فمنها «نيل الأوطار، شرح المنتقى من الأخبار» في أربعة مجلدات كشف به أسرار الآثار وأوضح معاني كلام المختار،

---

(١) نجد أحد أقسام الجزيرة العربية. انظر جزيرة العرب وعمان: بضم العين المهملة وفتح الميم: قطر يماني. انظر اليمن الخضراء وخراسان من بلاد إيران. انظر: معجم البلدان.

(٢) كذا في الأصل ولعل ثم سقطاً فلم يذكر المؤلف من المخبر له.

ومن نظر في مباحثه ومطالبه، تبين له رسوخ قدمي صاحبه، وكتاب «الدرر البهيّة، وشرحه بالدراري المضية»[1] فيما صح دليله واتضح سبيله، وهو على صغر حجمه حفل بعيون المسائل، منوطة بواضحات الدلائل، وكتاب «أدب الطلب ومنتهى الأرب»[2]، وكتاب «وبل الغمام على شفا الأوام»[3]، برّز في حكم الشرح والتخريج، والانتقاد وإيضاح الصحيح من غيره، وكتاب «الفوائد المجموعة، في الأحاديث الموضوعة»[4] وكتاب «إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول»[5] ومنها في التفسير كتاب «فتح القدير» جمع فيه بين الرواية والدراية من علم التفسير[6] دخل في أربعة مجلدات ضخمة، وكتاب «السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار»[7] اطلعت عليه وراجعت مباحثه، ووقف مؤلّفه صان الله بدره عن السُّرار نسخة منه على مدرسة مدينة ذمار[8]، وهو كتاب تشدّ إليه الطلبة رحالها وتعلق به أمالها وتحط عنده الركائب وتضرب إليه آباط النجائب، ومن يقف عليه من الأذكياء[9] يعلم جلالة قدر مؤلفه لكمال إفادته، ووضوح عبارته وشفائه الغُلل لربطه المسائل بالعلل، وإيضاحه السبيل بترتيب كل مسألة على الدليل، وكتاب «تحفة الذاكرين، بعدّة الحصن الحصين»[10] وكتب «قطر الولي على حديث الولي»[11]

---

(١) طبع عدة طبعات.

(٢) طبعه مركز الدراسات اليمني.

(٣) نقوم بتحقيقه ونشره إنشاء الله.

(٤) طبع ولله الحمد.

(٥) طبع ولله الحمد.

(٦) طبع في خمس مجلدات ولله الحمد.

(٧) طبع منه بحسن مساعي الأستاذ الحر الغيور قاسم بن غالب التعري الأشعري، جزءان ثم طبعه الأستاذ محمود إبراهيم زايد المصري عافاه الله كاملاً أربعة أجزاء ووضع له مقدمة.

(٨) فقد السيل الجرار الذي وقفه شيخ الإسلام من المدرسة الشمسية سطا عليه وعلى جميع كتب المدرسة جماعة ذكرناهم في التاريخ.

(٩) تأمل لهذه الكلمة والحق أن السيل الجرار جدير باقتنائه وأنه فوق ما وصفه المؤلف.

(١٠) طبع. (١١) طبع حديثاً.

وكتاب «نثر الجوهر شرح حديث أبي ذر»[١] وكتاب «در السحابة، في فضائل القرابة والصحابة»[٢] و «نزهة الأحداق في علم الاشتقاق»[٣]، وكتاب «إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر»[٤].

ومن مؤلفاته في التاريخ «البدر الطالع، بمحاسن من بعد القرن السابع»[٥] وله كتاب جمع فيه فتاواه وهو أربعة مجلدات[٥]، وسماه «الفتح الرباني، في فتاوى الشوكاني»، ووقفت على مُجلدٍ منه، وفيه غرائب مسائل، وعجائب رسائل، ومصائد فوائد، ومؤنسات شوارد، ومن يطّلع عليه يعلم ما أحرز واضعه من العلم الغزير، والاطلاع الباهر الخطير، ومما اشتمل عليه سفر مختصر فوق الرسالة ودون المجلد، وسمّاه «إرشاد الثقات، إلى اتفاق الشرايع على التوحيد والمعاد والنبوات»[٦] وجعله رداً على موسى بن ميمون الأندلسي اليهودي[٧] في ظاهر المستند والزنديق في باطن المعتقد، وكان قد زعم عدو الله أن شرائع الأنبياء مختلفة، وأن أصول النبوات غير مؤتلفة وقضية كلامه إثبات اللذة النفسانية في المعاد، ونفي اللذة الجسمانية، واستدلّ لما زعَمَهُ بِشُبَه معلولة غير واضحة لتنافر ظاهرها عن التأويل، وبعد صريحها عما يقضي به الدليل، فنقض عليه شيخ الإسلام تلك الشبهة المنهارة، وأقام البرهان بها عليه لا له، وسلّ عليه قواطع الأدلة من الكتب القديمة المنزلة كالتوراة والزبور والإنجيل، وهذا المؤلف يبهر الناظر فيه لسعة باع جامعه لحشر الحجج من جميع كتب أهل الملل وأورد فيه عن أبي إسحاق[٨] ما صورته، قال: حدثنا صالح بن إبراهيم بن

---

(١) لا أعلم هل طبع أم لا.
(٢) طبع أخيراً وفيه أحاديث موضوعة ويحتاج إلى مراجعة وغربلة.
(٣) لم يطبع.
(٤) طبع.
(٥) طبع.
(٦) لم يطبع.
(٧) لا أعرف شيئاً عن هذا اليهودي.
(٨) لا يعرف من أبو إسحاق.

عبد الرحمن بن عوف عن محمود بن لبيد، عن سلمة بن سلامة بن وقش، قال: كان بين أبياتنا يهودي فخرج على نادي قومه من بني عبد الأشهل ذات غداة فذكر البعث والقيامة، والجنّة والنار، والحساب والميزان فقال ذلك لأصحاب وثن لا يرون أنّ بعثاً كائن بعد موت وذلك قبل مبعث رسول الله ﷺ فقالوا: ويحك يا فلان، أو ويْلك وهذا كائن إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون عن أعمالهم قال: نعم والذي يحلف به لوددت أن حظي من تلك النار أن توقدوا أعظم نار في داركم فتحمونه ثم تقذفوني فيه ثم تطيِّنون عليّ وإني أنجو من تلك النار، قيل: يا فلان فما علامة ذلك، فقال: نبيّ يبعث من نحو هذه البلاد وأشار إلى مكة واليمن بيده، قالوا: فمتى تراه فرآني وأنا مضطجع بفناء باب أهلي وأنا أحْدثُ القوم[1] فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه انتهى.

قلت: وتذكر الانتظار لبعث رسول الله ﷺ والتبشير به ينبغي إيراد ما نقله أسامة بن منقذ[2] في كتاب «العصا» عن مسعود بن سوادة العامري ونقلت هذا الكلام لفصاحته قال: كنت عسيفاً لعقيلة من عقائل العرب أنجد لها طوراً وأُتهم أخرى[3] أركب لها الصعب والذلول لا أليق مطرحاً من البلاد أرجو فيه نفعاً في متجرٍ إلاّ نزعت إليه فانكففت من الشام بخرثى وأثاث[4] أريد كبَّة الموسم ودهماء العرب فهبطت مِنى بليل مُزدَف فلما تَفرى عني قميص الدّجى دلفت وإذا بقباب شامية تسامي شعف الجبال عليها نطاع الطائف، وإذا بجزر تساق وأخرى تنحر، وحثثة يستعجلون الطهاة أن اعجلوا اعجلوا وإنسانان يناديان يا وفد الله هلموا الغداء

---

(١) أحدث القوم: أصغرهم.

(٢) كان في الأصل «أمامة بن منقذ» ثم صححناه «أسامة بن منقذ» بالذوق أولاً ثم بالمعلومات. قال ابن خلكان (ج ١ ـ ١٧٥)، أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري الملقب مؤيد الدولة مجد الدين. كان من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم. له تصانيف عديدة في فنون الأدب وأورد له أخباراً حساناً ومقاطيع شعرية ومولده سنة ٤٨٨هـ ووفاته سنة ٥٨٤هـ بدمشق.

(٣) يأتي تفسير ذلك.

(٤) كذا في الأصل.

وآخران يناديان[1] من ورائهما يا وفد الله مَنْ تغدَّ فليأت العشاء فبهرني والله ما رأيت فدنوت فإذا بشيخ كأن الأساريع في وجهه والشعراء معلقة في جبينه، وعلى رأسه عمامة سوداء، قد خرجت من ملاثها جمّة فينانة وهو جالس على كرسي من ساسم وتحته نمرقة وبيده قضيب يتخصر به وحوله مشايخ نواكس الأذقان لا يفيض أحد منهم بكلمة، وكان بلغني أن نبيّاً يبعث في آخر الزمان وأن ذلك أوان نجومه، فدنوت منه وقلت: السلام عليك يا رسول الله، فقال لي: صَه ولمّا وكأن قد وليتنه فجذبني جاذب من ورائي وقال لي: أوَلا تعرفه؟ فقلت: أللهم لا، فقال: هذا أبو نضلة هاشم بن عبد مناف. فقلت: الله أكبر هذا والله المجد لا مجد آل جفنة.

وفي بعض ألفاظ هذا الكلام ما يفتقر إلى تفسير معناه: فالعسيف: الأجير والعقيلة الكريمة والصعبة ضد الذلول، والمطرح: المكان البعيد، والخرثي والأثاث: متاع البيت، وكبة الموسم: أوسطه ومعظمه، ودهماء العرب كثرتهم وجمهورهم ومنى مكة، ومزدف حيث يختلط الظلام آخر الليل بالضوء ومثله مسدف، وشعف الجبال أعاليها والأساريع: دواب تكون في الرمل تبرق ألوانها وملاث العمامه: طيّها، والفينانة والساسم خشب تتخذ منه الكراسي، والنمرقة: الطنفسة، وقوله: صه زجر عن الكلام وأمر بالإمساك وهي اسم فعل أمر وقوله، ولما أي ولم أكنه وقوله وكأنْ قد أي قرب ذلك وقوله: لا يفيص بالصاد المهملة أي ما يبين.

نعم ومن رسائله «الطود المنيف في الانتصار للسعد على الشريف»[1] وذلك فيما وقع بينهما من الاختلاف في المسألة المشهورة هل إرادة الانتقام سبب الغضب أو الغضب سبب لإرادة الانتقام، فالسعد يقول بالأول والشريف يقول بالثاني وتناظرا في مجلس السلطان تيمرلنك بسمرقند[2]. ومن رسائله «شفاء الغُلَل» في

---

(1) لم يطبع.

(2) السعد هو سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني الإمام الكبير، من كبار أئمة العربية والمعاني والبيان والمنطق. ولد بتفتازان من خراسان سنة ٧٢٢هـ ووفاته بسمرقند سنة ٧٩٢هـ كذا في البدر الطالع (ج ٢ ــ ٣٠٣) وفي الزركلي سنة ٧٩٣هـ ومؤلفاته كلها مطبوعة إلا النزر اليسير.

زيادة الثمن لمجرد الأجل»، و«شرح الصدور، في تحريم رفع القبور»، و«طيب النشر، في المسائل العشر» أجاب بها على عبد الرحمن الأنسي القاضي، و«الصوارم الهندية، المسلولة على الرياض النديّة» جعلها رداً على أحمد بن صالح الخطيب[1] وكان جزم في رسالة له «بوجوب غسل الفرجين» في الوضوء، وزعم أنهما من أعضائه، ورسالة في تقدير أقل النفاس، ورسالة في الرد على القائل بوجوب التحية. والقول الصادق في إمامة الفاسق، ورسالة في حد السفر، الذي يوجب معه القصر، وتشفيف السمع، بإبطال أدلّة الجمع[2].

وها هنا ما ينبغي التنبيه عليه، والتيقظ له، وهو أني رأيت العلامة لطف الله بن أحمد جحاف الصنعاني ذكر في تاريخه[3] عند ذكر شيخ الإسلام أنه يرى جواز الجمع بين الصلاتين، وهذه الرسالة وما صرحت به مؤلفاته كالسيل وغيره تقضي بعدم صحة نسبة القول بجواز الجمع إليه فهذا تقوُّلٌ عليه بما لم يقله، ولم يرتضيه ولا أصل له، وفي شعره أيضاً ما يدل على منعه من ذلك وسيأتي في

والشريف هو علي بن محمد بن علي الحسيني. ولد سنة ٧٤٠ وتوفي سنة ٨١٦. اشتغل في سائر الفنون وتفوق في العلوم العقلية حتى لقب بالفيلسوف وله مؤلفات قرابة خمسين مؤلفاً منها ما قد طبع ومنها ما لم يطبع. انظر البدر الطالع (ج ١ ـ ٤٨٨).

وتيمورلنك ويقال له تيمورلنك التتري الطاغية المشهور وكان أعرج، اكتسح الممالك الإسلامية إلى أن وصل الشام وألف ابن عرب شاه مؤلفاً فيه غرائب وعجائب وقد طبع، ومات سنة ٨٠٧هـ، وسمرقند: من أعظم مدن ما وراء النهر وصفها ياقوت وصفاً جذاباً وهي تحت نفوذ الإتحاد السوفييتي أعادها الله إلى حظيرة الإسلام فلا زال له وميض.

(١) هذه الرسائل لم تطبع بعد وأحمد بن صالح الخطيب ترجمه الشوكاني (ج ١ ـ ٦٢) وسماه أحمد بن صلاح وكانت وفاته سنة ١١٩٦هـ والقول بأن الفرجين من أعضاء الوضوء، لم يأت به من سلطان ومن شريعة الغاب.

(٢) لم تطبع بعد.

(٣) تأتي ترجمة جحاف للمؤلف ولا صحة لما رواه جحاف من أن شيخ الإسلام يجوّز الجمع بين الصلاتين، بل ينعي على من يرى الجمع في جميع كتبه، واسم تاريخ جحاف «الحور العين في سيرة المنصور علي وأعلام دولته الميامين» لا يزال مخطوطاً.

جملة ما ذكرته من نظمه، وله «الرسالة المكملة، في أدلة البسملة» و «إطلاع أرباب الكمال، على ما في رسالة الجلال في الهلال من الاختلال»[1] وكان جزم الجلال بإمكان اختلاف مطالع الأهلّة وحجته حديث كريب في مسلم والنسائي وسنن أبي داود والترمذي قال: استهلّ عليَّ رمضان بالشام فرأيت الهلال ليلة الجمعة ثم قدمت المدينة في آخر الشهر فسألني ابن عباس متى رأيتم الهلال؟ قلت: ليلة الجمعة ورآه الناس فصاموا، فقال: رأيناه ليلة السبت فلا نزال نصوم حتى نكمل ثلاثين أو نراه، فقال كريب: أولا يكتفى برؤية أهل الشام؟ فقال: لا هكذا أمرنا رسول الله ﷺ، فقال الجلال ومن سبقه إلى هذه المقالة لا يلزم أهل بلد رؤية أهل بلد آخر.

واختلف القائلون بذلك في قدر البعد ما بين البلدين فبعضهم قال: إذا كان المحلين إقليمين، وقيل نحو ما بين المدينة والشام كما في القصة، وقيل إذا كانت مسافة قصر.

ومن رسائله رسالة في الطلاق البدعي هل يقع أم لا، ومنها رسالة في أن الطلاق لا يتبع الطلاق، ورسالة في رضاع الكبير وهل يقتضي التحريم أم لا، وتنبيه ذوي الحجا، على حكم بيع الرِّجا، والقول المحرر في لبس المعصفر، وسائر أنواع الأحمر، أجاب بها على العلامة الفصيح لطف الله بن أحمد جحاف، وعقود الزبرجد في جيد علّامة ضمد[2]، وإبطال دعوى الإجماع على تحريم السّماع، وزهر النسرين بفضائل العُمَرَين، وإتحاف المهرة، في الكلام على حديث لا عدوى ولا طيرة، وعقد الجمان في شأن حدود البلدان، وما يتعلق بها من

---

(١) الجلال: هو الحسن بن أحمد من محاسن اليمن ومفاخره والمجتهدين المبرزين وله مؤلفات في غاية الجودة والنفاذ من أجلّها «ضوء النهار على الأزهار» طبع مع حاشيته منحة الغفار للأمير. ولد سنة ١٠١٤هـ ومات بجراف صنعاء سنة ١٠٨٤هـ. انظر البدر الطالع (ج ١ ــ ١٩١).

(٢) ضمد: بالضاد المعجمة والميم والدال من غرر أودية المخلاف السليماني من بطن تهامة اليمن والقرى مبثوثة على جوانبه، وأنجب جملة مستكثرة من العلماء والأدباء. انظر الجزء الأول من الإكليل والمعجم.

الضمان وتعقبه فيها بعض العصريين بتعقب ركيك فرد عليه بإرشاد الأعيان إلى تصحيح عقد الجمان.

ومن رسائله حلّ الإشكال في إجبار اليهود على التقاط الأزبال فناقشه العلامة عبد الله بن عيسى بن محمد بن حسين الكوكباني[1] برسالة سماها إرسال المقال على إزالة حلّ الإشكال فعضد رسالته بردٍ عليه سماه تنويق النبال إلى إرسال المقال وكذلك ناقشه بعض علماء صنعاء برسالة سمَّاها وجوه الاختلال في إزالة الإشكال، وفي هذا التعقيب تخشين فرد عليه برسالة سماها: الإبطال، لدعوى الاختلال، وفي غضون رده هذا شواهد رائقة، وأمثال لمقتضى الحال موافقة.

ومن رسائله: البُغْية في مسألة الرؤية، والتشكيك على التفكيك، وإرشاد الغبي، في مذهب أهل البيت في صحب النبي، وقاسى بعد انتشار هذه الرسالة الشدائد[2].

ولنورد ها هنا ما حكاه في كتابه «أدب الطلب، ومنتهى الأرب»[3] فقال: وإني أخبرك أيها الطالب عن الحوادث الجارية بيني وبين أهل عصري إعلم أني كنت عند شروعي في الطلب بعد التمكن من البحث عن الدليل والنظر في مجاميعه أذكر في مجالس شيوخي ومواقف تدريسهم وعند الاجتماع بأهل العلم ما قد عرفته من ذلك لا سيما عند الكلام في شيء من الرأي يخالف الدليل أو عند ورود قول عالم من أهل العلم قد تمسك بدليل ضعيف وترك الدليل القوي أو أخذ بدليل عام وأهمل الخاص

---

(١) عبد الله بن عيسى الكوكباني ترجمه الشوكاني (ج ١ ـ ٣٩١)، وأثنى عليه وإن له مصنفات في الأدب والتاريخ ورسائل وشعر جيد ومولده سنة خمس وسبعين ومائة وألف ووفاته أربع وعشرين ومائتين وألف، قال الشوكاني بعد أن صار منفرداً بفنون العلم في كوكبان ولم يخلف بعد مثله ولا من يقاربه.

(٢) لم يطبع بعد.

(٣) ينبغي لطالب العلم اقتناء هذا الكتاب لا سيما وقد صار في متناول اليد وبأرخص الأثمان إلا أنه بحاجة إلى التصحيح لأن المركز والإعلام لا يكلف المتأدبين والكتاب تصحيحاً، وذلك وصمة تاريخية مع الأسف فقراءة هذا الكتاب تعطي اللبيب دروساً في الحياة.

أو بمطلق وطرح المقيَّد أو بمجمل ولم يعرف المبين أوبمنسوخ ولم ينتبه للناسخ أو بأوّل ولم يعرف بآخر أو بمحض الرأي ولم يبلغه أنَّ في تلك المسألة دليل يتعين عليه العمل به، فكنت إذا سمعت بشيء من ذلك لا سيما في مواقف المتعصبين ومجامع الجامدين، تكلمت بما بلغت إليه مقدرتي وأقل الأحوال أن أقول: استدل هذا بكذا وفلان المخالف له بكذا ودليل فلان أرجح لكذا، فما زال أسْرَى التقليد يستنكرون ذلك ويستعظمونه لعدم فهمهم إياه وقبول طبائعهم له حتى ولَّد ذلك من العداوة والبغضاء ما الله به عليم.

ثم كنت إذا فرغت من أخذ فنٍّ من الفنون أو مصنَّف من المصنفات على شيوخي أقبل جماعة من الطلبة إليَّ وعوَّلوا عليَّ في تدريسهم في ذلك فكان يأخذ أترابي شيء من الحسد الذي لا يخلو منه إلا القليل ثم تكاثر الطلبة عليَّ في علوم الاجتهاد وغيرها وأخذوا عني أخذاً خالياً عن التعصب سالماً من الاعتساف فكنت أبين لهم دليل كل مسألة وأوضح لهم الراجح فيها، وأصرح لهم بوجوب المصير إلى ذلك، وكانوا قد تمرنوا وعرفوا علوم الاجتهاد وذهب عنهم ما تكدرت به فطرهم من المغيرات فزاد ذلك المخالفين عداوة وشناعة وحسداً وبغضاً وأطلقوا ألسنتهم بذلك وكان مع ذلك تَرِدُ عليَّ أبحاث من جماعة من أهل العلم الساكنين بصنعاء وغيرهم من أهل البلاد البعيدة والمدائن النائية فأحرِّر الجوابات عليهم في رسائل مستقلة، ويرغب تلامذتي لتحصيل ذلك وتنتشر في الناس فإذا وقف عليه المتعصبون ورأوه يخالف ما يعتقدونه استشاطوا غضباً، وعرضوا ذلك على من يرجون منه الموافقة والمساعدة، فمن ثالب بلسانه ومعترض بقلمه وأنا مصمم على ما أنا فيه لا أنثني عنه ولا أميل عن الطريقة التي أنا فيها، وكثيراً ما يرفعون ذلك إلى من لا علم عنده من رؤساء الدولة، الذين لهم في الناس شهرة وصولة، فكان في كل حين يبلغني من ذلك العجب، ويناصحني من يظهر لي المودة ومن لا تخفى عليه حقيقة ما أقوله مع اعترافهم بأن ما أسلكه هو ما أخذه الله على الذين حملوا الحجة لكنهم يتعللون بأن الواجب يسقط بدون ذلك ويذكرون أحوال أهل الزمان وما هم عليه وما يخشونه من العواقب فلا أرفع لذلك رأساً ولا أعوّل عليه، وكنت أتصور في نفسي أن

هؤلاء الذين يتعصبون عليّ ويشغلون أنفسهم بذكري والحط عليَّ هم أحد رجلين: إما جاهل لا يدري أنه جاهل أو رجل متميز له حظ من علم، وحصة من فهم لكنه قد أعمى بصيرته الحسد، وذهب بإنصافه حب الجاه وهذا لا ينجع فيه الدواء ولا تنفع عنده المحاسنة ولا يؤثر فيه شيء، فما زلت على ذلك وأنا أجد المنفعة بما يصنعونه أكثر من المضرّة والمصلحة العائدة على ما أنا فيه، بما هم فيه أكثر من المفسدة.

ولقد اشتد بلاؤهم، وتفاقمت محنتهم في بعض الواقعات فقاموا قومة شيطانية، وصالوا صولة جاهلية، وذلك أنه ورد إليّ سؤال في شأن ما يقع من كثير من المقصرين من الذمّ لجماعة من الصحابة صانهم الله وغضب على من ينتهك أعراضهم المصونة، فأجبت برسالة ذكرت فيها ما كان عليه أئمة الزيديّة من أهل البيت وغيرهم ونقلت إجماعهم من طرق وذكرت كلمات قالها جماعة من أكابر الأئمة، وظننت أن نقل إجماع أهل العلم يرفع عنهم العماية، ويردهم من طرق الغواية فقاموا بأجمعهم وحرّروا جوابات زيادة على عشرين رسالة مشتملة على الشتم والمعارضة بما لا يتفق إلا على بهيمة واشتغلوا بتحرير ذلك وأشاعوه بين العامة، ولم يجدوا عند الخاصة إلا الموافقة تُقْيَةً لشرهم، وفراراً من معرّتهم، وزاد الشرُّ وتفاقم حتى أبلغوا ذلك إلى أرباب الدولة والمخالطين للملوك من الوزراء وغيرهم وأبلغوه إلى مقام خليفة العصر حفظه الله، وعظَّم القضية عليه جماعة ممن يتصل به فمنهم من يشير عليه بحبسي ومنهم من ينتصح له بإخراجي من موطني وهو ساكن لا يتحرك، ولا يلتفت إلى شيء من ذلك وقاية من الله وحماية لأهل العلم ومدافعة عن القائمين بالحجة في عباده ولم تكن لي إذ ذاك مداخلة لأحد من أرباب الدولة ولا اتصال بمن له بهم اتصال واشتد لهج الناس بهذه القضية وجعلوها جُلَّ حديثهم في مجامعهم وكان مَنْ بيني وبينهم مودّة يشيرون عليَّ بالفرار أو الاستتار وأجمع رأيهم على أني إن لم أساعدهم على أحد الأمرين فلا أعود إلى مجالس التدريس التي كنت أدرّس بها في جامع صنعاء، فنظرت ما عند تلامذتي فوجدت أنفسهم قوية ورغبتهم في التدريس شديدة إلا القليل منهم، فقد كادوا يستترون من الخوف، ويفرون من

الفزع فلم أجد لي رخصة في البعد عن مجالس التدريس وعدت وكان أول درس عاودته عند وصولي إلى الجامع في أصول الفقه بين العشاءين فانقلب مَنْ في الجامع وتركوا ما هم فيه من التدريس والدرس ووقفوا ينظرون إليَّ متعجبين من الإقدام على ذلك لما تقرر عندهم من عظيم الأمر وكثرة التهويل والوعيد والترهيب حتى ظنوا أنه لا يمكن البقاء في صنعاء فضلاً عن المعاودة.

ثم وصل وأنا في حال ذلك الدرس جماعة لم تجر لهم عادة بالوصول إلى الجامع، وهم متلفِّعون بثيابهم لا يعرفون، وكانوا ينظرون إليَّ ويقفون قليلاً ثم يذهبون ويأتي آخرون حتى لم يبق مع أحد شك أنها إن لم تحصل منهم فتنة في الحال وقعت مع خروجي فخرجت من الجامع وهم واقفون على مواضع من طريقي، فما سمعت من أحد منهم كلمةً فضلاً عن غير ذلك، وعاودت الدروس كلها وتكاثر الطلبة المميزون زيادة على ما كانوا عليه في كل فن، وقد كانوا ظنوا أنه لا يستطيع أحد أن يقف بين يدي مخافة على أنفسهم من الدولة والعامة، فكان الأمر على خلاف ما ظنّوه، وكنت أتعجب من ذلك، وأقول في نفسي هذا من صنع الله الحسن ولطفه الخفي لأن من كان الحامل له على ما وقع هو الحسد والمنافسة لم ينجح كيده بل كان الأمر على خلاف ما يريد.

ومن عجيب ما أشرحه لك أنه كان لي درس بالجامع بعد صلاة العشاء الآخرة في صحيح البخاري يحضره من أهل العلم الذين مقصدهم الرواية وإثبات السماع ويحضره من عامة الناس جمع جمٌّ لقصد الاستفادة بالحضور فسمع بذلك وزير من وزراء الدولة، وكانت له صولة، وقبول كلمة بحيث لا يخالفه أحد، وله تعلق بأمر الأجناد فحمله ذلك على أن استدعى رجلاً من المساعدين له، فنصب له كرسي في مسجد من مساجد صنعاء ثم كان يسرج له الشمع الكثير في ذلك المسجد حتى يصير عجباً من العجب، فتسامع الناس به وقصدوا إليه من كل جانب لقصد الفرجة والنظر إلى ما لا عهد به[1]، والرجل الذي على الكرسي يملي عليهم كل وقت ما يتضمن الثلب لجماعة من الصحابة صانهم الله، ثم لم يكتف ذلك الوزير

---

(١) كذا العبارة ولعل العبارة ما لا عهد لهم به.

بذلك حتى أغرى جماعة من الأجناد من العبيد وغيرهم بالوصول إليّ لقصد الفتنة فوصلوا وصلاة العشاء الآخرة قائمة، ودخلوا الجامع على هيئة منكرة وشاهدتهم عند وصولهم فلما فرغت الصلاة قال لي جماعة من معارفي إنه يحسن ترك الإملاء تلك الليلة في البخاري، فلم تطب نفسي بذلك، واستعنت بالله وتوكلت عليه، وقعدت في المكان المعتاد وقد حضر بعض التلاميذ وبعضهم لم يحضر تلك الليلة لما شاهدوا وصول أولئك الأجناد، ولما عقدت الدرس وأخذت في الإملاء رأيت أولئك يدورون حول الحلقة من جانب إلى جانب ويقعقعون بالسلاح ويضربون سلاح بعضهم في بعض ثم ذهبوا ولم يقع شيء بمعونة الله وفضله ووقايته.

ثم إن ذلك الوزير أكثر السعاية إلى المقام الإمامي هو ومن يوافقه على هواه ويطابقه في اعتقاده من أعوان الدولة، واستعانوا برسائل بعضها من علماء السوء وبعضها من جماعة المقصرين الذي يظنهم من لا خبرة له في عداد أهل العلم، وحاصل ما في تلك الرسائل أني قد أردت تبديل مذهب أهل[1] البيت عليهم السلام، وأنه إذا لم يتدارك الخليفة ذلك بَطُلَ مذهب آبائه ونحو هذا من العبارات المفتراة والكلمات الخشنة والأكاذيب الملفقة، ولقد وقفت على رسالة منها لبعض أهل العلم ممن جمعني وإياه طلب العلم ونظمنا جميعاً عقد المودة وسابق الألفة فرأيته يقول فيها مخاطباً لإمام العصر: إن الذي ينبغي له ويجب عليه أن يأمر جماعة يكبسون منزلي ويهجمون مسكني ويأخذون ما فيه من الكتب المتضمنة لما يوجب العقوبة من الاجتهادات المخالفة للمذهب.

فلما وقفت على ذلك قضيت منه العجب ولولا أن تلك الرسالة بخطه المعروف لدي لما صدَّقت وفيها من هذا الزور والكلمات الفظيعة شيء كثير وهي في نحو ثلاث كراريس، وعند تحرير هذه الأحرف قد انتقم الله منه فشرده إمام العصر إلى جزيرة من جزائر البحر مقروناً بالسلاسل بجماعة من السوقة وأهل الحرف الدنيئة وأهلكه الله في تلك الجزيرة، ولا يظلم ربّك أحداً. انتهى ما أردت نقله من كتاب أدب الطلب.

* * *

---

(١) كلمة أهل ساقطة من الأصل.

﴿ما قيل من الشعر
في مدح الإمام الشوكاني﴾

وأمّا ما مدح به من الأشعار، ووصف به من محاسن الآثار، فهيهات أن يحيط المتطلع بغايتها، أو يقف المتضلع على نهايتها، وها أنا أورد قطرة من مطره وشذرة من بدره، فمن ذلك أن تلميذه السيد العلامة يحيى بن المطهر بن إسماعيل بن يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم حماه الله كتب إليه كتاباً برفع مظلمة وقعت لم يكن شيخ الإسلام قد عرف بها وظن الكاتب وصولها إليه واستبطأ كشفها في كلام طويل فأجاب على كتابه بهذه الأبيات:

سلوا الناس من قد قام مثل مقامي   وأوضح فيه الرشد عند تعامي
ألم تسمعوا ما قلته في مجالسٍ   وسيرت من نثري به ونظامي
وحررت ما حررت في العدل جهرةً   وهدّمت أركاناً لكل حرامِ
وصارت بيوت المكس مهدومة البنا   وباء الذي قد ردّها بأثامِ
ألا فاخبرونا عن مقامات غيرنا   ولا تثلبوا عرضي بزور كلام
وإنّ رجائي أن يُنجِّزَ خالقي   كلامي بسعي فهو جلُّ مرامي

فأجاب عليه سيدي العماد بهذه القصيدة معترفاً بما قاله وجرى في البحر والروي مجرى منواله:

إذا أنت باقٍ في الحياة وسامي   وظلّ الذي قد باء بالإجرامِ [1]

---

(١) تأمل ففيه ما فيه.

وكـل منـاوٍ عـارف لـك حق مـا / صنعتَ وأن الجـاه شف مقـامِ
فرأيُك بالعدل الـذي سار ذكـره / هـو الشمس نوراً قـوبلت بظلامِ
بنيت بنـاء قـد تـطاول رفعـةً / فعـانقـه نجم السمـا بسـلامِ
إذا كان حسن العدل يفهمه الذي / يرى الحق في دين سوى الإسلام[1]
فمـا بـال من دان المليـك بملة / بهـا باء أهـل الظلم بـالآثـامِ[2]
إذا قيل إن العدل للملك حـافظ / فحسبك مني[3] حافظ ومحـامي
إذا قـال أهـل للمقـالـة صـادق / أصبت فـإن القـول قـول جـذامِ
ودع قـول ذي إفكٍ حسـودٍ فإنـه / طنين ذبـاب عنـد رعـد غـمـامِ
إذا رمت إلقـام المعـانـد جنـدلاً / غدا الصخر قدراً فوق در نظامِ
ولـو أن جمعاً رام نصْـرة بـاطـل / وأنصف يـوماً فـاز بـالإفحـامِ[4]
ولـو يدر من نـاوى لباء بـإثم مـا / جنى وبه أخطا على الإسلامِ[5]
وناديت في الحي البعيد فلم أجد / سوى حاسد أضحى أسير ذمـامِ
لعمـري لقد قمتم بكـل فريضـة / من الأمـر بالمعـروف خير قيـامِ

وكتب إليه شيخه العلاّمة شيخ مشايخ الإسلام على الإطلاق سيدي عبد القادر بن أحمـد صاحب كـوكبان وقـد رأى له بحثـاً في بعض مصنفاتـه وهو إذ ذاك يقـرأ على السيد المذكور في بعض مقروآته عليه:

مبـاحث ليس العلم إلا بفهمهـا / بهن تسـامى الأذكيـا وتفـوق
مباحث لو تجري بسمعِ لمدنفٍ / نجا وهو في بحـر السّقام غـريق
مباحث لو تجلى الغواني بها لما / بقي لنسيب الجـوهـري طـريق
لشمس العلا والعلم في كل ساعة / له في سماء المكـرمات شـروق

(١) تأمل ففيه ما فيه.
(٢) كذلك.
(٣) مني: زيادة منا.
(٤) كذا بالأصل.
(٥) كذا.

وكتب إليه سيدي السيِّد العلاَّمة الهمام علي بن محمد بن علي صاحب كوكبان[1] وقد اطلع على بحث له مفيد:

أيُّ بحث قد جاءني من فريد العصر محيي معالم التبيانِ
الهمام الذي إذا التبس الأمر جلاه بواضح البرهانِ
عنده سُلَّم المجاري إذ جلَّى فصلى مسلَّماً في الرهانِ

وكتب إليه القاضي العلاَّمة الصدر الفهَّامة يحيى بن صالح السحولي[2] وشيخ الإسلام إذ ذاك في أيام الطلب:

يا أنفع الناس في التدريس في البلد وباذلاً نفسه في طاعة الصمدِ
ويا جمال أولي التحقيق عن كمل على تواضع أهل الفضل والرشدِ
ومن له القلب يقضي بالمحبة في حب المهيمن لا زالت على الأبدِ
بقيت تحيي علوم الدين مجتهداً
في نشرها عن أولي التحقيق في السندِ
ولا شغلت بآفات العلوم ولا برحت في اللطف من خلاّقة الأحدِ
بجاه أهل الكسا دامت محبتهم وسيلة في دوام اللطف والمددِ

وكتب إليه سيدي السيِّد العلاَّمة أحمد بن علي بن محسن بن الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم[3] عليهم السلام:

---

(١) ترجم لهذا العلم المفضال الإمام الشوكاني (ج ١ ـ ٤٩٠) وقال ولد سنة تسع وأربعين ومائة وألف وأثنى عليه وتوفي سنة اثنتي عشرة ومائتين وألف وأورد هذه الأبيات.

(٢) ترجمه الإمام الشوكاني (ج ٢ ـ ٣٣٣) فأطرى بالثناء عليه وأطرب وخلع عليه مطارف العز وحلل الفخر حتى لقد يحسد على تلك الخلال الحميدة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، مولده سنة ١١٣٤ وتوفي سنة ١٢٠٩. تولى القضاء الأعلا أيام المهدي والعباس وتولى الوزارة أحياناً ونكبه المهدي وصادر معظم أمواله، ولم يذكر الشوكاني أسباب ذلك، سجنه ثم أطلقه وقبح في منزله والناس يغشونه ولما مات المهدي أعاده إلى منصبه المنصور بن علي.

(٣) تأتي ترجمته للمؤلف وما آل إليه من فساد العقيدة واختلال العقل.

يـا قاضيـاً لفظ قاض إن تنـاولـه ... زهى بهِ كل منقــوص من الكلمِ
ولم يـزل كـل ممـدود يمـدُّ إلى ... ما نال عينيه من فخر ومن كـرمِ
وكلمـا نـال مقصــور عليـه فيـا ... ذا المدّ أقصر ولا تطمـع ولا تحمِ
فالإسم مرجع ما يحويه من شرفٍ ... إلى مسمـاه من نعت ومن عظمِ
قـاض ببهجتـه الأيـام مشـرقـة ... كالشمس لكن نور الشمس لم يدمِ
فـالحمـد لله دنيـانـا ببهجتـه ... إشـراقها غيـر مسلوخ عن الظُلمِ
قـاضٍ إذا جئته يـومـاً لقيت بـه ... كل الأفاضل من عرب ومن عجمِ
يغشى الخصوم ارتعاد من مهابته ... حتى كأنَّ بهم ضرب من اللّممِ
لأن مـا أضمـروه في فـراستـه ... من حسن إيمانه نـور على علمِ
كم من ألدِّ للا(١) ما زال ملتزمـاً ... من خـوفه عـاد لا منها إلى نعمِ
فالمبتغــون لغيـر الحق في نقمٍ ... منـه وكــل محق منــه في نِعَمِ
صحبتـه زمن التـدريس مقتـطفـاً ... من روض إملاه نور الحلم والحكمِ
فكـان بـرّاً رؤوفــاً بـي ومغتفـراً ... لـزلّتي لم يعـاتبني ولم يَـلُمِ
أراه إن طـال قـولي في بشـاعتـه ... كأنه عن كلامي الغثّ في صممِ
وغبت عنـه زمـانــاً واتصلت بـه ... في رتبة هو فيهـا صاحب القلمِ
قاضي قضاة أميـر المؤمنين على ... يمينـه قاعـداً في الصدر لم يقمِ
فقام تعظيمـه في صدر كـل فتًى ... مسلّمـاً لـلأكف الـطهـر مستلمِ
وشاع تعظيمه في الناس ثم غدا ... عند الجنين كرأي العين في الرحمِ
ومثـل ذلـك عــاديّ تــواتــره ... فينا وفي الغير ومن مستقبل الأممِ
فمــا تغيّــر شيء كنت أعـهــده ... قبل التصدر في القاضي من الشيمِ
كــأنـه للنــدامى من تـواضعــه ... على جـلالته من أصغـر الخدمِ
فـقــام ذاك دلـيــل أن هـمّـتــه ... من فوق ذاك الذي يعطى ذوو الهممِ
ولـو أحلّ الفتى في النـاس رتبته ... دهرٌ لأصبـح ربّ السيف والقلمِ
مملّكــاً كــلّ إقليمٍ ونــاحـيـةٍ ... عماله في نواحي الحلّ والحرمِ

---

(١) كذا في الأصل ولم تظهر الكلمة.

يا من يرى أن نظمي قد قضيت به   حق المديح فقد أخطأت فاستقمِ
ليست مبالغتي فيه مبالغة   ولا الغلوّ غلوّاً يا أخا الهممِ
ولو أتيت بأنواع البديع لما   قضيت حقاً وكان العجز ملتزمي

وللسيّد العلّامة الأديب القاسم بن إبراهيم بن الحسن بن يوسف بن الإمام المهدي محمد بن المهدي أحمد بن الحسن بن الإمام القاسم عادت بركاته[1] وله فيه مدائح عديدة وجملة قصائد فريدة.

إليك وإلّا لا تساق ركاب   وعنك وإلّا لا يجاز كتابُ
عليك وإلّا من عليه معوّل   ولولاك ما للمشكلات جوابُ
وفيك وإلا ليس في الشعر حكمة   ومنك وإلا فالسراب شرابُ
وأنت وإلّا الشمس في الأرض مشرق   نداك وإلا للسخاء سحابُ
برزت وإلّا فالتشخص للعلا   محال وإنا للعزيز طِلابُ
ومن ذا الذي قرّت وطابت وطوّلت   عيون وأنفاس به ورقابُ
سوى العَلَم البدر الذي لاح منصفاً   له في كمال المكرمات مآبُ
هو ابن علي من له الآن شوكة   يعزّ بها دين الهدى ويهابُ
فلا زال مرفوعاً بنصب جوازم   من الأمر فيها حكمةٌ وصوابُ
ولا زال شمساً للعلوم بأسرها   وعمدة هذي إنتقاه كتابُ
لمجموع أحكام الفنون ملخص   ومنتخب غيثاً حواه عبابُ
سلام عليه يحكي الروض عَرْفَه   وقد باكرته نسمة وسحابُ

وكتب إليه السيد الأديب الفاضل إبراهيم بن حسن الشرفي[2] مهنئاً بعيد، وله قصائد في شيخ الإسلام مختارة:

هنئت عز الهدى ما نلت من رتبٍ   منال غيرك صعب في ترقيها

---

(١) ترجم له الإمام الشوكاني (ج ٢ ـ ٢٩) وأورد القصيدة التي مدح بها شيخ الإسلام وتأتي ترجمته للمؤلف.

(٢) لم يترجم لإبراهيم بن الشرفي لا شيخ الإسلام ولا زبارة.

عجبت من دار عدل أنت ساكنها أن كونها لم تطر تيهاً بما فيها

أنّي تطير وفيها منك طود حجىً علومه يثقل الدنيا تأنيها

لأنّ قد نظر المولى الإمام بِمَا فيه السداد وأعطى القوس راميها

فانهض بعزمتك العليا إلى رتب أوج النجوم حضيض في مراقيها

ودع حسودك في غيظ فربّتما كانت منايا نفوس في تمنّيها

لم يُدْنِكَ المَلْكُ إلا أن مقصده سماع درّ علوم أنت باريها

لأن منهاجَك الوضاح مشتهراً فما يزيد على علياك تنبيها

نهنىء الدولة الغراء منك بكافىء في حكومتها أو في فتاويها

لسنا نهنّيك بالأعياد إذ وصلت لكننا بك من فضل نهنيها

فلا برحت قرير العين مبتهجاً ما دمت تنشر أعياداً وتطويها

ودمت فينا بعزٍ لا انفصام له تمضي بذلك أعوام وتمضيها

وله فيه:

عُجْ بالكثيب وحيّ الحيَّ من كثب فثَمَّ يذهب ما بالصبِّ من وصبِ

وانزل بحيث ترى الآرام راتعة بين الأسنّة والهنديّة القضبِ

من كل وسناء طرفٍ بالسنا حجبت عن ناظري وسناها غير محتجبِ

إذا رأيت محيّاها وطرّتها رأيت شمس الضحى في الليل لم تغبِ

فدرّ مبسمها المنظوم ليس له مشابه غير درِّ النظم من أدبي

في مدح عز الهدى القاضي الذي سبقت له العناية من آبائه النّجب

مَنْ عدله مثل عدل الرمح معتدلاً مثقفاً بنحور القوم لا الخشبِ

ما زال لا زال قطباً ثابتاً عَلَماً كالقطب يهدي لحج البيت كل غبي

إليك عزّ الهدى يعزى الفخار كما أضحى إلى الهند يعزى كل ذي شطبِ

وفي بسيط يديك البحر قد حسنت مدائحي من بسيط الشعر والخببِ

فمدح علياك كالتوحيد مفترض ... ومدح غيرك كالأوثان والنُّصُبِ

وله فيه أيضاً:

ما كل من أخذ القلم ... ووشى الطروس إذا رقم
وحبا الورى من لفظه ... زهر البلاغة والحكم
وغدت محاسن فضله ... ناراً تشب على علم
هيهات هذا الوصف لابن ... عليّ أضحى كالعلم
أنا لا أقول بمفردي ... هذا بإجماع الأمم
إن شئت فاسأل من ترى ... عمّا ذكرت يقل نعم
بحر تدفق موجه ... علماً وما قلت النظم
وخطابه في لفظه ... كالدر في السلك انتظم
وغريب كل فضيلة ... فيه تجمّع والتأم
وإلى هنا وصفي انتهى ... خوف الملالة والسَّأم

ومدحه الفقيه الأديب لطف الله بن أحمد جحاف، وله في مدحه قصائد عديدة منها هذه:

إلى منتهى السؤل الذي بحياته ... يقوم على ساق المناضلة المجدُ
إلى دولة العلم التي حام حولها
التقى وانثنى عن سوحها الفكر والجحدُ
إلى حيث ما قام الفخار وحيثما ... استقام العلا حيث انتهى حيثما يبدو
إلى حيثما النقع استدار وحيثما ... البواتر حيث اشتدت الضُمُر الجردُ
إلى حيثما خطَّ العلى في صحائفِ الـ ... محاسن آثارٍ بها يزدهي العبدُ
إلى منتهى أمنية حيث مبتدى ... المنايا التي إن قام ذو غيله يعدو
إلى روضة غنّا إلى ربوة بها ... معين به تربو الفوائد والرِّفدُ
إلى بحر علم عن نداه تدفّقت ... جداول تحقيق به استعذب الوردُ
فتًى ما ربى إلا بحجر التقى ولا ... نشا فاضلاً إلا وشيمته الزهدُ
جرى في ميادين الفضائل ساحباً ... ذيول الرضا لمّا دهى غيره الحقدُ

وأرضعه ثدي الفصاحة من لبانه فربى حقاً على الكبر المهدُ
إذا اقتطفت أثمار تحقيق علمه أنامل فكري أسعف الحلّ والعقدُ
وإن غرّدت في روضة الحكم نشوة بلابله هزّت معاطفها الملْدُ
وبين يديه الشعر مدّ بضائع القوافي وما طيُّها ريطة جردُ
وحاك له المنثور ما بطرازه تبختر بشار وقال أبي بُرْدُ
وما أنجرت(١) أقلامه غير معجز تنمّق في تحقيقه الجوهر الفردُ
ولما نشا في الناس فذّاً أتيته فصافح إذ وافيته بيننا الودُ
وشاهدت إنساناً بهَدْي محمدٍ تخلّق واستيقنته أنه الرشدُ
وحين استمالتني الليالي بحكمها رجعت وقام الشوق من طرب يعدو
وفي شيخنا البدر المنير محمد لرفعة قدري أسوة دونها القصدُ
هو البر والبحر الذي علم صدره يفيض على الطلاب إن جزر المدُّ
ومعتقدي في الناس أن وداده من القرب اللاتي ينال به الحمدُ
إليك نظام وجَّهَتْه قريحتي بمرهفها البيض السلاهب تنقدُّ

وللقاضي العلّامة أديب العصر عبد الرحمن بن يحيى الأنسي وله فيه مجموع من مدائحه:

أجدّك ما يؤدّيك النزوع إلى سلمى وقد غلب الهجوعُ
فبتّ وسيط قافلة الدراري تلقتك التعاور والطلوعُ
كأن بصابص المذهات شدت تمسك في فواصلها نميعُ
دعت يا ساق جر فلم يجبها أصم النطق أم خرس السميعُ
وكانا يقطعان معاً ويأوي هما من دوحة الوادي الفروعُ
فعنّ له رواح الطير صقراً بأقنى لا تقي منه الدروعُ
وإذْ ما أمّ خشف أودعته مفاء الظل فالحقف الوديعُ
كطاقة دملج الحسنا تعانى أناقة شكله الحسن الصنيعُ
وسار بها لمرتعه قطيع من الظبيات لا نعم القطيعُ

(١) كذا في الأصل ولعله وما إن جرت.

فـأبـلـغ منــه عـن شلو عـقيـر ... تناهض بالعـوافي منه جـوعُ
فـيـا لله عــيـنـا مــن رآنــا ... على ليـل التمام ومـا نـذيـعُ
تــطرّب أيِّــم وتـنــوح ثــكـلى ... ويبكـي شيِّق القلب الـولـوعُ
ومما هـاج هـذا الشوق ومضٌ ... يـرفـرفـه على الغرب اللمـوعُ
كـأن لألا عـلى حيّ أبـيـتـوا ... مساقـطه وقـد فصل الـربيـعُ
ذكـرت وهـل نسيت لهم عهوداً ... مضت والشمل منك بهم جموعُ
زمـان هـواك من أدنـاك شيئـاً ... وأعصى منيـةٍ لـيـديـك طـوعُ
فأعقبـك اقتـراب الـدار بعـداً ... كـذاك الـدهـر بـالسّوا سريـعُ
ألا يـا ليت شعري هـل أراني ... وأمـري بـاللحـوق بهم سـريـعُ
وقَـد وضَعتْ بِإجْرامي قلوصي ... تَبَـاعَـدَ خَلفَـهـا إكـم وقـوعُ
تعجرف ما تشاغَل المـوامى ... وقـد صليت جـرانيهـا الجذوعُ
فـذلـك دأبـهـا أو نـوختـهـا ... عـراض بين أربعهم شـروعُ
فـإن أنـزل بهـا وتقـرّ عيني ... بقـاطنهـا وتلتـام الـصـدوعُ
فقـد سمح الـزمـان وأعقبتني ... جـوىً فيـه وأقشعت الفجوعُ
وإن يكن الـذي حاذرتُ منهـا ... ويتلو سـابق القـدر الـوقـوعُ
فلي عن مـا انـزوى عني سلوٌّ ... وقـد يسلو عن الطلب المضيـعُ
بلقيا عـالم العصـر الـذي طال ... منـه على الـذي تـركـوه بـوعُ
وقـد جمعـوا أحـاد العلم لكن ... لـديـه تجمّعت تلك الجمـوعُ
وفـرد في دليـل الشـرع عنهم ... وذاك لِعمـرك الـسؤل المنيـعُ
يـرد بـداعـي الغـلمين يعـلو ... عـليهـا قـول مبتـدع شنيـعُ
ومـا للذئب أن يعـدو بشـول ... يـرجُـز دونهـا الفحـل القـريـعُ
يضيء سمـاويَ العلم المهدّى ... بـقـول محـمـد وبـه يضـوعُ
وكـيـف وإنّ قـومـاً فـي رواةٍ ... مـقـدمهـم هـشيم أو وكـيـعُ
ولـكـنّـا يـقـال عـلى عـديـد ... فـمـحـمـولاتـه نـوع ونـوعُ
وفيـه البحـر إن طمـا غـزيـر ... وفيــه البـرّ ضيقـاً أو وسيـعُ
فـإن أكُ بعت ما فـوّهت فيـه ... لقـد أربحت صفقـة مـا أبيـعُ

بقيت محمداً للعلم حرزاً إليك بحلّ مشكله الرجوعُ
ونسّى يومك الدهران نسى له في العلم تشبيت وريعُ
كما نسأت كنانة ما أحلت لعام بعده عام كتيعُ

وكتب إليه السيد الأديب العلامة ناصر بن محمد بن إسحاق بن الإمام المهدي أحمد بن الحسن بن الإمام القاسم[1]:

تحية ودٍّ ما الغواني وعَرْفُها بأعطر منها وهي فوّاحة العطرِ
تأرج إرجاءً هي الطيب إنما أتت بمراعاة النظير من النشرِ
وتسمو إلى سامي مقام محمد لتظفر من تقبيل أنمله العشرِ
وحيد العلى عز الشريعة والهدى وزينة أرباب الفضائل في العصرِ
إمام علوم سعدها وشريفها وفاضلها المربي فِخاراً على فخرِ
وتسأله من فضله صلة الدعا كما هو مبذول لدى السرّ والجهرِ
ويبعث من مطلوبه بجواهر تروق وتحلو للنفوس من الشعرِ
ومن عجب أن يبعث الدر طيّه إلى بحر علمٍ ظلّ يقذف بالدرِّ
فيا عالم العصر الذي عمَّ نفعه وعرفانه للناس في مُعْضل الأمرِ
إليك نسيب للحسين انتسابه وإبداعه والإقتنا إلى السحرِ
نظام حلى للذوق والسمع والنهى وكم قد حلى جيد البلاغة في الدهرِ
معانيه أحقاق لجوهر لفظه بصدر ذوي الآداب والفهم والفكرِ
فلو طرقت سمع المليحة ما زهت بقرط من المرجان والخالص التبرِ
وظنت بأن العقد قد حُلَّ سلكه فتلمس ما في صفحة الجيد والنحرِ
ودونك من حور القريض عقيلة هي الشمس حسناً قابلت نيّر البدرِ
لها من معانيها البديعة جنّة بها قِصَرٌ في قصر نبت من الدرِّ
أبت زفّها إلا إليك لعلمها بأن لها مهراً لديك من السترِ

---

(١) ناصر بن محمد بن إسحاق: ساق نسبه الشوكاني في (ج ٢ ـ ٣١٥) كما هنا وقال: مولده سنة ١١٥٠ وتعلق بالأدب وراسل وكاتب وأتى بمقطوعة من هذه القصيدة وكانت وفاته سنة عشرين ومائتين وألف.

وإن ما غلت في المدح جاز لك البقا | بشرع الهوى منك التغالي في المهرِ
وحقّك لولا الود مني لما جرى | يراعي لتحبير القوافيَ بالحبرِ
بقيتَ لأفق الشرع نجماً وأهله | به يهتدي ساري الظلام من السّفرِ

وكتب إليه سيدي العلامة برهان زمانه وفريد أوانه إبراهيم بن محمد بن إسحاق بن المهدي أحمد بن الحسن بن الإمام القاسم رضي الله عنهم(١):

أيا بدر دين الله هنِّئت أوّلاً | بفهمك إن الفهم أقوى الدلائلِ
بلغت به شأواً رفيعاً ومحتداً | ونلت به ما لم ينل كل نائلِ
وحققت بالتحقيق في كل مطلب | وحزت مع التدقيق كل الفواضِلِ
فكم مشكل في العِلْم أوضحت حلّه | فكان هو الشافي لصدر المُسَائِلِ
وكم طالب منك الدليل أقمته | فأغنى عن التوضيح عن كل ناقِلِ
وأرويت ظمآناً بما قد رويته | وأوضحت في الإيجاز وجه المسائلِ
ولاعجباً إن صرت في العلم عمدة | وبدراً منيراً للهدى والأفاضلِ
فأنت علوم الإجتهاد حويتها | وزدت على من قد مضى في الأوائلِ
وحسبك شرح المنتقى لَكَ أنه | يقصِّر عن إدراكه كل طائلِ
فشكراً لمن أولاك كل فضيلة | فأصبحت فيها بهجة في المحافلِ

وللسيد صارم الإسلام إبراهيم بن محمد المتقدم ذكره إلى شيخ الإسلام أدام الله عزه:

لله بدر الدين أكرم عالم | شمس الهدى أكرم به من منصفِ
جمعت صفات الحسن همته كما | جمعت صفاة الحسن صورة يوسفِ
العالم النحرير والبدر الذي | أبدي لنا التحقيق في قول وفي
فلقد شرحت الصدر بالشرح الذي | هو مِنّة من ذي الجلال بما خفي

---

(١) إبراهيم بن إسحاق: مولده سنة أربعين ومائة وألف ووفاته سنة واحد وأربعين ومائتين وألف، ولم يذكر وفاته إلا زبارة في هامش البدر الطالع وأتى بهذه المقطوعة. انظر: البدر الطالع (ج ١ ــ ٢٤).

فلكم أصاب وكم أفاد وكم وفا   في حَلِّ إشكال بغير تعسُّفِ
ولكم كفى وشفى الفؤاد بكلما   بانت به سبل الهدى للمقتفي
وكذا التصانيف التي عزَّت على   مَنْ قد مضى ورقت إلى البرِّ الوفي
يكفيه منها شرحه للمنتقي   وبما حوى فاعكف عليه واكتفي
وكذا الشوارد للعلوم بأسرها   صارت بقبضته بدون تكلّفِ
وكذا القريض فكم يغوص لدرّه   في بحره ولنشره بتلطّفِ
فالله يجزيك النعيم بداره   ويقيك في الدارين كل مخوّفِ
ويمن بالتوفيق والدفع الذي   هو أهله فضلاً مع اللطف الخفي
بسلامة في الدين والدنيا وفي   نيران أهل البغي حتى تنطفي
فلكم أثاروها وأطفأها الذي   هو قادر بـرٌّ ورحمن حفي

وكتب إليه السيد العلامة عبد الكريم بن أحمد بن محمد بن إسحاق بن المهدي[1] مستدعياً له حماه الله :

يا زينة المجلس بل منية   الأنفس بل يا بهجة المحفلِ
موقفنا خود بلا حلية   ومقلة حوراء لم تكحلِ
لو خلق الله له قدرة   سعى من الشوق بلا أرجلِ
فكن له يا زينة الدهر منه   الحلية والكحل وجد وأفضلِ
كذا عماد الدين فليأتنا   لا زلتما في شرف أطولِ

واجتمع حفظ الله غرته، وأطال مدته بجماعة من الأعيان في نزهةٍ بيوم مطير وفيهم السيد العلامة جمال الإسلام علي بن إسماعيل بن علي بن المتوكل على الله إسماعيل بن الإمام القاسم رضوان الله عليهم[2] فلما سمع حنين الرعود، ورأى

---

(١) تأتي ترجمته للمؤلف وترجمه الشوكاني (ج ١ ــ ٣٧٢).
(٢) كذا ساق نسبه هنا المؤلف وقد رابني الشك في ذلك لأن من يسكن شهارة هم من ولد أحمد بن المتوكل إسماعيل لا من أولاد علي بن المتوكل إسماعيل فأولاد علي هذا يسكن غالبهم ذي جبلة وأب ثم رجعت إلى البدر الطالع (ج ١ ــ ٤٣٣) فساق نسبه هكذا

وميض البـروق لم يتمـالـك أن ذكـر مسْكنـه وحنَّ إلى سكنـه وكـان قـاطنـاً بشهـارة وهو إذ ذاك سيد أهلها وإليه مرجـع صغيرهم وكبيرهم فقال شيـخ الإسـلام لما فهمـه من شوق المذكور إلى أهله ووطنه:

هـذا السحاب وبـرقهـا الخفـاق ... من نحـو أرض شهـارة تنســاقُ

فقال السيد الجمالي مجيزاً:

سحب دموعي في الخدود نيـابة ... عنهـا وحـنَّ فؤادي الـمشتـاقُ

فقال شيـخ الإسلام:

حملت من الأحبـاب عرْفـاً كلما ... استنشقتـه هملت لـه الأحـداقُ

فقال السيد الجمالي:

لا تنكـروني إن ثملت فللهـوى ... فعـل كفعـل الخمـر حين يـذاقُ

فقال شيـخ الإسلام:

وأنـا الـذي عبث الهـوى بفؤاده ... ولمثـل مـا بـي يشفق العشـاقُ

فقال السيد الجمالي:

وبمهجتي من ثَمهَـدٍ أحـوى إذا ... ذكَـرتـه فـله الـدمـوع تـراقُ
لا أنسى بـل لا أنسى إذ ودعتـه ... منـه التـذلـل حين حـان فـراقُ
ومقـالـهُ لا كـان آخـر عهـدنـا ... وهنـاك كـان وجب لـذاك عنـاقُ

فقال شيـخ الإسلام:

فـذهبت والأحشاء من وجـد بها ... لـزفيـرهـا وشهيقهـا إحـراقُ
وظللت من نار الجوانـح والبكـا ... يتنـابـني الإحـراق والإغـراقُ
يـا من قضى بفراقنـا أرجـوك أن ... يـأتي لنـا بعـد الفـراق وفـاقُ

(*) علي بن إسمـاعيـل بن علي بن القـاسم بن أحمـد بن الإمـام المتـوكـل علي إسمـاعيـل بن القاسم، وحينئذ صح تكهني وتأتي له ترجمة كمـا أثنى عليه الشـوكاني وكـانت ولادته سنـة ١١٥١هـ.

فنبيت من فرح اللقا في غبطة ويجف فيض مدامعي المهراقُ

فقال السيد الجماني:

ونرى الرقيب وقد شكانا عند شامتنا وأجرى دمعه الأماقُ
وأذاع ما فعل الغرام به وما لاقاه غيضاً قلبه الخفاقُ
وسعى بجد واجتهاد في مساعينا وبان لما أراد نفاقُ

وكان وفاته تجاوز الله عنه بشهارة وطنه في شهر جمادى الأول سنة ١٢٣٠هـ وكتب إليه حفظه الله الفقيه العلامة الأديب محمد بن صالح العصامي[١] في غضون نثر هو في البلاغة في أعلا درجاتها يدل عليه ما تضمنه هذا النظام من البلاغة والفصاحة التي يتقاصر دونها فحول أهل هذا الشان، وفرسان هذا الميدان:

يا سقى معهداً لنا بزرود صيّبٌ من يد الأجلِّ الرشيدِ
حاكم المسلمين جامع أشتا ت العلا والتقى شقيق الجودِ
أقسمت كفُّه لشغلَتِها با لجود أن لا تظن بالموجودِ
حافظ السنّة الشريفة كشا ف المعاني حبر الكتاب المجيدِ
شيخ أهل الإسلام من شاد رسمَ العدل ناصراً مِلَّة التوحيدِ
الذي شمس فضله في سماء الفضل ما إن لنورها من جحودِ
والعميد الذي غدا عمد الملك وركناً لعزه الموطودِ
والنبيل الذي سيرقى إلى ما للورى بعد نيله من صعودِ
فارس الخيل حين تشتجر الأرما ح كالسود والوغا في وقودِ
نافذ الفهم ثاقب الرأي راسي العلم في حيرة الوقور الرشيدِ
حين جلِّيت في الرهان فمن بين مصلٍ مسلم وشهيدِ
ولقد أعجزت صفاتك شعري وتساوت كالجوهر المنضودِ
وتكافيت في الكمال فلم أدر بأي الصفات فتح قصيدي
واستمحها عذري ذات جمال وبيان شاف ومعنى سديدِ

(١) تأتي ترجمته للمؤلف واستيفاء ذلك.

حملت من أريج مدحك فاختالت وتاهت مثل الفتاة الرودِ
فهي مثل الحسناء في حلل الديبا ج والحلي وشّحت بالفريدِ
واقر أبياتها فإن يك فيهن قصور فاعذر فذا مجهودي
دمت في نعمة وفي عزة قعسى محوطاً بالواحد المعبودِ

وقال في مدحه هذه القصيدة، الحقيقة أن تسمى بالفريدة:

دمت بدراً في عزة وكمال فائق الوصف نافذ الأقوالِ
وسقى قصرك الربيع نداً من جود كفيك الوابل الهطالِ
فقبيح أن أستزيد لها صوب سحابٍ وفيه بحر النوالِ
ما بأرض تغيب عنها نهار ما بأرض حللتها من ليالي
وبلاد أقمت فيها هي الدنيا إماماً لأهلها في المعالي
همٌ تخضع المعالي لها ذلاً ويعلو لعزهنّ الموالي
أنت بين الأنام كالملة البيضا وكالشمس في العلا والجلالِ
أنت خير من ألف ألف من الناس لدى محفل النّدى والفعالِ
وشجاع فأنت أشجع من ليث هزبر ذي لبدة صوّالِ
وخطيب فأنت أخطب من قسٍ إذا ما كبا بيان الرجالِ
ثابت الفهم ثاقِبُ الرأيِ والفرسان تدعو فرسانها للنزالِ
وهو علامة العلوم إذ ما عمَّ ليل الشكوى والإشكالِ
ماحياً ظلمة الظلام كمثل الشمس إذ أقبلت لمحو الظِلالِ
طبّق الأرض علمه وفتاويه فطاحت جهالة الجهالِ
وسجايا كأنها الروض إلاّ أنها للعدوّ أيّ نكالِ
وإذا وقّعت أنامله جاءت بسحر منضد كاللآلي
فِقَرٌ لم يزل إليها فقيراً كل مبدٍ بلاغة مقوالِ
رد أقوال الملحدين فأضحى الدين مِنْهُ متوّجاً بالجلالِ
جدّد الله منهج الحق بالقاضي وعفى بِهِ طريق الضلالِ
فاستمع قاضي القضاة لمدح فيك نرويه عن لسان المعالي

لو تراخيت عن مديحك لاستحققت   هجواً من جودك الهطالِ
فتأمل وانظر إليه إذا ما   سار في الأرض حَزْنها والرمالِ
كيف تحدو به عُفاتك بل   تشدو بما قلته القيان الغوالي
لا أطيل الدعاء للبدر لا زال   مدى الدهر في عُلًا وكمالِ
بل تلطفت باختصارٍ محيطاً   بمعاني مسائل السؤّالِ
فهو مثل الحروف في العدد النزر   وهيهات حصرها في المقالِ
جمع الله فيك كل دعاء   حسن يستجيبه ذو الجلالِ
صمتَ عن كل منكرٍ أبداً ما   إن لذي الصوم عنك من شوّالِ
مفطراً بالمعروف لا صوم عنه   وعن الجود والندى والمعالي
صائم مفطر معاً جمع الحمد   مع الأجر والثنا والنوالِ
قد مضى واجب الصيام وقد   وفيته حق نسكه والكَمالِ
دارساً للكتاب والسنة الغرّا   نهاراً وفي الليالي الطوالِ
كلفاً بالطاعات فيه فلا زلت   من الله بالمكان العالي
فلو ان الأيام تنطق خصتك   بمدح ما إنْ له من مثالِ
وهنيئاً بالعيد عاد بما تهواه   من دولة ومن إقبالِ

وللفقيه الأديب لُطْف الله بن أحمد جحاف يشكو زمانه إلى الممدوح وكان كثير الصلة له:

صبراً على غصص الزمان الجائر   صبر العميد على الحبيب النافرِ
ألقى الذنوب عليّ لا متحاشياً   شؤم الفضيحة عند ذكر الفاخرِ
أتخاله متظهراً في ظاهر   عن لؤم ذي حنق وشيمة غادرِ
كلا وربك ما علمت ليومه   فضلاً وفضلك جلّ غير مناكرِ
لم يرض مكرمة وقد أغمضت عن   أفعاله متبالغاً في الفاقرِ
إن رحت أستر عورة عن أعين   العظماء منه سعى لكشف الساترِ
ولقد أقول له وقد برزت لنا   من خدرها كالبدر ظبية حاجرِ
وتكلمت بمذيب كل حشاشة   بخٍ لسامع لفظها والناظرِ

ولموجبات الوصل قامت وهي يا عجبـاه سـائلة قضـايـا الأمـرِ
وتمـايلت فِي مائس من عسجـد ودنت ولكن حـال عـذل المـاكـرِ
فبـرزت مشتـداً وسيفي طـائش فيمـا دهى لولا سـلامة خـاطري
فتنهـدت فسللت عسـالاً لمـا أعيـا فجـاءتني بـدرع الصـابـرِ
ونـأت وقـالت مـا رميتُ بمثلهـا أبـداً وذا حكم الغـرام القـادرِ
حتى إذا ألـوى المـراقب عـائقاً كـالـطود ثقـلاً في عـداوة كـافـرِ
وضعت على العقد البنان كـأنها عقـدتـه قـاصـدة تحيـة عـاثـرِ
طال اشتغالك بالخـلاف فصرت أقـوى لائم لصـريـع لحظ فـاتـرِ
فقـد المعين فلا يـرى إلا الدُّمى بـفؤاده يـلعبـن عـزلـة قـامـرِ
لم يسل من عرف الغرام ولم يجد صبـراً على يوم العـذول الغـائـر
عبثت به البيض الدّمى فنشبن في مثـل الذي قـاساه طبق الحـافـرِ
يـلعبـن آونـةً به ويقلن هـو أحرى فيشكو قبل داعي الشاكـرِ
ويقـوم بالشكـر الـطويـل وينثني بخـلافه لخـلاف طبـع الهـاجـرِ
ويـرى على ظهر المشـقـة راكباً يـرجو بلوغ محط رحـل السـائـرِ
فرأى الشكاة وكـل مكلوم الحشا طـرحاً على نهـج السبيل الغـابرِ
يشكون من طول السُّرى سهراً وما أبقى لهم جلداً فتـور السـاهـرِ
لا يـزعجنّهم المـزمْجـر أو يـرى حلق الحـديد عليـه حلية ظـافـرِ
من كـل مشتـد الجنـان محنّـك حبر الأمور على اختلاف الدائـرِ
يسـطو بظفـر غضنفر في حـادث أدنى المنـون وفـلَّ حـدّ البـاتـرِ
ويقيم للمسنون فرض الفجر في محـرابـه وقت الـزوال الـظاهـرِ
كإقامة ابن عليّ المفروض والمسنون والـمـنـدوب أزكـى نـاظـرِ
عـلّامة الـدنيـا ومن خضعت لـه مـا بيننـا الـدنيـا بـذل الصـاغـرِ
ومَن انتدى ورمـاحـه مشـروعـة مسنـونـة زرق لحـرب كـائـرِ
الجهبـذ اليقظ الإمـام ومَنْ لـه وعليـه كان العلم صبغـة قـاصـرِ
والمـاجد المـولى العفاة بشـاشة أكـرم بـه من مـطعم ومعـاشـرِ
إن جئت منـزلـه المبـارك ملقياً نـظماً لقيت أجـل شخص نـاثـرِ

لا البخل يعرفه ولا نمط العطا ... لكن دسيعة لج بحر زاخرِ
الواهب المائة الهجان ولا يود ... ظهورهن إلا الكثير الوافرِ
أنا إن عدلت وقلت نائله العلا ... والمجد صدقني عليه مكابري
وقد اعتصمت بجوده في حادث ... عند النهار يرى كليل داجرِ
فمتى أراني نازلاً في داره ... ملكاً على كرسي مجدٍ باهرِ
وأراه حلّ محلّقاً في فتية ... خلقوا لمثل محابر ومنابرِ
يتراجعون حديث شرعة أحمد ... وهم الصدور وهم هداة الحائرِ
دعني وكل مكابر ومكذب ... بالسنّة الغرّا كفور قاصرِ
يا ابن الذين زكوا بخالص يعرب ... وعلى نزار تقدموا بمآثرِ
وعَلوا بخيشنة فلا يخشون ... منقصة وقد أدلوا بملك حاشر[١]
ملأ القلوب مهابة شرقاً كما ... ملأ الفضا بعواسل وعساكرِ
ما أن رأيت كمن ذكرت ولا أرى ... شبهاً لممدوحي الأغر الآمرِ
أخذ المعالي في الطفولة قضّها ... بقضيضها وقضى بها في الآخرِ
لو كانت الدنيا براحة كفه ... وأتيت تسأل قال أيسر ياسرِ
ويحب أن يغزو عدواً ساءه ... ويقيل في ظل القنا المتشاجرِ
ويثير من ظهر البسيطة عيثراً ... ليرى نجوم رماحه في ثائرِ
ويرى لضمّره الصوافن جولةً ... ودم الطريح خضاب أدكن جائرِ
إني رأيتك لا عدمتك للرجى ... وافٍ فجئت وقلت خير مبادرِ
فإذا مننت فأنت أجود باذل ... نوّلت في الأعلام أجود شاعرِ
من حيّ مرهبة وخير قبيلة ... ملك الديار بسوط بأس زاجرِ[٢]
حيّا بكيل أولي المروءة عارض ... وسقى بني جحاف جون الهامرِ

(١) خيشنة: أحد أجداد شيخ الإسلام. انظر نسبه في (ج ٢ ــ ٤٧٨)، وفي المقدمة.
(٢) مرهبة: قبيلة مشهورة من حي بكيل لا زال لها بقية في وسط حاشد وفي نهم. أنظر العا[...]
من الإكليل بإخراجنا وكان في الأصل (موهبة) غلط.

هـذا وفيمـا بيننـا رحم فـلا   تنـس وبـلَّ نسيبك المتكـاثرِ(١)

وكتب إليه القاضي العلامة الأديب عبد الرحمن بن يحيى الأنسي من جملة درره المنظومة في شيخ الإسلام حفظه الله:

نزعت وقد ولّى الصِّبا عن أموره   جميعاً فما بـالي وبـال فـلانـه
إذا ذكرت أنسيت حلمي ولابست   فـواتره رَوح الصبـا وأمـانـه
وإن تصابـي المرء يبـرق بيضـه   فـذاة بعيني نبتـه وسحـانـه
ومـولى موالي ليس يفـري فريّـه   أضيبع فـأمسى ليس ساب شانه
تـواكله أشيـاخـهم وتنـاهلوا   عليـه وهم ما هم ذكـا وفطانـه
غـداة دعـا يـا للرجـال لمـدهق   فمـرت بـأذن الفيـل منـه طنانـه
وأخلفـه ما ظنّ من فضل نصرهم   ولمّـا يلثهم نصحـه وجنـانـه
ألم ينتدب للثغر يـدعون من لـه   وقـد أطرق الكـافي وزمّ لسـانـه
إذا الثغـر مشغور الفـروج مهـوّل   يعـطّل فيـه المستميت مكـانـه
ليـالي تعيش الـذبـاب رحـابـه   ويفـرين هـزلاً سـرحـه وسمـانـه
ولا يبصق الريق المسافـر حولـه   ولا يـلقين فيـه المقيم جـرانـه
وخـازن دثـر المـال يلقى تليـده   طـريق سـواه خـازنـاً وخـزانـه
فبـاشرتـه حتى وطدت اضـطرابه   وألبستـه اطمئنـانـةً وأمـانـه
وعفّيت آثـار الـذي زلـزلوا بـه   وأبـدلتـه من حبـه شنـآنـه
ولولا المولى أمسكت غايتي لهم   يـدي فرسي لم أقتـطع جريـانه
سـأنساهم يـومي إلى غـده كمـا   تنسّـأتِ الشهـر الحرام كنانـه

(١) نسب آل جحاف الذين منهم الأديب البليغ لطف بن أحمد هـذا الذي يتحدث عنه المؤرخ محمد بن حسن الشجني ـ ينتهي إلى الأمير الكبير جحـاف بن حميد الذي أنجب أحد عشر ولداً ولهم بقية في الجوف ثم ينتهي بهم النسب إلى الأمير الخطير الدعام بن إبراهيم الذي مدحه الهمداني في العاشر من الإكليل، ثم إلى أرحب كما ينتهي نسب الإمام الشوكاني إلى الدعام المذكور، فبين الإمام الشوكاني والأديب البليـغ لطف جحـاف وشاجة رحم ماسة.

عسى أنْ صحيح الرأي فيَّ يراجعوا　　وإلا فرأيي ليس فيه غُبانه

هل ابن أبي يحيى على النأي ذاكري
كذكري به ما أنّت لنفسي أنّه

يذكّرنيه الخير والشر أنّه　　عتادي لدفع أو لحسن إعانه
فتى بين عز النفس والعلم ناز،　　كما نزل البدر السوافر تانه
رأى إذ رأى عن النزاهة سرف　　السرور بمال يملان رزانه
فرفع هذا العلم عمَّا يشينه　　فلا زال يلقي رفعة ومكانه
وقيل سلاماً ما هدى الناس علمه　　وما كثّر المثني عليه ديانه

وله لا فُضَّ فوه في شيخ الإسلام:

أعني على البرق فيما أعدّ　　إضاءته الأفق بعد الإضاءه
لما أنّه يستحق الخليط　　فيتبعون كلأه وماءه
فيسترحلون بترحالهم　　دواء الهوى ويبقون داءه
ومن يَلهه وصل أهل الخيام　　يذم على ابتداه انتهاءه
على أن قد كان وصل الفتى　　سريع الذهاب بطيء الإفاءه
فإن ترسل اليوم دوني الجمار　　ومن قبل ما بادرتني انتضاءه
فقد أملأ الحب قلب الفتاة　　على صوْنها فتلذ امتلاءه
وقد أهب الوفر لا راهباً　　ولا طالباً من ضئيل جزاءه
وقد أشهد اليوم حين اقمطرّ　　ولم يطق الكاسروه التواءه
فأشهر في طرفيه به　　كشهرة قيس يوم الهباءه[1]
وقد أتخذ أبيات القريض　　بسيارة الذكر فخم القراءه
ولست أُقار على الضيم أو　　يقار الدهان على الضيم اعتلاءه
ولست كطاوٍ على ضيمه　　أقول له إذ أطال اتكاءه
ألا تأخذ الثأر من واتريك　　وتسقي المسيء سمام الإساءه
ولا تخش من عزهم حائلاً　　فما يمنع العضب عظم مضاءه

---

(١) الهباءة: يوم من أيام العرب.

ومن نام عن وتره ساهياً فقد ساد في الناس أهل الدناءه
وبال على رأسه الثعلبان وإن كان ملء القبا والعباءه
وأضحى تطاوله في الصفوف كمثل تضآله في الخِراءه
قضى لي إبا الضيم حرب العدا فأنفذت فيَّ وفيهم قضاءه
بغزو كولغ الذباب العطاش ومعركة كحريق الإباءه
فقل للمرانات ما يبتغون إلى ذي أوابد ذقتم عناءه
وقل لصلاح بن كول اللئام ووادعة الضيقين المباءه[1]
وابنا حبيش ورهم وخار والبداوين أهل الشناءه
ورهط الدمينة وابنا عصيم وراكم كما أن لكل وراءه[2]
فإن أمامكم جازر ينزع من كل شلوٍ شواءه
سريع التواثب لا عاجز بطيء تعلّته بالأناءه
كذلكم هو أو تكرهوا وترضوا الذي عاف منكم وساءه
إذا ما رمى[3] سَقْبَ أحداثه تجارت على ذي النّقى والجراءه
فسيف أبي حيَّةٍ عندها سواء وسيف نداين الفجاءه
إذا كان جري المذاكي غلا فقد أبعد ابن عليّ غلاءه
جرى فتناهى ذرى شامخ من العلم فرداً يحيل ارتقاءه
إمام تظل به أرضه تباهي ببدر سماء سخاءه
أجاد تحمّل هذي العلوم فأحسن في كل علم أداءه
فنادى بطلّابه مُعْلناً ألا كل صيد بجوف الفراءه

(١) يوم الأباءة: يوم أحرق به المنذر اللخمي جماعة مستكثرة من القبائل.
(٢) صلاح بن كول بطن من ذي محمد الهمدانيين ويقال لهم اليوم آل أحمد بن كول ووادعة بطن من حاشد لها بقية وابنا حبيش أسرة من سفيان: بالشين آخره وفي الأصل بالسين المهملة غلط، ورهم بضم الراء قبيلة من سفيان لها بقية وخار والبداوين لا أعرف عنهما شيئاً، ورهط الدمينة هم آل الدمينة من ذي محمد الهمدانيين وابنا عصيم هم العصيمات من حاشد.
(٣) في الأصل إذا ما رأى وأصلحناه إذا ما رمى من الرماية.

تجدها مسلمة عندهم | له لا يجوز امراءٍ وامتراءه
يصدّق حسّاده غابطيه | فيها وأعداءه أوْلياءه
بقاه حياة لعلم الرسول | كما جاء عن الله فاسأل بقاءه
وليس وراء هذه غاية | لمن ضمَّ دِيْناً عليها وكاءه

وكتب إليه الفقيه المنشد إسماعيل بن عبد الله الطلّ[1] هذه القصيدة الطنانة كما ترى:

سحر بأعيان الظبا أعياني | يقضي لقلب الصب بالخفقانِ
لا جهد لي وأنا الرقيق فؤاده | بأسود ذاك الحيّ والغزلانِ
زانوا القدود بميلها فموائد | خرصان دون موائس الأغصانِ
بعثوا الطيوف إلى مشوقٍ هائم | كلف الجوانح ساهر الأجفانِ
منعوا العيون من الهجوع وغادروا | بين الظلوع ودائع الأشجان
ما ضرّ ساكنة الغضا سقي الغضا | لو زين ذاك الحسن بالإحسانِ
هي أطلقت دمعي الحبيس بهجرها | وقضت بقبض حشاشة السلوانِ
أترى يعود زمان وصلٍ مرّ بي | بالجزع في أمن من الهجرانِ
يا ساكني قلبي الكئيب وبينهم | إلفُ الديار وصحبة الجيرانِ
خَرَّبتم ربع السلوّ بجوركم | وعمارة الأوطان بالسكانِ
أمَّلتكم فحرمت ما أمّلته | ورجوتكم فرجعت بالحرمانِ
ولقد بكيت لشاكلٍ أيكية | بثّت فنون الشجو في الأفنانِ
ناحت ونحت صبابة لكنها | ناحت بما أخفي من الأحزانِ
تشكو إليَّ أسى الهديل وضائعٌ | شكوى الطليق إلى الأسير العاني

---

(١) إسماعيل بن عبد الله الطل: ترجمه زبارة في نيل الوطر (ج ١ ـ ٢٨٥) فأحسن في ترجمته كل الإحسان، وقال مولده سنة ١١٦٤هـ وأورد له مقطوعات وقصائد ومنها هذه القصيدة التي في مدح الإمام الشوكاني ووفاته بصنعاء سنة ١٢٢٤هـ أربع وعشرين ومائتين وألف، ونقل زبارة معظم ترجمة هذا الشاعر عن لطف جحاف ولا أدري لماذا أغفله شيخ الإسلام.

وبليّتي ريّان من ماء الصّبا لو كان ينفع غلّه الظمآنِ
متأوّد نشوان لدنٌ عطفه أسفي على المتأود النشوانِ
نهبت منام العاشقين جفونه فلذاك ليس يزال كالوسنانِ
ذو وجْنة حمراء حول عذاره وكذا تكون شقائق النعمانِ
ماء ونار راح قلبي منه في نارٍ وعيني منه في طوفانِ
رشأ عصيت عواذلي وأطعته وأطاع فيَّ عواذلي وعصاني
وثن أطوف به حنيفاً مسلماً كالجاهلي يطوف بالأوثانِ
سيَّان دمعي والغمام بأغيدٍ بدر التمام ووجهه سيّانِ
أنّى له في الحسن رب واحد أو مثل بدر الدين في العرفانِ
عزّ المعالي والمكارم والعلوم محمد بن علي الشوكاني
بدر جلى ليل الجهالة علمه بسواطع من واضح الفرقانِ
كالبحر في علم وجود زاخرٍ لعفاته بالدر والمرجانِ
يتزاحم العماء في أبوابه فإذا بدا خرّوا على الأذقانِ
هذا يجيء مسائلاً عن مشكل قد خلّفته سوابق الأذهانِ
ويجيء هذا سائلاً من نيله ما يستعين به على الأزمانِ
والطل يطلب ما يكنّ لأنها عصفت عليه سحائب الحدثانِ
وتنكرت أخلاق أهل زمانه وأساء من يرجوه للإحسانِ
وغدا يكافىء في مديح يستلين الصخر بالإيعاد والإيمانِ
عُرْيان يكسو الأغنيا بثيابه حللاً فيكسى حُلّة الحرمانِ
فاعطف عليه لك البقا بإعانةٍ عند الإمام تفكّ منها العاني
بيت به يأوي بأفراخ كأفراخ القطا يبغون عيش الهاني
من كل رحب البطن يهوى أكل ما في الأرض من ثمرٍ ومن حيوانِ
لا زلت في أوج المعالي طالعاً يثني عليك العالم الإنساني

ومما قاله الحقير محمد بن حسن بن علي الشجني[1] راقم أحرف هذا

(١) كان في الأصل محمد بن علي ثم عمل الناسخ بين السطور «حسن».

الكتاب في شيخه شيخ الإسلام، لا برح في أجلّ فضل وأجزل إنعام:

غرام أبان السقم مكتوم أمره — وشوق أذاع الدمع مكنون سرّه
ولكنّ هذا الليل فارح مطيباً — عساها توافي الحي من قبل فجره
فَمَنْ للمعنّى في الظلام كفيله — بغمض التداني وهو راض لبدرهِ
وإياك أن تستوقف الركب سائلاً — عن الحب حتى يستراب بذكرهِ
فتمنعنا وصلاً طوينا له السرى
وحسب الفتى الإنذار عن بسط عذرهِ
ولا تلق حراساً فتلفى معرّضاً — به إنه يهديك نفحة عطرهِ
بروحي حبيباً كم أروم ازدياره — وأهجره حتماً مخافة هجرهِ
أعبِّر عن معناه بالسفح والنقا — وإياه أعني عند ذكري لغيرهِ
نزلت به في يوم عيد مسلماً — وأسلمت قلبي في سلافة ثغرهِ
وفزت به ما بين شادٍ وشادنٍ — ولم أحظ ما كانا لديه بخمرهِ
فلما أتانا الليل هوَّم واحدٌ — فصار لنا الثاني سميراً لشطرهِ
وحين رأيت الصبح يرفل مقبلاً — من الشرق فجراً في فيالق كرّهِ
فقلت ولي جسم من القلب فارغ — أسير اعتساف غير مالك أمرهِ
وما خمس زلفاي إلا كَلَيْلتي — ومن يَصْبُ عشقاً ليله مثل شهرهِ
ولكنني عفت الغرام تسلّياً — بنشر علا شمس الزمان وبدرهِ
وقاضي قضاة المسلمين محمد — وشيخ شيوخ العلم معجز عصرهِ
تأخر عصراً والقديم لفضله — يقهقر عن إدراكه قفو إثرهِ
ألا ما دراه الناس حق دراية — (فللّه سرّ فيه من آي سرّه
ألا يشتفي من ترب نعليه كل من — أصيب بداء عاقه سوء ضرِّهِ
ألا أيهذا الناس أموالكم لكم — إذا ما أقمتم للخصام بعقرهِ
تزهّد في الدنيا فعاف نفيسها — فتبر الورى في عينه مثل ظفرهِ
ألمّت به صَحْب فاثرت بقربه — بفضلة مَنٍّ من فواضل برّه
وأكياسه خلو من المال عفةً — ولو شاء جمعاً كان ضاقت بوفرهِ

ومن عجب إذ كان بحر إفادة | وقامت رواسي العلم في أرض صدرهِ
لك الفخر ياهذا الإمام الذي غدا | على قمة العيّوق غاية قدرهِ
تفيّأت ظلّ الهدي هدي محمد | فأحرزت فضل السابقين بأسرهِ
وقفت لما يروى عن العدل مسنداً | وقوفاً على نهي النبيّ وأمرهِ
فما لابن أمّ بعد فضلك عزة | عليك بعصر أنت حلية نحرهِ
ودمت لدين الله ردءاً وناصراً | تلبّى إذا ناديت ضامن نصرهِ

ولراقم الأحرف أيضاً تهنئة كتبها إلى شيخ الإسلام مهنئاً له بالسلامة لما وقع البغاة ببئر العزب واستولوا عليها فوقعت من شيخ الاسلام أحسن موقع من جميع التهاني الواصلة إليه وأطربته أحسن إطراب ممّا وقف عليه كما أخبرني بذلك الناقل لما وصل، والناظر في جميع ما حصل وهذا لفظها بعد الابتداء بالبسملة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾(١).

الحمد لله الذي أبدر الأرض فانكسافا(٢) وبدر السماء فصانه عن المحاق، وأبقى غرّته الطاهرة نوراً لعلمه تعالى إن في محاقه إطباق ظلم الظلم في الآفاق، وإن لم يفتنا من خسوف ذلك إلا الإشراق، ففي بقاء نور بدرنا رفع الشقاق، ودفع النفاق.

لإن خسف البدر في ليلة | به دخل الجيش بئر العزبِ
فما ذاك إلا فداء لمن | سما بالفضائل أعلا الرتبِ

---

(١) سورة المائدة: آية ١١.

(٢) كذا في الأصل، والذي في نفس هذه الرسالة التي كتبتها في مجموعي فيما بين سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وألف من مجموع آل المفتي العلماء الأعلام المذحجيين ما نصه: «الحمد لله الذي قد أبدر الأرض بإكساف بدر السماء فصانه عن المحاق» بعد أن قدم له بقوله ولما وقع دخول قبائل بكيل أقماهم الله بئر العزب للنصف من جمادى الأولى عام ثلاث وثلاثين ومائة وألف وكان البدر تلك الليلة كاسفاً إلخ ولا يزال الغموض يعشعش على الفقرة التي بين القوسين.

أهمّوا بما لم ينالوا به		فيا للرجال بهذا العجبِ

وكان قد تكرر بروزنا إلى ظاهر ذمار لنستطلع عنكم عوازب الأخبار، لا لأموال معنا بأزال، ولا لأجل نفائس لنا هنالك وأثقال، إلا لتشوق ورود خبر البشير بسلامتكم من معرّة الفتنة، وخلوصكم من الوقوع في شباك تلك المحنة فتواترت لنا أخبار القادمين وتضافرت لدينا أعلام الواصلين بانكفائكم عن شوائبها وخلوصكم عن معرَّة مصائبها بانقلابكم إلى صنعاء سالمين وإلى مقام الأمن بحمد الله آمنين فانقلبنا بنعمة من الله وفضل لمّا لم يمسسكم سوء وما برحنا ــ والله القسم ــ ننشد أبيات مالك بن الأشتر[1] لمّا فقد عليّاً رضي الله عنه في يوم من أيام صفين فقال:

كل شيء سوى الإمام صغير		وهلاك الإمام أمر كبيرُ
قد رضينا وإن أصيب لنا		اليوم رجال هم الحماة الصقورُ
من رأى غرَّة الإمام المفدّى		إنه في دجى الحنادس نورُ

ولله المن على دوام المسرّة، بحفظ هاتيك الغرّة، ولم نزل نمدّكم بالدعوات انشاء الله في مضان أوقات الإجابة، وهي منكم مستمدة. انتهى.

وللشيخ الأديب الفاضل علي بن يحيى الشاطبي[2] وقد وصل إلى مقام شيخ الإسلام فصادف وقتاً غير الوقت المأهول لاجتماع أهل الحوائج فكتب هذه الأبيات وأرسلها إليه:

يراعك نال الشمس طولاً وطوله		يجاوزها شرقاً ويعجزها غربا
وأما إذا أرويته لرواية
تناهت وباهت في العلى الأنجم الشهبا
وفي صفحة القرطاس تزهو زهورها		وتعجب إذ تختال في طرسها عجبا

---

(١) مالك بن الأشتر هو مالك بن الحارث النخعي المذحجي. قيل له صحبة وقتل بالسم في سنة أربعين من الهجرة، وأخباره معروفة وصفين كسجين: مدينة في الجزيرة الفراتية هي اليوم خراب.

(٢) علي بن يحيى الشاطبي: لم أقف له على ترجمة.

جواهر علم عندكم قد تضمنَّت — سموطاً وما نلقى بأوساطها ثقبا
يواقيت يغتال النفوس نفيسها — أياقوت صغ قوتاً ويا درّ در شربا
رياحي الأيا ما لها إن رجوتها — تيامن بي تلقاكم شملت نكبا
لقد جئت راج ربعك الأشرف الذي
حوى وسعه الدنيا وجاوزها رحبا
فصودمت يا خير البرايا بحاجبٍ — وماذا الذي يعروه لو سهل الحجبا
فوليت في محلولك الكرب منشداً — فديناك من ربع وإن زدتنا كربا[1]

وللقاضي العلامة الأديب عبد الرحمن بن يحيى الأنسي إليه عفا الله عنهما:

إلى ابن أبي يحيى فمن قائم بها — عليه خطيباً يوم تجميع أنديه
إلى سيّد لا ينبح الكلب ضيفه — ولا ينضح الضرع الدرور بمعليه
له نسب في الصالحين مبارك — عليه وبأس منجد وأريحيه
وغرة نغسٍ لا تزال تمدها — صلابةُ دين في أنافةِ حريه
وخير وعاء أوعب العلم وِسْعةً — وفاض فأملى في الملا وسع أوعيه
بكلْتي لسانيه بمقر وكاتب — بنا جل ما يوحي ومسموع ممليه
بأجمع تصنيف له ورسالةً — وأتقن تدريس وفتوى وأقضيه
ألا أبلغ الله القدير به التي — تكون على العادين في الدين معديه
مُرَقى إلى التقوى بعيش بلهنيه — مُوقى من الأسوى مُلقى بتهنئه

وللسيد العلامة الأديب عبد الله بن علي الجلال[2] مادحاً للسيل الجرّار مصنف شيخ الإسلام بعد تمامه ومقرضاً له وللسيد المذكور في شيخ الإسلام قصائد تأتي في مجموع هي من أحسن الشعر وأعذبه:

طابت ثمار حدائق الأزهار — لما ارتوت من سيلك الجرارِ
وتنطّفت عسلاً فأصبح مرّها — حلوَ الجنا للطاعم المشتارِ
وتغردت أطيارها بدلائل — أنهارها من آي ذكر الباري

---

(١) المصرع الأخير من شعر المتنبي وجاء تضمينه جميلاً جداً.

(٢) ترجم له الشوكاني (ج ١ ــ ١١٩) وتأتي ترجمته للمؤلف.

مشفوعةً بدلايل من سنةٍ صحت روايتها عن المختار
ما شانها شبَهٌ ولا طرد ولا الملغا الغريب ولا اجتهاد عاري
كلاّ ولا شِينت بشَيْن تعصّب لمذاهب هي عادة الأغمارِ
كاين ترى من جاهل متعصّب كانت لديه منتهى الأوطارِ
قد دان بالتقليد كالغير الذي قد قيد في العليا بغير منارِ
ما زال يحسب أن غير فعاله فعل الجهول فلجَّ في الإنكارِ
نهقت غلاصمه بأفحش كلمة يشوي بها في مستقر النارِ
هذا هو الجهل المركب عند مَنْ عرف الأدلةَ من ذوي الأبصارِ
دع ذا فبدر التمّ ما إن غرّه صوت لكلب نابحٍ هرارِ
كلا ولا بحر الفرات يضرّه إن كان فيه بعض نوْلٍ جاري[1]
كلا ولا أزْرَت بعرض محمد نفثات أهل الكفر والفجارِ
ومذمّة الخبّ اللئيم شهادة بالفضل فهي حميدة الآثارِ
وجماعة الجهّال أعداء لأهل الفضل والعلماء والأخيارِ
وإذا ينال الفضل شخص واحد حطّ الحواسد منه في المقدارِ
وتعنّتوه وتهاونوه وحاولوا أن يجعلوه مدنّساً بالعارِ
فعلا وكان مبجّلاً في قومه وتسفّلوا في ذلة الأقذارِ
أأبا علي لا تذق ذرعاً بما قد ضقت منه ولم يقرَّ قراري
فلأنت سرّ الله ناصر دينه ولأنت بدر المسلمين الساري
بحر العلوم حديثها وقديمها شيخ الحديث الساطع النوّارِ
أنت المجدد في زمان أهله لولاك كانوا في شفير هاري
فابشر بنصر عاجلٍ لا آجلٍ واسلم بخير دائم مدرارِ
وتهنَّ شهر الصوم بالإقبال والإسعاد في صوم وفي إفطارِ
وأصخْ لما قد قلت فيك فإنني قد قلت فيك بدائع الأشعارِ
لا زلت في هام المعاني قاعداً خلفاً لأمنع عزّة وفخارِ

يعرض الشاعر في هذه القصيدة كما ترى برجل زنديق كان ينحو نحو دين

(١) كذا في الأصل ولعله بعض بولٍ جاري.

الفلاسفة يسمى بالفقيه محمد صالح حريوه[1] لا أصل له ينتمي إليه ولا يعرف له أصل في النسب وكان متظاهراً بالزندقة والطعن في الإسلام بغير تحاشٍ في ذلك حتى انتهى حاله إلى الطعن على صاحب الشريعة الإسلامية صلى الله عليه وآله وسلم، وكان يستحل المحرمات الموجبة للحدود من دون مبالاة بل قد يتظاهر بذلك على وجه المباهاة فلما صنّف شيخ الإسلام السّيل الجرار انقلب رافضياً خبيثاً وسعى في جعل حاشية عليه ليتستر بذلك عن فعله المذموم لأنه كان يخشى من شيخ الإسلام أن يقتله بسيف الحد فتظهر للعوام الذين هم أشبه شيء منهم بالدواب بالرفض كما هي عادتهم في صنعاء، فتلقت أقواله السفلة ومن في حكمهم من الجهلة فما كان بأسرع من أن وقع في شباكه وارتطم في ارتباكه وعُزِّر تعزير السوقة من أمثاله وأهين بأنواع الإهانة من الكرابيج وبالأعصي مرات وضرب المرافع المتعددة على رأسه وجعل الله الانتقام منه للإسلام وأهله بسطوة إمام العصر العظيم الإمام المهدي عبد الله بن الإمام المتوكل حفظه الله ثم أمر به إلى حبس كمران في البحر[2] فحمل في جنازة على أسوأ حال وأقماها ثم أمر به بعد أن وصل إلى كمران أن يخرج إلى بندر الحُديدة فيضرب عنقه ويصلب فأخرج فقتل أشر قتلة سمع بها وصلب ثم ما زال مصلوباً حتى تناثرت عظامه، وكان التعزير به في يوم السبت ثامن عشر شهر الحجة سنة ١٢٤٠هـ وتسفيره يوم الأحد وصلبه في شهر محرم سنة ١٢٤١هـ[1].

---

(١) ترجمه المؤرخ زبارة ترجمة وافية في نيل الوطر (ج ٢ ــ ٢٧٤) ناقلاً ذلك عن الحافظ محمد بن علي بن الحسين العمراني وعن القاضي العلامة حسن عاكش الضمدي وعن محسن بن عبد الكريم بن إسحاق وعن المؤرخ محمد بن إسماعيل الكبسي رحمهم الله وكلهم أضفوا عليه حلل الثناء إلى أن قال في أثناء الترجمة المنقولة عن المذكورين والناس في حاله في طرفي نقيض فبعضهم يتشيع فيه ويثني عليه في تحقيق العلوم وأنه كامل الإيمان صحيح العقيدة وما حمل من حمل عليه غير الحسد الذي ما خلا منه جسد وبعضهم يعكس الأمر وينسب إليه رأي الفلاسفة والتحامل على أفاضل الصحابة وعلى حملة الشرع المحمدي من أهل زمانه.

وفيها قتل وله مؤلفات أشهرها «الغطمطم الزخار رداً على السيل الجرار» بلغني أنه وصل به إلى باب السهو وأنه كان يتحامل على شيخ الإسلام الشوكاني ويلقبه ابن المدارة وقد حققنا الموضوع في غير هذا.

وكتب إليه العلامة الأديب محمد بن مهدي الضمدي التهامي[1] هذه القصيدة:

متى يرتوي منك الفؤاد المتيم ... فيكبت إن زرت العذول المذمَّمُ
نقضي لبانات ونقضي حوائجاً ... عسى تنطفي نار بها القلب يضرمُ
أبيت سمير الشهب في حالك الدجى ... ثنّي حديث العشق والناس نوّمُ
وما العيش إلا في هواك يطيب لي ... وكيف ودر الدمع في الخدّ ينظمُ
فلله قلب لا يهيم صبابةً ... فطعم الهوى حلو وعقباه علقمُ
ولكن قلبي يا لقومي على الهوى ... يُصرُّ فأثنيه ويأبى فيقدمُ
ألا أيها القلب الذي قاده الهوى ... وتيّمه كفٌّ خضيب ومعصمُ
وعينان دعجاوان من تحت حاجب ... أزجٍ ووجه بالملاحة مُنعمُ
وقدٌّ يغار الغصن من لين عطفه ... وفرع يزين المتن أجعد أفحمُ
ودرٌ نضيد كالجمان منظم ... يلوح على الياقوت معدنه الفمُ
وحاشاه ما الصهباء تحكي ريقه ... وكيف وخمر الثغر أشهى وأطعمُ
فليت الذي حاز المحاسن كلها ... يساعد يوماً باللقاء ويكرمُ
ويا أيها النفس المشوقة نحو من ... يتيه ويلوي جيده ثم يبسمُ
رويدكما هذا الغرام فإنني ... نصحتكما والأمر من ذاك أعظمُ
فوالله ما حلّ الهوى قلب عاشق ... توغل في حُبِّ الملاح فيسلمُ
وما لي في حب الغواني وحسنها ... ولكن مقصودي الإمام المعظّمُ
فتى حاز أشتات المعالي بأسرها ... فذلك شمس الفضل والناس أنجمُ
إذا قيل أيّ الناس كعبة حجهم ... أجاب لسان الحال يا بدر أنتمُ
ألست محط الراحلين ومن له ... أزمّة هذا العلم يعنو وينعمُ
ومن طار في شرق البلاد وغربها ... تصانيفه والفضل ما ليس يكتمُ
ومن صار ركناً للخلافة شامخاً ... يشدّ به أمر العباد ويحكمُ

---

(١) لم يترجم له فيما بين يدي من المراجع.

هو العالم الأوّاه والمصقع الذي أنار به داجٍ من الشرع مظلمُ
فيا ابن عليّ لا برحت محمداً تشيد ربوع العلم والجهل تهدمُ
ولا زلت في عزٍ منيع ورفعة تحاط به من كل سوء وتعظمُ
عليك سلام الله بعد الذي به غدا يبدأ الذكر الجميل ويختمُ

وكتب إليه القاضي العلامة عبد الرحمن بن أحمد البهكلي التهامي(١) وله فيه قصائد عديدة:

فتًى لا وحق الله لولا قيامه ببالي العلى والمجد لم يتجددِ
وأبلج ما من آلة وقبيلة على قلّة السادات مَنْ لم يسوّدِ
أخو همة ما حاجب بن زرارة أخوها ولا الغالي يزيد بن مزيد(٢)
وذو سلفٍ ما منهم من مذمم لئيم ولا في غيرهم من محمدِ
وأيمن إن يصطم به الفقر ينقلب غناء وإن يصطم به النحس يسعدِ
فضاضة ليث الغاب تدمي نيوبه ورقة قلب الناسك المتعبّدِ

وكتب إليه حفظه الله السيد العلامة المشار إليه بالبنان في علمه وأدبه، وشرفه وحسبه محمد بن يوسف بن أحمد بن يوسف بن حسين بن حسن بن الإمام القاسم(٣):

أشجى هزار الدوح بالتغريد لمّا شدا في غصنه الأملودِ
وشدت على فنن الأراك حمامة كادت تذيب القلب بالترديدِ
وتطارحا الألحان في غصنيهما فتجاذبا بالشجو قلب عميدِ

---

(١) ترجمه الإمام الشوكاني (ج ١ ــ ٣٣٢) ترجمة موجزة بلا ذكر للمولد ولا للوفاة. وقال المؤرخ زبارة في نيل الوطر (ج ٢ ــ ٢٣). مولده ١١٨٢ ووفاته سنة ١٢٤٨هـ.

(٢) حاجب بن زرارة هو التميمي من عظماء تميم، جاهلي وله أخبار وأحاديث في كتب الأدب، ويزيد بن مزيد: هو ابن أخي معن بن زائدة الشيباني. ترجم له ابن خلكان ترجمة ممتعة (ج ٥ ــ ص ٣٧٠) وقال: وكان من الأمراء المشهورين والشجعان المعروفين وكانت وفاته سنة ١٨٥هـ.

(٣) قال الشوكاني في البدر (ج ٢ ــ ٢٨٤) ولد سنة ١١٧٥ وذكر زبارة في الهامش ووفاته سنة ١٢٤٠ فارجع إلى ذلك.

مهلاً رويداً يـا حمامـات الحمى ... فغـرامكم دعـوى بغيـر شهـودِ
أيجوز للمحزون في شرع الهوى ... خضب البنـان وحلية في الجيـدِ
إنّ الحمـامـة والهـزار تشـاركـا ... بالنوح في قتل الشجي المعْمُوْدِ
مـا ردّد الألـحـان إلا ذاكـراً ... عهـد اللوى ولـيـاليـاً بـزرودِ
ومعـاهـداً كم نلت في جنبـاتها ... بيض الأماني في الليالي السـودِ
لله عيش هَنَـا تـقضّـى بـاللوى ... مـا كـلّ عيش بعـده بحميـدِ
إذ كـلّ يـوم يـومُ عيـد مثلمـا ... كـل الليـالي فيـه ليلة عيـدِ
حيث الصّبـا غضّ وصفو نعيمنـا ... خـلو من التـنغيص والـتنكيـدِ
أيـام أخـطر في ميـادين الصبـا ... جـذلان من مـرحٍ أجـرّ بـرودي
فلكم نعمت بهـا بـأرغـد عيشـة ... والـدهـر يلمحني بعين حسـودِ
سمحت لنـا الأيـام فيـه بـرهـةً ... وسعين بعـد الجمـع بـالتبـديـدِ
وإذا تـنكـرت البـلاد وأهلهـا ... فـالعيس فارحلهـا إلى المقصودِ
والعيس أفضـل عدة تجدُ الفتى ... للنـائبـات ونجـدة المنجـودِ
ولقد غدوت على الشملة جانحاً ... وسـريت معتسفـاً بهـا في البيـدِ
والركب قد نفضوا الكرى وتسنّموا ... قـوداً هجانـاً من بنـات العيـدِ[1]
كم سبسبٍ قفر قطعن وهـوجـلٍ ... مَـرْتٍ وكم من مَهْمَـهٍ صيهـودِ
هيماً عطاشـاً لا تني من ظمائهـا ... تبغي الـورود ولات حيـن ورودِ
ولكم يمنّيهـا الـسـراب تعـلّةً ... والـحـر لا يـزداد غيـر وقـودِ
هيهات منها الورد أو ترد الردى ... حتى تنـاخ بعـقـوة المحمـودِ
طـود المفاخـر والعلوم وذاك مَنْ ... أغنتـه شهـرتـه عن التجديـدِ
عزّ الهدى بحر المعارف والندى ... حتف العـدا وشحاك كـل حسودِ
نـدب لـبيب ألـمعي نـافـذٌ ... قـد فكّ قِـدْماً ربقـة التقليـدِ
يـرمي نحور المشكـلات بنافـذٍ ... من سهم فكـر محكم التحـديـدِ

---

(١) بنات العيد: الإبل العيدية المشهورة المنسوبة إلى العيد بن الندغي بن مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف ثم إلى مالك بن حمير. انظر: الإكليل (ج ١ ـ ٢٥٦) طبع ثاني.

ومتى يبيّن مجملاً فبيانه خالٍ من الألغاز والتعقيدِ
فاق الورى علماً وساد مراغماً والناس بين مسوّد ومسودِ
إن قلت يوماً ذاك أعلم من ترى فوق البسيطة فهو غير بعيدِ
ولكم حوى من مكرمات جمّة ومحاسناً جلّت عن التعديدِ
ولَكَمْ خلال علا يقصِّر واصفٌ عن أن يحيط بها وذا مجهودي
لا زال في حلل المعالي رافلاً مرّ الليالي فهو بيت قصيدي

وكتب إليه حفظه الله السيد العلامة أحمد بن يوسف زبارة[1] طالباً منه أن يجيزه:

أقاضي المسلمين جد بالإجازه في علوم مسموعة ومُجازه
من كتاب وسنّة وأصول شاملات حقيقة ومجازه
عن رؤوس في العلم كانوا رواسي يعجز الطير في التعالي مَجازه
أنت رضوى العلوم أو مثلما الزخّار إنْ مدّ جره بإجازه

للسيد العلامة الفهامة الأديب القاسم بن إبراهيم بن الحسن بن يوسف بن يوسف بن الإمام المهدي محمد بن الإمام المهدي أحمد بن الحسن القاسم[2] رحمهم الله في موقف اجتماع اجتمع فيه الأعيان لختم شرح المنتقى بعد إكمال التدريس فيه للطلبة ومن جملة مَنْ شملهم السيد الهمام نجل الخلافة عبد الله بن الإمام المنصور بالله رضوان الله عليه:

أكرم بطيب اجتماع له التهاني تنظمْ
فنزه الطرف فيه فهو الجمال المنعمْ

---

(١) قال شيخ الإسلام في البدر (ج ١ ـ ١٣٠) ولد سنة ١١٦٦ وأثنى عليه وذكر مشائخه وعلى من أخذ العلوم إلى أن قال: ولما كان سنة ١٢١٣ صار قاضيا من جملة قضاة الحضرة المنصورية وعظمه مولانا الإمام تعظيماً كبيراً بعد أن أشرت عليه بنصبه وعرفته بجليل قدره، وفي نيل الوطر (ج ١ ـ ٢٤٩) إن وفاته سنة ١٢٥٢ عن ست وثمانين سنة.
(٢) ترجم له الشوكاني (ج ٢ ـ ٢٩) وقرظه بالثناء كما تأتي ترجمته للمؤلف

لـه الـقـلوب تـجـلّت	بـنـوره عن صـدا الـغمْ
ودع رياض زهور	بها النسيم تنسمْ
إذا الـغـصـون تـثـنّـت	والـطـيـر زهـواً تـرنّـم
ومـدمـع الـسحـب بـاكٍ	والـبـرق شـوقـاً تبسّم
ومـلـعـبـاً لـلـغـوانـي	وحسن جيـدٍ ومعصـم
ورشـف ثغـر جـمـاني	ولـثم خـدٍّ مـع الـضـم
وانـظر مـقـام عـلوم	فـيـه الـنـفـائس تـغـنـم
زهـى بـشـرح كـتـاب	بختمـه المسـك يختمْ
لـه الـكـواكـب زفّـت	والفخـر فيهـا الـمقـدمْ
نـجـل الخـلافـة هـذا	من في ذرى المجـد خيّم
وجـامـع الـشمـل فـيـه	سـر الـعـلوم الـمـعـظمْ
مَنْ لفّ شمل المعالي	بنشر أفضاله الجمّ
يـا حـبـذا خـيـر داع	وخـيـر مـلك تـلثّـمْ
وخـيـر فـرع لأصـلٍ	عـلـيـه صـلى وسـلّم
أكـرم بمن قـد حبـاه	بـالـقـرب منـه وعـظم
وخـصّـه بـانـتـقـاد	إذ كـان نـعم الـمحكم
شـمس الـعـلوم إذا مـا	لـيـل الـجـهـالـة أظـلم
سـل عـنـه إن شـئـت	نيل الأوطار بالفضل تعلم
قـد طـاب مـوقف ختم	لـنـا بـه أيّ مـغـنـم
فـيـه الـمـلائـك حُفّت	على الـمـلا تـترحـمْ
فيـه الـريـاحين تلقى	عـلى الـسـرور وتـلـثـمْ
فيه شـذى الـورد يحكي	عَرْف الرسـول المكرّم
إن رمـت تـاريخ يـوم	بفضـل مـوليـه قـد تمّ
فـهـاك في ضـمـن اسـم	الـمـولى الكـريم المفخّم

تاريخ يوم عليّ قد كان ثاني محرّم

سنة ١٢١٦هـ

وهذا تاريخ الختم، وأما تاريخ تمام القراءة في نيل الأوطار فهو ما ذكره في هذا النظم:

يـا بـدر قـد لاح لـلمعـالي	عـليـك من ربـك الـسـلامُ
كفـاك في شـرح هـدي طـه	وسـرّه كـلمـا يـرامُ
جـمعـت مـا حـازه شيـوخ	وأنت يـا ذا الكمـال غـلامُ[1]
جملت وجـه الـزمـان حسنـاً	إذ زانـه مـنكُـمُ ابـتـسـامُ
شـرحت صدر الهـدى بشرح	لـلمنـتقـى فيـه انـتـظامُ
فـاشكر لمـولى حبـاك نيـل	الأوطـار يُـهـدى بـه الأنـامُ
يـا حبـذا ختمـه سمـاعـاً	وافـى بتـسـيـيـره الـنّـظامُ

عـوّذ كمالاتـه حادية بحسن الختام[2] سنة ١٢١٥هـ.

وكتب السيد العلامة الرحالة إبراهيم بن عبد القادر بن أحمد سؤالاً نظماً وهو:

مـا يقول الإمـام عـلاّمة العصـر	ومـن نـور علمـه في ازديـادِ
في محبّ قـد شفّه الحب عنكم	فغـدا طـرفـه حليف العهـادِ
أيجب أن يـزار فـضـلاً ليـنـزا	ح عن الصبّ موجبات البعـادِ
أم عـليـه أن يـزور أم قـصـد	اتـصـال الأرواح لا الأجسـادِ
وبهذا الأخير قـد قال بـدر الدين	ذو الـفضـل عـالي الإسنـادِ
شيـخ أشيـاخنـا الأميـر أبـي	إسماعيل من سار علمه في البلادِ
في جـواب له على البحـر عبد	الـقـادر البـرّ زينـة الأمجـادِ
الإمـام الـوجيـه عـلامـة الآل	ومفتي الـسهـول والأنجـادِ
قـائلاً في جـوابـه مـا تـراه	من نظام يطفي غليل الصوادِ
مـا رحلتم عن مقلتي وسـوادي	بـل نـزلتم في مهجتي وفؤادي
أنت عنـدي في كـل حين مقيم	عنـد إصدار القـول والإيـرادِ

---

(١) في الأصل وأنت يا ذا الكما، بدون لام آخره فأكملناه باللام فحصل الزحاف.

(٢) كذا هذا البيت في الأصل وأكثر حروفه مهملة النقط فلم يظهر.

ليس قرب الأجسام عنديَ قربٌ   إنما القرب في صميم الفؤادِ
فاجتماع الأجسام في الوصل طرد   عند شيخ الشيوخ قطب الرشادِ
ورأى شيخنا الوجيه اجتماع الأجسام
شرطاً رواه ذو الإنتقادِ
قال في نظمه البديع مقالاً   ساغ عند الأئمة النقادِ
لو تراني يوم الرحيل ودمعي   من جفوني يسيل سيل الوادي
فترى وابلاً ورعداً وبرقاً   من جفوني وزفرتي وفؤادي
فأجيبوا بما ترون من الرَّا   جح من هذه جواب اجتهادِ
غير قافٍ إثر الرجال فمن قلّد   لم يخْلُ قوله من فسادِ
وسلام عليك يغشاك في   كل أوان مضاعف التعدادِ
وعلى من حوى مقامكم العالي   من الأصدقاء والأولادِ

فأجابه شيخ الإسلام حفظه الله بقوله:

الجواب الذي أراه صواباً   ترتضيه أئمة النقادِ
إن قرب الأشباح في هذه الدار   هو الوصل عند أهل الودادِ
لو أفاد اتصال روحٍ بروحٍ   في وداد مع طويل بعادِ
كان لغواً جميع ما قد حكى النا   س من الهجر والبكا والسهادِ
إنّما ألهب الجوانح منّا   وأسال الدموع سيل الوادي
بُعدنا عن مرابع حلّ فيها   من أحلّ السقام بالأجسادِ
يا لقومي وهل لقومي عناءٌ   في تلاقي الأرواح والأكبادِ
إنما قطّع القلوب بعاد   قطّع الله قلب هذا البعادِ
فالغريب الذي يحلّ بلاداً   وهواه في غير تلك البلادِ
والبعيد الذي يقيم بأرض   قد قلا ربعها ربيع الفؤادِ
ما ترى ما الذي يفيد انطوى
القلب على الحب والهوى في ازديادِ
إنما يشتكي من البين قلب   قد بُلي قبل بَيْنه بالودادِ

وإذا مـا خلى من الحب فـالبَيْن   لـديه كـالـوصـل في الإتحـادِ
والـنبي الـكـريم صـلى عليـه   ربّـنـا قـد أفـادنـا بـالمـرادِ
قـال ليس الإخبار مثـل عيانٍ   عنـد إصـدار الأمـر والإيـرادِ
والخليـل الجليـل يـطلب معنًى   من عتـابٍ يـزيـد في الاعتقـادِ
فـالـذي قـال: إن عمـران ربـع   الحب بـالحب نـافـع في البعـادِ
غـالط أو مغالط عنـد من كـان   مـن الأذكـيـاء والـنـقـادِ
هـاك يـا عـالِمَ الـزمـان جـوابـاً   شيّـدت ركنـه يـد الاجتهـادِ
وسـلام السـلام يغشـاك يـا   فرد بني المصطفى النبي الهادي

وكتب إليـه الـوزيـر الجليـل الأديب محمـد بن أحمـد خليـل وزيـر الإمـام المنصور بالله رضي الله عنه[1]:

يـا إمـام الـعلوم والاجتـهـاد   ومـزيـل الشكـوك بـالانتقـادِ
ومجلّي حـوالـك الشُّبـه الـدّهم   بـحسـن البـيـان في الإيـرادِ
ومقيم الحـدود بالحجـة البيضـا   وقسـطاس العصـر بين العبـادِ
أنت بـدر الزمـان إن أفـل البـدر   وشـمس الأوان في كـل نـادي

وكتب إليه أيضاً:

لله درّك يـا فـريـد محـاسـن   أربـى على البـدر التمام تمامـه

(١) قال الإمام الشوكاني (ج ٢ ـ ١٢٤) هـو محمد بن أحمـد بن خليل الهمـداني ثم الصنعاني. مـولده تقـريباً سنـة ١١٦٠ وكان والياً على البلاد الهمـدانيـة اتصـل بمـولانـا إمـام العصـر المنصور بالله قبل أن يلي الخلافة وجالسه وتردد إليـه فلما ولي الخـلافة قـرّبه ثم جعله أحـد وزرائه ولا زال في الوزارة حتى نكبه مولانـا الإمام في شعبـان سنة ١٢١١ واستـأصل غـالب أملاكه ولزم بيته ولم يتردد إلى الأكابر كما يفعله كثير من أرباب الدولة بعـد زوال دولهم وذكر له مقاطـع غير هذه إلى أن قال: وكان متأنقاً في جميـع أحـواله ضخم الـرئاسـة كثير الحشم والأتباع وكانت له أيام وزارته دار بالروضة ودار بـوادي ضهر ودار ببئـر العزب ودار بصنعـاء، أخـذت دوره كلها في نكبتـه غـير دار صـنعـاء، وتوفي سـنـة ١٢٢٠هـ. قلت: ولآل خليـل هؤلاء بقية بوادي ضهر.

قد صغت من سرّ البلاغة مفرداً فـاق الفـرائـد نثره ونـظامـه

وكتب إليه السيد العلامة الأديب علي بن محسن القاره صاحب كوكبان[1]:

رويدك طرفي فيك ليس بذي غمض على مدمع أجراه صدك مرفضِ
إذا كان مني البعض قلباً أخذته فليتك لو ألحقت بعضاً إلى بعضِ
لعمرك ما في الوصل عار على امرئ لدى كلفٍ قد كاد من دنف يقضي
فواعجباً للصب يجزى عن الهوى هواناً وعن صدق المودة بالبغضِ
وأعجب منه العشق مستعذب به العذاب وجور الحكم في أهله مرضي
أعاذل لا يعنيك شأن ذوي الهوى فمبرمهم فيه البعيد عن النقضِ
وما أنا بالقاصي لنفسي عن الهوى فأصبح منقوصاً لديه على فرضي
ولا ثقِلٌ والنصب صار ملابسي وإن ثقلت قوم لدى النصب والرفضِ
تعال أريك المجد أين محلّه من البدر لما لاح في فلك الأرضِ
أزاح ظلام الظلم ساطع[2] نوره ومدّ على طول البسيطة والعرضِ
وأمسى بأفق قد تهاوى نجومه فما بين منقضٍ لديه ومنفضِ
وها أنا لمّا استضأت بنوره إلى كل علم لم أزل أبداً أمضي
أمُنْسٍ أوطاني ومؤنس غربتي وكابت حسّادي على سنن مرضي
جزمتم بنصبي فيه رفعُ لرتبتي فما ضمَّ فتحاً جرَّ عيشاً إلى خفضِ

وكتب السيد العلامة الوجيه عبد الرحمن بن العباس بن إبراهيم بن محمد بن الحسين صاحب كوكبان[3] وقد صافحه شيخ الإسلام:

شرّفتني عندما صافحتني بيد بالخير مذْ عُرِفتْ والفضل والشرفِ
صفاحها برسول الله متصل مسلسل برواة أحسن السلفِ

(١) لم يترجم له أحد ممن مؤلفاته تحت يدي.

(٢) كان في الأصل «صادع نوره» بالصاد المهملة فأصلحناه بالسين المهملة والطاء المهملة أيضاً.

(٣) لم أجد لعبد الرحمن بن العباس الكوكباني ترجمة فيما بين يدي من المراجع.

فيا لها من يد بيضاء ما كتبت ... إلا الأحاديث والآيات في الصحفِ
وكم لها من أيادٍ طالما سمحت ... من واكف الخير ما يروي من اللهفِ
أنعم بها فهي للعافين مغترف ... وللعليل شفاً من وهى التَّلفِ
ما لابست أبداً سوءاً لذا خرجت ... بيضاء من جيبها غرّاء كالصدفِ

وكتب إليه السيد العلامة المجتهد صارم الإسلام إبراهيم بن عبد القادر بن أحمد بعد أن تولى شيخ الإسلام وظيفة القضاء وبلغ السيد المذكور توجّع شيخ الإسلام من دخوله في ذلك وتحسّره على أيام تدريسه أهل العلم في فنون الاجتهاد فقال[1]:

دمت مدى الأيام بدر الهدى ... مدفوعة عنك شرور القضا
وصانك الله تعالى بأن ... تلقى القضا منك بدون الرضا
دخولكم فيه غدا واجباً ... بذا أدين الله يوم القضا
وأجركم فيه بأضعاف ما ... قد كان في التدريس فيما مضى

وكتب إليه الوزير العظيم وزير الإمام المنصور بالله علي بن الإمام المهدي العباس[2]:

حُجّةُ العصر أبلغ الناس بالإ ... جماع منهم معارفاً وخطابه
خير من شرّف الإله معاليه ... وزكّى بين الورى أنسابه
رجل أدرك الكمال كما أدرك ... في الاجتهاد حقاً نصابه

ومما كتب إليه الوزير المذكور أيضاً:

شغفت به لما تيقنت فضله ... وفي حبّه بالرق أصبحت سيدا

---

(١) وفي هامش الأصل ما لفظه: وذلك لما بلغه قول شيخ الإسلام رحمه الله:

قد كنت أرضى بنزول القضا ... من قبل أن أقبل أمر القضا
إن كان يرضيك إلهي فما ... يحسن من عبدك إلا الرضا

(٢) في هامش الأصل: لم يسم الوزير هنا ولعله الفاضل العلامة الكريم الحسن بن حنش رحمه الله، وبعده بخط الكاتب المعتاد الذي يحرر في الهوامش: هو الشيخ محمد بن خليل.

فيا ماجداً أربى على الطوق مجده	فأصبح للوفّاد كهفاً ومقصدا
محرّر أحكام القضايا ومَنْ غدا	لما حازه بالإجتهاد مقلدا
محمدٌ البرّ التقيّ أخو العلى	علا سالماً من كل شيء مسوّدا

وكتب إليه السيد العلامة شيخ الشيوخ، ومن ثبتت قدمه في سلوك التحقيق على الرسوخ، الحسن بن يحيى بن أحمد الكبسي[1] هذه الأبيات والفقر كما ترى:

سلام من الله السلام ورحمة	عليك إمام العلم والدين والهدى
يفوحان كالمسك الذكي بسوحكم	دواماً كما دامت معاليك سرمدا
فيا راكباً بلّغ سلامي ليشتفي	فؤادي به إمّا بلغت محمّدا

من ضرب سرادقات مجده على هام الكواكب، وسبح فلك فخاره في بحار أعلى المراتب، وحازت جياد مساعيه قصبات الفضائل في غايات المناقب، وتفردت أفكاره باستخراج دقائق العلوم بنظره الثاقب، ونشر أعلام الحق على قناة الاجتهاد في رأيه الصائب، العلامة على الإطلاق في جميع مسارح المذاهب، عمدة الخاصة والعامة باتفاق كل راغب وراهب.

العزّ مولانا الكريم محمد	شيخ الشيوخ وفيصل الحكام
هشّ إذا نزل الوفود ببابه	سهل الحجاب مؤدب الخدام
وإذا رأيت شقيقه وصديقه	لم تدر أيهما أخو الأرحام

ومع هذا النظم نثر بليغ كثير إلى الغاية.

---

(١) ترجمه الإمام الشوكاني (ج ١ ــ ٢١١) وأشاد بمعارفه وحسن مزاملته، قال: وكان مولده سنة سبع وستين ومائة وألف ووفاته كما في هامش البدر الطالع سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف.

وكتب إليه حفظه الله شيخه العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي(١) رحمه الله، وقد اختلف على شيخ الإسلام وقتاً من أوقات الدرس وكان من عادة شيخ الإسلام عدم الاختلاف في أيام الطلب فغالب سماعاته على جميع مشايخه طريقة واحدة في عدم الاختلاف.

مولاي عز الدين يا من حوى ... أفضل ما في النقل والسمعِ
ومن غدا من بين أقرانه ... بلا نظير قط في الجمعِ
عذراً فدتك النفس من زلة ... أوجبها السَّيء من طبعي
منعت لا من علة فاعف عن ... تركيب مزج جافي المنعِ(٢)
فرب نقص راق من بعده ... تِمّ وخفض زين بالرفعِ

وكتب إليه شيخه العلامة الفاضل التقي قاسم بن يحيى الخولاني رحمه الله(٣) وقد طلب منه شيخ الإسلام قراءة في بعض الكتب في نظم ضمّنه ذلك فأجابه عليه رحمة الله:

عز دين الإله حافظ علم الآل ... آل النبي خير البريةِ
وجميع العلوم فرعاً وأصلاً ... ولساناً لديه غير خفيّهِ
أنت فخر الزمان زينة أهليه ... جمال العلا كريم السجيّه
ولك النشر والنظام الذي قد ... صُغْته من كواكب دريّة
كل من يدّعي صفاتك في العلم ... فأمنية له أشْعَبيّة
قد طلبتم مني إنجاز وعدٍ ... إن هذا لديّ عكس القضية

---

(١) قال الإمام الشوكاني (ج ١ ـ ٣٧٩) مولده تقريباً سنة ١١٥٠، مدحه بأخذه للعلوم وعنايته التامة بتخريج الطلبة والمواظبة على التدريس وأنه لا يمل حتى يمل الطلبة ومات سنة ١٢٢٨.

(٢) كان في الأصل في الجمع والتصحيح من البدر الطالع فإنه أورد هذه المقطوعة.

(٣) القاسم بن يحيى الخولاني شيخ الشوكاني الأكبر كما وصفه ونعته بأجمل النعوت في (ج ٢ ـ ٥٣) ومولده سنة اثنتين وستين ومائة وألف ووفاته سنة ست وأربعين ومائتين وألف كما في الهامش.

فحقيق بأن أكون أنا الطالب منك الإفادة الأكمليَّة

بل جدير لمن تصدَّر مثلي وهو في رتبة القصور الدنيَّة

إن يوم العزى يرى خير مقر بمعانٍ بفكره اللوذعية

زادك الله في المعالي صعوداً بكرةً في مسرَّة وعشيَّة

للسيد العلامة الأديب عز الإسلام محمد بن إسماعيل بن حسن الشامي رحمه الله[1]:

يا دار عَلوة بالكثيب النائي حياك كل مهجَّر بكاءِ

وَهُما بملعبك الذي لعبت به أيام لهوي فيه خيل صبائي

دار صحبت بها الشباب وروضة غض الملابس هامر الأنواءِ

في مسرح حاك الربيع بساطه فكساه كل قطيفة خضراءِ

أمشي به ما بين بان معاطف ميالة أو قامة ميلاءِ

وكأن زهر الروض لما مال في وشي الرياض تمايل السكراءِ

تيجان كسرى المليك وقيصر قد كلّلت بجواهر الأنداء

أيام لا أثني العنان عن الهوى أنى وذاك زمان طيب هوائي

ولنا إلى وصل الحسان مناهجٌ قد غادرتها أعين الرقباءِ

خلس أخذنا صفوها والدهر قد أخذته عنا نومة الإغفاءِ

ما كان أسرع ما تصرَّم حبْلها فغدت كلا شيء من الأشياءِ

أبلى الزمان جديد ملبسها الذي قد كنت ألبسه على خيلاءِ

لو أنه سمح الزمان بوقفة منه رضيت بوقفة الخطباءِ

ووهبته عمراً وعَمْري إنه المغبون في بيعي له وشرائي

ماذا أفيد بمرّ أيام خلت ما أشرقت فيها شموس لقاءِ

كلاّ ولمّا أغد فيها لاهياً عن دار علوة باكتساب علائي

---

(١) لم يطل الإمام الشوكاني في ترجمة محمد بن إسماعيل الشامي وقال إنه من محاسن الفتيان وأورد مطلع هذه القصيدة وقال إنها نحو ثلاثين بيتاً. مولده سنة أربع وتسعين ومائة وألف ووفاته سنة أربع وعشرين ومائتين وألف، البدر (ج ٢ ـ ١٣٠).

من درس أبحاث العلوم وأخذها عن معجز الفصحاء والشعراءِ
علامة الدنيا ومفخر أهلها جمّ المفاخر أوحد الفضلاءِ
ورفيع إسناد الحديث شريفه ومحقّق الأنظار والإفتاءِ
حاوى تراث الأنبياء محمدٌ شيخ الشيوخ وسيد الفصحاءِ
فمقاله في المشكلات وقطعها كالسيف عفراً بل أشد مضاءِ
تمشي الإصابة حيث يمشي رأيه فكأنها وهبته عقد لواءِ
إن شاهدت عيناك جوهر شخصه شاهدت جوهر فطنة وذكاءِ
يا خير من نصر الشريعة سالكاً من نهجها بمحجة بيضاءِ
وحَمى حِما الدين الحنيف ففرق البدع التي شرعت بكل هواءِ
يا رحلةً للطالبين وقبلةً للمعتفين وناصر الضعفاء
تالله ما جمعت صفات محمد لسواه حاشاه من الأسواءِ
تلقى به خلق النبوة لم أقل كالزهر أو كالزاهر الظلماءِ(١)
متنزّه متعفف متورّع متواضع في رفعة وسناءِ
أبقى الإله على الأنام مقامه يحيي مِناً منه وحسن ثناءِ

وللقاضي الأديب عبد الرحمن بن يحيى الأنسي حماه الله :

ألا قامت تنازعني ردائي غداة نفضت أحلاس الثّواءِ
مهفهفة كغصن البان تهوي إليّ بعنق خاذلة الظباءِ
يلوح القرط منه على هواء يروقك ذاهباً فيه وجائي
ووجه فيه شايقة لواعي تواصفه وفاتنة لرائي
وحابسة لذي نظر طموح عليه بلا أمام ولا وراءِ
وقد أرخى مدامعها ارتحالي وكانت ليس تدري ما البكاءِ
وقالت لو أقمت لكان ماذا حنانيك التفرّق والتنائي
وعيشك لو تركت وَمَا تشائي لما بَعُدَت سماؤك عن سمائي

(١) كان في الأصل «كالزهر أو كزاهر الظلماء» فأصلحناه كما تراه.

ولـكـنَّ الـزمـان لـه صـروف ... وقـد يـعـدو على الـقـوم الـبـراءِ
وقـبـلي مـا نَـبَـتْ أرض بـحـرٍ ... فـفـارقـهـا بـحـبٍّ أو قـلاءِ
فعني لست بـالـرجـل المـرويِ ... ولا طـوع الـحسـان من النسـاءِ
وعـزمي قـد علمت إذا استـطارت ... بـديهته تـغـلل ذا مـضـاءِ
فـكم أعـرى إلـى واد هـبـوطـي ... ذئـابـاً بـالـتـضـوّر والـعـواءِ
وراع الـعـصـم في نـيـق صـعـودي ... وهـاج الـزبـد في خَبْتٍ نـجـائي
عـلى وجـنـاء تـخـتـرق الـمـوامي ... وتـجـتـاز الـمـيـاه عـلى الـظمـاءِ
يعـارضهـا اللصـوص ليـدركـوهـا ... ومـن يـعـلق بـراكـبـة الـهـواءِ
وحـربٌ أجـهـز الـداعي إلـيـهـا ... فلم يكتب شهـودي في البـطاءِ
فـقـادتـهـا لأولّـة اقـتـيـالـي(١) ... وسـاقـتـهـا لـثـانـيـة انـثـنـائـي
ومـا انقشعت عـمـايتـهـا وفيـهـا ... مـن الأبـطال مَـنْ أبـلى بـلائـي
وكنت على معسكـرهـا وحكمي ... لـهـم أمّـا حـكـمـت عـلى السـواءِ
بـوضّـاعٍ ضـمـان الـمـال عـانـي ... جـنـايـا الـعـمـد شـداخ الـدمـاءِ
وسَـل عنِي الـعـدو فعنـدهـم مِنْ ... مـمـارستي مـصـدقـة ادّعـائـي

ومـا أنـا بـالـبـخـيـل بـثـابـتـات الـحـقـوق عـلى الإضـاقـة والـثـراءِ

ولا كَـلٍّ عـلى الإخـوان عـيٍّ ... ولا شـاك الـصـديق من الـجـفـاءِ
ولا بـمـفـحـم إن نـاغـمـتـنـي ... بـنـات الـشـعـر مـنـه بـالـحـداءِ
وقـد جـرَّبـت هـذا الـدهـر حتى ... مَـرِنتُ على الـمـراضي والـمسـاءِ
فلم أعدم على الخطب اصطباري ... ولـم أفـقـد عـلى الـهـول اجـتـراءِ
ولا استـوحشت من شيء أمـامي ... ولـم أحـزن عـلى شـيء ورائـي
ولـولا عـالم العصـر الـذي سـرت ... عـنـه مـا حـنـنـت إلـيـه نـائـي
لـنـعـم مـحـمـد رجـلاً وحـقٌ ... لـه وعـلـيـه طـيـبـة الـثـنـاءِ
هـو البحـر الـذي جـاشت بعلمٍ ... عـوازب عـلـمـه ذات ارتـواءِ
فـطـبـقـت الـبـلاد وعـاد مـنـهـا ... إلـيـه الـفـضـل من غـدُرٍ مـلاءِ

---
(١) كذا في الأصل ولعله اقتيادي.

تـعـالـى الله مـعـطيـه امتـنـانـاً ... ولـيس الله مـحـصـور الـعـطاءِ
لـقـد آتـاه عـلـمـاً مـن لـدنْـهُ ... تـضـيـق بـوسـعـه ذات الـفـضـاءِ
ولـكن صـدره الـمـشـروح أضـحـى ... كـمـا بـيـن الـثـريّـا والـثـراءِ
وحـيـن لـقـيـتـه بـادٍ بـديّ ... بـوقـت مـثـل إبـهـام الـقـطاءِ
لـقـيـت بـه الأئـمـة فـي فـنـون ... بـفـرد الـشـخـص مـتـحـد الـرواءِ
فـفـي عـلـم الـكـلام أبـا عـليّ ... وفـي عـلم الـلـغـات أبـا الـعـلاءِ
وفـي الـتـصـريف عـثـمـان بـن جنّي ... وفـي الـنحـو الـمبـرّد والـكـسـائـي
وسـيف الـديـن رب الـمـنـتـهى في ... أصـول الـفـقـه مـعـجـزة الـذكـاءِ
وجـار الله فـي عـلم الـمـعـانـي ... وإظـهـار الـنـكـات مـن الـخـفـاءِ
وابـن كـثـيـر الـشـيـخ الـمـعـالـي ... مـن الـتـفـسـيـر خـافـقـة الـلـواءِ
وزيـن الـديـن فـي الـتـحـديـث مـتـنـاً ... وإسـنـاداً بـحـفـظ ذوي الـذكـاءِ
ويـحـيى في الـرجـال بـنـقـد قـول ... جـرى فـيـهـم بـصـفـوٍ أو جـفـاءِ
وفـي الـتـاريـخ والأخـبـار حـراً ... عـهـاً فـهّـاق الإنـاءِ[1]
وفـي الـفـقـه ابـن رشـد مَنْ تـنـاهـت ... نـهـايـتـه بـحـسـن الإبـتـنـاءِ
وعـنـد قـضـائـه ولـدى فـتـواه ... عـن تـبـريـره كـشـف الـغـطاءِ
فـلـولازمـتـه مـن بـعـد أو كـان ... حـظي مـنـه تـكـرار الـلـقـاءِ
إذاً لـغـدوت رأسـاً فـي عـلـوم ... يـكـون بـهـديـهِ فـيـهـا اهـتـدائـي
أنـادي قـائـلاً قـولاً سـديـداً ... يـصـدّق بـيـن مـسـتـمـع الـنـداءِ
بـأنـك صـاحـب الـقـدح الـمـعـلا ... وبـيـن سـهـام إرث الأنـبـيـاءِ
وإنـك عـالـم الـقـطر الـمـسـمـى ... ومـجـتـهـد الـزمـان بـلا مـراءِ
وإن مـجـدّد الـمـائـة الـتي نـحـن ... فـيـهـا لـهـو أنـت بـلا امـتـراءِ
وإنـك لا نـرى لـك مـن مـثـيـل ... ولـم تـر مـثـل نـفـسـك فـي الـمـراءِ

---

(١) هؤلاء المذكورون أعلام وغرة شادخة في جبين الدهر لهم تراجم في مضانه، من هو شغوف بتراث قومه ومعرفة عظمائه فليقتن ذلك فقد أصبحت الكتب ميسّرة بعد أن ذهب شبحُ الاستعباد والاستبداد ولله الحمد.

وإن شـريـعـة الـديـن اسـتـنـارت بـمـا سـمـيـت فـيـهـا لـلـقـضـاءِ
أصـاب بـك الخليفـة فـرض عيـن عـلـيـك مـضـيـقـاً وقـت الأداءِ
فـلو لم تـقض بيـن الـنـاس طـوعـاً أثـمـت بـمـا جـنـحـت إلـى الإبـاءِ
جـزيـت عـن الـيـتـيـم وأمـه والـضـعـيـف وقـومـه خـيـر الـجـزاءِ
أخـذت لـهـم بـحـقـهـم فـبـاتـوا وقـد أمـنـوا تـعـدي الأقـويـاءِ
وطـائـفـة عـلـى قـاضٍ ومـفـتٍ تـرادُوهـا بـثـوب الأعـمـيـاءِ
وهـذا ريح عـلـمـك فـاسـتـفـد خـيـره فـي الابـتـداء والانـتـهـاءِ
ولا بـرحـت سـواري الـغـيـث صـنـعـاء بـمـا طـرقـتـك حـيّـاً فـي الـحـواءِ
فـإن تـهـلك فـلا شـامـت عـلـيـهـا عـيـون الـنـاس بـارقـة الـحـيـاءِ
ولا حـمـلت عـقـيـب الـمـهـر أنـثـى ولا ولـدت غـلامـاً ذا ذكـاءِ

وكتب إليه ــ حفظه الله ــ المذكور هذه القصيدة:

بعض شيء عنك من هذا التغني والتصابي
إنما التقصير والمط وتجديد الخضابِ
خدعة الطفل عن الثدي وتبييض الخراب
لم نجز هذا وإن جاز على البيض الكعابِ
ولهى عين أمين الغيب في ثنيا الثياب يتميزن به الدعوى بصدقٍ أو كذابِ
لا تلطف حولهن ما سوقهن سوق خلاب ليس من لطف حمام هن من عنق عقابِ
لحم محدودب المنسر ذي لون كهاب
طحطحن الرأس أقنى الأنف مقصوص الذبابِ
شابك المخلب لمّاح بطرف ذي التهاب يمـلأ الجوَّ دويّـاً مثـل منقضّ الشهـابِ
فترى الورقاء منه في وساع الصدر وابي كَـرَّ لفُق من أطـرافهـا شـدّ العصـابِ
وله نِبٌّ كنُبُّ التيس في معز الضـراب وهب الشيـخ صباه من غرانيق الشبابِ
ومضى يطوي على اللذات أبعاد الذهاب
فهو لا بالمستطيب الشيء ولا بالمستطابِ
دفعتـه مهلة العمـر إلى أمـر صعـاب ذي تلوٍّ في تلواه وانقلاب في اضطرابِ

يطلع التدبير منه في قفا وجه الصواب ... فهو للتغيير يدعو بدعاة ابن شهابِ
عجّل الله بكم آل نجاح كل لابي ... شفهيّ أفطس الأنف أسكّ الأذن حابي
لست من أسعد بل بكيت ما افتات شابي ... من صفا عيش وتربي ولداتي وصحابي
ذهبوا مني بعيداً وقريباً من قرابي ... كدت مما كدت أن أخرج غيظاً من إهابي
خبر لولا ابن أبي يحيى لأصبحت لما بي ... فهو عزّانيَ بالتذكير عن عظم المصابِ
هذبت أخلاقه خُلُقِي عن حسن التجاب ... كيف لا أجعل لقياه على ما عشت دابي
رجل يهدي إلى الله بعلم كالعباب ... راسخ فيه رسوخ الطود في ظهر الترابِ
ذو زنادٍ في التعاليم وزيّ غير كاب ... جاهداً في الأمرِ بالمعروف بصبر واحتسابِ
لا يكنّي عند قول الحق أو فيه يحابي ... ليّن النفس موات خشن في الله آبي
أنا داع فليقل آمين من يسمع هيابي ... أخضع الله لإنكاراته غلب الرقابِ
ورمت أوعاظه باللين من أهل الغلاب ... وألان الوعظ منه في كتاب أو خطابِ
في قلوب قاسيات كالجلاميد الصّلاب ... ليرى الضعفة رحماهم على دبا مآبِ
فهي للضعفة أجدى من تفاريق الرغاب ... لا فقدنا ابن أبي يحيى على طول الحقاب

وكتب المذكور هذه القصيدة الطنّانة :

إن بكى العيس استكنتم مساسه ... وطللكم من لافح البؤس رافغهُ
فلكم(١) حولكم من أقرع الكلب أخلفت ... ملاقطه جدباً وجفّت ميالغهُ
وما النظرة الحمقا استجادته إنه ... خبير ولكن غرر الثوب صابغهُ
فمرّ بداء الذئب شهراً فليته ... أتى أهله الأقصين أسرع رابغهُ
أأنتم على ذا طالبوا الغاية التي ... لها النجم يعنوه حيث لألأ بازغُهُ
مطارفكم لبس الجديد ولم تمسّه ... النار إلا واجع الكف ثالغهُ
فواعجباً ممن بكفيه غامزه ... وأعجب منه من بكفيه ماضغهُ
لأنتم وأمرٌ لا يُنال وما امتلا ... فغصّ بأسباب التحاصيل فارغهُ
كباسط كفيه إلى الماء على الظما ... ليبلغ فَاهُ الماء وما هو ببالغُهُ
أسأت بكم سمعاً تكشف عنكم ... به ثوب ستر كان قلّص سابغهُ

---

(١) قال في الهامش: الصواب (فكم) بحذف اللام.

وألبسكم نَعْل الأديم الذي رمت   بأنْتَانِهِ خلف البيوت دوابغهُ
خذوها من الشعر الحكيم تؤمها   على حافتيه غشيةٌ ونوابغُهُ
قد أشهدتها إنذاركم سوء غبكم   وقد يشهد القول المعبّه صابغُهُ
كما أشهد الماء قتل عاد قتيله   فأدّته حقاً بعد حين بغابغهُ
إلى ابن أبي يحيى الذي ليس باطل   على الأرض إلا وهو بالحق دامغهُ
إلى لا بعيد غوره من سطارة   ولا ظهره لا يستجنّ ملادغهُ
ولا هو من بدولة الذنب غافلاً   ولا الشر عن خير الأمور تراوغهُ
وليس من النفس المضل هواؤها   وليس من الشيطان يطغى نزاوغهُ(٢)
ولكنه من غفل دين إذا رأى   هوى نفسه مغرومة غاض بايغهُ
كلاه الذي نقّى من الذمّ ثوبَه   ولا نغصت تحت الليالي مساوعهُ

ومّما كتبه إليه القاضي الوجيه:

أإن لبس فتا السن التي سفهت   بخدن لابس أحلام النهى هزاء
إذا تطلّع جاء همّي اسلاعته   وإن تولّى أسأن القول والوماء
ولا يدينّنه دين الصغير على   عقد الضمير ولكن سمعةً ورياء
إن تفعلين ورعياً للشباب ولا   أهلاً بشيب على أعقابه طراء
فكم تداعين إسراراً لرؤيتك إن   تمرر بهن وكم أرصدنها الزنّاء
وطلى بعلييها أجيادهنّ كما   أعلى البرير بعيداً جيده الرشاء
وكم تحلّت في أفواههن على   ذكراك مالثاث ينفع الظماء
من كل لعساء بيضاء الملاعم تلسى سابي الزق يوم الدجن ما سباء
آذنت شيطانهن المستحا لدا   عية إلى اللهو وإياهن ما نباء
والعيش رغد وهذا العمر مقتبل   والبال خال وليل الخطب قد هداء
كذلك الدهر من شيءتسرّ به   وضده ولكم أشجى بما مراء
ما جمّع الشمل تجميع البخيل بغير ما به فرق الأيدي قرى سباء
وما تعالى بأقوام ووَفْرِهِمُ   إلا بما حط من قوم وما ازدراء
وقد تفاقد أهلوه وجايدهم   ولا كفقد صديق أحسنوا ملاء

---

(٢) كذا في الأصل ولعله «نوازغه».

تخـرّمتهم حـواليّ المنـون فقـد ... أفرغت دلـوي منهم بعـدمـا امتلاء

ولّـوا بقـدمتـهم فيمـا رجئت فقـد ... أوحشت مقتـدمـاً منهم ومرتجاء

فإن يملأ رجـاي بـعـدهـم ببـقـا ... أبي علـيّ خيـار الخيـرة الكفاء

ففيـه خالفـة الخير الـتي خبـرت ... نَقصي بمـا فـاتني ممـا دنـا ونـاءَ

أكـرم بملجـأ أهـل العلم إن طلبـوا ... يـوماً على الحادث المكـروه ملتجاءَ

وأسـوة المتـأسي بـالكـرام وبـالشجعـان في نحـو مـا أجدا ومـا اجتـراءَ

وقـدوة المتحـري الحق يجـدر أن ... يلقى ولـو بعـد حين رايـة الخـطأ

فهـو المشمّـر عن سـاق المفتش لا ... على الأريكـة مـا تلقـاه متكـاءَ

حتى يحـررهـا حتى تعـود على ... تحـريـره بنـانـي مـا بـه بـداءَ

إن المحمق لـلأولى التي سمعت ... أذنـاه أو طـرفـه الأعشى الكبـاءَ

وقـد تناهى بـه الحظان في شـرفيْ ... علم وجـاه وشـواء فيهمـا فشـاءَ

ومـا أحـا لأشيـاء من تـواضـعـه ... ولـو حوى بعض مـا يحوي سـواه بـاءَ

فـقـل لـواصـمـه مـا لا يُـزَنّ بـه ... بـراءتي أنـا من تـوصيمـك البُـراءَ

إلى ثنـائي عليـه مـا علمت بـه ... من صـالح جـاد قـطراه ومـا رداءَ

ثنًى كـرائحـةِ المسـك الجـديـد سليم الغِش مـا انفـك ذا ضـوع ومَـا فتياء

وله إليه حفظه الله :

ألآ كِـلا العُمْـر الـذي أنـا رهنـه ... فصمت قَـوَاصي المنغصات كـوالِئه

رمت بـالصّبـا رمي القلين فـأوطـأت ... لـذي الشيب من ذات العويم مـواطئه

فـأصبحت والشيء الـذي لـذتي فتى ... هـو المولمي شيخـاً تمض نـواكئـه

ونـافـرت الأشهى طبـاعي وحـاه ... مـلائمـه قـد أحـرز السبق نـابئـه

وكـاد انصـرامي أن يـلاقي رستى ... وجـاءهـا على عليـا التشوف رابئـه

وأوجع شـيءٍ مـرّ بي فقْـدُ إخـوة ... قـد انحـدروا من دون مـا بشـائنه

فـأشـرف من حيث انثنـوا فـأراهم ... بمـخـبّـأ قـوم لا تثار مـخـابئـه

فقـد طـويت منهم على بـلالتهـا ... مزاد الإخـا واستنسخ الـظل فـائئـه

ومن يبق يـود الأصـدقـاء في لقـائـه ... ويبصـر بـه في نفسـه مـا يسـاوئـه

ويلق منـاكيـراً من الـدهـر شـرّعـاً ... تـنـاذره طـوراً وطـوراً تـفـاجئـه

ذكـــرت انقلاب الدهر فـاذكر ضغينـةً أغـار بهـا الـركب الـذي خفّ نـاوئـه
عـشيـة تـعـر بـالـتنـائي مـحبّـه ويلحـو عليه في النصيحـة شـانئـه
وقـد تفلت النفس الحـريصـة حظّهـا وقـد يغلب الـراي المصـوب خـاطئـه
فـأضحت وأهلي بـالعـروض وأهلها تجـاوزهـا من لجّـة البحـر شـاطئـه
وشبت على بـاق الهـوى من شبـابـه بـهـا وهي لا أدري بـمـاذا تكـافئـه
شـجىً أو سـلوّاً فـالسـلو يـمـده ذهـاب اللقـا تحت النـوى وتمـالئـه
سـواي أمـا هـذا نسيبي بهـا الـذي يـرفقه في عـائـد الشـوق بـادئـه
كما أن مدحي الصـادق الخارج الـذي يـخفّ إلـى سـرعـانـه مـتبـاطئـه
لـسيـد وادي الـمسـند بن مـحـمـد وبـدر الـعلوم الـمستتب تـلالئـه
ومـدلي دلـو المسـتقي فـي ركيّـهـا فمفرغـة في حـوض فهـم فمـالئـه
منيـر مـنـار السنّـة إن أظلمـت بِـهِ بـدائـع جُلّى حيث أظلمـن ضـاوئـه
وأبعـدهم صيتـاً ومـا ولـي القـضـا فلمـا تـولاه استـطيبت مـضـاوئـه
وعـظّمـه فـي النـاس عـزة نـفسـه ورب عـظيـم حـقـرتـه دنـائـه
بـمتقى التفـريط فـي جنـب ربّـه عـزيـزاً بـه أن يـرزأ الـدين رازئـه
أرى كلمي عقـد الثنـا في نـظيـمـه عـلى غـيـد الحسنـا تـبصّ لآلئـه
ولـولاه لـم تفـتـح لكـاتبـه الـدواء ولا قـام فـي الـواد المنده قـارئـه

وللسيدالأديب العلامة عبدالله بن علي الجلال إلى شيخ الإسلام حفظه الله :

عـلاك عـريـق لا يـزال يـزيـد وعـزّك عـز بـالـكـمـال مـشيـدُ
ومـجـدك مـجـدُ عـدمـلي مـؤيـد مـدى الـدهـر لا يبلى وليس يبيـدُ
وحـظـك حظ يتبـع الـدهـر إثـره فـأنـت تـريـد الأمـر وهـو يـريـدُ
وهـمتـك الـعليـا أجـلّ مـن العـلا ضَخُمتَ بهـا قـدراً فـأنـت فـريـدُ
وجـودك مـبـذول لـكـل مـؤمـل فـكفـك بـحـر بـالهـبـات مـديـدُ
وعقلك من رضـوى أشـد رصـانـة ورأيـك فـي كـل الأمـور سـديـدُ
وعضبـك لا ينبـو وقـد ثـلّ غـيـره وعـزمك عنـد النـائبـات شـديـدُ
وجـأشك جـأش لا يـراع لحـادث تـضيق بـه الـدنيـا فأنت جليـدُ
وكيف يـروع الخطب من حلقت بـه مـلائـك حفظ والمليـك شـهيـدُ

ومن كـان بـالـدين الحنيفيّ قـائمـاً تـذلّ لـديـه سـادة وعـبـيـدُ
وحكمـك حكم مـن كتـاب وسنّـة وذكـرك مـا بين القضـاة حميـدُ
وفضلك فضـل طبـق الأرض نـوره وصيتـك صيت في البـلاد بعيـدُ
وعلمـك بحـر حـاطـه كـل وارد عليـك فنـال الـدرّ وهـو نضيـدُ
وقلّدتـه عقـداً نفيسـاً منـظّمـاً وقـد كـان عـطلاً لا يـطيق يقيـدُ
وبـرهان قـولي كـل سفـرٍ مكـرّمٍ أتـيت بـه بـكـراً وأنت مـجيـدُ
كفتح القـديـر المنتقى خيـر دفتـرٍ ونـيـلك لـلأوطـار وهـو جـديـدُ
ومثـل الدراري وهي في الحسن كاسمها وإرشـادك الأصـلي وهـو رشـيـدُ
تـركت بـه المحصـول غيـر محصّـل لـقـاعـدة والسـعـد وهـو بليـدُ
إلى غيـره مـن كـل سفـر مؤلّفٍ أتيت بـه في العلم وهـو وحيـدُ
تـآليف حقٍ أذهبت كـل بـاطـلٍ بـأنـوار علم مـن لـدنـك عـتيـدُ
حويت جميع الفضـل كهلاً ويـافعاً فهيهـات لا يـأتي عليـه قصيـدُ
لـذاك تـراني في مـديحك أخـرسـاً يقصّـر مـني في عـلاك نشيـدُ
ولكنـني إن قلت مـدحـاً فـإنمـا أسكّن شـوقي فيـك حين يـزيـدُ
وأعـرب عن ودّي وحسن صحـابتي وإن ذمـامـي مـا حييـت أكيـدُ
منحتـك صدق الـود سـراً وجهـرة ولست مـن العهـد الأكيـد أحيـدُ
ومـا طـمـعـي إلا بخـالص دعـوة تـلاحـظني سـرّاً بهـا وتـعيـدُ
وبـلّغـك الـرحمـن كـل مـؤمـل ولا زلت مسـعـوداً وأنت سَعيـدُ

وكتب إليه بعض الأدباء هذه القصيدة الطنّانة كما ترى[1]:

تـحيـة ودٍ بـالـضحى والأصـائـل يفـوح شـذاهـا مثل نـوْر الخمائـلِ
سـلام ولا البـدر التمـام نـظيـره كمـالاً ولكن مثل بـدر المحـافـلِ
محمـد المحمـود عـلامـة الـورى وجـامـع أشتـات العـلا والفضائـلِ
إذا رمت أن تـثني عليـه بـمنعـة عجـزت ولم تـظفـر لـذاك بـطائـلِ
أبـدر فـهـذا لـم يـزل قط كـامـلاً ومـا البـدر في بعض الشهـور بكـامـلِ
أشمس فـإن الشمس تأفـل في الدجى وشمس الهـدى في الليـل ليس بـآفـلِ

---

(١) قال في الأصل بالخط غير المعتاد: لعله المؤلف لم يصرح باسم القائل إلا وثم نكتة اقتضت ذلك.

أنجم فكم جارى في ظلم الدجى وأنوار ذا تمحو ظلام المجاهلِ
أبحر فإن البحر ما زال مالحاً وبحر الندى ما زال عذبٌ لناهلِ
وتهلان حلماً والمحيط معارفاً بتحقيق معقول ونقل لناقلِ
فكم مشكل قد حلّه ببديهة تحيّر فيه كل حبر وعاقلِ
وإن حادث ألوى وأشكل وجهه فرأيك شمس في ظلام الجلاجلِ
فكَمْ نال ما أعيا الأسنة والظُبـ بأرماح آراء له ومناصلِ
وكم غارة شعواء تجدل أسدَها بيوم تزلزل عن متون الأجادلِ
إذا ما انتضى أقلامه لمهمة ترى عنده عبد الحميد كباقلِ
أنامله إما لأرقش نافث هلاك الأعادي أو لسيف وذابلِ
فسائل به أي الكتائب في الوغى تخبِّرْك عن كتب له ورسائلِ
فتنفث في قلب العدو مكائداً وهيهات أن يرقى لها سحر بابلِ
وترعى عيون من بدائع وشْيها أزاهير جنات ونوْر خمائلِ
فيا ناهضاً من بعد أن درس الندا بمفروض جود مهمل ونوافلِ
وما أنت إلا العارض الجود جلجلت رواعده فانهلّ في كل ماحلِ
ملأت قلوب الناس رعباً ورغبة بسطوة ذي شبل ومعروف ذابِلِ
وقمت مقاماً للأمور مفوّضاً إليك فقام الملك بعد تمايلِ
وقمت بما حملته منك ناهضاً وقد ضعفت عنه قوى كل كاملِ
فأنت سماء للمعالي نجومها أفاعيل مجدٍ لم تُشبْ بالرذائلِ
أرى الدهر إن يبطش فمنك يمينه ويبسم منكم عن ثنايا فضائلِ
عطاء وجود لا يشاب بمنّةٍ وحكم بحق لا يشاب بباطلِ
سماعاً لأبيات إليك سوافر المعاني إلى علياك خير وسائلي
فيا طالما نزّهتها عن مواقف لغيرك كبراً عن مدائح خاملِ

وللأديب العلامة محمد بن صالح العصامي عافاه الله ـ إليه حفظه الله :

يا أيها البدر المنير وأيها الصدر الكبير
يا خير من فخرت بطلعته المنابر والسريرُ
من لا يضاهي حلمه الجبلان ثور أو ثبيرُ

مـن لا يسـاوي جـوده بـحـر ولا سـحـب غـزيـرُ
مـن لا يـدانـي عـلمـه أحـد قـديـم أو أخـيـرُ

وللأديب العصامي كتاب إلى الممدوح يعجز عن الإتيان بمثله أهل عصره من ذوي البلاغة والفصاحة، لسلوكه فيه مسلكاً لم يسلكه المتأخرون من أهل الإنشاء في زماننا بـل لو نسب إلى أحـد من أهل الإنشـاء المتقدمين المشهـورين بهـذه الصنـاعـة من القدماء العظماء لحكم لـه على أقرانـه لفصاحتـه وبلاغتـه وبيانـه كما قـال المكتوب إليه: ولعمري إنه من الطراز الأول الذي عليه عبد الحميد والجاحظ وأمثالهما.

وها أنا أذكره ههنا لأجل الأبيات التي هي مذكورة في غضـونه، ولم أنقـل من الكتب المكتوبة إلى شيـخ الإسلام المشتملة على ما يقرب من هذه الصنـاعة سـوى هذا الكتاب لما ستقف عليه من البلاغة وإن كانت عديدة سيما ما كتبه إليـه العـلامة الـوجيه عبـد الرحمن بن يحيـى الأنسي وغيـره مثل السيـد العلامـة عبد الله بن علي الجلال وغيرهما.

قال المكتوب إليه حفظه الله ولست بالحقيق ببعض البعض مما ذكـره في هذا الكتاب لما فيه من الغلوّ وتجاوز الحدّ وهو هذا:

مولاي وسيدي العلامة المحقق، بحر العلم الخضمّ المتدفق، بدر التمام، وشيـخ مشـائـخ الإسلام، الـذي أشرق قلبـي بفضله إشـراقاً وسقط الشـك فيه عن نفسي، فإني لو وصلت لساني بألسن البشر لذكره لتناهى بـي الفـراغ من الثناء عليـه دون أن تنفد مدائحه، ولضاقت حروف الهجاء دون أن تنتهي فضائله، فأنا من لُطم في لجّـة بحـر التقصير عن كنهـه وليس إقراري بمـا أقررت بـه من العجز عن درك بلوغـه بما يغني عن الإطناب فيه بقـدر طاقتي واجتهـادي من نشر منـاقبه، وكيف وأنّى السبيـل إلى تفضيله، بالكرم ولست رائياً منزلة فضل أنسبها إليه إلا وجدتها في الفضـل دونه ووجدتني مذبذباً حيران بين مسالك فضائله، فلا أنا نـائل صفـة باهـر فضله ولا طيبة نفسي عن الإمساك عن تقريظ فيـه فلما وقف الـرأي بين النكوص عن مـديحه وبين التشجّـع الـذي لا توضـع الكتب إلاّ بـه أحببت أن أحلّي كتابـي إليـه ومـدحي فيـه بكلمات أتمّم بهنّ مناقبه وإن كنت مقصّراً عن كنه فضائله وماذا عسى أن أقول فيمن ينازعني متناظرات محاسنه حتى وقفت لا أدري بأي معنى منهـا أبدأ من صفـاته مـع

خوفي أن لا يقع قولي من سامعيه مواقع التصديق إذ كنت واصفاً من لا يمكنهم في الألسن وجود مثله وأنّى وأين لهم أن يجدوا نظيره وهو الذي تسربل بالنّهى وارتدى بالتّقى، وتعطف بالحجى وائتزر بالحكمة وتتوج بالوقار وتطبّع بالجود ونُبل في المجد واغتذى بالكرم وَوُشح باللب وحكم بالفضل ونطق بالعدل، ورسخ بالفضل، فماء الحياء منحدر من أسرّة وجهه، وأغصان الدماثة مشتملة على أعطاف شمائله وسماء السخاء مطيرة من فروج أنامله، ولآلىء العلم متناثرة من بلاغات منطقه تراه مبتسماً عن بيِّن المودة، وقلبه باك بعين الرأفة والرحمة ليْسَتْ له عن غير النزاهة نهمة ولا في غير السيادة رغبة، تسامى عن اللذات بالصيانة، وتعطل عن الشهوات بالزهادة واشتمل بكل مكرمة فأصبح نسيج وحده، لا يقرن به نظير، ولا يعرف له شبيه، قد نقي كل خلاف بضده، وأعدّ لكل داءٍ دواءً ولبس لكل دهر لباسه ووضع لكل امرىء موضعه، وفتح أقفال المشكلات بحقائق البيان، وكشف أغاليط الجدال ببراهين الحجج، وأوضح متشابهات الفلسفة بدلائل الحكمة مفْهم إذا قال فهيم إذا سمع، يسبق بالفهم السمع حتى كأن فهمه سمعه إن خاطبه أحد بغير ما في قلبه استدل على ضميره بظاهر حركاته فقد قيّد الكلام بالبشر، وزجر عادية اللوم بالتذكر وتأمل أحاديث عدوّ استقل صولة القدرة وسطوة الأعمار بنجابة الرأي، وإيثار التثبت وعارض خواطر السوء بالنظر الثاقب، واتقى بما تبقى له من الذكر وتحرّز له من الأجر ويشيع له من الشكر، فأيّ غاية من العلم لم يأت عليها أم أيّ منزلة فضل لم يستكملها أم أيّ مرتبة مروّة لم يبلغها أم أيّ درجة مدح لم يعلها أم أي مزيّة قصّر عنها أم أي أحدوثة صدق لم تنسب إليه أم أي خطة فضل لم يف بها أم أيّ جادة برٍّ لم يسلكها أم أيّ عَطيَّة خيرٍ منعها:

فلا عدمت منك المعالي جمالها ... فرَوْضُ رباها في بقائك مونقُ
ولا فقدت منك الليالي تمامها ... فغيث نداك الجمّ فيهن مغدقُ
ولا فقد المحراب منك أنيسه ... فلألاؤه من نور وجهك مشرقُ
ولا فقدت منك المنابر زينها ... فأعوادها من وطىء رجلك تورقُ
مفرّج غمَّاها وكاشف كربها ... إذا القوم من صمّ الحوادث أطرقوا

تـرى العين منه واحـداً وهـو واحـدٌ كـمـالاً ولكـن بيـن جنبيـه فيـلقُ
فـلم يُـر أن أعيـا المفـوّه سـاكـت الجـواب ولا ثـرثـارة المتـفيْـهقُ
مكـارم يعيـا مصـقـعٌ عـن أقلّهـا ويحصـر منـطيق ويفحـم مفـلقُ
هو الشمس إشراقاً يُرى الجهل مغرب بمـوضعـه منـه ويجهـل مشـرقُ

كيف لا يكُون كذلك وهو الذي عرف الله حق معرفته، واستشعر خيفته واعتصم بطاعته، فتزهّد في النفيس من المتاع، ورضي من الأقوات بالمسك وحالف العفاف وقنـع بالكفاف، واجـتـزأ باليسير من الكسى، وارتوى بـالظمـأ، وقمـع الهوى وآثـر الآخرة على الدنيا، وملك الغيظ ولفظ الحرص فعكمـه بتكلم، وكأنّ المتكلم غيـره في سكون حركته وهدوء جوارحه ولين كنفه وانخفاض جناحـه، وأصالة عقله.

هـذا وإنـه ألـطف رَوْحـاً من النسيم، وأخفّ من الهـوى، وأدق مسلكـاً من النمل، وأعذب من المـاء الزلال، وهـو معدن الفـطنة، وينبـوع المعرفـة ومن غذي بلبان البيان والحكمة، والمقدم الرتبة وهو الداهية الدهياء، وأقضى القضاة، وأوحـد الوزراء، وهو الذي لم يقل بعد مخاصمتـه، وطول منـازعته لـو كنت قلت كذا وكـذا كان أفضل ولو لم أكن قلت كذا وكذا كان أمثل، ومن يتحلى بأوجـز حجته مـع أول خواطره، ومن لا تزال موارده على وزن مصادره وآخر فكره كأول بدائهه.

هذا وليعلم مولانا أطال الله بقاءه، أقسم بالله الذي لا يحلف بأعظم منه، لقد عبـرت زمانـاً وبقيت دهراً وأنـا باق على مـا كنت عليه وإني لأيـأس أن أرى مثلك، وبـالله لقد أعجبتني نفسـي حين فهمتـك، وحين أحسنت أن أحبّك وحين طمعت أن أحسن وصفك فهنيئاً لك في الدنيا الذكر الجميل وفي الآخرة الثواب الجزيل وهنيئـاً لـك ما تجـد من نفسك من عـز الإحسان ومـا ترى بعـدوّك من ذل الإسـاءة، وكيف لا تُحسد على ما أوتيت وما تدري في أي الحـالتين أنت أجمل، وفي أي المنـزلتين أنت أحمد إذا فرقناك أم إذا جمعناك أم إذا ذكرناك أم إذا تأملنا بعضك أم كفّك فهي التي لم تخلق إلا للتقبيل والتوقيـع، وهي التي يحسن بهـا كلما اتصـل بها ويختـال بها كل ما صار فيها فما أدري أألقلم في يدك أم الرمـح أم العنـان تمسكه أم الكتـاب الذي تنظر فيه.

واما قدمك فهي التي يعلم الجاهل كما يعلم العالم ويعلم البعيد والأقصى كما يعلم القريب والأدنى أنها لم تخلق إلا لمنبر رفيع أو ركاب طِرْفٍ كريم.

وأمّا فوك فهو الذي لا ندري أي الذي يفوه به أحسن وأي الذي يبدو منه أجمل، الحديث أم الشعر أم الاحتجاج أم الأمر أم النهي أم التعليم أم الوصف وعلى أنّا لا ندري أيّ لسانك أبلغ وأيّ بيانك أشفى أقلمك أم خطك أم لفظك أم إشارتك أم عقدك، وهل البيان إلا لفظ وخط وعقد وإشارة وأنت فوق الناس والحمد لله وأوحدهم، وأعيذك بالله وأنت تجوز الغاية وتفوت النهاية، فلا زالت لك الأرض مشرقة، والدنيا بك معمورة ومَجَالِسُ الخير مأهولة ونسيم الهوى طيباً وتراب الأرض عبقاً، وإن تفتيت فالرشاقة والقد، وإن تنسّكت فالرهبانية والإخلاص، وإن مزحت فثهلان ذو الهضبات ما يتحلحل، وإن تنمّرت فأسد رابض على براثنه، ومن هذا الذي تضعه أن يكون دونك أو يمتهن بالتسليم لك لم يعدّ إقراره إحساناً أو خضوعه إنصافاً أم مَن الشَّبِيْه لك في منزلتك ألست خلف الأخيار وبقية الأبرار، وأيّ أمرك ليس بغاية وأي شيء منك ليس في النهاية وهل فيك شيء يفوق شيئاً أو يفوقه شيء أو يقال له لو لم يكن كذا لكان أحسن ولو كان كذا لكان أتمّ وأنّى الحسن الخالص والجمال البارع والملح المحض والحلاوة التي لا تستحيل، والتمام الذي لا يحيل إلا عندك أو فيك أو لك أو معك خالصة لك ومقصورة عليك لا تليق إلا بك ولا تحسن إلا فيك فلك منه الكل وللناس البعض، ولك الصافي وللناس المشوب.

هذا سوى الغريب الذي لا نعرفه والبديع الذي لا نبلغه، لا بل الحسن المصمت، والجمال المفرد والخلق الغريب والفضل المشهور إلا لك أو فيك، وهل على ظهرها جميل حسيب أو عالم أريب إلا وصلك أكبر من شخصه وظنّك أبلغ من علمه، واسمك أفضل من معناه وحلمك أفضل من نجواه وصمتك أفضل من فحواه وهل في الأرض حليم سواك، وهل أظلّت الخضراء ذا لهجةٍ أصدق منك، وهل حملت النساء أجمل منك، فأحمد المنعم عليّ بصحبتك والناظم لي في جملتك، فلا زال من تراخي عمره ومهلة بقائه، وتنفيس أجله، ودرك أمله، في صالح عمله ومماطلات الأيام به في حراسة نعمته، ونفوذ كلمته، وسلامة روحه

وبدنه إلى انقضاء الدهر ومرافقة الصالحين في جنته، التي وَعَدَ الرحمن عباده بالغيب ولا زال رخيّ البال كثير التصديق آمين.

وليعلم مولاي أبقاه الله، وأهدى إلى مقامه الشريف شريف السلام على مرّ الليالي والأيام أني ما أطلت هذا الكتاب آمناً من ملامه ولا جاهلاً لاشتغاله ولكني أردت أن أحلّي مدحتي بمديحِهِ:

ولـيس مـديحي زينـة لـمحـمـد ولـكنـني زيّنـتـه بـمـحـمـدِ

نعم ولكني أسألك بحق التوحيد، وبحرمة الإسلام إلاّ نظرت في هذا الكتاب قبل ظهوره، وتصفحته قبل انتشاره فإن عيبي راجع إليك ومن لم يحمل ضعيفه جل ضعفه، ومن لم ينصر مولاه عجز عن من ناواه، وفي حفظ الله لا برحتم والسلام.

قال المكتوب إليه شيخ الإسلام أدام الله حياته وبارك للمسلمين في أوقاته: أقول: أنظر أيها الفطن إلى هذا الديباج الخسرواني والدر الجوهري ما أجزله وأبلغ معانيه، وأثبت مبانيه، وتأمل هذه الطريقة التي قد تصرّم أهلها منذ أزمان مع تجنّب الوحشي من اللغة، والبعد عن السجع الذي اعتاد المتأخرون، وإشباع المعاني وإسباغ الألفاظ فإنك إن أنصفت ولم تقصّر بالمعاصر، وكنت من علماء المعاني والبيان وممارساً للأدب، علمت أنه فوق إنشاء كثيرين من الكبار المتقدمين في الأعصار بمراحل، ولا عيب فيه إلا أنه في مدح من لا يستحق منه قليلاً ولا كثيراً ولا هو منه في قبيل ولا دبير، ولكن هكذا لسان المحبة.

ويتلو هذا كتاب كتبه إلى شيخ الإسلام ـ السيد العلامة الأديب عبد الله بن علي الجلال عافاه الله تعالى، وكان المكتوب إليه في مدينة رداع صحبة الإمام المعظم المتوكل على الله أحمد بن الإمام المنصور رحمه الله سنة ١٢٢٥هـ ولفظه:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم

الحضرة المشرفة العليّة، والأربع المنيفة العمليّة العلميّة، معدن الآثار، والعلوم النبويّة ومحط رحال كل مكرمة سنيّة، حضرة مولانا وأستاذنا إمام الزمان،

وترجمان البيان ذي الشرف الباذخ، والنسب الراسخ، والحسب الشامخ حاكم المسلمين، وعون الضعفاء والمساكين أجمعين، مَنْ أقام الله به مرابع الشريعة المحمديّة، وشيّد به أركان الخلافة المتوكلية، بدر الأنام وشيخ الإسلام العالم الرباني، محمد بن علي الشوكاني، لا زالت آيات فضله على صفحات الليالي والأيام بيّنات، ومحامد خصاله على صفايح الصحائف مدونات، ولا بَرِحَتْ سرادقات الهيبة والاحترام من خلفه وبين يديه، وألوية التأييد بالرأي السديد خافقة عليه وأهدي إليه من سلامي تحية يفوح نشرها فهي كالمسك تنثال:

تحية ودٍّ ما الفرات وماؤه   بأعذب منها وهو أزرق سلسالِ

ورحمة الملك العلام، وبركاته على الدوام.

صدرت الحقيرة لأهدي جزيل السلام، وتقبيل بواطن الأكف والأقدام، وتذكاراً للوداد وتجديد العهاد، والحمد لله رب العالمين على عافيتكم التي هي المراد من رب العباد، والله يحفظ مولانا أمير المؤمنين وسيد المسلمين، صاحب الفتكات والسطوات الحيدرية الإمام بن الإمام بن الإمام المتوكل على الله أبي عبد الله أحمد بن الإمام المنصور بالله، وأحاط حضرته العليّة، بالسّمر والصفاح، وسدّد رأيه بالنجاح والفلاح آمين اللهم آمين، وصدرت طيّها هذه الأبيات الخراب التي هي من بحر السّراب، تقصّ لكم بعض أشواقي، وتخبركم عن صدق مودتي واشتياقي:

شوقي إليك مع البعاد تقاصرت   عنه خطاي وقصّرت أقلامي
واعتلّت النسمات فيما بيننا   ممّا أحمّلها إليك سلامي

ولله درّ الشيخ ابن الفارض[1]:

فلو أنّ ما بي بالجبال وكان طور سينا بها قبل التجلّي لدكّت

(١) ابن الفارض: هو عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي الأصل المصري المولد والوفاة، عالم متصوف له أخبار في ذلك وشاعر محسن وديوانه مطبوع. كانت ولادته سنة ٥٧٦ ست وسبعين وخمسمائة ووفاته سنة اثنتين وثلاثين وستمائة. ابن خلكان (ج ٣ ــ ١٢٦).

ونحدّثكم بعجائب الأخبار عما وقع بالمدينة المحمية بعد أن شط منكم المزار فلقد تحكمت فيها الأنذال والجهال، وتعظّم الأغمار والأرذال، وتحككت العقارب بالأفاعي، وأخفقت بالبغي المساعي:

فلمّا نأيتم هان كل معظمٍ وكل عزيز عاد غير عزيز

وذهب العدل بُعدكم، ذهاب أمس الدابر، وظهر الجور ظهور البدر السافر، وضاقت المذاهب والمسالك، وقد أشرنا في النَّظْم إلى شيء من ذلك، فلا أطيق أعدد لكم ما وقع من العجائب، وما اتفق بعدكم من النوادر والغرائب.

عجائب لاتحصى ولو أن بعضها كتبناه ضاقت عنه كل الدفاتر

وما هذا إلا من دلالة القليل على الكثير، والذرة على الفيل، ونحن بحمد الله في خير وعافية، ولم يكن لنا شجن غير فراقكم والوحشة العظيمة لبعادكم.

فلأنت في صنعاء المدينة ملجأ الضعفاء والعلماء والفضلاء

حفظكم الله[1] ــ وقد فعل في خير مقيم، وسرور ونعيم وجمع شملنا قريباً غير بعيد، فهو الحميد المجيد.

فيا ليت ما بيني وبين أحبّتي من البعد ما بيني وبين المصائب[2]

وما أقول إلا كما قال:

لإن عاد جمع الشمل في ذلك الحمى غفرت لدهر كل ذنب تقدّما
وإن لم يعد منّيت نفسي بعوده وما ذا عسى تجدي الأماني وقلّما
يحق لقلبي أن يذوب صبابةً وللعين أن تجري مدامعها دما
على زمن ماض بكم قد قطعته لبست به ثوب المسرَّة مُعلما

وليس المراد من هذه إلا استمداد صالح دعائكم لولدكم الحقير:

---

(١) كان في الأصل: جعلكم الله بهذا الوضع والإهمال فأصلحناه كما ترى.
(٢) البيت للمتنبي.

فالقصد دعوةُ خيرٍ منك صالحة   لمن يودّك فهو المغرم الكلف

وهو لكم مبذول كما يعلم الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار فالألسن جميعاً معلنةٌ لكم بالدعاء، من الصغار والكبار ومنّا الدعاء، ومن الله الإجابة نسأله الهداية والإصابة، فقد فزتم بالفضيلة الدنيويّة والأخرويّة وظفرتم بالمقامات العليّة، ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر، والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً، درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾[1].

فنظمنا الله وإياك في سلك عباده الصالحين، وجعل الأعمال خالصة لوجهه الكريم آمين آمين، والبدار البدار البدار:

فقد أوحشت من صنعاء ربوعاً   سلبت جمالها ثوب البهاءِ
قلوب أنشدت مذ غبت عنها   جهاراً وهي معلنة الدعاءِ
إلهي جد بجمع الشمل فضلاً   جزيل السّؤل يا مولى العطاء

وحال صدورها من الروضة البهيّة حرسها الله، وقد خرج ولدكم على انفراده ترويحاً للطباع بالبعد عن الناس، وفراراً من المشاق الواقعة في صنعاء التي تتصدع لها الأنفاس، والرحلة من مقام إلى مقام، واجبة على من أقسم أنه لا يضام، ولله الشريف الموسوي حيث قال[2]:

ما مقامي على الهوان وعندي   مقول صارم وأنف حميّ
وإباء محلّق يرع الضيم   كما ريع طائر وحشيّ
أيّ عذر له إلى المجد إن ذلّ   غلام وغمده المشرفيّ

---

(١) سورة النساء: الآيتان ٩٥ ـ ٩٦.

(٢) الشريف الموسوي هو المشهور بالشريف الموسوي الرضي واسمه محمد بن الحسين . كان شاعراً فحلاً يقال إنه أشعر الطالبيين ، وله ديوان شعر كبير قد طبع وكانت ولادته ببغداد سنة خمسين وثلاث مائة ووفاته بها سنة ست وأربعمائة . ابن خلكان (ج ٤ ـ ٤٤).

والأحوال لدينا سارّة قارّة بحمد الله، ولا تروا فقد كـان كتب هذه الإشـارة في تلك البليدة:

مـا بين قـوم كـالحميـر طبـاعـهم | وفعـالـهم كـالحـيّـة الـرقـشـاءِ
نـاس لئـام مـا لـهـم مـن مشـبـه | فـي جـرأة وصـلافـة وجـفـاءِ
مـا فـيـهـم رجـل رشـيـد عـاقـل | أبـداً وكـلـهـم مـن الـغـوغـاءِ

فلا تروا وأسبلوا على ذلك ثوب الستر فأنتم محل إقالة العثرات والهفوات جعلكم الله أهلاً لذلك على ممر الشهور والسنوات والسلام التام ختام وعقّب هذا الكتاب بهذه القصيدة:

لم أجـر دمـعـاً مـن فـراق مليحـة | خـرعـوبـة مـن سـاكـنـي نَـعْمـانِ
كـلّا ولـم أرع السُّـهـا من فـقـدهـا | جنح الـدجى كـالـهـائم الـحيـرانِ
ليس البكـاء من الـصبـابـة شيمتي | فـي حـبّ آنـسـة مـن الـغـزلانِ
لـكـن بـكـيـت دمـاً لـفـقـد أحبّـة | بـانـوا عـن الـخـلّان والأوطـانِ
تـركـوا رُبـى صـنعـا الـرحيـبـة منزلاً | لـلـبـوم والـغـربـان والـعـقـبـانِ
هجـروا مُهـاجَـرَهـا فحلَّ بهـا الـردى | فـقـصـورهـا لـلـيـث والـسـرحـانِ
حتى أقمنـا فـي الـمـديـنـة مـا لنـا | حـصـن مـن الأرزاء والـحـدثـانِ
لـكن أنـخـنـا بـيـن شـر عـصـابـة | جبلوا عـلى الـطغيـان والـعصيـانِ
مـا لـلـضـعـيـف ولـلـضعيـفـة منـصـف | أو مـنـقـذ مـن جـائـر أو جـانـي
وغـدا الـبغـاث بـأرضـنـا مستنسـراً | والـبـق يـفـتـك فـتـكـة الـثـعـبـانِ
صف لـلأحبـة حـالنـا من بعـدهـم | فـي بـلـدة مـن خـيـرة الـبـلـدانِ
لكنـه قـد شـانهـا مـا قـد جـرى | فـيـهـا من الـتـنـكـيـد والـعـدوانِ
لفـراق قـاضي المسلمين محـمـد | قـد أصـبـحـت فـي ذلـة وهـوانِ
أعـني بـه شـيـخ الأنـام محـمـد بن | عـلي بـن مـحـمـد الـشـوكـانـي
عـلّامـة الـدنـيـا وواحـد دهـره | إنسـان عين الـعـالـم الإنسـانـي
القـاضي الـورع الـمقيم شـريعـة | الـمـخـتـار فـي الإسـرار والإعـلانِ
ومـشـيِّـد الـعـلم الـشـريف بـدرسـه | فـي كـل آونـة بـغـيـر تـوانـي

ومعظّم العلماء والفضلاء والأدباء والنجباء والأعيانِ
صدرت إليك مع النسيم تحية ملء الفضا مني مدى الأزمانِ
أودعتها في ضمن مدح قصيدة نظّمتها كالدر والمرجانِ
في طيّها الشكوى[1] إليك من الذي شاهدت لما غبت من طغيانِ
فلأنت كهف العالمين وناصر الضعفا وأنت العالم الرباني
والله يجمع شملنا في نعمة وسلامة وبشائر وتهاني
وبقيت عوناً للعباد مسدداً في الرأي محروساً بكل مكانِ
ما غرّد الحادي وردّد منشداً الرأي قبل شجاعة الشجعانِ

وكتب إليه المذكور هذه القصيدة مادحاً بها مجلس الدرس في بيت شيخ الإسلام رحمه الله:

يا لها حضرة عليها من الفضل رواق ونور علم منيرُ
حضرة للعلوم في سوحها نشر وذكر وللهدى تقريرُ
حضرة سنّة الرسول لها فيها نَفَاقٌ وطول شرح ونورُ
حضرة من أقام فيها تولى الهمُّ عن قلبه وحلّ السرورُ
حضرة حلّقت بها السادة الأعلام أهل الذكاء الهداة البحورُ
حضرة للملائك الغرّ فيها مستقرٌ ومهبط ومسيرُ
حضرة العالم الكبير إمام العصر والمسند الحديث الشهيرُ
شيخنا البدر مفتي العصر ركن الدين فرد العلا الأغرّ الخطيرُ
صدر دست القضا وكهف اليتامى وملاذ الذي به يستجيرُ
زاهدٌ لا مداهنٌ في طريق الحق ذا غُنية وليس يجورُ
والذي لو تمثّل العلم ما كا ن على غير ذاته مقصورُ
كل فضل وكل علم حواه فله في الزمان عزّ نظيرُ[2]
يا أبا الفضل خذ سطوراً من الشعر قصاراً ما شابها التقصيرُ

---

(١) كان في الأصل: «السوا» ولا معنى لذلك.
(٢) في الأصل: عز النظير فأصلحناه كما تراه.

مـن مـحـب يـهـواك طـبـعـاً ويـهـوى حضـرة طـيـب ذكـرهـا مـنـشـورُ
ليس يـرضى سـواك لـلمـدح أهـلاً من بني الـدهـر مـا تمـرّ الـدهـورُ
وعـلـيـك الـسـلام مـا دامـت الـشـهـب ومـا دامـت الـبـدور تـدورُ

وممّـا كتبه إليـه السيـد العـلامـة عبـد الـوهـاب بن الحسين بن يحيى الديلمي رحمه الله :

لقـد أبـرمـوا في مهجتي عقـد الهـوى بكف النـوى حتى أيست من الـنقضِ
فبت بـطـرف لا يـسـاعـده الكـرى يـرى كـل سـار في السمـاء ومنقضِ
يـراقـب أسـراب الـنـجـوم بـمـقـلة معـذّبـة قـد حـرّمت سنـة الغمضِ
وقـد قيـل لي إن النجـوم لفي السمـاء فلِمْ تـرتقـبهـا والأحبـة في الأرضِ
فـقلت عـلى هـذا استـمـرّ تـأرّقي فـلا تعجبـوا إن الغـرام بـذا يقضي
وكـم لامني في لـوعـتي ذو مـلامـةٍ وهل لام ذا عشق سوى دنس العـرضِ
كمن لامني في حب صـنعـا فـزاد في غـرامي وقـابلت المـلامة بـالـرفضِ
حمى الله صنعـاء قصـر سـام ودام في معـاهـدهـا للخيـر بسط بـلا قبضِ
مَحَـاسِنِ أمصـارِ المحـاسن عن يَـدٍ لَـديهَـا على القسم الأتمّ من الحَضِ
حوت كل حسن فهي في خـطط الدّنـا تفـوق بكل الحسن فضـلاً عن البعضِ
سقـاهـا الغمـام المـطلخمّ عشيّـةً بـغيـث كمـنـثـور الـلآلـىء مـرفضّ
يـعـمّ ثـراهـا والـوهـاد فـتـنـثـني عروساً كسـاها المـزن بالـورق الغضّ
فتصبح في ثـوب الجمـال مضـرّجـاً بنوّارها المنثـور في السندس المحضِ
فـهـل حـلّة الـطاووس إلا ريـاضهـا تفـوق بمـخضـر وتـزهـو بـمبيضّ
وهل شابه الفردوس في الأرض غيـرها وإن قصرت في الطول عنها وفي العرضِ
فكـل نبيـل مغـرم بـوصـولهـا[١] يـرى أن سكنـاهـا عليـه من الفـرضِ
نجيء[٢] إليهـا بـاشـتيـاق ولـوعـةٍ كـذي ظمـأ يصبـو إلى العلل البـرضِ

(١) كذا في الأصل ولعلها بوصالها.
(٢) كان في الأصل يجـيء إليها بالياء المثناة من تحت فجعلناه بالنون ولو قيل يحن إليها من الحنين لكان أنسب.

فلو لم يكن فيها سوى مَنْ نظيره
يقلّ على كرّ الليالي التي تمضي

ومن هو شمس في سماء الكمال قد
محى نيّرات الأفق من شدّة الومضِ

وذو همّة ساوت به النجم ناهضاً
وهل غيره إلا ثقيل عن النّهضِ

وأعني به المولى العظيم محمداً
هو ابن علي مَنْ شمائله ترضي

مجدِّد أعلام العلوم ومَنْ به
بسنة خير الرُّسل رفع بلا خفضِ

ومن حاز في مضمار كل فضيلة
من السبق الضليع على الركضِ

فدمْ رافعاً أعلام سنّة أحمد
مبيداً لأوثان الجهالة بالهضّ

* * *

﴿أشعار الشوكاني الإلاهيات والمناجاة﴾

ومن بعض أشعار شيخ الإسلام حفظه الله الإلاهيات ومناجاته الربّانيات، وبعض توجّعاته من جهلة أهل زمانه لمّا سعى كتب الله سعيه في كشف المظالم، والأخذ على يد كل ظالم وسلوك الجادة المرضيّة من السيرة النبويّة، والرفق بضعفاء الرعيّة بإسقاط بعض المطالب الدوليّة في جميع الجهات المنتظمة في سلك الدولة المنصوريّة في سنة ١٢٢٢هـ فوافقه على ذلك إمام العصر الإمام الأعظم المنصور بالله علي بن الإمام المهدي العباس وبادر بالأمر بهدم دكاكين المكوس المتخذة للجبايات فهدم منها ما بأبواب مدينة صنعاء جميعاً وذلك في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وكتب شيخ الإسلام رسالة إلى جميع البلدان تتضمن ذلك وأنه :

* * *

﴿رسالة الإمام الشوكاني برفـع المكوس﴾

لا يؤخذ من الرعايا سوى القدح العاشر والفطرة وترك جميع ما عدا ذلك من جميع اللوازم وإن الرعايا لا يجيبوا مَنْ دعـاهم إلى غير ذلـك وأن ليس عليهم إلا ما أوجبه الله، وأمر الإمام المنصور رحمه الله كافة وزرائـه بكتب تلك الرسـالة وإرسـالها إلى جميـع العمـال في جميـع البلاد ففعلوا ذلـك وستأتي صـورة تلك الـرسـالـة قـريبـاً بلفظها.

فلمـا رأى الوزراء ومن بـأيديهم من أعيـان الدولـة من الأعوان قـد أخـذ على أيديهم وتعطلت عما يعتادونه من أخذ أمـوال الرعـايا ظُلمـاً وجـوراً سعوا في إبـطال ذلك على جهة المكر والخداع، وجاءوا بأمـور يترتب عليهـا بزعمهم ضعْف الـدولة وعدم القيام بمحتاجاتهـا من أرزاق الأجناد والكفـاية واللوازم المعتـادة وأعانهم على ذلك بعض مشـايـخ من أهل العلم والتدريس في الفنـون المختلفة، وكـان منظـوراً من أكـابر علمـاء أهل العصـر لأنه كـان يصير إليـه من ذلـك القـطيـع شيء، فـرأى انقـطاعه عليـه رحمه الله ورضي عنـه، فما زالـوا يسعون في هـدم ذلـك بكـل حيلة ويتوسلون في إبطاله بكل وسيلة حتى بلغـوا إلى مقاصـدهم الشيطانيـة بإرجـاع تلك المطالب الطاغوتيّة حسبما كانت سابقاً فلما بلـغ ذلك شيـخ الإسلام وعلم أن إعادة الخوض في ذلك لا تجدي نفعاً قال:

تعاضدتم بغياً لردّ المظالم   وقمتم لدفع الحق لا عن تكاتمِ
وراغمتم الدين الحنيف وصلْتم   على من دعا للحق صَوْلة ظالمِ
وحلّلتم ما حرّم الله جرأة   على الله من بعد اتضاح المعالمِ
وأنكرتم تحريم مكسٍ وقلتم   على حلّه قد جاء قول لعالمِ
كذبتم ورب العرش ما قال قائل   بتحليله في دهرنا المتقادمِ
ألم تعلموا قول الرسول لخالدٍ   وقد سبَّ من حدّت بأحجار راجمِ
رويداً بمن لو تاب ذو المكس مثلها   لباء بعفوٍ من كريم وراحمِ
وقد صان رب العرش أعلام عصرنا   ومن قبلهم عن موبقات المآثمِ
وها هم على ظهر البسيطة فاسألوا   تروه لديهم من أشرّ المظالمِ
وحاشى لأهل البيت أن يأذنوا به   وهم صفوة الرحمن بين العوالمِ
فيا جاهلاً هذي النبيّ وأهله   وأصحابه والتابعين الأكارمِ
أتكذب جهلاً لا أبا لك عامداً   وتأكل سحتاً بئس طعمة طاعمِ
فما المكس إلا فوق كل محرّم   وما المكس إلا من أشد الجرائمِ
وما باعتياد الظلم يذهب حكمه   لدى كل مُفْتٍ في الأنام وحاكمِ
فيا منكراً في المكس ما قلت أنت في   ظلالٍ وجهل فوق جهل البهائمِ
ويا منكراً ما قلت في العدل في الورى   وأخذ الذي في حكم أعدل حاكمِ
وكفّ يد العدوان عن كل مسلم   سوى ما أتى في شرع رب العوالمِ
ورفع ظُلامات على الناس قد غدت   ترى عند أهل الظلم ضربة لازمِ
كمثل سياسات وتلك هي التي   غدت في زمان الجور إحدى المظالمِ
فتؤخذ أموال العباد تجرؤاً   على الله جلّ الله عن غشم غاشمِ
وكم من حدود أوجب الله حكمها   يدافعها قوم بقبض الدراهمِ
وكم من عقوبات أتت بأدلة   تباع بنزر من خبيث المطاعمِ
وكم من دماء قد توافر أرشها   إلى كفِّ شيطان قبيح المآثمِ
وكم حرمٍ لله تنتهكونها   وما فيكم من خاف لومة لائمِ
فهذه سياسات لديكم وربما   تقولون آداب لأهل الجرائمِ

كمـا جعلوا ظلم الرعـايا بمـالهـا | حقـوقاً خـداعاً وهي عين المـظالمِ
وكم من ظـلامـات تـسمـى لـديهـم | بغيـر اسمهـا سـتـراً لهـا في العـوالمِ
يـقـولـون هـذا دفعـة ثـم هـذه | لـدينـا قَبـالٌ أو جـريـمـة جـارمِ
وذي فـرفـةٌ فـاعلم بهـا أو معونـة | وتـلـك إذا حـقـقـت أقـبـح مـآثـمِ
وهـذي مكـوس كلهـا غيـر أنهـا | تـروج على فهم امرىء غيـر فـاهمِ
فيـا منكر المعـروف من دين أحمد | جهلت ولكن فـوق جهـل البهـائمِ
لـك الويـل هـذا في الشريعة قـاطع | ومن أنكـر القـطع عـظيم الجرائمِ
وقـد كفّـر الأعـلام من رد قـاطعـاً | من الشرع وهو الحق عند التخاصمِ
فيـا معشـر الأعـلام في كـل بـلدة | وهـذا نـداء شـامـل كـلّ عـالـمِ
أتـنـكـر أقـوام إذا قـال قـائـل | قضى ربّنـا تحـريم كـل المـظالـمِ
وقـال بـأنّ الله أوجـب في الـورى | سلوك طـويق العدل من كـل قـائمِ
أبينـوا أبينـوا إن ذا عـهـد ربّـنـا | عـليكـم وإن الـعهـد ألـزم لازمِ

وقد كان شكر الله سعيه قبل ظهور الأشعار بالسيرة النبوية من العدل في الرعية قال متوجعاً من الظلم:

رعـايـا اليـمن الـمـيـمـون | أضـحـوا مـا لـهـم راعـي
فـلا العدل يـرجـون | ولا الـردع لـطمّـاعِ
ومـال الـنـاس قـد وزّع | ظـلـمـاً بـيـن أوزاعِ
فـهـذا بـيـد الـوالـي | وهـذا بـيـد الـسـاعـي
وهـذا نـهـب خـوّان | وهـذا نـهـب خـدّاعِ
وهـذا عـنـد جـمّـاع | وهـذا عـنـد مـنّـاعِ
فـيـا بـاري الـبـرايـا يـا | مـجـيـبـاً دعـوة الـداعـي
ويـا فـاتـح أقـفـال | قـلـوب ثـم أسـمـاعِ
أرح خـلـقـك مـن جـور | ومـن خـوف وأفـزاعِ
وذدْ عـنـهـم مَـنْ | أفـظـع فـيـهـم أي إفـظـاعِ
وحـبّـبْ مـنـهـج الـعـدل | إلـى الـمـرعـي والـراعـي

فيا ربّاه قد كثرت ... في ذا الأمر أطماعي
وأرجو أنني في نشره ... في العالم الساعي
وكم قد جئت ذاك الباب ... أرجو فتح مصراعي
وقد أعددت أقتابي ... وأحلاسي وأنساعي
فطوّل لي إن قصرت ... عجزاً عنده باعي
وكن لي ناصراً في كل ... إبطائي وإسراعي
فيا فتّاح جد بالفتح ... للباب لقرّاعِ

وقال متّعه الله بحياته في آخر أيام المنصور بالله لما تشعبت الأمور وحصل التفاشل والتخاذل في أهل دولته، وخيفت السّبل والعباد، وانقطعت الأسباب والمواد ولاح إقبال إدبار النحوس، بعد إرجاع المظالم وتأسيس المكوس:

نداء لكل الناس فالأمر أعظم ... وإن أمير المؤمنين المقدمُ
فأمر جميع الناس في كل موطن ... إليه ومنه العقد والحل ألزمُ
وناد بنيه الغرّ سادات عصرنا ... فإن بهم عقد المعالي ينظمُ
وناد بني المنصور قاسم الذي ... بنى لهم مجداً يجلّ ويعظمُ
ولست أخص الفرد منهم بمثل ذا ... ولكنني للكل منهم أعمّمُ
وناد رجال العلم جهراً فإنهم ... بما جاء في كتم البيانات أعلمُ
وهم ورثوا المختار فيما أتى به ... ووارث هذا الدين فيه المقدّمُ
وناد رجال الطعن والضرب كلّ من ... له عند يوم الروع طِرف ولهذمُ
وكل فتى يسعى إلى الحرب طالباً ... مناصرة للحق والحق أقْدَمُ
وقل للذي ناديت من كل فرقة ... أفي يقظة أم أنتم اليوم نوَّمُ
وما لكم عقل إذا كان دينكم ... به طار ما بين البريّة قشعمُ
أما لكم فكر فكل مفكر ... يؤخر رجْلاً فيكم ويقدّمُ
فحيناً رموكم بالجنون وتارة ... يرونكُمُ في سكرة تتغمغموا
وكم قائل قد صرتم مثل آلة ... يقلّبها في كفّه الدهر أبْكَمُ
وآخر قال الأمر أدبر عنكمُ ... فدبّركم من ليس للرشد يفهمُ

وكم قد أطالوا القول في ذا وإنه حقيق بأن القول فيكم يعظمُ
وأصدق من هذا وأولى بأنكم تركتم أموراً وهي أولى وأحزمُ
فأوّلها لم تقبلوا نصح ناصح يرى أنه فيما ينوب المقدمُ
وثانٍ لها قدّمتُم في أموركم غبياً إذا شدتم بناءً يُهدَمُ
يحلّ أموراً محكمات عقودها وفي كل حين رأيه يتصرّمُ
وحاشاه من غش لكم غير أنه جهول لرأي الرشد إن لاح مغنمُ
أفي كل عام يجمع الجند مرسلاً لهم بغرامات تجل وتعظمُ
وإن شارفوا فتحاً يدعهم وما لهم لديه وإن ماتوا من الجوع مطعمُ
وسل من حسين بن أحمد كم تقطعت إقاماتهم فهو امرؤ ليس يكتمُ
وما قبل هذا الجيش في كل مرة فليس لهم شيء سوى الجوع يهزمُ
وقد كان هذا الناس في راحة بما دفعنا به النجدي فقام يهدمُ
وأهلك رسلاً منه جوعاً سفاهة وذلك عار في البرية مؤلمُ
وكم أوحشت أفعاله صدر مخلص يدافع غيظاً في الجوانح مُبْرمُ
وأوحش ما بين الإمام وأهله وأولاده وابحث إذا كنت تفهمُ
وأيدي جميع الخارجين بسوء ما يدبره صارت تجلّ وتعظمُ
ولولاه ما صاروا ملوكاً وأنتم أجلّ وأولى في الصدور وأعظمُ
فهل لكم ذبّ على الملك فهو قد غدا مغنماً بين الأنام يقسّمُ
بنادركم فيها حمود وهذه زبيد وحيس والرزية أضخمُ
وبيت الفقيه ابن العجيل وبعدها حفاش وملحان مغانم تغنمُ[1]
وقد عزموا من بعد ذا أن يخيّموا على باب صنعا وهي أعلا وأكرمُ
فقل لأمير المؤمنين إلى متى يدبّر أمر الملك من ليس يفهمُ
أتسمح بالملك العقيم لأجله تريد رضاه وهو للملك يهدمُ
تدارك أمير المؤمنين الذي بقي فعمّا قليل ليس يغني التندّمُ

---

(١) حفاش وملحان مخلافان في الشمال الغربي من صنعاء. انظر: صفة جزيرة العرب، والجزء الثاني من الإكليل.

فـإنك مَحْبُوبٌ إلى النـاس لا مـراء ... ولـكنّـه يُـنكـي الـقـلوب ويـؤلـمُ
فـأيّ بـلاد مـن بـلادك قـبـل مـا ... تـوسـطه في مـلك غـيـرك يـنـظمُ
فـمـا خـرجت إلا بـسـوء صنيعـه ... وأنـت بـذا يـا ابـن الأكـارم تـعـلمُ
وكـل مـصـاريف الـبـريّـة قـطعت ... ومـن قـبله كـانـت إلـيهـم تـقـسـمُ
وكم من جـرايـات ومن كسـوة ومـن ... ضحـايـا رأينـاهـا لـديـك تقسمُ
فلمّـا أتى لـم يبق منهـا بقيّـة ... وأنـت بـذا يـا ابـن الأئمـة اعْـلَمُ
وقـد كـان وجـه الملك فيما علمتـه ... يـروق وفـي ذا الـوقت أغبـر أقـتـمُ
تقـاصـر عنكم كـل مـا تعهـدونـه ... وأعـوزكـم بـين الـبـريّـة مـطعـمُ
وقـد نـال أرحـامـاً لـكم وقـرابـة ... من الفقـر أوصـافـاً تجـلّ وتـعـظمُ
وصـاروا بـأبـواب الـرجـال أذلـةً ... ولـيس لـهـم من مكـرم قط يـكـرمُ
وهـانـوا وقـد كـانـوا ملوكـاً أجلّةً ... وصـاروا إلـى حـال يـضـرّ ويـؤلـمُ
ألـست تـرى أبنـا أبـيـك فـأنـهـم ... غـدوا يسألـون النـاس والأمـر أعـظمُ
فلو شـاهـد المـهـدي أولاده كمـا ... نُشَاهِدهم أضحى لـه الـدمع يسجمُ
رعـايـاكم مـاتـوا من الجـوع جهرة ... ومـات رجـال فـضلهم ليس يُكْـتـمُ
ومـا ذاك من جـدب ولكن تقـطعتْ ... لهم سبـل يجري لهـا الدمعُ والـدمُ
ولم تـدفعـوا عنهم عـدواً مضعّفـاً ... ولـم تـرحمـوا والله بـالـخلق أرحـمُ
وكم نـاصـح لم تقبلوا منـه نـصحـه ... وإن جـاء بـالحق الـذي هـو ألـزمُ
ومن جـاء بـالـرأي الصحيح أبَيْتُمُ ... وقـلتـم لـه رأي الـوزيـر المـقـدمُ
فهـل لكم من يقـظة بعـد نـومـة ... أبينـوا لنـا أم أنـتـم الـدهـر نُـوَّمُ
وهـل لـكـم ذنبٌ عـلى الـملك إنـه ... عـلى جـرف هـارٍ غـداً يـتـهـدمُ
إذا أنـتـم لم تـقـبلوا مـا أقـولـه ... فـلا بـدّ منكـم أن يـطول التنـدّمُ
فيـا ربنـا اشهـد لي عليهم فـإنّنيْ ... نَصحت وغيـري صَـار للنُصح يَكتُم

وكتب إليـه بعض الأعلام في صـدر سؤال سألـه عنه ـ هـذه الأبيات وأجاب عنها وعن السؤال:

يـا خـاطـر بـالبـال مـا زالت لـه ... خـطرات تـشـكـيـك علـيّ أراهـا
إن كـان وجـهـك لم يـزل متقلبـاً ... لأولـيـنّـك قـبـلةً تـرضـاهـا

ذاك الـذي بعلومـه قـد أشـرقت　　شمس فـدلّ على الخفيّ ضيـاهـا
عـز الأنـام الـفـذ مـن هـو آيـةٌ　　جلّت فكـل الـعـالـمـين تـلاهـا
كشّـاف ليـل المظلمـات بفـطنـة　　لـمـا أنـار على الأنـام سـنـاهـا
ألقت إليـه المعضـلات زمـامهـا　　فتـراه يهـدي كـل مـن قـد تـاهـا
لا غـرو إن جهـل الجهـول عليـه في　　صنعـاء وأبـدوا غـفـلة وعمـاهـا
فـالجاهلون لكـل قطر في الـدّنـا　　أعـداء أهـل العلم منـذ بـراهـا
أنـظر إلى ابليس اللعيـن وجهـلـه　　أبْـدى على الملك العليم سفـاهـا
وتـأسَّ بـالعلمـاء قبلك والـذي　　جهـلوا عليـه تلق فيـه شفـاهـا

فأجاب عن السؤال حفظه الله وعن الأبيات بمثلها وهي كما ترى:

يـا نـاظم الـدرر البهيـة أشـرقت　　منـك القـريحـة واستنـار سنـاهـ
بمـا[1] صـاغتـه لا بـرحـت على　　مـرّ الليـالي لا بـرحـت ثـنـاهـا
قـد حملت كف الجمـال من العـلا　　حمـل الكمـال لـذا غـدت تتنـاهـا
فـتـنـافس الآداب فـيـه لأنّـهـا　　لـمّـا انبـرى لـلنـظم شـاد بنـاهـا
لا زلـت يـا ابن محمـد في رفعـة　　مـا ألبست منـك العلوم حـلاهـا
وبقيت تـنشـر مـا طـوتـه فتْيـةٌ　　الحط في سـوق الكسـاد رمـاهـا
وعليـك يـا نجـل الإمـام تحيـة　　مـا نـالت الآداب منـك منـاهـا
وحبـاك بـالمنن الجسـام من الـذي　　أولاك مـا أولاك مـن أولاهـا
وخـذ الجواب على الـذي حررتـه　　واعـذر فلي شغـل بطول عنـاهـا

وكتب إليه بعض الأعلام لغزاً وأجابه واللغز هذا والكتاب يتلوه الجواب:

ومـا اسم غـدا قلبـه في الحشـا　　وإن تـبـقـه نـلتـه في الجـنـانِ
وإن تـفـتـح الـفـاءَ وعـيـنـاً لـه　　فـذلـك شـيء بلحظ الحسـانِ
وتـصـحـيف ركـنـيـه مع عيـنـه　　مـقـدمـة مـن فـعـال السـنـانِ
ثـلاثـي أحـرفـه قـد غـدت　　فهنـدس لـهـا يـا وحيـد الزمـانِ

---

(١) لم تظهر هذه الكلمة وقد قلّبناها على وجوه.

وجوّب بنظم لنظمٍ يفوق على عيون المها وعلى علّان[1]

فأجاب أنار الله غرّته، وبارك في مدّته:

نظام أراه كروح النّظام ورشف المدام وروح الجنانِ
فما الإحورار مع الانكسار وطعم العقار وضم الحسانِ
بأعذب منها ولا الدر في نحور لحورٍ كتلك المعانِ
وهذا هو الحل فانظره في رياض المنى فهو روض الأمانِ

ومن جملة ما دار بين شيخ الإسلام وبين أهل «نجد» من المكاتبات هذه القصيدة كتبها إليهم في أيام ثورتهم وانتشار أجْنَادهم في البلاد بعد أن وصل إليه من المكاتبات ما أوجبها.

إلى الدرعيّة الغرّاء تسري فتخبرها بما فعل الجنودُ[2]
وتصرخ في ربى نجدٍ جهاراً فيسمعها إذا صرخت سعودُ
وابنا مقرنٍ[3] وهم ليوثٌ إذا الحرب العوان لها وقودُ
وتسأل كل ذي فهمٍ وعلمٍ سؤالاً عند معضلة تؤودُ
ففي أبناء شيخ الفضل فضل إلى الإنصاف فضلهم يقودُ
كذاك بقية الأقوام طرّاً وكل مسوّد منهم يسودُ
ألمّا تعلموا أنّا وأنتم على صوب الصواب لنا قعودُ
ونهج الحق لا نبغي سواه إليه جُلُّ مقصدنا يعودُ
وإنا نجعل القرآن جسراً فمصدرنا عليه والورودُ
نردّ إلى الكتاب إذا اختلفنا مقالتنا وليس لذا جحودُ
كذاك إلى مقام الطهر طه نردّ وفي الكتاب لذا شهودُ

---

(١) أشار بقوله عيون المها إلى قول علي بن الجهم «عيون المها بين الرصافة والجسر» وأشار بقوله «عللان» إلى قول الشاعر.

(٢) الدرعية: بلدة بنجد كانت عاصمة نجد لآل سعود ودخلت اليوم فيما يسمى الرياض.

(٣) ابنا مقرن: بطن من شيبان ثم بني تميم يزعم آل سعود أنهم من هذا البطن.

وكـل مـخـالـفٍ مـا كـان قـدمـاً عـليـه الأمـر تـطرقـه الـردودُ
ومـا فـي قـال زيـدٌ قـال عـمـرٌ مـفـادٌ إن تـزاحـمـت الـوفـودُ
مضى خيـر الـقـرون ومـن تـلاه ولا قـيـلٌ ولا قـالٌ ولـودُ
ومـشـرب ديـنـنـا عـذب فـرات وورد لا تـكـدّره الـورودُ
لـهـم من حلـيـة الإنـصـاف حليٌ ومـن لـبس الـهـدى لـهـم بـرودُ
وعُـوْد الـحـق مـخـضـرٌ بـهـيٌّ سـويّ حـبَّـذا هـذاك عـودُ
يـمـرّون الـصـفـات كـمـا أتـيـنـا ولا لـفظ هـنـاك ولا جـحـودُ
وقـولـهـم وفـعـلـهـم بـنـصٍّ صحيـحٍ لا تـعـاوره الـردودُ
ولـم يـتـلاعـب الأقـوام يـومـاً بـآراء إلـى بـدعٍ تـقـودُ
وريح الـرأي والـتـقـلـيـد فـيـهـم بـذاك الـعـصـر كـان لـهـا ركـودُ
ولـو هـبّـت لـهـبّ لـهـا أنـاس تـضيـق بهـا الـمـنـافـذ والـنـجـودُ
ومـا قـالـوا بـتـكـفـيـر لـقـومٍ لـهـم بـدع عـلـى الإسـلام سـودُ
كـمـا كان الـخـوارج فـي ابـتـداع يـشـيـب لهـا مـن الإسـلام فـودُ
ومـا قـالـوا بـأن الـرفض كـفـرٌ وبـدعـتـه تـشق لـهـا الـجـلودُ
فكيـف يـقـال قـد كـفـرت أنـاس يـرى لـقـبـورهـم حـجـر وعـودُ
فـإن قـالـوا أتـى أمـر صـحـيـح بـتـسـويـة الـقـبـور فـلا جـحـودُ
ولـكـن ذاك ذنـب لـيس كـفـراً ولا فـسـقـاً فـهـل فـي ذا ردودُ
وإلا كـان مـن يـعصى بـذنـب كـفـوراً إن ذا قـول شـرودُ
وقـد قـال الـخـوارج مـثـل هـذا ومـا مـثـل الـخـوارج مـن يـقـودُ
وقـد خـرقـوا بـذا الإجمـاع حقـاً وكـل الـعـالـمـيـن بـه شـهـودُ
فـإن قلتـم قـد اعـتـقـدوا قـبـوراً فـليس لـذا بـأرْضـيـنـا وجـودُ
ومـن يـأتي إلـى عـبـدٍ حـقـيـر فـيـزعـم أنـه الـربّ الـودودُ
فـهـذا الـكـفـر ليس بـه خـفـاء ولا ردّ لـذاك ولا جـحـودُ
ولـست بـمـنـكـر هـدمـاً لـقـبـرٍ إذا لـعـبـت بـجـانـبـه الـقـرودُ
وقـالـوا إن ربّ الـقـبـر يـقـضـي لـنـا حـاجـاً فـتـأتـيـه الـوفـودُ

كذبتم ذاك رب العرش حقاً تعالى أن تكون له ندودُ
ومن يقصد إلى قبر لأمر لغير توسّل فهو الكنودُ
ويبقى الأمر فيمن قال جهلاً مقالاً ما له فيه قصودُ
ولو قلنا له هل ذاك ربٌّ تناديه لظلّ بذا يمودُ
وقال الرب رب العرش فرداً وهذا عبده عبد ودودُ
وليس له من الأشياء شيء فقير لا ينيل ولا يجودُ
ولكن كان ذا عمل وعلم وما عندي لذا أبداً وجودُ
فرمت توسلاً يوماً بعبد إلى ربّ يحق له السجودُ
أفيدونا وإلا فاستفيدوا وعودوا نحونا فيمن يعودُ
ولي في ذا كتاب قمت فيه مقاماً ليس ينكره الحسودُ
إذا وردته أعلام البرايا على ظمأ يطيب لها الورودُ
وقد سارت به الركبان شرقاً وغرباً لم ترد فيه ردودُ
وإن الحق مقبول لدينا وفينا ما له عنّا صدودُ
كتاب الله قدوتنا وما في كتاب المصطفى وهما العمودُ
وهدي الصحب أفضل كل هذي وأشرفه وإن جحد الجحودُ
فهل لكم إلى هذا رجوع فإن عدتم فنحن كذا نعودُ
نقوم بديننا فننال أجراً كما قد ناله منّا الجدودُ
مع المختار صلّى ذو المعالي عليه ما تقهقهت الرعودُ
وجادت عند مبعثه سيوف وفي التجديد إن سلّتْ نجودُ
فيا أهل الجزيرة من معدٍّ وقحطان إلى المعهود عودوا
وقد آن الوفاق فلا تكونوا على الإسلام فاقرة تؤودُ
وذودوا من أتى منكم بنكر فخير المسلمين فتًى يذودُ
وذا نصح صحيح من نصيح فساعدني عليه يا سعودُ

ومن بعض كتبه عافاه الله هذا الكتاب إلى بعض إخوانه وقد حصل بينه وبين

بعض أهل الظلم والجور من المشاغرة له والصولة عليه لظلمه بعض الرعايا كما يفعله مع غيره من سائر الظلمة الجبابرة:

بسم الله الرحمن الرحيم

كتابي إليك أيها الأخ أعزك الله ينهي إلى مقامك كرّمه الله. إن قومي لم تنطقْني رماحهم، ولا طوّلت باعي عند المطاولة صفاحهم فهم وإن كانوا ذوي عدد ليسوا ممن قام في الحفاظ ولا قعد، ولا ممن برق غضبه عند حماية الحقيقة ورعد، بل ممن قمشت وصم حبل الحاطب وممن أفحمت أفعالهم لسان المادح والخاطب.

ليسوا من الشرّ في شيء وإن هانا، ولا هم ممن إذا الشرّ أبدى بناجذيه لهم من فرسان الضراب والطعان، صمٌّ إذا دعوا لملمّة، بكْمٌ إذا ندبهم للمعالي ذو همّة، ترى الفتيان كالنخل، وما يدريك ما الدخل، كم حسبتهم دروعاً حصينة فكانت للأعادي، وسهاماً مصيبة فلم تصب غير فؤادي، إن قلت لهم تمسّكوا بهذا الدين المتين فروا عنه فرار الملحدين، أو طلبت منهم ما يتمادح الناس ويتفاخر به أولو البأس من كرم فيّاض، أوشجاعة شجاع نضْناض كاعوا كاع الله بهم ثم زاغوا أزاغ الله قلوبهم لم تترامى بهم الهمم السافلة إلى شيء من المعالي، ولا تصاعدت منهم الأنفس الساقطة إلا إلى اضطهاد الضعفاء من الموالي، فإنهم عليهم كالأسود، وعلى غيرهم كالقرود.

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر(١)

ما دعوتهم إلى حماية الذمار إلا كنت كنافخ في غير نار ولا ندبتهم إلى حفظ الحرم، إلا نفخت في غير ضرم، وحسبت الشحم فيمن لحمه ورم، ولا رمت منهم إدراك وتر إلا كنت كمن يكتب على بحر، إن قلت هبّوا إلى المكارم ناموا، أو قلت اقعدوا على المآثم قاموا، قد وطّنوا على أنفسهم قول القائل:

---

(١) البيت لا أعرف إلى من أعزوه وهو محفوظ ومن شواهد النحو ومما يتمثل به ولعله لجرير.

دع المكارم لا تنهض لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي[1]

واعتمدوا في إصدارهم وإيرادهم على قول الآخر:

عش بجدٍّ لا يضرك النّوك ما أعطيت جدّا

العيش خير في ظلال النّوك ممن مات كدّا[2]

إن شمّرت الحروب عن ساقها، وكشّرت عن نابها، وقلّصت من أشداقها قال قائلهم:

إليك عني فقد كلفتني شططا حمل السلاح وقول الدارعين قف

أمِنْ رجال المنية خلتني رجلاً أمشي وأصبح مشتاقاً إلى التَّلف[3]

كلّ منهم يخاف على فخّارته أن تحطّم، ويقول: لأن يغضب عليّ الأمير وأنا حيّ أحبّ إليّ من أن يرضى عني وقد ذهبت بي أم قشعم، وأما جودهم بالموجود، فمن الممتنع المفقود، يسمحون دونه بإراقة ماء الحياة والحياء والمحيّا، ويؤثرونَهُ على ما يجلب عليهم العار والدمار في الدين والدنيا، قد جعلوا شعارهم ودثارهم التلصص لأخذ أموال الناس المستضعفين الذين لا يجدون لهم وليّاً ولا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً.

وأمّا من عزّ ناصره وجلّ معاضده ومؤازره، فهم عن التسلط على حاله وماله أجبن من المنزوف، وأخزى من سوْءة المكشوف، فشاهت الوجوه وقبح اللكع ومن يرجوه، فما مثله من يغسل العار ويحمي الذمار، ويمنع الجار، ويقر بالحق القرار، ويلوذ الباطل بالفرار فعذراً بني الأحرار عذرا، وغفراً اللهم غفراً، لا وزراً وزراً، ونصراً ربّنا نصراً، وقهراً للجبابرة قهراً، وصبراً معشر المستضعفين صبراً، فبعد اليوم غد، ولكل أمر حدّ وأمد ولكل امرىء مجزىءُ إن خيراً فخير وإن شر فشر مخزىء، ويا متجرع الغصص لا تعجز عن ترقب الفرص، وإن عجزت فلا تجزع

(١) البيت للحطيئة.

(٢) هذان البيتان للحماسي والمحفوظ «ممن عاش كدا» وهو أنسب.

(٣) هذان البيتان للحماسي والمحفوظ «أمن رجال المنايا» والبيتان محفوظان.

فلكل باغ مصرع، ومن سقى بكأس العدوان شرب بها، وهي في فيه أمرُّ من العلقم والدم يساط بالدم، ويهتك الحرم بالحرم، وعند الله تجتمع الخصوم، والله بالمرصاد، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون﴾[1].

قال: وقد وقف جماعة من أهل الجهل والغباوة على بعض رسائله فأكثروا القيل والقال، وتوجعوا إلى إخوانهم الذين هم مثلهم من الجهال كما ذلك عادة لهم قديمة، وسنّة ذميمة:

يا جاهداً في نصر سنّة أحمد	صبراً على زور الألدّ الأبْلدِ
دع من يشن عليك غارات الأذى	بلسانه بين الأنام بمشهدِ
فلربما نشر الإله فضيلة	للمرء قد جهلت بقول الحسّدِ
ما إن يعاب عليك غير مقالة	شيدت ونيطت بالدليل المسندِ
إن كان ذا عيب فعيبك مدحة	قامت على رغم الأصمّ الجلمدِ
أو كان ذا ذنباً فذلك قربة	عند الإله برغم كل مفنّدِ
يا جاهلاً علماً لآل المصطفى	ما بين سابقهم وبين المقصد
من سدّ باب الاجتهاد على الورى	من آل طه يا محمّق أرشدِ
من أوجب التقليد بعد تأهل	للإجتهاد وقال حتماً قلّدِ
من قال دع عنك الكتاب وعلمه	من قال تترك سنة لمحمّدِ
من قال شيخ الأمهات مضلّلٌ	من قال طالبها عليهم معتدي
أنظر دفاترهم تجد في طيّها	منها لمتهم أهلها والمنجدِ
وإذا عجزت ولم تطق تكشيفها	فاسأل أكابر عصرنا وتنشّدِ
فهناك تعلم ما تقول وما الذي	أبديته من جهلك المتبددِ
ويبين عندك فضل عين أبصرت	حقاً على عين الجهول الأرمد
يا مدعي حب النبي وآله	لم تدْرِ ما حب الكرام الصيّدِ
ناقضت مذهبهم وحفت عن الهدى	وهدمت شامخ مجد علم أمجدِ

---

(١) سورة الشعراء: آية ٢١٧.

وظننت أن الحق ما أبديته ... جهلاً بغير تطلب وتفقد
يا عمرو إني من عرفت فما الذي ... أنكرت من قولي الصحيح الجيِّد
إن قلت قد خالفت عترة أحمد ... وبمذهب الأطهار لم أتقيد
فسل الأماثل والمحافل من غدا ... يروي لهم علم الأئمة عن يدِ
ويضمّخ الأرجا بجامع علمهم ... وشفاؤهم يشفى به قلب الصدي
وغدا الذي يدري سباحة بحرهم ... ويضوع الأزهار بالعَرْف الندي
أو قلت دعوى الإجتهاد سقيمة ... فسل المعارف لا أبا لك ترشدِ
فهناك تعلم من يخوض غمارها ... ويجول فيها لا كجول مقيدِ
وسل الأئمة من شيوخي عن فتًى ... قد غاص في بحر لهم متركدِ
وسل التلامذة الكرام مَنِ الذي ... في حلّ مشكلهم يروح ويغتدي
وهلمّ نحوي إن يكن لك خبرة ... وعليّ في كل المعارف أوردِ
يا من غدا للعرض مني شاتماً ... من غير ذنب كيف حالك في غد
كيف الجواب إذا سئلت وما الذي ... أعددته لسؤال ذاك المشهدِ
إن قلت تتبع الدليل وتطر ... ح التقليد عند ثبوت قول محمدِ
فالعذر أقبح من جنايتك التي ... أسلفت يا من بالجهالة مرتدي
فدع التعرض يا جهول وعد عن ... هذا الطريق وخلّ عنه وأبعدِ
ما أنت أهلاً لارتشاف كؤوسه ... ما أنت أهلاً لاجتلاء الخرّدِ
ما أنت في ورد ولا صدر ولا ... تعنى بكشف حقيقة وتفقدِ
إن الخفاش يـر الظلام خليله ... فإذا تجلى بالضيا لم يوجدِ
والورد وهو الورد يؤذي دائماً ... جُعْل المزابل ريحه الريح الندي
وكذلك العنّين إن عنّت له ... فتّانة في الحسن لم يتوجّدِ
هذي نصيحة ماحضٍ ما شابها ... غش فمن بالنصح يوماً يهتدي

وقال متع الله المسلمين بطول حياته متوجّعاً من جماعة من أهل العلم، وقد سمع منهم ما أوجبه الحسد:

ما بال برّي بتعليم الفُنونِ غدا   عين العقوق لديكم يا ذوي الطلبِ
هذا لنقصان حظي أو لطرحكم   تلك الحقوق بلا جرمٍ ولا سببِ
أم أوجب السلب تركي للمناصب في   حبي العلوم ونيلي عالي الرتبِ
أم انتقادي لما قد راق من كلمٍ   خالطتم حبه باللحم والعصبِ
لا عيب لي غير أني في دياركم   شمس ولم تعرفوا فيها سوى الشهبِ
وأنتم كخفافيش الظلام وما   زال الخفاش بنور الشمس في تعبِ
موتوا إذا شئتم قد طار من كلمي   من نصرة الحق ما حرّرت في الكتبِ
وأرتجي أن يلبّي دعوتي نفر   يسعون للدين لا يسعون للنشبِ
لا يعدلون بقول الله قول فتًى   ولا بسنّة خير الرسل قول غبي
لا ينثنون عن الهدي القويم ولا   يصانعون لترغيب ولا رهبِ
أبث ما بينهم من مذهبي درراً   حجبتها عن ذوي التقليد والريبِ
يا فرقة ضيّعت أعلامها سفهاً   وصيرت رأس أهل العلم كالذنب
ما قام رب علوم في دياركم   إلا وجرعتموه اكأس الكربِ
خلائق قد سقاكم سوء مشربها   أسلاف سوءٍ لكم في سالف الحقبِ
من قال: قال رسول الله بينكم   غدا بذا عندكم من جملة النصبِ
فإن يقل قال أشياخ الفروع كذا   قلتم أصاب وفي التحقيق لم يصبِ
جعلتم المذهب الزيدي بينكم   على جلالته أعجوبة العجبِ
صيّرتم صفو علم الآل في كَدرٍ   حتى غدا بينكم نوعاً من اللعبِ
عاديتم السنّة الغرّا فكان بذا   دعوى خصومكم موصولة النسبِ
كم ظنّ ذو حُمُقٍ في الضرّ منفعةً   وظلّ يرجو نجاة من يد العطبِ
سوّدتم جيل جهل بالعلوم وذا   رأي يجر بذيل الويل والجربِ
والاجتهاد غدا في كتب فقهكم   شرط الإمام فإن يعدوه لم يجبِ
وشرط حمّال أعباء القضاء مع   الفتيا فلم تعرفوا ما خُطّ في الكتبِ
فحكموا بيننا الأزهار فنّكم   تلقوا به إن فهمتوه جلا الريبِ
ألم ينصّ على شرط اجتهاد فتًى   سما إلى المنصب الأعلى من الرتبِ

وراجعوا آخراً من كتبه وكذا باب القضا تستريحوا من أذى التعبِ
وقال: من حاز علم الاجتهاد ولم يحلّ عنه عرى التقليد لم يصبِ
وإنني حزت أضعاف الذي شرطوا قبل الثلاثين من عمري بلا كذبِ
ألم أضمّخ أرجاء الجوامع بالتدريس في كل فنّ معشر الطلبِ
ألم أصنّف في عصر الشبيبة ما يغدو له محكم العرفان في طربِ
لو كان مطلع شمسي غير أرضكم ما حال دون سناها عارض السحبِ
ولا غدت لعشى الناظرين لها كأنها طلعت في مظلم الحجبِ

قلت: ما أشبه قوله حفظه الله «لو كان مطلع شمسي» البيت الخ ـ بقول أبي محمد علي بن أحمد بن حزم المغربي(١) وقد جرى له نحو ما جرى لشيخ الإسلام فقال:

أنا الشمس في جوّ العلوم منيرة ولكنّ عيبي أن مطلعيَ الغربُ
فلو أنني في جانب الشرق طالع لجدّ على ما ضاع من ذكري النهبُ
فإن يُنزل الرحمن رحلي بينهم فحينئذ يبدو التأسّف والكربُ
فكم فاضل أغفلته وهو حاضرٌ وأطلب ما منه تجيء به الكتبُ

وهذا المعنى قريب من قول أبي عبادة البحتري(٢):

متى أرت الدنيا نباهة خامل فلا تنتظر إلاّ خمول بنيهِ

---

(١) ابن حزم: أشهر من نار على علم، فهو رب المعارف والعرفان الصائل على الجهل والتقليد حتى قيل إن قلم ابن حزم وسيف الحجاج سيان لشدة انتقاده وهو مفخرة من مفاخر الإسلام وله مؤلفات عديدة منها المحلى في الفقة إحدى عشرة مجلدة طبع وغير ذلك. مولده سنة ٣٨٤ ووفاته سنة ٤٥٦هـ وهو أندلسي. ابن خلكان (ج ٣ ـ ١٣) وله ديوان شعر وقد صنف في حياته عدة مصنفات عصرية.

(٢) أبو عبادة البحتري هو الوليد بن عبيد البحتري الطائي، أحد الشعراء الفائزين بالقدح المعلى والذين يتفاخر بهم أبو تمام وهذا والمتنبي كلهم يمانية. مولده بمنبج من الجزيرة الفراتية سنة ست أو خمس ومائتين ووفاته سنة خمس وثمانين ومائتين وقيل غير ذلك وديوانه مطبوع. ابن خلكان (ج ٥ ـ ٧٤).

لا سيما صدر بيت أبي محمد:

هنالك تدري أن للبعد قصة وإن كساد العلم آفته القربُ
فيا عجباً مَنْ غاب منهم تشوقوا له ودنوّ المرء من داره قربُ
وإن مكاناً ضاق عني لضيّق على أنه فيح مهامه سهْبُ
وإنّ رجالاً ضيعوني لضُيَّعٌ وإن زماناً لم أنل خصبه جدبُ
ولكن لي في يوسف خير أسوة وليس على من إن تأسّى بالنبي ذنبُ
أقول مقال الحق والصدق إنني حفيظ عليم ما على صادق عتبُ

وكم له من أنداد كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١) وغيره من أهل هذه الديار(٢) وقال أعلا الله شأنه، ورفع مكانه، وأطال زمانه، متوجعاً من جماعة من أهل العلم.

هم أخذوا عني العلوم بذلّةٍ فلما حووها عاملوني بغلظةِ
هم أظهروا عند اللقاء ليونةً فلما تولوا أظهروا كل شدةِ
هم الأصدقا إن ما حضرت وإن أغبْ فكلهم يا عمرو أعداء غيبتي
هم الخرس إن قلت الصواب وإن أقلْ خطاء يطيروا في الملا بخطيئتي
هم كتموا مني المحاسن كلّها وزخرفوا الأقوال في كل سبّة
هم نقلوا عني الذي لم أقل به هم أوحشوا بيني وبين أحبتي
هم أضجروني كل حين وكدّروا عليّ مدى الأيام صفو مسرّتي

وقال عافاه الله مما خاطب به هؤلاء الثائرين عليه أيام طلبه لا خيّب الله سعيه:

يا ناقداً لمقال ليس يفهمه من ليس يفهم قل لي كيف ينتقدُ

---

(١) ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم إمام عظيم من رجال الإصلاح والذي صبر وجالد ونال كل مشقة من التعذيب والحبس والتشريد والنفي ومن قرأ حياته أخذته الدهشة. مولده سنة ٦٦١هـ ووفاته سنة ٧٦٨ وكذلك تلميذه ابن قيّم الجوزية. الأعلام.

(٢) كنشوان: الحميري والأمير والوزير.

يا صاعداً في وعور ضاق مسلكها … أيصعد الوعر من في السهل يرتعدُ
يا ماشياً في فلاة لا أنيس بها … كيف السبيل إذا ما اغتالك الأسدُ
يا خائض البحر لا يدري سباحته … ويلي عليك أتنجو إن علا الزبدُ

ومنها:

إني بليت بأهل الجهل في زمن … قاموا به ورجال العلم قد قعدوا
قومٌ يدق جليل القول عندهم … فما لهم طاقة في حلّ ما يردُ
وغاية الأمر عند القوم أنهم … أعدى العداة لمن في دينه سددُ
إذا رأوا رجلاً قد نال مرتبةً … في العلم دون الذي يَدْرونه جحدوا
أو مال عن زائف الأقوال ما تركوا … باباً من الشرّ إلا نحوه قصدوا
أما الحديث الذي قد صحّ مخرجه … كالأمهات فما فيها لهم وَلدُ
تراهم إن رأوا من قال حدثنا … قالوا له ناصبيٌّ ما له رشدُ
وإن ترضّى على الأصحاب بينهم … قالوا له باغض للآل مجتهدُ
يا غارقين بشؤم الجهل في بدع … ونافرين عن الهدْي القويم هدوا
ما باجتهاد فتًى في العلم منقصةٌ … النقص في الجهل لا حيّاكم الصمدُ
لا تنكروا مورداً عذباً لشاربه … إن كان لا بدّ من إنكاره فردوا
وإن أبيتم فيوم الحشر موعدنا … في موقف المصطفى والحاكم الأحدُ

ومما قال في ذلك:

على عصر الشبيبة كل حين … سلام ما تقهقهت الرعودُ
ويسقيه من السحب السواري … ملثٌّ دائم التسكاب جودُ
زمان خضت فيه بكل فنّ … وسدت مع الحداثة من يسودُ
وعدت على الذي حصلت منه … فجدت به وغيري لا يجودُ
وعاداني على هذا أناس … وأظلم من يعاديك الحسودُ
رأوني لا أدين بدين قوم … يرون الحق ما قال الجدودُ
ويطرحون قول الطهر طه … وكلّ منهم عنه شرودُ
فقالوا قد أتى فينا فلان … بمعضلة وفاقرة تؤودُ

يقول الحق قرآن وقولٌ ... لخير الرسل لا قول ولودُ
فقلت كذا أقول وكل قول ... عدا هذين تطرقه الردودُ
وهذا مهيع الأعلام قبلي ... وكلهم لموردِه وُرودُ
إذا جحد امرؤ فضلي ونبلي ... فقِدْماً كان في الناس الجحودُ
وكل فتًى إذا ما حاز علماً ... وكان له بمدرجه صعودُ
وراض جوانحاً من كل فضل ... وصار لكل شاردة يقودُ
رماه القاصرون بكل عيب ... وقام لحربه منهم جنودُ
فعادوا خائبين وكل كيد ... لهم فعلى نفوسهم يعودُ
وراموا وضع رتبته وكانوا ... على الشرف الرفيع هم شهودُ
إذا ما الله قدّر نشر فضل ... لإنسان يُتاح له حسودُ

قلت: هذا كقول أبي تمام[1]:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسودِ
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يُعرف نشر عَرْف العودِ

قال أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني[2] بعد إيراد هذين البيتين متمثلاً بهما في وساطته، ما لفظه صدق والله وأحسن كم من فضيلة لو لم تنشرها المحاسدة، لم تبرح في الصدور كامنة، ومنقبة لو لم تزعجها المنافسة لبقيت على حالها ساكنة لكنها برزت فتناولتها ألسن الحسد[3] تجلوها وهي تظن أنها تمحوها، وتشهرها وهي تحاول أن تسترها حتى عثر بها من يعرف حقها، واهتدى إليها من هو أولى بها، فظهرت على لسانه في أحسن معرض واكتست من فضله أزين ملبس فعادت بعد

(١) أبو تمام هو حبيب بن أوس الطائي أحد الشعراء الفحول والذي طار صيته كل مطار وهو صاحب ديوان الحماسة وله عدة شروح وديوانه مطبوع مولده سنة ١٩٠ ووفاته بالموصل سنة ٢٣١ وقيل غيرها. ابن خلكان: ج ١ ص ٣٣٣.

(٢) الجرجاني: أديب وشاعر وقاض من كتبه الوساطة بين المتنبي وخصومه، طبع وله كتب غيرها. وفاته سنة ٣٦٦. انظر: الأعلام وابن خلكان.

(٣) كذا في الأصل ولعلها الحسّاد.

الخمول نابهة، وبعد الذبول ناضرة، ومكنت من برّ والدها فنوّهت بذكره، وقدرت على قضاء حق صاحبها فرفعت من قدره وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

انتهى كلام الجرجاني، ساق هذا الكلام في الانتصار للمتنبي لما رأى من يجحد فضله، وينكر نبله، ويغمط أمثاله السائرة، ومعاني شعره الفاخرة.

وقال في غضون كلامه أيضاً ما نصّه بقوله: ولم تزل العلوم أيّدك الله لأهلها نسباً يتناظر به والآداب لأدبائها رحماً يتواصل عليه:

لهم حق بشركك في نزار … وأدنى الشرك في نسب جوار

وأول حقوق الجار الامتعاض له، والمحاماة دونه، وما حفظ دمه أن يسفك بأولى من رعي حُرمَته أن تُنتَهك، ولا حرمة أولى بالصيانة وأحق بالحماية وأجدر أن يبذل الكريم دونها عرضه ويمتهن في إعزازها ماله ونفسه من حرمة العلم الذي هو رونق وجهه ووقاية قدره ومنار اسمه، ومطية ذكره، وبحسب عظم مزيّته، وعلوّ مرتبته يعظم حق التشارك فيه، وكما تجب حياطته يجب حياطة المتصل بسببه إلى آخر ما قاله.

وكما أوردت لك أيها العالم الخبير والمنتقد المنصف البصير، ما ترى في كلام الجرجاني لأن ما ذكره مما نحن فيه، وإذا كان وذلك مناضلة دون إشعار، وهي حلية العاطل، وفخر من لم يجد فخراً سواها من الفضائل فأولى وأحرى، وأطيب وأطرى، وأحق وأصدق، وأنفق وأوفق وأوفر وأوفى وأثلج للصدور، وأشفى من سلّ اللسان، وصلت السيف والسنان دون عرض من حمل علم الشريعة، وسدَّ من محدثات المبتدعين كل ذريعة ورغب في نشر السنّة ووجّه نحو نحور الأضلاء منها سيوفاً وأسنَّة.

واعلم أحاطك الله وكلأك، وجعل من ذهب الإنصاف، وبرود الاعتراف مُلاك وحُلاك إني لم أمهّد لك هذه الحجة في غير موضع من كتابي هذا إلا لأنه قد كثر حسّاد هذا الرجل، الذي وضعت هذا المؤلّف باسمه حتى نافسه من أهل عصره المشائخ ذوي العلم الراسخ ولم تزعهم علومهم ولا ردعتهم حلومهم، مع كون العلم رحامة بين أَهْلِهِ:

فلم تزل قلّة الإنصاف قاطعةً   بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم[1]

وسيأتي ذلك في ترجمة الشبيبي من القسم الثالث تتمة لهذا الكلام، ومزيد ذكرٍ وتذكير، ولنرجع إلى ذكر بقية شعره:

ومن كثرت فضائله يعادى   ويكثر في مناقبه الجحودُ
إذا ما غاب يلزمه أناس   وهم عند الحضور له سجودُ
وليس يضرّ نبح الكلب بدراً   وليس يخاف من حُمِرٍ أسودُ
وما الشمُّ الشوامخ عند ريح   تمرّ على جوانبها تمودُ
ولا البحر الخضمّ يُعاب يوماً   إذا بالت بجانبه القرودُ

هذه الخمسة الأبيات معانيها متداولة كثيرة الاستعمال كما ذلك معروف عند الأديب.

ولشيخ الإسلام من قصيدة طويلة:

وما سُدَّ باب الحق عن طالب الهدى   ولكن عين الأرمد الفدم سدَّتِ
رجال كأمثال الخفافيش ضوؤها   يلوح لدى الظلما وتعمى بضحوةِ
وهل ينقص الحسناء فقدان رغبة   إلى حسنها ممّن أصيب بعنّةِ
وهل حطّ قدر البدر عند طلوعه   إذا ما كلاب أنكرته فهرّتِ
وما أن يضرّ البحر إن قام أحمقٌ   على شطّه يرمي إليه بصخرةِ
فخض في غمار الإجتهاد وعدّ عن   رجال تسلّت عن سناءٍ بِفِرْيَةِ

ومنها:

وإن كنت شهماً ناقداً متبصّراً   فدع ما به عين من العمى قرّتِ
فما جاءنا نقل بقصر ولا أتى   لذلك حكم للعقول الصحيحةِ
وما فاض من فضل الإله على الأولى   مضوا فهو فيّاض عليك بحكْمةِ
ولا تك مطواعاً ذلولاً لرافض   تصير بهذا مشبهاً للبهيمةِ

(١) البيت محفوظ ومما يُتمثل به ولكن غاب عن ذهني اسم قائله.

وما قاله من الأشعار الجارية في هذا المضمار كثيرة جداً.

ولما ثارت حفائظ من مضى بك ذكرهم عند تأليف «إرشاد الغبي» قال محسن بن أحمد الشهاري[1] هذه الأبيات الثلاثة مشيراً إليهم:

إنّ جيل الزمان قد صيروا العلم سباباً لمن ثوى في القبورِ
وإذا قام عالم بمقالٍ قابلوه بمنكر ونكيرِ
وتعدوا ظلماً فأصبح فيهم عالماً بين عالم كالحميرِ

ولما اطلع على هذه الأبيات محمد بن علي بن حسن الشبيبي قال في القافية والروي ووجهها إلى شيخ الإسلام:

يا إمام العلوم أعرض ودع عَنْك مقال الجهول ذي التقصيرِ
إنما الجاهلون أعداء أهل العلم والفضل في جميع العصورِ
هكذا دأبهم كما قد رويناه عن المرتضى الإمام الخطيرِ
قد تعاموا عن البيان وقالوا جئتهم مبطلاً بنكرٍ وزورِ
فبصير لا شك غير سميع وسميع تراه غير بصيرِ
أنكروا واضحاً وقالوا بجهلٍ ليس ذا عندنا بقول خبيرِ
ثم لم يرتضوا مذاهب آل المصطفى خير من ثوى في القبورِ
فاطرح قولهم فما هو إلا سبّة فيهم تفز بالأجورِ
واغض عن جهلهم فقد صرت فيهم عالماً بين عالم كالحميرِ

فأجاب عليه دامت إفادته بهذه الأبيات:

عز دين الإله دمت تجلّي مشكلات بفهمك المستنيرِ
ثم لا زلت أيها البدر تمشي في طريق بعد البشير النذيرِ
يا بنفسي هذا النبي ومن كان على هديه بلا تغييرِ
إن علم الفتى القليل مع الإنصاف خيرٌ من دونه بكثيرِ

---

(١) ترجمه زبارة في نيل الوطر (ج ٢ ـ ١٩٥) ولد بمدينة شهارة سنة ١١٥٤هـ، وحقق كثيراً من العلم وكانت وفاته سنة ١٢١٤هـ.

ليس في طول باع علمك فضل إن تكن عاملاً بباع قصيرِ
فاغتنم لا برحت مقتبل العمر تنل من تفضلات القديرِ
عدِّ عن معشر تعاموا عن الحق وحادوا عن السبيل المنيرِ
لهجوا بالسباب والشتم بغياً وأتوا فِرْية بكل نكيرِ
معشر ما نجى الصحابة منهم بعد مثواهم ببطن القبورِ
كيف ينجو من مثلهم عرض مثلي عن مقال الخنا وقول الزورِ

ومما قاله عافاه الله تعالى شاكراً لنعم الله ومناجياً لربه الحقيق بالسؤال والمناجاة:

أنعمت بالنعم التي أتعبت حسادها
فاكبتهم بدوامها وأكثر لنا أعدادها
ما حاولوا نقصانها إلا وربي زادها
راموا مدافعة القضاء وحاولوا إبعادها

وقال عافاه الله تعالى:

لو كان لي كل لسانٍ لَمَا وفيت بالشكر لبعض النعم
فكيف لا أعجز عن شكرها وليس لي غير لسان وفم
هذا هو الإفضال هذا العطا الفيَّاض هذا الجود هذا الكرم

ولما اطلع على هذه الأبيات السيد العلامة شريف الخِلَال، عبد الله بن علي الجلال، قال:

بك أهدينا في دياجي الظلم ومنك نلنا سابغات النِّعم
ما أنت إلا نعمة للورى وعدّة في دفع ما قد أهمّ
بك استطلنا ثم طلنا ونلنا كلما نهواه ممن ظلم
لا زلت ركناً شامخاً باذخاً نأوي إليه عند همٍّ وغمّ
مملّكاً في الناس في رفعة وصحة لا يعتريها سقم

وقال عافاه الله:

يا أيها المذكور بالعلم	جمعت بين البرّ والإثم
إلى متى تخبط في ظلمة	إلى متى تخطىء في الفهم
فقل متى تعمل قل لي متى	تجمع كل الهمّ في الهمّ

وقال مخاطباً لنفسه:

محمد أيّها المسكين أقصر	فقد لعبت بك الدنيا ضروبا
وقد باشرت أعمالاً ثقالاً	فما تدري أجوراً أم ذنوبا
فكرّر شكر من أبدى جميلاً	وأخفى عن أعاديك العيوبا
ولم توكل إلى ضعف وعجز	بل الألطاف وقّتك الخطوبا

وله أيضاً:

إن هذا الكرم الفياض والفضل الجزيل
لست أحصي لك حمداً	لست أدري ما أقول
كم أرى لي من عيوب	ولها ستر جميلُ
هكذا الكرم الفياض والفضل الجليلُ

وله أيضاً:

أتطلب الحقيقة	وتسلك الطريقة
وأنت عاصٍ خاطي	مفرّط متعاطي
وصنم الرياسة	عنك به نفاسة
يا واهب الإحسان	لعبدك الشوكاني
أعطيته الجزيلا	منحته الجليلا
تكرّماً تفضّلا	تحنّناً تطوّلا
فأتمِمْ عليه النعما	واسبل عليه الكرما
واختم له بخير	في سرّه والجهر

وقال متمنياً وراجياً:

كيف الوصول إلى الحقيقة	يا ربّ دل على الطريقةِ

واجمع لهذا العبد ما بين الشريعة والحقيقةِ
واكشف له السرّ الذي أودعته بعض الخليقةِ
فعساه يدخل في عدا د الصالحين على وثيقهِ

وقال يلوم نفسه:

قل لجاهل ضرّه أليس يدري قدرهُ
حتى متى الكذوب يقلع أو يتوبُ
قد جاوز الستّينا فكان أوفى شينا
تكاثرت ذنوبه تعاظمت عيوبهُ

وله أيضاً:

أطيب الطيبات علم يريك الحق حقاً ما دونه من حجابِ
وبه ينجو الغريق إذا ما كان في بحر حيرة واضطرابِ

وقال:

الأمر لله وحده فاقصده في كل شدّه
وكيف يقصد عبداً من كان مولاه عنده
اقصم الجبار يا رب فقد تجاوز حدّه
ملأ الأقطار ظلماً مبلغ في ذاك جهده
جعل الأسحار والتنجيم والترميل عدّه
فاعكس اللهم بين الناس مغزاه وقصده

وقال أيضاً:

متى أرى القلب يصفو من تكدره والفكر يخلو من قيل ومن قالِ
والحق يمضي وكف الدين باسطة لا يستطاع لها دفع على حالِ
والعدل في عزة والجور فاعله في ذلة ذات أخواف وأوجالِ
وسنّة المصطفى المختار قاهرة لكلّ ذي بدعة بالرفض قوّالِ

يـا خـالـق الخـلق بلّغـني إلـى زمـن | أرى بِهِ كـلـمـا أمّـلت آمـالـي
قـد طـالمـا حـدثتني النفس أن لهـا | في ذا المجـال مقـالاً شـأنـه عـالي
يـا رب صدق يـا معطي الجـزيـل ويـا | مـولي الجميـل بـإحسـان وإفضـالِ

وقال أيضاً:

لا أتـرك الإلـحـاحـا | مـسـائـي والـصّـبـاحـا
وواضـح الـنـهـار | وظـلـمـة الأسـحـار
حـتـى أرى الإجـابـة | تـأتـي بـلا اسـتـرابـه
أرجـوك يـا رب الـسـمـا | بـأن تـجـيـب كـلّـمـا
أدعـو بـه مـن حـاجـة | طـالـت بـهـا الـلجـاجـة
ومـا أرى لـي مـنـهـجـا | إلـيـك إلا بـالـرّجـا
ولـم يـكـن لـي عـمـل | يـرجـى بـه الـتـوسـل
فـإنـنـي مـخـلِّط | مـقـصـر مـفـرط
يـا غـافـر الـذنـوب | وسـاتـر الـعـيـوب
وقـابـل الـمـتـاب | ورافـع الـعـقـاب
هـا أنـذا مـسـتـغـفـر | وتـائـب مـعـتـذر
ونـادم وعـازم | وبـالـمـتـاب جـازم
عـسـاك يـا رحـمـن | تـمـنّ يـا مـنّـان
عـليّ بـالـمـطلوب | لـي بـقـبـول الـتـوب
أجـب أجـب دعـائـي | يـا سـامـع الـنـدّاء
إدفـع عـنـي الـشـرّا | إرفـع عـنـي الـضـرّا
أدم عـليّ الـنّـعـمـا | اصـرف عـنـي الـنّـقـمـا
زدنـي مـن الإحـسـان | بـلـغـنـي الأمـانـي
وردّ كـيـد الـكـائـد | وخَـسْـد كـل حـاسـد
فـمـا سـواك يـرتـجـى | فـأنـت نـعـم الـمـرتـجـى

ولـه:

عـلـيّ لِلّه إن أعـطيـت مـقـدرة ... في الحـل والعقـد في ورد وفي صـدرِ
أن أنشـر العـدل نشـراً يستنيـر بـه ... معـالم الـدين في بـدو وفي حضـرِ
من بعـد طيّ بسـاط الجـور عن كمـلٍ ... عنـد انبسـاط يـدي بـالنصر والـظفـرِ
وقـد دعى لي خيـر الخلق أحمـد من ... جـاءت بمـدحتـه الآيـات في السّـوَرِ
فقـال: أيِّـدْ بـه الشـرع المبين فهـل ... يشـك في مثـل ذا فـرد من البشـرِ
فـمـن رآه مـنـامـاً قـد رآه كـمـا ... لـو كـان حيّـاً وهـذا صح في الخبـرِ

ولـه:

إذا أجـبـت دعـائـي ... فـضـلاً فـظنـي جـمـيـلُ
وأنـت إن لـم تـجـبـنـي ... حـسـبـي ونـعـم الـوكـيـلُ

وقـال:

أنـا طـالب التعجيـل منـك وقـد ... أخـطأت في قـولي وفـي عمـلي
أيُـلام فـي استـعـجـال مـطلبـه ... مـن كـان مـخـلوقـاً مـن العـجـلِ

ولـه:

إن لـم تـجـبـنـي فـعـدل ... وإن أجـبـت فـفـضـلُ
إن كـنـت لـسـت بـأهـل ... فـأنـت لـلفـضـل أهـلُ
مـن كـان يـرجـو كـريـمـاً ... فـإنّـه لا يَـمـلُّ

وله أيضاً:

إذا أجـبـت دعـائـي ... فـأنـت لـلفـضـل أهـلُ
ولـم أكـن مـسـتـحـقـاً ... فـإن رددت فـعـدلُ
لـكـنـنـي ذو رجـاءٍ ... أن يـغـلب الـعـدل فـضـلُ

ولـه:

أنـا المـذنب الجـاني على كـل حـالة ... ولـكـنـني أرجـو قـبـول دعـائي
فبـاب الرجـا ما ضـاق عني وإن يضق ... ففضـل إلـهي فيـه كـل رجـائي

فمـا طمعي في أن أجـاب لصـالح عـملت فـإنـي عـالـم بـخـطائي
وإنـي مقـرّ بـالـذنـوب فـإنـني تحملت منهـا مـلء كـل وعـائي
وإنـي عـلى ذا ذو رجـاء غـدا بـه الـقـنـوط وراء خـلف كـل وراءِ

وقـال:

فكـرت في علمي وفي أعمـالي ونـظرت في قـولي وفي أفعـالي
فوجدت ما أخشاه منهـا فوق مـا أرجـو فـطاحـت عنـد ذا آمـالـي
ورجعت نحو الرحمـة العظمى إلى مـا أرتجي من فضـل ذي الأفضـالِ
فغدا الرجـا والخوف يعتلجـان في صـدري وهـذا منـتهى أحـوالـي

وقـال:

إن لـم يـكـن لـي قـيـام صـدق بـنـشـر حـق وبـسط عـدلِ
فـاجـذب بـلا مـحـنـة فـؤادي إلـيـك حـتـى أنـال سـؤالـي
وأنـت يـا رب ذو اقـتـدار بـجـمـع هـذيـن مـنّـة لـي

وله أيضاً:

يـا رب لا تـقـبـضـنـي قـبـل مـا أنـال مـا أرجـو مـن الـسـبـقِ
إمـا تـقـىً يـلـحـقـنـي بـالأولـى قـد أحـرزوا الـسـبـق من الـخـلقِ
أو قـدرة تـمـكـنـنـي عـنـدهـا أن أحـمـل الـخـلق عـلى الـحـقِ[1]

رجعنا إلى الاطراد في عدد الرسائل فمنها:

«رفع الجناح، عن نافي المباح» هل هو مأمور به أم لا، و «القول المقبول في رد خبر المجهول، من غير صحابة الرسول» و «جواب السائل عن تفسير تقدير القمر

---

(١) في هامش الأصل ما لفظه: وهو بخط من تحدثنا عنه في المقدمة: وقد جمع شعر شيخ الإسلام رحمه الله كاتب الأحرف هذه في ديوان أسماه «أسلاك الجوهر» فما ذكر هنا ليس بشيء مما له من النظم وكذلك ما مدح به يكون أضعاف أضعاف هذا المجلد والعذر للمصنف بعد دياره وعدم اختباره وهكذا ا عدده من التقصار وغيرها تمت.

منازل» و «أمنية المتشوق، إلى معرفة حُكْم المنطق»، و «إرشاد المستفيد، إلى دفع كلام ابن دقيق العيد في الإطلاق والتقييد»، و «البحث المسلّم، بفوائد تتعلق بقول الله إلا من ظلم» و «البحر المسفر، عن تحريم كل مسكر ومفتر»[1].

فهذه الرسائل المعدودة، والمؤلفات المنقودة، وهي التي انتهت إليّ من مصنفاته المحيطة، ومختصراته غير البسيطة، وعلى ذاك فهذا الحصر والتعداد ليس بواف بكلما أفاد، ولا محيط بكل موضوعاته، ولا كافل باستقصاء مجموعاته وكفى بما أسلفت ذكره دليلاً على تقدمه علماً وفضلاً وحجّة على فوزه من العلم بالقدح المعلى.

* * *

(١) هذا قد طبع وهو صغير الحجم.

﴿كيف كان الشوكاني يدون المسائل ويؤلف المصنفات﴾

وأما كيفية تدوينه المسائل وتأليفها، وذ َر سجيته في ترتيبها وترصيفها عند مراجعته أمهات مصنفاته فأخبرني الثّبت عمَّن لا يرتاب به أنه ينظر فيها ويحفظ معانيها، ويستغني بأول نظر لسبق تحقق المعنى في فكرته الصحيحة ثم يحرر ما يراه عن عفو القريحة.

ولمّا كان غير متشبّع في التنقيح، ولا متكلف في التقسيم والتصحيح، والكشف والتوضيح، وإبراز اللفظ الصحيح الصريح، كانت مؤلفاته، كاشفة للقناع، وافية بما وراء الإقناع، كافية للناظر، شافية للمناظر، وتراه على تبقّره في الحفظ والتحصيل، وحيازته من العلم أوفى كفيل لا يتبجح بما ليس عنده، ويتكلف في تصحيح نقده وتأويله، بل يتوقّى مداحض الزلل تورّعاً.

اطلعت على جواب له وقد سئل عن حديث ذي النسعة فتكلم على ذلك الأثر بما لم يصف عنده عن شوائب الكدر، لرسوخ إشكاله، وعدم وضوح الجواب عما يتعلق بأذياله، ولما رأى ما أتى بِه من الجواب غير واف بلباب الصواب قال في آخره: ما صورته مثل هذا التأويل: لا ضير في المصير إليه مع قربه، وشهره حذف ما يشابه ما ذكرنا فإن ما كان من الأدلة مستلزماً لما يخالف القواعد الشرعيّة يجب تأويله بما أمكن أولى من طرحه، وهذا هو الحامل لنا على بعض ما لا يناسب الإنصاف من هذه التأويلات وبعد هذا كله فأقول: لا أدري ولا يضرّني أن لا أدري، والذي أعلمه قد قلته غير جازم بصوابه، انتهى كلامه.

وكنت أحب إثبات السؤال وجوابه، وتردد ذلك البازل الفحل في عطفات شعابه، ولكني بصدد نشر فضائل وشمائل، لا زَبْر مسائل ورسائل، ومَنْ تشوّق إلى بيانه بحث عليه في مضانه.

﴿وصف شعر الشوكاني﴾

وأما الشعر فهو وإن لم يكن من مفاخر أمثاله، ومتاجر من بلغ رتبة جلاله، فإنه أيسر بضاعته، على طرف الثمام في عمل صناعته.

أخبرني محمد بن صالح العصامي الصنعاني: أنه تيسر له من قوله على هيئة الكلام ورسله، ومنه قوله في حصر علاقات المجاز:

أطلقت دمعي بعد تقييد الهوى ... بحلول أجزا كلّه بمحلهِ
وخصصتني بعموم أسباب بها ... بذْء الغرام غدا مشابه أولهِ
الزمتني ضدّ الذي عرّفتني ... جاورت آلات الهوى ببديلهِ
وحذفتني والقلب ظرف مودةٍ ... يا من تسبب للعذول وقيلهِ[1]

ومن شعره ما أورده آخر رسالته المسماة بـ «تفويق النبال، لسبب اقتضاه الحال»:

لعَمْرك ما في الركب حُرّ ولا أرى ... بهذا الورى من طالب للعليّةِ
فيا طالما قد صحت هل من مساعد ... ويا طالما قد درت بين البريّةِ
فلم أر إلا شارقاً ببلاهة ... يطيش بها أو مصمتاً بتقيّةِ

وله في معنى بيتي الرئيس أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا أو أبي الفتح

---

(١) لضيق المقام لم يتيسر سرد علاقات المجاز التي جمعها الشوكاني بهذه المقطوعة، ولا ذكر أمثلتها وهي مدونة بكتب علم المعاني والبيان وكتب أصول الفقه، ! ولنحلل هذه العلاقات بالتعداد أي لا بد للمجاز من علاقة بالحقيقة بأشيائه المذكورة وهي الإطلاق والتقييد والجزئية والكلية والخصوص والعموم والسببية والشبه والإلزام والظرفية والمشابهة والبدلية وغيرها مما ذكر في مضانها. وقد كنت أحفظها أيام الدراسة غيباً فمن كان ذا فهم فليرجع إلى إرشاد الفحول للإمام الشوكاني رحمه الله.

محمد بن عبد الكريم الشهرستاني [1] على اختلاف في نسبتيهما إلى أيّ الرجلين، حيث قال:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها ... وردت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حاير ... على ذقن أو قارعاً سنّ نادم

فقال في معناهما بعد اشتغاله طويلاً بعلم الكلام درساً وتدريساً وتأليفاً:

وغاية ما حصلته من مباحثي ... ومن نظري من بعد طول التدبر
هو الوقف ما بين الطريقين حيْرة ... فما علم من لم يلق غير التحيّر

وقال مشيراً إلى علم الحقيقة وفيه ما يرجع إلى معنى البيتين السابقين بوجه:

العلم ما أوصل أربابه ... إلى انكشاف الحق رأياً لعين
وما عدا هذا فمحصوله ... ظن وكل العلم للمرء زين
فهب لي العلمين يا واهب الجزل ويا كاشف غين وزَيْن

وعلى ذكر علم الكلام واضطراب الأفكار فيه، ووقوف علمائه موقف الحيرة فما أحسن قول ابن أبي الحديد[2]:

إذا فكرت فيك اغير عقلي ... وألحق بالمجانين الكبار
وأصحو تارة فيثور ذهني ... ويقدح خاطري كشواظ نار
فيا من تاهت العقلاء فيه ... فأضحوا كلّهم صرعى عقار

---

(١) ابن سينا المذكور أحد فلاسفة الإسلام والأطباء العظماء، وشهرته تغني عن ترجمته ومؤلفاته كثيرة في الطب وغيرها من أشهرها كتاب القانون طبع وترجم إلى عدة لغات والبيتان له كما في ابن خلكان (ج ١ ـ ٤١٩) وولادته سنة سبعين وثلاثمائة ووفاته سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، والشهرستاني هو صاحب كتاب الملل والنحل المطبوع على هامش الفصل وهو إمام مبرز في الفقه ومتكلم ضليع على مذهب الأشعرية وأورد ابن خلكان هذين البيتين له. ولادته سنة ٤٦٧ ووفاته سنة ٥٤٨. ابن خلكان (ج ٣ ـ ٤٠٣).

(٢) ابن أبي الحديد هو عبد الحميد بن هبة الله البغدادي معتزلي النحلة، أديب كبير وصاحب شرح نهج البلاغة المطبوع وله غير ذلك. ولادته سنة ٥٨٩هـ ووفاته سنة ٦٥٦هـ. الأعلام.

ويـا مـن حـارت الأفـكـار فـيـه فـآبت بـالـمـتـاعـب والـخـسـارِ
ويـا مـن لـيس يـعـلـمـه نـبـيٌّ ولا مـلـك ولا يـدريـه داري
ويـا مـن لـيس قـدامـاً وخـلـفـاً ولا جـهـة الـيـمـيـن ولا الـيـسـارِ
ولا فـوق الـسـمـاء ولا تـدلـى من الأرضيـن في لـجـج الـبـحـارِ
ويـا مـن أمـره مـع ذاك أجـلـى من ابن جلى وأوضح من نـهـارِ
سـألـتـك بـاسـمـك الـمـكـنـون إلا فـكـكـت الـنـفس من ذاك الإسـارِ

ومن شعره في المعنى المذكور وكل ذلك لحيرته في الذات ـ قوله:

فـيـك يـا أعـجـوبـة الـكـون غـدا الـفـكـر عـلـيـلا
أنـت حـيَّـرت ذوي الـلـب وبـلـبـلـت الـعـقـولا
كـلـمـا أقـدم فـكـري فـيـك شـبـراً فـرّ مـيـلا
نـاكـصـاً يـخـبـط فـي عـمـيـاء لا يُـهـدى الـسـبـيـلا

ومن ذلك قوله:

أمـا والله مـا وصـل ابـن سـيـنـا ولا أغـنـى ذكـاء أبي الـحـسـيـنِ
ولا رجـعـا بـشـيء بـعـد بـحـث وتـدقـيـق سـوى خـفـيّ حـنـيـن
لـقـد طـوفـت أطـلـبـكـم ولـكـن يـحـول الـوقـت بـيـنـكـم وبـيـنـي
فـهـل بـعـد انـقـضـاء الـوقـت أحـظـى لـوصـلـكـم غـداً وتـقـرّ عـيـنـي
مـنـىً عـشـنـا بـهـا زمـنـاً وكـانـت تـشـوقـنـا بـصـدق أو يـمـيـنِ
وإن أكـذب فـذاك ضـيـاع ديـنـي وإن أصـدق فـذاك حـلـول دَيـنـي

ومنها مناجاته[1] المشهورة التي أولها:

يـا مـبـدع الأكـوان لـسـتُ لـسـرّك الـمـكـنـون أجـحـدُ

وهي شهيرة لا تخفى فلا حاجة لذكرها.

---

(١) أي مناجاة ابن أبي الحديد.

ومن معلقاته النظميّة على محصول الرازي[1] قوله:

وحقّك لو أدخلتني النار قلت للذين بها قد كنت ممّن يحبّهُ
وأفنيت عمري في دقيق علومه ... وما بغيتي إلا رضاه وقربهُ
هبوني مسيئاً حصل العلم جهلةً ... وأوثقه دون البريّة ذنبهُ
أما يقتضي شرع التكرم عفوه ... أيحسن أن يُنسى هواه وحبّهُ
أما ردّ زيغ ابن الخطيب وشكه ... وتمويهه في الدين إذ عزّ خطبهُ
أما كان ينوي الحق فيما يقوله ... أما تنصر التوحيد والحق كتبهُ
وغاية صدق الصب أن يعذب الأسى ... إذا كان من يهوى عليه يصبهُ

فأجابه صلاح الدين بن أيبك الصفدي[2]:

علمنا بهذا القول أنك آخذ ... بقول اعتزال جلّ في الدين خطبهُ
فتزعم أن الله في الحشر لا يرى ... وذاك اعتقاد سوف يرديك غبّهُ
وتنفي صفات الله وهي قديمة ... وقد أثبتتها عن إلهك كتبهُ
وتعتقد القرآن خلقاً ومحدثاً ... وذلك داءٌ عزّ في الناس طبّهُ
وتثبت للعبد الضعيف مشيئةً ... يكون بها ما لم يقدره ربّهُ
وأشياء من هذا الفضائح جمّة ... فأيكما داعي الضلال وحزبهُ

---

(١) الرازي وهو المشهور بفخر الدين الرازي وبابن الخطيب. قال ابن خلكان (ج ٣ ــ ٣٨١) هو محمد بن عمر فريد عصره ونسيج وحده فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل. له التصانيف في فنون عديدة منها تفسير القرآن الكريم جمع فيه كل غريب وهو كبير جداً وقد طبع والمحصول طبع أيضاً وكانت ولادته سنة ٥٤٣هـ ووفاته سنة ٦٠٦هـ.

(٢) الصفدي نسبة إلى مدينة صفد في فلسطين أعادها الله إلى يد المسلمين العرب واسمه خليل بن أيبك ولقبه صلاح الدين، أديب ومؤرخ وكاتب قدير ومصنف بلغت مؤلفاته مائتي مؤلف منها الوافي بالوفيات، عدة أجزاء، طبع منها أجزاء و «نكت الهميان، في تراجم فضلاء العميان» طبع وكانت ولادته سنة ٦٩٧ ووفاته سنة ٧٢٤. البدر الطالع (ج ١ ــ ٢٤٣).

ومن ذا الذي أضحى قريباً إلى الهدى وحامى عن الدين الحنيفي ذبّهُ
وما ضرّ فخر الدين قول نظمته وفيه شناع مفرط إذ تَسُبُّهُ
وقد كان ذا نور يقود إلى الهدى إذا طلعت في حندس الشك شبههُ
ولو كنت تعطي قدر نفسك حقه لأخمدت جمراً بالمحال تشبهُ
وما أنت من أقرانه يوم معرك ولا لك يوماً بالإمام تشبهُ

قال شيخ الإسلام الذهبي[1] في تاريخ الإسلام: إن الشيخ عبد الحميد بن أبي الحديد أشعر العلماء على الإطلاق، وقال يرثي أخاه ومحمد بن عبد الملك العلقمي الوزير، وكان قد تتابع موتهما بعد أن جرى في الإسلام والمسلمين ما جرى من أمر التتار، وقاسى أهل بغداد وغيرهم تلك الشدائد، فقال:

أأبا المعالي هل سمعت تأوهي ولقد عهدتك في الحياة سميعا
عيني بكتْك ولو تطيع جوارحي وجوانحي أجرت عليك نجيعا
ووفيت للمولى الوزير فلم تعش من بعده شهراً ولا أسبوعا
وبقيت بعدكما فلو كان الردى بيديَّ فارقنا الحياة جميعا

وواقعة التتار ببغداد هي عام ست وخمسين وستمائة وورودها يوم عاشوراء من السنة المذكورة وانهزم عنهم عسكر المستعصم أبي أحمد بن عبد الله بن المنتصر آخر خلفاء بني العباس بالعراق، وتقرر بينه وبينهم صلح وخرج الخليفة فأنزل خيمة ثم أخرج الفقهاء والأعيان فضربت أعناقهم طائفة بعد طائفة حتى أتي

(١) الذهبي هو محمد بن أحمد الذهبي الحافظ الكبير والناقد البصير، صاحب التصانيف التي ملأت الدنيا منها: تاريخ الإسلام، عشرون مجلداً، والنبلاء، عشرون مجلداً، والميزان، أربع مجلدات، وله غير ذلك. مولده سنة ٦٧٣ ووفاته سنة ٧٤٨. البدر الطالع (ج ٢ ـ ١١٠). وقد وهم في البدر الطالع أو من المطبعة أن مولد الذهبي سنة ٧٧٠ فأصلحناه بالبداهة.

على جميعهم أو أكثرهم ثم مُدَّ الجسر ووضع التتار[1] السيف في بغداد فبلغ عدد القتلى أكثر من ألف ألف نسمة ولم يبق إلا من اختفى في بئر أو قناة وقتل الخليفة رفساً، قال الذهبي: وما أظنّه دفن وقتل معه جماعة من أولاده وأعمامه، وأسر بعضهم، والوزير الذي أشار إليه ابن أبي الحديد هو مؤيد الدين بن العلقمي المذكور في خطبة شرح نهج البلاغة، وتوفي في تلك السنة ويقال أنه مات كمداً لأنه كان السّاعي بين الخليفة وهولاكو عظيم التتار فغدروا.

وفي هذه السنة قتل أحمد بن الحسين صاحب ذي بين[2] على يد الجمع

---

(١) كارثة التتار العظماء والمصيبة الشنعاء التي لم يصب الإسلام مثلها في التاريخ القديم إلا بالتاريخ الحديث بالاستعمار الخبيث للعرب والإسلام وهم نيام وبئس النيام وأحسن من أفاض القول في هذا الحادث الجلل المؤرخ الكبير ابن الأثير الآتي ذكره، ولم تكن مصيبة التتار خسارة في الأرواح والأموال بل تعدتها إلى التراث الإسلامي فقد ألقوا إلى دجلة كنوز الحكمة من الكتب المخطوطة النادرة المثال ما تكون منها جسور وقناطر يمرون عليها واسودّ ماء دجلة طيلة أيام وتخلت بغداد من الخلافة الإسلامية.

(٢) هو الملقب المهدي واشتهر بأبو طير وصاحب ذيبين وممدوح شاعريْ اليمن محمد بن حمير وابن هتيمل وكانت دعوته سنة ست وأربعين وستمائة ويقال إنه كان من أمثل أئمة الزيدية وأحرصهم على اتباع سنّة خير البرية وقد كاد يعلنها صراحة، وفرض على أهل بلاده من ذمار إلى صنعاء معونة خمسمائة ألف وعشرين ألف درهم حتى الأرامل والأيتام ثم تمالأ على قتله والذي تولى كبر ذلك أحمد بن عبد الله بن حمزة والقاضي أحمد بن محمد الرصّاص والحسن بن وهاس الحمزي وحصل المصاف بشوابه أعلا الجوف وقتل هناك وكتب أحمد بن عبد الله بن حمزة إلى الملك المظفر الرسولي: صدورها من المصاف بشوابه ورأس أحمد بن الحسين بين يدي:

وأبلج ذي تاج أشاطت رماحنا	بمعترك بين الفوارس أقتما
هوى بين أيدي الخيل إذ فتكت به	صدور العوالي تنضح المسك والدما

وهناك قيلت أبيات ذكرناها في تعليقنا على كتاب «العسجد المسبوك للخزرجي» وقوله على يد الجمع الخارجان عليه، كذا في الأصل وصوابه «على يد الجمع الخارجين عليه».

الخارجان عليه به الرصّاص والحسن بن وهاس ويقال إن المستعصم[1] كان بعث لقتله رجلين من الحشيشيّة وتواطأ عليه أحد عماله بذلك وجرى منهما بعد حصولهما بين يدي أحمد بن الحسين من الوثوب عليه مريدين لقتله ما شرحه ابن أبي الرجال في كتابه «مطلع البدور»[2].

قال المؤرخ الحافظ يوسف بن يحيى المؤيّد في كتابه «نسمة السحر»[3] إن صح ما نسب إلى المستعصم من الإشارة لقتل الإمام أحمد بن الحسين فقد شربا جميعاً الحمام بكأس واحد.

وهؤلاء الحشيشيّون فرقة من الإسماعيلية من أهل قلعة ألموت: بفتح

---

(١) المستعصم بالله هو أبو أحمد بن المستنصر بالله آخر الخلفاء العباسيين بالعراق. مولده سنة تسع وستمائة وكان كريماً حليماً سليم الباطن حسن الديانة متمسكاً بالسنة كأبيه وجده وله إجازة بالعلوم من علماء عصره، وقتل سنة ست وخمسين وستمائة، تاريخ الخلفاء، ص ٤٦٤.

(٢) ابن أبي الرجال اسمه أحمد بن صالح بن محمد ورفع نسبه إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في مؤلفه مطلع البدور ومنه أخذ الشوكاني. قال المؤرخ المنصف يحيى بن الحسين بن القاسم في آخر كتابه المستطاب ما لفظه: لم أسمع أحداً يقول إن آل أبو الرجال من ذرية عمر بن الخطاب، ولم أسمع ذلك إلا من القاضي أحمد بن صالح أبو الرجال.
وقال الجندي في تاريخه عند سرده لعلماء الزيدية ثم محمد بن أبي الرجال: وأصل ابن أبي الرجال من بني شهاب، قال الحوالي: وبنو شهاب هي التي تسمى اليوم بلاد البستان وفيها بلدة تسمى بيت رجال نسبت إلى رجال بن حجدب بن حمير. انظر الإكليل (ج ٢ ــ ٢٦٢).

(٣) قال الإمام الشوكاني في البدر (ج ٢ ــ ٣٧٢) وصنف «نسمة السحر في ذكر من تشيّع وشعر» ذكر فيه جماعة من الشعراء المتقدمين المشهورين ومن أهل عصره وما يقرب منه وكتابه حسن لولا ما شابه من التسخط على أهل عصره ورميهم بكل عيب والتنويه بالعبيديين وغيرهم من الرافضة وانتقاص الأئمة وأكابر السادة إلى أن قال: وكثيراً ما ذكر قولاً من أقوال الإمامية في غاية السقوط فيميل إلى ترجيحه وهو إمامي المعتقد ووفاته سنة واحد وعشرين ومائة وألف.

الهمزة، وإسكان اللام وفتح الميم وواو وتاء[1]، وهي من بلاد العجم، وهم قوم أفرطت شجاعتهم إذا أراد رئيسهم اغتيال ملك أرسل واحداً منهم في زي طبيب أو منجّم فإذا وصل إلى من يريد قتله وأمكنته فرصة قتله ثم يعود إن سلم وإلا سلَّم رئيس الحشيشيين ديته لولده.

وإن كان وسيماً باعه آخر على أنه غلام أو جارية فينفذ الإرادة ولا يستحلّون مخالفة الرئيس، وإن تمنّع أحدهم قتله أهله، وعظمت منهم مخافة الملوك من سنة خمس وخمسين وستمائة ببلاد العجم والعراق والشام والمغرب، وربما استشهد بعض الملوك من صاحب «ألموت» رجلاً منهم متى أراد اغتيال آخر ويبعثه إليه في صورة مملوك ومن قتلاهم الآمر بأحكام الله صاحب مصر ونظام‌ملك[2] وغيرهما.

قال ابن خلكان: وفي سنة سبع وخمسين وخمسمائة أتى الملك يحيى بن تميم[3] قوم غرباء يزعمون أنهم من أهل الصناعة الكبرى الواصلين إلى نهايتها

---

(١) الإسماعيلية هم الباطنية ولهم أسماء غير هذا، انظر: كشف أسرار الباطنية بإخراجنا، وقلعة ألموت بناحية قزوين من خراسان وأول من اتخذها الحسن بن الصباح الإسماعيلي. انظر: تاريخ ابن الأثير.

(٢) الآمر بأحكام الله اسمه منصور بن المستعلي العبيدي. كان جواداً بالمال سفاكاً للدماء، ومولده سنة تسعين وأربعمائة بالقاهرة. وتولى وعمره خمس سنين وقتل سنة أربع وعشرين وخمسمائة وكان قبيح السيرة ظالماً للناس يأخذ أموالهم ويسفك دماءهم وارتكاب المحظورات وحب القبائح. وأما نظام الملك فهو الحسن بن علي بن إسحاق الملقب قوام الدين الطوسي. كانت ولادته سنة ثمان وأربعين وقتله صبي على هيئته الصوفية من الباطنية وكان نظام الملك من أفذاذ الرجال، له أخبار حسان ومبرات جسام. ابن خلكان (ج ١ ـ ٣٩٧).

(٣) يحيى بن تميم هو ابن المعز بن باديس الحميري صاحب إفريقية وما والاها وكانت ولاية الأمير المذكور بالمهدية عن «تونس» عن أبيه تميم واستقل بالملك وهو من عمره في ثلاث وأربعين سنة وستة أشهر وعشرين يوماً، وكان يحيى هذا عادلاً في دولته ضابطاً لأمور رعيته عارفاً بخرجه ودخله مدبراً في جميع ذلك على ما يوجبه النظر العقلي ويقتضيه الرأي الحكمي، وكان كثير المطالعة لكتب الأخبار والسير عارفاً بها رحيماً للضعفاء شفيقاً على

فطالبهم أن يظهروا ما يقف عليه فسألوه أن يكون ذلك في خلوة فأجابهم، وأحضرهم للعمل ولم يكن عنده سوى الشريف أبي الحسن علي والقائد إبراهيم، وكانوا هم ثلاثة وكانت بينهم أمارة فأمكنتهم الفرصة فقال أحدهم: دارت البويْقة فتواثبوا وقصد كل واحد منهم واحداً بسكاكينهم فأما الذي قصد الأمير يحيى فضربه على أمّ رأسه فقطعت طاقات من العمامة، ولم تؤثر في رأسه وخدشت صدره ولكزه يحيى برجله فألقاه على ظهره فسمعت الخدم الجلبة ففتحوا باب القصر من الجهة التي تليهم فدخل يحيى وأغلق الباب، وأما الشريف فلم يزل به الذي قصده حتى قتله، وأما القائد فشهر سيفه فلم يزل يقاتل الثلاثة حتى كسر الباب الجند ودخلوا فقتلوهم، وركب الأمير يحيى في البلد وسكن الفتنة.

وكان يحيى بن تميم هذا مفزعاً للبلغاء ومن وجوه شعرائه أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي الداني[1] وفيه يقول في قصيدة:

وارغب بنفسك إلا عن ندى ووغى	فالمجد أجمع بين البأس والجودِ
كدأب يحيى الذي أحيت مواهبه	ميت الرجاء بإنجاز المواعيدِ
معطي الصوارم والهيف النواعم والجر	د الصلادم والبزل الجلاعيدِ
أشم أشوس مضروب سرادقه	على أشم بفرع النجم معقودِ
إذا بدا بسرير الملك محتبياً	رأيت يوسف في محراب داودِ
من أسرة اتخذوا الماذي لبسهم	واستوطنوا صهوات الضمّر القودِ
محسّدون على أن لا نظير لهم	وهل رأيت عظيماً غير محسودِ

الفقراء يطعمهم في الشدائد فيرفق بهم ويقرب أهل العلم والفضل وأطال في نعوته ابن خلكان (ج ٥ ـ ٢٥٦) ووفاته فجأة يوم عيد النحر سنة تسع وخمسمائة وحكى القصة التي ذكرها المؤلف.

(١) أبو الصلت أمية بن عبد العزيز هو كما ساق نسبه ابن خلكان (ج ١ ـ ١٢٠) كان أديباً ماهراً عرف بالحكمة فكان يقال له «الأديب الحكيم»، عارفاً لعلوم الأوائل. انتقل من الأندلس وسكن ثغر الاسكندرية ثم انتقل إلى المهدية ووفاته بها سنة تسع وعشرين وخمسمائة ومولده سنة ستين وأربعمائة وله ديوان شعر.

وإن تكن جمعتكم أسرة كرمت ... فليس في كل عود نفحة العودِ
أقول للراكب المزجي مطيته ... يطوي بها الأرض من بيد إلى بيدِ
لا تترك الماء عذباً في مشارعِه ... وتطلب الريّ من صمّ الجلاميدِ
هذي موارد يحيى غير ناضبةٍ ... وذا الطريق إليه غير مسدودِ
حكِّم سيوفك فيما أنت طالبه ... فللسيوف قضاء غير مردودِ

وأما والده تميم بن المعز بن باديس فكان ملكاً شهماً ذا فكاهة وحسن محاضرة، وهو سادس ملوك بني باديس وهم تسعة ملوك أولهم زيري الحميري الصنهاجي ثم بلّكين ثم المنصور ثم باديس ثم المعز ثم تميم ثم يحيى ثم علي ثم الحسن[1] وهو آخر ملوكهم وكانت دار مملكتهم أفريقية[2] وما حولها. ومن شعر تميم قوله:

سلوا المطر العام الذي عمَّ أرضكم ... أجاء بمقدار الذي فاض من دمعي
إذا كنت مطبوعاً على الصدّ والنوى ... فمن أين لي صَبْرٌ فأجعله من طبعي

ومدحه ابن رشيق[3] بقوله:

أصحّ وأعلا ما رويناه في الندا ... من الخبر المأثور منذ قديمِ
أحاديث ترويها السيول عن الحُبَا ... عن البحر عن كف الأمير تميمِ

ومن عجيب أخبار تميم أنها شُريت له جارية من بغداد في غاية الحسن والجمال والأدب والظرف وإحسان طريقة الغناء فَسُيِّرَتْ له إلى القيروان فلما وصلت إليه، عقد له ولندمائه مجلساً واستحضرها فغنت بقول الحسني[4]:

---

(١) انظر تراجم هؤلاء ابن خلكان.
(٢) تطلق أفريقية قديماً على تونس والجزائر وليبيا: طرابلس الغرب واليوم على قارة أفريقية المعروفة اليوم.
(٣) ابن رشيق: قد سبق الإلماع إلى ذكره وهو الحسن بن رشيق القيرواني أحد الفضلاء البلغاء. له التصانيف المليحة منها «العمدة» في صناعة الشعر ونقده مطبوع وله غير ذلك. ولد بالمهدية سنة ٣٩٠هـ وكانت وفاته سنة ٤٥٦هـ.
(٤) لا يعرف هذا.

وبدا لـه من بعـد مـا انـدمـل الهـوى	بـرق تـألـق مـوهـنـاً لـمـعـانـهُ

ثم غنت ثانياً بقول الشاعر:

سيسليـك عمّا فـات دولـة مفضـل	أوائـلـه مـحـمـودة وأواخـرهُ
ثنى الله عـطفيـه فـألّف شخصـه	على البـرّ مذ شـدّت عليـه مـآزرهُ

فطرب الأمير تميم ثم غنّت ثالثاً بقول ابن زريق[1]:

استـودع الله في بغـداد لي قـمـراً	بـالكـرخ من فلك الأزرار مـطلعـهُ

فـاشتـد طـرب تميم ونـدمـائـه ثم غنت رابعـاً بقـول مـوسى بن عبـد الملك الأصفهاني[2]:

لـمـا وردنـا الـقـادسـيـة	حـيث مـجتـمع الـرفـاقِ
وشـممـت من أرض الـحـجـاز	نـسـيـم أنـفـاس الـعـراقِ
أيـقـنـت لي ولـمـن أحـب	بـجـمـع شـمـل واتـفـاقِ
لـم يبـق لي إلا تـجـشّـم	هـذه الـسـبـع الـبـواقـي
حـتـى يـطول حـديـثـنـا	بـشكـاء مـا كـنّـا نـلاقـي

فكاد عقل الأمير أن يطير طرباً وسروراً، فقال لها: اقترحي. فقالت: أتمنى عافية الأمير وسروره، فقال لها: لا بد أن تقترحي، فقالت: أغني بهذا الصوت في بغداد. فاغتمّ لهذا الاقتراح ونهض من مجلسه مكفهراً وانفض المقام بأولئك الندماء، فلما كان بعد مضي أيام يسيرة استدعى مشتريها له، وقال له: قد عرفت اقتراح هذه الجارية وقد وجب الإيفاء لها فانهض معها فسارت على عمارته[3] وذلك الرجل يصحبها حتى قدما مكة فحجّا ثم سارا نحو بغداد وكانت تسأل عن المحلات

(١) سبق إلماع إلى ابن زريق ولم أجد له ترجمة فيما بين يدي من المراجع.

(٢) كان موسى هذا من جملة الرؤساء وفضلاء الكتاب وأعيانهم تنقل في خدمة الخلفاء إلى أن صار إليه ديوان السواد أيام المتوكل العباسي وكانت وفاته سنة ٢٤٦هـ. ابن خلكان (ج ٤ ــ ٩١٤).

(٣) العمارة: محمل كالهودج ونحوه.

التي تبيت بها كل ليلة إلى أن وصلوا القادسية فقالت لجارية سوداء كانت معها في العمارية: أين نحن الآن؟ فخرجت إلى الرجل تلك الجارية فسألته فقال: بالقادسية فدخلت عليها فأخبرتها فرفعت صوتها بقول الأصفهاني «لما بلغنا القادسية» الأبيات. . . إلخ ثم سكتت فصاح أهل الركب: بالله زيدي بالله زيدي ثم رحلوا إلى أن بلغوا الياسرية[1] وهي محلة ليس بينها وبين بغداد إلا بساتين متصلة وأشْجَار مُدَوحة، وأما المسافة بينهما فمقدار نصف يوم فما راع الرجل الموكل بها نصف تلك الليلة إلا خروج الجارية السوداء وهي تقول له: إن سيدتي قد فقدت فتطلبها غاية التطلب فكأنما غاصت بين سمع الأرض وبصرها فرجع إلى الأمير تميم فأخبره فغُمَّ لذلك الأمر أشد غمّ.

وها هنا نكتة ينبغي التنبيه عليها وهي أن يوسف بن يحيى المؤيدي ذكر في ترجمة تميم من كتابه «نسمة السَّحر» أنه كان على مذهب العبيديين[2] وآل أمره إلى القول بمذهب أهل السنَّة، وجزم بتحريم التقليد على الإطلاق وأمر العلماء بأن يفتوا بما تؤدي إليه أنظارهم استنباطاً من الدليل حتى قال: وقد نقل ابن خلكان أنه وصل من أهل المغرب إلى مصر جماعة من العلماء منهم ابن دحية وابن العربي[3] وغيرهما وذكروا أنهم باقون على سلوك تلك الطريقة التي آل أمر تميم إليها وحمل الناس عليها هذا ما ذكره صاحب النسمة في ترجمة تميم فظهر لي أن هذا منه انتقال وتحقيق لم يصدر عن استثبات فإني راجعت ابن خلكان وما ذكر به تميم فلم أجد ما توهمه صاحب النَّسمة إلا أني رأيت[4] ابن خلكان نسب هذا إلى يعقوب بن

---

(١) القادسية بلدة جنوب العراق كانت بها الوقعة المشهورة بين الفرس والمسلمين أيام عمر بن الخطاب. والياسرية: بالياء المثناة من تحت آخره هاء كما ذكرها المؤلف.

(٢) العبيديون نسبة إلى عبيد الله بن ميمون القداح أول خلفائهم بأفريقية وآخرهم العاضد بمصر، انظر: قرة العيون وابن خلكان والمقريزي وابن الأثير.

(٣) ابن الكلبي: اسمه عمر بن الحسن يرتفع نسبه إلى دحية الكلبي الصحابي الجليل، وهو مؤرخ وحافظ للحديث وله مؤلفات منها ما قد طبع ومنها مخطوط. مولده سنة ٥٤٤ ووفاته سنة ٦٣٣. الأعلام، ابن خلكان (ج ٣ ــ ١٢١).

(٤) ابن العربي هو محمد بن عبد الله المعافري الأندلسي. أشاد بالثناء عليه ابن خلكان (ج ٣ ــ ٤٢٣) ومولده سنة ٤٦٨ ووفاته سنة ٥٤٣هـ.

يوسف بن عبد المؤمن فقال: وأمر برفض فروع الفقه وأن العلماء لا يفتون إلا بالكتاب والسنة ولا يقلدون أحداً من الأئمة المجتهدين بل تكون أحكامهم مما يؤدي إليه اجتهادهم باستنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس.

قال ابن خلكان: ولقد أدركنا جماعة من مشايخ الغرب وصلوا إلينا وهم على تلك الطريق مثل أبي الخطاب بن دحية وأخيه أبي عمرو والشيخ محيي الدين ابن عربي نزيل دمشق(١)، فسبحان من لا يعتريه نسيان ولا يخالط علمه المتعالي سهو ولا انتقال.

نعم ويذكر ما توهمه السيد يوسف على حفظه واطلاعه ذكرت له وهماً آخر حكاه في ترجمة السيد إسحاق بن المهدي أحمد بن الحسن بن الإمام القاسم(٢) وذاك أنه أورد أبياته المشهورة في الحمامة ثم ساق أبياتاً مختلفة مما قيل في الحمامة إلى أن ألمع بما جرى لأبي محلّم عوف بن محلّم مع عبد الله بن طاهر وذكر شعر أبي كثير الهذلي(٣) وهو:

---

(١) فيما سبق ابن العربي وهو الذي ترجمنا له وهنا محيي الدين بن عربي وهو غير الأول ويقال ابن العربي محيي الدين محمد بن علي الصوفي الفيلسوف. وفاته سنة ٦٣٨هـ وهو المراد هنا.

(٢) ترجم له المؤرخ زبارة في ملحق البدر الطالع، ص ٥٣، وقال: كان رئيساً نبيلاً وعلامة جليلاً أكمل أهل عصره وحبسه أخوه محمد بن أحمد صاحب المواهب ثم أطلقه وولاه ولايات واسعة ومات سنة ١١٢١هـ.

(٣) أبو محلّم عوف بن محلم الشيباني أحد العلماء الأدباء الرواة الندماء الشعراء. أصله من حران فانتقل إلى العراق فاختصه طاهر بن الحسين لمنادمته فبقي معه ثلاثين سنة لا يفارقه ومات طاهر فقربه ابنه عبد الله بن طاهر وجعل له منزلة واستمر عوف في صحبة عبد الله إلى أن كبر وجاوز الثمانين فحنّ إلى أهله ففارق عبد الله فمات في طريقه إلى حران (الإعلام، ج ٥). وأما عبد الله بن طاهر فهو الخزاعي، أحد رجال الدهر علماً وأدباً ورئاسة ومجداً وسؤدداً، والمؤرخون على اختلافهم معجبون بأعماله والثناء عليه. قال ابن الأثير: كان عبد الله من أكثر الناس بذلاً للمال مع علم ومعرفة وتجربة، وقال ابن خلكان: كان عبد الله سيداً نبيلاً وكان المأمون كثير الاعتماد عليه، وقال الذهبي في دول الملوك: كان عبد الله

ألا يا حمام الأيك إلفك حاضر وغصنك ميّادٌ ففيم تنوحُ

ثم استطرد هناك إنشاد عبد الله بن طاهر هذا البيت وما بعده وكان قد سمع ترجيع القماري وهو في هودجه بناحية من ظهر الريّ[١] وكان عوف بن محلم معادلاً له فأنشده أبيات أبي كثير التي منها البيت المذكور وسأله أبياتاً في معناها على رويّها وقافيتها فارتجل عوف الشعر المشهور وأوله:

أفي كل يوم غربة ونزوح أما للنوى من أوبةٍ فتريحُ[٢]

فعزى الشعر المولى يوسف إلى أبي العميثل[٣] ووهم أن القصة جرت له

من كبار الملوك وأخباره تكثر وولادته سنة اثنتين وثمانين ومائة ووفاته سنة ثلاثين ومائتين (الأعلام، ج ٤)، ومات عوف في حدود العشرين ومائتين. وأبو كثير الهذلي، اسمه عامر بن حليس وهو صحابي اشتهر بكنيته أتى النبي ﷺ فقال له: أحلّ لي الزنا فقال له: أتحب أن يؤتى إليك مثل ذلك قال: لا، قال: فارض لأخيك ما ترضى لنفسك، قال: فادع الله أن يذهبه عني، وهو من شعراء الحماسة والأبيات مذكورة في ديوان الهذليين.

(١) الري: كانت عاصمة خراسان وقد دخلت اليوم فيما يسمى طهران.

(٢) وبعده:

لقد طلح البين المشت ركابي فهل أرينّ البين وهو طليح
وأرّقني بالريّ نوح حمامة فنحت وذو اللب الغريب ينوح
على أنها ناحت ولم تذر دمعة ونحت وأسراب الدموع سفوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما ومن دون أفراخي مهامه فيح
إلا يا حمام الأيك إلفك حاضر وغصنك ميّاد ففيم تنوح
عسى جود عبد الله أن يعكس النوى فتلقى عصا التطواف وهي طريح
فإن الغنى يدني الفتى من صديقه وعُدْم الفتى بالمغربين طروح

فاستعبر عبد الله ورق له وقال: والله إني لضنين بمفارقتك شحيح على الفائت من محاضرتك، ولكن والله لا أعملت معي خفّاً ولا حافراً إلا راجعاً إلى أهلك وأمر له بثلاثين ألف درهم. (معاهد التنصيص، ص ١٧٠).

(٣) أبو العميثل: بفتح العين المهملة والميم وسكون الياء المثناة من تحت وفتح الثاء المثلثة آخره لام، ومعناه الأسد واسمه عبد الله بن خليد اختص بالأمير طاهر الخزاعي، وابنه عبد الله، وكان شاعراً مفلقاً وكاتباً منشئاً ومؤلفاً في فنون الأدب. ترجمه ابن خلكان

مع عبد الله بن طاهر، فما أدري من أين نقل هذا فإن الشعر والقصة محكيان عن أبي محلّم عوف بن محلم وقد وقفت عليها كذلك في كامل أبي العباس المبرد وتاريخ ابن خلكان وهما كما لا يخفى كتابان معتمدان وأيضاً فإنّ الصفدي ذكر ذلك في شرح الجهورية.

وهذا الانتقاد عرض ليْ تحريره هنا لتصحيح نسبة الواقعتين إلى صاحبهما ليتيقظ لذلك المطلع.

وأما أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فكان ملكاً عظيماً أطاع له المغرب الأدنى والأقصى وجزيرة الأندلس وكان شديداً في دين الله حتى يقال أنه قتل على شرب الخمر رحمه الله وكان كثير النوال جزيل المنّ والإفضال، وصل شمس الدين بن منقذ يستنجده برسالة إليه من صلاح الدين بن أيوب[1] على الإفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد المقدسة وامتدحه ابن منقذ بقصيدة يقول فيها:

سأشكر بحراً ذا عباب قطعته ... إلى بحر جود ما لأخراه ساحلُ
إلى كعبة التقوى إلى معدن الندى ... إلى من سمت بالذكر منه الأوائلُ
إليك أمير المؤمنين ولم تزل ... إلى بابك المأمول تزجى الرواحلُ
قطعت إليك البحر والبحر موقن ... بأن نداك الغمر بالنجح كافلُ
وحزت بقصديك العلى فبلغتها ... وأدنى عطاياك العلى والفواضلُ
فلا زلت للعلياء والجود بانياً ... تبلّغك الآمال ما أنت آملُ

وعدّتها أربعون بيتاً فأعطاه أربعين ألف دينار لكل بيت ألف دينار.

وأما الرسالة التي يحملها إليه عن صلاح الدين فعاد عنها بلا فائدة، والسبب

(ج ٢ ــ ٢٧٥) وابن المعتز في طبقاته (ص ٢٨٧) ووفاتُه سنة أربعين ومائتين. ومن شعره وقد حجبه أحد الأميرين المذكورين:

سأترك هذا الباب ما دام إذنه ... على ما أرى حتى يلين قليلا
إذا لم أجد يوماً إلى الإذن سلماً ... وجدت إلى ترك المجيء سبيلا

(١) صلاح الدين الأيوبي: اسمه يوسف بن أيوب، قاهر الفرنجة ومبيد خضراءهم. اشتهر بالحرب الصليبية وهو من مفاخر الإسلام، وقد ألفت فيه المؤلفات الفخام ومات بدمشق وقبره هناك يزار، وفاته سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

أن صلاح الدين خاطبه بأمير المسلمين ولم يخاطبه بـأمير المؤمنين فبعث منـه بهديـة حقيرة، وقال لابن المنقذ: إنما أعطيناك لفضلك ولبيتك.

وحكى صاحب نفح الطيب[1] ليعقـوب غزوة هي في الإسـلام طراز، قـال: وهي تضـاهي وقعة الـزلاقة أو تـزيد وتسمى غـزوة الأراك، والأراك موضـع بنـواحي بطليوس[2] وكانت سنة إحدى وتسعين وخمسمائـة ودارت رحاهـا بين يعقوب وملك النصارى وغنم فيها المسلمون ما عظم قدره وكـان عدّة من قتل مائـة ألف وخمسين ألف «خيمة»[3] وغنم المسلمون من الخيل ثمانين ألفاً ومن البغال مائة ألف ومن الحمير أربعمائة ألف حمار وكان جاء بها الكفار تحمل أثقالهم لأنهم لا إبل لهم.

وأمّا الجواهر والأموال فلا تحصى، وبيـع الأسير من النصارى بدرهم، والسيف بنصف درهم والفـرس بخمسة دراهم والحمـار بـدرهم، وقسم يعقـوب الغنـائم بين المسلمين بمقتضى الشرع، ونجى ملك النصارى إلى طليطلة[4] في أسوأ حال وحلق رأسه ولحيته وآلى أن لا ينـام على فراش ولا يقـرب النساء ولا يـركـب فرسـاً ولا دابة حتى يأخذ بالثأر، وصار يجمـع من الجزائر والبلاد البعيدة ثم لقيه يعقوب[5] وهزمـه وسـاق خلفه إلى طليـطلة وحاصـره ورمى عليه بـالمجانيق وضيّق عليها ولـم يبق إلا فتحها فخرجت إليه والدة سلطان الإفرنـج وبناته ونساؤه وبكين بين يديه وسألنه إبقاء البلد عليهنّ فرقّ لهنّ ومنّ عليهن بها ووهب لهنّ من الأموال والجواهـر قدراً جليـلاً

---

(١) تقدم ذكر صاحب نفح الطيب.

(٢) بطليوس: مدينة كبيرة بالأندلس نسب إليها أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليـوسي النحوي اللغوي صاحب التصانيف والشعر. مات سنة واحد وعشرين وخمسمائـة، وغيره من الأعلام، ياقوت الحموي.

(٣) يـراجـع ابن خلكان، ثم راجعت تـرجمة أبـي يـوسف يعقـوب بن يـوسف ولم يـذكـر القـدر المـذكور، والـرواية هنـا عن نفـح الطيب فليـراجـع، ولعل العبـارة عدة من قتـل مائـة ألف وخمسين ألفاً وغنم كذا وكذا خيمة.

(٤) طليطلة بضم الطاء وفتـح اللام، مدينة كبيرة بالأندلس ذات خصائص محمودة. انظر: ياقوت الحموي، وآلى: حلف اليمين.

(٥) وكانت وفاة أبـي يوسف يعقوب المذكور سنة خمس وتسعين وخمسمائة.

وردّهن مكرّمات، وعفى بعد القدرة وعاد إلى قرطبة وأقام شهراً يقسم الغنائم وجاءته رسل الإفرنج يطلبون الصلح فصالحهم وأمّن أهل الأندلس مدته.

نعم وأما وقعة الزلاقة التي جعل صاحب نفح الطيب وقعة الأراك مضاهية لها فهي وقعة عظيمة صار عامها تاريخاً لأهل الأندلس فيقال: عام الزلاقة.

وكانت في سنة تسع وسبعين وأربعماية وقد بسطها المؤرخ الإمام شمس الأدباء أحمد بن خلكان في ترجمة المعتمد بن عباد(١).

ولنذكرها مع اختصار، قال: لما كان الأذفونش ملك الإفرنج قد قوي أمره في ذلك الوقت من أيام المعتمد وكانت ملوك الطوائف من المسلمين(٢) هنالك يصالحونه ويؤدون إليه الضريبة ثم إنه أخذ طليطلة وكان المعتمد بن عباد أكبر ملوك الطوائف وأكثرهم بلاداً وكان يؤدي الضريبة للأذفونش فلما ملك طليطلة لم يقبل ضريبة المعتمد طمعاً في أخذ بلاده فأرسل إليه يهدّده ويطلب منه النزول عن الحصون التي بيده ويكون له السهل فضرب المعتمد الرسول وقتل من كان معه فبلغ الأذفونش فأقبل على الاهتمام بالجمع وأخذ آلات الحصار، فلما سمع فقهاء الإسلام بذلك اجتمعوا وقالوا: هذه مدن الإسلام قد تغلب عليها الإفرنج وملوكنا مشتغلون بقتال بعضهم بعض وإن استمرت الحال ملك الإفرنج جميع البلاد، فقصدوا عبد الله بن محمد بن أدهم القاضي(٣) وفاوضوه فيما نزل بالمسلمين فتنازعوا الآراء وآخر ما أجمعوا عليه أن يكتبوا إلى أبي يعقوب يوسف بن تاشفين

---

(١) المعتمد بن عباد: اسمه محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عبّاد اللخمي، من نسل الملوك اللخميين، ملوك الحيرة بالعراق، وكان لآل عباد هؤلاء رياسة بالأندلس وكياسة ومكانة وركانة منهم العلماء والفرسان والقضاة والأدباء، وقصة حادثة المعتمد تدمي القلوب وتسيل الدموع ومَنْ قرأها أخذته العَبْرة والعِبرة، وقد تناولها الكتاب والمؤرخون باستقصاء وتحليل وتمحيص وكان مولد هذا الأمير الخطير سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، وتوفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة. انظر: ابن خلكان (ج ٤ ــ ١١٢).

(٢) تسمى ملوك الطوائف لأنه كان في جزيرة الأندلس ثلاثة عشر ملكاً.

(٣) عبد الله بن أدهم القاضي: لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من المراجع.

صاحب مراكش[1] وهو ملك الملثمين يستنجدونه، واجتمع القاضي بالمعتمد وأخبره بما أجمع عليه رأي العلماء فوافقه على أنه مصلحة فكتب القاضي للوقت إلى ابن تاشفين كتاباً يخبره بصورة الحال وصيّره مع بعض عبيده فلما وصله خرج إلى مدينة سبتة[2] مسرعاً وخرج إليها القاضي لتلقيه فأمر بعبور عسكره إلى الجزيرة الخضراء[3] وهي مدينة في بر الأندلس وأقام بسبتة وهي من بر مراكش مقابلة للجزيرة الخضراء وسيّر إلى مراكش يستدعي من تخلّف بها من جيشه فلما تكاملوا عنده أمرهم بالعبور وعبر هو آخرهم وهو في عشرة آلاف مقاتل، واجتمع أيضاً بالمعتمد وقد جمع أيضاً عساكره وخرج الناس من كل البلاد طلباً للجهاد، وبلغ الأذفونش الخبر فخرج من طليطلة في أربعين ألف فارس غير من انضم إليه وكتب إلى الأمير يوسف يتهدده وأطال الكتاب فكتب الأمير يوسف الجواب في ظهره «الذي سيكون ستراه» وردّه فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع وقال: هذا رجل عازم.

ثم التقى الجيشان في مكان يقال له الزلاقة من بلاد بطليوس وتصافا وانتصر المسلمون، وهرب الأذفونش بعد استئصال عسكره ولم يسلم معه إلا نفر يسير.

وحيث قد جرى آنفاً ذكر المعتمد بن عباد فيحسن ذكر تقلب الأحوال به وزوال ملكه وتغرّبه ففي ذلك عبرة للمعتبرين وآية للمتوسمين.

---

(١) يوسف بن تاشفين وهو ابن إبراهيم المصالي الصنهاجي اللتوني الحميري، أبو يعقوب أمير المسلمين وملك الملثمين، سلطان المغرب الأقصى وباني مدينة مراكش. مولده سنة ٤١٠ ووفاته بمدينة مراكش التي لا زالت آهلة بالسكان سنة خمسماية من الهجرة وعمره تسعون سنة، وكان من كبار ملوك الإسلام، ملك جزيرة الأندلس والمغرب بأكمله الأقصى والأدنى وكان حازماً ضابطاً لمصالح مملكته وسمي جيشه بالملثمين لأنهم كانوا يجعلون على رؤوسهم اللثام. الأعلام، ج ٣، وابن خلكان.

(٢) سبتة: بفتح السين المهملة وكسرها، مدينة عامرة في بر المغرب مقابلة لجزيرة الأندلس.

(٣) الجزيرة الخضراء من الأندلس مقابلة لسبتة المذكورة ومدينتها من أشهر المدن وأطيبها أرضاً وهي بيد الأسبان أعادها الله إلى حظيرة الإسلام وما ذاك على الله بعزيز.

هو من ذرية النعمان بن المنذر اللخمي ملك الحيرة[1] وكان أديباً مقداماً في الحروب قد ورث المجد والفصاحة عن أبيه المعتضد وكان أبوه ملكاً هماماً وشاعراً مطبوعاً ومما ينسب إلى أبيه قوله:

شربنا وجفن الليل يغسل كحله   بماء صباح والنسيم رقيقُ
معتقة كالتبر أمّا نجارها   فضخم وأما جسمها فرقيقُ

ولابنه المعتمد يمدحه:

سميدع يهب الآلاف مبتدئاً   ويستقل عطاياه ويعتذرُ
له يدٌ كل جبّار يقبّلها   لولا نداها لقلنا إنها حجرُ

قال بعض المؤرخين في وصف المعتمد: كان أندى ملوك الأندلس راحة وأرحبهم ساحة، وأعظمهم ثماداً، وأرفعهم عماداً، ولذلك كانت حضرته ملقى الرحال، وموسم الشعراء، وقبلة الآمال، لم تجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء، ما يجتمع ببابه، وتشتمل عليه حاشية جنابه، له شعر كما انشق الكمام عن الزهر ومنه قوله:

أكثرت هجرك غير أنك ربما   عطفتك أحياناً عليَّ أمورُ
فكأنما زمن التهاجر بيننا   ليل وساعات الوصال بدورُ

قال القاضي أحمد بن خلكان، وهذا المعنى ينظر إلى قول بعضهم:

أسفر ضوء الصبح عن وجهه   فقام خال الخد منه بلالُ
كأنما الخال على خدِّه   ساعة هجر في زمان الوصالِ

قلت: قال الصفدي أخذ هذا المعنى أبو القاسم أسعد بن إبراهيم[2] فقال:

تتنفس الصهباء في لهواته   كتنفس الريحان في الآصالِ

---

(1) انظر كتاب «اليمن الخضراء» والحيرة، بكسر الحاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحت هي اليوم خراب وكانت عاصمة الملوك المناذرة اللخميين.
(2) أسعد بن إبراهيم: لا أعرف عنه شيئاً.

وكـأنـمـا الخـيـلان فـي وجـنـاتـه ... سـاعـات هجـرٍ في زمـان وصـالِ

وقال الشهاب العماد[1] في خال قبيح على خدٍ مليح:

وجـهـك الـزاهـر نـور ... فـيـه خـال غـيـر خـال
سـاعـة مـن لـيـل هـجـر ... فـي زمـان مـن وصـال

وهذه المقاطيع المتعاقبة تتضمن تشبيه المحسوس بالمعقول وهو جائز بشرط أن يقدر المحسوس معقولاً، ويجعل على طريق المبالغة أصلاً وأما المحسوس حقيقة فإنه يكون في هذا التشبيه فرعاً[2].

قال البيانيون ومن أحسن ما جاء فيه قول القائل:

وكـأن الـنـجـوم بـيـن دجـاهـا ... سـنـنٌ لاح بـيـنـهـن ابـتـداعُ

ومما يسحر الألباب استعمال هذا التشبيه في قول أبي عبد الله محمد بن غالب الرفّا[3] مشيراً بذلك إلى غلام صنعته النسيج فقال:

قـالـوا وقـد أكثروا في حبـه عذلي ... لم لا تهـم بمـذال القـدر مبتـذلِ
فقلت لـو كان أمري في الصبابـة لي ... لاخـتـرت ذاك ولكـن ليس ذلـك لـي
أحـبـبـتـه حَبَبَيّ الـثـغـر عـاطـره ... حلو اللّمـا سـاحـر الأجفـان والمقـلِ
غـزيّلاً لم تـزل في الغـزل جـائلةً ... بنـانـه جـولان الفكـر في الـغـزلِ
جـذلان تـلعب بـالـمحـواك أنـمـله ... على السّـدا لـعب الأيـام بـالـدولِ
جـذبـاً بكفيـه أو فحصـاً بـأخمصـه ... تخبط الـظبي في أشـراك مختبـلِ

---

(١) الشهاب العماد: لم أجد له ترجمة.

(٢) انظر تلخيص المفتاح وشروحه، ومعاهد التنصيص على شواهد التخصيص. والبيت للقاضي التنوخي القاضي علي بن محمد التنوخي المتوفى سنة ٣٤٣ والشاهد فيه التشبيه التخيُّلي. انظر: معاهد التنصيص، ص ١٨٠.

(٣) أبو عبد الله الرفّا كان ينعت بالوزير الكاتب شاعر وقته بالأندلس وكان يرفا الثياب ترفعاً عن التكسب بشعره وجمع الدكتور إحسان عباس ما وجد من شعره في ديوان طبع. ووفاته سنة ٥٥٢. الأعلام وابن خلكان: ٥٩.

وعـزم المعتمد على إرسـال حظايـاه من قرطبـة إلى إشبيليـة[1] فخـرج معهن يشيعهنّ فسـايـرهنّ من أول الليـل إلى الصبـح فـودعهنّ ورجـع وأنشـد أبيـاتـاً من جملتها:

سـايـرتـهم والـلـيـل غـفـل ثـوبـه حـتـى تـبـدّى لـلنـواظـر مـعْلمـا
فـوقـفـت ثـمَّ مـودعـاً وتـسـلّمـت مـني يـدُ الإصبـاح تلك الأنـجـمـا

وله يودعهنّ أيضاً:

ولـمـا وقـفـنـا لـلوداع عـشـيّـةً وقـد خفقت في ساحـة القصـر رايـات
بـكـينـا دمـاً حتى كـأنّ عـيـونـنـا لجري الدمـوع الحمر منهـا جراحـات

وكتب إلى نـدمائـه من قصره بقـرطبة وقـد اصطبحـوا بالـزهراء فـدعـاهم إلى الاغتباق[2] عنده:

حـسـد الـقـصـر فـيكـم الـزهـراء ولـعـمـري وعـمـركـم مـا أسـاء
قـد طـلعتـم بنـا شـمـوسـاً نـهـاراً فـاطـلعـوا عـنـدنـا بـدوراً مـسـاء

وقد مدح المعتمد على ألسنة غـوافر[3] من الشعـراء منهم ابن عمار وزيـره[4] مدحه بالقصيدة الرائية وستقف إنشاء الله عليها في غضـون ترجمـة محمد بن محمـد الحرازي وبأخرى ميمية أولها:

عـليٌّ وإلا مـا بـكـاء الـغـمـائـم وفـيٌّ وإلا فـيـم نـوح الـحـمـائـمُ

(١) قرطبة: بضم القاف وسكون الراء آخره هاء، وإشبيلية بكسر الهمزة مدينتان في الأندلس.
(٢) الاغتباق: الشرب ليلاً.
(٣) غوافر: كثير.
(٤) ابن عمـار هو محمـد بن عمار المهـري الأشبيلي الأندلسي الشـاعر المشهـور، ذلق اللسـان وبـراعة وبيـان وصيّره ابن عبـاد له جليسـاً وسميراً، وقـدمه وزيـراً ومشيراً، خلـع عليـه خاتم الملك ووجهه أميراً وكان قد أتى عليه حين من الدهـر لم يكن شيئاً مـذكوراً فتبعتـه المواكب والمضارب والنجائب والجنائب، ثم عقّ ولي نعمه إلى أن قتله المعتمـد بيده ليـلاً سنة سبـع وسبعين وأربعمائة وكانت ولادته سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة. ابن خلكان (ج ٤ ــ ٥٢).

ومنهم شاعره عبد الصمد ومنهم أبو بكر محمد بن عيسى المعروف بابن اللّبانة[1] وله غُررُ المدائح وأيضاً له في البكاء على أيامه، وانتشار نظامه عدة مقطعات، وجملة قصائد مطوّلات حتى قيل إنه يشتمل عليها جزء لطيف.

رَجْــعٌ.

وأما يوسف بن تاشفين فإنه رجع إلى بلاده وقد راقت الأندلس في عينه وعاد إليها ثانياً وحاصر بعض حصون الإفرنج مشفوعاً بالمعتمد ثم رجع إلى مراكش وقد زادت بلاد الأندلس في عينه حسناً وبهجة لما بها من المنازل والمباني والبساتين والمطاعم وسائر الأصناف التي لا توجد في مراكش فإنها بلاد عربان وبربر، وجعل خواصه يعظّمون الأندلس عنده ويحسّنون له أخذها ويغرون قلبه بالمعتمد بأشياء نقلوها عنه فتغيّر عليه وقصده وأقام بسبتة وبعث عليه السرايا من لديه وحاصره في إشبيلية وظهر من مصابرة المعتمد وشدّة بأسه وترامیه على الموت بنفسه ما لم يسمع بمثله ولكنه استولى على الناس الفزع، وخامرهم الجزع فهجم عليه عسكر ابن تاشفين عام أربع وثمانين وثلاثمائة[2] وقبض على المعتمد وأهله وكان قد قتل له ولدان قبل ذلك وله فيهما مراثٍ ثم قيَّد المعتمد وجعله مع أهله في سفينة.

قال الفتح بن خاقان في قلائد العقيان[3] ثم جمع هو وأهله وحملتهم الجوار المنشآت، وضمتهم كأنهم أموات، بعدما ضاق منهم القصر وراق بهم العصر، فساروا والنّوح يحدوهم، والبوح باللوعة لا يعدوهم، وحين وصل إلى

(١) عبد الصمد: لم أجد له ترجمة. وأما ابن اللبانة المذكور فهو أبو بكر بن اللبانة، ذكره ابن خلكان (ج ٤ ــ ١٢٠) في ذيل ترجمة المعتمد وأنه ما رأى تاريخ وفاته في شيء من الكتب وأنه قدم ميورقة سنة تسع وثمانين وأربعماية.

(٢) كذا في الأصل ولعله أربع وثمانين وأربعمائة لأن وفاة ابن عباد سنة ثمان وثمانين وأربعماية كما سيأتي.

(٣) الفتح هو ابن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي الأشبيلي صاحب كتاب قلائد العقيان المطبوع، وله عدة تصانيف. وكان كثير الأسفار سريع التنقلات غزير الفضيلة واسع المادة. توفي قتيلاً سنة خمس وثلاثين وخمسماية بمراكش. ابن خلكان (ج ٣ ــ ١٩٤).

مراكش أمر به يوسف بن تاشفين إلى أغمات، واعتقله حتى الممات وتوفي معتقلاً سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

ومن النادر الغريب أنه نودي في جنازته الصلاةُ على الغريب بعد عظم سلطانه، وجلالة شأنه فتبارك من له البقاء، والعزة والكبرياء.

وأقام الشعراء على قبره مأتم أشعار، ومما تتفطر له القلوب، وتكاد له جوامد العيون تصوب أنه دخل عليه بناته في يوم عيد وكنّ يغزلن للناس بالأجرة فرآهن في أطمار فصدّعن قلبه وأنشد:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة ... يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
يبرزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
من بات بعدك في ملك يسرّ به ... فإنما بات بالأحلام مغرورا

وألح عليه جماعة من السؤال وهو على تلك الحال فأنشد:

سألوا اليسير من الأسير وإنه ... بسؤالهم لأحقّ منهم فاعجب
لولا الحياء وعزّة لخميّةٌ ... طيّ الحشا لحكاهم في المطلب

ورأى رجلاً في المنام إثر الكائنة على بني عبّاد أن رجلاً ينشد على جامع قرطبة هذين البيتين:

رُبّ ركب قد أناخوا عيسهم ... في ذرى مجدهم حين بسق
سكت الدهر زماناً عنهم ... ثم أبكاهم دماً حين نطق

قلت: رأيت في بعض المجاميع بخط السيد العلامة الأديب إسحاق بن يوسف بن المتوكل بن الإمام القاسم: ما صورته رأيت بخط عيسى بن لطف

الله[1] في جامع حَدَّة المطهر[2] مكتوباً في جدار «رب ركب» البيتين وبعدهما بيتان له وهما:

نزحوا عني فمن وجدي بهم ... صغْتُ أشعاري على كل روى
لا سقى من بعدهم ربع الحِمَا ... وكذاك الدوح فيه لا رَوَى

وها هنا فلنمسك عنان القلم عن المستطردات فلو ترك يتقلب حيث يشاء لاتسعت دائرة الكلام، وما خلى ما ذكرت عن فائدة.

ومن المنسوب إلى شيخ الإسلام من الشعر ما كتبه إلى بعض أهل ذمار، وقد كتب إليه يزين له الارتحال قبل ولايته القضاء إلى مدينة ذمار لنشر العلم فيها ويأخذ عنه أهلها «وبأسماء أشار به عليه»، ﴿قل أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾[3] فجعل صدر الجواب عليه هذين البيتين:

---

(1) أجاد الإمام الشوكاني (ج ١ ـ ١٣٥) في ترجمة المذكور وأن ولادته سنة إحدى عشر ومائة وألف، ووفاته سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف هـ، وذكر من مؤلفاته «الوجه الحسن، المذهب للحزن» وفيه من البلاغة وحسن المسلك ما يشهد له بالتفرد ومضمونه الإنكار على من عادى علم السنة من الفقهاء الزيدية وعلى من عادى الفقه من أهل السنّة وكان يميل إلى الإنصاف ولكنه لا يظهر ذلك لشدة الجامدين من الفقهاء على من أنصف ولم يتعصب للمذهب وهو الذي أورد السؤال واستشكاله بقوله في أوله:

أيها الأعلام من ساداتنا ... ومصابيح دياجي المشكل
خبرونا هل لنا من مذهب ... يقتفى في القول أو في العمل

أما عيسى بن لطف الله فهو ابن مطهر بن شرف الدين صاحب التاريخ «روح الروح، فيما جرى بعد المائة التاسعة من الفتوح» وقد صورته وزارة الإعلام على علاّته وكأن لم يكن في السويداء رجال.

(2) كذا في الأصل وحدة: بفتح الحاء المهملة وتشديد الدال ثم هاء بلدة كبيرة ومخرف جميل جنوب صنعاء وقد امتد عمران صنعاء إليها ويقال لها حدّة بني شهاب، والمطهر هو ابن شرف الدين أمير اليمن والطاغية الجبار والعاق لأبيه وما حادثة موكل ورهاين خولان العالية إلا صورة بشعة من أعماله الخبيثة وجرت بينه وبين الأتراك حروب وخطوب أبان عن شجاعة خارقة وحنكة سياسية فائقة، وكانت وفاته سنة ثمانين وتسعمائة هـ.

(3) سورة البقرة: آية ٦١.

لبعـدك يـا نجـل الحسين تصـرّمت حشـاشـة مشتـاق إليـك متيّـمِ
لهـا كـل حيـن زفـرة ومـدامعـي روت عن شؤوني عن دمي مثل عندمِ

ثم أجاب عليه بكـلام منثور، أحلى من خفقـات الشنوف على سـوالف مخدرات الدّور، إلى أن ختم ذيل ذلك النثر بما صورته:

وقـد جرى على لسـان القلم عند كتب هـذه الأحـرف هـذه الأبيـات لاشتـداد تشوقي إلى أهل تلك المعاهد التي أهلها أجمـع أكتـع أحبّ خلق الله إليّ فسارعت إلى كتبها قبل التهذيب فقلت:

إن سـكـنـاي ذمـار بـيـن أربـاب الـفـخـارِ
مـعـشـر الأفـضـال والـفـضـل وأطـواد الـوقـارِ
أكـرم الـخـلـق وأوفـا هـم وأحـمـاهـم لـجـارِ
غـايـة الـمـطلوب لـولا عـاقـنـي قـلّ اصـطـباري
عـن دروس فـي عـلـوم وشـيـوخ كـالـبـخـاري
وتـلامـيـذ فـحـول رتـعـوا حـول ثـمـاري
وقـراءات وإخـوان وعـيـش ذي اخـضـرارِ
فـإذا مـا مـنّ ذو الـمـنّ فـدار الـقـوم داري

فأجاب المجاب عليه[1] عن هذه الأبيات بقصيدة رائية لم أستحسنها فأودعهـا القرطاس فأجاب عليه الأستاذ حينئذٍ بجواب آخر وصل إليّ منه قوله:

أكـؤوس مـتـرعـات مـن عُـقـار مـزجت بـالـظُّلْم من ذي الإحـورارِ
أم نـظام من أخـي الإحـسـان مَنْ فـاق فـي مجـد أثـيـل ونـجـارِ
الأصـولـي الـفـروعـي الـذي أتـعبـت أفـعـالـه كـل مـبـاري
روَّح الـقـلب فـمـا الـراح إذا مـا أدارتـهـا أكـف لـلجـواري
هـزّ أعـطافـي نـشـاطـاً حـسـنُـه فهـو السحـر الـذي حـلّ لقـاري

(١) لعل هذه المراسلة بين شيخ الإسلام وبين العلامة عبد الوهاب بن الحسين الديلمي.
(٢) كذا في الأصل.

فلقد شادوا قصوراً ما بها من قصور عند تقصير المباري
دمت تحيي علم آباء مضوا من بني المختار في تلك الديارِ
سابحاً يا تاج أهل الطهر في البحر من علم النّحارير البحارِ
تسقي الأزهار والأثمار بالوابل المغزار والغيث المثارِ
تنصر الحق إذا ما أظلمت ظلمة قد أظلمت بالإنتصارِ
ثم دُمْ في كل فن خائضاً رائضاً جامحه روض اختبارِ

المعنى في هذا البيت حسن إلى غاية لأن مراجعة الفنون لقصد الفهم والتعلم فقط «يصه»[1] يتفقا عنها الجمود، والتصميم تشهياً وعماية على تقليد الآباء والجدود:

وإذا ما قصرت أقلامنا عن حقوق للأخلاء كبار
فالذي قد حلّ في القلب من الحب يغني عن عناء الاعتذار

وما أحسن مواقع التلميح في التاسع من هذا الشعر، وأما تورية الانتصار في العاشر فأرق من سجع الحمائم على الرياض البواسم.

وله مجيباً على مَنْ عابَهُ بتأخر العصر وقرب المولد:

قالوا أتيت مؤخّرا فأجبت دار الخلد أخرى
وختام كُلّ الرسل صا ر من الجميع أجلّ قدرا
وتأخّر الأسحار صيّر ها بوصف الحسن أحرى
والخنصر الصغرى علت وتختّمت تبراً ودرّا
وترى السنان وإن تأخر في الرّماح يعدّ صدرا
سبق الهلال البدر لكن لم يصر بالسبق بدرا

وله في الحماسة:

مرَح الجياد مع رقص الصعاد لدى حرّ الجلاد أراه جلّ مقصودي
أضحى غرامي وتهيامي ومطّربي في الضمّر القود لا في الخرّد الرّودِ

---

(١) كلمة غير واضحة في الأصل.

وله في الشيب:

إن شبت من قبل أترابي فلا عجب فمثل ذا لبني الأيام قد وقعا
رأى الشباب صنيعي لا يوافقه ففرَّ إذ لم أجب داعيه حين دعا
وأقبل الشيب مسروراً بطلعته كالصبح بعد ظلام الليل قد سَطَعَا

وقال عكس هذا المعنى القاضي يحيى بن محمد بن عبد الواسع القرشي[1] فأحسن ما شاء:

قال العواذل ما بال الشباب له ومشيب الرأس ما طلعا
فقلت إن مشيبي ساءه عملي ففرَّ إذ لم أجب داعيه حين دعا
فأعرض الشيب خزياناً يقول لقد دعوته بفلاحي قط ما سمعا

وهذا ابن عبد الواسع رجل أديب، يعزّ له في أترابه الضريب، وسمعت في رحلتي الأخرة إلى صنعاء أنه يترجم أدباء عصره.

ومن شعر الأستاذ أبقاه الله قوله:

تَشَيُّعُ الأقوام في عصرنا منحصر في أربعٍ من بدع
عداوة السنّة والثَّلْبُ للأسلاف والجمع وترك الجُمع[2]

---

(١) يحيى بن محمد بن عبد الواسع، ترجمه المؤرخ زبارة في نيل الوطر (ج ٢ ــ ٤٠٤) وأثنى عليه وعلى أدبه وإن له مؤلفاً اسمه «صفوة الجلساء، من السوقة والرؤساء» وهو يشتمل على نوادر وطرائف ولطائف وأورد هذه الأبيات وقال: وكانت وفاته بالقرن الثالث عشر ولم يحدده وقوله القرشي فقد نسبه زبارة إلى بني العلفي وهم يقولون إنهم أمويّة.

(٢) وقال الحافظ صالح بن الصديق النمازي المتوفى بمدينة إب أوذي جبلة سنة أربع وسبعين وتسعماية في معنى هذا:

ليس من شرط من أحبُّ عليّاً بغض من قام قبله بالخلافة
بل موالاتهم كما هو والى وروى فضلهم ووفّى خلافه
قد برئنا إلى المهيمن ممّن سبُّهم أو قلاهم من سخافة

أشار بهذا إلى حصر بدعٍ لجماعة من عوام الروافض[1] وربما زلق بعض العارفين من الشيعة فيقع في مثل ما وقع فيه الجهّال، وذلك كمن ألّف رسالة سمّاها «المنقذة من الغواية»، ونصّ بها هذا الرأي الفائل والاختيار المائل وجزم بأن ترك القراءة في الحديث على الإطلاق أولى من البحث فيه وهذه عماية مفرطة، ومقالة مسقطة، وقال بعضهم مشيراً إلى تأييد هذا الاختيار:

وأوصي كل زيديّ بترك لكتبهم وإن عذب الورودُ

* * *

(١) بل ومن علمائهم حتى عصرنا هذا وإن كانت الجمهورية قد اكتسحت هذه الفئة الباطلة.

﴿بحوث للمؤلف قيّمة﴾

وبعضهم رأى المنع من قراءة الحديث في جوامع الزيدية وليس هذا المقام بمحلّ بسط المقال ولكن الإشارة إليه إلماعاً أولى من التكثير.

وأما ثلب الأسلاف فإنما يصدر من جماعة من أصلاف الروافض فيتناولون أعراض خير القرون، وقد كفانا في وجوب توليهم الرضى من الله عليهم بنصوص التنزيل وصريح الآيات التي لا تحتمل التأويل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قال الله تعالى:

﴿والسابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِيْنَ والأَنْصَارِ والَّذِيْنَ اتَّبَعُوْهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوْا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِيْ تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيْهَا أَبداً ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ العَظِيْمُ﴾[1] وأنزل الله فيهم الآية: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللَّهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُوْنَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيْمَاهُمْ فِيْ وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُوْدِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِيْ التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِيْ الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىْ عَلَىْ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيْظَ بِهِم الكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيْماً﴾[2]. وأنزل فيهم أيضاً: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ المُؤْمِنِيْنَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[3]. وأنزل فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيْهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى

---

(١) سورة التوبة: آية ١٠٠.

(٢) سورة الفتح: آية ٢٩.

(٣) سورة الفتح: آية ١٨.

نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾[1]. وأنزل فيهم: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى، وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[2]. وأنزل فيهم: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[3] وغير ذلك من الآيات.

فمن كان مؤمناً بالله فهذه النصوص تكفيه وليعلم أن الله على العباد بالمرصاد. وأما الأحاديث في هذا الباب فكثيرة جداً عرفها من عرف الحديث وجهلها من جهله، فمن انقاد اهتدى طريق الرشاد، ومن أبى إلا العناد فما أفاد إلا الارتداد فخسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

ولا بأس أن نذكر ههنا مسائلاً يتأيد بذكرها صدقُ عداوة السنَّة على من خالفها، فمنها مسألة الرفع والضم فإنها قامت براهينها ووضحت حججها.

قال البخاري[4] في جزء رفع اليدين: روى الرفع تسعة عشر نفساً من الصحابة. وقال الإمام الشافعي[5] روى الرفع جمعٌ من الصحابة لعله لم يرو قط

---

(١) سورة الفتح: آية ١٠.

(٢) سورة الليل: الآيات ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١.

(٣) سورة التوبة: آية ٤٠. وهذه الآية نزلت في محمد بن عبد الله وصاحبه أبي بكر الصديق بإجماع التفاسير.

(٤) البخاري أشهر من أن يترجم له فهو ملء سمع الدنيا وبصرها وهو أول من صنف في الصحيح وكتابه انتشر في ربوع المعمورة انتشار النار في الهشيم مطبوعاً ومخطوطاً واسمه «محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن الأحنف الجعفي المذحجي الولي الحافظ» الإمام في الحديث والتاريخ مولده سنة ١٩٤هـ ووفاته ٢٥٦. ابن خلكان (ج ٣ ـ ٣٢٩). ودخل اليمن وأخذ عن أعلامها كمثل عبد الرزاق بن همام الصنعاني وغيره.

(٥) محمد بن إدريس الشافعي المطلبي صاحب المذهب المشهور الذي طبق المعمورة وسار مسير الشمس فللمؤرخين كتب في حياته قرابة أربعين مؤلفاً وكانت وفاته بمصر سنة ٢٠٤هـ ودخل اليمن وأخذ عن أعلامها.

حديث بعدد أكثر منهم نقل هذا البيهقي[1] عنه وسرد أسماء من روى الرفع عند ابتداء التكبير نحواً من ثلاثين صحابياً منهم العشرة المبشرة، وقال ابن القيم[2] في زاد المعاد ما لفظه: روى الرفع عند التكبيرة أعني تكبيرة الإحرام وعند الركوع وعند الاعتدال منه نحواً من ثلاثين نفساً واتفق على روايتها العشرة[3] ولم يثبت عنه خلاف ذلك البتة بل كان ذلك هديه دائم، إلى أن فارق الدنيا ﷺ.

وأما رواية ذلك في دواوين الإسلام على التفصيل ففي الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عمر كان رسول الله ﷺ يرفع يديه حذو منكبيه إذا افتتح الصلاة وإذا كبّر للركوع وإذا رفع رأسه من الركوع. زاد البيهقي: فما زالت تلك صلاته حتى لقي الله سبحانه. وفي الباب أحاديث منها عن مالك بن الحويرث متفق عليه، وعن عليّ عند أبي داود والترمذي، وصححه أحمد كذلك، وفي رواية غير هذه وإذا قام من السجدتين رفع يديه، ومن حديث أبي حميد في عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ فصدقوا عند أبي داود والترمذي وصححه، وعن أنس عند أبي خزيمة في صحيحه والبخاري في تاريخه وابن ماجه والبيهقي، وعن جابر نحوه عند الحاكم، وعن أبي بكر أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة وإذا ركع وإذا رفع رأسه من الركوع، وقال: صليت خلف رسول الله ﷺ فذكر مثله رواه

---

(١) البيهقي: نسبة إلى بيهق بلدة قرب نيسابور من خراسان، وهو أبو بكر أحمد بن الحسين صاحب السنن الكبرى الحافظ الكبير، مولده سنة ٣٨٤ ووفاته سنة ٤٥٨هـ.

(٢) ابن القيم: هو سيف السنة الغيور عليها وتلميذ ابن تيمية المجاهدين المناضلين عن حياض السنّة المحمدية، واسمه محمد بن أبي بكر. له مؤلفات كثيرة طبع أكثرها ومنها زاد المعاد طبع عدة طبعات وعذب في ذات الله كشيخه المذكور. وفاته سنة ٧٥١. البدر الطالع (ج ٢ ـ ٢٤٣).

(٣) العشرة قد نظمهم الإمام الحافظ محمد بن إبراهيم الوزير المتوفى سنة ٨٤٠ بقوله:

للمصطفى خير صحب نصّ أنهم ... في جنة الخلد نصّاً زادهم شرفاً
هم طلحة وابن عوف والزبير كذا ... أبو عبيدة والسعدان والخلفا

وانظر شرح بلوغ المرام المسمى سبل السلام للحافظ محمد بن إسماعيل الأمير.

البيهقي، وعن ابن عمر نحوه رواه الدارقطني والبيهقي والحاكم(١) وقال: إنه محفوظ عن أبي هريرة بمثل ذلك ورواه أبو داود عن أبي موسى عند الدارقطني، وعن عبد الله بن الزبير عند أبي داود معللاً له. وقال ابن عباس فيه: من أحبَّ أن ينظر إلى صلاة رسول الله ﷺ فليقتد بابن الزبير وعن عبيد بن عمير عن ابن ماجه وعن البراء بن عازب عند البيهقي والحاكم وغيرهما.

وقد تكلف من قال بالنسخ لحديث جابر بن سمرة عند مسلم قال: خرج علينا رسول الله (صلعم) فقال: «ما لي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذناب خيل شمس اسكنوا في الصلاة»(٢). والحديث ورد في النهي عن رفع اليدين عند السلام فالعموم هنا وإن كان لا يقتصر على السبب فهو مخصص بما قد تواتر من استمرار رفعه ﷺ عند التكبير هدياً له إلى أن مات ثم إن قوله ﷺ «مالي أراكم» استفهام إنكار ولا ينكر النبي ﷺ ما يفعله، فلو أراد نسخه لما كانت عبارة النسخ هكذا كما في نسخ الكلام في الصلاة حيث قال: «إن الله يحدث من أمره ما شاء وإنه أحدث أن لا تتكلموا في الصلاة».

وأما حديث البراء عند الدارقطني وأبي داود بلفظ: رأيته إذا افتتح الصلاة رفع يديه إلى قريب أذنيه ثم لم يعد وعند البيهقي من حديث ابن عمر مثله إلَّا أنه قال في آخره ثم لا يعود، فحديث البراء من حديث يزيد بن أبي زياد وقد اتفق الحفاظ على أن قوله: ثم لم يعد، مدرج من قول يزيد وقد رواه عنه بدونها شعبة والثوري وخالد الطحان وزهير، وقال أحمد: كان يزيد يحدث به برهة من دهره

---

(١) هؤلاء الحفاظ مترجم لهم في مضانها فلا نثقل على القراء فمن كان لديه حِسّ وحبّ السنّة ورجالها فليرجع إليها.

(٢) هذا الحديث فيه عندي نظر لأن صلاة المذكورين في مسجد رسول الله ﷺ إما أن تكون نافلة فمدفوع بما ذكر المؤلف، وإن كانت فريضة لم يؤثر أن الصحابة كانوا يصلون جماعة لوحدهم وإنما كانوا يصلون جماعة خلف رسول الله ﷺ للصلوات الخمس دائماً ومستمراً، والمسألة تحتاج إلى فضل نظر وما كان عليه الصحابة وتابعيهم وجمهور أهل السنّة، وعمل أهل المدينة ومكة هو الراجح على المرجوح والله الموفق.

لا يقـول ثم لا يعود، فلمـا لقنوه يعني أهـل الكـوفـة تلقن، وقـال علي بن عـاصم: قدمت الكوفة فلقيت يزيد فسألته عن الزيادة فقال: لا أحفظ.

وأما حديث ابن عمر فمقلوب موضوع، ثم إن قوله لا يعود فمعناه لا يعود بعد تكبيـرة الافتتاح إلى الـرفـع، ثم إن الحديث بـأصله قد أطبق الأئمـة على تضعيفه، وقـد يتمسك من لا درايـة له بصحيـح الحـديث من ضعيفـه، بمـا رواه الحـاكم في المدخل من حديث أنس «مَنْ رفـع يديه في الصلاة فلا صلاة له» وقد صرح الحاكم بأنه موضوع وله شواهد موضوعة.

نعم ذكرت هنا مذاكرة جرت بيني وبين شيخي حسين بن عبد الله[1] الأكوع رحمه الله في هذه المسألة ومسألة الضم وكان يتعصب فيهـا فألـزمته بمـا يلتزمـه فقال لي: لا شـك أن حجـة مثبتي الـرفـع والضم لا تـدفـع ولكنهـا قـد صـارت من شعـار النواصب[2] فقلت له هذه دعوى مجرّدة ولو سلمت تنزّلاً فترك ما ثبت شرعاً لمخالفة المبتدعين لا يصح وإلاّ لـزمك تـرك صوم يـوم الشك كـونك تـدعي استحباب صـومه مخالفة للباطنية فلم يجد جواباً سوى الإعراض.

وأما مسألة الضم فأخـرج الترمـذي عن قبيصة بن هُلْب، عن أبيـه قال: كـان رســول الله ﷺ يؤمنا فيأخذ شمـاله بيمينـه فقال: وفي البـاب عن وائل بن حجـر وغطيف بن الحارث وابن عباس وابن مسعود وسهل بن سعد قال أبو عيسى[3] حديث هلب حـديث حسن والعمل على هـذا عند أهـل العلم من أصحاب الـنـبـي ﷺ،

(١) حسين بن عبد الله الأكوع. مولده سنة ١١٧٠ بمدينة ذمار ووفـاته بهـا سنة ١٢٣٥. كـذا في نيل الوطر. (ج ١ ــ ٣٨٠). وكـان يتولى القضـاء مجانـاً وله اليـد الطولى في الفقـه والفرائض والوصايا، قلت: وكلمته مـع الأسف كلمة جامد الفكر سيِّيء الظن بأهل السنة متقـوقـع على تلك العلوم، بوحي من مجتمعه المعروف بالتحجر.

(٢) انـظر إلى المنطق الـزائف وهل يـا ترى النـواصب هم أتباع محمـد بن عبد الله أو هم الـذين ينبـذون سنة نبيـه ﴿كبرت كلمـة تخرج من أفـواههم إن يقولـون إلا كذبـاً﴾ (سورة الكهف: آية ٥).

(٣) أبو عيسى هو الحافظ الترمذي أشهر من أن يترجم له.

والتابعين ومن بعدهم يرون أن يضع الرجل يمينه على شماله في الصلاة ورأى بعضهم أن يضعهما تحت السرّة وكل ذلك واسع عندهم، قلت: هذا الاختلاف في محل الضم لا يكون تعارضاً كونها أفعال ولا يدخلها التعارض كما ذلك معروف في الأصول.

نعم قال ابن سيد الناس اليعمري[1] في شرحه لقطعة من الترمذي: حديث هلب رواه أحمد والدارقطني وابن ماجه. وأما حديث وائل بن حجر فعند مسلم ولفظه أنه رأى النبي ﷺ رفع يديه حين[2] دخل الصلاة وضعهما حيال أذنيه ثم التحف ثوبه ثم وضع يده اليمنى على اليسرى فلما أراد أن يركع أخرج يديه من الثوب ثم رفعهما ثم كبّر فركع فلما قال سمع الله لمن حمده رفع يديه فلما سجد، سجد بين كفيه، ورواه النسائي والدارقطني من حديث علقمة عن أبيه وائل قال: رأيت رسول الله ﷺ إذا كان قائماً في الصلاة قبض بيمينه على شماله، وأما حديث غطيف فأخرجه أبو بكر بن أبي شيبة وأحمد. ولفظ الحديث أنه قال: مهما رأيت نسيت ولم أنس أني رأيت رسول الله ﷺ وضع يده اليمنى على اليسرى يعني في الصلاة، وأما حديث ابن عباس فلفظه عن النبي (صلعم): «إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نؤخر السحور ونعجل الإفطار، وأن نمسك بأيماننا على شمائلنا في الصلاة». رواه الدارقطني. أما حديث ابن مسعود فلفظه قال: رآني النبي ﷺ وقد وضعت شمالي على يميني في الصلاة فأخذ يميني فوضعها على شمالي، رواه النسائي برجال الصحيح ورواه أبو داود والدارقطني.

وأما حديث سهل بن سعد فلفظه: كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل يده

---

(١) ابن سيد الناس اليعمري اسمه محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمري الربعي مؤرخ أديب شاعر رقيق من حفاظ الحديث. مولده سنة ٧٧١هـ بالقاهرة ووفاته بها سنة ٨٣٤ وأصله من أشبيلية وله «الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير» طبع وله غير ذلك. الأعلام، ج ٧، والبدر الطالع (ج ٢ ـ ٢٤٩).

(٢) كان في الأصل حتى بالحاء المهملة والتاء المثناة المشددة من فوق وأصلحناه بالحاء المهملة والياء المثناة من تحت ثم النون من نيل الأوطار (ج ١ ـ ١٥٥).

اليمنى على ذراعه اليسرى في الصلاة، رواه مالك ورواه البخاري عن القعنبي عن مالك ثم قال ابن سيد الناس بعد هذا وفي الباب مما لم يذكره أبو عيسى عن جابر قال: مرَّ رسول الله (صلعم) برجل وهو يصلي وقد وضع يده اليسرى على اليمنى فانتزعها ووضع اليمنى على اليسرى رواه أحمد والدارقطني وفيه عن ابن الزبير: صف القدمين ووضع اليد على اليد من السنّة، رواه أبو داود. وفيه عن أبي الدرداء قال: من أخلاق النبيين وضع اليمين على الشمال في الصلاة، وذكره ابن أبي شيبة عن أبي الدرداء أيضاً وذكره أيضاً بإسناد آخر إلى الحسن قال: قال رسول الله ﷺ كأني أنظر إلى أحبار بني إسرائيل واضعي أيمانهم على شمائلهم في الصلاة، وفيه عن عائشة ذكره البيهقي وأخرجه الدارقطني عنها أيضاً قالت: ثلاث من النبوَّة: تعجيل الإفطار وتأخير السحور ووضع اليد اليمنى على اليسرى في الصلاة، قال البيهقي: هذا صحيح عن محمد بن أبان، وعن أنس مثله وزاد تحت السرَّة، ذكره ابن حزم، وفيه من طريق أبي حُميْد الساعدي أنه قال: أنا أعلمكم بصلاة رسول الله ﷺ ثم وصف أنه كبّر فرفع يديه إلى وجهه ثم وضع يمينه على شماله، ذكره أبو محمد أيضاً انتهى كلام ابن سيد الناس.

وفي الباب مما لم يذكره عن عليّ رضي الله عنه ﴿فصلِّ لربِّك وانحر﴾ قال: وضع اليمين على الشمال في الصلاة أخرجه الدارقطني، وأخرج أيضاً عن عليّ بسند آخر إن من السنَّة في الصلاة وضع اليمين على الشمال تحت السرَّة، والمراد سنة النبي ﷺ سيّما وقد وقع ذلك تفسيراً من عليّ رضي الله عنه للقرآن، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صلعم): «أمرنا معاشر الأنبياء أن نعجل إفطارنا ونؤخرّ سحورنا ونضرب بأيماننا على شمائلنا في الصلاة» أخرجه الدارقطني، وأخرج عن أبي هريرة أنه قال: وضع الكف على الكف في الصلاة من السنّة.

فهذه جملة من حجج الضمّ، فإنكارها ودفعها ليس إلا مدافعة في وجه الضرورة وقد احتج المانعون منه بتعليم النبي ﷺ للمسيء ولم يذكر

وضع اليمين على الشمال، ولا حجّة لهم في هذا لأن النبي (صلعم) إنما علمه الفرائض، والضمّ سنّة.

ولنختم هذه المادة بشيء من الأبيات المنظومة الموسومة (بفتح القُوى) للسيد المجتهد الإمام الحسن بن إسحاق رحمه الله(١):

يرفع من تكبيرة يديه	حتى يحاذي بهما أذنيه
والوضع للكف على الكف ورد	من قوله وفعله فلا يُرد
والنصّ في ذلك واضح جلي	ممن روى ذلك زيد بن علي
فيضع اليمنى على يُسْراه	مع رسغه وبعده دعاه

ومنها مسألة التأمين فإنه ثابت بعد قراءة الفاتحة في الصلاة من الإمام والمأموم لحديث أبي هريرة: إذا أمَّن الإمام فأمّنوا، أخرجه الستّة، وفي رواية إذا قال الإمام ولا الضّالين فقولوا آمين. وفي بعضها: فمن وافق قوله قول الملائكة غفر له: عند البخاري وعند أبي داود والنسائي عن أبي هريرة بلفظ إذا قال أحدكم في الصلاة آمين قالت الملائكة آمين فوافقت أحدهما الآخر غفر له ما تقدم من ذنبه، ولحديث وائل بن حجر عند أحمد وأبي داود والترمذي إن النبي (صلعم) كان إذا قرأ ولا الضالين قال آمين، وما قيل إن بعضهم حمله على ما أخرجه البخاري في الدعوات بلفظ إذا أمّن القارىء فيكون المراد به في غير الصلاة فهو مطلق مقيد بما سبق من قوله: إذا قال الإمام: ولا الضالين، وبقوله إذا قال أحدكم في الصلاة آمين ولفظ كان يقول يدل على الاستمرار فثبتت سنته لصدق حد المسنون على ما كان كذلك.

(١) الحسن بن إسحاق بن أحمد بن الحسن صاحب كتاب «منظومة الهدي النبوي» وهو في مجلد ضخم وفي خزانتي نسخة جميلة الخط نظم من زاد المعاد لابن القيم فيما يتعلق بالعبادة ونحوها وشرح المنظومة، وكانت ولادته سنة ١٠٩٣ ووفاته سنة ١١٦٠ كما في البدر الطالع (ج ١ ـ ١٩٤). وكان رئيساً مفخماً ومن أكابر الكملاء الجامع بين الرئاسة والعلم والأدب وقد اعتقله المنصور علي بن المتوكل قاسم وله في محمد بن إسماعيل الأمير شيخه وهو في الحبس عدة قصائد.

وممّا يلحق بهذه المسألة جوازالدعاء في الصلاة لفعل رســـول الله ﷺ في الاستعاذة عند الوعيد وطلب الخير عند الوعد والقنوت بالـدعاء لفعله (صلعم) أيضـاً وقوله: أمـا الدعـاء فلما في مسلم من حـديث ابن عباس وابن أبـي أوفى قـالا: كان رســـول الله ﷺ إذا اعتدل من الركوع قـال ربنا لـك الحمد أو ربنـا ولك الحمـد ملء السموات وملء الأرض وملء مـا شـئت من شيء بعـد أهل الثنـاء والمجد أحق مـا قال العبـد وكلنا لـك عبد لا مـانـع لما أعـطيت ولا معـطي لمـا منعت ولا ينفـع ذا الجدِّ منك الجد اللهمَّ طهرني بمـاء الثلـج والبرد والمـاء البارد وهـو عند ابن مـاجه من دون زيـادة اللهمَّ طهـرني بمـاء الثلـج، وعن عبـد الله بن عمــرو بن العـاص عن أبـي بكر رضي الله عنه أنه قال لـرســـول الله ﷺ علِّمني دعاء أدعو به في صلاتي قـال: «قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلمـاً كثيراً». متفق عليـه. وقــال ﷺ: أمـا السجود فاجتهد فيه بالدعاء، وقال في التشهد: وليتخير بعد ذلك من المسألة ما شاء وهو في الصحيـح.

وأمـا القنوت بـالدعـاء فلما أخـرجه أصحـاب السنن وابن ماجـه والبيهقي عن الحسن بن علي قـال: علمني رســـول الله ﷺ كلمـات أقولهنّ في الـوتـر: اللهمّ اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت، الدعاء المأثور إلـخ. وقال الترمذي: هذا حـديث حسن، وفي روايـة رواهـا البيهقي أن محمـد بن الحنفيـة[١] قـال: إن هـذا الدعاء كان أبـي يدعو به في القنوت من صلاة الصبـح، وفي رواية كان يقنت[٢] في صلاة الصبـح وفي وتر الليـل بهؤلاء الكلمات، وأخـرج الحاكم في المستـدرك عن أبـي هريرة كان رســـول الله ﷺ إذا رفـع رأسه من الركـوع في صلاة الصبـح في الركعة الثانية رفـع يديه فيدعو بهذا الدعاء والروايات في ثبوته في الصبـح كثيرة وفي الوتر أكثر، ولما عند ابن خزيمة من حديث قتادة عن أنس أن النبـي ﷺ: لم يقنت إلا إذا

(١) محمد بن الحنفية هو محمد عـلي بـن أبـي طـالب ولما قيـل محمد بن الحنفيـة لأن أمّه من بني حنيفة سبيت في حروب الردّة فأهداها أبو بكر الصديق عليّاً فولدت له هذا. محمـد وأمه خولة بنت جعفر الحنفية أحد الأبطال الشجعان، مولده سنة واحد وعشرين ووفاته سنـة واحد وثمانين وترجمته في ابن خلكان (ج ٣ ــ ٣١٠).

(٢) كذا في الأصل ولعله يقنت به.

دعا لقوم أو دعا على قوم ونحوه عند ابن حبان من حديث أبي هريرة ولذا خصّصه البعض بالنّوازل، ومنعه في غيرها، وأما الاستدلال بحديث معاوية بن الحكم السُّلمي عند مسلم وأحمد وغيرهما لا يصلح فيها يعني الصلاة شيء من كلام الناس فإنه يلزم من الاستدلال به جواز التكلم بالأحاديث القدسية والقراءة الشاذة المرويَّة على حد الصحيح وإذا كانت القرآنية أخص فانتفاء الأخص لا يستلزم انتفاء الأعم على أن المراد بالكلام في حديث معاوية السلمي التكليم من بعض الناس لبعض كما علم من سبب الحديث، وأما إذا أريد به ما يتكلم فالتسبيح والتحميد والتهليل من كلام الناس بتلك الهيئات المخصوصة وبهذا يتبين لك أن هذا المعنى الثاني غير مراد في الحديث فثبت جواز الدعاء في الصلاة لأنه وإن كان مما يتكلم به الناس فليس من خطاب بعض الناس لبعض وإلا لزم المنع ممّا ثبت في الصلاة من ألفاظ التشهد ونحوها.

ومنها قراءة الفاتحة خلف الإمام فإن حديث عبادة يدل صريحاً أن الإمام لا يتحمل قراءتها عن المؤتم ولفظه قال: صلّى رسول الله (صلعم) الصبح فثقلت عليه القراءة فلما انصرف قال: إني أراكم تقرأون وراء إمامكم، قلنا يا رسول الله: أي والله، قال: لا تفعلوا إلا بفاتحة الكتاب أو قال إلا بأمّ القرآن فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها رواه أحمد والبخاري في صحيحه وصحّحه أبو داود والترمذي والنسائي والدارقطني وابن حبان والحاكم والبيهقي، وفي بعض رواياته: بينا رسول الله ﷺ يقرأ في بعض الصلاة التي يجهر فيها التبست عليه القراءة فلما انصرف قال: تقرأون إذا جهرت قال بعض القوم إنّا لنفعل ذلك قال: فلا تفعلوا إني أقول: ما لي أنازع القرآن فلا تقرأوا بشيء إذا جهرت إلا بأمّ القرآن.

قال ابن حجر في التلخيص: ومن شواهده ما رواه أحمد عن أبي قلابة عن محمد بن أبي عائشة عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لعلكم تقرأون والإمام يقرأ قالوا إنّا لنفعل قال: لا إلاّ أن يقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب، وإسناده حسن. ورواه ابن حبان من طريق أيوب عن أبي قلابة عن أنس، وزعم أن الطريقين محفوظان وخالفه البيهقي فقال: إن طريق

أبي قلابة عن أنس ليست بمحفوظة فهذه أدلة من يرى عدم تحمل الإمام للقراءة وما استدل به مدعي التحمل من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾[1] ومن قوله ﷺ: إنما جعل الإمام ليؤتم به حتى قال: فإذا قرأ فأنصتوا، رواه أبو داود عن أبي هريرة، وقوله ﷺ: من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة أخرجه الدارقطني وعبد بن حميد، وحديث أبي هريرة أنه انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال: هل قرأ معي أحد؟ فقال رجل: نعم فقال: ما لي أنازع القرآن فانتهى الناس عن القراءة فيما يجهر فيه بالقراءة، رواه مالك والشافعي عنه وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان وغير ذلك مما هو حجة لمن يرى تحمل الإمام فكل ذلك عمومات مخصوصة بحديث عبادة كما هي قاعدة بناء العام على الخاص، وأما ما جعله مدّعي التحمل نصّاً في محل النزاع من قوله ﷺ من صلّى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يصلّ إلا وراء الإمام فإنه أخرجه الدارقطني من حديث جابر من طرق كلها ضعيفة.

فهذه ثلاث مسائل أذكر بها قول شيخ الإسلام في أول البيت: عداوة أهل السنّة وهي قليل من كثير، وقد وضح برهانها وقام دليلها ولم يبق للمتمسك بخلافها إلا حجج أوهن من بيت العنكبوت، فمن عمل بها أو بنحوها يريد بذلك موافقة محمد بن عبد الله في هديه عملاً بقول الله تعالى: ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[2] سمّوه ناصبياً.

وليت شعري ما هو الجامع بين الامتثال لأمر الله باقتفاء أثر الرسول وبين بغض أمير المؤمنين رضي الله عنه فإن كلاً من الأمرَين في جهة اللهم غفراً، فإذا كان هاجراً لهذه السنن وأمثالها مدافعاً في وجهها مصرّحاً بذم فاعلها فهو شيعيّ صادق الولاء لعليّ كرّم الله وجهه.

﴿وَرَبُّكَ يَحْكُم بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[3]..

---

(١) سورة الأعراف: آية ٢٠٤.

(٢) سورة الحشر: آية ٧.

(٣) سورة البقرة: آية ١١٣.

وأمّا مسألة الجمع بين الصلاتين فلا شك أنه قد صار شعاراً لجماعة يجعلونه علامة لتشيعهم ودليلاً على محبتهم أهل البيت وهذا من جملة نوادرهم التي أسلفت ذكرها لأن فعل العبادة على هذه الصفة لا جامع بينه وبين التشيع، إذ هي عمل بالأركان بين يدي رب العزة امتثالاً لأمره واعترافاً لحقه ومحبّة الوصي سلام الله عليه أمرها قلبي اعتقادي تتعلق بموالاته رضي الله عنه وليس العبادة من هذا القبيل في ورد ولا صدر.

وأما الكلام على المسألة وأدلّتها فحجة القائلين بجواز الجمع لغير عذر ما أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن عباس قال: جمع رسول الله ﷺ بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالمدينة في غير خوف ولا مطر فقيل لابن عباس: ما أراد بذلك؟ قال: لا يحرّج أمته، وأخرجه عنه أيضاً مالك وعبد الرزاق وأخرج عبد الرزاق عن ابن عمر أنه قال جمع لنا رسول الله ﷺ وهو غير مسافر بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء فقال رجل لابن عمر: لِمَ ترى النبي ﷺ فعل ذلك؟ قال: لئلا تحرَج أمته، وأخرج مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن ابن عباس أن النبي ﷺ صلى بالمدينة سبعاً وثمانياً الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وفي رواية لمسلم من غير خوف ولا سفر، وقال ابن حجر في «تلخيص تخريج أحاديث الرافعي»[2] ولهذا الحديث ألفاظ منها لمسلم جمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء من غير خوف ولا مطر، وفي رواية جمع في المدينة من غير علّة قيل: ما أراد بذلك قال: التوسعة على أمته، وفي مجمع الزوائد زيادة في هذا الخبر قال ﷺ إني أردت أن لا أحرج أمتي أو ما هذا معناه ومثله أيضاً رواية من حديث عبد الله بن مسعود ورواه الطبراني في الأوسط والكبير

(١) انظر أهل البيت من كتاب «الإسلام الصحيح» لإسعاف النشاشيبي ومفيد عمارة بإخراجنا وكلام الشوكاني في الجزء الأول من نيل الأوطار في كتاب الصلاة والسيد محمد رشيد رضا في مجلة المنار. وانظر المعجم وأكبر من ذلك القرآن الكريم فسياق الآية نص صريح من هم أهل البيت.

(٢) هو تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، ولعله قد طبع.

وقد ذهب شيخ الإسلام إلى عدم الجواز وشدّد على التوقيت تشديداً بالغاً حتى أفرد هذه المسألة بالتأليف فوضع[1] «تشنيف السمع، بإبطال أدلّة الجمع».

وقال في السيل الجرار إن جمع رسول الله ﷺ بالمدينة وقع مرة واحدة فتأوله الكثير من الراوين للحديث وحمله بعضهم على الجمع الصوري إلى أن قال في السيل الجرار: ورحم الله الحافظ الترمذي فإنه صَرَّحَ بأن جميع ما في كتابه معمول به إلا حديثين هذا أحدهما.

---

(١) والقول ما قالت حذام وهي كلمة الفصل. كلمة الإمام الشوكاني من تحريم الجمع بين الصلوات الخمس وعدم جوازها ومن قال بالجمع فقد جاء بشريعة جديدة مخالفاً لشريعة القرآن، فالصلاة رأس الطاعات ومخ العبادة وهي أحد أركان الإسلام وليس بين العبد وبين الكفر إلا مجرد تركها.

وأكبر من ذلك وأجل وأسمى خطاب الله جل شأنه لنبيه ﷺ المبلغ عن الله، وإليك ثلاث آيات بينات من الذكر الحكيم تبين أداء الصلوات الخمس في أوقاتها المعلومة: الأولى: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ (سورة الإسراء: آية ٧٨)، فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يقيم الصلاة لدلوك الشمس: لزوال الشمس وهي صلاة الظهر والعصر إلى غسق الليل وهي صلاة المغرب والعشاء، إن قرآن الفجر أي صلاة الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً تشهده الملائكة: وقد أجمع المفسرون أن المراد بهذه الآية الصلاة المفروضة، الآية الثانية قوله تعالى: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ (سورة النساء: آية ١٠٣)، تأمل إلى قوله تعالى: ﴿على المؤمنين﴾ ما فيه من مغزى بالغ الأهمية، كتاباً أي فرضاً لازماً موقوتاً أي في أوقاتها المبينة وإلا فما فائدة الوقت المضروب لها وفيه التذكير بالله جل اسمه والجمع للصلوات منافٍ لكل ما يريد الله، والآية الثالثة قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ (سورة النساء: آية ٢٣٨) فأمر الله جل شأنه بالمحافظة على أداء الصلوات الخمس في أوقاتها المفروضة بالآيات البينات الصريحة وزادها بياناً فعل رسول الله (صلعم) طيلة حياته وتبعه الخلفاء الراشدون والصحابة أجمعون وهذا علاوة على حديث «خمس صلوات كتبهن الله على عباده في اليوم والليلة» ولا أدري أين ذهب بال القائلين بالجمع وكيف غاب عقلهم عن الآيات الصريحة.

قلت: وما ذكره غير مسلم أما حمل بعضهم لجمع رسـول الله ﷺ على الجمع الصوري فمدفوع بتعليل فعل الجمع من النبي ﷺ ومن الصحابي بعدم التحريج على الأمة ولا يكون ذلك إلا إذا كان الجمع بينهما في وقت أحديهما وأما فعلهما صورة في الوقت المشترك فهو تأدية لكل من الصلاتين في وقتها فالشرط إصابة الوقت وقد حصل ولا نزاع في صحة ذلك وجوازه وأما تصريح الترمذي باستثناء حديثين من كتابه أحدهما حديث الجمع، والثاني كما أفاده صاحب فتح الباري هو حديث الشارب إذا شرب في الرابعة فاقتلوه فإنه سلم قوله النووي[1] في الأول دون الثاني.

وأما قول شيخ الإسلام في البيت «وترك الجمع» فإن جماعة من أهل العلم يرون الإمام العدل شرطاً في صحة الجمعة[2] ولكن في مستنداتهم ركة وآخرون وهم الحنفيّة يجعلُونه شرطاًولا يعتبرون العدالة وأهل هذا القول الثاني أنهض بالحجة من أهل القول الأول إذا صحَّ ما عوّلوا في الاستدلال عليه.

نعم معوّل الأصحاب في الاستدلال على ما زعموا هو قول الحسن البصري وعبيد الله بن محيرز ومسلم بن يسار وعمر بن عبد العزيز[3] أربعة إلى الأئمة:

---

(١) النووي: هو يحيى بن شرف الدين النووي الشافعي محيي الدين إمام شافعي كبير ومؤلف غزير المادة له مؤلفات منها: المنهاج في فقه الشافعية عليه الاعتماد وطبع وعليه عدة شروح، وشرح صحيح مسلم، طبع وله غير ذلك. مولده ووفاته في نوى من قرى حوران سنة ٦٣١ ـ ٦٧٦هـ والأعلام، ج ٨.

(٢) صلاة الجمعة عبادة فرضها الله على عباده من فوق سبع سموات ولم يفرضها الإمام العادل أو غيره، ما يشعر أنه فرط في شريعته ونقص منها تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فاشتراط الإمام العادل أو العدد أو المصر أو غير ذلك زيادة في شريعة الله ومما لم يأت به سلطان، قال الإمام الشوكاني (ج ١ ـ ١٩٧) ليس على هذا الاشتراط إثارة من علم وهذا كلام ليس من الشريعة وما ليس منها فهو ردّ أي مردود على قائله ومضروب في وجهه.

(٣) هؤلاء من أعلام التابعين لهم تراجم ضافية في الكتب المخصصة لذلك فلا نشغل حيز الكتاب فمن كان من ذوي الهمم فليرجع إليها وهي في متناول اليد ومتيسرة.

«الجمعة والحدود والزكاة والفيء» وجعل هذا في مقام الاحتجاج تخيّلٌ مدْحوض، واستدلال مرفوض، لا يقوى على تخصيص عموم، ولا نسخ حديث موهوم، وأيضاً يلزم من العمل بمدلوله سقوط وجوب الزكاة عند عدم الإمام وهذا باطل بالإجماع.

فالحاصل أن الأمر بالسعي إليها في القرآن كاف في الوجوب، مع ورود أحاديث كثيرة من نحو «الجمعة واجبة على أهل كل قرية» عند الدارقطني، وعن ابن مسعود قال: بعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير إلى المدينة قبل أن يهاجر وأمره أن يقيم الجمعة بها فأقامها، وملازمة رسول الله ﷺ لها أمر معلوم إلا أن جعلها فرض كفاية قريب من الصواب لأنه ﷺ كان يصليها في المسجد وهو لا يتّسع لجميع من كان في المدينة من الصحابة فمن المعلوم أنه كان يترك البعض منهم حضورها فيعلم بهذا أنها فرض كفاية لا فرض عين، ورأيت شيخ الإسلام في مؤلّفه «السيل الجرار» جعل هذا الاحتجاج من ضيق العطن[1] وهو لا يخلو من أن يكون فعلاً أو تقريراً وكلاهما من أقسام السنّة فالقول قضى بوجوبها على الأعيان وصرفها هذا التقرير إلى الكفاية وما ذكره من أن إقامتها خارج المسجد ممكنة فنعم ولكن لم يفعل ذلك رسول الله (صلعم) بعد عمارته المسجد الذي كان يصليها فيه.

رجعنا إلى ما نحن بصدده لا يخفى أنني ذكرت من شعر الأستاذ ما عثرت عليه وهو بالنسبة إلى ما قاله من القصائد والمقطوعات ليس إلا كالقرارة من المتفجر[2].

* * *

---

(١) العطن: بالتحريك مبرك الإبل والغنم وغيرها حول الماء وهو كناية عن ضيق التفكير وقلة المعرفة وضيق الطباع.

(٢) القرارة: محل الماء القليل الذي قرّ فيه والمتفجر الماء الغزير المتدفق.

﴿منثور الإمام الشوكاني ورسائله﴾

وأما كلامه المنثور في فصول كتبه فهو في أعلا مراتب البلاغة ومنه ما حرره إلى حكام الأمصار في اليمن لما رأى بعضهم يتورع عن إبرام الأحكام ويعول في أكثر الواردات إلى الديوان العام فقال يطلع الحاكم سيدي سعيد بن الحسن العنسي عافاه الله على هذا الرقم الشامل الكامل، الجامع المانع وهو بحمد الله ممّن لا يقعقع له بالشنان ولا يغمز بالسنان، وإراحة الخصمين من معارك الخصام قربة والثمرة كل الثمرة من نصب الحكام فصل المترافعين بالأحكام، وليس من الورع أن يتجنب الحاكم تحرير الأحكام، وتقرير ما به الحل والإبرام فإن ذلك من أعظم موجبات الآثام، وإني لأعجب من حاكم يفتخر بقلة أحكامه، وحقارة حلّه وإبرامه، وما أشبه من كان كذلك بمن يفتخر بأنه حضر موطن الجهاد بعد أن قبض عطاء المجاهدين ولم يسلّ فيه سيفاً ولا هزّ ذابلاً ولا أراق دماً، ولا حمى حماً، فهذا لا قام بواجب الجهاد فيعذر، ولا ترك قبض ما قبضه من أموال الله ليأخذه غيره ممن حضر فيُنصَر ويَنصر، كذلك الحاكم التارك للعلة الغائيّة من نصْبه وأخَر العمل من سعيه وكسبه فإنه لا أراح نفسه والناس ولا قام بحق هذا الشعار واللباس، فإن قال الحامل له على هذا الورع، فالورع كل الورع بعد الدخول في هذا الشان، والجولان بين فرسان هذا الميدان، أن يفعل المقصود من تحكيمه، والمطلوب من تقديمه وتعظيمه وإن كان ولا بدّ متورعاً عن الأحكام فلا ثمرة مستفادة في عَدِّه من جملة الحكام ولم أقصد بهذا الكلام شخصاً معيناً بل قصدت التنشيط لنفسي ولأبناء جنسي من جميع مَن ابتلى بهذه البلية ورزء بمثل هذه الرزيئة أن يبذلوا نفوسهم فيما هو معظم المقصود من قعودهم في مقاعدهم وقبضهم لجراياتهم وليدعوا

الحبْل على الغارب حتى يسدَّ غيرهم مسدّهم وكتبه محمد بن علي الشوكاني وحرر شهر شعبان سنة ١٢١٦هـ.

وكتب على لسان المنصور بالله أبي أحمد بن الإمام المهدي لدين الله العباس رحمهم الله رسالة في نشر العدل، وإزالة البدع وكان هو المشير بذلك وبعث بها إلى كل عامل من عمال اليمن نسخاً متعددة وذلك في شهر ربيع أول سنة ١٢٢٢هـ وهي ما تؤدي إليك هذه الصورة.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الرسول الأمين وآله الطاهرين طلوع شمس عدل وسطوع نور فضل وهبوب ريح برّ طاب نشرها وطار في الأقطار ذكرها فيا لك من حلل إحسان خلعَتْها أيدي الإمامةعلى العباد، ومن مطارف أمان نشرتها أكف الزعامة على الحاضر والباد، ومن موارد خير صفت فحلت للشاربين، ومن شرائع حق كرعت في معينها أفواه المسلمين أجمعين، ومن حقائب برّ قامت بها للعدل أسواق، وصار بها لبضائع الحق نَفَاق ولأرْواح الجور إزهاق، ولزعاف أمواه الباطل إهراق، وما ذاك إلا لأن مولانا إمام الزمن، وخيرة الخلق من بني الحسن، وذخيرة العترة في قطر اليمن أمير المؤمنين خلد الله محاسنه على صفحات الدهور رجّح نظره الشريف المؤيد بالفلاح والنجاح، وجزم رأيه العالي المنيف المؤسّس إنشاء الله على الخير والصلاح أن جميع رعاياه في جميع الأقطار، وكل من شملته دعوته المباركة في الأنجاد والأغوار ليس عليهم من المطالب إلا ما أثبته الشرع الشريف في جميع ما يملكونه كائناً ما كان مما فيه حق الله عز وجل لا يخاطبون بغير ذلك فمن طلب منهم نقيراً أو قطميراً زائداً على ما أوجبه الله فلا طاعة له وعلى المسلمين أن يأخذوا يده[1] وينهوا أمره إلى القاضي في الجهة وعلى القاضي أن ينهي ذلك إلى الحضرة الإمامية حتى تناله من العقوبة ما يزجر به من رام أن يفعل كفعله وإذا داهن القاضي أو حابى رجلاً رام غير ما فرضه الله فقد استحق أن يعزل عن هذه الوظيفة الدينية فليس بمستحق لها ولا مأمون عليها فليفرخ روع الرعية وتنثلج صدورهم وتطمئن

(١) كذا في الأصل وصوابه على يده.

قلوبهم فلا خطاب عليهم بجباية ولا قبال ولا سياسة ولا فِرقة ولا دفعة[1] ولا ما يجري من هذه الأمور المحدثة التي لم يأذن الله بها بل يأخذ العامل عليهم ما أوجبه الله عز وجل من كل شيء بعينه كما ورد به الشرع الشريف ومن زاغ عن شيء من هذه فقد استحق أغلظ العقوبة وأعظم النكال وهكذا من عامل معاملة مشتملة على نوع من أنواع الربا، فماله حلاله بحكم ذي الجلال وعقوبته واجبة على كل مسلم، وعلى الجاهل أن يتعلم وعلى العالم أن يُعلِّم فليطلع حكام الجهات على ما رسمه إمامنا وأمر بإنفاذه وسمعناه منه كما يقتضيه تنفيذه الشريف على هذا وعلى كل حاكم أن يقرأ هذا على رعية القطر الذي هو فيه، ويجمعهم وينقل لأهل كل قرية صورة بخطه وعلامته لتبقى بأيديهم مستمراً يدفعون بها ظلم كل ظالم وجور كل جائر فهذه سنة عدل واضحة المنار وذخيرة خير باقية في جميع الأعصار، قد أظفر الله سبحانه إمامنا بخيرها وأسعده في الدارين بأجرها وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

نعم وقد وفيت ببعض به[2] من نشر معاليه، ورسم مساعيه وأوجزت في تحقيق الصورة، فمحاسنهُ غير محصورة.

فما تناهيت في عدي محاسنه ... إلا وأكثر مما قلت ما أدعُ

* * *

(١) تحت هذه الأسماء كانت تؤخذ أموال الناس وقد جرى على منوالها الإمام يحيى كما بيّنا ذلك في تاريخنا إذ هم من فصيلة واحدة.
(٢) كذا هذه العبارة في الأصل ولعل هناك نقصاً.

﴿تراجم أشياخ الإمام الشوكاني﴾

القسم الثاني في تراجم من أخذ عنهم وتخرج بهم

وليكن الشروع بذكر الشريف المسند والإمام المعتمد عبد القادر بن أحمد، هو أبو إبراهيم عبد القادر بن أحمد بن عبد القادر بن الناصر بن عبد الرب بن علي بن شمس الدين بن شرف الدين الكوكباني الأصل الصنعاني الدار والوفاة هو نبراس من عنيته من مشائخ شيخ الإسلام بالذكر فضلاً مشهوراً وعلماً منشوراً، وحظاً موفوراً، وسعياً مشكوراً تبحّر في الفقه والفرائض والضرب والمساحة، والوصايا والقراءات وأتقن النحو والتصريف والمعاني والبيان والبديع واللغة والمنطق والعروض والقافية وعلم الجدل والأصلين والحديث وعلومه ورحل عن دياره لطلب الحديث وغيره إلى مكة المشرفة وزبيد وصنعاء وإلى ذمار لطلب الفقه والفرائض وأخذ في صنعاء عن جهابذة العلماء كالبدر الأمير مجتهد اليمن محمد بن إسماعيل بن صلاح الدين الكحلاني الشريف الحسني[1] وعن الصدر الشهير أحمد بن عبد الرحمن الشامي الشريف الصنعاني وعن رئيس المحققين السيد هاشم بن يحيى الشامي وعن الزّاهد المرموق السيد يوسف بن حسين زبارة[2] وأخذ في الفقه بمدينة ذمار عن الفقيه

---

(١) تقدم ذكره.

(٢) أحمد بن عبد الرحمن الشامي: مولده سنة خمس وتسعين وألف ووفاته سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف. كان من أكابر علماء صنعاء في فنون عديدة، أخذ عن جهابذة عصره، تولى القضاء الأكبر لثلاثة أئمة: القاسم بن الحسين وولده المنصور الحسين وولده المهدي العباس وكان موضع إجلال واحترام الجميع لما حواه بين برديه من العفاف وصدعه بالحق وهكذا أثنى عليه الإمام الشوكاني. وأما يوسف بن الحسين زبارة فترجمه المؤرخ زبارة في ملحق البدر الطالع، ص ٢٣٨ وأثنى عليه وأشاد بمعارفه وكانت ولادته سنة ١١١٦ ووفاته

المتقن زيد بن عبد الله الأكوع وشيخ الطريقة عبد الله بن حسين دلامة[1] وسمعت أنه قرأ عليه في أيام طلبه في أوائل الوصايا فصار الشيخ تلميذاً له في بقيتها وكان صاحب الترجمة قد استجاز من أكثر مشائخ الحديث في مكة والمدينة وزبيد فأجازه أبو الحسن السندي نزيل مكة ومحمد حياة السندي وسليمان بن يحيى بن عمر الأهدل الزبيدي وعبد الخالق بن أبي بكر المزجاجي ومحمد بن علاء الدين المزجاجي ومحمد بن الطيب المغربي والمساوي بن إبراهيم الحشيبري ومحمد بن محمد بن آدم[2] وأخذ عنه في الحديث من عارفي ذمار الشريف المعمّر الحسين بن يحيى بن إبراهيم الديلمي وعبد الرحمن بن حسن الريمي في صحيح البخاري وله تلامذة مجتهدون كابنه العلامة إبراهيم بن عبد القادر والجمال الجلال وآخرون ممن سواهم ولكن أجل الآخذين عليه على الإطلاق قدراً وأعظم خطراً وأغزرهم علماً وأسرعهم فهماً وأبصرهم انتقاداً وأحسنهم

سنة ١١٧٩ ولعلها قد سبقت ترجمته. وأما هاشم بن يحيى الشامي فترجمه الإمام الشوكاني في البدر الطالع (ج ٢ ـ ١٧٨)، ولد تقريباً سنة ١١٠٤ وأخذ العلوم عن أكابر علماء صنعاء وهو أحد العلماء المشاهير والأدباء المجيدين وله آراء واجتهادات لا بأس بها وترجم له من معاصريه جماعة. قال الإمام الشوكاني: وجرت لصاحب الترجمة محنة في أول خلافة الإمام المنصور بالله الحسين بن القاسم بسبب ميله إلى السيد محمد بن إسحاق لما عارض المنصور فاختفى أياماً ثم بعد ذلك رضي عنه المنصور وكان يعظمه ويكرمه ولما مرض صاحب الترجمة زاره في بيته وكانت وفاته سنة ثمان وخمسين ومائة وألف وجميع عمره أربع وخمسون سنة.

(١) زيد بن عبد الله الأكوع الحوالي ويرتفع نسب آل الأكوع إلى القيل ذي حوال. انظر الإكليل (ج ٢ ـ ١٧٨)، وزيد هذا شيخ الشيوخ في تقرير الفقه الزيدي فهو الذي قرر قواعده وأثبت مسائله وهو المعتمد كلامه والمعوّل على تقريره مع الثلاثة الأعلام الأعمدة السالف ذكرهم ووضع على تصديق المذهب علامة «هب» أي المذهب الصحيح «وقرز» أي قرره زيد الأكوع، ترجمه حيدرة في مطالع الأقمار في تراجم علماء ذمار وأشاد بعبقريته الفقهية ولوذعته الذهنية وكذلك زبارة في الملحق ص ٩٢٠ وكانت وفاته سنة ست وستين ومائة وألف، وكذلك عبد الله بن حسين دلامة الذماري أشاد المؤرخان المذكوران بمعارف هذا الجهبذ، ومن حسنات مدينة ذمار، وكانت وفاته سنة تسع وسبعين ومائة وألف.

(٢) المذكورون يأتي تراجم البعض والبعض لم يترجم لهم.

تصـرفاً واجتهـاداً وأوسعهم اطلاعـاً وأكثرهم بين يـديه سمـاعاً قـاضي القضاة شيـخ الإسلام عمّر الله بتعميره معالم الـدرس والإفادة، وصيـر اسمه مثبتـاً في ديوان أهـل السعادة، وأيضاً من فحول تلامذته العالم المفضال حسين بن أحمد السياغي[1] ولـه مؤلفات نافعـة منها «رفـع حجب الأنـظار فيما بين المنحـة وضوء النهـار»[2] و «نظم الـروض الناضـر» للعـالم المـدقق حـافظ العلوم، ومجـدد حـدود الـدين والـرسـوم الحسن بن أحمد الجلال وهي منظومة سهّل بها وعور مسالِكه وأبان تجلي عبارته خفيات مداركـه وشرحها شرحاً مفيداً عرّفـه «بتحفة النـاظر نـظم الروض النـاضر، في آداب المناظر»، وذكر في أول شرح هذه المنظومة ما نصّـه بقولـه: وأودعت فرائـدها على طرف الثمام بعبارة تقرب إلى الأفهام وكان حصول النظم والشرح بتيسير الواهب في بعض يوم من شهر ربيـع الآخر عام ١٢٠٣هـ انتهى كلامه ولـه فلك القامـوس جعله كالمقدمة له.

هنا وَهْم من المؤلف الشجني فقد خلط بين مصنفات العلامة عبدالقادر ومؤلفات تلميذه السياغي

وأما رسائله فهي كثيرة منها رسالة في هلال رمضان وأخـرى في ركعتي الفجر إلى الشريف حسن بن مهدي النعمي تشمل على مباحثة بينهما ورسـالة في الـذبيـح هل هو إسماعيل بن إبراهيم أو إسحاق، ورسالة في قتل الجماعـة بالـواحد حسّن[3] بها على محسن بن أحمد العنسي القاضي ويقال أنه كان له اطلاع في علم الأسمـاء والحروف وكذلك في الرمل والنجوم وعلم الهيئة.

---

(١) الحسين بن أحمد السياغي الحيمي: تناوله الإمام الشوكاني بنعوت جميلة من التفوق الذهني والتقدم العلمي وأنه كان زميله وأليفه إلا أن المنية هصرتـه كهلاً وكـان له خط حسن. مـولده سنة ١١٨٠ ووفاتـه سنة ١٢٢١ عن واحـد وأربعين عامـاً، وله الـروض النضير على مجمـوع زيد بن علي، طبـع.

(٢) لو قال المؤلف ولعبد القادر أو نحو هذه العبارة لكان أظهر فإنـه يحصل إشكـال في قولـه وله مؤلفات أن ذلك راجـع إلى السياغي ولم يذكر الشوكـاني من مؤلفات عبـد القادر غيـر «فلك القاموس ونزهة الطرف في حكم المجرور والظرف وحواشي على ضوء النهار».

(٣) كـذا هذه العبـارة ولم نفهمها ومحسن بن أحمـد العنسي ترجمـه المؤرخ زبارة في الملحق، ص ١٩١، وإن وفاته سنة ١١٨٩.

ورأيت في بعض المجاميع لبعض أهل العصر أنه سمع الأستاذ الشوكاني يقول: قرأت اثنين وثلاثين علماً أكثرها على شيخي عبد القادر وله أشعار نفيسة وقصائد سيّارة من ذلك قطعة وجّهها إلى يحيى بن مهدي الشبيبي الذماري[1] وأثنى بها على ذمار وأهلها فقال:

نِعْم أرض للكمالات ذمار	كم بها من ماجد حامي الذمارِ
أرضها مفروشة من سندس	وصباها بفتيت المسك جاري
لا جبال حجبت عنها صباً	لاولم تحجب شُموساً وبراري
ماؤها رقّ فخلنا أنّه	من هوى يطفى به حرّ الأواري
وبها كل همام عيشه	كل يوم ترتعي زهر الدراري
في ظلال العلم قالوا أبداً	فإذا قالوا فدع كل مماري
لم يعبهم قط ضيف بسوى	أنه يسلو بهم عن كل دارِ
ذكرنا معنى لدى جودهم	ما له معنى ولا جود البحارِ
ولهم في الحرب أيام كسا	نقعها ثوب الدجى شمس النهارِ
وصريف الكتْب في الكُتب لهم	ناب عن تحريك عود وهزارِ
ليس يدعى في الوغى حامي الذمار	من تسلّى كل يوم عن ذمارِ

أبدع بالتجنيس في أثنائها وأما البيت الثاني فلعلها رؤيا صالحة لأنّا لم نرى ذلك في اليقظة.

وقد نحا منحاه السيد البليغ إسحاق بن يوسف بن المتوكل في المدح للمحل المذكور وأهله وخالفهما السيد محمد بن أحمد الجلال الصنعاني نزيل ذمار في صحابة القائد سليم[2] عام تسع وستين ومائة وألف فإنه لما انفصل عنها في لزامه

---

(١) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من المراجع.

(٢) سبقت ترجمة إسحاق بن يوسف ولم أقف على ترجمة لمحمد بن أحمد الجلال وكذا للقائد سليم، وقوله وقد نحا منحا بدون هاء آخره فأصلحناه وقد نحا منحاه.

طالع السيد علي بن محمد اللقماني[1] الذماري بأبيات مدح بها سكانها وذمّ سُكْناها فقال:

مولاي غاية منتهى أوطاري ... وفريد أهل العصر في الأقطارِ
إنسان مقلتي التي نوري بها ... تجلو حنادس ظلمة الأكدارِ
من حل تاموري فصرت لبعده ... أرعى نجوم الليل في الأسحارِ
قد حرمت عيني المنام لفقده ... وسرت عليّ من الهموم سواري
ورأيت أقطار الفضا عندي غدت ... كالليل منقطعاً عن الأنوارِ

إلى أن قال مشيراً إلى قصيدته هذه:

سطرت أسطرها بأسود مقلتي ... تروي حقيقة مسكني بذمارِ
ربع الأئمة والكرام وإنما ... جبلت طبائعها على الأكدارِ
قد حرمت زهر الربيع ربوعها ... وحوت فنون العلم بالأزهارِ
الريح تخفق في الجوانب كلها ... فتثير كل مضرّة وبخارِ
أف لمسكنها وحاشا أهلها ... فهم الكرام على مدى الأعصارِ

وهي طويلة وفي البعض منها جودة لولا ما في الآخر من الإصراف والإقواء[2]، وقد حذفت المعيب منها، ولما وصلت الأبيات إلى من وُجِّهت إليه وهو لا يحسن الشعر فاستعظم الجواب الأديب البليغ إسحاق بن يوسف من المتوكل فأجاب بالنيابة عنه وأول الجواب:

وافت تحيتكم بشهر أذار ... تحكي تحيته إلى الأقطارِ
شهر براعته مع استهلاله ... تحكي براعة ناظم الأشعارِ

---

(١) اللقماني نسبة إلى لقمان بن أحمد. ترجمه المؤرخ زبارة في الملحق، ص ١٧٨ وأثنى عليه وأجازه الحافظ محمد بن إسماعيل الأمير بقصيدة أولها:

أجزتك يا عليّ وأنت عندي ... كأولادي الصغار مع الكبارِ

وكانت وفاته بذمار سنة ست وثمانين ومائة وألف.

(٢) الإصراف والإقواء من عيوب الشعر فارجع إلى علم العروض والقوافي.

إلى أن قال منتصراً لذمار:

وإذا نظرت إلى ذمار وجدتها حسناء لم تلبس لباس دراري
فكأنها بدويّة ما زانها شيء سوى خلق براه الباري

واكتفى بهذين البيتين في تقريظها حتى قال في مدح أهلها ووصف بعض ما يدانيها من بواديها، باطراد الأنهار، وامتداد الأشجار:

ولسربة سرٌّ فإن مقامها في منبع البركات والأسرارِ
في العين من رمع وفيها جاء من قول الرسول مصحح الأخبارِ
ولسرّ دعوته الكريمة قد غدا رمع أعزّ منارة الأقطارِ[1]

قلت: وأراد بهذين البيتين ما روي من حديث «اللهم بارك في زبيد» وفي رِمَعْ وليس بصحيح كما زعم وقد عُدّ هذا الحديث في الموضوعات إلى أن قال:

تتفرع الأنهار من أصل لها كتفرع الأفنان في الأشجارِ
لا عيب فيها غير أن نزيلها يلهو عن الأوطان والأوطارِ
لو لاح للعَلَم الجلال جمالها لحمى الجوار لها ذِمار ذَمارِ
فبمثلها تحمى الذمار كما حمى صنعا بقرب منازه وجوارِ

هذا آخر، وقد جرّدت منها كثيراً لا تدعو بنا حاجة إليه.

والذي يقتضيه حكم الإنصاف، ويرجحه ميزان العدل بلا اختلاف، أن المطري في مدح سكون ذمار داحض الحجّة، متعسف عن المحجّة ولا نجد مجالاً للمقال

---

(١) سربة: بكسر السين المهملة وسكون الراء وفتح الباء الموحدة آخره هاء: عدة قرى في الشمال الغربي من مدينة ذمار ببعض يوم فيها نهر جار وفواكه وغير ذلك وقد ذكرها الشاعر المشهور «بشار بن برد» في قصيدته التي يمدح فيها الأمير عقبة بن سلم الأزدي.
ورمع: بكسر الراء وفتح الميم آخره عين مهملة أحد ميازيب اليمن الغربية. انظر: صفة جزيرة العرب. والحديث الذي في زبيد ورمع أورده الحافظ الديبع في قرة العيون فارجع إليه، ص ٢٨ عن البيهقي في دلائل النبوة.

إلا بركوب الانتحال، فإنها بخرة الهواء، كثيفة الأجواء، وقد جمع لباب أمرها وأبان مكنون سرها الشيخ الأديب إسماعيل بن أحمد بن علي القحيف[1] حيث قال:

لست أُدْعى في الوغى حامي الذمار ... إن تصبرت عن[2] سكنى ذمـــار
بـلد عـلمـي وفـهـمـي وقـوى ... عقلي اليـوم بهـا عـنـدي عـواري
كـل يـوم أنـا فـيـهـا مـؤلـم ... بـزكـام أو صـداع أو دوارِ
بـردهـا أخْـمـدَ مـنـي فـكـرة ... يـوري القـدح بهـا من غيـر نـاري
والبـلا كـل البـلا مـن ريحـهـا ... أخلقتني مـزقـت ثـوب اصـطبـاري
جـرحـت صـدري وأوهـت قـوتـي ... أنـحـفـت فـهـمـي بـآفـات كـبـارِ
كـدرت مـنـي ذهـنـاً صـافـيـاً ... يـلحـق الـدرّ بـيـانـاً بـالـدراري
ورمـت فـكـري مـن الـنسـيـان بـا ... لفـادح الأعـظم من غيـر اختيـاري
فـلذا جـاورنـي فـيـهـا الأسـى ... ولـذا أصبـح دمـع الـعـيـن جـاري
فـاعـذراني إن جـرى في ثـلبـهـا ... سـابـق الأقـلام مـخـلـوع الـعـذارِ
لا سـقـاهـا وابـل الـقـطر حـيـاً ... لا ولا درّت بهـا السـحب الـسـواري
كم وكم حـاكـت بهـا الـريح عـلى ... عـاتـق الأفـق رداء مـن غـبـارِ
وإذا مـا قـرَّت الـعـيـن بـهـا ... رتـعـت فـي روض صـخـرٍ وحـجـارِ
أرضـهـا لا تـعـرف الـنـهـر ولا ... مـدّ فيهـا الـدّوح ظـلاً كـالعـذاري
فـلذا مـا عـرفـت أسـمـاعـنـا ... سـجـع قـمـريّ ولا صـوت هـزارِ

انتهت ولعمري لقد قضى بحكم مرتضى فإن رياحها تلفح الوجوه، وتصير الحسن في أقبح منظر مشوه، ومن تعصب لها من سكانها وزعم أنه يستروح بنسيم هوائها، ويستمرىء بنمير مائها، فقد جاء منكراً من القول وزوراً على أني وإن كنت من مستوطنيها، فلا أماذق النفس بأمانيها وجملة ما أفصح به في شأنها أن أتمثل

---

(١) ترجمه صاحب «مطالع الأقمار» والمؤرخ زبارة في الملحق قال: وكان أديباً أريباً لطيفاً تولى أعمالاً للمهدي صاحب المواهب ومات بذمار سنة واحد وعشرين ومائة وألف. قال الحوالي: ولعل مسجد القحيف الذي بسوق الربوع بذمار منسوب إليه.

(٢) كذا في الأصل وفيه زحاف ولو كان «على سكنى ذمار» لكان أنسب أو لعلها من الناسخ.

يقول الشاعر[1]:

بـلاد ألـفنـاهـا عـلى كـل حـالـة وقـد يؤلف الشيء الذي ليس بـالحسن
وتستحسن الأرض التي لا هـوى بهـا ولا مـاؤهـا عـذب ولـكـنـهـا وطـن

وأما أهلها فقد كانوا فيما مضى حماة جار عظماء أحلام وأخطار واليوم بعض الخاصة منهم يقطع العُمْر بين الذكر والكتاب. والتّنسك والمحراب ولست أقول فيها كما قال البديع[2]:

هـمـذانَ لـي بـلد أقـول بـفـضـلـه لـكـنـه مـن أقـبـح الـبـلدانِ[3]
صبيـانـه في القبـح مثـل شيـوخـه وشيـوخـه في العقـل كـالـصبيـانِ

بيد أني لا أتلعثم في عرصتها بعد تحقيق النظر فإنها مجردة عن لطافة الريف

---

(١) الشاعر لا أعرف من هو.

(٢) البديع: ويعرف شهرة ببديع الزمان الهمذاني واسمه أحمد بن الحسين صاحب الرسائل الرائقة، والمقامات الفائقة وعلى منواله نسج الحريري مقاماته واحتذى حذوه واقتفى أثره وقد طبعت مقاماته وغيره ووفاته سنة ٣٩٨هـ. ابن خلكان (ج ١ ــ ١٠٩).

(٣) همذان: بفتح الهاء والميم والذال المعجمة ثم ألف ونون: أول بلاد الجبال مما يلي العراق وهي من بلاد فارس: إيران وقد أطال ياقوت الكلام عنها وساق مقاطيع شعر وقصائد قدم إليها الحافظ عبد الله بن المبارك الحنظلي فأوقدت بين يديه نار فكان إذا سخن باطن كفه أصاب ظاهرها البرد فقال:

أقـول لـهـا ونـحـن عـلى صـلاء أمـا لـلنـار عـنـدك حـرّ نـار
لئـن خـيّـرت فـي الـبـلدان يـومـاً فـمـا هـمـذان عـنـدي بـالـخـيـار

(٤) كثيراً ما يشكو الأشياخ من علماء ذمار ــ رياحها ويقال لها العوالي والجعافير حتى أن الوالد العلامة أحمد بن محمد قطران كان كثيراً ما ينشد قول الأول مصحفاً المصرع الثاني:

وبـلـدة لـيـس بـهـا أنـيـس إلا الـجـعـافـيـر وإلا الـويـس

والجعافير: الرياح الإعصار، والويس: مسجد بذمار على مدخل مقبرتها، وذمار وطني ومسقط رأسي ورحم الله البحتري أو غيره الرقاع بن قيس للأسدي:

بـلاد بـهـا حـل الـشـبـاب تـمـائـمـي وأول أرض مسّ جـسـمـي تـرابـهـا

ولم يطل مقامي بذمار وبما وسبق في المقدمة إشارة لذلك.

والحضر خرقة المكاسب، ضيِّقة المعايش والمطالب، ولا يعتب على أهلها إلا بالتقصير بالحديث والأدب وهما علمان ناهيك بهما خطة عظمى وشرف أسمى.

ومن ثَمَّ ترى صنعاء فضلت جميع أمصار اليمن قديماً وحديثاً إلا لأنه ينظمّ إلى دراية أهلها بالمسائل الفقهية درايةً بالحقائق النحوية والقياسات الصرفية والقوانين الأصولية واللطائف الأدبية ففازوا بحيازة علوم الاجتهاد، ونقاية لبابها، وأناطوا فرعيات المسائل بأدلّتها وعللها وأسبابها، وزادهم الله بسطة بالاطلاع على الآثار النبويّة، والأحاديث المصطفوية، ولأجل تكريرهم النظر في الأثر وتقرير الأدوات وما يتلوها من علم الأدب ترى كل فرد من خاصة أهل صنعاء أسلس من خاصة[1] ذمار قياداً وأرق فؤاداً والطف طباعاً وأسرع للحق اتباعاً فلِلّهِ السيد عيسى بن لطف الله حيث قال فيها وفي أهلها:

وددت ألقى لصنعا في الدّنا مِثْلا هيهات ذاك محال دونه اليأسُ

هيهات صنعا هي الدنيا بأجمعها أيضاً وسكانها عندي هم الناسُ

ولا عجب إن كانت صنعاء بهذه المنزلة فإنها حضرة الملك وكرسي الخلافة ودار الإمامة، وعقوة العز والزعامة، فليس بين قريتنا وبين مصر صنعاء نسبة لأن أهل ذمار بالعامّة أشبه، إلا أن ذمار في عامتها خير من عامة صنعاء.

نعم قد تطابق نظر السيد محمد الجلال والقحيف على ثلب ذمار وجمود الفكرة بهاولهما ثالث يشفعان به ويستأنس لهما بأدبه وهو الحكيم الماهر والأديب الباهر إسماعيل بن صالح الحماطي الأنسي[2] نزيل ذمار في سنة عشرين ومائتين وألف فإنه لما نزلها نبا عنها وتجرَّم منها بقصيدة فيها شعر متين يدل على قريحة مساعدة وفطنة متّقدة، وتعرض لأعراض أهل ذمار بما كان ينبغي له تركه فقال:

---

(١) كان في الأصل: خاصي ذمار فأصلحناه كما نرى خاصة ذمار وربما أنه أراد جمع خَاص.

(٢) ترجم له المؤرخ زبارة في نيل الوطر (ج ١ ـ ٢٧٣) نقلاً عن التقصار وأورد المقطوعة الشعرية وغيرها واستطرد ما قيل في ذمار مدحاً وذماً إلى أن قال: ووفاته سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وألف كما ذكر المؤلف فيما يأتي.

إذا سقت السحاب الجون أرضاً ... على ظمأ فلا سُقيت ذمارُ
ولا برحت يعاهدها عهاد ... جهام صوبها ضرٌّ ونارُ
فتضحى واخضرار العيش فيها ... لفرط الخوف والوجل اصفرارُ
بلاد لا يُعزُّ بها نزيل ... له أهل بساحتها ودارُ
ودار أهلها ناس صغار ... وإن كانت لهم جثث كبارُ
رعاع طوع ذي أمر ونهي ... شعارهم المذلة والصغارُ
وإن نزل الجليل القدر فيهم ... فغايته اهتضام واحتقارُ
مودتهم له تزداد نقصاً ... كضوء البدر يدركه السِّرارُ
ولو صيغ الوفاء بها سواراً ... على عضدٍ لباينه السِّوارُ
فدع لا يخضعون فذاك زورٌ ... إذا صح انتقاد واختبارُ
عجبت بها لعيش كيف يصفو ... ومن كدرٍ لسائغه وجارُ
يقاسي دونه هماً وغماً ... تلين ولا تلان له الحجارُ
ولو طلب التراب لعزَّ حتى ... يساويه بعزّته النّضارُ
أجلّ صفاتها أن لا ذمام ... بها يُرعى ولا يُحمى ذمارُ

وكان لي بالحماطي المذكور رحمه الله إلمام لمعرفة كانت بينه وبين والدي غفر الله له وهو أحد شيوخي الذين تخرجت بهم قرأت عليه تعليقة السيد على الكافية(1) وكنت إذا حضرت مجلس مفاكهته أكثر التعجب من تضلّعه في الأدب ومن حسن محاضرته، وغزارة مادته، وسرعَة بادرته وسعة حفظه وكثرة روايته للأشعار وسرد النوادر والأخبار، وأما الطب فإنه كان من الحذاق فيه والمطّلعين على سر خوافيه:

(1) تعليقة السيد هي ما كنا نعرفه تسمى حاشية السيد على كافية ابن الحاجب في علم النحو وكانت متداولة بين القراء. أما كافية ابن الحاجب فكان الطلبة في شروعهم للدراسة يتغيبونها وأنا ممن حفظها غيباً وقد ذهبت عني ذهاب أمس الدابر والسيد المنوه به ترجم له الإمام الشوكاني (ج ٢ ـ ٢٠٢) ولم يذكر له لا مولداً ولا وفاة وفي الهامش لزبارة أنه عاصر الإمام شرف الدين وكانت وفاته سنة ثلاث وسبعين وتسعماية، واسمه محمد بن عز الدين. قلت: وفي ذهني أنه عاش في كنف الأتراك وأنعموا عليه إنعامات جزيلة.

تـخـبّـره الـنـبض الخفيات مـثـلمـا   يشير فصيح اللحظ بالمضمر المخفي
إن غـضـبـت روح عـلى جـسـمـهـا   أصـلـح مـا بـين الـروح والجسم[1]

وروى بعض العصريين والعهدة عليه أن الحماطي حضر مجلس بعض الوزراء ليلاً وقد أسرجت الشماع بين يديه في مغرز مصطف الأنابيب، وكان في مفرج بئر العزب ودونه بستان فيه أشجار مدوّحة قد تدلت أغصانها إلى سطح المفرج والريح تميل بها يميناً وشمالاً فقال الوزير للحماطي صف مجلسنا هذا يا قاضي فقال ارتجالاً:

كـف أصـابعـه الـلجـين تـقـمـعـت   مـنـه الـرؤوس بخـالص العقـيـانِ
كـعـرائس تـجـلى لـمَـلْكٍ دونـه   هـزت عـلـيـه عـوالـي الـمـرانِ

فأسنى جائزته وخلع عليه.

نعم ثم إن إسماعيل الحماطي بعد لبثه في ذمار أياماً تبرّم بها، وسئم البقاء فيها فرحل عنها إلى صنعاء واتخذها وطناً إلى أن مات عام اثنتين وثلاثين ومائتين وألف.

وأجاب عن شعره جماعة من أهل ذمار بأجوبة كثيرة ولكن أحسنها إبداعاً وأبعدها فحشاً وإقذاعاً جواب السيد الأديب أبي يحيى محمد بن علي بن أحمد بن إسماعيل بن علي بن عبد الله بن القاسم بن محمد المنصور الذماري ولادة ونشأة ووفاة[2] وهو:

نـظام يـسـحـر الألـبـاب وافـا   كـزهـر الـروض بـاكـره انـهـمـارُ
يـريـك حـمـاسـة الأسـاد عـتـبـاً   يـمـازجـه عـبـوس وافـتـرارُ
فـمـبـتـسـم إلـى خـلٍّ وفـيٍّ   وعـن أهـل الـجـفـاء لـه ازورارُ
بـراعـة نـظـمـه فـي ذم أرض   بـهـا لـلضـيـف لـم يـطـب الـقـرارُ
إذا سقت الـسـحـاب الـجـون أرضـاً   عـلى ظـمـأ فـلا سـقـيـت ذمـارُ

---

(١) لا أعرف قائل هذا الشعر.

(٢) أبو يحيى محمد بن يحيى إلخ هو الذي ينعته المؤلف في الصفحة التي تلي هذه.

ولكن الضياء أتى إليها — على هرم وقد خلت الديارُ
وكانت كالعروس لمجتليها — وحليتها المحامد والفخارُ
محط ركائب الأعلام فيها — ففي الأقطار صار لها اشتهارُ
فها هم طيء أجداث تفانوا — وذكرهم الجميل له انتشارُ
فكيف تقول يا خدن المعالي — لجانبك اهتضام واحتقار
وقد حلَّيْتَ عاطلها وأضحى — إليك بكل مكرمة يشارُ
لأنك فرع أصل يوسفيّ — مناقبه هي العلم المنارُ
قتيل الترك في غمدان صنعا — شهيد في الجنان له جوارُ
عليك تحية وعليه منّا — سلام كلما طلع النهارُ

وقوله: وقد حلّيتَ البيت بعد قوله: فكيف تقول إلخ لم يرتبط اللاحق منهما بالسابق ولعلّ المراد أن جانبها لا يُهتضم ولا يحتقر ولا ينالها جدب بعد نزول الممدوح بها، وحلوله فيها حتى اكتسبت من صفاته الجميلة وكملت بشمائله الجليلة فقد شرفت بشرفه وهو معنى مسلوك مطروق بين الشعراء أهل الأدب وسأذكره هنا بالاستطراد فهو من الأدباء الأفراد أما عموم نسبه فهو ما أسلفته قريباً وما كان أحرى شعره بأن يزدان به الجليس، ويتنافس فيه الأدباء تنافس الأغنياء في الدرّ النفيس ولكن بضاعته في سوق أفهام أهل بلده كاسدة حيث لم يكن الأدب من تجارتهم وكان لما به من المعارف الأدبية لطيف السجية رقيق الحاشية، ودارت بينه وبين جماعة من أدباء عصره من أهل صنعاء الذين هم فرسان حلبة الأدب كعبد الرحمن الأنسي القاضي ومحمد بن الحسن المحتسب الشريف الصنعاني[1] مكاتبات أدبية ولو جمع شعره لحكم له حكماً يشهد بِه الذوق بالتبريز، ولكان منبئاً

(١) ترجم للمحتسب شيخ الإسلام (ج ٢ ــ ١٦٠) ولد تقريباً سنة سبعين ومائة وألف. أخذ العلم عن جماعة من علماء صنعاء وشارك في علم السنة مشاركة قوية وعمل بالأدلة ولم يقلد أحداً وهو بمكان عظيم من حسن الخلق والتودد واطراح الدعاوى التي يتعلق بها كثير من أهل العلم. قال في الهامش: كانت وفاته في يوم الاثنين لست خلت من صفر سنة سبع وخمسين ومائتين وألف ودفن بقرية القابل وعمره ست وثمانين سنة.

على عناه في الأدب ما سبكه من ذلك الإبريز، ولكنه لم يجمعه في حياته ولا عثر عليه بعد موته من ينشط لنظم فرائده ويسرع إلى لف شمل قصائده، ومن جوهره الثمين، وقلائده التي هي عقود لنحور العين قصيدة علويّة ومدحة غرويّة[1] أولها:

لا وثغرٍ تحت خدٍ جلّناري ... وثنايا لؤلؤ ذات افترارِ
ويواقيت الشفاه اللّعْس ... والشنب المطفي لظى حرّ الأوارِ
ورخامة منطق تلهيك عن ... نغمة الشادي وعن سجع القماري
ورضاب رشفه يُغني البابليّ ... الصرف في الكأس المدارِ
لعميد رام منها قبلةً ... بخُدَيدٍ فيه ماء الحسن جاري
وقوام غصن بان فوقه ... بدر تمّ تحت ليل الشّعر ساري
زانه رمّانتا نهدين مذْ ... نجما في صحن صدر من نضارِ
وعيون أبرزت ألحاظها ... سحرها روت بغنج الإحورارِ
وحليّ رددت أقراطها ... فوق غصن القد رنات الهزارِ

ثم تخلص بجواب القسم في مدح الوصي كرّم الله وجهه فقال:

ما رأيت المدح يحلو في سوى ... حيدر رب العلا نجم الفخارِ
صنو طه أسد الهيجا إذا ... أحجم الشجعان في يوم المغارِ
قاتل القاسط والمارق والناكث ... العهد بأسياف الدمارِ
لا فتى إلا عليٌّ في الوغى ... لا ولا سيف يضاهي ذا الفقارِ

هذا لبابها ولها بقية، وبالجملة فهذه القطعة تقصار للعاتق ودرياق للعاشق[2]، ومنشطة للفاسق، وذعاف للمارق.

وطالع محمد بن الحسن المحتسب بقصيدة أولها:

أنسيم الرياض في الأسحار ... أم زهور الرياض غبّ أذارِ

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) كذا في الأصل والمحفوظ «ترياق».

أم حمام تناغمت ذات شجو أم أغاريد صادح وهزارِ
أم أباريق خندريس أُديرت بأكف القيان في الأسمارِ
في مقام تمايلت فيه أعطاف الغواني لرنّة الأوتارِ
أم جفونٍ فواترٍ ذات هدب وعليها تراجم الأسحارِ
أم لآلٍ قد فُصِّدَتْ بجمانٍ تتجلاً بها نحُور الجوارِ
أم قوافٍ كعقد درّ نفيس لبديع الزمان خدن الفخارِ

وإنما طالعه بهذا الشعر لأنه وقف على شعر له استحسنه وكأن المطالع نظم ما نظم على سبيل التقريض:

جاء تقريظه له فأرانا فلك الطرس مزهراً بالدراري
أو كقطر الندى في فلق الصبح على الياسمين والجلّنارِ
أو كرشح الحياء على جمرة التوريد في خدّ كاعب الأبكارِ
فتودّ الحسان لو حلّ منها في محل الشنوف والتقصارِ
في طروس الكافور قد طرّزته سمر أقلامه بمسك داري
فهو للناشقين طيب وللرا ئين روض ملوّن الأزهارِ
وهو ريحانة الجليس ورَوْحُ الروح منه مزاج كأس العقارِ

هكذا فلتكن اللطائف السواحر للألباب، والظرائف التي تعيد للهرم عصر الشباب.

وأجاب عليه السيد المحتسب بنثر ونظم تركت إثباته خشية التطويل، وللسيد محمد المستطرد الذكر طريقة في الملحون تفعل فعل ابنة الزرجون:

فوح الصبا عطر بنشر المسك يا سيدي وفاح
والروض قد أزهر وشحرور الربى غنّى وناح
والغيم قد أمطر شآبيبه على تلك البطاح
فقم بنا نسكر ونطرب ما علينا من جناح
والشادن الأحور كحيل الساجية سيد الملاح
نشوان يتخطر بقامة مخجلة سمر الرماح
لابس لطاس أخضر مزهر مثلما زهر الأقاح

وفيها بقية وكان يهوّل ويفجع في مراثيه مع سهولة وانسجام، وآثر آخر مدته لزوم داره، رغبة في الاعتزال، غير جانح إلى قيل وقال، إلى أن وافاه أجله، وانقطع من الدنيا أمله عام ثلاث وعشرين ومائتين وألف، وكانت ولادته سنة أربع وثمانين ومائة وألف فتكون مدة عمره أربعون سنة.

وأما قوله في جوابه على الحماطي: «لأنك فرع أصل يوسفيّ» البيت وما بعده، ففيه إشارة إلى وقعة القاضي أبي علي يوسف بن علي الحماطي[1] وكان من أنصار الإمام الأعظم المنصور بالله القاسم بن محمد سلام الله عليه وكان قد توجه لحرب ذمار وأميرها حينئذ من لدن سنان[2] التركي رجل يقال له الواعظ فبرز لتلقيه إلى سواد ذمار من الجانب الغربي قبالة قرية يقال لها «يفاع»[3] فصدم كل من فريقهما الآخر وكانت الدائرة على يوسف الحماطي رحمه الله فأسره الواعظ وأمر به إلى حضرة سنان باشا إلى صنعاء فأودعه الدار الحمراء[4] ثم بعد ذلك أمر بسمّه فمات وقبر بالقرب من أكمة الزبيب الصغرى[5] ولم أتحقق عام وفاته فأذكره هنا[6].

نعم وإن بانسحاب قلم الكتاب إلى ذكر مقدمي تلامذة السيد عبد القادر وسابقي فرسان حلبته، ومنهم ابنه الفحل الفحيل[7] والمقدم المجتهد الجليل صارم الدين أبي إسماعيل إبراهيم بن عبد القادر فلنتبرك بذكره، كان قد أخذ عن أبيه في الآلة والحديث بنظر تبحث حتى بهر كماله، وطفح بالفضل مكياله، وسمعت من بعض أهل العصر أنه جرى بينه وبين والده نزاع في مبحث من مباحث أصول الفقه

---

(١) ذكره المؤرخ زبارة في الملحق، ص ٢٤١، وكان عالماً كبيراً والتحق بالإمام المنصور المذكور فكان ما ذكره المؤلف وكان قتله سنة سبع وألف.

(٢) سنان باشا من أحنك ساسات الأتراك لذلك الوقت. انظر: روح الروح والبرق اليماني، وقد روى له الإمام المقبلي حكايات في الفراسة والكياسة والنباهة.

(٣) قرية يفاع من القرى العامرة الواسعة الفناء والمزارع غربي ذمار بنصف ساعة.

(٤) الدار الحمراء كانت بقصر السلاح لها شهرة لذلك التاريخ، وقد بدلت والدهر ذو تبدل.

(٥) انظر الكلام على أكمة الزبيب في المعجم وقرة العيون.

(٦) ذكرناها كما ذكرها زبارة أنه قتل بالسم سنة ١٠٠٧ سبع وألف.

(٧) أي العظيم الفحولة والرجولة وهو ما تقوله العامة فلان فحل الفحول.

وهو يقرأ عليه شرح الغاية فراجع أباه حتى أضجره فقال لحضّر مجلس قراءته لم يؤت إبراهيم إلا من تساهله في النظر قبل الحضور، فقال لأبيه راجع محل النزاع تعرف من المتسامح فراجع والده ما تنازعا فيه فلاح له صواب ما قاله ابنه فرجع عن خطأه وعرف أن نظر ابنه لا يتهم وكانت وفاة السيد إبراهيم سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف، ويُعدّ له من المفاخر خرّيجه السيد العالم الأديب ذو العلم الشهير والأدب النضير إبراهيم بن عبد الله الحوثي[1] وكان لازمه ملازمة جرم الشمس لأوجه، وقرص القمر لبرجه، وحضره في غالب أوقاته، فكانت عليه جميع مقروءاته، وكان عالماً متكلماً شاعراً فصيحاً يغوص في بحر القريض لدرر الأشعار، ويفترع من بنات الأفكار حسان العون والأبكار على غزارة في شؤبوبه واطراد في أنبوبه، رأيت من نظمه قصيدة كلها قصور، لم يشنها القصور، وفي مسلكها وعورة يجتنبها الماهر الخريت في مسالك القريض ضرورة، أجاب بها على السيد الذّكي عبد الوهاب بن حسين الديلمي الذماري وكان طالعه بنثر ونظم وأجاب عليه كذلك وسأذكر هنا أصل الشعر والجواب وأول قصيدة السيد عبد الوهاب:

لقد عقدوا في وصل مضْناهم شرطا	فجاز طريق الامتثال فما أخطا
وحسَّن في قرب التواصل ظنّه	وكان على شمس الصبابة قد غطى
وإيجاب عذلي عن موجه حُسْنكم	لحملي شروطاً ما استطعت لها حطّا
سأضرب آفاق البلاد تشوّقاً	إلى ربعكم ما دام وجه الثرى يوطا
فحمرة ضربي في بياض قوائمي	سينتج عنه الاجتماع وإن أبطا
وموضوع رسمي شاهد بصبابتي	وغاية سؤلي في المنادى لقد خطّا
فيا خطة ما زال قلبي يريدها	إرادة من يبغي مع قبضه بسْطا
إرادة من قد غاب عن كل صورة	وحصّل من بحر التجلّي له قسطا
فحتى متى أرضى بنيل إرادتي	فأحمد من أولى وأشكر من أعطى

(١) إبراهيم بن عبد الله الحوثي صاحب نفحات العنبر التي لم تطبع وكثيراً ما ينقل عنها المؤرخ زبارة، وترجم له الإمام الشوكاني في البدر الطالع (ج ١ ــ ١٩) وقال: ولادته سنة سبع وثمانين ومائة وألف ووفاته سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف.

وتنبت أعشاب الوصال بغيثكم على أرض قلبي حين أذهبتم القحطا
فحسن مزاجي في مدام وصالكم وبُعْدُكم قد أفسد الطبع والخلْطا

قلت: هذا البيت نتن النسيم، غير متين التقسيم، وآفنه الأفين ذكر الخلط الدفين، ولعمري، ما هذه إلا وخامة لا فخامة، وأما توجهه بالقضايا والرسوم، والإنتاج المعلوم، وما يؤدي إلى المجهول من مقدمات المعقول فقد ارتقى بذلك إلى أعلى مرتبة من الحسن، وأرفع منزلة من الإحسان ثم قال:

إلى صارم الدين الإمام إشارتي إليه انتهى حسن التخلص وانحطّا
لقد سار في أوج الكمالات بدره إلى الذروة العليا وقد جاوز الوسطا
رقمت مديحاً في سمو كماله فقصرت في مدحي ولم أستطع ضبطا
ونظّمت دراً فاخراً في مديحه فلم يحوه سمط لقد حقّر السمطا
فقل للأخ السامي الذي أحرز العلا وعاجل في جمع الفخار فما أبطا
سلام يفوق المسك ريحاً ونفحةً ويكسو النوى من قربه واللقا مرطا

في أواخرها فترة ويتلوها الجواب:

يراع الهوى في القلب للحب قد خطّا وأحكمه شكلاً وأوضحه نقطا
وحرر في مرسومه العهد إنني أدوم على حكم التصابي وإن شطّا
ولازم بين الجفن والسهد في الدجى ولم يلتزم لي للكرى في النوى شرطا
لحى الله قلباً تاه في لجّة الصبا وقد كان من بحر الغرام على الشطا
فسمى الذي قد أخلص النصح عاذلاً وظن الذي أبدى الصواب له أخطا
وعهدي به لا يجهل القول إنما لعل الهوى العذري على سمعه غطا
بروحي من الغادين من لم أبح به على أنه وسط الجوانح قد حطا
مليك حلاه قيصر الحسن تاجه على تخته لأكف مارية القرطا
وقلده في دولة الحسن أنه على عاشقيه لا يقيم بها قسطا
وبوّأه في مقعد التاج مقعداً وأولاه في أرواحنا الأخذ والإعطا
إذا سعدت عيناك منه بنظرة فدونك في أزراره البدر يتخطا

نـرى دون لـقـيـاه أسـوداً وذبّـلاً | وجـرداً عتـاقـاً لا العـرار ولا الخمـطا
وفـوق الأمـاني أن أرى الـطرس خـطه | يـراع وجيـه الـدين أبلـغ من خـطا
وأن نجتلي من جـوهـر الـنظم أسـطراً | وقـد صيـرت تلك الـرقـاع لهـا سمـطا
بليـغ يسـوق القـول إن شـاء نـاظمـاً | كسـوق مليـك مـن بـطانتـه رهـطا
أجـلّ بهـا ليـل الـزمـان بـأسـرهم | وأشـرفهم أصـلاً وأكـرمـهم سـبـطا
سمـا في سمـاءالعلم والفضـل رتبـة | بهـا صـار عن إدراكـه البـدر منحـطا
أمـولاي هـذا السحـر أحكمت عقـده | بعقـدك أم بـالسحـر جـوّدتـه خلطا
وإلا فـمـا بـال اختـلاب عـقـولنـا | ومـا بـال قلب فـارغ لم يجـد ربـطا
ومـا كنت أدري قبـل نـظمـك أن من | طروس كؤوساً أو من النظم إسفنطا[1]
وجيـه الهـدى أوريت بـالنـظم كـامنـاً | من الوجد في قلبـي قـدحت به سقـطا
وقـد كنت خلواً عن جـوى وصبـابـة | فـلا أبتغي وصـلاً ولا أشتكي سخـطا
فـعـاد بـه مخـضـرّ عيش فـقـدتـه | زمـان على شيبـي على لمتـي وَخْـطا
ودم سـاحبـاً ذيـل الفخـار متـوّجـاً | بكـل كمـال لابسـاً للعـلا مـرطـا

الجـواب خير من الابتـداء وقد أراد مـوازنـة قصيـدة أبـي القـاسم الأسعـد بن بلّيـطة: بكسـر الموحـدة واللاّم المشـدّدة وسكـون المثنـاة من تحت وفتـح الـطاء المهملة، وهـو من فحـول شعـراء الأنـدلس، وكـان مـدح بهـا المعتصم محمـد بن معن بن صمادح صاحب المريّة وبجاية والصمادحية[2] وهي:

(١) الإسفنط: بكسر الهمزة وفتح الفاء: المطيب من عصير العنب أو نوع من الأشربة.

(٢) أبو القاسم الأسعـد بن بليطة. لم يتـرجم له ابن خلكـان غير مـا ذكره بهـذه الكلمات، وأمـا المعتصم فهـو محمد بن معن بن محمـد بن أحمـد بن صمـادح التجيبـي، صـاحب المـريـة وبجـاية والصمـادحية من بـلاد الأندلس، فـإنه أطـال شرح تسنمـه للملك بـالحيلة والختـر، فما من أحد من ملوك الأندلس إلا ذمّه على هذه الفعلة وذلك من جده: محمد بن أحمـد بن صمادح فأما المعتصم فإنه لما مـات والده تسمى بـأسماء الخلفـاء وكان رحب الفنـاء جزيـل العطاء حليماً عن الدماء طـافت به الآمـال، واتسـع في مدحـه المقال وأعملت إلى حضـرته الحـال، وله أشعـار حسنة ومـات سنـة أربـع وثمـانين وأربعمـايـة، وصُمـادح: بضـم الصـاد

بـرامـة ريـم زارني بـعـدمـا شـطّا		تقنّصتـه بـالحلم في الشط فـاشتـطا
رعى من أنـاس في الحشا ثمـر الهوى		جنيّـاً ولم يـرع العـرار ولا الخمـطا

ومـنـها[1]:

وقـد ذاب كحل الليـل في دمـع فجـره		إلى أن تبدّى الصبـح في اللمّة الشمطا
كـأن الـدجى جيش من الـزنـج نـافـرٌ		وقـد أرسـل الإصباح في إثـره القبـطا

ومنها في وصف الديك:

كـأنّ أنـو شـروان أعـلاه تـاجـه		ونـاطت عليه كف مـاريـة القـرطـا
سبـى حلّة الـطاووس حسن لبـاسـه		ولم تكفـه حتى سبـى مشيـة البـطا

ومـنـهـا:

تـوهم عـطف الصـدع نـونـاً بخـدهـا		فبـاتت بمسـك الخـال تنقـطه نقـطا
غـلامية جـاءت وقـد جعـل الـدجى		بـخـاتم فـيهـا فص عـاليـة خـطا
غـدت تنقـع المسواك في بـرد ثغـرهـا		وقـد ضمّخت مسكاً غـدائرهـا المشطا
فقلت أحـاجيهـا بمـا في جفـونهـا		وما في الشفاه اللعس من حسنها المعطا
محبـرة الألـحـاظ من غـيـر سكـرة		متى شـربت ألحـاظ عينيـك إسفنطا
أرى صفـرة المسـواك في حمـرة اللّمـا		وشـاربك المخضـر بالمسـك قد خـطا

وعلى ذكر الشارب فما أحسن قول بعضهم من أبيات:

وبـي ظـبـي أُنسٍ كمّـل الله حـسنـه		وقـال لأفـواه الـخـلائـق عـوّدي
جلى ثغـر يـاقـوت اللّمـا ثغـر جـوهـر		وطـيـب وأبـدى شـاربـاً مـن زمـردِ

= المهملة وفتح الميم وبعد الألف دال مكسورة ثم حاء مهملة وهو الشديد، والتجيبي: بضم التاء المثناة من فوق وفتح الجيم ثم ياء مثناة من تحت ثم باء موحدة ثم ياء النسب نسبة إلى تجيب بطن من كندة المشهورة، وبجاية: بفتح الباء والجيم وبعد ألف ياء ثم هاء مدينة بالأندلس وكذلك المرية والصمادحية نسبة إلى صمادح. ابن خلكان (ج ٤ ــ ١٣١).

(١) هذه الزيادة من ابن خلكان.

ولآخر وليس بينهما اشتراك في التحصيل ولكن جاء في الشارب بتورية حسنة فقال:

لقد كنت لي وحدي ووجهك حضرتي	وكنا وكانت للزمان مذاهبُ
فعارضني في ورد خدك عارض	وزاحمني في ورد ثغرك شاربُ

إلى أن قال ابن بليطة مكملاً للمعنى في الشارب فأحسن ما شاء:

عسى قزحٌ قبلته فأخاله	على الشفة اللمياء قد جاء يختطا

ومنها في المديح:

كأنّ أبا يحيى بن معن أجادها	فعلّمها من كفه الوكف والبسطا
تألف من در وشذر نجاره	فجاءت به العليا على جيدها سمطا
إذا سار سار المجد تحت لوائه	فليس يخط المجد إلا إذا خطا
رفيع عماد النار في الليل للسُّرى	فما يخبط العشواء طارقه خبطا

ولله در مهيار[1] حيث قال يمدح قوماً بالقِرى:

ضربوا بمدرجة الطريق قبابهم	يتقاربان على قرى الضيفانِ
ويكاد موقدهم يجود بنفسه	حب القرى حطباً على النيرانِ

ومنها:

---

(١) مهيار هو ابن مرزويه الكاتب الفارسي الديلمي: كان مجوسياً فأسلم وكان شاعراً جزل القول مقدماً على أهل وقته وله ديوان شعر كبير يدخل في أربع مجلدات، وقد طبع رأيته في مجلدة وأورد له ابن خلكان مقاطيع كثيرة (ج ٤ ـ ١٤١) وتوفي في سنة ثمان وعشرين وأربعمائة وله في القناعة:

يلحي على البخل الشحيح بماله	أفلا تكون بماء وجهك أبخلا
أكرم يديك عن السؤال فإنما	قدر الحياة أقل من أن تسألا
ولقد أضمّ إليّ فضل قناعتي	وأبيت مشتملاً بها متزملا
وأرِي العدو على الخصاصة شارة	تصف الغنى فيخالني متمولا
وإذا امرؤ أفنى الليالي حسرة	وأمانياً أفنيتهن توكلا

أقــول لــركب يممــوا مسقط النــدى وقـد جاوز الـركبان من دونـك السقـطا
أفي المجـد تبغـوا لابن معن منــاقضـاً ومن يقد المصباح في الشمس قد أخطا

هـذا هو المـوجود منهـا في وفيات الأعيـان ورحم اللهُ مُنشؤها فلقـد أجاد في مبادئها ومديحها فأبرزها رواء للأبصار، وغذاء للأفكار، ولو علمها هذا الأديبان حق العلم(١) لاستنفخا الصور قبل يوم النشور وعادا لهدم ما أشادا، ولا مريَّـة أن ما جـاءا به حسن، ولكنه مرعى ولا كالسعدان(٢).

وَمَنْ يـقــل لـلمـسـك أيـن الـشـذا يـفضحــه العَــرْفُ الــذي شـمَّــا(٣)

رَجْــع..

وكانت وفاة السيد إبراهيم الحوثي سنة ١٢٢٣هـ ورثـاه تلميذه العـلامة الأديب محمـد بن إسماعيـل بن الحسن الشامي الشـريف الصنعاني(٤) بشعـر قلَّ أن يحسن مثله المتأخرون فقال:

سقى مــوضعـاً ضمَّ الخليــل المودّعـا ومن شط بعــد اليــوم ملقى ومجمعــا
وحيَّـاه من سحب الرضى كـل هـاطـل يـمــدّ عـليــه بــرد عـفــو مــوشـعــا
ألا فـي سـبيــل الله نـفس تـقــدمـت وشخص إلى أعــلا المقـام تسـرّعــا
مضى صاحبي واستقبل الموت مصرعي ولا بدّ أن ألقى حمـامــاً ومصــرعــا
ولـكنـنـي فـارقـت مـنــه فـضــائــلاً لجيـد زمـانٍ كُــنَّ حليــاً مــرصّعــا
خليليّ عــوجــا فــاسعــداني بـعبــرة على حفـرة قد ضمت الفضـل أجمعا
ولا تـســألا عن قـبــره إن جـهـلـتـمــا سيهــديكمــا طيب عـليــه تضــوّعــا
وأنّــى بــه لا تــعـلـمــوه وإنــه زرى كــل قـلـب مــا دهــاه وأوجـعــا

---

(١) في الأصـل «حق» بدون «العلم». والـزيادة منـا، ومن البعيد أن يجهـل الأديبان المـذكـوران القصيدة فقد كان كتاب ابن خلكان من أكثر الكتب تداولاً بين الأدباء وانتشاراً.

(٢) هذا مثل مضـروب وأصله: ماء ولا كصـدا ومرعى ولا كـالسعدان، والسعـدان هو المعـروف عندنا (بالقطبة) يضرب في الشيء يفضل على أشكاله وأقرانه.

(٣) لا أعرف قائله.

(٤) تقدم ذكره ومات شاباً سنة أربـع وعشرين ومائتين وألف.

فــرزء ابــن عـبــد الله لا رزء واحــد ... ولـكـنــه بـنـيــان قــوم تــصــدّعــا
وقــولا فقــدنــا أرفــع الـنــاس رتـبــة ... وأهــداهم في منهــج الخيــر مـهيعــا
فتًى كــان إن ســاق الحــديث فـإنّمــا ... يـغــذي روحــاً أو يشـنف مـسـمـعــا
فتًى كــان إمّا قــام في حـلّ مشكــل ... روى مــا أزاح الـلبس عنــه وأقـنـعــا
فــلا أرضـعـت أم الـمـفــاخــر بـعــده ... وليــداً ولا سحب الفضــائــل مـربعــا
ويــا ويح عين لم تفض فيــه أبحــراً ... ونـفس عليــه حـســرة لـن تـقــطعــا
ويــا دهر خـذ مـا شئت من بعـد فقـده ... فمصــرعــه لم يبق للحــزن مـوضعــا
لئـن حــلّ قبــراً فـي فــلاة فــإنـمــا ... يجــاور هــام الـنجم شــأواً وأرفـعــا
وإن عــاد عنــه حــاملوه فـحــولــه ... مــلائــك عـفــو حــامــلاً ومُشـيِّعــا
أيــا جبــل العلم الــذي ســار ذكــره ... مسيــر ضيــاء الشمس غـربـاً ومــطلعـا
فـقــدنــا علومــاً إذ فقــدنــاك جمّــةً ... وخلقــاً هو الـروض الذي طــاب مرتعا
سقى حفــرة ضمّتــك ذاتــاً وأفــرغت ... عليــه الغــزالي مــربعــاً ثم مــربعــا

أحسن الرثاء وإن كان أكثر المعـاني مأخـوذة فقد دل شعـره على أنه ذو رويـة مطبوعة، وقريحة مساعـدة وكأنمـا نعى نفسه في البيت الـرابـع فلقد مـات على أثر المرثي بأربعة أشهر، واختطفته المنيَّـة في عنفوان سنـه، وطراوة غصنـه رحمهما الله جميعاً[1].

وحـذى في شعـره هـذا حـذو حسين بن مــطير حيث قــال: يـرثي معن بن زائدة[2]:

أَلِمّــا عـلى مــعـنٍ وقــولا لــقـبــره ... سقتــك الغــوادي مــربعــاً ثم مــربعا
فيــا قبــر معن كـيف واريـت جـوده ... وقـد كـان منــه البر والبحــر مترعــا

(١) وذلك سنة أربع وعشرين ومائتين وألف ومولده سنة أربع وتسعين ومائة وألف فعمره ثلاثون سنة.

(٢) حسين بن مطير هو الأسدي من الشعراء المخضرمين أدرك بني أمية وبني العباس وهو من شعراء الحماسة، أورد هذه المقطوعة فيه ووفد على معن بن زائدة الشيباني لما ولي اليمن، مات سنة تسع وستين ومائة. الأعلام «ج ٢» وديوان الحماسة.

ويـا قبـر معـن كنـت أول حفـرة ... من الأرض خـطت للمكـارم مضجعـا
بلى قـد وسعت الجود والجـود ميت ... ولـو كـان حيّـاً ضقت حتى تصـدعـا
فتى عيش في معـروفه بعـد مـوتـه ... كمـا كـان بعـد السيـل مجـراه مـرتعـا
ولمـا مضى معن مضـى الجـود كـله ... وأصبح عـرنين المكـارم أجـدعـا

قال بعض المتأخرين: حسن الرثاء يدل على صدق الوفاء.

وإذ قد عرض هنا ذكر الرثاء والتأبين[1] وندب الصاحب والحبيب فما أعجب ما رثى به مطيع بن أياس الليثي يحيى بن زياد الحارثي[2] وكان صديقه فقال:

يـا أهـل بكـوا لقـلبي القـرح ... ولـلدّمـوع الـهـوامـل الـسُّـفُـحِ
راحـوا بيحـيى إلـى مـغـيّـبـه ... في القبـر بين التـراب والصـفـحِ
راحـوا بيحـيى ولـو تـطاوعـنـي الأقـدار لـم يـبـتـكـي ولـم يـرحِ
يـا خـيـر من يـحسـن الـبـكـاء لـه الـيـوم ومـن كـان أمس لـلمـدحِ

وجرت بينهما نبوة في حياتهما فقال مطيع:

كـنـت ويحيى كـيـدي واحـد ... نـرمي جـمـيـعـاً ونـرامـى معـا
إن سـرّه الـدهـر فـقـد سـرّنـي ... أو حـادثٌ نـاب فـقـد أفـضـعـا
أو نـام نـامـت أعـيـن أربـع ... مـنّـا وإن هـبَّ فـلن أهـجـعـا
حتى إذا مـا الـشيب في عـارضـي ... لاح وفـي مـفـرقـه أسـرعـا
سـعـى وشـاة طـبّـنٌ بـيـنـنـا ... فكـاد حبـل الـوصـل أن يـقـطعـا
فـلم أَلُـمْ يـحـيـى عـلى حـادث ... ولـم أقـل خـان وَلَا ضـيّـعـا

(١) كان في الأصل التأنيب وأصلحناه «التأبين» فالتأنيب هو التوبيخ ولا معنى لذلك والتأبين هو تعداد محاسن الميت.

(٢) مطيع بن إياس الليثي ويحيى بن زياد الحارثي: هما فرسا رهان ورضيعا لبان في الظرف والأدب والفكاهة والخلاعة وهما أيضاً من شعراء الحماسة فهذه المقطوعة في ديوان الحماسة ويحيى بن زياد الحارثي من بني الحارث المذحجيين سادات نجران وأحد أخوال الخليفة السفاح وقد اتهما بالزندقة أيام المهدي العباسي، وما في الديوان وهنا بعض اختلاف وهما من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وذكرهما المبرّد في كامله.

وجرى في هذا المضمار حسن بن محمد البوريني وقد نافره محبوبه وهو من شعراء الريحانة(١) فسبق على تأخره فقال:

وكنّا كغصني بانة قد تألّفا ... على دوحة حتى استطالا وأينعا
يغنّيهما صدح الحمام مرجِّعاً ... ويسقيهما كأس السحائب مترعا
سليمين من خطب الزمان إذا سطا ... خليلين من قول الحسود إذا سعى
ففارقني من غير ذنب جنيته ... وأبقى بقلبي حرقة وتقطعا
عفى الله عنه ما جناه فإنني ... حفظت له العهد القديم وضيّعا

نظرت في هذه الطريقة التي سلكها كل من مطيع والبوريني للتوجع من نبوة الصديق الصادق المودّة فكان ما جاء به البوريني(٢) أنكأ للمقروح، وأحرّ للمقدوح، وأحسب أن وجه ذلك كون جهة مطيع جهة صحبة وجهة البوريني جهة غرام ومحبة، وكل شعر البوريني يجد له السامع ارتياحاً في نفسه وسُوْرة مطربة لا يجدها في شعر غيره ومنه قوله:

أما ينقضي هذا الغرام من القلب ... أما ينطوي هذا الملام عن الصبِّ
ألا حاكم بيني وبين عواذلي ... فيسألهم ماذا يريدون من عتبي
ألا راحم في الحب أشكو ظلامتي ... إليه فقد زادت يد البين في حربي
ألا ساعة أخلو به فأبثه ... لواعج نيران أقامت على قلبي
أما في الورى من فيه رقة رحمة ... فيبدي له حالي ويوصله كتبي
لقد ضاقت الدنيا عليّ لبعده ... على رحبها من غاية الشرق والغربِ
إذا لاح تبدو وقفة في تلفظي ... وأغدو لما ألقاه أحير من ضبِّ

---

(١) كتاب ريحانة الألباء وزهرة الحياة الدنيا للأديب الكامل والأريب الفاضل شهاب الدين محمود الخفاجي من أعيان القرن الحادي عشر الهجري، وقد طبعت الريحانة وهو يتناول أدباء عصره بدون ذكر المولد والوفاة وترجم لبعض أدباء اليمن لذلك التاريخ كعبد الهادي السودي وحسين بن مطير وعبد الله بن شرف الدين والكتاب مرجع، وترجمة حسن بن محمد البورويني في ص ٢١ من الطبعة الأولى.

(٢) في الأصل البويريني وفي الريحانة اليوريني.

فمـا فيَّ إفصـاح ولا فيـه رحمـة فيسأل عن حالي ويفرج عن كربي
ولا أنـا ذو فكـر صحيـح يـدلني على سبب التـأييس أو سبب القـربِ
وإني إلى مـولاي أنهيت حـالتي فغايـة شكوى العاجزين إلى الربِّ

خطر لي بذكر ما مضى إثباته من حسن الرثاء وحُلُو التأبين قصيدة الشاعر المفلق ابن منـاذر[1] يرثي عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي وكان بـه صَبّاً واعتبط وهو في عشرين سنة وهو كالبدر في الكمال، أحسن ما ارتدى رداء رونق وجمال، وأبوه عبد الوهاب من محدثي البصرة وهي:

كل حيّ لاقى الحمام فمودي ما لحيّ مؤمّل من خلودِ
لا تهاب المنون شيئاً ولا ترجى على والد ولا مولودِ
يقدح الدهر في شماريخ رضوى ويحط الصخور من هيودِ
ولقد تترك الحوادث والأيام رهناً في الصخرة الصَّيهودِ
أين رب الحصن الحصين بسورا ورب القصر المنيف المشيدِ
شاد أركانه وبوّبه بابَيْ حديد وحفّه بجنودِ
كان يجبى إليه ما بين صنعاء فمصر إلى قرى بيرودِ
وترى خلفه زرافات خيل حافلات تعدو كمثل الأسودِ
فرمى شخصه فأقصده الدهر بسهم من المنايا سديدِ

---

(١) ابن مناذر اسمه محمد بن مناذر العدني اليمني. انتقل من عدن إلى البصرة لارتشاف المعارف فنمت مداركه وتفجرت ينابيع شعره فذكره الهمداني في صفة جزيرة العرب في الكلام على ثغر عدن وذكره المبرد في كامله وترجمه في الأغاني. وفي طبقات ابن المعتز وفي غيره وكلهم يشيد بشاعريته وإيراد هذه القصيدة ومقاطع لمحمد بن مناذر. قال ابن المعتز، ص ١١٩: كان ابن مناذر العدني وقع إلى البصرة لكثرة الأدباء بها فما زال يلزم أهل الفقه وأصحاب الحديث والأدب حتى بلغ أقصى مبلغ وكان على ستر وصلاح وحلم ووقار إلى أن اشتهر بعبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي ثم خرج إلى مكة وأقام بها فلم يزل بها مجاوراً وكان يحدث ويجالس سفيان بن عيينة وكان سفيان بن عيينة يسأله عن غريب الحديث ومعانيه فيجيبه على ذلك وله مدائح في هارون الرشيد والبرامكة ولم يذكر وفاته. وأورد هذه القصيدة المبرد في كامله.

ثم لم ينجه من الموت حِصْن دونه خندق وبابا حديدِ
وملوك من قبله عمروا الأرض أعينوا بالنصر والتأبيدِ
فلو انّ الأيام أخْلَدْنَ حيّاً لعلاء أخلدن عبد المجيدِ
ما درى نعشه ولا حاملوه ما على النعش من عفاف وجودِ
ويح أيدٍ حشت عليه وأيد دفنته ما غيّبت في الصعيدِ
دفنت في الصعيد حزماً وجوداً ولرزء الخصم الألدّ العنودِ
إن عبد المجيد يوم تولّى هدّ ركناً ما كان بالمهدودِ
هدّ ركني عبد المجيد وقد كنت بركنٍ أنوء منه شديدِ
فبعبد المجيد تامور نفسي عثرت بي بعد انتعاش جدودي
وبعبد المجيد شلّت يد اليمنى وشلّت به يمين الجُودِ
فبرغمي كنت المقدم قبلي وبكرهي دلّيت في ملحودي
كنت لي عصمة وكنت سماء بك تحيا أرضي ويخضرّ عودي
حين تمّت آدابه وتردّى برداء من الشباب جديدِ
وسقاه ماء الشباب فاهتز اهتزاز الغصن الندي الأملودِ
وسمت نحوه العيون فما كان عليه لزائد من مزيدِ
وكأني أدعوه وهو قريب حين أدعوه من مكان بعيدِ
فلئن صار لا يجيب لَقد كان سميعاً هشاً إذا هو نودي
يا فتًى كان للمقامات زيناً لا أراه في المحفل المشهودِ
لهف نفسي ما أراك وما عندك لي إن دعوت من مردودِ
كان عبد المجيد سم الأعادي ملء عين الصديق رغم الحسودِ
عاد عبد المجيد رزءاً وقد كان رجاء لريب دهر كنودِ
خنتك الودّ لم أمت كمداً بعدك إني عليك حقّ جليدِ
لو فدى الحيّ مَيْتاً لفدت نفسك نفسي بطارفي وتليدي
ولئن كنت لم أمت من جوى الحزن عليه لأبلغن مجهودي
لأقيمن مأتماً كنجوم الليل زهراً يلطمن حرّ الخدودِ

موجعات يكين للكبد الحرّى عليه وللفؤاد العميدِ
ولعين تسحّ بالدمع قد قال لها الدهر لا تقري وجودي
كلما غرَّك البكاء فأنفدت لعبد المجيد سجلاً فعودي
لفتى يحسن البكاء عليه وفتى كان لامتداح القصيدِ

قد دلّ هذا الرثاء على صدق محبة المرثي للمُرثى وذلك أنه اعتور قلبه له محبتان محبة الصبوة ومحبة الصداقة ولو رثى قريباً لَهُ لما تيسرت له هذه المعاني، وربما كان أخو المودّة أحبَّ إلى المرء من أخ القرابة.

قيل لرجل أيّما أحب إليك أخوك أم صديقك قال: إنما أحب أخي إذا كان صديقي.

ونقل الصفدي عن بعضهم أنه قال: الصاحب أمر مطلوب عند العقلاء لأنه لا بد لك من خِلٍ تسكن فتشكو إليه حزنك، وتنتصر به على من ظلمك وتتخذه عوناً في أمورك وعلى مآربك وتتوصل به إلى ما يشق عليك بلوغه بمفردك وكان الحكيم الكندي(1) يقول: الصديق إنسان هو أنت إلا أنه غيرك، وكان يقول: الإخوان على ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه أبداً، وطبقة كالدواء تحتاج إليه حيناً بعد حين، وطبقة كالداء لا تحتاج إليه أبداً، وأقل الأصدقاء حالة مَنْ إذا شكوت إليه سمع الشكوى وأصغى لها لأن في سماع الشكوى وبثّها تخفيفاً عن المكروب.

وقال بعض الحكماء: ينبغي للعاقل أن يتخذ صديقاً ينبهه على عثراته وعيوبه

---

(1) الكندي: اسمه أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، فيلسوف العرب وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة وفاضل دهره مثل المنطق والفلسفة والهندسة والحساب والموسيقى والنجوم وغير ذلك. جالس المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل وكلهم يجلّه ويحترمه وله مؤلفات في هذه الفنون تفوق مائة كتاب ضاع أكثرها، وقد عددها ابن النديم في فهرسته أي فهرست ابن النديم، ص ٣٧١.

فإن الإنسان لا يرى عيب نفسه، وقال علقمة بن لبيد[1] لابنه: يا بني إذا نَزَعَتْ بك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب مَنْ إذا صحبته زانك، وإن نزلت بك حاجة أعانك وإن أصابتك خصاصة صانك، وإن صلْت شدّد صولتك، وإن مددت يدك لفضل مدّها وإن بدت منك ثلمة سدَّها، وإن رأى منك حسنة عدّها، وإن سألته أعطاك، وإن سكتَّ ابتدأك، وإن نزلت بك إحدى الملمات واساك، من لا ينكر منه البوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عند الحقائق.

وأذكرني قوله: إذا صحبته زانك بقول العرب في أمثالهم: «إحذر الصبيان لا تصبك بأعقابها» ويقال ذلك في التحذير من صحبة مَنْ يعيبك من الوضعاء والأدنياء لأن صحبة الدنيء تضع الشريف وتقصّر الهمّة، وتخمل الذكر وتفسد الجاه، ومثل الشريف يخالط الدنيء مثل المسك يخالطه الرماد فيأتي على جميع محاسنه، «والأعقى جمع عقي» وهو الذي يخرج من الصبي ساعة يولد، وفي معنى هذا المثل قولهم: صديق السوء كالقين يعني الحدّاد إذا لم يحرقك بناره فإنه يؤذيك بدخانه، وقريب منه قول بعضهم لرجل: لا تشرب النبيذ مع مَنْ تفتضح به واشربه مع من يفتضح بك.

نعم هذا ما يرى في اختيار الصاحب وذهب بعضهم إلى العكس فقال:

فظُنَّ بسائر الإخوان شرّاً ... ولا تأمن على سرّ فؤادا
فلو خَبَرْتَهُمُ الجوزاء خبْري ... لما طلعت مخافة أن تصادا

وقال آخر:

جزى الله عنا كلَّ مَنْ ليس بيننا ... ولا بينه ودٌّ ولا متعرّفُ
فما نالني سوء ولا مسَّني أذى ... من الناس إلا من فتى كنت آلفُ

وقال الوصيّ أنار الله برهانه الوضيّ: موضحاً لأمر الناس وكاشفاً عنهم قناع الالتباس:

---

(١) علقمة بن لبيد: لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدي من المراجع.
(٢) كذا في الأصل ولعل ثمّ سقطاً فلم يتقدم له ذكر.

أسأت إذا أحسنت ظني بكم فالحزم سوء الظنّ بالناسِ
مَنْ أحسن الظن بأعدائه تجرع الهمَّ بأنفاسِ

والبيت الأخير نسبه خضر بن عطاء الله في إسعافه إلى العباس بن الأحنف[1] وقبله:

ظلوم يا مهجة عباس الويل لي من قلبك القاسي

وبعده:

يقلقني الشوق فآتيكم والقلب مملوء من اليأسِ
أعطيت قلبي سؤله فيكم وقد أتى ذاك على رأسي

فلعل العباس مستعيناً بالبيت هذا وما ذكرته سابقاً هو ما قيل في الصاحب المحمود. وأما ضده فما أرادوه في الأمثال بقولهم بين المطيع وبين المدبر العاصي قال العسكري[2]: يضرب للرجل يكون بين الطاعة والخلاف فلا يوثق منه بأحدهما، وليس في الإخوان شر ممن هذه الحالة حاله لا تعرف على أي أمر تعتمد فإذا وثقت منه بأمر نقضه بغيره. قال المثقب[3]:

---

(١) خضر بن عطاء الله، هو الموصلي هاجر إلى مكة فاتصل بأميرها حسن بن أبي نمي وألف له كتاباً فأجازه بألف دينار ثم وُشي به فنفاه إلى المدينة المنورة فمات في طريقه إليها سنة ١٠٠٧هـ (الأعلام: ج ٢)، البدر الطالع (ج ١ ـ ٢٤٢) نقلاً عن الريحانة، والعباس بن الأحنف هو الحنفي اليمامي من بني حنيفة ومن اليمامة: كان شاعراً طريفاً ومفوّهاً منطيقاً رقيق الغزل يشبه بعمر بن أبي ربيعة، له محاسن أخلاق وكرم وفضل من نفسه ولم يكن يمدح ولا يهجو وإنما كان شعره في الغزل وله حكايات مع الخليفة هارون الرشيد وكانت وفاته سنة ١٩٣هـ. ابن المعتز، ص ٢٥٤، معاهد التنصيص، ص ٣٧. والعباس هذا من شعراء الحماسة كما شرحه وله ديوان مطبوع.

(٣) العسكري اثنان فيما أعلم أحدهما أبو هلال العسكري الآتي ذكره والثاني أو الآخر أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري. ترجمه ابن خلكان (ج ٣ ـ ٣٦٤) وكانت ولادته ثلاث وسبعين ومائتين ووفاته سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

(٣) المثقب هو العبدي واسمه محصن بن ثعلبة، وإنما سمي المثقب لقوله:

رددن تحية وكننّ أخرى وثقّبن الوصاوص للعيون

وهذان البيتان من مقطوعة له أوردها ابن قتيبة في طبقاته (ج ١ ـ ٣٩٥).

فإما أن تكون أخي بحق ... فأعرف منك غثي من سميني
وإلا فاطّرحني واتخذني ... عدواً أتقيك وتتقيني

وقال رجل من عبد القيس لابنه: يا بنيّ لا تؤاخِ أحداً حتى تعرف موارد أموره ومصادرها فإذا استبطنت منه الخبرة، ورضيت منه العشرة، فاصحبه على إقالة العثرة والمواساة في العُسْرة.

وأما كلام علقمة بن لبيد الذي مضى قريباً فهو في اختيار الصاحب العزيز كقول الفضل بن عبد الرحمن لرقية بنت عتبة بن أبي لهب انظري لي امرأة معروفة النسب، كريمة الحسب، فائقة الجمال، واسعة المال، إن قعدت أشرفت، وإن قامت أضعفت، وإن مشت ترقرقت، تروع من بعيد، وتفتن من قريب، تسرّ من عاشرت، وتكرم من جاورت، ودود ولود لا تعرف إلا أهلها، ولا تسر إلى بعلها، فقالت له رقية بنت عتبة بعد عمر طويل تلقاها في الآخرة.

قلت: قد جرت لي عادة في الغالب من هذا المؤلف أن أذكر الشيء عند مروري على ما يقتضيه ويستدعيه وعلى ذكر النساء وصفاتهن فما ظفر بَعْلٌ بمطلوبه منهن مثل الحارث بن عمرو الكندي[1].

قال أبو هلال إبراهيم بن هلال العسكري[2] في شرح قول العرب: «صرح المخض عن الزبد» هذا المثل يضرب للأمر يظهر مكنونه، والمثل لامرأة من اليمن يقال لها عصام، قالوا: بلغ الحارث بن عمرو الكندي عن بنت عوف الكندي

(١) الحارث الكندي أحد ملوك نجد من قبل حمير وهو جد الشاعر المشهور امرىء القيس الكندي. انظر: اليمن الخضراء.

(٢) لم أجد في ابن خلكان (ج ١ ــ ٣٦٤) اسم أبو هلال إبراهيم بن هلال العسكري غير أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري وكان من الأدباء الأفاضل وله مؤلفات وكانت ولادته سنة ٢٩٣ ووفاته سنة ٣٨٢ وهو الذي سبقت ترجمته آنفاً وهناك أبو هلال العسكري: الحسن بن عبد الله بن سهل وله من المؤلفات «جمهرة الأمثال» مطبوع ووفاته سنة خمس وتسعين وثلاثمائة.

وهو الذي كان يقال له لحسنه لا أحد يشبه عوفاً حنناً فبعث إلى أمها أمامة امرأة يقال لها عصام فدخلت عليها فإذا هي كأنها خاذل من الظباء وحولها بنات كأنهن شوادن الغزلان فقالت لابنتها: إن هذه خالتك أتت لتنظر إلى بعض شأنك فلا تستري عنها بشيء وناطقيها فيما استنطقتك فيه فدخلت عليها ثم خرجت عنها وهي تقول ترك الخداع من كشف القناع فأرسلتها مثلاً فلما جاءت الحارث قال: ما وراءك يا عصام؟ فقالت: أيها الرجل صَرّح المخض عن الزبد فأرسلتها مثلاً، أقول حقاً، وأخبر صدقاً: لقد رأيت وجهاً كالمرآة الصينية يزينه حالك، كأذناب الخيل المظفرة إن أرسلته خلته السلاسل، وإن مشطته دلت عناقيد كرم جلالها وأبل لها حاجبان كأنهما خطّا بقلم قد تقوّسا على عيني الظبية العَبْهَر، نقيتا المتوسم بينهما أنف كحدّ السيف المصقول لم يبخّسه قصر ولم يمعن به طول، تحفّ به وجنتان كالأرجوان في بياض محض كأنه الجمّاز شق فيه فم لذيذ الملثم يفتر عن ثنايا غرة وأسنان مثل الدر فيه لسان ذو فصاحة وبيان يحركه عقل وافر وجواب حاضر يلتقي دونه شفتان جمّاوان كأنهما قادمتان نصب ذلك على عنقٍ أبيض كأنه إبريق فضة وصدر كفانور اللجين قد نتأ فيه ثديان يخرقان عنها ثيابها وتمنعانها من تقلد سخابها وعضدان مدمجتان ممتلئتان مكتنزتان شحماً متصل بهما ذراعان ما فيهما عظم يمسّ ولا عِرْق يحسّ، وكفّان دقيق قصبهما ليّن عصبهما بأسفل من ذلك بطن طوي كطيّ القباطي كسي علنا كالقراطيس المدْرجة محيط بسرّة كمدهن العاج لها ظهر فيه كالجدول ينتهي إلى خصر لولا ربي لانبتر لها كفل يقعدها إذا نهضت وينهضها إذا قعدت كأنه دعص من الرَّمْل لبَّده سقوط الطل أسفل من ذلك فخذان لفّاوان كأنما نصبا على نضد عقيان متصل بهما ساقان بيضاوان خدلّجان قد شيبا بشعر أسود كأنه حلق الزرد يحمل ذلك كله قدمان كحرف اللسان تبارك الله مع لطافتهما كيف يطيقان حمل ما فوقهما فبعث إلى أبيها فخطبها فزوّجه إياها.

وأما السياغي المنتظم في سلك تلامذة العلامة عبد القادر بن أحمد فهو حسين بن أحمد السياغي الحيمي[1] وكان عالماً رضيّاً من أئمة الأصول

(١) سبق له منّا ذكر.

والفروع، وعلماء المنقول والمسموع جيد التأليف حسن النظم أخذ عنه جماعة من أعيان العلماء مثل القاضي يحيى بن علي الشوكاني والسيد العلّامة حسين بن محمد الجرموزي والقاضي العلامة حسين بن محمد العنسي(١)، ومن شعره قوله:

أشاع غرامي في الأنام خشوعي ... على ما رأوا من صبوتي وولوعي
ونفسٌ إذا هبَّ النسيم تنازعت ... زوافرها في القلب أي نزوعِ
وإن ذكرت تلك الديار رأيته ... بأمر مريح قد عراه فضيعِ
بروحي وفيك الروح قد هان أمره ... وكل عظيم في الأنام رفيعِ
فأنت سكنت القلب من بعد أسره ... على ما به من ذلة وخضوعِ
ودوّخت أحشائي بكل مهنّدٍ ... لها في سويدائي عظيم وقوعي
وأعلن قلبي بالبشارة خافقاً ... مجدّاً بها من نهضة ورجوعي
وغلقت أهدابي بفرع حواجبي ... لأرقب ملكاً حزته بربوعي
وقال الكرى للعين هذا فراقنا ... فقالت: ألا ودّعت خير وديع
ولقيتني ذكراك حتى لقد غدا ... شعاري في وقت المنام ضجيعي
ولما تمادى منك هجرك والنوى ... وصرت لما أشكوه غير سميعِ
وأسلمتني للموت فانساب مسرعاً ... يقول ألا هذا أوان شروعي
رفعت إلى الله العظيم شكيّتي ... وقد ذاقت الأقوام طيب هجوعي

وله وفيه جناس تركيْب:

تعرّض لي غزال فيه وشم ... ونحن بسفح وادي الرقمتينِ
فقلت وضرّتاه لديه ماذا ... فقال هو الوشام برقم تينِ

---

(١) يأتي لهؤلاء ذكر غير الجرموزي فإن زبارة ترجمه في نيل الوطر (ج ١ ــ ٣٩٦) وقال: مولده سنة تسعين ومائة وألف نشأ بصنعاء فقرأ في النحو والصرف والبيان والمنطق وشارك في الحديث وبينه وبين الأديب محسن بن عبد الكريم بن إسحاق مراسلات شعرية تدل على قدرته على ذلك وأورد له قصيدتين ثم اعترت المذكور وساوس فألقى نفسه في بئر بيته فمات بها سنة سبع عشرة ومائتين وألف عن نحو سبع وعشرين سنة.

وكانت وفاته سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف رحمه الله.

وأما الجمال الجلال فسيأتي ذكره في ترجمة ابنه عبد الله والفخر الأمير سيأتي إنشاء الله في معاطف القسم الثالث، وإذ قد انجرّ بنا قلم المداد وانتهى بنا قدم السلوك في الاستطراد إلى هضابٍ ووهاد، وشعاب وشعاف، وأغوار من الكلام وأنجاد، فلنمسك العنان لئلا يتلاشى المقصود من وضع هذا المحصل وإن كنت قد أسْلفت في أوائله المعذرة.

ولنرجع إلى تتميم ترجمة السيد عبد القادر وإيرادمُلحٍ من شعره فمنه ما أجاب به على بعض أهل عصره وكان قد عزّاه في والده بشعر أرسله إليه فقال مجيباً عليه:

صبر[1] يرد من النوائب عسكرا ... ننفي به صرف الزمان إذا عرا
فضْل الفتى إن كان ثابت جأشه ... عند الشدائد والسرور موفَّرا
راضٍ بما فعل الإله فحالة[2] الضرّاء والسراء لديه بلا مرا
ومحبَّر وافى إليّ كأنه ... وشي الرياض يفوح مسكاً إذفرا
من عالم العصر الهمام وزين أبناء الإمام أخي القراءة والقرى
مولاي إسماعيل ذي المجد الأثيل ... وخير من يولي الجميل مكررا
سلاّ عن الخطب الذي قد سل في ... وجه المسرّة سيف حزن أبترا
في موت عبد القادر بن محمدٍ ... من كان للصادين حوضاً كوثرا
قد كان كهفاً لليتامى موئلاً ... للمعتفين غِناً عزيزاً أعسرا
متواضعاً كالبدر في أفق السما ... وضياؤه بين البريّة في الثرى
عن قدرة يعفو فلم يُرَ غاضباً ... كالنخل يطعم من رماه مُثمرا
مولاي هل زهر النجوم نظمتها ... أم جئت بالسحر الحلال مسطرا
وُرْقٌ بها روضات نظم ناضرٍ ... أعلمت روضاً قبل في ورْق يُرى
فاعذر إذا قابلت درّك بالذي ... يكن الحصى منه أجلّ وأنضرا
وبقيت للعلياء والعلم الذي ... ملأ المدارس والمدائن والقرى

---

(١) كذا في الأصل ونصب «صبر» أولى من الرفع.

(٢) كذا في الأصل ولو قيل: «في حالة أو بحالة» لكان أصوب ولعل ذلك من الناسخ.

والجزم في قوله «يكن الحصى منه» لم يظهر لي مقتضيه[1] ولعله يكون بتقدير جملة شرطية مطوية تقديرها بالذي فعلته يكن كذا وأما قوله «متواضعاً كالبدر في أفق السماء» البيت فهو كقول أبي تمام:

قريب الندى نأي المحل كأنه هلال قريب النور ناء منازله

إلا أن بيت أبي تمام أوفى معنى والسابق به البحتري[2] حيث قال:

كالبدر أفرط في العلو وضوؤه للعصبة السّارين جدّ قريب

وقال أبو عيينة[3] قبلهما:

وقلت لأصحابي هي الشمس ضوؤها قريب ولكن في تناولها بُعْدُ

على أن أبا عيينة أغار على ثاني بيتي الطرماح[4] وهما:

أنا الشمس لما أن تغيّب ليلها وغارت فما تبدو لعين نجومها
تراها عيون الناظرين إذا بدت قريباً ولا يستطيعها من يرومها

والأصل في ذلك كله بيت بشار بن برد[5] وهو:

أو كبدر السماء غير قريب حين يوفي والضوء فيه اقترابُ

---

(١) لم يكن هناك جازم وإنما كسر نون يكن لالتقاء الساكنين.

(٢) البحتري: هو تلميذ أبي تمام فهو متأخر عن أستاذه أبي تمام. وتقدمت ترجمته.

(٣) أبو عيينة: هو المهلبي من شعراء الدولة العباسية واختص بطاهر بن الحسين.

(٤) الطرماح: هو ابن حكيم الطائي من فحول الشعراء الإسلاميين وفصحائهم ينتهي نسبه إلى قبيلة طي المشهورة وكان صديقاً للكميت على تباين في اتجاهاتهم فالكميت رافضياً والطرماح خارجياً والكميت نزارياً والطرماح قحطانياً وله ديوان شعر مطبوع وكان يمدح خالد القسري فيكرمه ويستجيد شعره وهو من شعراء الحماسة ووفاته سنة خمس وعشرين ومائة تقريباً. «الأعلام، ج ٣» و «ديوان الحماسة، ص ٦٦». ولعل أنها سبقت ترجمته.

(٥) بشار بن برد العقيلي بالولاء شاعر فحل مطبوع وديوانه مطبوع وأخباره كثيرة والطرماح أقدم من بشار بن برد إذ وفاة بشار سنة سبع وستين ومائة، فالآخذ هو الأخير من الأول لا العكس. ابن خلكان (ج ١ ــ ٢٤٥) والحماسة.

والمعنى مطروق قد تناولته الشعراء واعتورته أفكارهم، ومن شعر صاحب الترجمة قوله:

إن قطع العادات أصل المعاداة ... وحفظ العادات عين الودادِ
وابتداء الجميل سهل ولكن ... دون حفظ الجميل خرط القتادِ

وكرّر هذا مع تحويل القافية فقال:

إن قطع العادات أصل المعاداة ... وحفظ الإخاء عين المروّة
وابتداء الجميل سهل ولكن ... لم يلازمه غير أهل الفتوّة

وكانت ولادته في شهر ذي القعدة عام خمس وثلاثين ومائة وألف، ووفاته خامس شهر ربيع أول سنة سبع ومائتين وألف ورثاه الشريف الأديب محسن بن عبد الكريم الإسحاقي بقوله:

تعطل جيد الدهر عن حلية العلم ... وعن كل فضل زينته يد الحلم
فلم يبق من جزل النوال سوى اسمه ... ولم يبق من ربع الفخار سوى الرسم
فيا أيها الخطب الذي صدع الحشا ... وفرّق بين القلب والعقل والجسم
تعِسْت لقد غيّبت خير مغيّب ... وأخفيت رب الجود والنثر والنظم
لقد أظلمت طرق المسالك كلها ... بفقد ضياها يا لها ظلمة تعمي
وماتت علوم الاجتهاد بموته ... فحق لعين العلم بالدمع أن تهمي
فتى حسن الأخلاق تلقاه باسماً ... يدير سلاف الجد في أكؤس الحزم
إذا جاد قلت البحر بين أكفّه ... وإن قال قولاً أوثقته عرى العزمِ
فتى خاف رب العرش يوم لقائه ... فعفّ وصان النفس عن مرتع الظلم
وحكم المنيّة في البريّة كائن ... وأسوتنا خير الورى الطاهر الأمي
فحق لعيني أن تدر سحابةً ... من الدمع يروي وبلها باسق النجم

وهي كبيرة فلنقتصر منهاعلى هذا القدر، وقائل هذا الشعر هو محسن بن عبد الكريم بن أحمد بن محمد بن إسحاق بن أحمد بن حسن بن الإمام القاسم بن محمد:

أسامياً لم تزده معرفة   وإنما لذة ذكرناها

سيّد تتكشف بجنب أخلاقه لطائف النسائم، ويستغنى بتسريح النظر في درح[1] أشعاره عن متنورات الكمائم نظمه منظوم الدرر، ونثره منثور الجوهر:

كأنّ صغرى وكبرى من فواقعها   حصْباء درّ على أرض من الذهب[2]

إن حاضر وقف الشعبي[3] من شعابه موقف الحيرة، أو ناظر ترك أبا الهذيل في تدقيقاته ذاهل الفكرة[4] وأما الصرف والنحو واللغة فلا يعلم أيّها كان فيه أحفظ إذ هي لديه كالحلقة المفرغة:

عليم بأسرار الديانات واللّغا   له خطرات تفضح الناس والكتبا[5]

إيجازه إعجاز، وإسهابه في ديابيج الكتب طراز:

لمعان لو كنّ في سالف الدهر   لصكت مسامع السكساكي[6]

بذّ الأقران، وصار من صغره كبير الشان، فغلب بلا حلبة، وسبق متزوداً كل مُجلّ في أي حلبة، جمع شملي بشمله في أفراد من سادات هاتيك البلاد

---

(١) كذا في الأصل بالإهمال ولعله «دوح».

(٢) البيت لأبي نواس الحسن بن هاني الحكمي.

(٣) الإمام الشعبي هو عامر بن شرحبيل الرعيني أحد أقطاب العلم المشهورين: سعيد بن المسيب بالمدينة والحسن البصري بالبصرة وعامر الكوفي بالكوفة ومكحول بالشام، وله أخبار حسان وتوفي سنة تسع ومائة.

(٤) أبو هذيل اسمه محمد بن الهذيل المشهور بالعلّاف أحد أئمة المعتزلة. له مقالات ومحاضرات في الاعتزال، سريع الخاطر، ولد سنة خمس وثلاثين ومائة، ووفاته سنة خمس وثلاثين ومائتين (الأعلام، ج ٧). وابن خلكان.

(٥) لعل البيت للمتنبي وهو كذلك في ديوانه.

(٦) السكساكي: عالم من علماء البيان وله مفتاح العلوم في المعاني والبيان والبديع، طبع، ولعل الذي في البيت السكاكي لا السكساكي فإنه وهم وولادته سنة خمس وخمسين وخمسمائة ووفاته سنة ست وعشرين وستمائة. الأعلام، ج ٨.

كالمطلع المتضلع لطف الله بن أحمد جحّاف، وكمحسن العنسي رجلٌ له فهم ومعرفة استُقلت من شعره قوله:

إن أخلف الوعد فمقصوده ... تربية العشق لعشاقه
والبدر لولا يختفي تارة ... لم يظهر الفضل لإشراقه

وسألت العنسي عن عام ولادته فأخبرني أنه سنة أربع ومائتين وألف.

نعم فمن شعر المولى محسن طال طوله ودام ظلّه ما كتبه إلى السيد حسين الجيلاني البغدادي[1] نزيل صنعاء في سنة ست وثلاثين ومائتين وألف فقال:

ثنى البرق رمْحاً في السّما وتألقا ... فشقق أكناف السحاب ومزقا
وسارت جيوش السحب تحت لوائه ... وهينم صوت الرعد في الجو محنقا
فسلّت عليه الأرض سيف خليجها ... وحاطت من الغدران درعاً محلّقا
وقام لركض الريح نقع وأشرعت ... أسنة أغصان بها البأس يُتّقا
فلما تجلت عنهما حومة الوغى ... وللصلح من بعد التحاجر وفقا
تضاحكت الأزهار أمناً وبهجةً ... وأبْدت سروراً بالوفاء ورونقا
وألبست الأغصان حلّة سندس ... وزينت الآفاق غرباً ومشرقا
كأن لها علمٌ بإشراق طلعة الحسين علينا فهي تزدان للّقا
كريم رأى وصف الكمال مفرّقاً ... فجمّع من أوصافه ما تفرّقا
تمكن في بحبوحة المجد أصله ... فطال سموّاً في السماء وأورقا
أديب إذا هزّ اليراع بنانه ... تساقط من أقلامه الدرّ مونقا
حكيم إذا نال السقيم دواءه ... ينال من الله الشفاء المحققا
كأن لديه للأنامل مسمعاً ... تعلّم من نبض الشرايين منطقا
رياضيّ خلق والرياضي فنّه ... أحاط به كمّاً وكيفاً وحقّقا
لطيف له علم اللطيف سليقة ... إذا ما تعاناه سواه تخلّقا
إلهيّ أفكار طبيعي عفة ... تسربل سربال المكارم والتقى

---

(١) ترجمه زبارة في نيل الوطر (ج ١ ــ ٣٧٦) وأتى بهذه القصيدة والجواب عنها نقلاً عن التقصار ولم يذكر ولادته ولا وفاته.

فأهلاً بعصر قد قضى الله جمعنا ... به ورأينا بدره فيه مشرقا
ولا زال محفوفاً بأسنى تحية ... وأزكى سلام ثابت العز والبقا

والمكتوب إليه هذه القطعة كان عالماً بالحكمة طبيعيّها وإلهيّها ورياضيّها وله في الطب يدٌ طولى وإتقان تام سيّما في النبض ولعله من تلامذة شيخ الإسلام فقد تقدم ذكره(١) قبل حلوله لعروض هذه المكاتبة وكان له سليقة في الشعر عجيبة وأجاب عن هذه القصيدة بقوله:

سقاك وما يشفى العميد إذا اشتفى ... لرسم ثوى بين الأجارع فالنُقا
وأهدى به مرعى لغزلان حاجر ... ومجتمعاً للغانيات وملتقى
عَفَتْ آية صمّا الشمال وأخلقت ... علاه الجديدان اللذان تخلقا
عبرت به فاستعبرت بي نكاية ... وشاهدت منه ما أراع وأفرقا
أجمّا البكا يا مقلتيّ فإننا ... على موعد للبين لن يتحققا
ولكن رأيت العيش يخدج للسرى ... فأثرى الثرى من مدمعي إذ تفرقا
وأهدى بهذا الدمع أحمر قانياً ... وأنت تراه اليوم أبيض أيققا
وما ذاك إلا من سنين تتابعت ... بهجرهم سبَّبن دمعاً ومفرقا
فليتهم والحال ما قد شرحته ... رثوا لاحتمالي فيهم شقة الشقا
غفرت لأيام مواض ذنوبها ... إذا طلعت ما بيننا شامت اللقا

بلغ منها هذا المحل وعاقه عن إكمالها أزف الارتحال، ولعمري لو لم يكن له من النظم إلا هذه القطعة لسمي شاعراً.

أذكرني وصف جيش السحاب في شعر المولى محسن بطرديّة كشاجم(٢) فما وصفت السحاب بمثلها وهي:

---

(١) لم يتقدم له فيما أظن ذكر.

(٢) كشاجم: اسمه محمود بن الحسين: شاعر متفنن أديب من كتاب الإنشاء من أهل الرملة بفلسطين واستقر بحلب ومدح أبا الهيجاء عبد الله والد سيف الدولة بن حمدان المشهور وديوان شعره مطبوع وله مؤلفات قد طبع غالبها، وكانت وفاته سنة ستين وثلاثمائة هـ.

مقبلة والخصب في إقبالها　　　والرعد يحدو البرق من أجمالها
بخطبة أبدع في ارتجالها　　　كأنها في ثقل انتقالها
تجلها الريح عن استعجالها　　　إلا بما تجذب من أذيالها
فحين ضاق الجو عن مجالها　　　وراحت الرياح من كلالها
جنوبها تشكر عن شمالها　　　دنت من الأرض على دلالها
كأنما تسألها عن حالها　　　والزهر قد أصغى إلى مقالها
فكاد أن ينهض لاستقبالها　　　تسمحت بالري من زلالها
حتى أنال الترب من تهطالها　　　ثم انثنى يثني على فعالها

ما وصفت السحاب مع استيفاء معانيها بمثل هذه الطرديّة ويعجبني أيضاً قول السّري[1] فقد أصاب ما أراد من الإحكام والعذوبة فقال:

أقول لحنان العشي مغرد　　　يهز صفيح البارق المتوقدِ
تبسّم عن ريّ البلاد حنية　　　ولم يبتسم إلا لإنجاز موعدِ

وقوله فيها:

ويا ديرها الشرقي لا زال رائح　　　يحل عقود المزن فيك ويغتدي
عليلة أنفاس الرياح كأنّما　　　يُعلّ بماء الورد نرجسها الندي
يشق جيوب الورد في شجراته　　　نسيم متى ينظر إلى الماء يبردِ

ومن شعره المستطرد بالذكر قوله:

ولَد الغصن زهره أصنافا　　　وامترى درّ سحبه أخلافا
نفخته ريح الحياة فأحيته　　　وهزت من قدّه أعطافا
وكسته من سندس الورق الأخضر بُرْداً مزهّراً أفوافا
أفلا يؤمن الكفور وقد شاهد بعث المهيمن الألفافا
بدأ الخلق أولاً ثم من بعد فناءٍ أعاده استئنافا

---

(١) تقدم ذكر السرّي الرفّا.

فاكشف الغين وافتح العين واقرأ تلق في كل كائن كشافا
إن حق اليقين في صحف الكون كفاك النظّام والعلّافا
لا يسائل رسطالساً عن هيولا ه ولا تستمع له أوصافا
ودع القول بالتناهي وإلا تتناهى أجسامهم أطوافا
ذاك مَرْتٌ تسابقت فيه أفكار إلى غير غاية إسْرافا
وإذا لم يغض من إرن المهر ضى في جماحه قذّافا
يتعاطى الإنسان ما ليس يعنيه ويلقى من دونه الأخوافا
ويحب الخلاف إلا إذا النفس دعته فلا يحب الخلافا

وقال يرثي أخاه أحمد بن عبد الكريم وكان سيداً سرياً أديباً ذكياً وتوفي عام اثنتين وعشرين ومائتين وألف:

حننت على فراق أخي حنين الأينق النيْبِ
ومن كأخي فإن أخي فتى الفتيان والشيبِ
فتى كملت خلائقه وطابت منتهى الطيبِ
وضاهى في بني إسحاق يوسف آل يعقوبِ
فقا فرقا بلا فرق وصاصا كل محجوبِ
توحش إذا توحّد في سبيل غير مسروبِ
سبيل كان يسلكه على صهوات يعسوبِ
سبوق دون شق غبا ره قرع الطنابيبِ
فلم يأنس لمأنوس ولم يرغب لمرْغوبِ
أجلّ محاسن الدنيا لديه أقلّ مصحوبِ
عصامك ربنا لشيخ له زفرات مكروبِ
فشد على حشاشته بصبر غير محسوبِ

وكان المرثي بهذه القطعة شاعراً بليغاً جيد التصرف ومن شعره يَذُمُّ الغيم قوله:

ما احتجاب الشمس عن وجه السماء   طاب إلا للخفافيش وراقا
بين نفسي وسناها نسبة   لا قضى بينهما الله افتراقا
وكذا بين صدى فكري وبين   سحاب ساترٍ كان اتفاقا
ضربت في الذكر أيضاً مثلاً   لظلام الكفر تمثيلاً وفاقا
ثم في الإشعار بالإعراض أو بر   قيبٍ عن لقاءالخل عاقا
أنا لا أرتاح في الغيم وقد   كان مشتقاً من الغمّ اشتقاقا
إن عندي سحب الجوّ قذىً   كل من عاف قذى كأس أراقا
ما على مادحها من لومة   يستلذّ المرّ من ساء مذاقا
بدّدت ريح النّعامى شملها   وبسوط الرعد أبكاها احتراقا
ورمى الومض لآلي عقدها   بانتشار لا ترى فيه انتساقا
لا رقت في الجو إلا أن ترى   ترشف الأزهار أكواباً دهاقا

ومن مقاطيعه المستحسنة أيضاً قوله:

ومبتسم عن لثمه راعني   عينٌ وبي ما بي من عشقهِ
فليت من يمنعني رشفه   يخطف عينيه سنا برقهِ

وكانت ولادته سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف، وأخوه المحسن بن عبد الكريم سنة تسعين فمدة ما بين ولادتهما ثلاث سنين وبين السيد محسن والسيد يوسف الأمير(١) ملاطفات ومكاتبات ستأتي إنشاء الله في القسم الثالث.

وكوكبان حصن شاهق من اليمن الأعلا، وذمار: بكسر الذال وفتحها سميت باسم قيْل من حمير وهو ذمار بن يحصب الحميري(٢) ولها ذكر في قاموس

---

(١) ترجم ليوسف بن إبراهيم الأمير المؤرخ زبارة (ج ٢ ـ ٤١٤) نيل الوطر وأثنى عليه وأورد له مقاطيع ومراسلات مولده سنة ١١٧٥هـ ووفاته سنة ١٢٤٤هـ.

(٢) انظر الإكليل (ج ٢ ـ ١٩٣) وقيل سميت ذمار بالملك تبع ذمار علي الذي عثر على تمثاله بالنخلة الحمراء والمحفوظ بمتحف صنعاء، وضبط ذمار بكسر الذال المعجمة. رواه الإمام البخاري في تاريخه وتبعه ياقوت في معجمه مع رواية الفتح ولا ينطق بها إلا بالفتح.

الفيروزآبادي ونهاية ابن الأثير[1] ولقدماء المطلعين فيها خلاف وهل هي مطلقة على المدينة المعروفة الآن أو أن مجموع غمدان ومأرب وصنعاء يسمى ذمار، وقد أشار إلى الطرف الأخير العلامة نشوان الحميري في شرح النشوانية[2] وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

* * *

(١) الفيروزآبادي: هو محمد بن يعقوب نزيل زبيد والمتوفى بها سنة سبع عشرة وثمانمائة عن تسعين سنة. انظر: البدر الطالع (ج ٢ ـ ٢٨٠) وابن الأثير صاحب النهاية هو المبارك بن محمد بن محمد الشيباني أحد الإخوة الثلاثة، وثانيهما علي بن محمد بن محمد وهو المؤرخ وثالثهم الأديب الكاتب نصر الله بن محمد الملقب ضياء الدين صاحب المثل السائر المطبوع وقد جمعهم بعض الأدباء بقوله:

بنو الأثير الذين كانوا ثلاثة ضمهم إخاء
محدّث مؤرخ أديب المجد والعز والضياء

فالمحدث هو مجد الدين صاحب النهاية وجامع الأصول، والمؤرخ هو عز الدين صاحب التاريخ المسمى الكامل، والضياء هو الأديب صاحب المثل السائر وكانت وفاة صاحب النهاية سنة ٦٠٦ ووفاة المؤرخ صاحب الكامل سنة ٦٣٠ ووفاة صاحب المثل السائر سنة ٦٣٧.

(٢) انظر ترجمة الأمير الكبير والإمام العظيم نشوان بن سعيد الحميري، مفيد عمارة، ص ٢٩٧ وما بعدها.

﴿السيّد علي العامري﴾

هو علي بن إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن أحمد بن عامر بن علي بن الرشيد، كان عالماً متعففاً، وزاهداً متقشفاً، كثير الصمت قليل الكلام لا ينطق إلا مجيباً، ولا يجيب إلا مصيباً، إذا حضر المجالس الحافلة وتعاطى أعيانها كؤوس المذاكرة في غضون المحاضرة، ترك السائل والمسؤول يتجاذبان ما للمسألة من الذيول ويصغي إلى ما يقولونه تخميناً، وهي مقتولة لديه يقيناً:

فتراه يصغي للحديث بسمعه   وبقلبه ولعله أدرى به[1]

وتبحر في كل العلوم على تنوع أجناسها، واختلاف مراسها تلقنها عن عظماء المشائخ، من ذوي العلم الراسخ كحامد شاكر وأبي الحسن السندي[2] وغيرهما، وأسمع عليه شيخ الإسلام صحيح البخاري من فاتحته إلى خاتمته وسمعت من بعض أهل العصر أنه دار ذكر علم اللطيف[3] في مقام الحاكم الجزل والقاضي الفحل يحيى بن صالح السحولي الشجري[4] فقال: لم يبق من علمائه ومشائخه من يشار إليه في زماننا وكان صاحب الترجمة حاضراً فلما تقوّض المجلس سأله

---

(١) لا أعرف قائله.

(٢) حامد هو ابن حسن شاكر. قال الإمام الشوكاني (ج ١ ـ ١٨٨): نشأ بصنعاء وأخذ عن أكابر العلماء، وأكب على علم الحديث غاية الإكباب حتى فاق فيه وشارك في سائر الفنون وكان واعظاً يعقد مجلساً للوعظ بالجامع الكبير ولوعظه تأثير في النفوس وله مؤلفات مات فجأة في حدود السبعين والمائة.

(٣) علم اللطيف: ما يسمى علم أصول الدين ويسمى اليوم الإلاهيات.

(٤) يحيى بن صالح السحولي سبق ذكره.

الراوي له عما جزم به القاضي من تعطل الزمن عن مشائخ علم اللطيف فقال: هذه مبالغة منه أبقاه الله مفرطة فإني ولله الحمد أعلمه كما أعلم مـراقي داري، وهذا من التحدث بنعم الله، وكان لـه جرايـات مستدرة من الأمـراء الأشراف آل شـرف الدين ومقررات مستمرة من الخلفاء بصنعاء عمر الله دولتهم بالعدل.

وخبـرني الفاضـل عبد الـرحمن بن حسن الريمي الـذماري أن أميـر المؤمنين المتوكل على الله أحمـد بن المنصور رضي الله عنـه أسمـع عليه طـرفاً من الجـامـع الصحيـح وأخذ عنه نصيباً صالحـاً في سائـر العلوم، وأما علم الأدب فقـاده بالـزمام وقعـد منه على ذروة السنـام، وكان يجيـد في نظمـه ونثـره ويعـدّ من فصحـاء أهـل عصره، ومن شعره هذه القصيدة وهي من أحسن النظم أسلوباً وأقومه أنبوباً.

خِلَسُ اللحظ تـذيـب المـهـجـا ... فـتـرى الـدمع بـهـا مـمـتـزجـا
لا تُسِمْ طـرفـك في مـرعى الهـوى ... فـيـلاقـي الـقـلب مـنـه حـرجـا
رشـفـات وتـسـمـى نـظراً ... بـنـبـال وتـسـمـى دعـجـا
لـم تـؤثـر فـي سـوى أفئـدة ... وهـي فـيـهـن تـبـيـن الـشـجـجـا
كـان عـهـدي قبـله أن الـنـهـى ... لـلـتـصـابي مـانـعـاً أن يـلجـا
يـا خـليـليّ أراهـا مـنـكـمـا ... ضـلّة بـالـسـفـح إن لـم تـلجـا
وإذا أظـللـتـمـاه فـانـشـقـا ... مـن شـمـيـم الـدار عـرْفـاً أرِجـا
إنـمـا أعـتـدّ مـن عـمـري بـمـا ... كـنـت فـيـه بـالـصـبـا مـبـتـهـجـا
يـمـلأ الـتـهـويـم عـيـنـيّ ولـم ... يـك قـلبي بـالـهـوى مـنـزعـجـا
كـم سـرقـنـا بـالـلوى في غـفـلةٍ ... من عـوادي الـدهـر عيشاً سجسجـا
تـرقص الأغـصـان فـيـه طـربـاً ... وعـلـيـه الـطـيـر تـشـدو هـزجـا
ودجـيّ قـد ألف الـشـمـل إلى ... أن فـرى الـصـبـح لأفـق ودجـا
ولـيـالٍ بـالـتـداني لـؤلـؤ ... قـد أعـيـدت بـالـتـنـائي سبجـا
إذ يـلف الـحـب مـشـتـاقيْ هـوى ... وعـفـافـاً بـالـغـرام امـتـزجـا
لـم يشـقني مـيـل أفـنـان الـحـمى ... إنـمـا أشـتـاق بـدراً غـنـجـا
حـركـات الـحـسـن في أعـطـافـه ... تـسلب الأحـلام من أهـل الحجـا

آه مـن عـيـن بـه ظـامـيـة | وهي في الـدمـع تخـوض اللجـجـا
عـجـبـاً مـن بـارد فـي ثـغـره | وهـو فـي الأحشـاء يـذكـي وهـجـا
كـلـمـا لام عـلـيـه عـاذل | وجـد الـمـسـمـع بـابـاً مـرتـجـا
كـم لـطرفي في الكـرى من رقْبـة | لـيـرى لـلطـيـف فـيـه مـنـهـجـا
أتـرى آسـاده فـي وهـن | مـن سـهـاد ظـلَّ فـيـه مـدلـجـا
لا سـمـت بـي عـقـوة مـن هـاشـم | ونـجـاراً بـالـمـعـالـي وشـجـا
إن أخـافـتـنـي الـقـنـا من دونـه | بـعـواليـهـا حـسـبـنـا سُـرُجـا
لأقـيـمـنّ عـلـى رغـم الـنـوى | منـسـم الـحـب وأعـلو الـشـبـجـا
آه مـن جـوهـر شـعـر صـغـتـه | وأراه فـي الـورى قـد سـمـجـا
لـو رأى قـيـصـر مـنـه مـا رأى | صـاغ مـنـه لـمـلوك دمـلـجـا

قوله «كان عهدي» البيت إلخ، قـد أراد به أن العشق دأب ذوي الخفّة وأن ذوي الأحلام الراجحة تأبى عقولهم استحسان الصور والوله بها.

قال الأصمعي(١): سألت عذرياً بأن ما بالكم إذا عشقتم تموتون قال: لأن في رجالنا خفَّة، وفي نسائنا عِفَّة. وقال بعضهم:

لا تـرمـينّ إلـى الـحـسـان بـنـظـرة | إنـي أراهـا آفـة الألـبـابِ(٢)

وسئل أفلاطون(٣) عن العشق فقال: داء لا يعرض إلا للفرّاغ، وعدّه الحكماء من أمراض الماليخوليا فعلى العظيم اجتناب الوقوع فيه وسيمر بك طرف في ذكر العشق وشيء من أخبار العشاق في القسم الرابع، وأما «مُلُوك» في البيت الأخير فأراد به (حظيّة) كانت لقيصر، و (قيصر) كلمة إفرنجية تفسيرها بالعربية «شق عنه» وسببه أن أم قيصر ماتت بالمخاض فشق بطنها وأخرج فسمي قيصر، وكان يفتخر

(١) الأصمعي: هو عبد الملك بن قريب الباهلي، علم شامخ وذروة باذخة في الآداب واللغة والنحو والحكايات وكتب الأدب أجمع أكتع مملوءة بأخباره ووفاته سنة ست عشرة ومائتين من الهجرة.

(٢) لا أعرف قائل هذا البيت.

(٣) أفلاطون أحد فلاسفة اليونان القدامى. انظر: فهرست ابن النديم.

بذلك على غيره من الملوك لأنه لم يخرج من الرحم، وهو أول ملوك الروم، وكان كل من ملك الروم بعده لقب قيصر كما أن كل من ملك ملك فرغانة سمي الأخشيد، وملك فارس لُقِّب كسرى، وملك الترك خاقان، وملك الشام هرقل، وملك اليمن تُبّع، وملك الحبشة النجاشي، وأما قوله من القصيدة:

عجباً من باردٍ في ثغره وهو في الأحشاء يذكي وهجا

فأخذه من قول ابن التعاويذي[1]:

يذكي الجوى بارد من ريقه شبم ويوقظ الوجد طرفٌ منه وسنانُ

وأغار عليه أيضاً أبو العباس أحمد بن عبد الغني اللخمي المعروف بالنفيس[2] فقال من جملة أبيات:

أحرقت يا ثغر الحبيب حشاي لما ذقت بردك

وقال أيضاً عيسى بن سنجر المعروف بالحاجري[3] في معناه:

ويلاه من برد رضاب له أشكو إلى العذال منه الحريق

وحلّه أبو الفتح نصر الله بن الأثير صاحب المثل السائر[4] كما يشعر بذلك

---

(١) ابن التعاويذي محمد بن عبد الله: شاعر مكثر ولم يكن في عصره مثله. جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقة المعاني ودقتها وقد أطال الثناء عليه ابن خلكان (ج ١ ــ ص ٩٠) وأورد له مقاطيع وقصائد وكانت ولادته سنة تسع عشرة وخمسمائة ووفاته سنة أربع أو ثلاث وثمانين وخمسمائة.

(٢) النفيس هذا كما ساق نسبه المؤلف عن ابن خلكان (ج١ ــ ١٤٨)، والبيتان المذكوران من قصيدة أولها:

قل للحبيب أطلت صدّك وجعلت قتلي فيك وقتلك

وله ديوان شعر وكانت وفاته سنة ثلاث وستمائة.

(٣) عيسى الحاجري هذا كان من أولاد الأجناد وارتقى به الحال إلى أن قال الشعر وأجاد فيه وكان صاحباً لابن خلكان وقد أطال الثناء عليه في ترجمته (ج ٤ ــ ١٦٤) وكانت وفاته سنة أربعين وستمائة هـ.

(٤) تقدم ذكره.

آخر سجعة من هذا الفصل وهو من جملة رسالة له كتبها إلى الطاهر الأيوبي[1] أو أخيه الأفضل، وكان قد سافر في زمن الشتاء والبرد الشديد فقال:

وأنهى أني سرت عن الخدمة، وقد ضرب الدجى فيه مضاربه، وأسبل عليَّ ذوائبه، وجعل كل قرارة حفيرا، وكل ربوة غديرا، وخطَّ كل أرض خطا، وغادر كل جانب شطًا كأنه يوازي يد مولانا في شيمة كرمها وألثاث صوب ديمها، والمملوك يستغفر الله من هذا التمثيل، العاري عن فائدة التحصيل، وفرق بين ما يملي الوادي بمائه، وما يملي النادي بنعمائه، وليس ما ينبت زهراً يذهبه المصيف أو ثمراً يأكله الخريف، كمن ينبت ثروة تعرر الأعطاف، وتأكل المرتبع والمصطاف، ثم استمر على سير يقاسي الأرض ووحلها، والسماء ووبلها، ولقد جاد حتى أكثر، وواصل حتى أضجر، وأشرف حتى اتصل برّه بالعقوق، وما خاف المملوك لوامع البوارق كما خاف لمع البروق ولم يزل في مواقع قطره في حرب، ومن شدة برده في كرب، والسلام.

وأما بيت أبي الفتح محمد بن عبد الله التعاويذي فهو من قصيدته السائرة وأولها:

سقاك سارٍ من الوسميّ هتَّان ... ولا رقت للغوادي فيك أجفانُ
يا دار لهوي وإطرابي ومربع أحبابي ... وللهو والإطراب أوطانُ
هل عائد لي ماض من جديد هوى ... أبليته وشباب فيك فينانُ
إذا الرقيب لنا عين مساعدة ... والكاشحون لنا في الحب أعوانُ
إذا الجميلة تولينيِ الجميل وعنْد الغانيات وراء الحسن إحسانُ

(١) اسم الملك الطاهر الأيوبي «غازي بن صلاح الدين الأيوبي» كان ملكاً مهيباً حازماً متيقظاً كثير الاطلاع على أحوال الناس باسط العدل محباً للعلماء. أعطاه والده مملكة حلب سنة ٥٨٢ ولد بالقاهرة سنة ٥٦٨ ووفاته بقلعة حلب سنة ٦١٣. ابن خلكان (ج ٣ ــ ١٧٨). وأما أخوه الملك الأفضل فهو علي بن صلاح الدين الأيوبي وكان أكبر أولاد أبيه واستقل بمملكة دمشق إلى أن انتزعت منه وكانت وفاته سنة اثنتين وعشرين وستمائة. «ابن خلكان، ج ٣ ــ ص ٩٥».

ولي إلى البان من رمل الحمى طرب | واليوم لا الرَّمْل يصبيني ولا البانُ
وما عسى يدرك المشتاق من وطرٍ | إذا بقي الربع والأحباب قد بانوا
كانوا معاني المغاني والمنازل أموات إذا لم يكن فيهنّ سكانُ
لله كم قمرت قلبي محاسن أقمارٍ | وكم غازلتني فيك غزلانُ
وليلة بات يسقي الراح لي رشأ | فيها أغنّ خفيف الروح جذلانُ
خال من الهم في خلخاله حرج | فقلبه فارغ والقلب ملآنُ
بين السيوف وعينيه مشاركة | من أجلها قيل للأغماد أجفانُ

يذكي الجوى بارد البيت ومدح به الخليفة صاحب بغداد وهو حينئذ الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بنور الله الحسن(١).

وما أحسن قوله فيها من مديحه مشيراً إلى اجتماع الكواكب السيارة في أيامه وكان ذلك في برج الميزان ما عدا زحل فزعم المنجمون أن ذلك علامة حصول طوفان ريح في ليلة معينة فوقع غير ما زعموه فقال:

قالوا القران وطوفان الهواء له | بالشر عن كثب في الأرض طوفانُ
وما لهم فيه برهان وطائرك الميمون فيه لدفع الشر برهانُ
وكيف تسطو الليالي أو يكون لها | في عصر مثلك إرهاق وعدوانُ
وأنت في كل علويّ له أثر | مؤثّر وعلى الطوفان طوفانُ
سعادة لو أحاط الخارجيُّ بها | لعاد فيما ادعاه وهو خِزْيانُ
فاسعد بها دولة غرّاء ما ادّرعت | بمثلها حميرٌ قِدْماً وساسانُ
واسلم تدوم لك النعما فإنك ما | بقيت في جذل والدهر جذلانُ

وأشار بذلك القران إلى ما زعمه المنجمون من الطوفان الريحي وإنما بنوا

---

(١) الخليفة الناصر: اسمه أحمد بن المستضيء، مولده سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ولم يل الخلافة أطول منه فإنه أقام فيها سبعة وأربعين سنة ولم تزل الخلافة في حياته في عز وجلالة ودفع للأعداء واستظهار على الملوك ولم يجد ضيماً ولا خرج عليه خارج إلا قمعه ولا مخالف إلا دفعه وكل من أضمر له سوء رماه الله بالخذلان ووفاته سنة اثنتين وعشرين وستمائة. تاريخ الخلفاء، ص ٤٤٨، دول الإسلام، ص ٩٥.

ذلك على ما ادعوه لأن برج الميزان هوائي وذكروا أنها اجتمعت الكواكب السبعة في زمن النبي نوح عليه السلام في برج الحوت وهو مائي فكان طوفان الماء.

وذكر العماد الكاتب[1] في البرق الشامي كما نقله الحافظ اللافظ يوسف بن يحيى المؤيدي أن العماد كان في الليلة التي عين المنجمون طوفان الريح فيها في مضرب صلاح الدين بن أيوب وهو يحاصر قلعة من قلاع الإفرنج قال: فلم نر ليلة أحسن منها ولا أنعم ركوداً، وكان الخارمي: بالخاء المعجمة فراء مهملة فميم فياء نسبة إلى خارم: بلدة من ساحل الشام رئيس المنجمين: يقول بالطوفان الريحي حسبما دل على ذلك الاجتماع عنده، ولما شاعت هذه المقالة عن المنجمين اتخذ ملوك الأعاجم الأسراب في بطون الأرض توقعاً لذلك.

وفي بعض التواريخ أن الناصر استدعى فلاناً وكان عالماً بالنجامة بصيراً فسأله عن القران المذكور، واجتماع الستة الكواكب على أي أمر يدل فقال ذلك الفلان على هلاك فريق من الناس في أجمع محل لهم، فقال الناصر: ما أحسب ذلك إلا بغداد فليس في الأرض مصر أجمع للناس منه فأمر بتغليق ما يغلق من الجسور وعمارة ما يعمر منها خشية من الغرق ثم لما كان تلك الليلة المتوقعة وهي ليلة مبيت الحاج بمنى فأتاهم سيل جرار فاجتاح كل من بها من الناس فلما بلغ ذلك الناصر زال غمّه وتسرّى همّه فدعا بذلك المنجم وأكرمه وخلع عليه، هكذا نقل هذه الحكاية صاحب النّسمة، ولم يعين التاريخ الذي استنقل منه هذه الحكاية، ولم أُثبتها باللفظ ولكني رسمتها حسبما علقت في حفظي.

وعلى ذكر ابن التعاويذي فلنورد من نظمه ونثره ما يطرب الجماد وتسيل

---

(١) العماد الكاتب ويقال عماد الدين الكاتب المشهور الأصفهاني وله من الشعر والرسائل والمؤلفات ما يغني عن التعريف به، واسمه محمد بن محمد إلى آخر ما درج نسبه ابن خلكان (ج ٤ ــ ٢٣٣) وتقلبت به الأحوال إلى أن اتصل بالملك العادل صلاح الدين الأيوبي فحظي لديه وكان في بحبوحة النعم فلما مات صلاح الدين ضايقه الحساد وكدروا عيشه ومن تصانيفه الفائقة «خريدة القصر وجريدة العصر» وقد طبع في عدة مجلدات وكانت ولادته سنة تسع عشرة وخمسمائة بإصبهان ووفاته بدمشق سنة سبع وتسعين وخمسمائة هـ.

لسماعه السيوف من الأغماد، فمن قوله يتوجع لذهاب بصره:

وبـاكيـة لم تـشـك فقـداً ولا رمى بـجيـرتـهـا الأدنيـن نـأي مـطوّحُ
رمتهـا يـدُ الأيـام في ليث غـابهـا بـفـادح خـطب والـفـوادح تـفْـدحُ
ولا غـرو أن تبكي الـدمـاء لكـاسب لهـا كـان يسعى في البـلاد ويكـدحُ
رأت جللاً لا الصبـر يجمل بـالفتى على مثله يـومـاً ولا الحـزن يقبحُ
عـزيـز عليهـا أن تـراني جـاثمـاً ، مـا لي في الأرض البسيطة مسـرحُ
وأن لا أقـود العيس تنفخ في البـرى وفـود المـذاكي في الأعنـة تـمـرحُ
أظـلّ حبيـسـاً في قـرارة مـنـزل رهين أسى أمسي عليـه وأصبحُ
مقـامي منـه مـظلم الجـو قـاتـم ومسعـاي ضنك وهـو ضحيـان أفيحُ
أقـاد بـه قـود الجنيبـة مـاشيـاً وما كنت لـولا غـدْرة الـدهـر أسمحُ
كـأني ميت لا ضـريـح لـجنبـه ومـا كـل ميت لا أبـا لـك يضـرحُ
وهـا أنـا لا قـلبي يـراع لـفـائـت فيـأسى ولا يـلهيـه حظ فيـفـرحُ
فـللّه نـصـل فـلّ منـه غـراره وعـود شبـاب عـاد وهـو مصـوّحُ
وسقيـا لأيـام ركبت بهـا الـهـوى جموحاً ومثلي في هـوى الغيد يجمحُ
ومـاضي صبـاً قضيت منـه لبـانتي خـلاساً وعين الـدهـر زرقـاً تلمحُ
ليـالي لي عنـد الغـواني مكـانـة وألحـاظهـا تـنـظر إليّ وتـطمحُ
وليلى بهـا أضعاف مـا بي من الهـوى أعـرّض بـالشكـوى لهـا فتصـرّحُ

ومن مقاطيعه المستملحة ما كتبه إلى عضد الدين أبي الفرج محمد المظفر أستاذ دار المستضيء العباسي[1] وهو من أبناء مواليه يطلب منه شعيراً لفرسه

(١) لا أعرف عنه شيئاً أي عضد الدين أبي الفرج محمد المظفر وأما المستضيء بأمر الله فهو الحسن أبو محمد بن المستنجد بالله. ولد سنة ست وثلاثين وخمسمائة فنادى برفع المكوس وردّ المظالم وأظهر العدل والكرم وفرق مالاً عظيماً على اختلاف طبقات الناس، وفي خلافته انقضت دولة العبيديين بمصر وخطب له وضربت السكة باسمه وضعف الرفض ببغداد ووهى وأمن الناس، ورزق سعادة عظيمة في خلافته وكانت وفاته سنة خمس وسبعين وخمسمائة.

وهو قوله:

مـولاي يـا مـن لـه أيـادٍ لـيس إلى عـدِّهـا سـبـيـلُ
ومَـنْ إذا قـلّت الـعـطايـا فـجـوده وافـر جـزيـلُ
إلـيـه إن جـارت الـلـيـالـي نـأوي وفـي ظـلّه نـقـيـلُ
إن كـميتي العتيق سـنـاً لـه حـديـث مـعـي يـطولُ
كـان شـرائـي لـه فـضـولاً فـاعجب لما يجلب الفضـولُ
ظـنـنـتـه حـامـلاً لـرحلي فخـاب ظني بـه الجـمـيـلُ
ولـم أخـل لـلـشـقـاء أنـي لـثـقـل أعـبـائـه حـمـولُ
فـإن أكـن عـالـيـاً عـلـيـه فـهـو على كـاهلي ثقـيـلُ
لـيس لـه مـخـبـر حـمـيـد ولا لـه مـنـظر جـمـيـلُ
وهـو حـرون وفـيـه بـطء ولا جـواد ولا ذلـولُ
لا كَـفَـل مـعـجـب لـراءٍ إذا رآه ولا تـلـيـلُ
مـقـصّـر إن مـشى ولـكـن إن حضـر الأكـل مستـطيـلُ
يـعـجـبـه الـتـبـن والـشـعـيـر الـمـعـسـول والـقـتّ والـقـصـيـلُ
وإن رأى عـكـرشـاً رأيـت الـلـعـاب مـن شـدقـه يـسـيـلُ
ولـيس فـيـه مـن الـمـعـانـي شـيء سـوى أنـه أكـولُ
فـهب لـه الـيـوم مـا يـسنّي وهـبـه من بعض مـا يـنـيـلُ
ولا تـقـل إن ذا قـلـيـل فـالجـلّ في عينـه جليـلُ(1)

ومما يداني هـذه الأبيات فيما قيلت له مع زيادة مستطرفة ما نسبه القاضي شمس الأدباء أحمد بن خلكان، إلى كتاب الهدايا والتحف(2) أن اللبادي الشاعر(3)

---

(1) انظر: ديوان الأديب جمال الدين محمد بن حمير بإخراجنا فإنه له قصيدة إلى الملك المنصور عمر بن علي رسول يشكو فرسه أولها:

مـولاي نـور الـديـن لا لاقـيـت صـرف الـنّـوب

(2) الهدايا والتحف للقاضي الرشيد المصري الأسواني وقد طبع.

(3) لم أقف على اسم الشاعر.

خرج من بعض مدن أذربيجان(١) يريد أخرى وتحته مهر له رائع وكانت سنة مجدبة فصحبه في الطريق غلام حدث على حمار له قال: فحادثته فرأيته أديباً راوية للشعر خفيف الروح حاضر الجواب جيد الحجة فسرنا بقية يومنا فأمسينا إلى خان على ظهر الطريق فطلبت من صاحبه شيئاً نأكله فامتنع أن يكون عنده شيء فرفقت به إلى أن جاءني برغيفين فأخذت واحداً ودفعت إلى الغلام الآخر، وكان همّي على المهر أن يبيت(٢) بغير علف أعظم من همي بنفْسِي فسألت صاحب الخان عن الشعير فقال: ما أقدر منه على حبة واحدة، قلت: فاطلب، وجعلت له جعالة على ذلك فمضى وجاءني بعد طويل وقال: قد وجدت مكوكين(٣) عند رجل وحلف بالطلاق أن لا ينْقصْهما عن مائة درهم فقلت ما بعد يمين الطلاق كلام، فدفعت إليه خمسين درهماً فجاءني بمكوك فعلقته على المهر وجعلت أحادث الفتى وحماره واقف بغير علف فأطرق ملياً ثم قال: إسمع أيّدك الله أبياتاً حضرت الساعة، فقلت هاتها فأنشدها:

يا سيدي شعري نفاثة شعركا	فلذاك نظمي لا يقاس بنشركا
وقد انبسطت إليك في إنشاد ما	هو في الحقيقة قطرة من بحركا
آنستني وسررتني وبررْتني	وجعلت أمري في مقدم أمركا
وأريد أذكر حاجة إن تقضها	أك عبد حمدك ما حييت وشكركا
أنا في ضيافتك العشية ههنا	فاجعل حماري في ضيافة مهركا

فضحكت واعتذرت إليه من إغفالي أمر حماره وابتعت المكوك الآخر بخمسين درهماً ودفعته إليه.

وقريب من أبيات السبط في التوصل إلى المقصود ما كتبه السيد الأديب

---

(١) أذربيجان: بفتح الهمزة ثم السكون وفتح الراء وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة وجيم: مقاطعة كبيرة من أرمينيا وهي تحت نفوذ الاتحاد السوفييتي ومنها تحت حكومة إيران.

(٢) كذا في الأصل ولعل العبارة «أن لا يبيت» فسقطت لا.

(٣) مكيال معروف: المكوك.

الكاتب يحيى بن إبراهيم بن علي بن إبراهيم الجحافي إلى مخدومه علي بن المتوكل[1] يشكو حاجته إلى العلف لمهره فقال:

حالي عجيب وحال مهري يا ابن أمير الأنام أعجب
تحريم أكل الحشيش أضحى بغير علم لديه مذهب
لو رزق الجد كان عندي كسائر الخيل يأكل الأب
وفالق الحب والنوى ما رأته عيناي فالق الحب
أطمع من أشعب ووعدي له من الآل صار أكذب
فيروزج الصبح إن رآه صعّد في لونه وصوّب
وقوس غيم السماء أضحى يأكله بالمنى ويشرب
قد أشبه النون حين أمسى أشبه شيء بحالة الضبّ

ومن عجيب ما يذكر بهذه المادة شعر أبي علي إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه البصري في شاة[2] أبي سعيد وهي:

أبا سعيد لنا في شاتك العبر جاءت وما إن لها بول ولا بَعَرُ
وكيف تبعر شاة عندكم مكثت طعامها الأبيضان الشمس والقمرُ
لو أنها أبصرت في نومها علفاً غنّت له ودموع العين تنحدرُ
يا مانعي لذّة الدنيا بأجمعها إني ليقنعني من وجهك النظرُ

والحمدوي قائل هذه الأبيات كان كثير المجون في شعره وله المقاطيع المشهورة في الطيلسان الذي كساه أحمد بن حرب المهلبي[3] وكان في غاية البلى والخلاقة، وقد قيل إنه عمل فيه مائتي مقطوع يسخر من أحمد بن حرب بها وفي كل مقطوع معنى بديع منها:

---

(١) الجحافي هو الحبوري ترجم له المؤرخ زبارة في الملحق، ص ٢٢٦، قال: ومات سنة ثلاث ومائة وألف وترجمة علي بن المتوكل إسماعيل يأتي ذكرها.

(٢) انظر ابن خلكان.

(٣) لم يترجم له.

يـا بن حـرب كسـوتني طيلسـانـاً مـلّ مـن صحبـة الـزمـان وصـدّا
طـال تـكـراره إلى الـرّفـو حـتـى لـو بـعـثـنـاه وحـده لـتـهـدّا

ولولا خشية التطويل لذكرت من مقاطيعه في الطيلسان المذكور شيئاً كثيراً، فلنعد إلى إثبات مقامة هزلية للسيد يحيى الجحافي السابق ذكر شعره تناسب هذه المستطردات، وكان عملها في بقرة السيد إسماعيل بن محمد بن زين العابدين ولفظها:

حديث بقرة السيد إسماعيل بن محمد بن زين العابدين، وكانت من المتوكلات على رب العالمين، جوّابة طوّافة، كثيرة التنقل من حافة إلى حافة، قالت: خرجت في بعض الأيام من السافل لالتقاط فضلات المآكل، والتعرض لما يسر من الفساول فما زلت في طلب المعيشة أتنقَّلُ من ريشة إلى ريشة، حتى ساءت فيّ المقالة، وعرفت بالبقرة الجلاّلة، وما في ذلك من بأس، فإن الناس يأكلون مع الناس، وليس ذلك بغريب، فللأرض من كأس الكرام نصيب ولا عليّ من عار فإن الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار، ولذلك قال من إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون ـ ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[1].

وقد قال الأول وتفضل بقوله هذا وتطول:

أيـا شجـرات بـالأبيـطـح من منـى عـلى شط وادي القـاع مـشتبـكـاتِ
إذا لـم يكـن فـيكـنّ ظـلّ ولا جنـى فـأبـعـدكـنّ الله مـن شـجـراتِ

فقصدت بقرة السيد محمد بن علي بن إبراهيم معتقدة أنها مثل والدتها التي النّص من مكارم أخلاقها جليّ لأنها كانت مشهورة بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وكان علفها وماؤها لجميع البقر نهبا، فلما رأتني مقبلة قالت لي أنت الهنفلة، التي لا تزال من مزبلة إلى مزبلة، ولا تسأمي من الأذيّة، ولا تسكني في سافل ولا حويّة ثم إنها رفعت ذنبها وأسبلت عينها وصعّرت خدّها وتجاوزت حدّها،

---

(١) سورة الحشر: آية ٩.

(٢) لا أعرف قائل هذين البيتين. وهي محفوظة.

وربضت في السافل وحدها، فلما أعرضت عني وانقبضت مني وكادت أن تنطحني، غاب حسي ولمت في قصدها نفسي، وغشيني من العرق ما خفت منه على نفسي الغرق، ولا شك أن من كره وقع فيما كره وأن رب أكلة هاضت الآكل، وأحرمته مآكل، وإلا فملك كسرى يغني عنه كسرة، وليعتبر المعتبر بأهل الرياضة فإن في ذلك لعبرة، وفي خلال ذلك وأنا في ليل من الندم أسود حالك ألقت إليّ بصيرة كتبها الكاتب، وهو على بصيرة، وهو ثور السيد يحيى بن إبراهيم بن عبد الله شريف، والمذكور ظريف لطيف، خفيف كثير الدعابة قليل الخطأ كثير الإصابة، وعلى هذا الرق المنشور والسجل المسطور، علامة ثور السيد إسماعيل بن إبراهيم بن يحيى[1]، وأحسن به من ثور جمع بين رئاستي الدين والدنيا، ولا حاجة إلى نعْته، فإنه إنسان عين وقته لا يخفى على أحد فضله فإليه يرجع الأمر كله فقلت لها: قولك الحق ودعواك هذا صدق، ﴿قل مَنْ حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾[2]، وهذا الملك القهري، وقد قرّت به عيني وانشرح به صدري، وكان عندي للبقْرة المرحومة من الملح والهشيمة قدر ثلاث مائة قنيمة[3]، ومن المخلط والعصّارة، والدقعة والحمّارة قدر مائتي غرارة، وأما العلاّني والقصب والعصير، فكان عندي منه شيء كثير ثم قلت لها، وهذه الأشياء ما لها قيمة، وأنت إذا أنصفت رشيدة حليمة مع أني قد سلّمت أكثر ذلك لأختك فلانة عملاً بقوله تعالى: ﴿إن الله أمركم أن تؤدوا الأمانة﴾[4] فقالت: قد صحّ عندي وثبت أنك تحبين الغلاظ، وكفى دليلاً أنك أهملت ذكر الحماظ، فقلت: سلي عن ذكر قولي ثور الشيخ عبد الله النصيري فإنه كان جليسي وسميري، وهو مطلع على القليل والكثير، ولا ينبئك

---

(١) ترجم له المؤرخ زبارة في الملحق ص ٥٥، قال: وكان مولده سنة أربع وعشرين وألف وكان حاكماً بحضرة الإمام المتوكل إسماعيل ومات المذكور بقرية حبور سنة سبع وتسعين وألف.

(٢) سورة الأعراف: آية ٣٢.

(٣) القنيمة: الشبكة معروفة.

(٤) سورة النساء: آية ٥٨.

مثـل خبير ثم إني مـوكله ومفـوضـه، فمـا أرى خيـام دعـواك إلاّ مقـوضـة، فقـالت: إنهـا قـد تعلقت بـك التهمـة، ولا بـدّ مـن إعـادة القسمـة، ولا عبـرة بقـول ثـور الشيخ عبـد الله فـإنـه رحمـة، وقـد قـال الله تعـالى: ﴿ثم لا يكون أمركم عليكم غمّة﴾[1]، فوربّ السماء والأرض لا بدّ لعقد تلك القسمة من النقض، ﴿فإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض﴾[2]، فقلت لها ذلك أمر قد قضي بليل، وسـال بها السيل، وقد كلت لك ولغيرك واستوفيت الكيل ولكن لا رحم الله خالك أحزم فهذه شنشنة من أخزم وخرجت من عندها، وقد يبس ريقي وجرت من عيني الدمعة، حين فعلتني في العالم سمعة، وليتها قرّبت لي قليلاً من الدّفْعَة ونويت أن لا أوجه إليها بكلام ولا أزيد أرد عليها ما حييت سلام، ولا أعود إليها ولا أعول عليها.

أعـاتب المـرء فيمـا جـاء واحـدة ثـم السـلام عـليـه لا أعـاتبـه[3]

ولعلها تعلّمت هذه الرخاصة، من بقرة صاحبتها تسمى الغوّاصة، فإنها عقرب لسّاعة لا تفتر من النميمة ساعة ولكني أشهد الله لا توكلت بعدها في كثير ولا قليل، وحسبي الله ونعم الوكيل، وأين هـذه البقرة من بقـرة أخيه عمـاد الدين فـإنها بقـرة صفراء فاقـع لونها تسر الناظرين، سالكة من مكارم الأخلاق في أوضح المسالك، لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك، معظمة مكرمة منعمة، لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة[4]، من بقر بلقيس صاحبة سبأ، إن زرتـها قـالت: أهلاً وسهلاً ومرحباً، وطالما قربت لي هشيمة هنيّة مريّة، وقابلتني بأخلاق رضيّة مرضيّة، وقسمت الحبة بيني وبينها بالسويّة، لا تعاب بشيء إلا بما[5] تلحق بالبقر الوحشيـة، فلا تزال مغلّقة على نفسها، متوحشة من أبناء جنسها والسبب أن خالها ثور السيد

---

(١) سورة يونس: آية ٧١.

(٢) سورة ص: آية ٢٤.

(٣) لعلها من قصيدة ابن زريق.

(٤) هذه آيات من سورة البقرة.

(٥) إنها زيادة من لدينا فإنها كانت ساقطة.

يحيى بن علي، وهو ثور برّتقي، فاضل ولي، فحسَّن لها الوحدة، وبشّرها بالفرج بعد الشدّة، ولما أخبرت هذه البقرة الصالحة، ما جرى بيني وبين تلك البقرة السفيهة، التي هي بالعقرب اللسّاعة شبيهة قالت ربّنا لا تؤاخذنا بما فعله السفهاء منّا اللهم اغفر لنا وارحمنا واعف عنا، وأخبرتني أنها كانت مع بلقيس الوقت، الخلية من المقت، تأكل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وأن قلبها على فراقها لا يكاد يسكن وأن الصبر عليها لا يليق ولا يحسن وأنها كانت كثيرة البركة بحيث أنها لكثرة الدر لا تقدر على الحركة فقلت لله درك ودرّها فلَقَدْ وجب عليّ شكرك وشكرها فاصبري على فراقها فالصبر عبادة، وانتظري الفرج من الله فانتظاره عادة، انتهت، وهي تدل على روح خفيف، وشبح ظريف وكان منشئها جيد النظم ومن شعره قوله يمدح يوسف بن المتوكل حين دعا إلى نفسه فقال:

ثغرك والعقد والعصابة ... في غاية الحسن والغرابة
ميّز لنا ذا النظم من ذا ... فاللؤلؤ الرطب قد تشابه
هذا ولا تنس لي عقوداً ... نظمتها فيك مستطابه
إن ناب هذا مناب هذا ... فإنها تحسن النيابة
فإنّ بين الجميع مِمَّا ... وصفت صحَّتْ ليَ القرابه
إن رفعت راية لحسن ... رفعتها أنت لا غرابه
مارية الحسن غير قدٍّ ... نشرت من فوقه ذؤابه
فادع يبايعك كل قلب ... فدعوة الحسن مستجابه
كما دعى يوسف البرايا ... فما تراخوا عن الإجابة

وتوفي سنة اثنتين ومائة وألف بحبور[١].

عوداً إلى ذكر صاحب الترجمة فمما قال فيه شيخ الإسلام أبياتاً واستطرد فيها آباؤه إلى عامر الشهيد، ومنها هذان البيتان:

---
(١) حبور: بلدة عامرة من ناحية ظلمية من حاشد شمال صنعاء.

إمام البهاليل الأولى سبقوا ... إلى سماء المعالي آمراً بعد آمرِ
علي بن إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن أحمد بن عامرِ

وكانت ولادته بشهارة عام ثلاث وأربعين ومائة وألف وتوفي في شهر رمضان سنة سبع ومائتين وألف ورثاه شيخ الإسلام بقصيدة أولها:

هبْ أنّ بدر الأفق يوماً يأفل ... أو أنه يهوي السماك الأعزلُ

وعلى ذكر الاطراد فيعجبني منه في شعر المتأخرين ما رأيته بخط العلامة الأديب علي بن إبراهيم بن محمد الأمير(1) على ظاهر ديباجة القاموس وهو في حيّز ملكه فقال:

تفضّل ذو الفضل العظيم بمنّة ... على عبده الراجي لكل صلاحِ(2)
علي بن إبراهيم بن محمد الأمير ... بن إسماعيل بن صلاحِ

وهذا السيد علي هو حفيد السيد الإمام محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني وكان فاضلاً أديباً شاعراً واعظاً وحج مراراً وسمع من علماء مكة والمدينة وطار صيته وصيت أخيه يوسف هنالك، وبلغني أنهما شاركا معتادي الجرايات من الصر(3) السلطاني ومن شعره ولعله من جملة أبيات هذا المفرد وهو:

نصب القوام وكسرة الأجفان ... جزما برفع النوم من أعياني

---

(1) ترجم الإمام الشوكاني في البدر (ج ١ ـ ٤٢٠) لعلي بن إبراهيم ولوالده إبراهيم بن محمد ولأخيه يوسف بن إبراهيم وإن مولد علي هذا في سنة إحدى وسبعين ومائة وألف ووفاته سنة تسع عشرة ومائتين وألف.

(2) يقال لهذا النوع في علم البديع الاطراد وهو أن يأتي الشاعر باسم الممدوح أو غيره وأسماء آبائه على ترتيب الولادة ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن يوسف، ومثله شاهد التلخيص معاهد التنصيص.

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم ... بعتيبة بن الحارث بن شهاب

ومنها بيت علي بن إبراهيم بن عامر وبيت علي بن إبراهيم الأمير.

(3) كذا في الأصل ولعله (الصرف) فسقطت الفاء على الناسخ.

وفيه كما ترى توجيه بديع جمع فيه بين علامات الإعراب الأربع ويغتفر خلطه ألقاب البناء بأنواع الإعراب فذلك أمرٌ اصطلاحيّ ولا مشاحة فيه إذ لا حجْر على الافتنان وكانت وفاته تاسع ذي الحجة سنة ١٢١٩هـ تسع عشر ومائتين وألف وانتهى إليّ من نظمه هذه القصيدة الهمزيّة في مدح رسول الله ﷺ وهي:

أرسلت سهم مقلة نعساء ... وثنت جيدها على استحياءِ
غادة غادرت صريع هواها ... في حماها مضرّجاً بالدّماءِ
فتنت نفسها فأنحلت الجفنين ... والخصر سقم أهل الهواءِ
أشرقت ليلة فأشرقها بحسي بريق الصباح قبل العشاءِ
فكأن الفراق لا كان وافا ... ليله سارقٌ لليل اللقاءِ
رامت الشهب أن ترانا فما أمهلها أن تعدّ في الرقباءِ
فشككنا هل ذاك نور محيّاها أم الشمس أشرقت بالضياءِ
فنشرنا ذوائباً تفضح الليل ... وعدنا قسراً إلى الظلماء
وغدونا بالفرع والوجه طوراً ... في صباح وتارةً في مساءِ

قلت: لله در بعضهم فلقد أبدع في هذا المعنى غاية الإبداع، وجاء به متعقباً للمنطقيين في قولهم: «إذا كانت الشمس طالعة فالنهار موجود»(١) فأحسن حيث قال:

ما للمثال الذي ما زال مشتهراً ... للمنطقيين في الشرطيّ تسديد
أما رأوا وجه من أهوى وطرته ... الشمس طالعة والليل موجود

إلى أن قال في القصيدة:

وجلونا شمس المدامة في الكأس ... عقيقاً في درّة بيضاءِ
ومزجنا جرياً لها برضاب ... هي منه في ثملة السكراءِ

---

(١) انظر إيساغوجي في المنطق.

وعيون الزمان مكحولة من | يد إسعادنا بميل العماءِ
في رياض للغصن فيه ارتقاص | كلما قام طيره بالغناءِ
نسجت فوقه يد الريح تاجاً | من سحاب مطرّز بالحياءِ
ضحك البرق فيه وانتحب الرعد وجادت عيونه بالبكاءِ
مثلما أرسلت عيوني عيوناً | مزجتها صبابتي بالدماءِ

ما أجاد ذكر الوصال، ووصف حكاية الحال على تفتح الأزهار، واطراد الأنهار مع ترنّم الأطيار، وتمايل أغصان الأشجار، شاعر مثل الشيخ محمد بن علي بن محمود العاملي(١) حيث يقول:

نسخت سحرَ بابل مقلتاه | فتنبّا في فترة الأجفانِ
في ربوع كأنّهنّ جنان | عطفت حورها على الولدانِ
ورياض كأنهنّ سماءٌ | أطلعت أنجماً من الأقحوانِ
بين ورْق كأنهنّ قيان | ركبت في حلوقهنّ مثاني
وغصون كأنهن نشاوى | يترقصن عن خدود الغواني
وأقاح كأنهنّ ثغور | يتبسّمْنَ في وجوه الجنانِ
ونسيم الصبا تصيح وتعتل | على بردةٍ وحرّ جنانِ
كلما غنّت البلابل فيها | رقّص الدمع بالبكا أجفاني
عطفتني على الرياض قدود | خلعت لينها على الأغصانِ
يتلقاني الأقاح ببشر | وغصون النّقى على خوّانِ
أين قلبي لا أين إلا طلولاً | أذهبتها الرياح منذ زمانِ
أذكرتني معاهداً وربوعاً | كاد يدمى لذكرهنّ بناني
حيث غصني من الشباب نضير | وعيون المها إليّ رواني
أطرد النوم عن جفون نشاوى | لحديث أرق من جثماني
وقواف لو ساعد الجد نيطت | موضع الدرّ من رقاب الغواني

---

(١) لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدي من المراجع. ولعله صاحب الكشكول ويراجع الريحانة والأعلام.

سـائـرات بـيـوتـهـن عـلى الألـسـن سـيـر الأمـثـال فـي الـبـلدانِ
قُـصُـد كـالـفـرَنْـد فـي صـفـحـات الـدهـر أو كـالـشّـنـوف فـي الآذانِ
عـاصـيـات عـلى الـطبـاع ذلـول   يُـتـغـنـى بـهـنّ فـي الـرّكـبـانِ
سـاقـطتْ والـهـوى يـظل عـلـينـا   من عيـون المهـا حصى المـرجـانِ

* * *

﴿رجْع إلى

تمام قصيدة السيد علي الأمير﴾

لا اشتياقاً إلى المغاني ولا وجداً بخشفٍ وغادةٍ حسناءِ
لا ولا رغبة إلى رشف راح في كؤوس صيغت من الأهواءِ
من يديْ شادن أغرّ إذا غنّاك أغنى عن نشوة الصّهباء
إنما بغيتي وغاية قصدي ومرادي ومطلبي ومنائي
خمسة حبّهم على الناس فرض فهو ديني حقاً وعقد ولائي
أحمد أحمد الخلائق محمود السجايا والوصف والأسماءِ
نور مشكاة الحق عين معين العلم بدر الكمال قطب الصفاءِ
النبيّ المختار أفضل مبعوث كريم الآباءوالأبناءِ
ما عسى أن أقول في مدح طه والمثاني أتت له بالثناءِ
فقصارى مدحي يقصر عمن مدحه في كلام رب السماءِ
وكذا صنوه عليّ إمام الحقّ سلطان الفضل ربّ الوفاءِ

إلى أن قال:

واتل ذكر البتول فاطمة الزهراء وأم السبطين خير النساءِ
من نمت أنجم الضياء من الآل الأولى هم خلاصة الأصفياءِ
أم سبط الرسول من ترك الدنيا جميعاً وحاز كل عُلاءِ
والذي فاز بالشهادة لما سمّه أسرةُ الهوى والشقاءِ
وإذا ما نسيت كر بلاء لم أنسًا ما كان في كربلاءِ

من مصاب أجرى عيون الليالي وكسى الكون حلّة الظلماءِ
غير أني علمت أنهم اختاروا بدار الفناء دار البقاءِ

وفيها بقية يسيرة وها هنا انتهت ترجمة السيد علي بن عامر وما دعت إليه من المستطردات.

أبو محمد أحمد بن محمد بن أحمد بن مطهر الحرازي الفقيه القاضي الذماري الولادة والنشأة، الصنعاني الدار والوفاة، هو من فقهاء الزيدية وفرسان مذهب الهدوية، أخذ في الأزهار، وشرحه بمدينة ذمار على عبد القادر بن حسين الشويطر[1] الفرضي الفقيه، وعلي بن حسين بن يحيى بن إبراهيم الديلمي[2] وسيأتي له ذكر في تلاميذ شيخ الإسلام، ولما بلغ النهاية في معرفة الفروع الفقهية رحل عن ذمار إلى صنعاء ولما وصل إليها تصدى لتدريس الفقه والفرائض بها وحينئذ قرأ عليه شيخ الإسلام في كلا الفنّين قراءة بلغ منها في التحقيق إلى ما وراء التدقيق ثم أخذ الحرازي على جملته في التدريس وتحصيل الخط النفيس إلى أن ظهرت حشمته، ووفرت حرمته وصار من أعيان الصدور معظماً عند وزراء الإمام المنصور لا سيما الوزير أحمد بن إسماعيل الفائعي الشريف الصنعاني فإنه أشال بضيعه ونوّه بذكره وأناط به الأعمال، حتى تعلقت به الآمال ورجع إليه رتوت[3] الدولة، وكبراء أعيانها، ووجوه أعوانها، وأنيطت به أيضاً محصولات إقطاع بعض الأشراف من آل الإمام القاسم بن محمد المنصور. وأما ولادة الحرازي فعام ثمان وخمسين ومائة وألف وتوفي سنة سبع وعشرين ومائتين وألف.

---

(١) عبد القادر بن حسين الشويطر هو الحارثي من بني الحارث المذحجيين سادة نجران لهم بقية في مدينة إب وقد ترجمنا لبعضهم في كتابنا «المشائخ والأقران» وسقنا نسبهم هنالك وهذا ترجم له في مطالع الأقمار وزبارة في الملحق وقال: كانت وفاته سنة سبع وتسعين ومائة وألف.

(٢) لم يذكر أحد علي بن الحسين الديلمي.

(٣) رتوت: بضم الراء والتاء المثناة من فوق ثم واو وتاء مثناة من فوق: جمع رت وهو الرئيس وقد سبق تفسيره.

وحراز: بالحاء والراء المهملتين بعدهما ألف فزاي[1] معجمة وهي ولاية عريضة من مغارب صنعاء وإليها نسبة صاحب الترجمة.

حسن بن إسماعيل المغربي[2] كان عالماً متبحراً مجتهداً وهو حفيد صاحب «البدر التمام، شرح بلوغ المرام»[3] قرأ عليه شيخ الإسلام في الكشاف وحاشية الشريف والسعد والسراج والمطول وحواشيه وشرح العضد على مختصر المنتهى وحواشيه أيضاً، وتنقيح الأنظار في علوم الحديث، والرسالة الشمسية في المنطق وما عليها من شرح القطب، وحاشية الشريف، وأسْمَع عليه سنن أبي داود من فاتحتها إلى خاتمتها وقطعة من شرح النووي على مسلم ومختصر المنذري على سنن أبي داود، وشرح ابن رسلان عليها، وشرح الخطابي أيضاً وشرح بلوغ المرام.»

وحكى لي والدي غفر الله له أنه قرأ على الفقيه العالم أحمد بن صالح بن أبي الرجال[4] في البحر الزخار مع حضور صاحب الترجمة وتلامذة محققين

---

(١) قد تقدم لحراز ذكر، ترجم للحرازي شيخ الإسلام الشوكاني (ج ١ ـ ٩٦) وقال القابلي: نسبة إلى جماعة يسكنون بالقرب من حصن شبام حراز ثم أثنى عليه ثناء عاطراً وقال: وقد لازمته في الفروع نحو ثلاث عشرة سنة.

(٢) ترجم له الشوكاني (ج ١ ـ ١٩٥) وقال: والمغربي نسبة إلى مغارب صنعاء ثم أشاد في معارفه وتواضعه وأخلاقه السّامية التي تلحق بأخلاق النبوة وإن مولده سنة ١١٤٠ ووفاته كما هنا.

(٣) البدر التمام شرح بلوغ المرام لا يزال مخطوطاً وليس لليمنيين اهتمام بتراث آبائهم وأجدادهم وهو الذي اختصره الحافظ الإمام محمد بن إسماعيل الأمير وسمى المختصر «سبل السلام» وقد طبع عدة طبعات وصار له رواج في المحافل العلمية، واسم مؤلف البدر التمام الحسين بن محمد بن سعيد اللاعي المغربي، ولاعة من مغارب صنعاء ومولده كما قال الشوكاني سنة ١١١٩ (ج ١ ـ ٢٣٠) البدر الطالع، ولآل المغربي هذا ذرية صالحة اشتهر في أول عصرنا خاتمة المحققين علي بن الحسين المغربي المتوفى سنة ١٣٣٧ سبع وثلاثين وثلاثمائة وألف، وقد ترجمنا له في «المشائخ والأقران».

(٤) ترجم له الإمام الشوكاني (ج ١ ـ ٦١) ويأتي له ذكر.

ورآهما وكان المغربي واسطة عقدهم يرجع إليه شيخه في حلّ ما أشكل، وكشف ما أعضل لكبر معرفته وغزارة علمه ولم أقف على شيء من أحواله غير ما ذكرت، وتوفي عام ثمان ومائتين وألف عن نحو ستين سنة.

السيد إسماعيل بن حسن بن أحمد بن الحسن بن المنصور بالله القاسم بن محمد[1]، هو من مشائخ العربية ومحققي دقائقها وكاشفي أسرار غوامضها وقرأ عليه شيخ الإسلام في شرح الملحة فصدّره للإقراء فيها قبل أن يكمل تقرير شرحها عليه لما توسمه فيه من مخائل النجابة والفهم لمقاصدها على الإصابة. وكان هذا السيد الجليل يلازم مجلس السيد جمال الدين علي بن يوسف بن المتوكل على الله القاسم بن الحسين[2] رضي الله عنه ليلاً، وكان لوالدي أيام مُهاجرته بصنعاء كمال الاتصال فذكر لي أنه كان صاحب الترجمة يقيم للمحادثة والمسامرة إلى أن ينقضي شطر الليل ثم ينهض كل من انتظمه ذلك المقام إلى منزله للنّوم إلا السيد المذكور فإنه يذهب إلى الجامع للتهجد وانتظار صلاة الصبح ويأخذ على هذا الرسم في جميع لياليه، وكان قد ولّي ذمار وأعمالها نيابة عن صارم الإسلام إبراهيم بن المنصور بن الحسين في سنة خمس وستين وماية وألف وكانت إذ ذاك مفوضة إليه ولايتها من لدن أخيه المهدي العباس رحمه الله.

وذكر لي والدي أنه كان وصّافاً حسن المحاضرة وكثيراً ما ينشد:

دخل الدنيا أناس قبلنا وَخَلوا عنها وخلّوها لنا
ونزلناها كما قد نزلوا ونخليها لقوم بعدنا

وقال لي والدي غفر الله له: إنه سأله عن قائلها فقال ابن العميد[1] قلت:

---

(١) ترجم له الإمام الشوكاني (ج ١ ـ ١٤٥) مولده سنة عشرين ومائة وألف ووفاته سنة ست ومائتين وألف وهو من شيوخ الشوكاني.

(٢) ابن العميد: اسمه أبو المفضل محمد بن العميد الكاتب المشهور، قال الثعالبي في اليتيمة: بدأت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد، ولما دخل الصاحب بن عباد بغداد سأله ابن العميد كيف وجدتها فقال: بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد، وكانت وفاته سنة ستين وثلاثمائة.

الذي ذكره شمس الأدباء أحمد بن خلكان رحمه الله أنه كان أبو الفتح علي بن أبي الفضل بن محمد بن الحسين المعروف بابن العميد قد لهج قبل أن يقتل بمدة بإنشاد هذين البيتين هكذا قال، ولم ينسبهما إليه، وأفاد حافظ مؤرخي اليمن يوسف بن يحيى في نسمته أنهما لعدي بن زيد[1].

وأبو الفتح المذكور كان وزيراً لركن الدولة الحسن بن بويه[2] ولم يزل في وزارته حتى توفي (وقام مقام ركن الدولة ابنه مؤيد الدولة بويه[3]) واستوزره على إثر أبيه ثم أوقع به بإغراء الصاحب إسماعيل بن عباد[4] وأمر بتعذيبه حتى قتل تحت العذاب سنة ست وستين وثلاثمائة وكان ذكياً غزير الأدب تيّاهاً وتلقب ذو الكفايتين.

وأما والده أبو الفضل فهو الكاتب المشهور وكان في الترسل والإنشاء يضرب به المثل ويقال: إنه الجاحظ[5] الثاني ومات وزيراً لركن الدولة سنة ستين وثلاثمائة فوزر له بعده إبنه كما ذكرت سابقاً.

---

(١) عدي بن زيد هو العبادي من شعراء الحيرة بالعراق الجاهليين وديوان شعره مطبوع وله أربع أربع قصائد غرر إحداهن:

أرَواح مودع أم بكور لك فاعمِدْ لأي حالٍ تصير

وفيها يقول:

أيها الشامت المعيِّر بالدهر أأنت المبرّأ الموفور

انظر: طبقات ابن قتيبة (ج ١ ــ ٢٢٥).

(٢) ركن الدولة هو أبو علي الحسن بن بويه بن فناخسر الديلمي ترجمه ابن خلكان (ج ١ ــ ٣٩٨) مولده سنة ٢٨٤، ووفاته سنة ٣٦٦هـ.

(٣) ما بين القوسين غير سديد وصواب العبارة (وقام مقام أبي الفتح ابنه مؤيد الدولة في وزارة ركن الدولة بن بويه كما يفيده ابن خلكان في ذيل ترجمة ابن العميد (ج٤ ــ ١٩٥).

(٤) إسماعيل بن عباد المعروف بالصاحب بن عباد الأديب الوزير. قال الثعالبي في اليتيمة: في حقه ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله في العلم والأدب وجلالة شأنه في الجود والكرم، وأطرى وأطرب وكذا ابن خلكان (ج ١ ــ ٢٠٦) ومولده سنة ٣٢٦ ووفاته سنة ٣٨٥هـ.

(٥) الجاحظ تلقب بذلك لأنه جاحظ العينين أي ناتئتين أي بارزتين واسمه عمرو بن بحر بن محبوب الكناني البصري، الكاتب الخطير والمنشىء المبدع الذي ملأ دار الحكمة من

وأما مخدومهما ركن الدولة فهو الحسن بن بويه الديلمي وهو وأخوه معز الدولة أحمد وعمادها علي أصحاب ممالك فارس والأهواز والعراقين[1] وما برحوا في عز سلطانهم من عام اثنتين وعشرين وثلاثمائة في خلافة الراضي أبي العباس محمد بن المقتدر إلى أيام القائم أبي جعفر عبد الله بن القادر[2]، يخلعون من العباسية من يريدون وينصبون من يريدون وتلاهم في وراثة ممالكهم أبو منصور بختيار بن معز الدولة الملقب عز الدولة[3] ثم أولاد ركن الدولة من بعده بطناً فبطن على حكم ما مضى عليه أسلافهم، إلى أن طويت صحائف أيَّامِهِمْ بسلطان ركن الدين أبي طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق عام خمسين وأربعمائة[4].

وهكذا الدنيا دول بين أهلها وعارية بأيديهم فقد عارض إذ ذاك بني بويه بنو سامان[5] ثم سبكتكين وابنه محمود الملقب يمين الدولة[6] وأولاهما فروعاً

= بدائع تآليفه المشهورة التي من أشهرها البيان والتبيين الذي قال فيه ابن خلدون: «سمعنا أشياخنا في مجالس التعليم أن فنون الأدب وأركانه أربعة دواوين وهي: «كتاب الكامل للمبرد وأدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي»، وما عدا هذه الأربعة فتبع لها وفروع منها، وله كتاب الحيوان من أعجب الكتب وله غير ذلك، أكثرها مطبوعة. ترجمه ابن خلكان (ج ٣ ــ ١٤٠) وكانت وفاته سنة خمس وخمسين ومائتين وقد نيف على التسعين.

(١) انظر هذه البلاد في معجم ياقوت الحموي.

(٢) انظر تراجم هؤلاء الخلفاء «تاريخ الخلفاء» للإمام السيوطي فإنه كتاب مختصر مفيد.

(٣) بختيار: لم يترجم له ابن خلكان. وقال في الأعلام مولده سنة ٣٣٢هـ وقتل في معركة مع عمه عضد الدولة سنة ٣٦٧هـ ويصف بختيار أبو منصور عز الدولة بن معز الدولة أحمد. . .

(٤) ركن الدولة محمد بن ميكائيل السلجوقي أول ملوك السلجوقية ترجمه ابن خلكان (ج ٤ ــ ١٥٥) وأثنى عليه وذكر كيف كان ابتداء الدولة السلجوقية وكانت وفاته سنة خمس وخمسين وأربعمائة.

(٥) بنو سامان ملوك ما وراء النهر وكانوا ملوكاً صلحاء احتف بسرادقهم العلماء والأدباء وهي أول دولة إسلامية انفصلت عن الخلافة العباسية. انظر: ابن خلكان وابن الأثير وغيرهما.

(٦) هؤلاء سبكتكين وابنه محمود وابنه مسعود ومحمد هم الذين يلقبون بالدولة الغزنوية لأن عاصمتهم كانت غزنة من أفغانستان ثم كابول، ومحمود بن سبكتكين فاتح الهند ولهم تاريخ. انظر: ابن خلكان وابن الأثير وتواريخهم.

وحفدة في خراسان ثم بنو حمدان[١] وبنو المقلد العقيلي في الموصل والمدائن وبلاد الشام ثم الإخشيدية وكافور في مصر ودمشق ثم العبيديون في القيروان وامتد ظل رايتهم إلى مصر بالقائد جوهر[٢] مع مشاركة بني زيري الحميري الصنهاجي لهم في أفريقية وما داناها من المغرب.

وأما المغرب الأقصى فكان يومئذ في حوزة يوسف بن تاشفين وأولاده من بعده، وضم إلى مملكته ممالك ملوك الطوائف من بلاد الأندلس ثم صارت[٣] نفس مملكة المغرب الأقصى والأدنى إلى ولدي عبد المؤمن الكومي وانتقلت نوبة العبيديين إلى مصر وما والاها إلى السلطان العادل صلاح الدين بن أيوب ثم لبث آل عبد المؤمن في المغرب إلى أن انقرضت أيامهم ببني مرين، وعلي بن إسحاق الميروقي وبني هود وبني الأحمر حتى تملك النصارى من المغرب بلاد الأندلس فالحكم لله العلي الكبير.

ثم درست آثار العباسيين من المشرق بهولاكو فرموا برجومه المارجة، وشياطين التتار الخارجة، بما هو مرقوم على صفحات الدهور ومتعاقبات العصور، ولم تستقر في المشرق بيوتات الممالك، صفواً من دون مشارك، إلى أن جاشت في آخر القرن الثامن وأوائل التاسع من وراء النهر جيوش تيمورلنك.

ثم خلف بني أيوب مواليهم الجراكسة، وبقيت دولتهم ما شاء الله ثم امتد سلطان بني عثمان على ما كان ملكوه إلى يومنا هذا فللملوك[٤] بمن قبلهم أسوة وعبرة:

---

(١) بنو حمدان ملوك الموصل وحلب الذي اشتهر منهم سيف الدولة ممدوح المتنبي وبنو مقلد العقيلي مذكورون في ابن خلكان وابن الأثير والإخشيدية هم الذين جاءوا بعد أحمد بن طولون وكذلك كافور مولى الإخشيدية.

(٢) انظر تاريخ العبيديين خطط المقريزي وقد ترجم لهم ابن خلكان الذين منهم في القيروان والذين في مصر إلى أن انقرضوا بدولة صلاح الدين الأيوبي.

(٣) انظر تواريخ هذه الأسر ما ذكرناه وتواريخ المغرب والأندلس.

(٤) ثم انقرضت الدولة العثمانية بعد أن حكمت ستمائة عام وكان انقضاؤها وانقطاعها عن دول وممالك الإسلام في الحرب العظمى الأولى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة وألف من هجرة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والتسليم الموافق ميلادية ١٩١٩، أو ١٩١٨م.

هي السبيل فمن يوم إلى يوم　　كأنه ما تريك العين في النوم
لا تخدعن رويداً إنها دول　　دنيا تنقل من قوم إلى قوم

فلا ملك ولا سلطان إلا مَنْ بيده تدبير العالم فسبحان مَنْ لا ينازع في ملكه ولا يشارك في عزه.

نعم قد مرَّ ذكر والدي طاب ثراه من هذا المجموع في مواضع فلنستطرد هنا ترجمته هو حسن بن علي بن أحمد بن ناصر بن عبد الله بن علي بن أحمد بن إسماعيل الشجني، كان عالماً أديباً صافي الفكرة ذا عبارة جزلة يفهم مقاصد الفنون بمجرد مراجعة الأذكياء فيها، وكانت ولادته خامس شهر الحجة من عام ثلاث وخمسين ومائة وألف، ولما أكمل القرآن وناهز حدقة البلوغ حفظ متن الأزهار ثم قرأ شرحه على والده شيخ شيوخ الفقه ومرجع أسانيده، وسادن مقاليده من فاتحته إلى خاتمته مراراً وحضر عليه في بيان ابن مظفر[1] في مجالس إقرائه ليلاً، وارتحل إلى صنعاء في سنة سبع وثمانين ومائة وألف، وتصدر لإقراء الأزهار بها في مسجد نصير[2] وقرأ في البحر على أحمد بن صالح بن أبي الرجال، وكان يحفظ أكثر شعر المتنبي والمعري[3]، وله شعر منه ما رأيته بخطه وقد وقف على بيتي الصاحب بن عباد السائرين في الوصيّ كرّم الله وجهه، حيث قال:

---

(١) ابن مظفر هو محمد بن أحمد بن مظفر ترجمه الإمام الشوكاني (ج ٢ ــ ١٢٤) نقلاً عن مطلع البدور ومجمع البحور لابن أبي الرجال ولم يذكر ولادته ولا وفاته وهو صاحب البيان في الفقه الزيدي وقد طبع وله الترجمان كشرح البسامة. وفي الهامش أن وفاته تقريباً سنة خمس وعشرين وتسعماية وكان في أيام الخليفة عامر بن عبد الوهاب الطاهري وجرت قضايا من جنود عامر.

(٢) مسجد نصير بالتصغير لا زال عامراً بالعبادة وهو أعلا مدينة صنعاء القديمة وقرب باب السلام الحديث.

(٣) المعري اسمه أحمد بن عبد الله التنوخي القضاعي الشاعر والفيلسوف والمعري نسبة إلى المعرة قريب حمص وقبره مشهور وديوان شعره مطبوع ومؤلفاته أيضاً مطبوعة. وفاته سنة ٤٤٩هـ. ابن خلكان (ج ١ ــ ٩٤).

لا عـذّب الله أمـي أنـهـا شـربـت حبَّ الـوصيِّ وأسـقـتـنـيـه فـي اللبـنِ
وأن لـي والـد يـهـوى أبـا حـسـنٍ وأنـنـي مـثـلـه أهـوى أبـا الـحـسـنِ

فقال أبـي رحمه الله :

وإنـنـي بـضـعـة مـن آدم طـبـعـت بـحـب حـيـدرة مـن قـادم الـزمـنِ
وحبّ فـاطـمـة الـزهـرا ونجلهـمـا أبـي علـيٍّ شـهـيـد الـطف والحسنِ

وكنى الحسين السبط بابنه السجاد ضرورة وإلا فهو يكنى بأبي عبد الله، وقدّم ذكره على الحسن وهو الأصغر.

قال أبو العباس المبرّد في الكامل، والعرب تفعل ذلك وتبدأ بالشيء والمقدم غيره قال الله عزّ وعلا: ﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾[1]، وقال: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾[2]، وقال: ﴿يا معشر الجنّ والإنس﴾، وقال حسان بن ثابت:

بـهـالـيـل مـنـهـم جـعـفـر وابـن أمّـه عـلـيّ ومـنـهـم أحـمـد الـمـتـخـيَّـر

وقال الصلتان العبدي من قصيدة له[3]:

فـمـلّـتـنـا أنـنـا مـسـلـمـون عـلـى ديـن صـدّيـقـنـا والـنـبـي

وهذا البيت من كلمة له مشهورة ومنها:

أرى أمـة شـهـرت سـيـفـهـا وقـد زيـد في سـوطـهـا الأصبحي
بـنـجـديّـة وحـروريّـة وأزرق يـدعـو إلـى أزرقـي

(١) سورة آل عمران: آية ٤٢، وسورة التغابن: آية ٢.
(٢) سورة الرحمن: آية ٣٣.
(٣) الصلتان: بالتحريك: ومعناه النشيط الحديد الفؤاد واسمه قثم بن عمرو من بني عبد القيس ثم من ربيعة وهو شاعر إسلامي من شعراء الحماسة وهذه القصيدة يوصي بها ابنه، وهي طويلة. انظر: ديوان الحماسة (ج ٢ ـ ٨) والمرزباني، ص ٤٩، ومعاهد التنصيص، وقوله: وقد زيد في سوطها الأصبحي نسبت السياط إلى القيل عمرو ذي أصبح الحميري فهو أول من اتخذ السياط. انظر الإكليل (ج ٢ ـ ص ١٤٤).

فملتنا أننا مسلمون البيت وأستحسن منها قوله :

أشاب الصغير وأفنى الكبير | مرور الغداة وكر العشيّ
نروح ونغدو لحاجاتنا | وحاجات من عاش لا تنقضي
تموت مع المرء حاجاته | وتبقى له حاجة ما بقي

وهذا البيت كقول الآخر:

إذا المرء أسرى ليلة ظن أنه | قضى عملاً والمرء ما عاش عاملُ

وشعر الصلتان عني به الخوارج وذكر من فرقهم النجدية والحرورية والأزارقة فالنجدية نسبة إلى نجدة بن عويم الحنفي وكان ذا مقالة من مقالة الخوارج، والحرورية نسبة إلى حرورا بحذف الزوائد وإلا فقياسه حروراوي وأما الأزرقي فيراد به من كان من أصحاب نافع بن الأزرق الحنفي[1] وهو صاحب المسائل مع ابن عباس[2] رضي الله عنه وكان مقدماً في فقه الخوارج وكان يسأل ابن عباس ويطلب منه الاحتجاج باللغة، ويروى أنه سأله في بعض الأيام حتى أملّه فجعل ابن عباس يظهر الضجر فطلع في خلال ذلك على ابن عباس عمر بن أبي ربيعة[3] وهو يومئذ غلام فسلم وجلس فقال له ابن عباس: ألا تنشدنا من شعرك؟ فأنشده قصيدته المشهورة وهي :

أَمِنْ آل نُعْمٍ أنت غادٍ فمبكر | غداة غدٍ أم رائح فمهجّرُ
لحاجة نفس لم تقل في جوابها | فتبلغ عذراً والمقاله تعذرُ

---

(١) انظر على هذه الفرق الخوارج كامل المبردوكتاب الملل والنحل.

(٢) انظر الإتقان للسيوطي رحمه الله.

(٣) عمر بن أبي ربيعة هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي القرشي. قال ابن خلكان (ج ٣ ـ ١١١): لم يكن في قريش أشعر منه وهو كثير الغزل والنوادر والوقائع والمجون والخلاعة وله في ذلك حكايات مشهورة، ومات سنة ثلاث وتسعين وعمره ثمانون سنة، وكان يتغزل بالثريّا بنت علي بن عبد الله بن عبد الله وكانت موصوفة بالجمال، وكتب الأدب مملوءة بأخباره وديوانه مطبوع. وانظر كامل المبرد (ج ٢ ـ ١٦٧).

تهيم إلى نعم فلا الشمل جامع ولا الحبل موصول ولا القلب مقصرُ
ولا قرب نعم إن دنت لك نافع ولا نأيها يسلي ولا أنت تصبرُ
وأخرى أتت من دون نعم ومثلها نهى ذو النهى لو ترعوي أو تفكرُ
إذا زرت نعماً لم يزل ذو قرابة لها كلما لاقيته يتنمرُ
عزيز عليه أن أمرَّ ببابها يسرّ لي الشحناء والبغض يظهرُ
ألكني إليها بالسلام فإنه يشهر إلمامي بها وينكرُ
بآية إذ قالت غداة لقيتها بمدفع أكنان أهذا المشهَّرُ
قفي فانظري يا أسم هل تعرفينه أهذا المغيري الذي كان يذكرُ
أهذا الذي أطريت نعتاً فلم أكن وعيشك أنساه إلى يوم أقبرُ
فقالت نعم لا شكّ غيّر لونه سرى الليل يحيي نصه والتهجّرُ
لئن كان إياه لقد حال بُعدنا على العهد والإنسان قد يتغيّرُ
رأت رجلاً أما إذا الشمس أعرضت فيضحى وإما بالعشي فيخصرُ

حتى أتمّها وهي ثمانون بيتاً، فقال له ابن الأزرق: لله أنت يا ابن عباس أنضرب إليك أكباد الإبل نسألك عن الدين فتعرض ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفهاً فتسمعه، فقال: تالله ما سمعت سفهاً ثم طال بينهما النزاع حتى أنشده ابن عباس قصيدة ابن أبي ربيعة جميعها ولم يكن سمعها إلا مرة واحدة، فقال له ابن الأزرق: ما رأيت أروى منك، فقال له ابن عباس: ما رأيت أروى من عمر ولا أعلم من عليّ.

وقصيدة ابن أبي ربيعة هذه أجاد موازنتها جمال الدين بن نباتة(1) بقصيدة

---

(1) جمال الدين بن نباتة أحد أسماء ثلاثة يقال لهم نباتة أولهم الشاعر المشهور ابن نباتة السعدي أحد شعراء سيف الدولة بن حمدان، وثانيهما الخطيب المشهور ابن نباتة خطيب سيف الدولة المذكور وكان آية في الفصاحة وديوان خطبه مطبوع واسمه محمد بن محمد بن نباتة المصري الشاعر المشهور المبدع. ترجمه الإمام الشوكاني (ج ٢ ـ ٢٥٢) وأطال الثناء عليه وولد سنة ست وثمانين وستمائة ووفاته سنة ثمان وستين وسبعمائة من الهجرة وله مؤلفات غير ديوانه.

نبويّة أولها:

صحى القلب لولا نسمة تتخطر — ولمعة برق بالغضا تتسعّرُ
وذكر جبين المالكية إن بدا — هلال الدجى والشيء بالشيء يذكرُ
سقى الله أكناف الغضا سبل الحيا — وإن كنت أسقى أدمعاً تتحدرُ
وعيشاً نضا عنه الزمان ثيابه — وخلّفه في الرأس يزهو ويزهرُ
تغيّر ذاك العيش مع من أحبه — ومن ذا الذي يا عزّ لا يتغيرُ
وكان الضيا ليلاً وكنت كحالم — فواأسفي والشيب كالصبح يسفرُ
يعللني تحت العمامَة كتمه — فيعتاد قلبي حسرة حين أحسرُ
وتنكرني ليلى وما خلت أنّه — إذا وضع المرء العمامة ينكرُ
وغيداء إما جفنها فمؤنّث — كليل وأما لحظها فمذكّرُ
يروقك جمع الحسن في لحظاتها — على أنه بالجفن جمع مكسّرُ
يشفّ وراء المشرفية خدّها — كما شفّ من خلف الزجاجة مسكرُ
خليليّ كم روض نزلت فناءه — وفيه ربيع للنزيل وجعفرُ
وفارقته والطير صافرة به — وكم مثلها فارقتها وهي تصفرُ
إلى أعين بالماء نضّاخة الصفا — إذا سدّ منها منخرٌ جاش منخرُ
إذا جرّدت من بردها فهي عبلة — وإن جرّدت ألحاظها فهي عنترُ

وهذا البيت فيه من مراعاة النظير، ما ليس له في الإبداع نظير[(١)] لأن عنترة[(٢)] كان متيماً بعبلة وأما تضمينه المثل السائر في ألسنة الناس في قولهم «الشيء بالشيء يذكر» فأحسن فيه غاية الإحسان، وقد استعمله حسين الوادي[(٣)] فقال:

ألا إن عدل القدّ أكبر شاهد — عليك بجور الحكم والله أكبرُ
ورقة هذا الجسم منك بأنني — رقيق هوى والشيء بالشيء يذكرُ

---

(١) مراعاة النظير نوع من أنواع علم البديع. انظر: التلخيص وشواهد التنصيص.

(٢) عنترة العبسي شاعر مشهور أحد فرسان المعلقات وما يجهله إلا جاهل بالشعر والأدب.

(٣) حسين الوادي.

وهذان البيتان من قصيدة للوادي طنّانة، وأولها:

نسيم الصَّبا في سوحنا يتبختر	لك الله ما هذا الأريج المعنبرُ
أأنت رسول يا نسيم الصبا عن	حلول الحمى أم أنت عنهم مبشرُ
فهمت الذي أودعتَه غير أنني	أحبُّ حديثاً منهم يتكررُ
لما ألفتْه النفس منهم وعُوِّدت	وإلا فعلم الغيب لا يتقدرُ
فكرر على سمعي أحاديث ذكرهم	عسى تنطفي نار بقلبي تسعَّرُ
هم استصحبوك السرَّ بيني وبينهم	لأنك أبدا بالجميل وأبدرُ
ومثلي هداك الله يا ساري الصبا	بسرِّك والمعروف أحرى وأجدرُ
وأبلج أمّا الخدّ منه فأحمر	وأما قوام القدّ منه فأسمرُ
وأما ثنايا ثغره حين تجتلي	فكأس جمان فيه خمر وكوثرُ
يغازل عن عيني مهاةٍ وشادن	يلاحظنا منها سهام وأبترُ
هي البيض إلا أنها حندسيّة	هي النبل إلا أنها تتكسرُ
هي السحر إلا أن فيها خصائصاً	بها عالم السحر الصناعي يسحرُ
وفي خدّه خال يقولون إنه	بلال له في جامع الحسن منبرُ
يلي ذلك الخال الصريح إشارة	عديمة مثلٍ لا بلال وعنبرُ
شكوت له من فترة في جفونه	لشدة ما ألقى بها حين تفترُ
وما أنا فيه من هوى وصبابة	تبيت بها الأسواق تطوي وتنشرُ
فأفصح عن لفظ توهمت أنه	جمان من الثغر الجماني يبهرُ
وقال نعم هذا لعيني مذهب	وفتنة نفس المرء شيء مقدرُ
بروحي أفدي جائر اللحظ قدّه	تحقق فينا عدله حين يخطرُ
ألا إن عدل القدّ أكبر شاهد	عليك بجور الحكم والله أكبرُ
ورقّة هذا الجسم منك بأنني	رقيق هوى والشيء بالشيء يذكرُ
فللّه أزمان تواصل يومها	بليلتها والعمر كالعيش أخضرُ
وليل عهدناه وإن كان أسوداً	كعصر الصبا يشكو سواداً فيشكرُ
وأحباب قلب ليس إلا هم المنى	صفاء ودادي فيهم لا يكدرُ

دلائـل عشقي في هـواهم صـريحـة ... ومـعـرفتـي في حبهـم ليس تـنكـرُ
ربحت هـواهـم في زمـان شبيبتي ... وشبـت فـلن أرضـى بـأنـي أخسـرُ
فـلا تنكـروا إن أرسـل الجفن دمعـه ... وقـد جـاء في رأسي من الشيب منـذرُ
ويعقـوب أحـزاني ويـوسف فـتنتي ... وصـالـح أعـمـالي عـسـاني أؤجـرُ
خليليّ عهـد الله إن جـزتمـا الحمى ... وعـاينتمـا قـلبي ببيـداه يـجـأرُ
فـدلاّ عـليـه جيـرة الـحيّ واذكـرا ... لـه من حـديث الصب مـا يتيسّـرُ

انتهت وهذه الستة الأبيات المتأخرة منها أعـلام رواسـخ بل قصـور شوامـخ، وأمـا قصيدة الجمـال ابن نباتـة فحـوت من ضـروب الحسن والإحسـان مـا لا يحيط بوصفها قلم ولا لسان واقتصرت على إيراد بعضها لكثـرة وجودهـا عند أهـل الأدب، وهكذا كان ابن نباتة رحمه الله في إجادة التضمين بحيث يربو على الأصـل وشـاهـد هذا تضمينه في شعره قول تأبّط شرّاً(١):

إذا سـدّ منهـا منخـرٌ جـاش منخَـرُ

وقـولـه:

وكم مثلهـا فـارقتهـا وهي تـصفـر

وهذان العجزان من أبيات ثابت بن جابر بن سفيان المعروف بتأبط شراً وهي:

إذا المـرء لم يحتـل وقـد جـدّ جـدُّه ... أضـاع وقـاسى أمـره وهـو مـدبـرُ
ولكن أخـو الحـزم الـذي ليس نـازلاً ... بـه الخـطب إلا وهـو للقصـد مبصـرُ
فـذاك قـريـع الـدهـر مـا عـاش حـوّل ... إذا سـدّ منـه منخـر جـاش منخـرُ
أقـول للحيـان وقـد صـفـرت لهـم ... وطـابـي ويـومي ضيق الحجـر مُعـورُ
وبـيني وبيـن القـوم لـلطيـر مخـفـق ... بـعيـد وأخـطاني لهـم ثـم أحـجـرُ
هـمـا خـطّتـا إمـا إسـار ومـنّـة ... وإمـا دم والـقـتـل بـالـحـرّ أجـدرُ
وأخـرى أصـادي النفس عنهـا وإنهـا ... لـمـورد حـزم إن فـعـلت ومـصـدرُ

---

(١) تأبط شراً: شاعر جاهلي من شعراء الحماسة ولعل قد سبق ذكره.

فرشت لها صدري فزلّ عن الصفا | به جؤجؤ نهد ومتن مخصّرُ
فخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا | به كدحة والموت خِزْيان ينظرُ
فأبت إلى فهم ولم أكُ آبياً | وكم مثلها فارقتها وهي تصفرُ

ويعني بفهم قبيلة وأما لحيان فبطن من هذيل(١) وكان تأبط شرّاً يشتار العسل من جبل ليس له طريق فأخذت عليه لحيان ذلك الجبل يريدون قتله وخيروه بين النزول على حكمهم أو إلقاء نفسه من الموضع الذي ظنوا أنه لا يسلم منه فصبَّ العسل الذي كان معه على الصفا وألقى نفسه وجعل يكلمهم وزعموا أنه كان بينهم وبين الموضع الذي استقرّ به على الطريق الذي يستدار عليه مسيرة ثلاثة أيام ولذلك قال: «فرشت لها صدري» البيت إلخ.

ويعجبني في هذا الروي وهذه القافية ما نسبه أبو تمام في أخريات النسيب من الحماسة إلى خليفة الحارثي(٢)، وهو:

سلبت عظامي لحمها فتركتها | مجرّدة تضحى إليك وتخصرُ
وأخليتها من مُخِّها فكأنها | أنابيبُ في أجوافها الريح تصفرُ
إذا سمعت باسم الفراق تقعقعت | مفاصلها من هول ما تتنظرُ
خذي بيدي ثم اكشفي الثوب فانظري | بي الضرّ إلا أنني أتستّرُ
وليس الذي يجري من العين ماؤها | ولكنها روحي تذوب فتقطرُ
فما حيلتي إن لم تكن لك رحمة | عليّ ولا لي عنك صبرٌ فأصبرُ
فوالله ما قصّرت فيما أظنّه | رضاك ولكني محبّ مكفرُ

رجعنا إلى تتميم ترجمة الشجني المستطرد الذكر رأيت بخطه وقد وقف على

---

(١) فهم ولحيان وهذيل قبائل من الشمال لها بقية في مواطنها. انظر: كتب الإنسان.

(٢) هو محمد بن عبد الله بن مالك واشتهر عند طلبة النحو بابن مالك الإمام النحوي اللغوي الطائي نسباً الجبائي الأندلسي، نزيل دمشق وصاحب ألفية ابن مالك في النحو، وله مؤلفات في النحو كثيرة، وفي اللغة والقراءة، ووفاته بدمشق سنة اثنتين وسبعين وستمائة. فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبي، ص ٤٥٢، وانظر ترجمته أيضاً بكتاب الوعاة في تراجم اللغويين والنحاة للإمام السيوطي.

بيتي ابن مالك:

عصيت الهوى قدماً صغيراً فعندما ... رمتني الليالي بالمشيب وبالكبرْ
أطعت الهوى عكس القضيّة ليتني ... ولدت كبيراً ثم عدت إلى الصغرْ

فأجازهما ابنه بقوله:

أبي قال قولاً شاع في البدو والحضر ... وحثّ على الإحسان حقاً وما قصرْ
هنيئاً له إن لم يكن كابنه الذي ... أطاع الهوى في الحالتين وما اعتذرْ

فقال بعدهما بعضهم:

وما قاله الشيخان يا صاح إنما ... يريدان كسر النفس يا من له النظر
وإلا فذاك الوصف وصفي حقيقة ... فخذ من حديثي ما أفاد من الخبر

فقال علي بن المتوكل[1] بعدهم:

لعمرك ما قال ابن مالك وابنه ... وما قال جار الله في نظمه الدرر
لتوبيخ نفس في الحقيقة لا كما ... أرى الحال في نفسي التي قادها الغرر

قد عزى البيتين السابقين إلى جار الله الزمخشري[2] وكذلك عزاهما إليه غيره وهذا من فاحش الغلط لأن وفاة الزمخشري سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة وولادة ابن مالك سنة ستمائة ووفاته عام اثنتين وسبعين وستمائة ونسبتها إلى الزمخشري لا تستقيم فليتنبه لهذا[3]

---

(١) علي بن المتوكل إسماعيل بن القاسم بن محمد: قال الإمام الشوكاني (ج ١ ـ ٤٢٨) هو الرئيس الكبير المستقل بغالب اليمن الأسفل، كان له اطلاع على العلوم الأدبية وتمهر في الصناعة الشعرية ولشعراء عصره فيه غرر المدائح، وأورد له مقاطع حسنة وكانت وفاته بمدينة ران، وقبره بمسجد الكاظمي سنة ست وتسعين وألف.

(٢) جار الله الزمخشري هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر صاحب الكشاف ولقب جار الله لأنه جاور في بيت الله الحرام وهو إمام في اللغة والتفسير وغيرها. وفاته سنة ٥٣٨. ابن خلكان (ج ٤ ـ ٢٥٣).

(٣) هذا هو الحق.

نعم فكتب الحسن بن علي الشجني لنفسه بعد هؤلاء الأدباء هذين البيتين:

رأيت قريضاً لابن مالك وابنه ... وللشيخ جار الله والسيد الأبر
لزجر نفوس لا كما أنا عاكف ... على اللهو حتى قيل هذا على خطر

فقد ولّد من جملة الأبيات المقولة لسابقيه فأحسن لا سيما وقد شاركهم في أصل المعنى المقصود بالنظم مع ذكرهم جميعاً في بيتين.

وكانت وفاته أكرم الله في دار النعيم نزله عام ثلاث وثلاثين ومائتين وألف عن تسع وسبعين سنة وثلاثة أشهر(١)

وبذكر بيتي ابن مالك وما أجيزا به ذكرت أبياتاً لعلي بن صالحة الروية(٢) على نحوهما «وإن كان طول»(٣).

أيا مَنْ هوى في هوّة اللهو والهوى ... وصار له الإعجاب من أحسن الصور
فكم للهوى من صولجان غواية ... عقول ذوي الألباب صارت له أكر
فحسبك ما قال ابن مالك وابنه ... وما قاله النّحرير جار الله الأبر
وما قاله نجل النبي محمد ... وذاك مجاز فيهم يا أولي النظرِ
ونحن بما قالوه أحرى لأننا ... أطعنا الهوى بالقلب والسمع والبصر
فيا مَنْ على العرش استوى كن مقيلنا ... بيوم به يرجو الإقالة من عثر
بحرمة من حجّ الحجيج لأجله ... محمد المختار وعترته الغرر

انتهت، وقد أجاد لولا ما في البيت الأخير من التجوّز في معنى صدره والزحاف في عجزه.

وهذا علي الرويّة كان أديباً شاعراً وهو من مدينة ذمار من أهل بيت فيها معروف، ومن المنسوب إليه هذان البيتان:

---

(١) ترجمته في مطالع الأقمار وانتزعها منه المؤرخ زبارة في نيل الوطر (ج ١ ــ ٣٤٥).
(٢) لعل هذا الرويّة ينسب إلى آل الرويّة المذحجيين أهل ثاة والسرسر ابن الرويّة وكانوا سادة مذحج في القرن الثالث الهجري. انظر بعض أخبارهم الموجودة في الإكليل بإخراجنا.
(٣) كذا في الأصل ولعل العبارة «وإن كان فيها طول».

قلت وقد مرّت بنا ظبية مليحة في يدها نرْجسُ
ما أقبح الهجر فقالت بلى أقبح منه عاشق مفلسُ

وسمعت أنه كان من أتباع الأمير الماس عبد الرحمن أمير تهامة[1] كان في أيام المنصور بالله الحسين والإمام المهدي لدين الله العباس رضوان الله عليهما ويقال أنه عتب عليه في قبول سعاية بِهِ كاذبة أوجبت إعراضه عنه فعتب عليه بقصيدة يحمل الذنب على الساعي وما أحسن ما جاء به من مدحه مع التضمين في غضون الشكاية من حاسد مكانه لديه حتى قال آخرها:

ولكني سأنشد فيك بيتاً قديماً قاله رجل قديمُ
أيا ماء العذيب وأنت عذب ولكن دونه ماء وخيمُ

وهذه الشذور من قراضة نضاره[2] تدل على أنه كان من صيارفة الأدب ولكنه أخمل ذكره جفوة أهل محله[3].

وما أحسب له ذنباً إلا ترك تجهيم[4] العمامة وعدم ابيضاض اللحية واسترسالها فإن من كان بهذه الصفة بحر في العلم لديهم لا تكدّره الدّلاء.

هذا وأما ولادة صاحب الترجمة «إسماعيل بن الحسن المقصود بالذكر» فهي عام ست ومائتين وألف[5] رحمه الله.

قاسم بن يحيى الخولاني العلامة المجتهد الدائب درساً وتدريساً كان ذا ورع صادق يخشى الله في سره وعلانيته، قال عبد الرحمن الأنسي القاضي: تحدثت معه يوماً بقضيّة علمتها جرت من بعض العصاة شنيعة الفاحشة انتهت إليّ وأنا على قضاء حجّة

---

(١) الأمير الماس لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من الكتب.
(٢) النضار: بالضاد المعجمة وهو الذهب وشجر الأثل الأصلي وفي الأصل النظار غلط.
(٣) أهل محلة أهل ذمار وهم كذلك إلى عهدنا ألهمهم الله الرشد.
(٤) تجهم العمامة تكويرها وتكبيرها.
(٥) في الهامش لعلها عام أربعين ومائة وألف.

فرأيته ارتعد لها ارتعاد السَّعْفَة في اليوم المريح[1] فعلمت عظمة الله في صدره، وإنما يخشى الله من عباده العلماء.

وكان يظل في مسجد الجامع سحابة يومه وطرفي ليلته فهو كما قيل في عبد الله بن الزبير حمامة المسجد[2] لكثرة مرابطته. مات رحمه الله من علة بإحدى قدميه ذهبت ببعض أصابعها وهي المعروفة عند العامة «بالمسيك»[3] فيما أحسب نسأل الله العافية، وكانت وفاته في شهر شوال سنة تسع ومائتين وألف انتهى كلام القاضي الأنسي.

نعم ورأيت ولادته بخط بعض العارفين وذلك في شهر رمضان سنة اثنتين وستين ومائة وألف.

قرأ عليه شيخ الإسلام شرح السيد على الكافية في النحو وشرح الخبيصي وشرح الرضي وشرح الشافية في الصرف، وشرح التهذيب للشيرازي مع حاشية اليزدي، وشرح تلخيص المفتاح للسعد مع حضور حاشية لطف الله بن غياث[4] وشرح الغاية والرسالة العضدية وشرحها لملا حنفي ونخبة الفكر لابن حجر وشرحها له وشرح العمدة لابن دقيق العيد ورافقه في قراءته على شيخه المغربي والعلامة عبد القادر بن أحمد.

ورأيت بخطه ما حاصله الهرمان: بالضم: العقل، وبالتحريك بناءان أوليان

---

(١) السعفة: من ورق النخل معروف.

(٢) ابن الزبير عبد الله أول مولود ولد في الإسلام من أبناء المهاجرين كما أن النعمان بن بشير الأنصاري أول مولود من أبناء الأنصار وقتل محاصراً بالبيت الحرام سنة ٧٣هـ والمشهور بهذه المقولة عبد الملك بن مروان.

(٣) لا زالت معروفة إلى هذا التاريخ بهذه التسمية وما أدري ما يسميها الطب الحديث.

(٤) لطف الله غياث من أئمة النحو والصرف اشتهر بذلك مع مشاركته بسائر الفنون. قال الإمام الشوكاني (ج ٢ ـ ٧١) هو لطف بن محمد بن الغياث بن الشجاع بن داود الطفيري اليماني، لم يكن باليمن إذ ذاك من يبلغه في تحقيق علم المعاني والبيان والأصول والنحو والصرف إلى درجته. توفي في وطنه ظفير حجة سنة خمس وثلاثين وألف.

بمصر بناهما إدريس عليه السلام لحفظ العلوم فيهما من الطوفان أو بناء سنان بن المشلل أو بناء الأوائل[1] لما علموا بالطوفان من جهة علم النجوم وفيها كل طب وطلسم وهناك أهرامات صغار كثيرة قال فيهما الفقيه عمارة[2]:

خليلي ما تحت السماء ببنية ... تماثل في إتقانها هرميْ مصرِ
بناء يخاف الدهر منه وكلما ... على ظاهر الدنيا يخاف من الدهرِ
تنزه طرفي في بديع بنائها ... ولم يتنزه في المراد بها فكري

هذا ما رأيته بخطه وأذكرني معنى البيت الثاني قول بعض الحكماء: كل شيء يخشى عليه من الدهر إلاّ الأهرامين فإنه يخشى على الدهر منهما، وقال بعضهم:

أنظر إلى الهرمين واسمع منهما ... ما يرويان عن الزمان الغابرِ
وانظر إلى سرّ الليالي منهما ... نظراً بعين القلب لا بالناظرِ
لو ينطقان لخبرّانا بالذي ... فعل الزمان بأول وبآخرِ

وبين الهرمين الصنم الذي يقال له «أبا الهول»[3] ويقال له بلهيت ولا يظهر منه سوى رأسه فقط في غاية العظمة، وتزعم العامة أن جثته مدفونة تحت الأرض، ومقتضى القياس بالنسبة إلى رأسه أن يكون طوله سبعين ذراعاً فصاعداً، وفي وجهه حمرة ودهان يلمع عليه رونق الطراوة وهو حسن الصورة مقبولها عليه مسحة بهاء وجمال كأنه يضحك تبسماً.

وسئل بعض الفضلاء عن أعجب ما رأى فقال: تناسب وجه أبي الهول فإن أعضاء وجهه كالأنف والعين والأذن متناسبة كما تفعل الطبيعة فإن أنف الطفل مثلاً مناسب له وهو حسن به حتى لو كان ذلك الأنف لرجل لكان مشوهاً، وكذلك أنف الرجل لو كان لصبي لشوهت به وكذلك سائر الأعضاء فكل عضو ينبغي أن يكون

---

(١) كل هذا جائز وانظر: خطط المقريزي الآتي ذكره.

(٢) انظر ترجمة عمارة مقدمة كتابه «المفيد في أخبار صنعاء وزبيد» بإخراجنا.

(٣) لا يزال معروفاً لهذا التاريخ أي أبي الهول وبلهيت.

على مقدار ماهيته بالقياس على الصورة وعلى نسبتها والعجب من مصوره كيف قدر أن يحفظ تناسب الأعضاء مع عظمها وأنه ليس في أعمال الطبيعة ما يحكيه.

وكان شيخ يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر من جملة صوفية الخانقاه الصلاحيّة أقام سنة ثمانين وسبعمائة لتغيير أشياء من المنكرات وسار إلى الأهرام وشوّه وجه أبي الهول وشعثه فهو على ذلك إلى اليوم، ومن حينئذٍ غلب الرمل على أراضٍ كثيرة من الجيزة[1] وأهل تلك النواحي يرون أن سبب غلبة الرمل على الأراضي فساد وجه أبي الهول وما أحسن قول ظافر الحداد[2]:

تأمل حكمة الأهرام واعجب ... وعندهما أبو الهول العجيبُ
كعاويتين قاما في نحيب ... بمحبوبين بينهما رقيبُ
وماء النيل تحتهما دموع ... وصوت الريح عندهما نحيبُ

انتهى منقولاً من بعض المجامع منسوباً إلى خطط المقريزي[3].

وأما قول الشاعر في البيت الثالث «لو ينطقان لخبّرانا» البيت فهو كقول أبي نواس في الخمرة:

عتّقت حتى لو اتصلت ... بلسان ناطق وفمِ
لاحتبت في القوم ماثلةً ... ثم قصّت قصة الأممِ

---

(١) الجيزة: قد صارت حياً من أحياء القاهرة وسميت الجيزة لأن ناساً من اليمانية أيام فتح عمرو بن العاص لمصر اجتازوا من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية بغير رضى عمرو بن العاص فسميت الجيزة من ذلك اليوم.

(٢) ظافر هو ابن القاسم بن منصور الجذامي أبو نصر الحداد، شاعر من أهل الإسكندرية، كان حداداً له ديوان شعر طبع، وفاته سنة تسع وعشرين وخمسمائة هـ. الأعلام، ج ٣.

(٣) خطط المقريزي كتاب جليل مفيد جداً وقد طبع عدة طبعات. والمقريزي هو أحمد بن علي، يقال أنه ينتسب إلى العبيديين ملوك مصر ويعتبر المقريزي مؤرخ مصر لكثرة ما أرّخ لمصر ومؤلفاته موجودة طبع الكثير منها. ترجمه الإمام الشوكاني (ج ١ ــ ٧٩) ورفع نسبه إلى من ذكرنا ورغم ذلك فهو من أهل السنة وأعلامها كما ترجم له ابن حجر وغيره وكانت وفاته سنة خمس وأربعين وثمان مائة.

ولكن المتأخر أحسن الاتباع غاية الإحسان وجاء بمعنى البيتين في بيت واحد، وبيت أبي نواس من خمريته المشهورة وأولها:

يا شقيق النفس من حكم نمتَ عن ليلى ولم أنمِ
فاسقني البكر التي اختمرت بخمار الشيب في الرحمِ

عتقت البيتان وبعدهما:

فهي لليوم الذي بذلت وهي تلوي الدهر في القدمِ
فرعتها بالمزاج يد خلقت للمزج في القدمِ
في ندامى سادة نُجُبِ أخذوا اللذات من أممِ
فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقمِ
فعلت في البيت إذ مزجت مثل فعل الصبح في الظلمِ
فاهتدى ساري الظلام بها كاهتداء السَّفر بالعلمِ

قلت: وفي ذهني أنه عيب عليه قوله «كتمشي البرء بالسقم» وأنه لا يجوز إدخال العرض على العرض فحوّله إلى قوله «كتمشي النار بالفحم» ولكني أرتاب بهذا الاعتراض فإنه لا يرد إلا على متكلم يبحث في مسألة الجزء والجوهر وتداخل الأجسام لا على شاعر ليس يعذب شعره إلا بارتكاب المحال وسيمر بك إنشاء الله لهذا الانتقاد نظائر. ومن خمريّات أبي نواس قوله:

ساعٍ بكأس إلى ناس على طرب كلاهما عجب في منظر عجبِ
قامت تريني وأمر الليل مجتمع صبحاً تولّد بين الماء والعنبِ
كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء درّ على أرض من الذهبِ
فقل لصاحبك المحروم لذتها تطعّم الخمر يوماً مرةً وتبِ
فقال لي ضاحكاً تلهو وأنت على تلك الضلالة لم تقلع ولم تتبِ
ولا تورعت عن شرب فقلت له من أحسن الظن بالرحمن لم يخبِ

وبالجملة فخمرياته في غاية الحسن، وقال في أخرى يذكر صفاء الخمرة ورقتها وضياءها وإشراقها:

إذا عبّ فيها شارب القوم خلته يقبّل في داج من الليل كوكبا

وسبب نظمه لهذا المعنى أنه لقي الحسين بن الضحاك فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

وشاطري اللسان مختلق أراه شاب المجون بالنّسكِ
كأنما نَضْبُ كأسه قمر يكرع في بعض أنجم الفلكِ

فلقيه أبو نواس بعد أيام فأنشده خمريةً له، ومن جملتها البيت فقال له الحسين بن الضحاك: هذه مصالتة[1] يا أبا علي، فقال له: أتظن أنه يروى لك في الخمر معنى جيد وأنا حيّ؟ قلت: ما أشبه هذا الاختلاس بمصالتة أبي نواس أبا الشيص[2] لما أنشده ميميته السائرة ومنها قوله:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدمُ

فقال له أبو نواس: لو شئت لنظمت هذا البيت المعنى حتى تسير به الركبان ويَدَعوا ما قلت فسخر منه أبو الشيص فقال في قصيدته التي امتدح بها الخصيب[3]:

فما جازه جود ولا حلّ دونه ولكن يسير الجود حيث يسيرُ

فسارت الركبان ببيت أبي نواس وتركوا بيت أبي الشيص.

وبعروض ذكر الحسين بن الضحاك المعروف بالخليع نعرض عليك من

---

(١) مصالتة: المصالتة ما سال من الأقط وغيره معروف.

(٢) أبو الشيص: لقب له واسمه محمد بن عبد الله بن رزين الشاعر المشهور وهو ابن عم «دعبل الخزاعي» الشاعر المشهور. توفي سنة ١٩٦ وقد كفّ بصره. فوات الوفيات، ص ٤٤٨.

(٣) الخصيب: بالخاء المعجمة والصاد المهملة ثم ياء مثناة من تحت ثم باء موحدة: ابن عبد الحميد هو صاحب ديوان الخراج بمصر أيام الخليفة هارون الرشيد وممدوح أبي نواس الحكمي التي أولها:

أيها المنتاب من عفرة لست من ليلى ولا سمرة

وقال المبرد: ما أحسب شاعراً جاهلياً ولا إسلامياً بلغ هذا المبلغ فضلاً عن أن يزيد عليه جزالة وفخامة.

نفيس أخباره لمعة يتمتع بها خاطرك ويهش إليها ناظرك، والغرض الإمتاع، وتشنيف الأسماع وتطريز الكتاب بإبريز ذوي الألباب.

روى أبو الفرج في الأغاني[1] عن الحسين بن الضحاك قال: دخلت يوماً على الحسن بن سهل[2] في فصل الخريف وقد جاء وسْميّ المطر[3] فرشّ رشّاً حسناً واليوم في أحسن منظر، وهو جالس على سرير أبنوس وعليه قبّة فوقها ديباج أصفر وهو في بستان بداره وبين يديه وصائف يترددن في خدمته وعلى رأسه غلام كالدينار فسلمت عليه فردّ السلام ونظر إليّ كالمستنطق، فقلت:

أَلَسْتَ ترى ديمةً تهطل وهذا صباحك مستقبلُ

قال: بلى، فقلت:

وتلك المدام وقد شاقَنَا برؤيته الشادن الأكحلُ

قال: صدقت فمه فقلت:

ففاد بنا وبه سكرة تهوّن مكروه ما نسألُ

فسكت، فقلت:

فإني رأيت له نضرة تخبّرنا أنه يفعلُ

قال: ثم مه، فقلت:

وقد أشكل العيش في يومنا فيا حبّذا عيشنا الأشكل

فقال العيش مشكل فما ترى؟ فقلت: مباكرة القصف، وتقريب الإلف، فقال: على أن تقيم عندنا وتبيت معنا، فقلت له: لك الوفاء وعليك بالوفاء على

---

(١) أبو الفرج: هو علي بن الحسين بن محمد الأصفهاني الأموي القرشي: أحد أئمة الأدب وأحد الأعلام في معرفة التاريخ والأنساب والسير والآثار واللغة والمغازي. قال الذهبي: والعجب أنه أموي شيعي ولادته سنة أربع وثمانين ومائتين ووفاته سنة ست وخمسين وثلاثمائة وكتابه الأغاني طبع عدة طبعات أجودها طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) ترجمنا للحسن بن سهل في مفيد عمارة ـ ٤١.

(٣) وسميّ المطر: هو ما يجيء بعد انقطاع مطر الخريف في نحو تشرين الثاني.

مثله لي من الشرط، قال: وما هو؟ قلت: يكون هذا الغلام الواقف على رأسك يسقيني فضحك، فقال ذلك لك على ما فيه ودعى بالطعام وبالشراب فشربنا أقداحاً ولم أر الغلام فسألت عنه فقيل لي: هو في الحمام فلم ألبث أن وافاني فسألته أين كنت؟ قال: في الحمام وهو الذي حبسني عنك. فقلت: لوقتي:

وبأبي أبيض في صفرة | كأنه تبر على فضّة
جرّده الحمام عن دره | تلوح فيها عكن فضه
غصن تبدّا يتثنى على | مأكمة مثقلة النهضة
كأنّما الرشح على خدّه | طلّ على تفاحة غضّه

فقال لي الحسن: قد عمل فيك النبيذ، فقلت: لا وحياتك، قال: هذا شر من ذلك، فقلت:

إسقياني وصرّفا | بنت حولين قرقفا
واسقيا المرهف الغرير | سقى الله مرهفا
لا تقولوا أراه أكلف | نضوّا مخففّا
نعم ريحانة النديم | وإن كان مخطفا
إن يكن أكلفاً فإنا | نرى البدر أكلفا
بأبي ماجنُ السريرة | يبدي تعفّفا
خف أصداغه وعقربها | ثم صفّفا
وحشى مدرج القصاص | بمسك ورصفا
فإذا سمته منالاً | تأبّى وعنّفا
ليس إلا بأن يرنِّحُه | السكر مسعفا
باكراً لا تسوّف فإنّي | عدمت التسوّفا
أعجلاه وبالفضاضة | في السعي عنّفا
واحملا شعبه وإن | هو رنّا وأفّفا
فإذا هبّ للمنام | فقوما وخفّفا

فتغاضب الغلام وقام ليذهب ثم عاد وقال لي: أقبل على شرابك ودع الهذيان وناولني قدحاً، وقام أبو محمد ليبول فشربت وأعطاني نقلاً[1] فقلت: إجعل بدله قبلاً فضحك، وقال: أفعل، فقلت: متى هذا وقته، فقال له خادم للحسن يقال له فرج: بحياتي يا بني أسعفه بما طلب فضحك ثم دنا مني كأنه يناولني نقلاً وتغافل لي فاختلست منه قبلةً، فقال: هي حرام عليك فقلت:

وبديع الدلّ قصريّ الغنج ... قرة العين كحيل بالدعج
سمته شيئاً وأصغيت له ... بعدما صرّف كأساً ومزج
واستخفته على نشوته ... نبرات من خفيفٍ وهزج
فتأبّى وتثنّى خجلاً ... وذرى الدمع فنوناً ونشج
لجَّ في لَولا وفي سَوف ترى ... وكذا كفكَ عنًي وخَلَجْ
ذهب الليل وما ناولني ... دون أن أسفر صبح وانبلج
هوّن الأمر عليه فرج ... بتأنيه فسقيا لفرج
خمر النكهة لا من قهوة ... أرج الأصداغ بالمسك أرج
فبنفسي نفس من قال وقد ... كان ما كان حرام أو حرج

قال: ثم أسفر الصبح وانصرفت وعدت إلى الحسن من غد فقال: كيف كنت من ليلتك وكيف كنت عند نومك؟ فقلت له أصف ذلك نظماً أو نثراً، فقال: نظماً، فقلت:

تألفت طيف غزال الحَرَم ... فواصلني بعدما قد صرم
وما زلت أقنع من نيله ... بما تجتنيه بنانُ الحلم
بنفسي خيال على رقةٍ ... ألمَّ به الشوق فيما زعم
أتاني يجاذب أردافه ... من البهر تحت كسور الظلم

---

(١) النقل: بضم النون وفتح القاف وهو ما يأكل الشارب قبل الأكل كالجوز واللوز والفستق ونحو ذلك.

تمح سوالفه مسكة وعنبرةً ريقها والنسم
يقول ونازعته ثوبه على أن يقول لشيء نعم
فغض الجفون على خجلة وأعرض إعراضة المحتشم
فشبّكت كفي على كفّه وأصغيت ألثم دراً بفم
فنهنهني دمع لا مؤيس بجدٍ ولا مطمع معتزم
إذا ما هممت فأدنيته تثنى وقال لك الويل لم
فما زلت أبسطه مازحاً فأفرط في اللهو حتى ابتسم
وحكّمني الريم في نفسه بشيء ولكنه مكتتم
فواهاً لذلك من طارق على أن ما كان أبقى سقم

فقال لي الحسن: يا حسين يا فاسق يا أظن ما ادعيته في النوم كان في اليقظة مع الشخص في نفسه وأصلح الأشياء لنا بعد ما جرى أن نرخص العار عن أنفسنا بهبة الغلام لك فخذه لا بوْرِكَ لك فيه فأخذته وانصرفت.

ومن ملح غزل الحسين بن الضحاك قوله:

أيّ ديباجة حسن هيّجت لوعة حزنِ
إذ رماني القمر الزاهي من فترة جفنِ
بأبي شمس نهار برزت في يوم دجنِ
قربتني بالمنى حتى إذا ما اختلبتني
تركتني بعد ميعا دِ وخلفٍ وتجني
ما أرى ما بي من الصّبوة إلاّ حسن ظني
إنما دمت على العذر لما يُعلم مني
أستعيذ الله مِنْ مَنْ أعرض عني

ورأى غلاماً حسناً من أولاد الموالي فأقبل عليه يحدثه وهو معرض عنه لا يلوي إليه رأساً فقال:

تتيه علينا أن رزقت ملاحة فميلاً علينا بعض تيهك يا بدرُ
لقد طالما كنّا ملاحاً وربما صددنا وتهنا ثم غيَّرنا الدهرُ

وتركه وانصرف، وكان مشغوفاً بيسر مولى أبي عيسى بن الرشيد، وكان غلاماً جميلاً، ومن عجيب أخباره معه ما حكاه محمد بن محمد بن الأنباري قال: اتفق حسين بن الضحاك ويسر يوماً عند بعض أصحابهما فشربا وذلك في العشر الأواخر من شعبان فقال حسين ليسر: يا سيدي قد هجم الصوم علينا فتفضل بمجلس نجتمع فيه قبل هجومه فوعده بذلك فقال له حسين: قد سكرت وأخشى أن يبدو لك فحلف يسر أنه يفي فلما كان من الغد كتب إليه حسين وسأله الوفاء فجحد الوعد وأنكره فكتب إليه:

تجاسرت على الغدر كعادتك في الهجرِ
فأخلفت وما استحييت من إخوانك الزهرِ
وما أقنعني فعلك يا مختلق العذرِ
بنفسي أنت إن سوت[1] فلا بدّ من الصبرِ
وإن أجرعني الغيظ وإن خُشّن بالصدرِ
ولولا فرقي منك لسميتك في الشعرِ
وعنّفتك لا آلو وإن جرْتَ مدى الدهرِ
أما تحرج من إخلاف ميعادك في العشرِ
غداً يفطمنا الصوم عن الراح إلى الفطرِ

قال ابن الأنباري: فسألت الحسين عمّا أثمر له هذا الشعر وما كان الجواب، قال: أحسن جواب وأجمل، فقال: اجتمعنا قبل الصوم في بستان لمولاه وأتممنا سرورنا وقضينا أوطارنا إلى الليل وقلت في ذلك:

سقى الله بطن الدير من مستوى السفح إلى ملتقى النهرين فالإثل فالطلحِ
ملاعب قدن اللهو قسراً إلى الصّبا ويسّرن ما أمّلت من درك النجحِ
أتنسى فلا أنسى عتابك بينها حبيبك حتى انقاد عفواً إلى الصلحِ
سمحت لمن أهوى بصفو مودتي ولكن من أهواه صيغ على الشحِ

(١) كذا في الأصل ولعلها (سوّفت) من التسويف.

وحدث معمر بن الوليد المخزومي قال: بلغ أبا عيسى بن الرشيد أنه جرى ليسر مع أخيه صالح بن الرشيد سبب فحجبه كما تحجب النساء وأمر بالحجر عليه ومنعه أن يخرج من داره، إلا ومعه حافظان موكلان به فقال الحسين بن الضحاك في ذلك:

ظنّ من لا كان ظنّا بحبيبي فحماه
أرصد الباب رقيبين له فاكتنفاه
وإذا ما اشتاق قربي ولقائي منعاه
جعل الله رقيبيه من السوء فداه
والذي أقرح في الشادن قلبي فكواه
كل مشتاق إليه فمن السوء وقاه
سيما مَنْ حالت الأحراس من دون لقاه

قلت: والسبب الذي جرى ليسر مع صالح بن الرشيد قد ذكره أبو الفرج وهو أن صالحاً كان يتعشق يسراً وكان يراوده فيعده ولا يفي له فأرسله أبو عيسى إلى أخيه صالح في السحر يقول له: يا أخي قد اشتهيت اليوم أن أصطبح فبحياتي إلاّ ما ساعدتني وصرت إليّ حتى نصطبح اليوم جميعاً فسار يسر إلى صالح وهو منتشٍ قد شرب في السحر فأبلغه الرسالة فقال: نعم وكرامة إجلس فجلس فقال: يا غلام أحضرني عشرة آلاف درهم فأحضرها، فقال: يا يسر دعني من مواعيدك ومطلك، هذه عشرة آلاف درهم فاقض حاجتي وخذها وإلا فليس ههنا إلا الغصب، فقال: يا سيدي أنا أقضي الحاجة ولا آخذ المال ثم فعل ما أراد وطاوعه فقضى حاجته وأمر صالح بحمل العشرة الآلاف معه، قال الحسين: ثم خرج صالح إليّ من خلوته فقال: يا حسين قد رأيت ما كنّا فيه، فإن حضرك شيء فقل، فقلت:

أيا مَنْ طرفه سحر ومَنْ ريقته خمرُ
تجاسرت فكاشفتك لما غلب الصبرُ
وما أحسن في مثلك أن ينتهك السترُ

فإن لامني الناس ففي وجهك لي عذرُ
فدعني من مواعيدك إذ جاء بك الدهرُ
فلا والله لا تبرح أو ينقضي الأمرُ
فإما الغصب والذمّ وإما البذل والشكرُ
ولو شئت تيسرت كما سميت يا يسر
فكن كاسمك لا تمنعك النخوة والكبر
فلا فزت بحظي منك إذ ذاع له ذكر

قال: فضحك وقال: لعمري لقد يسر يسر كما قلت، قلت: ومَنْ لا يتيسر بعد أخذ الديّة لو أردتني بهذا لتيسرت فضحك، وقال: نعطيك أيضاً الدية لحضورك ومساعدتك ولا نريدك لما أردنا يسراً فبئس المطيّة أنت وأمر لي بالمال وأمر بعد غُريباً[1] فغنت ببعض هذا الشعر فكان ينشط لغنائه.

وهذا آخر ما أردت إيراده من أخبار الحسين بن الضحاك وإنما استكثرت من نوادر أخباره ليعلم أنه لم يسمّ بالخليع إلا لكثرة مجانته.

أبو محمد علي بن محمد الشوكاني هو والد شيخ الإسلام وعنه أخذ الفقه، وكان عالماً متبحراً سيما في الفقه وما يرتبط به من علل وأسباب وستأتي له ترجمة في تلاميذ ولده شيخ الإسلام.

قال ابنه في وبل الغمام على قوله الأمير الحسين[3] في أول البيع من مؤلفه «الشفاء» دل ذلك كله على جواز البيع وعلى اعتبار التراضي ما نصّه بقوله: أقول هذا غَاية ما يستفاد من الأدلة: أعني أن المعتبر في البيع هو مجرّد التراضي والمشعر بالرضى لا ينحصر فيما ذكره الفقهاء من الألفاظ المخصوصة المقيدة بقيود

(١) غريباً: بالتصغير مغنية أو مغني.
(٢) ترجم له الشوكاني (ج ١ ـ ٤٧٨).
(٣) انظر ترجمة الأمير حسين في مقدمة (وبل الغمام) بإخراجنا.

بل ما أشعر بالرضى ولو بكناية أو إشارة أو معاطاة من دون لفظ ولا ما في معناه فإن البيع عند وجود المشعر بمطلق الرضى بيع صحيح.

قلت: ويريد شيخ الإسلام بالألفاظ المخصوصة ما يعتبره الفقهاء من اشتراط لفظ التمليك وذلك نحو أن يقول البائع بعت أو ملكت أو دفعت أو وهبت أو جعلت إلى أن قال: ونقلت من خط والدي قدّس الله روحه ما لفظه:

فائدة: ما زلت أسأل وأبحث عن وجه اشتراط العقد في البيع وما يماثله فلم أجد له وجهاً ولا شفاء عند أحد، وظاهر الكتاب العزيز والأحاديث أن الشرط صدوره عن تراضٍ وأن التراضي مستقل بانتقال الملك وأن الألفاظ إنما هي قرائن للرضى وأما لفظ مخصوص من الجانبين فلا دليل عليه.

وها هنا دليل أيضاً وهو الآية الكريمة على استقلال الرضى ومثلها نحو قوله ﷺ: «لا يحلّ مال امرىء مسلم إلاَّ بطيبة من نفسه» فهو ظاهر في استقلال طيبة النفس بحلّ المالين على المتبايعين والحمل على الإباحة إنما يسوغ بعد ملج إليه ومخصص لما عداه إذ ظاهر الحديث أن الطيبة محللة مع تقدير أي قيد وبعد حلّه يحتاج إلى دليل، إن الرجوع من البائع مثلاً يزيل هذا الحل وكذلك الكلام في الآية، قال رحمه الله: نعم ثم رأيت كلاماً هو أشفى ما رأيت مع وضوح ركّته فنقلته استظهاراً بركته على صحة السؤال لا لأنه أزال ذلك الإشكال وهو ما ذكره الموزعي(١) في كتابه تيسير البيان، في أحكام القرآن قال: ما لفظه فإن قال قائل فاشتراط التلفظ في البيع أمر زائد على ما ورد به القرآن إذ لم يرد إلا اشتراط التراضي ولم ترد السنة باشتراطه أيضاً، ومقتضى هذا أنه يجوز البيع معاطاة إذا دلت القرائن وشواهد الأحوال على الرضى، قلنا التجارة والبيع أمر معتاد وهو التعاوض ومعلوم أنه لا ينفك عن مساومة أخيه ولا البيع على بيع أخيه علمنا أن البيع هو التعاقد الناقل لملك أحدهما إلى الآخر وأن التساوم

---

(١) الموزعي: نسبة إلى موزع مدينة شرق شمال ميناء المخا واسمه محمد بن علي الموزعي المتوفى سنة ٨٢٥هـ وكتابه تيسير البيان في أحكام القرآن قد طبع وفي مكتبة الجامع المقدس عدة نسخ مخطوطة.

من مقدمات البيع، ولما وجدنا الإشارة إليه في الحديث كثيرة كما في قوله لحيّان بن منقذ: «إذا بعت فقل لا خلابة[1] وأنت بالخيار ثلاثاً» وكما في حديث ابن عمر من قوله ﷺ أو يخير أحدهما الآخر وغير ذلك من الإشارات المستلزمة للتعاقد فدل على أنه من عاداتهم. انتهى كلام الموزعي.

وبعده بخط الوالد رحمه الله ما لفظه وحاصله يعني كلام الموزعي يرجع إلى الدعوى على أهل اللغة أن البيع عندهم موضوع للعقد لا للمعاوضة بالتراضي وحينئذ فالحكم للّغة، وقد اتفقت الكلمة على أنه لا بد من المعاوضة بالتراضي واشتراط العقد دعوى لم يشهد بصدقها لغة ولا شرع فالحق قول أبي حنيفة بلا مراء، انتهى ما نقله شيخ الإسلام من خط والده ثم قال بعده: ووجدت بعد هذا بخطي في أيام قديمة ما لفظه أقول: وأنا قد اشتغلت أوقاتاً بهذه المسألة قبل الوقوف على كلام هذا المحقق فلم أجد عليها أثارة من علم والحاصل أنّا لم نجد في الكتاب والسنّة بعد ذكر مطلق البيع إلا قيد الرضى والأمور المشعرة به أعمّ من الألفاظ التي اصطلح عليها الفقهاء فيندرج تحت الرضى كل ما دلَّ عليه ولو إشارة من قادر وكتابة من حاضر وعلى مدّعي الاختصاص الدليل ولا ينفعه في المقام مثل حديث «إذا بعت» وحكاية مبايعته ﷺ للأعرابي وما أشبه ذلك لأنّا لا نمنع من إشعار لفظ بعت ونحوه بالرضى وإنما نمنع دعوى التخصيص ببعض الأفراد التي لا تستفاد إلا من بعض صيغ مخصوصة، ومن هنا يلوح لك أن قولهم لا ربا في المعاطاة باطل. وهكذا أخواته انتهى ما نقلته من خطي وهو ملاقٍ لما حررته في أول هذا الكلام.

وهذا آخر ما نقله شيخ الإسلام في كتابه (وبل الغمام) وبه تعرف قدر الكلام والمتكلم ورسوخ قدم العالم والمتعلّم وإن شنشنة الفرع أخزميّة[2]، «ينشو الصغير

---

(١) لا خلابة: لا غش ولا خداع.

(٢) أصل المثل «شنشنة أعرفها من أخزم» والمثل لأبي أخزم: جد حاتم الطائي وكان له ابن وهو أخزم وكان عاقاً فمات وترك بنيناً فوثبوا على جدهم أبي أخزم فقال:

إن بنيّ ضرّجوني بالدم شنشنة أعرفها من أخزم

أي: إن هؤلاء يشبهون أباهم بالعقوق، والشنشنة: العادة والطبيعة.

على ما كان والده»[1]، «إن الأصول عليها تنبت الشجر»[2].

وكانت وفاة صاحب الترجمة رابع شهر القعدة سنة إحدى عشرة ومائتين وألف عن نحو ثمانين سنة وكان ورعاً زاهداً متقشفاً متواضعاً وقرأ رحمه الله في آخر مدته على ولده شيخ الإسلام بعد أن كان تلميذاً له وكذلك العلامة القارني صار لشيخ الإسلام تلميذاً بعد أن كان شيخاً له في القراءات ولكني أخّرت ترجمته إلى قسم التلاميذ لكثرة مقروءاته عليه.

علي بن هادي عرهب[3]:

كان من أساطين التدقيق وسلاطين التحقيق عالماً مُجتهداً، قرأ عليه شيخ الإسلام في شرح التلخيص وحاشية ابن الغياث، وتوفي سنة ست وثلاثين ومائتين وألف، وهو على قضاء كوكبان عن نحو سبعين سنة وكان مفرط التدقيق غوّاصاً على أعماق العلل.

حكى لي بعض العارفين أنه أحدث عمارة على سطح بناء له وجعل فيها طاقات مطلّة إلى داخل سكة منسدة فنازعه الداخلون من أهل تلك السكة لأنه بالنسبة إليهم خارج وقد علم من الفقه أنه لا حقّ للخارج فيما وراءه فليس له فتح الطاقات إلى داخل المنسدة إلا بإذن الداخلين ولما حضر هو وخصومه مجلس الحكومة وبرزت دعوى المرافعين له فأنكرما ادّعوه وأجاب أنه لم يحدث شيئاً وطلب الخصم يمينه فابتدر اليمين فعجب الحاكم وكان قد علم إحداثه العمارة فراجعه لمعرفة ما لديه واستنطقه عن حجته فذكر أن الكوى غير محدثة وأنه لم يحدث إلا جدارات وأما الكوى فهي باقية على حكم أصل الهوى فاستظرفت منه هذه الإجابة وتعجب الحاضرون من إبعاده مرامي التدقيق هذا وأمّا تحظير الإطلال من الطاقات

---

(١) ما بين القوسين صدر بيت لا أحفظ مصراعه ولا قائله وأحفظ قول الآخر:

وينشأ ناشىء الفتيان فينا على ما كان عوّده أبوه

(٢) هذا شطر بيت محفوظ ولا أعرف صدره ولا قائله.

(٣) ترجمه الإمام الشوكاني في البدر الطالع (ج ١ ــ ٤٩٩) ومدحه بالعفاف والنزاهة.

والمنع منه فيما كان من نحو هذه العمارة فلم يعتبره الفقهاء إلّا لأن المنزل المعمور كذلك لم يبن إلَّا لسكونه وبملازمة صاحبه له وإدامة البقاء فيه يستعور دار الغير(١) ولأنه بالاستطلال يستعمل الهوى المشترك ومهما كان سطحاً فهو غير داع إلى السكون وما عرض من الإشراف منه على سبيل الندرة فليس يباح إلا للضرورة وإلا فلو أراد ذو السطح دوام البقاء فيه وتسبّب من استقرار فيه أعوار لقالت الفقهاء بموجب المنع .

والذي حصلته أيام دراستي على مشائخي من أطراف هذه المسألة أن السكك ثلاث: إما سكّة مسبلة نافذة أو سكة مشروعة نافذة شرّعها الملاك بين أملاكهم أو سكة منسدّة ولكل واحدة أحكام .

فأما الأولى فاختير منع تضييق قرارها وهوائها بأي شيء كان من عمارة محدثة أو روشن أو ساباط أو جناح أو ميزاب، وإن كانت مفرطة السعة ولا حرج على من حوّل باباً إليها أو فتح طاقاً إذ هي حق لكل من الناس، وفي حكمها ما كان من السكك المسبلة وفي أقصاها مسجد يعم فلا يجوز ما كان كذلك إلا بشروط ثلاثة: بما لا ضرار فيه على المارة وأن يكون لمصلحة عامة، وبإذن الإمام وقد نظر الشرط الأول بأن مجرد التضييق تحصل به مفسدة على المارة ولو في حال دون حال ودفع المفاسد مقدم على جلب المصالح واستثنى بعض متأخري الفقهاء ما يوضع من الأخشاب والأحجار ونحوهما إذا كان يرفع عن قرب بحيث لا يحصل منه في مدة بقائه ضرر وجعلوا الحجة على هذا الإجماع السكوتي .

وأما السكة المشروعة النافذة فيجوز تضييق قرارها وهوائها للمصلحة الخاصة إذا كانت تتعلق بما شرعت السكة له وصريح ما ذهب إليه الفقهاء يقضي بجواز ذلك وإن كان فيه ضرر إذا كان المعتاد واعتبر هذا يحيى بن حميد(٢) في شرح

---

(١) من العورة: استعور والمسألة مدونة في الفقه .

(٢) يحيى بن حميد: قال الإمام الشوكاني في البدر الطالع (ج ٢ ـ ٣٤١) يحيى بن حميد بن حسن بن حميد بن مسعود المقرائي بلداً الحارثي المذحجي نسباً الزيدي مذهباً ولد سنة ثمان وتسعمائة ومن مؤلفاته «الوابل المغزار، والفتح» وشرحه . مات سنة تسعين وتسعمائة .

الفتح وهو يوافق تقرير المتأخرين، وأما إذا كانت المصلحة عامة فلا بد فيه من إذن جميع الشركاء وحينئذ لا معنى لاشتراط عدم المضرّة هنا حيث المعتبر إذن الجميع، وأما إذن الإمام فلا يشترط إلا إذا كان الشركاء غير محصورين.

وأما السكة المنسدة فيجوز فيها المصلحة العامة والخاصة، وفتح الطاقات وتحول الأبواب ولكن بإذن الداخل والمسامت وأجيز فيها ما ذكر حيث لم تكن درباً دوّاراً فإن كانت كذلك فهي كالنافذة المسبلة فيدخل الدرب الدوّار أحكامها.

عبد الله بن إسماعيل النهمي[1]:

قرأ عليه شيخ الإسلام في شرح السيد على الكافية وفي الموشح عليها[2] أيضاً وقواعد الإعراب وشرح الأزهري وإيساغوجي وشرحه للأبهري والكافل في الأصول وشرح ابن لقمان عليه[3]، وشفاء الأمير الحسين، ولم أقف على شيء من أحواله فأبسط في ترجمته. وتوفي في شهر صفر سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف عن سبعين سنة.

أحمد بن عامر الحدائي[4]:

قرأ عليه في الفرائض وكان مدرّساً بجامع صنعاء وقرأ عليه أيضاً في شرح الأزهار قراءة متكررة ومات سنة سبع وتسعين ومائة وألف عن نحو سبعين سنة أو زيادة.

---

(١) ترجم له الإمام الشوكاني (ج ١ ــ ٣٧٨).

(٢) الموشح هو ما يسمّى الخبيصي شرح كافية ابن الحاجب.

(٣) ابن لقمان: اسمه أحمد بن محمد بن لقمان بن أحمد بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى من علماء الزيدية المجتهدين. ترجم له الإمام الشوكاني (ج ١ ــ ١١٨) ووفاته سنة تسع وثلاثين وألف وهو مؤلف شرح كامل ابن بهران في أصول الفقه معتمد الطلاب المبتدئين.

(٤) أحمد بن عامر الحداني ترجم له الإمام الشوكاني (ج ١ ــ ٦٣).

عبد الرحمن بن قاسم المداني(١) :

الشريف الصنعاني . قرأ عليه في شرح الأزهار في أيام الصغر ومات في شهر القعدة سنة إحدى عشرة ومائتين وألف وقد جاوز السبعين سنة .

عبد الله بن حسن بن علي بن حسين بن علي بن المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم(٢) :

قرأ عليه في شرح الملاّ جامي على الكافية، ورافقه في قراءته على شيخه المغربي وكانت ولادته سنة خمس وستين ومائة وألف وتوفي في شهر القعدة سنة عشر ومائتين وألف .

عبد الرحمن بن حسن الأكوع(٣) :

الفقيه المفتي كانت له معرفة صالحة، وقرأ عليه شيخ الإسلام في شفاء الأمير، وكانت وفاته سنة ست ومائتين وألف عن نحو سبعين سنة . وكان الأكوع المذكور من مشائخ والدي، قرأ عليه في رحلته إلى صنعاء من سنة سبع وثمانين ومائة وألف في بيان يحيى بن مظفر(٤) وذكر لي مذاكرة جرت فيما بينهما وقد حضر عليه لتقرير المسألة المبسوطة في البيان من كتاب الدعاوى وهي التي ينتظمها قول صاحب الأزهار «فصل ومتى كان المدَّعَى في يد أحدهما إلى آخر الفصل» وكان صاحب البيان قد وسَّع دائرة هذه المسألة وأكثر التفريعات عليها والخلاف يدور فيها بين صاحب

---

(١) عبد الرحمن بن قاسم المداني، ترجمه المؤرخ زبارة في نيل الوطر (ج ٢ ــ ٣٥). قال: وكانت وفاته سنة إحدى عشرة ومائتين وألف .

(٢) عبد الله بن حسن بن علي بن حسين: ترجم له الإمام الشوكاني (ج ١ ــ ٣٨٠).

(٣) عبد الرحمن بن حسن الأكوع ترجم له الإمام الشوكاني (ج ١ ــ ٣٣٥).

(٤) هو يحيى بن أحمد بن مظفر مؤلف البيان الذي طبع حديثاً ونقل الإمام الشوكاني (ج ٢ ــ ٢٢٥) عن مطلع البدور لابن أبي الرجال، وأرّخ موته سنة خمس وسبعين وثمانمائة وقبره بقرية حمدة من البون شمال ريدة كما في هامش البدر الطالع .

البلغة والزيادات والأحكام وأبو طالب والإمام عبد الله بن حمزة[1] ولولا خوف الإطالة لبسطتها هنا بسطاً شافياً، وذكرت ضروب أقسامها، ومنتهى ضروب أعدادها في كل من أفرادها.

يوسف بن علاء الدين المزجاجي[2] الزبيدي الحافظ المسند:

ولد تقريباً سنة أربعين ومائة وألف. اجتمع به شيخ الإسلام بصنعاء في شهر الحجة سنة سبع ومائتين وألف وسمع منه وأجازه جميع ما تجوز له روايته، ومن جملة ما رواه عنه أسانيد الشيخ الحافظ إبراهيم الكردي المسمى بالأمم وهو يرويها عن أبيه عن جدّه علاء الدين عن الشيخ إبراهيم هذه طريقة سماعها، ويرويها بالإجازة عن أبيه عن الشيخ إبراهيم، وكانت وفاته سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف.

صدِّيق بن علي المزجاجي:

ولد تقريباً سنة خمسين ومائة وألف. وفد إلى صنعاء سنة ثلاث ومائتين وألف وأجاز لشيخ الإسلام واستجاز منه فأجاز كل واحد منهما للآخر يروي عنه جميع مروياته، والمزجاجي يروي عن شيوخه الأكابر كالشيخ محمد بن علاء الدين والسيد سليمان بن يحيى الأهدل وغيرهما ومات سنة تسع ومائتين وألف.

وعلى ذكر بني الأهدل فلنلحظ إلى ذكرهم: هم أهل النجار الصميم والشرف القديم بيتهم في العلم طويل الدعائم، معمور بعالم بعد عالم، ومدينة زبيد دار أسلافهم، ومعهد أخلافهم[3] فمنهم السيد الإمام ناصر السنة وقامع البدعة الحسين بن عبد الرحمن الأهدل ومنهم حفيده السيد جمال الدين محمد بن الطاهر

---

(١) عبد الله بن حمزة ويلقب بالإمام المنصور بالله أحسن من عراه وشرح سيرته الأديب الكاتب أحمد بن محمد الشامي المعاصر فهي شهادة حق من أهله وقرابته وذويه وأجرى الله الحق على لسانه في كتابه تاريخ الفكر اليمني، ويا ليته أنصف التاريخ في الأئمة الآخرين كهذا وكانت وفاة الطاغية هذا سنة أربع عشرة وستماية من الهجرة.

(٢) ترجمه الإمام الشوكاني (ج ١ ــ ٢٩٣).

(٣) سليمان بن يحيى الأهدل ترجم له الإمام الشوكاني (ج ١ ــ ٢٦٧).

حسين الأهدل مؤلف كتاب مصباح مطالب[1] أهل القربة. قال الفقيه برهان الدين إبراهيم بن أبي القاسم مطير[2] وهو من أكابر تلامذته وقد وقف على مؤلفه المذكور:

أحسنت في طيّ ما طالت مسافته   طيَّ السّجلّ ولم ينقص وقد زادا
جزاك ذو العرش خيراً إن شملن أباً   وأصله ثم أولاداً وأحفادا

ومنهم في الوقت عالم الحقيقة والطريقة مجتهد تهامة عبد الرحمن بن سليمان بن يحيى بن عمر[3] فاضل تشد إليه الرحال، وتناط به من الطلبة الآمال نفع الله به وبسلفه فهو نعم السلف لنعم الخلف.

ونقلت عمن نقل من خط جده الطاهر بن الحسين ما قصاراه: العجلة غير محمودة إلاّ في خمس: تزويج البكر وإطعام الضيف وتجهيز الميت والتوبة من الذنب وقضاء الدين[4].

وبانتهاء ترجمه صديق المزجاجي انتهت تراجم شيوخ شيخ الإسلام بالسماع.

* * *

---

(١) الحسين بن عبد الرحمن الأهدل مؤلف «تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن» ترجمه الإمام الشوكاني (ج ١ ـ ٢١٨)، قال: ومولده سنة تسع وسبعين وسبعمائة ووفاته خمس وخمسين وثمانمائة ولم أقف على ترجمة حفيده.

(٢) لم أقف لإبراهيم بن أبي القاسم مطير على ترجمة.

(٣) عبد الرحمن بن سليمان الأهدل: ترجمه المؤرخ زبارة في نيل الوطر (ج ٢ ـ ٣٠) وأطال في الترجمة ومولده سنة تسع وسبعين ومائة وألف وموته سنة خمسين ومائتين وألف.

(٤) في هامش الأصل ما لفظه: كان يليق ذكر الثالثة في الحديث فتكون سابعة وهي الصلاة إذا حضرت، تمت قلت المذكورة في المتن خمس وقد وهم صاحب الهامش فإن تعجيل الصلاة إذا حضرت هي السادسة لا السابعة.

﴿شيوخ الشوكاني بالإجازات وغيرها﴾

وأما أشياخه بالإجازة فكثيرون، وأما مروياته ومسموعاته وما أجيز له فقد شملها مؤلفه المسمى «إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر» فمن أحب معرفتها فليطالعه وقد حصّلت مِنْه ــ ولله الحمد ــ نسخة[1] وكتب لي على ظاهر ديباجتها إجازة لفظها:

وبعد حمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على خاتم النبوّات وصفوة الصفوة لبارىء البريات وعلى آله الأعلام وصحابته الكرام فإنه طلب الولد القاضي العلامة المتفنن المتقن محمد بن الحسن بن علي بن أحمد بن ناصر الشجني نفع الله بعلومه أن أجيز له ما اشتمل عليه هذا الثبت الذي جمعته لتلامذتي كثّر الله فوائدهم فأجبته إلى طلبه وأجزته جميع ما اشتمل عليه فليروه عني بالأسانيد المذكورة التي رويت بها كتب الإسلام على اختلاف أنواعها وتنوع فنونها، ولما كان بالمنزلة العليّة من الفهم والعرفان لم أشترط عليه إلا ما يشترطه مثلي على مثله من التثبت عند المشكلات لفظاً أو معنى ثم إخلاص الدعاء لي بمغفرة الذنوب والرضى من الرب سبحانه والتّرحم عليّ بعد موتي، وقد أشركت معه في هذه الإجازة إخواني الأعلام الكرام القاطنين بالمدينة المباركة مدينة ذمار كثّر الله علومهم «وحرّره المجيز محمد بن علي الشوكاني غفر الله لهما في شهر رجب من شهور

(١) قد سبق أن ذكرنا أن إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر قد طبع في الهند، ولو يعاد طبعه لكان حسناً وعندي منه نسخة مخطوطة.

تسع وثلاثين بعد المائتين وألف من الهجرة النبوية»، فهذا ما أجازنيه من مسموعاته ومروياته.

وأما مؤلفاته فإنه أجاز لي فيها أيضاً بخطه بعدما أسمعت عليه شطراً من مؤلفه «السيل الجرّار، المتدفق على حدائق الأزهار» فكتب على ظاهره أيضاً بخطه قوله:

سمع مني الولد القاضي العلامة الفهامة البدر محمد بن حسن بن علي الشجني متع الله بحياته وكثر فوائده بعض هذا الكتاب وأجزته في باقيه لعلمي بكمال أهليته وانتهائه في المعارف العلمية إلى ما وراء التحقيق فليروه عني وأجزته أيضاً أن يروي عني سائر مصنفاتي مطولاتها ومختصراتها وكتبه المؤلف محمد بن علي الشوكاني عفى الله عنهما في شهر رجب سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف حامداً الله ومصلياً مسلماً على رسوله وآله، انتهى القسمان الأولان ويتلوهما القسم الثالث في ذكر البعض الممكن ضبطه من تلاميذ شيخ الإسلام إذ الوقوف على أكثرهم متعسر بل متعذر فضلاً عن التمكن من حصرهم فذلك في حيز المحال المقطوع بعدمه على كل حال، وكيف وقد وقف العدد دونهم في الغاية فلا يدركون بحصر ولا تبلغهم نهاية، سيما مع تباين الديار والأعصار، واختلاف المصاقع والأمصار فهذا يقطع إليه القفار، على فقار النجائب وهذا يقطع إليه ثبج البحار على نجائب المراكب، يؤمون سوح شيخ الإسلام، كما يسعون إلى البيت الحرام:

يؤمون حبْراً يجمع الله شملهم ... به مثلما البيت العتيق المحرم[1]

ويتمثلون عند مقاسات التعب، وتجشم مرارة النصب والوصب، بقول بعض العرب:

وإذا المطيّ بنا بلغن محمداً ... فظهورهن على الرجال حرام

وأما ما اشتمل عليه قطر اليمن من الأمصار وغيرها من المحلات المأهولة بذوي العلم فكلهم مقتبسون من نوره، ومغترفون من شاطىء بحره.

---

(١) قائله أبو نواس الحسن بن هانيء الحكمي.

إمّا أخذاً عليه وهم الجمّ الغفير أو إجازة لمانع من الوصول إليه وهم النادر اليسير ويكونون قد اكتفوا بالأخذ عن بعض تلاميذه في مصنفاته من كتبه التي قد سارت بها الركبان، وتزينت بها مجامع المدارس في جميع البلدان، وطلعت شمس أنوارها على أقاليم الهند والعجم، واهتدى بإشراق بدرها من بالشام ومصر من الأمم، وغير ذلك من مدائن الإسلام، الذين قد وصل من أهلها إلى شيخ الإسلام، فأخذوا عنه بها واستجازوا منه لدرسها على أهل ديارهم وهذا من الوجوه المتعذر معها الإحاطة بنهاية تلاميذه بل قد يتعذر الوقوف على معرفة حقيقتهم وحصرهم في صنعاء اليمن التي هي بلد شيخ الإسلام ومنشؤه لأنهم قد صاروا فيها طبقات مختلفة المراتب منتشرة الأعداد، ومستكثرة الأفراد فمنهم من أخذ عن الطبقة الأولى من تلاميذه ومنهم من أخذ عن الطبقة الثانية ومنهم عن الثالثة والرابعة إلى السابعة والثامنة فممن بهذه المرتبة في عصرنا هذا ودع عنك ما يقدمه.

السيد العلامة أحمد بن محمد بن حسين بن حسن بن علي بن حسن بن الإمام المتوكل:

أخذ عن أهل الطبقة التي فوقه عن ولد شيخ الإسلام القاضي العلامة علي بن محمد الشوكاني والقاضي علي أخذ عن أهل الطبقة التي فوقه عن الفقيه العلامة يحيى بن علي الردمي[1] والفقيه يحيى أخذ عن أهل الطبقة التي فوقه عن القاضي العلامة حسن بن أحمد الرباعي والقاضي حسن أخذ عن الطبقة التي فوقه عن أخ شيخ الإسلام القاضي العلامة يحيى بن علي الشوكاني والقاضي يحيى أخذ عن أهل الطبقة التي فوقه عن الفقيه الفاضل العلامة يحيى بن محسن الحبوري والفقيه يحيى أخذ عن الطبقة التي فوقه عن الفقيه العلامة حسن بن إسمعيل السنادار القائم بسدانة الجامع المقدس في صنعاء والفقيه حسن أخذ عن شيخ الإسلام وكل أهل هذه الطبقات المذكورة جميعاً يأخذون عن شيخ الإسلام في عصرنا هذا عام سنة اثنتين وأربعين بعد المائتين

---

(١) في هامش الأصل: ومن بعد هذا التاريخ إلى وفاته رضي الله عنه قد أخذ عنه جماعة فزاد عدد الطبقات المذكورة.

وألف في فنون متعددة إلا من سبق أجله مثل الفقيه يحيى بن محسن الحبوري وشيخه الفقيه حسن بن إسماعيل السنادار رحمهما الله فهذا فرد إسناد من طبقات متعددة لكل طبقة مشائخ وتلاميذ. ومن الوجوه التي لا يمكن حصر تلاميذه معها أنه ما زال مدرّساً منذ استكمل بلوغ رشده إلى هذا التاريخ المذكور الذي قد قاربه في عشر السبعين فقد انقرض من أوائل تلاميذه من لا يعرفه المتأخرون منهم مع الحظ الذي أعطاه الله في دروسه من كثرتها وكثرة المستمعين لها ما لم يعط غيره من كبار مشائخه حتى قرأ عليه بعض مشائخه كما ستعرف ذلك في تراجمهم إنشاء الله.

وهذه تراجمهم مرتبة على الحروف: الألف.

علامة الأوان، والمقلة من أعيان أعلام الزمان أحمد بن حسين الوزّان صنعاني[1] المولد والمنشأ:

ولد في سنة ست وثمانين ومائة وألف، كان والده من أهل الحرف في البيع والشراء فنشأ ولده هذا واشتغل مع أبيه في حرفته هذه أياماً في حال صغره ثم لازم الجامع المقدس بصنعاء، فجالس طلبة العلم به ثم اشتغل بغيب المتون معهم وقرأ في مختصرات كتب الآلات وهو ملازم لحرفته ثم برع وأخذ العلم عن مشائخ عصره في العلوم على اختلافها واشتغل بعلم الحديث فكان من أفراد أئمته حفظاً وضبطاً وإتقاناً سمع من شيخ الإسلام سنن الترمذي ثم سمع منه في الصحيحين وسنن أبي داود وقليلاً في مسند أحمد وقرأ عليه في الكشاف وحواشيه والمطول وسمع منه من مؤلفاته وله في حسن أداء إملاء الحديث ما يطرب له مَنْ سمع مع انطلاق لسان وضبط بيان قلّ أن يمرّ لسانه على تصحيف أو تحريف وله في الأدب يد قلّ أن يشاركه أدباء عصره فيها وشعره في غاية الجودة. مات رحمه الله في سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف بعد عوده من مكة المشرفة في البحر وقُبر بساحله.

---

(١) ترجمه الإمام الشوكاني في البدر الطالع (ج ١ ـ ٥٣) ولم يذكر الشوكاني لا مولده ولا وفاته.

السيد العلامة الفاضل وبدر سماء التحقيق الكامل أحمد بن زيد بن عبد الله بن ناصر الكبسي الصنعاني(١) :

مولده في شهر رجب سنة ١٢٠٩هـ واشتغل بالعلم فبلغ فيه الغاية، وقرأ على أعيان مشائخ زمانه منهم القاضي حسين بن محمد العنسي والسيد العلامة الإمام حسن بن يحيى بن أحمد الكبسي وغيرهما في علوم الآلات على اختلافها فبرع فيها وبلغ إلى الغاية في التحقيق والإتقان وأخذ علم الفروع في الفقه على أهله فصار من مشائخه وصار في هذه العلوم، مرجعاً للطلبة في صرف ونحو ومنطق ومعاني وبيان وأصول وغير ذلك وهو الآن من أعيان المفيدين مع فهم تام وكمال إدراك، قوي الحافظة صادق التصور مع إتقان المتون، في هذه الفنون وملازمة درسها قلّ أن يبذل نفسه من مشائخ العصر لنفع الطلبة مثله وهو الآن يقرأ على شيخ الإسلام من جملة الطلبة في الكشاف وحواشيه والمطول وحواشيه وشرح الرضي على الكافية وفي شرح المنتقى لشيخ الإسلام ويقرأ عليه في جامع صنعاء من أعيان الطلبة جماعة ستأتي تراجمهم إن شاء الله.

الفقيه العلامة أحمد بن عبد الله الضمدي(٢) :

ولد سنة سبعين ومائة وألف قرأ ببلده على جماعة من أهل العلم ثم ارتحل إلى صنعاء فأخذ عن جماعة من علماء أهلها كشيخ المشائخ السيد الإمام عالم عصره وأستاذ المشائخ في دهره عبد القادر بن أحمد والقاضي العلامة أحمد بن محمد قاطن(٣) والعالم التقي قاسم بن يحيى الخولاني، وعاد إلى دياره وقد برّز في معارف

---

(١) ترجمه المؤرخ زبارة في نيل الوطر (ج ١ ـ ١٠١) ونقل عن التقصار إلى أن قال ووفاته سنة واحد وسبعين ومائة وألف، وفي هامش الأصل: وتوفي رحمه الله سنة ١٢٧١.

(٢) ترجم له الإمام الشوكاني (ج ١ ـ ٧٦).

(٣) لقاطن هذا ترجمة عند الإمام الشوكاني (ج ١ ـ ١١٣) هو الحباني ثم الثلائي ثم الحميري أثنى عليه وجوّد في تقريظه وكانت ولادته سنة ثمان عشرة ومائة وألف وتوفي سنة تسع وتسعين ومائة وألف، ونكبه المهدي عباس ولم يطلقه إلا ابنه المنصور بن علي وله مؤلفات جيدة لم تطبع.

العلوم من الفقه والحديث والعربية، ولما استقر في بلده قصده الطلبة ورغبوا إليه وأكثروا في الأخذ عنه فصار هنالك المرجع في التدريس والإفتاء وصار عالم تلك الديار والمشار إليه ثم عاد إلى صنعاء رحلة أخرى فقرأ على شيخ الإسلام في شرح الغاية وما زالت تدور بينهما المسائل المشكلات يسأل شيخ الإسلام فيجيبه عنها مدة إقامته بصنعاء ومن جملة إجابات شيخ الإسلام عنه جواب سماه «العقد المنضد، في جيد مسائل علامة ضمد» ثم عاد إلى بلده ناشراً أعلام العلم مفيد الرواية زاهداً تقياً ورعاً حتى توفاه الله في سنة اثنتي عشرة ومائتي وألف تقريباً.

الإمام الذي حلق بفضائل مجده في سماء المعالي فنالها، وتحكمت في دماء أعاديه صوارم حدّه فخضب بها العوالي وأسالها أمير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين أحمد بن الإمام المنصور بالله علي بن الإمام المهدي لدين الله.

العباس بن الإمام المنصور بالله حسين بن الإمام المتوكل على الله القاسم بن الحسين بن أحمد بن حسن بن الإمام القاسم:

مولده كما أخبر به شيخ الإسلام أنه أخبره أنه في سنة سبعين ومائة وألف، وهو أكبر أولاد أبيه الإمام المنصور بالله. بويع بالخلافة ليلة توفي والده وهي ليلة النصف من شهر رمضان سنة أربع وعشرين ومائتين وألف، فلما استكملت له البيعة وقعد على دست الخلافة نهض بمهمته العالية فأعاد من أساسها ما انفتق، وجمع من شتيتها ما قد تفرق فلم يزل على ظهر جواده ساعياً لإصلاح رعيته وبلاده يرتاح اشتياقاً إلى مباشرة الحروب، كما يرتاح العاشق الصبّ إلى لثم ثغر المحبوب، فلما أعاد إليها حُلاها، زفّها إلى خبائها واجْتلاها وكان قبل أن يلي الخلافة سيفاً لأبيه الإمام المنصور مفوّضاً إليه تدبير الأجناد نحو خمس وثلاثين سنة من أثناء العام الذي ولي والده فيه الخلافة وهو عام تسع وثمانين ومائة وألف إلى تاريخ وفاته، وكان ينوب عن أبيه في كثير من الأمور وتفاوضه الوزراء في عظام الواردات حتى ولي الوزارة الفقيه حسن بن حسن بن عثمان العلفي بعد أبيه الفقيه حسن بن عثمان، وكان قاصر الرأي سيء التدبير، فما زال يسعى بين المتوكل وأبيه حتى آل الأمر إلى شيء من الفرقة بينهما حسبما تقدم في مجريات شيخ الإسلام وكان المتوكل يتولى

معضلات الأمور في أيام والده المنصور ومنها اجتماع السادة الكباسية وبعض بيت أبي طالب في الروضة[1] على خلع المنصور والخروج عن الطاعة، وكان الساعي في ذلك السيد محمد بن يوسف[2] وحسّن لبعض آل الإمام المهدي وهو السيد أحمد بن عبد الله بن الإمام المهدي[3] الخروج من صنعاء إلى الروضة وأوهمه أنه سيجمع له الأمر وأقدموا على دار الإمام المنصور المعروف بالروضة «بدار البشائر» وأخذوا ما فيها ثم وثب السادة الكباسية على فتح بيوت أهل صنعاء التي في الروضة لأخذ ما فيها ثم خرج إليهم القاضي العلامة أحمد بن محمد الحرازي بأمر الإمام المنصور إلى الروضة ليصلحهم فلما وصل إليهم عرف أن الطمع غاية مرادهم[4] وهموا بقبضه بل كادوا لطمعهم فيه فغالطهم ثم خرج من الروضة هارباً ولقيه جماعة من أهل وادي ضهر[5] ليمنعوا عنه فلم يشعر الكباسية إلا بعد وصوله الوادي فندموا على ما فاتهم منه فلما عرف الإمام المنصور بسوء نياتهم وقبح فعالهم أمر ولده الإمام المتوكل في أيام إمارته بالخروج عليهم فخرج وفرق المحاط عليهم في جوانب الروضة من خارجها ورماهم بالمدافع حتى استولى عليهم وأدخلهم إلى صنعاء وكان ذلك في سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف.

ولما وصلوا إلى باب دار المنصور رحمه الله وقد عزم على ضرب أعناقهم

---

(١) سبق الكلام على الروضة.

(٢) لم يترجم لهذا محمد بن يوسف.

(٣) وهذا أيضاً لم أجد له ترجمة.

(٤) تأمل إلى هؤلاء الزعانف كيف يكدرون الأمن والاستقرار ويجرون من وراء لعبتهم الخراب والدمار بل ويلعبون بالنار لعب صبيان ويا ليت وهذه الجناية المجنونة ناشئة من الدعوى العريضة الجوفاء أبناء الله وأحبائه وما ندري متى تنقشع هذه الخرافة من عقول الصم البكم العمي.

(٥) قال لسان اليمن الهمداني في الإكليل (ج ٢ ــ ٥١) فأولد سعد بن عريب ــ ضهر بن سعد وإليه ينسب وادي ضهر من أرض صنعاء فيقال: وادي ضهر: بالضاد: بطن.
قال الحوالي: ويقع شمال صنعاء بمسافة ثلاث ساعات واليوم ربع ساعة بالسيارة. انظر الإكليل، ص ١١٩.

جميعاً بادر شيخ الإسلام إلى مقامه وما زال به زمانا حتى سكن غضبه وأودعو جميعاً السجن.

وللإمام المتوكل رحمه الله في أيام أبيه قضايا من مثل ذلك يطول شرحها، قرأ الإمام المتوكل على شيخ الإسلام في صحيح البخاري قراءة حافلة اجتمع بها أعيان علماء صنعاء في مقامه فازدادت بها سنّة رسول الله ﷺ شناراً عظيماً وشعاراً فخيماً رحمة الله عليه(١).

السيد العلامة الأديب أحمد بن علي بن محسن بن علي بن الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن الإمام القاسم الصنعاني:

ولد تقريباً عقب سنة خمسين ومائة وألف، اشتغل بطلب العلم بعد أن قارب الخمسين من عمره. أخذ على شيخ الإسلام في العلوم الآلية على اختلافها والحديث والتفسير وجلّى في العلوم الآلية بفهم صادق ودام على الاشتغال بالطلب على شيخ الإسلام نحو عشر سنين ووقع بينه وبين معاصريه من الطلبة ما يحصل بين أمثالهم من المنافسة وظنّ أن شيخ الإسلام يؤثر ذلك الشخص عليه ويرى له حقاً فوقه فتكدر خاطره وعظم الأمر عليه وجعل يروي للمتعصبين من الجهال ما حفظه من اجتهادات شيخ الإسلام من المسائل المخالفة لما عليه المذهب المعروف وكان عنده كتاب لشيخ الإسلام استعاره منه وقد كتب فيه مسائل مما أدى إليه اجتهاده فيه من المسائل العلمية الجارية على الصحيح من الأدلة منها مسألة الفرقة النّاجية وإنها من تمسك من فرق الإسلام بما بعث به رسول الله ﷺ على وفق ما كان عليه هو وأصحابه رضي الله عنهم وليس كما يدعيه أهل كل مذهب أنه ما كان عليه أهل مذهبه خصوصاً بل ما وافق ما كان عليه عمل رسول الله ﷺ وأصحابه من مذهب وغيره(٢)

---

(١) قال في هامش الأصل: وتوفي سنة ١٢٣١، وتأمل تقدير الإمام المتوكل أحمد للإمام الشوكاني وكم يحملان بين جنبيهما من تقدير واحترام لسنة خاتم المرسلين.

(٢) ما قاله الإمام شيخ الإسلام هو المعول عليه ولا محيص عنه وإن الفرقة الناجية هي التي تتمسك على ما جاء به رسول الله ﷺ وعمل الصحابة رضي الله عنهم هذا إن صح

ثم دفع دعوى كل مدعٍ يدعي غير ذلك فما زال المترجم له رحمه الله يعرض ذلك على كل من له نصيب في العلم يعرف فلم يساعده أحد منهم على تخبط القائل فعمد إلى العامة ومن بإزائهم من المتفيهقة المقصرين المتعصبين ويوهمهم بأن مثل ذلك من عظائم الأمور المستشنعة فأكثروا من أجل ذلك القال والقيل كما هي لهم عادة معروفة، وطريقة مألوفة:

فدعني وما قال الجهول فقوله كلمع سراب أو طنين ذبابِ[1]

ثم ترك الاشتغال بالعلم تركاً كلياً وذهب عنه رونق أهل العلم ورام بعد أعوام أن يراجع تلك الأيام، ويعود إلى ما كان عليه من طلب العلم والاشتغال به فلم يجبه إلى ذلك شيخ الإسلام وأظهر الندم والتوجّع من نفسه على ما فرط منه وعرف أنه ارتكب من عدم الأدب ما لا يليق.

ومن جملة ذلك قصيدة كتب بها إلى شيخ الإسلام يشير فيها إلى عدم مؤاخذة شيخه له وحلمه عنه ومكافأة إساءته بالجميل، قد تقدمت في فصل ما مدح به شيخ الإسلام من الأشعار وأولها:

يا قاضيا لفظ قاضٍ إذ تناوله زهى به كل منقوص من الكلمِ

حديث ستفترق إلخ ففيه مناقشة ويذكرني قول الزيدية ما حدثني الوالد المعمر عبد الله بن حسن الديلمي الذماري رحمه الله وكان من رجالات الدولة العثمانية: أن والي اليمن أحمد فيضي باشا كان من عادته أنه إذا عاد من صلاة الجمعة يجتمع إلى منزله جماعة من علماء صنعاء ويسألهم عن هموم المواطنين ويسترشد بآرائهم وتدور أيضاً مذاكرة علمية، وفي مرة من المرات دارت المذاكرة حول الفرقة الناجية فكل أدلى بمعلوماته وفيهم فلان الكبسي ذهب عني اسمه فقال: الفرقة الناجية «هم الزيدية» فأجابه في الحال أحمد فيضي الفرقة الناجية (من الصعدة إلى اليريم) وأين تذهب ببقية اليمن تهامتها وجبالها وحضرموت والحجاز ونجد والشام وظل يعدد الأقطار الإسلامية فبهت الكبسي حائراً.

(١) لا أعرف قائله.

العلامة الفاضل ذو المناقب العديدة، والفهامة الجامع لخلال الفضائل الحميدة أحمد بن لطف الباري بن أحمد بن عبد القادر الورد[1] خطيب صنعاء وابن خطيبها:

ولد في شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف. تلقى الخطابة بعد أبيه العلامة الشهير بالفضل والولاية وعمره في ثمان عشرة سنة فقام بها قياماً أذعن له به من كان يرى نفسه لها أهلاً.

وما الحداثة من حلم بمانعة   قد يوجد الحلم في الشبّان والشيب[2]

وعند أول خطبة قام بها بعد موت أبيه صكَّ المسامع وأجرى المدامع فمن طرب لبلاغته على حداثته وباك لموقع تعزيته لجليل حادثته ثم أكبَّ على أنواع العلوم حتى أحاط بمنطوقها والمفهوم وأخذ عن شيخ الإسلام في ضوء النهار، وشرح جمع الجوامع، ومن كبار مشائخه والده البر التقي لطف الباري بن أحمد، ومن مشائخه السيد العلامة إبراهيم بن عبد القادر والسيد العلامة محمد بن يوسف بن أحمد بن يوسف وجُمع فيه من محاسن الأخلاق ما لم يجتمع في غيره على الإطلاق ثم إنه انقبض عن الناس وأطرح أعباء التكاليف فمن قائل إنه انخلع عن الدنيا وأطرح تكاليفها الغرارة كما يفعله ذوو البصائر من الرجال الصالحين، ومن قائل إنه وقع في مزاجه جزء سوداوي أوجب ذلك ثم إنه لما وقع منه ذلك الانقباض[3] قام مقام الخطابة أخوه العلامة محمد بن لطف الباري وهو يقتفي أثره في أحواله الجميلة وشمائله الجليلة يفضله من وصل إلى صنعاء على جميع خطباء أهل الديار[4] الذين قد عرفهم بها وإنه لكذلك فصاحة وبلاغة وتمكناً لوعظه من قلوب السامعين وهو الآن يقرأ على شيخ الإسلام في كتب الحديث وفي تفسيره فتح القدير وفي سائر مؤلفاته ومن مشائخه أخو شيخ الإسلام القاضي العلامة يحيى بن علي الشوكاني قرأ عليه في الأصول وغيرها والسيد العلامة الفاضل أحمد بن زيد الكبسي المتقدم ترجمته وهو الآن يقرأ عليه.

---

(١) ترجم له الإمام الشوكاني (ج ١ ـ ٨٦).   (٢) هذا البيت للمتنبي.

(٣) في هامش الأصل: وتوفي رحمه الله سنة ١٢٥٢.

(٤) لعل العبارة: يفضله من وصل إلى صنعاء على خطباء أهل «تلك الديار».

القاضي العلامة الفاضل الألمعي، والذكي الفهامة اللوذعي أحمد بن علي بن محمد بن أحمد الطشي الصعدي[1] أصلاً والرداعي مولداً ومنشأً:

ولد سنة تسعين ومائة وألف، وقرأ في مدينة ذمار وغيرها وبرع في مقروءاته مع دقة فهم وجودة ذكاء وحسن مناظرة، وملكة في المناظرة، رحل صحبة شيخ الإسلام إلى مدينة ذي جبلة مع عزم شيخ الإسلام إليها صحبة الإمام المتوكل على الله رحمة الله في سنة ست وعشرين ومائة وألف وكان يتولى ما يرد من الخصومات المترافع فيها إلى شيخ الإسلام بأمره فيتولاها أحسن تولٍ ثم يعرضها على شيخ الإسلام فيجيزها، سمع عليه في صحيح مسلم وغيره مع من كان يحضر عليه الدرس في تلك الرحلة وسمع عليه في بعض مؤلفاته ومن مشائخه السيد العلامة الرحلة حسين بن يحيى الديلمي، صاحب ذمار وقرأ على شقيق شيخ الإسلام العلامة يحيى بن علي الشوكاني في جامع الأصول ومغني اللبيب والبخاري وقرأ في مدينة زبيد على الشيخ محمد المزجاجي وعلى أخيه عبد الخالق المزجاجي[2] وله شعر حسن كتب إلى القاضي يحيى بن علي الشوكاني أبياتاً، وهي:

كتبت إلى مَنْ تيمتْني محامده ... وأستصغر الأوصاف حين أشاهده
إلى فاضل لا تحسب الفضل إن أتى ... ولا النيل إلا شخصه وفوائده
إلى عالِمٍ يشفيك في كل مبحث ... وتأتي بأضعاف المراد زوائده
ولا غرو صنو البدر بدر تصاعدت ... مصادره نحو العلا وموارده
عماد المعالي ليس في القول بسطة ... فأحصر فضلاً أنت في الناس قائده

---

(١) قال في هامش الأصل: وتوفي سنة ١٢٧٩، وترجم شيخ الإسلام للقاضي الطشي في البدر الطالع (ج ١ ـ ٨٥) وللطشي هذا ذرية صالحة برداع ذكرنا أحدهم في تاريخنا.

(٢) ترجم لعبد الخالق المزجاجي، المؤرخ زبارة في ملحق البدر الطالع، ص ١١٤، وكانت وفاته سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف.

وكيف وأنت المرء في كل حالة ... يحالفه فضل ومجد يُعاقده
ولكنّ لي ودّ يؤاتيك في العُلا ... وفضل دعاء ليس تخفى شواهده

فأجاب عليه:

إلى ابن عليّ أحمد من سمت به ... إلى غاية فوق المعالي محامده
إلى عالم لو كان للفهم صورة ... لكان عليه تاجه وقلائده
ولو أن شخصاً صيغ من عنصر الذكا ... لكان به برهانه وشواهده
ولو فاخرت صنعاً رداع بمثله ... لكان لها الحكم المعدل شاهده
على أنه في ذلك المصر واحد ... وما مثله إلا كثير حواسده
وإن ضلّ عنه أهله فلربّما ... يضلّ سبيل المنهل العذب وارده

القاضي الذي خطب الفضائل فألقت إليه عنان زمامها، وسعى لإدراك الفواضل فاستوى على ذروة سنامها، إمام أئمة مشائخ الفروع بلا مدافع، وفارسها المجلّى في مضمار سبق رهانها بلا مقارع ومنازع، أحمد بن محمد بن أحمد بن مطهر القابلي[1] نسبة معروفة إلى جماعة يسكنون قريباً من حصن شبام حراز المعروف بالحرازي نسبة، والذماري مولداً ولد حسبما كتبه بخطه إلى شيخ الإسلام في يوم الأضحى من شهر الحجة سنة ثمان وخمسين ومابة وألف.

تقدمت ترجمته في مشايخ شيخ الإسلام وإنما ذكرناها ههنا لأنه أخذ عن شيخ الإسلام في البخاري في مقام الخلافة حضرة الإمام المتوكل على الله رحمه الله مع غيره من الأعلام كالسيد السند العلامة عبد الله بن محمد بن إسماعيل الأمير، أخذ عن شيخ الإسلام مع غيرهما من علماء العصر فذكر القاضي الحرازي هنا من جهة أخذه وفيما تقدم من جهة الأخذ عنه وهو من أخذ الأكابر عن الأصاغر.

---

(١) تقدم ذكره وقد اعترف المؤلف بالتكرار واعتذر لذلك بما ذكره ولم يذكر ما نوّه به في ص   من الشعر.

السيد العلامة أحمد بن محمد بن حسين بن حسن بن علي بن حسن بن الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن الإمام القاسم عليهم السلام[(١)] :

ولد تقريباً سنة عشر ومائتين وألف، قرأ عليه جماعة من علماء صنعاء في الآلات وله شعر حسن له[(٢)] في شيخ الإسلام قصائد وقرأ عليه في الآلات وعلم البيان وقرأ عليه في شرح المنتقى مع جملة التلاميذ في القراءات المذكورة وقرأ على القاضي العلامة يحيى بن علي الشوكاني وعلى السيد العلامة أحمد بن زيد الكبسي وعلى القاضي العلّامة ابن شيخ الإسلام علي بن محمد بن علي الشوكاني كما تقدم.

القاضي العلامة الفاضل والنبيه الفهامة الكامل أحمد بن يوسف الرباعي[(٣)] :

ولد بصنعاء سنة خمس وخمسين ومائة وألف ونشأ بها وأخذ العلم عن جماعة من علمائها واتصل بالحاكم الأكبر القاضي العلامة يحيى بن صالح السحولي وكان يتولى له أعمالاً من أعمال الشرع ثم بعد موت القاضي يحيى رحمه الله اتصل بشيخ

---

(١) ترجم له المؤرخ زبارة نقلاً عن الشجني المؤلف، في نيل الوطر (ج ١ ــ ١٠٩).

(٢) هذه الجملة ركيكة جداً.

(٣) في هامش الأصل: وكانت وفاة صاحب الترجمة والدنا رحمه الله في يوم الاثنين غرة شهر القعدة الحرام سنة إحدى وثلاثين ومائتين وألف. وكان للمترجم له اليد الطولى في علم الحديث ومشائخه الأعلام فأخذ عن شيخ الإسلام محمد بن إسماعيل الأمير وولده العلامة إبراهيم بن محمد والقاضي أحمد بن محمد قاطن والسيد علي بن عمر بن محمد القناوي بسند عال بينه وبين البخاري عشرة أنفس وأخذ عنه جماعة من الأعيان مثل السيد علي بن عبد الله الجلال والعلامة علي بن إسماعيل النهمي وكاتب الأحرف وكان له خط تضرب بحسنه الأمثال، وصناعة في تحرير الأحكام تطرب له الأسماع والحفظ للوقائع المتقادمة الأزمان ولم يكتسب بيتاً ولا مالاً مع اتساع ما حصل من فوائد الأعمال الكبار، رحمه الله رحمة الأبرار وأسكنه بحبوح الجنان. تمت. كاتب هذا خط ولده حسن بن أحمد الرباعي.

الإسلام وأخذ عنه في الحديث كالبخاري وغيره وفي الأحكام للإمام الهادي عليه السلام وصار من جملة حكام الديوان وما زال ملازماً لشيخ الإسلام في كثير من دروسه في مؤلفاته وغيرها وكان حسن المحاضرة والمذاكرة ليس له همّ في الدنيا بغير كفاف الحال لا ينظر إلى ما فوق ذلك مع توليه لكبار الأعمال يعمل بما صحّ من الدليل عن فهم صادق، ورأي صائب، وبإدراك للحقائق، وكان يتولى من الأمور الشرعية قضايا فيخرجها إلى أحسن مخرج مع عفاف وقنوع وديانة صادقة، وكان ذا معرفة للآلات لا سيما علم العربية وفي الفقه والحديث.

القاضي العلامة أحمد بن علي العودي[1] :

والعود مخلاف من مخاليف قعطبة كان عالماً بفروع الشافعية متقناً لها وارتحل إلى صنعاء اليمن فقرأ فيها على القاضي العلامة محمد بن أحمد السودي[2] في مختصر الآلات وعلى القاضي العلامة علي بن هادي عرهَبْ وقرأ على شيخ الإسلام في بعض كتب الحديث ثم انتقل إلى بلده فولي بها القضاء فسار في أهلها سيرة حسنة وكان سريع الفهم صحيح التصور ذكي الفطنة ناهٍ للمنكرات في بلده قوالاً بالحق وهو الآن ثابت على ذلك[3] .

السيد العلامة النبيل، والفاضل الفهامة الجليل إسماعيل بن إبراهيم بن الحسين[4] بن الحسن بن يوسف بن الإمام المهدي محمد بن الإمام المهدي أحمد بن الحسن بن الإمام القاسم عليه السلام:

ولد في سنة خمس وستين ومائة وألف بصنعاء المحمية ونشأ بها واشتغل

---

(١) انظر الإكليل (ج ٢ ـ ١٤٧) وقعطبة بلدة لا زالت عامرة شرقي مدينة تعز وجنوب مدينة ذمار مسافة يومين لذلك التاريخ بالجمل والإقدام وغير ذلك من المركوبات.

(٢) يأتي ذكره.

(٣) تفرد المؤلف بترجمة علاّمتنا العودي ولا ندري ما سبب إغفال شيخ الإسلام وغيره عن ذكر هذا الرجل الشافعي رحمهم الله جميعاً.

(٤) زيادة «ابن الحسين» من البدر الطالع (ج ١ ـ ١٣٧) فالإمام الشوكاني ترجمه وساق نسبه.

بطلب العلم على كثير من مشائخها مع كمال تصوره وجودة إدراكه مع حسن سكينة ووقار واشتغل بذكر الله والعبادة وله في انشراح الصدر وسعة الاحتمال والصبر على الأمور التي تضيق بها صدور أهل الرصانة وعدم الاكتراث ببواعث ما يوجب ضيق الصدر وقلق الطباع ما لم يعرف في شخص من أهل زمانه.

قال شيخ الإسلام: لم أرَ أحداً ولا أعرف من أهل زماني مثل السيد إسماعيل بن إبراهيم في احتماله وصبره وحسن خلقه فإنه ما زال ملازماً لي زيادة على أربعين سنة لا أعرف منه غضبة غضبها ولو مرة واحدة مع كثرة ما يحصل بين التلاميذ من طلبة العلم من المذاكرة والمناظرة المؤدية إلى ذلك فيما بينهم بل غاية ما يتلقى ذلك بالتبسم وبرودة الطبع وانشراح الصدر. قرأ على شيخ الإسلام في الفقه والأصول والحديث ولازمه على الاستمرار في غالب دروسه وحصّل من مؤلفاته بخطه كثيراً مثل فتح القدير وغيره وأسمعها عليه مع جملة الطلبة حتى توفاه الله في شهر محرم سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف.

القاضي العلامة إبراهيم بن أحمد بن يوسف الرباعي[1]:

ولد تقريباً في سنة تسع[2] وتسعين ومائة وألف، وقرأ الأزهار على الفقيه العلامة الفاضل سعيد بن إسمعيل الرشيدي[3] رحمه الله وقرأ الفرائض على القاضي العلامة حسين بن محمد دلامة[4] وقرأ في الآلات على جماعة من المشائخ وأكثر ما أخذ

---

(١) الرباعي هذا ولد المتقدم ولم أجد من ترجمه والمحفوظ والمتداول اليوم بضم الراء ثم باء موحدة وألف وعين مهملة وياء، ولهم في صنعاء بيت واحد، وقد ترجمنا لعبد الرحمن الرباعي في كتابنا المذكور وهذا الضبط لمن تقدم ترجمته ولمن يأتي وهذا وترجم له المؤرخ زبارة (ج ١ ــ ١٠).

(٢) كذا في الأصل وفي زبارة «تسعين ومائة وألف» ولعله واهم.

(٣) الرشيدي ترجمه المؤرخ زبارة (ج ١) في غرة الكتاب وترجمه صاحب مطالع الأقمار وجحاف وكلهم يثنون عليه. مولده سنة ثلاث وستين ومائة وألف ووفاته سنة عشرون ومائتين وألف.

(٤) ترجم لدلامة المؤرخ زبارة (ج ١ ــ ٩٩) من نيل الوطر. مولده سنة ١١٧٠هـ ووفاته بالقرن الثالث عشر.

عن القاضي العلامة محمد بن أحمد السودي وهو ذو فهم مصيب وذكاء عجيب كامل العقل محمود الرصانة، متين الديانة له همة عالية ونفس سامية غالب أحواله الصمت وترك الاشتغال بما لا يعنيه ومجاوزته إلى ما يعنيه من خاصة نفسه مع معرفة لحقائق الأمور يتولى القضاء بعفاف وقناعة سالكاً مسلك والده العلامة أحمد بن يوسف الرباعي المتقدم ترجمته اشتغل في أيام حياة أبيه بالقيام به وحسن الطاعة له والقيام بما يحتاجه حتى توفاه الله راضياً عنه ثم قام بعد موت أبيه بأرحامه بعده[1] قليل المخالطة للناس مشكوراً فيما تولاه من فصل الخصومات لم يؤثر عنه ما يقدح به في دينه قرأ على شيخ الإسلام في تفسيره وبعض شرح المنتقى وفي بعض سائر مصنفاته وفي شرح الرضي وغيره.

السيد العلامة الفاضل الورع إسماعيل بن أحمد الكبسي الملقب بمغلس[2]:

قرأ على كبار المشائخ بصنعاء وأدرك دقائق العلوم، منطوقها والمفهوم وصار مدرّساً بجامع صنعاء يفيد الطلبة. قرأ على السيد العلامة علي بن عبد الله الجلال والسيد العلامة الإمام حسن بن يحيى الكبسي وأخذ الفقه على القاضي العلامة أحمد بن محمد الحرازي وبرع في جميع مقروءاته على مشائخه، وقرأ على شيخ الإسلام في شرح العضد على مختصر المنتهى وفي سنن الترمذي ليس له شغل سوى تحصيل العلوم والطاعات صلب الدين تعتريه جدَّة إذا شاهد شيئاً من المنكرات حتى خرج في سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف وعزم إلى حصن الظفير[3] مع جماعة

---

(١) لفظة بعده دخيلة لا حاجة لها.

(٢) قبر مغلس هذا في مدينة ذمار معروف إلى التاريخ وعليه قبة ذات قوائم أربع ولم تتم له الإمامة بل ضحى بجماعة من العلماء أو هم الذين ضحوا بأنفسهم من التشرد والانفلات وترجمه الإمام الشوكاني (ج ١ ـ ١٤١) ولم يذكر دعوته الإمامة ولعله حرر التاريخ قبل دعوة المغلس وكانت وفاته سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وألف.

(٣) الظفير: هو المشهور بظفير حجة حصن شمال حجة بمسافة يسيرة وفيه قبر أعلام ذكرناهم في المعجم.

متسمين بالفقه وحسّنوا له الدعوة إلى نفسه وبث دعوته إلى سائر البلاد وجرت له أمور في ذلك ثم تركوه وعادوا إلى أوطانهم فأضرب عن ذلك واستقر في مدينة صعدة لنشر العلم بها واجتمع عليه الطلبة فاستفادوا منه ثم عاد إلى هجرة الكباسية بخولان[1] فاستوطنها وتفرغ بها لطلبة العلم والوعظ وله نيّة صادقة في الوعظ يدرك لها قلب كل مستمعه موقعاً وقد رشد على يده من أهل تلك الجهات جماعةٌ كانت قلوبهم غُلْفاً وهو الآن مستمر على ذلك.

القاضي العلامة المدقق والنبيل الفهامة المحقق حسن بن أحمد بن يوسف الرباعي[2] الصنعاني:

ولد على رأس القرن الثاني عشر، قرأ على مشائخ وقته في علوم الآلات على اختلافها والفقه والحديث ونبل في جميع ذلك وأقرأ وأفاد، أخذ على السيد العلامة حسن بن يحيى الكبسي وعلى القاضي العلامة يحيى بن علي الشوكاني وعلى القاضي العلامة محمد بن أحمد السودي وغيرهم وله فهم كامل وذكاء مفرط مع جودة حافظة وحسن تصور وإدراك للدقائق وفهم للحقائق مع عقل رصين ودين متين وقد صار الآن من مشائخ العلم تؤخذ عنه في مختلف فنونها وله تلاميذ نبلاء. لازم شيخ الإسلام مع أبيه المتقدم ترجمته مدة ملازمة أبوه[3]، مع صغر سنه فكان ربما يسبق فهمه إلى شيء من الدقائق قبل أن يسبق إلى فهم أحد من كبار الطلبة وهو إذ ذاك في سن التكليف وقبله وبعده، وبعد أن توفي، والده استمر على ملازمة شيخ الإسلام وحصّل نيل الأوطار مؤلّف شيخ الإسلام بخطه أسمع على شيخ الإسلام في علم المعاني والبيان وفي علم التفسير وفي الصحيحين وجميع السنن وغالب دروسه وهو الآن يسمع عليه الكشاف للزمخشري وقد جمع كتاباً حافلاً

---

(١) هجرة الكباسية: قرية كبيرة قديمة لها ذكر في تاريخ اليمن الحضاري وذكر منها أقيال وأذواء وتقع جنوب صنعاء تحت جبل كنن. راجع المعجم.

(٢) ترجمه الإمام الشوكاني (ج ١ ـ ١٩٤).

(٣) كذا في الأصل وصوابه (أبيه).

لنفسه في الأحكام سمّاه «فتح الغفار، لجمع أحكام سنة المختار»[1] جمع فيه شوارد وفوائد وزوائد على المنتقى[2].

القاضي العلامة الحسن بن قاسم المجاهد[3]:

ولد تقريباً في سنة تسعين ومائة وألف. سكن هو وأهله مدينة ذي جبلة من اليمن الأسفل وكان في الأصل ساكناً في ذمار عارفاً بالفقه والفرائض مع مشاركة في النحو والأصول وعلم الحديث وهو صحيح الفهم جيد الذكاء. قرأ على شيخ الإسلام عند وصوله إلى مدينة ذي جبلة في سفرته مع المتوكل على الله رحمه الله في الحديث والأصول ولازمه مدة بقائه هنالك مع جملة الملازمين له من أهل تلك الديار وأجاز له شيخ الإسلام في مرويّاته وحصل بعض مؤلفاته بخطه بل كثيراً منها وبه رغوب للعلم لو تفرغ له لكان أهلاً لأن يصير به من كبار العلماء ثم ولّي القضاء بذي جبلة وهو الآن باقٍ عليه.

القاضي العلامة ذي الأخلاق الرخيّة، والشمائل السنيّة الحسن بن محمد بن صالح السحولي[4]:

ولد في سنة تسعين ومائة وألف عارفاً بالفروع، معرفة كاملة والفرائض مع مشاركة في العربية وبعض الأصول. قرأ على السيد العلامة الحسن بن يحيى الكبسي في علم الحديث وعلى القاضي العلامة حسين بن محمد العنسي رحمه الله

---

(١) في هامش الأصل: فتح الغفار الجامع لأحكام سنة نبينا المختار تمت بقلم مؤلفه، وتحت ذلك في الهامش سنة ١٢٧٩، قال الحوالي: وقد طبع فتح الغفار بالقاهرة المعزية ونشر.

(٢) في هامش الأصل توفي في سنة ٧٦، وكذا في هامش البدر الطالع إن وفاة الحسن الرباعي سنة ست وسبعين ومائتين وألف.

(٣) ترجمه الشوكاني (ج ١ ــ ١٠٩) وحكى عن معارفه ما حكاه هنا وفي الهامش الأصل: توفي سنة ١٢٧٦ أو في التي بعدها، وكذا في هامش البدر الطالع.

(٤) ترجم له المؤرخ زبارة في نيل الوطر (ج ١ ــ ٣٥٤) وقال: حاكم تعز، وسرد أخذه للعلوم إلى أن قال: وكانت وفاته حاكماً بتعز سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف.

في بعض علوم الآلـة وشـرح الجـلال على الأزهـار، وقـرأ على شيـخ الإسـلام في بعض كتب الحديث وبعض مؤلفاته. وكان به من لطف الشمائل ورقّة الطباع وسماح الطبـع وكرم الأخلاق ما لم يكن لغيـره من لطفـاء أهل عصـره مـع كرم فيـاض يجود بما يمكنه ويملكه حتى إنه قد يضرّ بنفسه في بذل علقه ونفيسه وكان شيخاً في كتاب الله عاملاً بسنّة رســـول الله ﷺ متقيداً بما صح من الدليل. تـوفي رحمه الله في تعز[1] قصبة، اليمن الأسفل حاكماً بها في سنة ١٢٣٤هـ.

الفقيــه العـلامــة والأديب الفهـامــة حسـين بن عــلي العمــاري الصنعاني[2]:

ولد سنة سبعين ومائة وألف نشأ بصنعاء وطلب العلم بها قراء على جماعة من مشائـخ صنعاء في النحو والصرف والمعـاني والبيان والمنـطق والأصول، وقـرأ على شيـخ الإسلام في شرح الرضي وفي مغني اللبيب وفي شرح غاية السّـول وفي شرح مختصر المنتهى للعضد ثم ارتحل إلى بلاد عمّار[3] وهو وطنه الأصلي فأقـام به ولـه نظم فائق إلى شيـخ الإسلام يطلب منه التوسـع له كغيره في الأخذ عنه فأسعده إلى ذلك لحرصه على تحصيل العلم مـع ذهن قابل وفهم لإدراك الحقائق كامل.

القـاضي الذي تجلّت بجليّ أنـظاره بطون الـدفـاتـر، وجـرى اليـراع بـذكـره فتطأطأت له أفواه المحابر:

بــدر سـمــا أوج الـعــلا بـمـعــارف   وجــرى الـيــراع بــذكــره فتبخـتــرا
الـعــالـم الـبــرّ الـلبـيـب أجـلّ مَـنْ   يمشي الهــويـنـا عــالـمــاً مـتـبـحــرا

---

(١) تعز اليوم هي العاصمة الثانية لليمن وهي غيرها بالأمس الدابر أو المدبر فقد مـلأت الرحـاب والأودية والهضاب. انظر المعجم. وكانت عاصمة الدولة الـرسوليـة من سنة ثـلاث وخمسين وستمائة هجرية.

(٢) ترجمه الإمام الشوكاني في البدر الطالـع (ج ١ ـ ٢٢٣)، وأورد له مقطوع شعر وكـانـت وفاة صاحب الترجمة في سنة خمس وعشرين ومائتين وألف ببلاد عمار.

(٣) عمار مخلاف من مخـاليف اليمن جنوب مـدينة ذمـار يكتنفه ميـزاب بنا وميـزاب خبان وكـان يسمى قديماً: «مخلاف نسفان» نسبة إلى قيلٍ من أقيال حمير.

الحسين بن محمد بن عبد الله العنسي الصنعائي[1]:

ولد سنة ثمان وثمانين ومائة وألف. طلب العلوم الدقيقة فأدرك مدارك خفيّاتها على الحقيقة. أخذ على العلامة المحقق السيد إبراهيم بن عبد القادر بن أحمد صاحب كوكبان وعلى العلامة الفاضل القاضي عبد الله بن محمد مشحم[2] وعن غيرهما من مشائخ عصره في علم المعقول والمنقول وله في إدراك الدقائق وتصور كنهها ملكة فاق بها على أقرانه من أهل زمانه وتصدّر لتدريس المعارف فأخذ عنه الطلبة على اختلاف مقاصدهم واستفادوا من ثمار معارفه مع انشراح صدر وسلامة خاطر وصبر على مزاولة دقائق المعاني يقبل عليها إقبال الظمآن على العذب الزلال بصبر لا يشوبه ملل وعزم لا يعتريه سأم ولا كسل.

وقرأ على شيخ الإسلام في شرح الرضي على الكافية وأخذ عنه في شرح المنتقى وقرأ عليه في شرح العضد وحواشيه وأخذ عنه في المطول وحواشيه وفي الكشاف وحواشيه وقرأ عليه أيضاً في مؤلفات شتى.

عيّنه إمام الزمان المهدي لدين الله حفظه الله لحكومة زبيد في سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف بعد رجوعها من أيدي أشراف تهامة إلى مملكة الدولة القاسمية أدام الله عزّها، وكان تعيين المذكور بملاحظة شيخ الإسلام في ذلك لما رآه أهلاً لما هنالك ثم عاجله الأجل المحتوم فانتقل إلى جوار الحي القيوم، في ذلك العام وقبر في مدينة بيت الفقيه بن العجيل[3] رحمه الله رحمة الأبرار وغفر له وتجاوز عنّا وعنه.

---

(١) ترجمه الإمام الشوكاني في البدر الطالع (ج ١ ـ ٢٢٨).

(٢) عبد الله بن محمد مشحم الصعيدي: ترجمه الإمام الشوكاني (ج ١ ـ ٣٩٥) مولده سنة ستين ومائة وألف وكانت وفاته سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف كما في هامش البدر الطالع.

(٣) بيت الفقيه: من المدن التهامية الشهيرة من الدولة الرسولية إلى التاريخ وتقع شمال مدينة زبيد وجنوب ميناء الحديدة.

القاضي العلامة الفاضل الحسين بن يحيى السلفي الصنعاني[1] :

ولد تقريباً بعد سنة ستين ومائة وألف وأخذ عن جماعة من علماء صنعاء منهم إمام المشائخ في الدراية والرواية السيد عبد القادر بن أحمد والسيد العلامة التقي علي بن إبراهيم بن عامر وعلى شيخ الفروع العلامة أحمد بن محمد الحرازي، وأدرك في علوم الآلات واستفاد وأفاد وكان رحمه الله كثير العبادة كثير الأذكار ملازم الطاعة في الجماعة يعمل بما صحّ عن رسول الله ﷺ ، أخذ عن شيخ الإسلام في دروس متعددة مع حسن سمت وفهم ودرّس في جامع صنعاء في أدوال مختلفة رحمه الله .

القاضي العلامة صالح بن محمد العنسي[2] الصنعاني :

ولد في سنة «المائة بعد المائة والألف»[3] . أخذ العلم عن جماعة من أهل العلم واستفاد في علم الحديث ورجاله فإنه قوي الفائدة حسن الإدراك فيه، قرأ على شيخ الإسلام في الصحيحين وسنن أبي داود وقرأ عليه في بعض مؤلفاته وحصّلها وهو الآن يقرأ عليه في تفسيره فتح القدير وفي غيره من مؤلفاته كالسّيل الجرّار وشرح المنتقى وشرح العمدة .

وأذِن له شيخ الإسلام بتولي القضاء من جملة قضاة صنعاء وهو ذو عفّة وقنوع يثني عليه كثير من الناس ليس به طمع لدينه وسمو همته .

القاضي العلامة الذي طلعت شموس معارفه فأنارت ربوع المدارس وحلّق بدر اجتهاده في سماء الإنصاف فانجابت بكماله داجي الحنادس :

---

(١) السلفي : ترجمه الإمام الشوكاني (ج ١ ـ ٢٣٧) . قال الإمام الشوكاني : وتوفي المترجم له سنة ثلاثين ومائتين وألف ، ولعل نسبته بالسلفي إلى السُّلْفية إحدى نواحي مخلاف ريمة .

(٢) ترجمنا لهذا العلامة الرباني صالح بن محمد العنسي رحمه الله في كتابنا «عالم وأمير» ص ١٥٩ ، وحكينا بعض تقشفه وزهده وترجمنا لأولاده وأحفاده هنالك . وعين حاكماً بإب .

عبد الرحمن بن أحمد بن حسن بن علي البَهْكَلِي الضمدي ثم الصبياني[1]:

ولد في سنة ثمانين ومائة وألف ونشأ بها وقرأ على والده وغيره من أهل صَبْيا[2] ورحل إلى صنعاء سنة اثنتين ومئتين وألف وأخذ عن كبار مشائخها مثل الإمام العلامة عبد القادر بن أحمد الكوكباني والعلامة الحسن بن إسماعيل المغربي والسيد العلامة عبد الله بن حسن بن علي بن الحسن بن علي بن الإمام المتوكل وعلى القاضي العلامة علي بن هادي عرهب وغيرهم من هؤلاء المشائخ.

وأخذ عن شيخ الإسلام في عدة فنون واختص به اختصاصاً كاملاً كما ذكره فسح الله في مدته، وسأله بمسائل عديدة وأجاب عليه برسائل طويلة ومختصرة، وعاد صاحب الترجمة إلى وطنه وقد نال في علوم الآلات منالاً واسعاً وكذلك في علم الحديث، وكان دقيق الذهن حسن التصور سريع الفهم ثم عاد إلى صنعاء فقرأ على شيخ الإسلام شرح مختصر المنتهى للعضد وحاشيته للسعد وفي الجزازيّة وشرحها في العروض.

وكان بين شيخ الإسلام وأهل زمانه من الجفاء والوحشة ما يكون بين من قام في مقام النبوة وبين الجهلة من أهل زمانه كما قال ورقة بن نوفل[3] للنبي ﷺ: ما جاء أحد بما جئت به إلا عُودي وهكذا حال المبلغين عنه من مجتهدي أمته لا يخلون من عداوة أهل الجهل والمتعصبين لما نشأوا عليه كما كانت قريش في زمانه ﷺ فليس عالم يأتي بما أتى به إلا لقي من الأذى مثلما لقيه منذ انقرض عصر النبوة إلى زماننا هذا يبتلي الله العلماء بجهلة أزْمنتهم كما ابتلى

---

(١) عبد الرحمن البهكلي ترجمه الإمام الشوكاني (ج ١ ـ ٣١٨)، ولبعض قرابته قال الحوالي: ولبني البهكلي بقية في مواطنهم تهامة ثم في المخلاف السليماني قال زبارة في نيل الوطر (ج ٢ ـ ٣٢) وكانت وفاته سنة ١٢٤٨هـ. والضمدي نسبة إلى وادي ضمد من المخلاف السليماني.

(٢) صبيا: بفتح الصاد المهملة وسكون الباء الموحدة ثم ياء مثناة من تحت ثم ألف: مدينة عامرة حتى عهدنا من المخلاف السليماني وقد توسعنا في الكلام عنها في المعجم.

(٣) ورقة بن نوفل هو ابن أسد بن عبد العزى وهو ابن عم خديجة زوج رسول الله ﷺ. انظر السيرة (ج ١ ـ ١٩١).

خير خلقه بجهلة عبّاد الأصنام، سنّة سنّها الله سبحانه لكل من جاء بالحق ليضاعف له الأجر كما قال لقمان في وصيته لابنه بأنّه يقول الحق ويصبر على ما أصابه وقال إن ذلك من عزم الأمور فعلم بذلك أنه لا يقوم أحد في مقام الحق في التبليغ عن الله وعن رسله إلا ابتلى بأهل عصره وأوذي بهم من قديم الزمان كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾[1] وكذا المبلّغون عنهم ثم تكون العاقبة لله ولرسوله وللمؤمنين كما قال تعالى، والعاقبة للمتقين، فما زال صاحب الترجمة يصول بالحق ويجول به على السفهاء من الجاهلين ويكافح وينافح عن شيخ الإسلام بقول الحق فاتخذها له يداً ولأمثاله من أهل البصائر في الحق المؤدين عن الله وعن رسوله ما حُمِّلوا فنصرهم وأظهرهم كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ وكم من أمثال هؤلاء في العلم ودرجة العرفان ما زالوا يداجون ويسالمون أهل الجهل، إذا ما الوهم عن ذلك مرّضوا العبارة وأظهروا كراهتهم لذلك فيذهب عنهم الجاهل وقد أمروه بجهله ويرى أنه على بصيرة وإذا اتفقوا بمن يعلمون أنه يعرف الأقوال الصحيحة من السقيمة أظهروا التوجع من الزمان وأهله وأن المعروف قد صار منكراً فيكونون لا من هؤلاء ولا من هؤلاء بل قولهم أشبه حالاً بمن قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾[3] فما زالوا مضروبين بسوط الذلّ:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظّموه في النفوس لعظما[4]

وكان قول أهل الباطل أشدّ موقعاً في قلوبهم من قول الحق وما زال أنصار الحق في عزة ورفعة، وجلال ومنعة مؤيّدين منصورين كما قال تعالى: ﴿فَأَيَّدنا الذين آمنوا

(١) سورة الفرقان: آية ٣١.

(٢) سورة غافر: آية ٥١.

(٣) سورة البقرة: آية ١٤.

(٤) سبق فيما مضى أنه للقاضي الجرجاني وكان في الأصل (لعظموا) بالجمع وهو خطأ فصححنا ذلك كما ترى.

على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾[1].

ثم وصل المترجم له إلى صنعاء مرة ثالثة في سنة إحدى عشرة ومائتين وألف وكان شيخ الإسلام قد تقلّد وظيفة القضاء الأكبر ألزمه ذلك خليفة العصر الإمام المنصور بالله رضي الله عنه فما زال صاحب الترجمة يواصله في أكثر الأوقات ويحضر دروسه، ثم سعى له شيخ الإسلام بقضاء بيت الفقيه ابن عجيل في قطر تهامة فولاه الإمام ذلك وهو إلى الآن عام اثنين وأربعين ومائتين وألف باقٍ على توليه ذلك.

ومن نظمه الفائق في باب الحماسة وقد رأى لشيخ الإسلام أبياتاً في ذلك وهي:

ولي سلف فوق المجرَّة خيّموا	سرادقهم من دونه كل كوكبِ
رقوا في مراقي العزّ شأواً ممنّعاً	وذادوا الورى عنه بحد المشطبِ
فما منهم في قومه غير سيد	يروح ويغدو وهو بالمجد محتبي
وما بي عن أشواطهم من تخلّف	ولا ركبوا في مجدهم غير مركبي
ولكنها الأيام يلبسها الفتى	على قدر من غالب أو مغلّبِ
وإني امرؤ أمّا نجاري فخالص	وأما فعالي فاسأل الدهر واكتبِ
ولست بنبّاس لثوبٍ مزوّر	ولكن ضوء الشمس غير محجّبِ
وإن فتى يغشى الرزايا وبيته	على قمة العليا فتى غير مغتبي
فما المرء إلا مَنْ ينوء بنفسه	إلى منزل فوق السماء مطنّبِ
ولا خير في خفض من العيش دونه	تجرّع كأس الذل من أي مشربِ

فلما اطلع عليها صاحب الترجمة عافاه الله قال مذيلاً لها على نمطها.

فديتك يا مَنْ ألبس الدهر أدرعاً	بنظم يروع الجيش عن كل مطلبِ
نماك الأولى خطّت أسنّة دينهم	سطوراً بمحمّر النجيع المتربِ

---

(١) سورة الصف: آية ١٤.

خطوب إذا جُرْد السلاهب أغمدت حفاظهم أكرم به خير مَقْنِبِ
إذا النقع غطى آية الشمس أطلعت أسنتهم شهباً على كل أشهبِ

القاضي العلامة الفاضل عبد الرحمن بن حسن الريمي الذماري(١):

ولد سنة سبعين ومائة وألف، قرأ على علماء ذمار، وعلى السيد العلامة حسين بن يحيى الديلمي شيخ المشائخ في مدينة ذمار وعرف في الآلات معرفة صحيحة.

وهو أول من اشتغل من علماء ذمار بعلوم الآلة وعرفها وكانت قراءته فيها على السيد المذكور، وقرأ على شيخ الإسلام في صنعاء وهو من أهل العبادة والديانة والصلاح ومن العلماء العاملين بالأدلة الراغبين في اتباع الحق والعمل به المتمسكين بالإنصاف وله اشتغال بمصنفات شيخ الإسلام والعمل بما فيها وهو الآن من أعيان مدينة ذمار ومن المشتغلين بالدرس والتدريس والعبادة.

العالم الفاضل عبد الله بن شرف الدين المهلل(٢):

ولد سنة سبعين ومائة وألف وسكن هو وأهله مدينة ذي جبلة وله معرفة تامة بفقه الشافعية وفهم صحيح وزهد تام وتأله. قرأ على شيخ الإسلام عند وفوده إلى مدينة ذي جبلة مع مولانا الإمام المتوكل على الله في مشكاة المصابيح وسمع عليه في غيرها من كتب الحديث من جملة المستمعين عليه هنالك وكان كثير الأذكار والعبادة والزهد والقنوع من الدنيا بما تيسر من المعيشة رحمه الله تعالى.

السيد العلامة الفاضل عبد الله بن عامر الحوثي ثم الصنعاني(٣):

أخذ الفقه عن شيخ الإسلام واستفاد فيه وقرأ عليه في شرحه للمنتقى وفي مؤلفه

---

(١) ترجمه المؤرخ زبارة (ج ٢ ــ ٢٨) وترجمه أيضاً في مطالع الأقمار، ووفاته سنة سبع وأربعين ومائتين وألف.

(٢) ترجمه الإمام الشوكاني (ج ١ ــ ٣٩٢) وأثنى عليه ووفاته غير محدودة إلا أنه قال زبارة في القرن الثالث عشر وبنو المهلل لهم بقية في مخلاف بعدان ثم منه في عزلة ضابي.

(٣) لم يترجم له ممن كتبه بين يدي.

السيل الجرار واشتغل بتحصيل هذين الكتابين نسخاً بخطه مع عناية كاملة وله حظ في العبادة ورغوب في العلم مع سيما أهل الصلاح واشتغال بخاصةنفسه، وهو من قدماء تلاميذ شيخ الإسلام.

السيد العلامة الأديب عبد الله بن علي الجلال[1]:

ولد تقريباً في أوائل القرن الثالث عشر، قرأ على والده المجتهد في علم الآلات وقرأ على غيره قليلاً وأدرك في الآلات ودرس فيها مع عناية وتحصيل وله في نظم الأشعار اليد الطولى في جميع فنون الشعر بل هو أحد أكابر أدباء العصر المشار إليهم في ترصيع القوافي وجودة النظم وكثرته، مدح شيخ الإسلام بقصائد عديدة طنّانة تقدم بعضها في فصل ما مدح به من الأشعار وله ذهن سابق وفهم فائق مع جودة ذكاء وكمال تصور وسرعة إدراك. أخذ على شيخ الإسلام في المطول وسمع عليه في كثير من كتب الحديث مع أهل الدرس وقرأ على شيخ الإسلام في أصول الفقه في مؤلفه المسمى «بإرشاد الفحول» إلخ وحصّله بخطه واعتنى به كمال العناية، وهو إلى الآن يكتب إلى شيخ الإسلام من غرر القصائد الفائقة والقوافي الرائقة ما يشهد له به أهل زمانه بأنه جلّى في ميدان أدبه على أقرانه[2].

القاضي العلامة عبد الله بن علي سهيل[3]:

ولد سنة ثمانين ومائة وألف. قرأ على شيخ الإسلام في الفروع والحديث واستفاد في الفقه وقرأ عليه في مؤلفاته شرح المنتقى والسيل الجرار وجعله شيخ الإسلام من حكام صنعاء وهو حسن الصلح بين الناس كثير الرصانة والسكوت وحصّل من مؤلفات شيخ الإسلام كتباً وهو إلى الآن مشتغل بسماعها عليه.

---

(١) قد تقدم للعلامة الجلال ــ ذكر ــ وترجم له الشوكاني (ج ١ ــ ٣٨٧) قال: وهو في سن الشباب، جمّل الله به العصر، وفي هامش البدر الطالع إن وفاته سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف.

(٢) في هامش الأصل: ولعل وفاته في سنة ٤٣، أي ومائتين وألف.

(٣) ترجمه المؤرخ زبارة بنيل الوطر (ج ٢ ــ ٨٤) إلى أن قال: وكانت وفاته سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف.

القاضي العلامة عبد الله بن محمد بن عبد الله العنسي الصنعاني[1]:

ولد تقريباً سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف وقرأ على جماعة من المشائخ منهم أخيه العلامة حسين بن محمد العنسي المتقدم ترجمته وعلى القاضي العلامة يحيى بن علي الشوكاني وأفاد واستفاد وهو ذو فهم صادق وإدراك جيّد ودين متين وصلاح وعبادة ومتمسكاً بالأدلة والعمل بها.

وقرأ على شيخ الإسلام في المعاني والبيان والتفسير وفي الحديث في البخاري ومسلم وسنن أبي داود وقرأ عليه في شرحه للمنتقى وفي تفسيره «فتح القدير» وفي السيل الجرار، وولي القضاء في المدينة التعزية في سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف وكان من أورع الناس في الدرهم والدينار بل قليل النظير في زمانه واستمرّ قاضياً حتى مات سنة إحدى وأربعين ومايتين وألف.

القاضي العلامة الورع الفاضل الزاهد العابد عبد الحميد بن أحمد بن محمد قاطن:

«كان مولده في جمادى الأولى من سنة خمس وسبعين ومائة وألف»[2].

كان من الفضلاء الكملاء، والعلماء النبلاء المهتدين بهدي السلف الصالح، قرأ علوم الآلة على مشائخ عصره وكبارهم مثل والده القاضي العلامة أحمد بن محمد قاطن والسيد العلامة عبد الله بن محمد الأمير وصنوه العلامة قاسم بن محمد الأمير[3] وعلى العلامة الفاضل الفقيه لطف الباري بن أحمد الورد الخطيب والسيد العلامة محمد بن عبد الله بن لطف الباري والسيد العلامة علي بن عبد الله الجلال ثم درس في علوم الاجتهاد آلاتها وحديثها عن تحقيق وإتقان وتدبير وإمعان حتى بلغ فيها

---

(١) ترجمه الإمام الشوكاني في البدر الطالع (ج ١ ــ ٣٩٩) وقال: مولده تقريباً بسنة تسعين ومائة وألف.

(٢) ما بين القوسين من الهامش ولعله سقط من الأصل إذ آخره... صح.

(٣) ترجمه الإمام الشوكاني (ج ٢ ــ ٥٢) مولده سنة ست وستين ومائة وألف وكان ضليعاً في علم الحديث ووفاته كما في هامش البدر الطالع سنة إحدى ومائتين وألف.

النهاية ثم ثنى عنان الطلب إلى علمي التفسير والرواية فبلغ من كل ذلك الغاية مع العمل بمعلوماته وصار من كبار العلماء العاملين والفضلاء الناسكين.

وكان والده المجتهد القاضي العلامة أحمد بن محمد قاطن هو المتصدر للقضاء الأكبر مع الإمام المهدي العباس بن الإمام المنصور حسين وكان من كبار مشائخ الإسلام في نشر الكتاب والسنّة وعليه العمل في تنفيذ الأحكام الشرعيّة وله مصنفات وتراجم. وقد سبق لصاحب الترجمة في ذكر ترجمة أبيه ذكرٌ في حرف الألف.

قرأ صاحب الترجمة على شيخ الإسلام في الكشاف وفي بعض كتب الحديث وبعض مؤلفاته وهو الآن يسمع عليه مع من يحضر.

السيد العلامة الفهامة عبد الوهاب بن حسين بن يحيى الديلمي[1]، المتقدم:

ولد في سنة المائة بعد الألف ومائة[2] وقرأ على والده العلامة في الفقه والآلات وعلى غيره من المشائخ ممّن في جهته الذمارية، وفهم علوماً عدّة واشتغل بمطالعة الكتب الدقيقة بذهنه السابق وفهمه الكامل، وحافظته الصحيحة.

لما وصل شيخ الإسلام إلى مدينة ذمار مع الإمام المتوكل رحمه الله في سنة خمس وعشرين ومائتين وألف، لازم شيخ الإسلام ليلاً ونهاراً وكان شيخ الإسلام نزل في دارهم بذمار عند وصوله فسمع عليه في أوائل كتب عدّة ليجيزه بها واستفاد منه بالمذاكرة فوائد عظيمة جليلة مع حداثة سنه، حتى صار مرجعاً في مدينة ذمار ثم اشتغل بعلم الطب اشتغالاً عظيماً وعرف به كما لو أخذه على شيخ ماهر من مشائخ الحكمة ثم أخذ على شيخ الإسلام مرة أخرى لما نزل مع الإمام المتوكل رحمه الله في سنة ست وعشرين ومائتين وألف فلازمه بها كملازمته المرة الأولى.

وله يدٌ طولى في نظم الأشعار الرائقة والقصائد الفائقة كثير المكاتبات لأهل

---

(١) كذا في الأصل ولعله المتقدم الذكر.

(٢) كذا في الأصل.

الأدب من أهل صنعاء وكان كثير الاشتياق إلى معرفة صنعاء وأهلها ثم بعد ذلك انقبض وأحب الخلوة والانفراد عن جميع الناس حتى عن والده وأقام بمكان لا يخرج منه ثم ترك ذلك الانغلاق أياماً قلائل ثم عاد إليه واستمر على ذلك الانقباض وعظم أمره وطلب من أبيه موسى يستحد بها فذبح بها نفسه في سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف رحمه الله وغفر له وكان ذلك لخلل وقع معه.

السيد العلامة الأديب الفهامة عبد الله بن عباس بن محسن بن يوسف بن الإمام المهدي محمد بن أحمد بن حسن بن الإمام القاسم عليهم السلام:

مولده في سنة ست وتسعين ومائة وألف، قرأ على جماعة من مشائخ زمانه في الآلات منهم السيد العلامة إسماعيل بن شرف الدين بن إسماعيل بن محمد بن إسحاق[1]، والقاضي العلامة يحيى بن علي الشوكاني فأدرك بها وله فهم ثاقب وذهن صائب حسن الحافظة لا يكاد ينسى ما حفظه ولو بعد أيام يحفظ البيتين الغريبين من المملي لهما عليه على شرف واحد ثم يثبت ذلك في حافظته فلا يكاد يغفل ما حفظه، كثير الأذكار لطيف المحاضرة حسن الحديث قوي الإدراك حسن التصور للمعاني الدقيقة وله في الأشعار وتدبيجها اليد الطولى قليل النظير في الأدب مثله في أهل بيته من آل القاسم بل ومن غيرهم من أهل الأدب في زمانه.

وله في شيخ الإسلام القصائد الفائقة، قرأ على شيخ الإسلام في شرح الرضي على الكافية وهو الآن يقرىء جماعة من الطلبة في مسجد النزيلي[2]

---

(١) ساق نسبه وتاريخ ولادته كما هنا ـ المؤرخ زبارة من نيل الوطر (ج ٢ ـ ٨٢) وساق ما هنا برمته.

(٢) لم أجد له ترجمة.

(٣) مسجد النزيلي نسب إلى النزيلي وبنو النزيلي أول من ذكرهم المؤرخ الجندي وترجم لأحدهم وأنهم أسرة عرفت بالعلم والصلاح وهم من مخلاف حكم بن سعد العشيرة بن مذحج وهو المخلاف السليماني ولهم بقية إلى عهدنا هذا في مدينة أب وفي المحويت وغيرهما، ويقع المسجد قرب ميدان التحرير ووراء وزارةالصحة والصنائع المسماة اليوم، المتحف الحربي.

ومن مقطعات شعره هذان البيتان نظمها إلى شيخ الإسلام:

يـا بـدر يـا بـدر لا أعني ابن عمّـار   كـلا ولا القمر الموصوف بالساري
بـدر الشـريعة بـل شمس العلوم بـل البحـر المحيط وهـذا نيـل أوطـاري

الفقيه العلامة الجليل الفاضل، والفهامة الكامل التقي النبيل علي بن أحمد هاجر الصنعاني[١]:

ولد سنة ثمانين ومائة وألف، قرأ في العلوم الآلية قراءة تحقيق وتدقيق فأدرك فيها إدراك المحققين، مع فهم نافذ في أعماق المسائل الدقيقة نفوذ السهام الرشيقة في الأجسام الرقيقة حتى جلّى على أقرانه بسيفه في ميدان رهانه، وكان شيخ الإسلام كثيراً ما يعجب من حسن فهمه وكمال إدراكه سيما في مسائل علم المعقول فإنه كان يقول لم يـر مثله فيمن قرأ عليه من أقرانه ذوي الأفهام الصادقة في علم المنطق، وكان من أهل الديانة المتحققة، والصلاح والورع سيما فيما يباشره من أعمال الشريعة فلم يؤثر عنه ما يقدح في ورعه بحقير أمر ولا جليله وطالت ملازمته لشيخ الإسلام مدة طويلة قرأ عليه في الكشاف والمطول وفي شرحه للمنتقى وفي كثير من كتب السنّة.

قال شيخ الإسلام: كان قوي الفهم جيد الإدراك صحيح التصوّر قلّ أن يوجد نظيره مع صلابة في الدين واشتغال بخاصة النفس وصدق اللهجة وقرأ عليه في تفسير «فتح القدير»، توفي في سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف.

السيد العلامة النبيل المتفنن المتقن علي بن أحمد بن الحسن بن عبد الله الظَّفري[٢]:

ولد في أول القرن الثالث عشر وطلب العلم على مشائخ عصره على عمّه

(١) علي بن أحمد هاجر: ترجم له الإمام الشوكاني (ج ١ ــ ٤٢٦).

(٢) ترجم له زبارة في نيل الوطر (ج ٢ ــ ١١٧)، قال: وتولى القضاء ببندر الحديدة، وتوفي بصنعاء سنة سبعين ومائتين وألف.

محمد بن حسن الظفري[1] وعلى السيد العلامة حسن بن يحيى الكبسي وعلى السيد العلامة عبد الله بن محمد الأمير وعلى السيد العلامة محمد بن عبد الرب بن محمد بن زيد[2]، وبرع في جميع العلوم، وكرع في منطوقها والمفهوم مع فهم مستقيم، وذهن سليم سريع الفهم حسن التصوّر جيد الذكاء، واشتغل بالقراءة في علم السنّة والعمل بها كما ذلك سنّة أهله من أهل بيته.

قرأ على شيخ الإسلام في الكشاف والمطول وهو من نبلاء أهل الدرس في هذين الكتابين زاد الله من مثله من طلبة العلم وهو الآن يدرس في كتب الحديث وغيرها من علم الآلات.

القاضي العلامة المحقق والنبيه الفهامة المدقق علي بن أحمد عطية الذماري[3]:

ولد تقريباً في سنة ثمانين ومائة وألف، وقرأ على مشائخ وقته من علماء ذمار وعلى شيخ مشائخها السيد العلامة بركة أهل مصره بل أهل عصره الحسين بن يحيى الديلمي واستفاد وأفاد مع ذهن سابق وإدراك مطابق وذكاء فائق وقد صار الآن معدوداً من أعيانها ومشائخ فروعها وبيانها عليه يعوّل الطلبة في التدريس وحلّ المشاكل من المسائل وإليه تنتهي الفتوى وله عناية وكمال شغلة بمؤلفات شيخ

---

(١) ترجمه الإمام الشوكاني في البدر الطالع (ج ٢ ـ ١٥٤) وولادته سنة سبعين ومائة وألف وهو ممن يعمل باجتهاده ويتقيد بنصوص الأدلة ولا يعول على غير ذلك.

(٢) محمد بن عبد الرب هذا ترجم له شيخ الإسلام في البدر الطالع (ج ٢ ـ ١٨١) مولده تقريباً بين السبعين والثمانين بعد المائة والألف إلى أن قال: «وقد ترك ما عليه آل الإمام» وبقي في منزله يقرىء الطلبة، وكانت وفاته سنة اثنتين وستين ومائتين وألف كما في هامش البدر الطالع.

(٣) ترجم له في مطالع الأقمار وأثنى على معرفته وتبعه المؤرخ زبارة (ج ٢ ـ ١١٨) وقال: كانت وفاته سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف، قال الحوالي: وله ذرية طيبة قليلة.

الإسلام وميل إلى العمل بما هو الحق من الصحيح مع إنصاف خالٍ عن مركز الاعتساف.

قرأ على شيخ الإسلام في صحيح البخاري من جملة أعيان ذمار لما نزل صحبة الإمام المتوكل رضوان الله عليه إلى اليمن وهو الآن مشغول بالدرس والتدريس دامت فوائده.

السيد العلامة الخطير الفهامة الذي شهد له أدبه برقة طبعه ولطف انسجامه وانطوت خلال مكارمه على كمال الفخامة، واستكمال أدوات الزعامة:

علي بن إسماعيل بن علي بن القاسم بن أحمد بن الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم بن محمد عليهم السلام(١):

ولد سنة إحدى وخمسين ومائة وألف بمحروس شهارة ونشأ بها وقرأ في العلوم الأدبية والفقه، ومن مشائخه السيد العلامة علي بن إبراهيم والشيخ العلامة ناصر بن حسين المحبشي(٢) والقاضي العلامة محسن بن أحمد الشامي(٣) وأدرك في الأدب ونظم القوافي إدراكاً بليغاً وكان له من الملكة، والتيسير ما لم يكن لغيره من أهل الأدب،

---

(١) ترجم له شيخ الإسلام (ج ١ ــ ٤٣٣) وأجاد بالثناء عليه.

(٢) ناصر بن الحسين المحبشي نسبة إلى المحابشة مركز قضاء الشرف ولكن شهرة آل المحبشي نبعت من شهارة لاشتغالهم بالعلم ترجم له زبارة في الملحق، ص ٢١٩، وقال حاكم الخليفة المهدي العباس وهو الذي قدم له تلميذه الحافظ محمد بن إسماعيل الأمير رحمه الله نصيحته الشعرية التي مطلعها:

ذبحت نفسك لكن لا بسكين ... كما رويناه عن طه وياسين

ومات المحبشي سنة إحدى وتسعين ومائة وألف.

(٣) محسن بن أحمد الشامي الخولاني القضاعي فالشامي نسبة إلى الشام: بلد صعدة لأنه شمال اليمن والخولاني نسبة إلى خولان بن عمرو والقضاعي إلى قضاعة: انظر الجزء الأول من الاكليل.

ترجم له زبارة وإن مسكنه معقل شهارة، ولد سنة ١١٥٤هـ ووفاته سنة ١٢١٤هـ. نيل الوطر (ج ٢ ــ ١٩٧).

وكان سيد شهارة وعظيمها في أهلها، وقد جمع شعره في سفينة، وكان يفد إلى صنعاء في كل خمسة أعوام وأكثر وأقل فيعظمه أهل الدولة ويجلّون قدره ويعطيه الإمام المنصور رحمه الله ما لا يعطي غيره من العطاء الواسع والكسوات العظيمة وكان يجتمع بأكابر صنعاء من العلماء ويحصل بينه وبينهم من المطارحات الشعرية والمذاكرات الأدبية ما ترتقص له المجامع، وتستلذّه المسامع وكان لا يملّ جلساؤه محاضرته ولا مستمعوه مفاكهته للطف طبعه وحسن كلامه ونوادر أخباره وطرائف قصصه وأشعاره وكان كثير السؤالات في المسائل العلمية لقصد الإفادة، ولا يسأل إلا عما هو من مشكلات المسائل ومعضلاتها مع البحث التام في تحصيل الفوائد وتقييد الشوارد، ولا يزال ينتقل في الغرف مُتحفاً بمحاسن الظرف، حتى يعود إلى وطنه، وقد قضى مآرب وطره.

وكان إذا وصل إلى صنعاء لزم موقف مدارس شيخ الإسلام ويلازمها في غالب أوقاته، سمع من شيخ الإسلام رسالته المسماة «الدر النضيد، في إخلاص التوحيد» وسمع منه «إتحاف الأكابر، بإسناد الدفاتر» وحصّلهما بخطه نسخاً وله في شيخ الإسلام قصائد محبَّرة طنَّانة قد تقدم بعضها فيما كوتب به، وقصائده في شيخ الإسلام ومكاتباته له كثيرة رحمه الله، توفي سنة تسع وعشرين ومائتين وألف، ولم يخلفهُ في شهارة مثله.

القاضي العلامة الكامل الأكمل والفاضل الفهامة الأجلّ علي بن عبد الله الحيمي(١):

ولد على رأس المائة الثانية عشرة أو قبلها أو بعدها بيسير وقرأ على جماعة من مشائخ وقته مثل العلامة أحمد بن حسين الوزان والسيد العلامة إبراهيم بن عبد القادر وغيرهم وأفاد واستفاد ودرس الطلبة في مختصر الآلات ثم ولي حكومة بندر اللحية بتهامة وأثنى عليه أهلها ومكث بها نحو من أربع سنين ثم كره البقاء بها

---

(١) ترجمه المؤرخ زبارة في نيل الوطر (ج ٢ ــ ١٤٧) للقاضي الأجل الحيمي وذكر مولده كما هنا وعمن أخذ إلى آخر النعوت التي هنا، قال: ومات سنة ست وخمسين ومائتين وألف.

مع تـوالي الفتن وعـاد إلى صنعـاء وطلب العلم وقـرأ على شيـخ الإسلام وأذن له بالحكومة في صنعاء وقرأ عليه في الـرضى والكشاف وفي شـرحه للمنتقى وفي سيله الجـرار وهو حسن الإدراك جيّـد التصور سـريـع الفهم ذو سكينة وتؤدة عـاقلاً كـاملاً وحال تحرير هذا وقد عاد لقضاء اللحية وهـو قائم بتـدبير أحـوال البندر وأهله أحسن قيام زاده الله كمالاً.

القاضي العلامة الزاهد الفهامة الجامـع لخصال الكمال، والمستـوعب لكمال الخصال، المتشرف بورعه خلال الجلال، والمتـزين بتقواه جـلال الخلال الجـامـع بين فضيلتي العلم والعمل، والآخذ من كل منهما بالنصيب الأكمل، المتقنـع بقنـاع القناعة والكفاف والمشتمل بأردان الزهد والتقشف والعفاف والنـاظر إلى الـدنيا بعين الاختصار والاحتقار،والراضي في ظل عيشها الزائل بما به البلْغة إلى دار القرار:

علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني[١]:

والـد شيـخ الإسلام نسبـة إلى قريـة من بلاد خـولان على مرحلة من شـرقي صنعاء[٢] وليس هو من هذه القرية وإنما محله الهجرة وهي عدني هذه القريـة بينهما جبل كبير مستطيل يقال له هجرة شوكان لقربه منها لتتميز عن غيرها من سائر الهجر إذ اسم الهجرة يطلق على كل محل بين محلات القبائل إذا كان مُهجَّراً بينهم عمّا يَعتَادُونَه مـن أسـلاف القبائل وقواعدهم فيما بينهم وإنما يكون ذلك، للمحلات المأهـولة من أهلها بالعلم والفضل والصلاح فيمتازون عن أحوال القبائل وأعرافهم ويكون لهم بذلك التهجير احتراماً وتعظيماً.

وهذه الهجرة التي هي محل صاحب الترجمة هي من قديم الهجر المأهولة بالعلم والفضـل والصلاح ولا تخلو من ذلـك وإنما يختلف ذلـك بـاختـلاف بـطون أصـول

---

(١) ترجمه ولده شيـخ الإسلام في البدر الطالـع (ج ١ ــ ٤٧٨) وساق نسبهم هنالك.

(٢) قرية شوكان الخولانية التي شرفت على مرّ الدهور والأزمـان بالمـولود السعيـد شيـخ الإسلام لا تزال قائمة العمارة بها أهل وسكن. انظر: المعجم.

أهلها، ولهم عند السلف من الأئمة إجلال وإكرام، ومزيّة عظيمة لأن لهم مناصرة وجهادات في مواضع عديدة، وكان فيهم رؤساء كبار وقضاة، وكانوا يتفرقون في جهات القبائل ويدعونهم إلى نصر الأئمة وإعانتهم ويحثونهم على حرب الأتراك، وكانوا يعرفون بالقضاة المجاهدين، ولما خذلوا الأتراك بتجميع القبائل التي تليهم مع الأئمة وحربهم ما زال الأتراك يغزون إلى هجرتهم ويخربونها مراراً ويوقعون بها، وآخر غزوة غزوها قبيل خروجهم من صنعاء صبحوهم في يوم عيد الأضحى وهم مجتمعون لصلاة العيد في مسجدهم فلم يشعروا إلا بعسكر الأتراك على أبواب المسجد فقاتلوهم قتالاً عظيماً وقتل من أهل الهجرة جماعة وأسر آخرون من كبارهم وعادوا بهم إلى صنعاء بعد أن أخربوا بيوت سلف صاحب الترجمة وغيرها ولذرية هؤلاء القضاة خطوط من الأئمة تقضي لهم بالسبق ما لا يكون لمثلهم وذرية هؤلاء القضاة هم الآن لا يصلّون العيدين إلا في البرية لما عهدوا عليه سلفهم لما أصابهم في تلك الوقعة.

وهكذا حكم هجرة القضاة بني الهبل وهما متقاربتان لم يكن بينهما إلا بحيث يبلغ صوت الداعي من إحداهما إلى الأخرى وحكمها فيما ذكرناه واحد.

ومن أعاجيب أعالي الأسانيد أن شيخ الإسلام يروي من وقائع الأتراك بواسطة واحد يروي عن عمه أخي صاحب الترجمة الحسن بن محمد بن عبد الله عن جدّه عبد الله بن الحسن وكان قد عمّر مائة وعشرين سنة روى عنه ابن ابنه الحسن بن محمد وكان قد عمّر فوق تسعين سنة، وهو يروي لشيخ الإسلام عن جده المذكور من أحوال الأتراك ووقائعهم وكان قد عرفها واصطلى بنارها قال شيخ الإسلام: فأنا أروي عن واحد عمّن عرف الأتراك فبينه وبين الأتراك واحد وبين تحرير هذا وبين خروج الأتراك من اليمن زيادة على مائتي سنة، وشيخ الإسلام في خير وعافية زيّن الله بوجوده الوجود، وبين كثير من أهل الزمن وبين من عرف الأتراك من سلفهم نحو سبعة آباء أو ثمانية آباء فهذا من عجيب علوّ الروايات وأندرها وأغربها.

وكان مولد صاحب الترجمة في هجرة أهله ونشأ بها وحفظ القرآن ثم ارتحل

إلى صنعاء لطلب العلم فقرأ على جماعة من علمائها منهم السيد العلامة علي بن حسن الكبسي والسيد العلامة الحسن بن محمد الأخفش والقاضي العلامة محسن بن محمد العابد[1] وجماعة كثيرة وبرع في علم الفقه والفرائض فحقق الأزهار وشرحه لابن مفتاح وحواشيه وبيان ابن مظفر والبحر الزخار ومختصر الفرائض للعصيفري، وشرحه للناظري[2] وشرح الخالدي[3] وعلم الضرب والمساحة. وقرأ من كتب الحديث الشفاء للأمير الحسين وشمائل الترمذي، ومن كتب التفسير الثمرات للفقيه يوسف وشرح الآيات للنجري[4] وفي مختصرات النحو مثل الحاجبيّة وشرحها للسيد المفتي، وفي الأصول التكافل لابن بهران وشرحه لابن لقمان وغير هذه المسموعات.

قال شيخ الإسلام في ترجمة أبيه المذكور وقد عدّد مسموعاته وله سماعات غير هذه لم تحضرني الآن، ولم يزل يدأب في تحصيل العلم مفارقاً لأهله ووطنه

---

(١) هؤلاء الثلاثة نذكرهم حسبما يجري القلم على سجيته وبدون تطويل. أما حسن بن علي الكبسي فلم أجد له ترجمة، وأما الحسن بن محمد الأخفش فترجمه زبارة في الملحق، ص ٧٧ ترجمة موجزة، ووفاته سنة تسعين ومائة وألف، ومحسن بن محمد العابد لم يترجم.

(٢) انظر ترجمة المذكورين مطلع البدور، لابن ابي الرجال.

(٣) الخالدي: لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من المراجع.

(٤) القاضي يوسف هو ابن أحمد صاحب الثمرات. كان مستقره بهجرة العين شمال مدينة ثلا ومن مرافقها ومسكن سلفه «صرم بني قيس» من مخلاف خبان جنوب مدينة ذمار بمسافة بياض النهار قديماً وهو مؤلف الزهور في الفقه الزيدي والثمرات في تفسير آيات الأحكام وغير ذلك ووفاته سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة وقبره بهجرة العين المذكورة يزار. والنجري هو عبد الله بن محمد بن أبي القاسم الزيدي العبسي العكي المعروف بالنجري، ورفع نسبه الإمام الشوكاني أكثر من هذا ونسبته العبسي إلى عبس بطن من عك والعكي إلى قبيلة عك بن عدنان بن عبد الله من الأزد والنجري: نسبة إلى نجرة منطقة جنوب غربي حجة بمسافة قصيرة، ولد سنة خمس وعشرين وثمانمائة. ارتحل إلى القاهرة المعزية وأخذ عن علمائها وتستر مدة بقائه بالقاهرة بأنه حنفي المذهب ولما عاد إلى اليمن أخرج معه «مغني اللبيب» لابن هشام وصنّف المعيار من أجلّ الكتب وشرح آيات الأحكام وكانت وفاته سنة أربع وسبعين وثمانمائة. البدر الطالع (ج ١ ــ ٣٩٧).

متغرّباً عنهما أياماً طويلة، ودرّس وأفتى في صنعاء في آواخر ايام طلبه وولاه الإمام المهدي، العباس بن الحسين القضاء بصنعاء المحروسة واستقر بها ولم يترك الطَّلَبْ في أيام توليه القضاء ولا رغب عن التدريس للطلبة بل يدرس جماعة من الطلبة في مسجد الإمام صلاح الدين وفي مسجد الأبزر[1] في الفقه وفي الجامع الكبير في الفرائض في شهر رمضان، وكان رحمه الله محمود السيرة نقيّ السريرة متعففاً قانعاً من دنياه بكفاف حاله طارحاً لأعراف التكليف منجمعاً عن الناس يحب الاعتزال بخاصة نفسه قليل المخالطة لأهل الدولة وأعوانها على الإطلاق بل لا يعرف أكثرهم صورة إلا بالسماع فقط جارياً على نمط السلف الصالح من الذين يمشون على الأرض هوناً في جميع أحواله.

قال شيخ الإسلام: ولقد أعانني على طلب العلم والقيام بما نحتاج إليه قياماً قلَّ أن يقوم به الولد بوالده وبلغ بي في ذلك مبلغاً عظيما وكان له من البرّ بي الإنفاق عليّ ما بلغ به إلى نهاية فجزاه الله خيراً وكافأه بالحسنى.

قرأ على ولده شيخ الإسلام في آخر أيامه في صحيح البخاري وقرأ عليه شيخ الإسلام في شرح الأزهار وشرح الناظري مع غيره من الطلبة، ولم يزل رحمه الله مستمراً على حاله الجميل معرضاً عن القال والقيل، ماشياً على أهدى سبيل، حتى توفاه الله بصنعاء ليلة الاثنين بعد صلاة العشاء ليلة اليوم الرابع من شهر القعدة سنة إحدى عشرة ومائتين وألف.

قال شيخ الإسلام في انتهاء ترجمة أبيه رحمه الله: وخلف صاحب الترجمة ولدين أحدهما محمد والآخر يحيى وهو الآن مشتغل بقراءة علوم الاجتهاد قد انتفع في أنواع منها مع كمال اشتغاله بعلم الفروع وهو ذو فهم صادق وعقل رصين.

حفيده وابن وليده، المقتفي آثاره السديدة، والسالك في مناهج مسالكه الرشيدة، والساعي في مساعي آبائه الحميدة، الجامع بعلوّ همته بين أشتات

---

(١) مسجد صلاح الدين أعلا صنعاء ومسجد الأبزر قرب الفليحي. انظر مساجد صنعاء.

الفنون، والحقيق بأن يدعى من بين أقرانه بقرة العيون، القاضي العلامة الفهامة علي بن محمد بن علي الشوكاني ابن شيخ الإسلام وحفيد صاحب الترجمة المتقدمة، ولد في عاشر محرم سنة سبع عشرة ومائتين وألف. قرأ في علم الآلات على عمّه العلامة القاضي يحيى بن علي الشوكاني وعلى القاضي العلامة عبد الله بن محمد العَنْسي وعلى الفقيه العلامة يحيى بن علي الردمي وعلى السيد العلامة أحمد بن زيد الكبسي وعليه جلّ قراءته وعلى السيد العلامة علي بن أحمد الظفري وهو نافذ الفهم جيد التصور قوي الإدراك قد برع في علوم الآلة وحفظها ونفذ في مدارك مشكلاتها ودفعها شاغلاً جميع أوقاته بجميع علوم الاجتهاد حتى صار معدوداً من علماء صنعاء الأفراد مع نجابة ليست لأحد من أترابه، وديانة امتاز بها عن أقرانه، وجميع أضرابه.

قال والده شيخ الإسلام وله سماع في الكتب الحديثة عليّ مع الطلبة وفي شرحي للمنتقى وفي مؤلفي السيل الجرار وفي تفسيري فتح القدير وغير ذلك من مؤلفاتي فتح الله عليه أبواب معارفه وجعله من العلماء العاملين ورفع شأنه وبارك فيه وجعله قرة عين لوالده وأرجو من الله سبحانه أن ينفعه وينفع به ويجعله من عباده الصالحين ومن العلماء العاملين المقتدين الناشرين للدين وهو في هذا الأوان مشغول بالطلب فتح الله عليه أبواب معارفه(١).

السيد العلامة الأديب علي بن يحيى بن علي أبو طالب(٢):

ولد تقريباً في سنة سبع(٣) وخمسين ومائة وألف وقرأ على جماعة من كبار

---

(١) قال في هامش الأصل: ثم توفي الولد البار السعيد في الدارين القاضي العلامة جمال الكمال علي محمد الشوكاني في شهر جمادى الأول في سنة ١٢٥٠، بمحروس روضة حاتم وقُبر شرقيها رحمه الله رحمة الأبرار وأسكنه جنات تجري من تحتها الأنهار برحمته تمت كاتبه.

(٢) ترجمه الإمام الشوكاني (ج ١ ــ ٥٠٢).

(٣) كذا في الأصل وفي البدر الطالع: تسع وخمسين وماية وألف. وكثيراً ما يحصل التصحيف بين العددين.

المشائخ المتقدمين مثل العلامة أحمد بن صالح بن أبي الرجال، والسيد العلامة إسماعيل المفتي[1] وغيرهما وبرع في العلوم الآلية والحديثية وفي غيرها ودرّس الطلبة في كتب الآلة وقرأ على شيخ الإسلام في تفسير الزمخشري وفي تفسيره «فتح القدير» وفي الصحيحين وسننِ أبي داود وكان رحمه الله حسن المحاضرة حاضر المناظرة حلو الحديث والمفاكهة لطيف السجية كريم الأخلاق يعمل بما صح له من الأدلة، وتوفي سنة ست وثلاثين ومائتين وألف وهو شيخ من كبار المشائخ من بني هاشم النبلاء علماً وسناً وفضلاً ووقاراً رحمه الله وغفر له.

السيد العلامة الفهامة الأديب العالم الشاعر المصقع البليغ الفاضل الكامل الفاضل القاسم بن إبراهيم بن الحسن بن يوسف بن المهدي محمد بن الإمام المهدي أحمد بن الحسن بن الإمام القاسم عليهم السلام[2]:

ولد بعد سنة خمس وستين ومائة وألف بنحو عامين ونشأ بصنعاء وأخذ العلم عن جماعة من كبار علماء عصره وأخذ في الفقه على القاضي العلامة أحمد بن محمد الحرازي والقاضي العلامة علي بن أحمد الحكمي، وقرأ على شيخ الإسلام في غاية السول وفي شرحه على المنتقى وفي مؤلفه المسمى بالدرر وشرحه المسمى بالدراري وفي تفسير فتح القدير[3] وفي البخاري وأمالي أحمد بن عيسى وغير ذلك وكان من فضلاء آل الإمام علماً وعملاً مع كرم أخلاق وبشاش وكان ذا فهم سليم وإدراك مستقيم.

وأما في نظم الأشعار فكان من أفراد شعراء عصره وأعذبهم معان مع رقة وسهولة ولطافة وجزالة، وله في شيخ الإسلام قصائد طنّانة، قد أثبت بعضها في

---

(١) لم أجد لهذا الاسم «إسماعيل المفتي» ترجمة.

(٢) ترجمه الإمام الشوكاني (ج ١٢ ــ ٣١)، وأثبت له مطارحة أدبية بينه وبين الشوكاني نظماً ونثراً.

(٣) كذا في الأصل ولعله وفي تفسيره فتح القدير.

فصل ما مدح به من الأشعار وهو من ملازمي شيخ الإسلام من قديم الطلب هو وأخوه العلامة الفاضل إسماعيل بن إبراهيم المتقدم وما زال على حاله الجميلة في طلب العلوم وتحصيلها وإفادتها واستفادتها حتى توفاه الله سبحانه في شهر جمادى الأول سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف رحمه الله وغفر له.

السيد العلامة الذي سادت بسؤدده السيادة، وفاخرت بطلعته سنا الإشراق فكان لها به الزيادة والحلم الذي لو رآه لأحنف لطاش والقرار الذي لو عقل ثبير لما عدّ نفسه إلا من الفراش[1]، ولو نظر إليه لقمان الحكيم، لَتَلَا، وفوق كل ذي علم عليم:

القاسم بن أحمد بن لقمان بن أحمد بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى[2]:

ولد سنة ست وستين ومائة وألف بموضع يقال له «صنعة»: بضم الصاد المهملة ونون ساكنة ثم عين مهملة قرية بالقرب من مدينة ذمار[3]، قرأ على جماعة من مشائخ الفقه كالسيد العلامة محسن بن أحمد بن علي بن سليمان والفقيه العلامة محسن بن أحمد الشويطر[4] وغيرهما وبرع في علم العروض وقرأ هنالك في علم النحو ثم ارتحل إلى صنعاء وقرأ فيها في سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف وقرأ في العربية والأصول على جماعة من العلماء في ذلك العصر، وهو من أفراد

---

(١) ثبير: جبل مشهور وهو الذي عناه امرؤ القيس:

كأنّ ثبيراً من عرانين وبله ... كبير أناس في بجاد مزمّل

(٢) ترجمه الشوكاني (ج ٢ ـ ٣١) وقال: القاسم بن أحمد بن عبد الله بن القاسم بن أحمد بن لقمان بن أحمد بن شمس الدين بن الإمام، وهذا التدريج أصح مما ذكره المؤلف فهناك سقط.

(٣) صنعة: كما ضبطها المؤلف لا زالت عامرة حية.

(٤) لم أجد ترجمة لمحسن بن أحمد بن علي بن سليمان وكذا لمحسن بن أحمد الشويطر الذماري فلا أدري أيهما أصح هل هو محسن بن أحمد الشويطر الذي ذكره المؤلف أو الذي ذكره زبارة.

الأذكياء البالغين إلى النهاية في سرعة الفهم والإدراك استفاد بدرايته أكثر مما استفاد بروايته وكان له شعرٌ فائق ونظم رائق يطارح به جماعة من أدباء زمانه مع همّة عليّة وشهامة علويّة ونفس أبيّة وسيادة هاشمية لا يخضع لشيء من مطالب الدنيا الدنيّة ولا يدنو لأحد من أهلها وقد يعوّل عليه بعض من يألفه من الحكام في قضية فيتولى فصلها مع عفاف وعلوّ همة وهو أكبر وأجل من كثير من القضاة بعصره قدراً وعلماً وعقلاً ونبلاً بل تصغر عن عظيم قدره وظيفة القضاء وتحريراته في القضايا الشرعية مقبولة مرضيّة لا يحاوم حول نقضها بل يقنع بها المحكوم عليه كما يقنع بها المحكوم له، وبينه وبين شيخ الإسلام من المودة الأكيدة ما قلّ أن يكون بينه وبين غيره وجعل الله به من اللطافة والظرافة ما لا يملّه جليسه ولا يسأمه أنيسه، واستمر الاتصال بينه. وبين شيخ الإسلام زيادة على خمس عشرة سنة قلّ أن يمضي يوم لا يجتمعان به وكان بينهما مطارحة أدبية ومراجعات في مسائل علميّة نظماً ونثراً وله حظ في البلاغة يقصر عن شأوه ابن المراغة[٢]. فمن قطعة كتاب كتبه إلى شيخ الإسلام جعله مقدمة لقصيدة طويلة تنطوي على سؤال عن أحوال أهل التصوف لفظه:

حرس الله سماء المفاخر بحماية بدرها الزاهي الزاهر، وأتحف روضها الناضر بكلاءة غيثها الهامي الهامر، وأهدي إليه تحية عطرة وبركة خضرة نضرة ما مسحت أقلام الكتبة مفارق المحابر، ورتعت أنظار الطلبة في حدائق الدفاتر[٣]، صدرت هذه الأبيات في غاية القصور، أقيلوا عثارها إن كان لكم عليها عثور، تستمنح منكم الفوائد وتستمد الفرائد، توفي رحمه الله في سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف.

---

(١) في هامش الأصل: كان الأليق ذكر الأبيات والجواب إما هنا أو فيما سبق فتركها وذكر هذه الألفاظ من العجائب.

(٢) ابن المراغة لعله جرير الشاعر المشهور.

(٣) في الأصل التفاتر وهي لغة العامة إلى يوم الناس.

القاسم بن أمير المؤمنين المتوكل على الله أحمد بن أمير المؤمنين المنصور بالله علي بن الإمام المهدي العباس[(١)] :

ولد سنة إحدى عشرة ومائتين وألف ونشأ في حجر الخلافة وقرأ القرآن الكريم وجوّده ثم اشتغل بطلب علم الحديث في أيام أبيه المتوكل رحمه الله فقرأ بلوغ المرام على الشيخ العلامة محمد عابد السندي الحكيم[(٢)] عند وفوده إلى حضرة أبيه المتوكل ثم حفظه غيباً عن ظهر قلب ولازم شيخ الإسلام في بعض أيام الأسبوع أياماً طويلة وأملاه عليه من حفظه من ابتدائه إلى انتهائه مرة بعد أخرى.

ثم قرأ على شيخ الإسلام في صحيح البخاري وصحيح مسلم وكان له فهم قابل ودراية وتصور صحيح وكان له شغف بعلم السنّة المطهرة والتظهر بها في أيام أبيه المتوكل رحمه الله وإكباب على مطالعة دواوين الحديث واكتسابها مطالعة ومعرفة ودراية مع كمال اشتغال وعناية لا يلتفت إلى سوى ذلك وكان الإمام رحمه الله يحضّه على ذلك ويرغبه ويعطيه من هذه الكتب ما أراده وطلبه لإعجابه به حتى اجتمع لديه من كتب الحديث وشروحها ما لم يجتمع لغيره مع رغوبه إليها وتعويله عليها، وتوفي والده الإمام المتوكل رضي الله عنه وهو على تلك الطريقة في سنة إحدى وثلاثين ومائتين وألف.

الفقيه العلامة قاسم بن لطف الله الجبلي[(٣)] :

ولد تقريباً في سنة ثمانين ومائة وألف وقرأ في الآلات وفقه الشافعية، ورحل إلى زبيد وقرأ على مشائخها وقرأ في علم الطب وأدرك فيه.

---

(١) ترجمه الإمام الشوكاني (ج ٢ ـ ٤٠) بمثل ما هنا، ثم قال: زاده الله علماً وكمالاً وعملاً بالحق وجعله من أنصار السنّة المطهرة وعمره عند تحرير هذه الترجمة سبع عشرة سنة. وفي هامش البدر الطالع: ثم توفي سنة ١٢٣٩، تسع وثلاثين ومائتين وألف.

(٢) في نيل الوطر (ج٢ ـ ٢٧٩): محمد عابدين بن الشيخ فسقط على الناسخ الياء والنون من عابدين. وكانت وفاته سنة سبع وخمسين ومائتين وألف.

(٣) كذا في الأصل، وفي البدر الطالع (ج ٢ ـ ٤٤) قاسم بن سعد بن لطف الله الجبلي فتممها هنا لفظ «ابن سعد»، وكذا في نيل الوطر مثلما في البدر الطالع ولم يذكر أحد وفاته.

وقرأ على شيخ الإسلام في أوائل الأمهات الست وأوائل المسندات وما يلحق بها وقرأ عليه أيضاً في شرح العمدة لابن دقيق العيد وكانت قراءته عليه في مدينة ذي جبلة محل صاحب الترجمة عند قدوم شيخ الإسلام إليها صحبة الإمام المتوكل ولازمه ملازمة طويلة وكان حسن المحاضرة وأديبها وكان سماعه منه في سنة ست وعشرين ومائتين وألف في جبلة وفي ذي السفال[1]، واتصل بالإمام المتوكل رحمه الله فكان طبيب حضرته ثم سمع من شيخ الإسلام في صنعاء في الصحيحين وغيرهما، ولما توفي الإمام المتوكل عاد إلى وطنه ذي جبلة.

الفقيه لطف الله بن أحمد بن لطف الله جحاف[2]:

ولد تقريباً في سنة تسع وثمانين ومائة وألف، وأخذ عن جماعة من علماء عصره وقرأ علي شيخ الإسلام ولازمه مدة طويلة واستفاد عليه في الآلات والحديث، ثم اتَّصَلَ بالوزير العلامة الفقيه حسن بن علي حنش[3] رحمه الله وزير المنصور بالله علي بن المهدي رضي الله عنهما من جملة من شملهم موقفه وسفرته رحمه الله، ثم جعل بنظره خزانةالكتب أياماً ففقدت منها كتب ثم وجدت وقد وقع التصرف فيها بالبيع إلى بعض غرباء الديار ثم أخذت خزانة الكتب منه وجعلت بنظر الفقيه حسين بن علي حنش قريب الوزير ثم ما زال صاحب الترجمة يتردد إلى باب

---

(١) ذو السفال مدينة مشهورة في سفح جبل التعكر من جنوبه ولا زالت عامرة آهلة بالسكان من أشهر بيوتها آل الجنيد، بيت علم ودراية منذ القدم.

(٢) ترجم له الإمام الشوكاني في البدر الطالع (ج ٢ ـ ٦٠) بمثلما هنا.

(٣) ساق الإمام الشوكاني في البدر الطالع (ج ١ ـ ٢٠٠) نسب هذا الوزير إلى أحمد بن حنش وقال: وبقية نسبه معروفة فله سلف صالح فيهم العلماء والقضاة والصلحاء وبيتهم مشهور بالديار اليمنية. مولده سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف وأطال في ترجمته إلى أن قال: واتفقت الألسن على الثناء عليه ونشر محاسنه «مع أن الناس لا يرضون عن المتعلقين بأعمال الدولة» ولكن رأوا فيه من المحاسن ما لا يمكن جحده، وكانت وفاته سنة خمس وعشرين ومائتين وألف، قال الحوالي: وبيت حنش هؤلاء من البيوتات العامرة بالعلم والرئاسة وهم من بني شهاب بن العاقل. انظر الجزء الأول من الإكليل.

الإمـام المتوكـل على الله أحمد بن الإمـام المنصور رحمـه الله ينقل إليـه من أخبـار الناس وأحوالهم وكان الإمام المتوكل رحمه الله متطلعاً لذلك كثير البحث وكان ذلك قبل أن يلي الخلافة فلما وليها بعد وفـاة أبيه المنصـور بالله رحمـه الله صار صـاحب الترجمة من جملة من تشملهم سفرته معهداً بنقل الأخبار إليه وكان يعزم صحبتـه في أسفـاره ويستناب في الخـطبة لـه في يوم الجمعـة ثم وقف الإمام المتـوكل على الله رحمه الله على تضرّب أخباره وعدم ثبوتها فاطرحها فلما توفي الإمام المتوكل رحمـه الله وقـام بالأمـر بعده ولـده الإمـام الأعـظم المـهـدي لـدين الله عبـد الله بن الإمـام المتوكل حفظه الله وصاحب الترجمة على عادته من جملة المعتادين من أهل السُّفرة استمر معه أياماً قلائل غير معهّد بنقل الأخبار ثم أبعده عن بابـه وحبسه وسبب ذلـك فلتات اللسان وعدم تحري الصـدق فما زال شيـخ الإسـلام بالإمـام حفظه الله حتى أطلقه من الحبس وسكن غضبه وأخذ ما كان بيد صاحب الترجمة ممّا قد كان بنـظره من بعض وصايا وأوقاف قد استغرقت فأرجعها إلى أهلهـا الذين كـانت بنظرهم وقـد كان شيـخ الإسلام كثيراً ما يحضّ صاحب الترجمة على تحري الصـدق والتثبت في الأخبار وإنه يقبـح بالرجل أن يؤثر عنه، ومن طريقه ما لا أصل له من أخباره ورواياته ولو كان غيـر منظور إليـه بنظر أهـل العلم فكيف به إذا كـان منظوراً بـذلك فيصيـر غير موثوق به وبأخباره بين أهل عصره ومن بعده فيتلقى ذلك منه بالقبول، ويظهر الأسف على ما فرط منه وأنه سيقلـع عن ذلك، ولكن الطبـع في الإنسان لا يتحول.

وصاحب الترجمة الآن في قيد الحياة قد صار معه وسوسة في كتاب الله يزعم أنه أوحي إليه علم جديد غير ما بأيدي الناس وأن الله سبحانه قال في كتابه العـزيز: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاء حِجَابٍ﴾[1] وإنـه ممن يكلمه الله من وراء حجاب، وصار مشغولاً بتفسيرٍ للقرآن سمّاه «تفسير القرآن المجيـد، بالعلم الجديد» يزعم أنه يشـرع في الكراس ويضعـه في طاق مكـانه فيقـوم. الصبـح فينظره فيجده قد مُلىء تفسيراً، وصار مشغـولاً بذلـك يأتي فيـه بأنـواع الخرافـات وهو الآن مستمر عليه.

---

(١) سورة الشورى: آية ٥١.

وله في شيخ الإسلام قصائد عديدة قد ذكرنا بعضها في فصل ما مدح به شيخ الإسلام.

السيد الذي استدار بدره في سماء المعالي، واسترقت له الفضائل استرقاق الخدم والموالي ذو المناقب التي جلّت عن الحصر، والمحامد التي اعترف له بها أهل العصر، وكيف لا وهو من أهل بيت شادوا من المجد مبانيه، وأحلّوا ببيت أدبهم من سحر الكلام قوافيه ومعانيه.

ويا حبّذا من سادة شيدوا العلى فساد بهم أبناؤهم في المحافلِ[1]

العلامة بالاتفاق وأديب أهل العصر على الإطلاق محسن بن عبد الكريم بن أحمد بن محمد بن إسحاق[2]:

ولد في سنة إحدى وتسعين ومائة وألف وقرأ على جماعة من علماء عصره مثل السيد العلامة إبراهيم بن عبد القادر بن أحمد، والقاضي العلامة حسين بن أحمد السياغي، ونَبُل في جميع معارفه مع فهم سبّاق وذكاء يعرف به منحة الخلّاق، وطبع كريم بل ألذّ وأرقّ من عرف النسيم ومن فرط ذكائه وكمال إدراكه أنه قال الشعر الحسن وهو في المكتب قبل طلب العلم وله أشعار تشهد له بالسبق على أدباء عصره ولحوق متقدميه من فحول الشعراء مجلياً في جميع فنونه بل هو حسنة من محاسن صنعاء، نظم مغني اللبيب وشرحه شرحاً حسناً.

ومن فضائله ومحاسنه وكمالاته في باب أدبه أنه اجتمع شيخ الإسلام وجماعة من مشائخه وأترابه وغيرهم من فضلاء ذلك الأوان وفيهم والد صاحب الترجمة وعمه العلامة علي بن أحمد بن محمد بن إسحاق وكان ذلك الاجتماع في «حدّة» من نُزَه صنعاء، وكان مع الجماعة الخارجين من أولادهم جماعة وهم إذ ذاك في سنّ صاحب الترجمة في نحو العشر السنين، قال شيخ الإسلام: فكان أولئك

(١) لا يعرف قائله.

(٢) ترجمه شيخ الإسلام (ج ٢ ــ ٧٨) وأثنى على نبوغه.

الصبيان الذين في سنّ المذكور يشتغلون بما يشتغل به أمثالهم من اللعب، والمذكور لم يبرح يسمع إلى مذاكرة هؤلاء الأعلام ومراجعاتهم وإلى ما يدور بينهم من المطارحات الأدبية فعجب منه شيخ الإسلام لترك اشتغاله بما يشتغل به أضرابه وحرصه على ما تعود عليه فائدته وما ذاك إلا لأنه يفهم ما يدور بينهم فأشار إلى بعض الحاضرين إن لهذا الصبي «شأناً»(١) وسوف يكون من نجباء أهل عصره فعرف والد المذكور المشار إليه بذلك فأخبر أن صاحب الترجمة قد صار يقول الشعر الملحون المسمى (بالحميني) عند أهل اليمن وكان ذلك وسنّه في نحو العشر السنين وهو في المكتب فلم تدر أيام قلائل حتى صار ينظم الأشعار التي هي في أعلا طبقات البلاغة وهو الآن من أعيان صنعاء اليمن علماً وأدباً زاده الله بركة وكثّر من أمثاله الأعيان.

القاضي العلامة الفهامة التقي الورع، والفاضل الولي المتطلع ذو الشمائل التي ارتقى بها على كيوان، والفضائل التي قعد دونها ذوو الفضل من أعيان الزمان، سليل الأعلام وعريق الجهابذة الكرام:

محسن بن الحسين بن علي بن حسين المغربي:

«مصنف البدر التمام»(٢):

نسب سما نحو المعالي صاعداً ... متسلسلاً بسلالة الأعلامِ
ما بين ذي علم وفضل قد غدا ... تُجلى به الظلما كبدر تمامِ

ولد سنة إحدى وتسعين ومائة وألف، وتوفي والده وهو في سنّ الرضاعة فكفلته والدته وقرأ القرآن وتغيبه وطلب العلم فقرأ في الفقه على الفقيه العلامة

---

(١) قال في الهامش: ولم يذكر المؤلف ما هو الذي قرأه على شيخ الاسلام ولعله الرضي في النحو وكانت وفاته سنة ١٢٦٧هـ.

(٢) مؤلف البدر التمام هو الحسين بن محمد المغربي، وقد تقدمت الإشارة إليه وترجم له شيخ الإسلام وترجمه زبارة في نيل الوطر (ج ٢ ـ ١٩٩) ناقلاً عن التقصار وكانت وفاته سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف.

محمد بن حسين الويناني[1] في متن الأزهار أَشرافاً عديدة حتى برّز فيه بروز الكلمة ومهر فيه مهور الفحول المهرة، ثم قرأ في شرحه على الأستاذ أحمد بن محمد الحرازي فحاز قصب السبق على أضرابه، وحثا من قتام شوطه على وجوه أترابه، وقرأ الفرائض للعصيفري على شيخه الويناني وأسمع الناظري والخالدي على القاضي العلامة عبد الرحمن بن عبد الله المجاهد[2] وقرأ في النحو على مشائخ عصره وفي بعض كتب الأصول وشرح الجلال على الأزهار على القاضي العلامة حسين بن محمد العنسي، وقرأ في الصرف على القاضي العلامة يحيى بن علي الشوكاني، وأسمع كتب الأمهات الست وغيرها على السيد العلامة حسن بن يحيى الكبسي وبعضها على شيخ الإسلام وأسمع عليه مؤلفاته: شرح المنتقى والتفسير إلا قليلاً، وكانت قراءته في جميع مقروءاته هذه قراءة تحقيق وإتقان وتدقيق وتدبر وإمعان وصار في الجميع من أعيان المشائخ المحققين ومن فحول الصدور المتصدرين فاجتهد وتصدر وأحيا وأفاد ودرّس وأفتى مع شهامة سمت به على ذوي النهى، وهمة رقت به هام السّها، منجمع عن أهل الدنيا ضارب صفحاً عما بأيدي الأغنياء، لم يخضع لصغير ولا كبير ولم يدخل أيضاً على أمير ولا وزير، غير ملتفت عما يتنافس فيه أمثاله من المراتب، أو يترشح لَهُ أمثاله من أهل العلم من المناصب، على أنه لمثلها الكفؤ الكريم وسلفه الصالح هم أبو عذرتها القديم ليس له شغل بغير خاصة نفسه حتى انقبض عن سائر أترابه وأبناء جنسه .دائباً على ما تعود عليه الفائدة من درس وتدريس وعبادة حريصاً على العمل بالآثار ناهجاً في مناهج الأتقياء الأبرار يدور مع الحق حيث دار زاد الله في أمثاله من ذوي الفضائل من الأخيار.

---

(١) الويناني: نسبة إلى وينان بلدة من مخلاف حمير بالهان ترجمه المؤرخ زبارة ترجمة مختصرة نقلاً عن جحاف وكانت وفاته أربع عشر ومائتين وألف. نيل الوطر (ج ٢ ــ ٢٦٣).

(٢) قال زبارة في نيل الوطر (ج ٢ ــ ٣٣): عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عبد الله المجاهد وكانت وفاته سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف.

القاضي العلامة الفهامة المحقق المدقق محمد بن أحمد بن سعد السودي الصنعاني[1] المولد والمنشأ:

ولد ليلة الجمعة مستهل جمادى الآخرة سنة ثمان وسبعين ومائة وألف، وقرأ على شيخ الإسلام من ابتداء طلبه إلى انتهائه فقرأ عليه علوم الآلات جميعاً من نحو وصرف ولغة ومعاني وبيان ومنطق وأصول، وبرز في جميع ذلك وصار شيخاً مدرّساً في ذلك يقرأ عليه الطلبة في جامع صنعاء في هذه الفنون على اختلافها وأسمع عليه في الكتب الحديثية، ثم قرأ عليه في مؤفاته مثل شرح المنتقى والدرر وشرحه، المسمى بالدراري وغير ذلك من مؤلفاته وحرص عليها حرصاً عظيماً، وقرأ الفقه على الفقيه العلامة محمد بن حسين الويناني.

وقرأ على شيخ المشائخ في الفقه القاضي العلامة أحمد بن محمد الحرازي ودرس في الفقه وصار من أعيان العلماء في كل فن قرأه، وكان له ذهن سبّاق وفهم دقيق مع عقل راجح وتصور للدقائق وعمل بما يصح من الأدلة وله قوة على المناظرة في دقائق العلوم وسرعة استحضار للأدلة، وكان ذا قنوع وعفاف وله يد في نظم القوافي مع بلاغة وفصاحة وانتقاد وجودة حافظة وله نظم رائق، ومدح فائق في شيخ الإسلام.

ثم ولّاه شيخ الإسلام القضاء فصار من قضاة صنعاء فقام بالقضاء أتمّ قيام وعامل الناس بالرفق وحسن مخارجة في الخصومات مع ترك طمع وعدم تهافت ثم مات رحمه الله في سنة ست وثلاثين ومائتين وألف، وتأسف عليه الطلبة للانتفاع به في العلوم وعامة الناس للانتفاع به في تشاجر الخصوم رحمه الله.

---

(١) كأن السودي نسبة إلى سودة شظب شمال غربي صنعاء بمسافة يومين قديماً وترجمه شيخ الإسلام (ج ٢ ــ ١٠٣) وأثنى على معارفه وذكر له شعراً ومساجلة أدبية نظماً ونثراً. قال في هامش البدر الطالع: ومات سنة ست وثلاثين ومائتين وألف.

القاضي العلامة الفهامة الذكي محمد بن أحمد بن محمد مشحم[١]:

وهو حفيد القاضي المصنف الكبير محمد بن أحمد مشحم، قرأ الفقه على السيد العلامة حسين بن يحيى الديلمي وعلى الفقيه العلامة الفاضل سعيد بن إسماعيل الرشيدي رحمه الله، وعلى القاضي العلامة أحمد بن محمد الحرازي، وقرأ في سائر العلوم على عمه العلامة عبد الله بن محمد مشحم والسيد العلامة علي بن عبد الله الجلال والسيد العلامة إبراهيم بن عبد القادر.

وقرأ على شيخ الإسلام في الفرائض وفي شرح الرضي للكافية وفي مغني اللبيب وفي الترمذي وسنن أبي داود وفي غير ذلك، وبرع في علوم الآلات وحققها وأدرك في الحديث وشارك في سائر الفنون مع فهم جيد وذكاء كامل وقوة تصور وكان يعوّل على صحيح الأدلة ويترك ما لم يكن عليه دليل ولا يدين بالتقليد ويعمل بما يصح له.

وولاه مولانا الإمام المنصور رضي الله عنه القضاء بصنعاء من جملة قضاتها فباشر القضاء بعفاف ودين وقناعة ورغب الناس فيه وأثنوا عليه خيراً وتولى فصل قضايا مشكلة ثم حج في سنة إحدى عشرة ومائتين وألف ثم تولى قضاء بلاد «ريمة»[٣] في السنة الثانية من حجّه ثم انتقل إلى قضاء بندر الحديدة وكان أيام بقائه في صنعاء كثير الاتصال بشيخ الإسلام وكثير السؤالات له والمباحثات في كثير من أنواع العلوم وكذلك أيام بقائه في الحديدة يحرر سؤالات فيما أشكل أمره عليه إلى شيخ الإسلام، وما زالت كتبه تأتي إليه مرّة بمسائل علمية ومرّة بمطارح أدبيّة ثم عاد إلى صنعاء وما زال يدرّس من الطلبة في فنون من العلوم ولم يكثر مباشرة القضاء بعد ذلك في صنعاء بل صار ملازماً بيته ويتسع لمن يقصده للقراءة عليه وقلّ اختلافه

---

(١) يبدو لي وكما أعرف أن آل مشحم من بيوتات علماء صعدة انتقل منهم من انتقل إلى صنعاء ولهم بقية بصنعاء وصعدة، وقد ترجم لهم شيخ الإسلام (ج ٢ ــ ١٠٢).

(٢) ريمة: مخلاف من المخاليف المشهورة التي تردد ذكرها في صفة جزيرة العرب والإكليل وهي من أخصب مخاليف اليمن على جبال السراة.

عند من يالفه من الاصحاب والأتراب ما عدا شيخ الإسلام فإنه لازمه وقرأ عليه في فنون الحديث ثم وقع به مرض كان قد ابتدأ به منذ كان ببندر الحديدة ولعل سببه ما وقع من كثرة الفتن في قطر تهامة فإنه تعلق به من واقعة وقعت من قبائل يام في بندر الحديدة وذلك أنهم وثبوا على بيته يريدون قبضه فدفع الله عنه بعد أمور عظيمة جرت ثم توفي صاحب الترجمة في شهر رجب سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف.

القاضي العلامة محمد بن أحمد بن محمد الحرازي[1]:

ولد شيخ الفروع في صنعاء، المتقدم ترجمته، ولد سنة أربع وتسعين ومائة وألف، وقرأ في علم الآلات على القاضي العلامة محمد بن أحمد السُّودي وعلى الفقيه العلامة يحيى بن محسن الحبوري[2] وقرأ في الفروع على الفقيه العلامة محمد بن حسين الويناني، وعلى والده شيخ مشائخ الفروع، وقرأ في الحديث على السيد العلامة حسن بن يحيى الكبسي.

وقرأ على شيخ الإسلام في النحو وفي الحديث وقرأ عليه في مؤلفاته في فتح القدير وأدرك في الفقه وغيره وقام مقام أبيه في الفتوى، ولما توفي والده رحمه الله قام مقامه فيما بنظره وفي وظيفة القضاء وباشر ذلك بعفاف وشهامة نفس وعلو همة وكان كثير الخير مطرحاً أعباء التكاليف سالكاً في مسالك الاستقامة.

ولما وصل الأتراك إلى تهامة اليمن واستولوا عليها وقبضوا على صاحبها الشريف أحمد بن حمود صاحب أبي عريش في سنة أربع وعشرين ومائتين وألف وكان أمير الجيش الباشا خليل بن محمد بن علي فأرسل إلى الإمام الأعظم المهدي عبد الله بن الإمام المتوكل على الله حفظه الله رُسُلاً واستدعى من قبل الإمام رسولاً

---

(١) ترجم له الإمام الشوكاني (ج ٢ ـ ٢٣) كما هنا، وقال زبارة في هامش البدر الطالع: ثم مات سنة خمس وأربعين ومائتين وألف عن إحدى وخمسين سنة.

(٢) غير مترجم للعلامة الحبوري.

يصل إليه ففاوض الإمام حفظه الله شيخ الإسلام في ذلك فوقع الجزم بنفوذ صاحب الترجمة فنفذ إلى هنالك إلى مقام الباشا خليل ثم عاد إلى مقام الإمام وصحبته جماعة من الأتراك ثم عاد مرة أخرى، وانفصل الحال بين الإمام حفظه الله والأتراك على إرجاع بلاد تهامة بأسرها إليه وتحت ملكه كما كانت مع آبائه من قبله ويصير إليهم شيء من البنّ معين في كل عام يدخل إلى مطبخ السلطان، وأجلوا عن تهامة وسلموها إلى أيدي ولاة الإمام كما قد تقدم ذكر ذلك، ثم إنّ الإمام جعل صاحب الترجمة وزيراً وجعل بنظره قطر تهامة بأسره وبلاد ريمة وتعز واستمر على ذلك نحو ثلاث سنين وهو غير طيب النفس بتولي الوزارة ثم عزل عن ذلك واستراح وعاد إلى حالته المعهودة وأيامه المفقودة ولياليه المحمودة ملقٍ عن نفسه تكاليف التعب مستريحاً عن مقاساة الهموم والوصب، خليّ البال خالٍ من الأوجال.

الشيخ الفاضل التقي والعالم العامل الولي محمد بن أحمد بن زيد بن محمد بن أحمد الشاطبي الأسدي(١):

ولد سنة عشر بعد المائتين والألف ونشأ في حجر والده العلامة الفاضل فتغيب عليه الكتاب العزيز وقرأ عليه في مختصرات الآلات فأدرك بها ما لم يدرك أمثاله في أسرع زمان وأقل مدة ثم قرأ على السيد العلامة حسن بن يحيى الكبسي وعلى القاضي العلامة يحيى بن علي الشوكاني في كتب الآلات والحديث فأدرك علوم الاجتهاد وحازها وارتقى درجات التحقيق وجازها، وأدرك من أسرار المعارف حقيقها ومجازها، مقتفياً آثار السلف الصالح في جميع حركاته وسكونه، ليس له شغل في الدنيا بغير العبادة، وقراءة العلوم، لا يعرف شيئاً مما وراءهما بل لا يحسن شيئاً من أعمال الدنيا على اختلافها، ومن العبادة برّه بأبيه العلامة الفاضل فإنه كفّ بصره فصار له بمثابة العصا يتوكأ عليه في جميع حركاته ويستعين به في غالب حاجاته لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً إلا وقت دروسه مشغولاً بنسخ الكتب وتحصيلها ويتحرك

---

(١) ترجم للشاطبي المؤرخ زبارة في نيل الوطر (ج ٢ ــ ٢٣٧) كما هنا وقال: إن وفاته سنة خمس وخمسين ومائتين وألف.

بحركته إلى مساجد الجماعات لأداء الفرائض ثم يعود إلى بيته كثر الله في أهل العلم والفضل من أمثاله.

قرأ على شيخ الإسلام في الكشاف والرضي وفي سيله الجرار من مؤلفاته وفي صحيح البخاري وسمع منه في غيره من كتب الحديث مع سمت الصالحين وسيماء الناسكين نفع الله به آمين.

السيد العلامة الفهامة خذْن المعارف وقعيدها ومليك طريفها وتليدها، الذي إن نظم القوافي فاق عَبيدها، وقعد دون فصاحته قسّها ولبيدها أو نثر المعاني فما عبد حميدها إذا اعترف له بالفضل عليه عمادها وعميدها:

محمد بن إسماعيل بن حسن الشامي(١):

ولد سنة أربع وتسعين ومائة وألف، أخذ العلم عن جماعة من مشائخ عصره مثل السيد العلامة إبراهيم بن عبد القادر والسيد العلامة إبراهيم بن عبد الله الحوثي وعليه أدرك فروع العلوم وأصولها وأدرك غايتها ومنتهى محصولها وأخذ على غيره من المشائخ، ولكن عليه استفاد وأحرز، وصلّى في ميدان المعارف وبرّز، وجلّى في علم النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان وأصول الفقه.

وأخذ على شيخ الإسلام في علم السنّة وله في نظم القوافي يد يقلّ أن يشاركه فيها غيره من أترابه وبني أيامه مع رقة وانسجام وحسن اختراع ولطف ابتداع.

كتب إلى شيخ الإسلام قصيدة طنّانة همزيّة قد تقدمت في فصل ما مدح به من الأشعار لاحقة بطريقة العرب العرباء أقرّ له بها ذوو الفضل من الأعيان الأدباء، وأجاب عليه شيخ الإسلام بثلاثة أبيات، وأول قصيدة المذكور بقوله:

يا دار علوة بالكثيب النائي حيّاك كلّ مهجر بكّاءِ

---

(١) ترجم المؤرخ زبارة في نيل الوطر (ج ٢ ـ ٢٤١) بمثل ما هنا ونقل عن جحاف، وأورد له شعراً وكانت وفاته سنة أربع وعشرين ومائتين وألف.

فأجاب عنها بقوله:

لله درّك يا ابن إسماعيل بل لله درك فهو عقد بهاءِ
يا جوهريّ النظم بل يا جوهر الفتيان في علم وفرط ذكاءِ
يا معشر الشعراء هذا معجز لمحمد ينبئكم بنباءِ

وأما فهمه فأنفذ من السهم، وذكاؤه أذكى من أياس مع حافظة لا يكاد ينفلت عنها ما مرّ بخاطره ولو في حال مذاكرة ومحاضرة، وأما لطف طباعه وبشاشة أخلاقه فكالنسيم المعبّق أو كالروض المورق المؤنق وكان والده السيد العلامة الفاضل العبادة إسماعيل بن الحسن الشامي والياً على الأوقاف فناب ولده هذا لما تركها والده لأمر اقتضاه ورعه فقام بالوقف أتم قيام واستمر أياماً حتى توفي سنة أربع وعشرين ومائتين وألف في ربيعها الأول رحمه الله وغفر له.

القاضي العلامة محمد بن حسن السماوي[1]:

ولد سنة سبعين ومائة وألف بسماه من بلاد «عتمة» وارتحل إلى ذمار لطلب العلم فقرأ هنالك علم الفقه على جماعة واستفاد فيه ثم ارتحل إلى صنعاء فقرأ على

---

(١) هذا القاضي محمد بن حسن السماوي رحمه الله هو الذي خلفه في التدريس بهجرة الذاري من مخلاف خبان، جدي العلامة الحسين بن أحمد بن عبد الله الأكوع الحوالي وقبر جدي بجواره في جبل مطاية في جرف يسمى إلى يوم الناس هذا جرف السماوي وترجمه شيخ الإسلام ترجمة مختصرة وزبارة بنيل الوطر (ج ٢ ـ ٢٥٥) كما هنا ولم يذكر وفاته.

(٢) عتمة: بضم العين المهملة والتاء المثناة من فوق مضمومة ثم ميم وهاء مخلاف خصب ومنها سماه عزلة وليس صحيحاً ما تخيله الأخ العلامة الأديب الشاعر القاضي محمد بن محمد بن عبد الجبار السماوي من الدعوى العريضة فذلك من نسج الخيال فلم يظهر آل السماوي المنسوبون كقضاة وعلماء إلا من القرن الحادي عشر الهجري وقد توسعنا في القول في المعجم، وأما (سماه) فهي موجودة على وجه الأرض وأول ما جاء ذكرها في التواريخ في القرن السادس الهجري وجاء ذكرها في شعر التاج بن العطار شاعر الملك المنصور عمر بن علي رسول عندما فتح حصن سماه سنة اثنتين وأربعين وستمائة فقال:

ما سماء الدنيا على ابن علي ببعيد فكيف حصن سماوه
ملك يومه لفتح مبين للأعادي وليله للتلاوه

جماعة من علمائها منهم السيد العلامة علي بن إبراهيم بن عامر في النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان والأصول والحديث والفقه واستفاد في غالب هذه الفنون ثم انتقل إلى بلاد خبان[1] لتدريس طلبة العلم وهو الآن «باقياً»[2] هنالك ثم صار أحد القضاة بخبان.

السيد العلامة الفاضل الجليل، والأديب الفَهَّامة النبيل محمد بن حسن المحتسب[3]:

ولد سنة سبعين ومائة وألف، وأخذ العلم عن مشائخ من أهل عصره وأكثر أخذه عن السيد العلامة محمد بن محمد المعروف بالبنوس[4] واستفاد في العلوم الآلية وأفاد بها وأخذ في الفروع وله مشاركة في علم السنّة مع فهم ثاقب يعمل بالحق حيث وضح ويتقيد بالدليل إذا صح، مع دين صلب وصدق لهجة في جدّه وهزله محبب إلى القلوب لاطراحه تكاليف أمثاله، ومن هو على منواله مع همة علية ونفس أبية، وكان له اتصال بالإمام المتوكل رضي الله عنه في كثير من الأوقات وكذلك بولده إمام عصرنا الإمام المهدي حفظه الله في حال مقامه بصنعاء وأما في حال أسفاره فلم يفارقه حتى في مبيته ومنامه لخفته على القلوب وحسن منادمته التي تقوم مقام وصل المحبوب.

قرأ على شيخ الإسلام في الصحيحين وهو الآن على حاله الجميل، ترجمه جامع هذا السفر حسبما ترجمة بعض أدباء العصر، فقال:

هو القاضي العلامة الأديب الفذ الكامل الفهامة الأريب المتصرف ببلاغة وفصاحة

---

(١) خبان: بضم الخاء المعجمة وفتح الباء الموحدة ثم ألف وآخره نون: مخلاف من مخاليف اليمن جنوب مدينة ذمار وذكره لسان اليمن في صفة جزيرة العرب والإكليل.

(٢) لم أتذكر وفاته مما تحت يدي من المراجع.

(٣) ترجمه الإمام (ج٢ ـ ١٦٠) ترجمة موجزة قال في هامش البدر: وكانت وفاته سنة سبع وخمسين ومائتين وألف.

(٤) البنوس: لقب أحد آبائه وهو يكره ذلك. مولده سنة خمسين ومائة وألف وكانت وفاته وقد ذهب لتأدية الحج فمرض في البحر ومات سنة خمس عشر ومائتين وألف هـ.

في بدائع المحاسن ومحاسن البدائع كيف شاء، والمحلي جيد بلده العاطل عن فضيلة الآداب لا المعارف بعقود فرائد نظمه والإنشاء، مالك أعنّة القوافي وناهج طريقها، والمشار إليه من بين الأدباء بترصيعها وتنميقها، الناظم لحلى عقودها، والراقم لوشي برودها:

محمد بن حسن بن علي بن أحمد بن ناصر الشجني الذماري مولداً ومنشأً:

ولد سنة مائتين وألف أو بعدها بيسير وهو من بيت تنازعه شرفا العلم والفضل، قرأ على مشائخ بلده من أهل وقته وعصره في علومهم المدروسة ومعارفهم المأنوسة في الفقه والفرائض فصار فارسها السابق الرائض ثم ثنى جواده إلى ما امتاز به من بين أترابه وأفراده فأرخى عنان طِرْفه وأجال في رياض الآداب طَرْفه، فأصبح بيضة البلد، في كل ما أشكل على أهلها مما ورد من دقائق أسرار لغة العرب، ومن توضيح عوامل مبنيّها والمعرب، وصار إمام أهل بلده في علوم الآلات على اختلافها يشار إليه بالبنان من بين أولئك الجهابذة الأعيان، يدرس في دقائقها ويجتني من ثمار حدائقها.

وأما مبتكرات أفكاره، في مقطعاته وأشعاره فهو الفرد الكامل، والعماد الفاضل، بل الذي ألقت إليه البلاغة زمامها، وأقعدته على ذروة سنامها لما رأته قد فضّ ختامها ومنعها عمّن رامها، فلا ريب فهو أبو عذرتها، المتصرّف بها تصرف السيد برقه، والمالك بما يملكه ويستحقه.

قال شيخ الإسلام وقد أطربَتْهُ قطعة كتبها إليه: بعد وقعة بئر العزب في القضية الشهيرة لما استولى عليها البغاة في عام ثلاث وثلاثين ومائتين وألف وكان شيخ الإسلام مقيماً بها فكتب إليه صاحب الترجمة كتاباً يهنئه فيه بالسلامة من المعرّة: انظر في هذه البلاغة البليغة التي جاء بها صفواً وعفواً من دون تكلف في تعريف معاهده، زاد الله في رجال الكمال من أمثاله، انتهى، وقد تقدم ذكر الكتاب في شرح صفة دخول البغاة بئر العزب، وقال جامع هذه الترجمة للمؤلف غفر الله له: قال شيخ

الإسلام في حق المترجم له: وقد جمع مؤلفاً في ترجمتي، وذكر فيه شيوخي وتلامذتي، وقد أوقفني على كراريس منه، كل من وقف عليه من العلماء ابتهر لبلاغته وحسن مسلكه، وجودة فقره، وبلاغة كلماته، سمع على شيخ الإسلام في صحيح البخاري مع جماعة من علماء ذمار عند وصوله إلى هنالك مع الإمام المهدي حفظه الله وله عليه سماعات في بعض كتب الآلات مع وفدات يفدها صاحب الترجمة إلى صنعاء تقتضي وصوله كدفع ما يرد على أهل بلده من الواردات التي لا يعتادونها فيعود وقد فاز بالقدح المعلى ودفع الله بسعيه عنهم كل بلوى(١).

وقد أجاز له شيخ الإسلام في جميع معلوماته من مسموعاته وإجازاته وقد ذُكرت بلفظها سابقاً.

الفقيه العلامة الفهامة محمد بن صالح العصامي الصنعاني:

ولد سنة ثمان وثمانين ومائة وألف، وأخذ العلم عن جماعة من مشائخ عصره وجلّى في علم الآلات وله ذهن سائل وفهم قابل يفهم الدقائق ويعرف كنه الحقائق وأما حافظته فقلّ أن يرزق مثلها من أقرانه من أهل عصره، قد يحفظ الصفحة والصفحتين عن ظهر قلب فلا يغادر حرفاً وكذا يحفظ القصص المطوّلة ذات الشعب فيمليها كأنّه ينظر إليها ويحفظ الأبحاث العلمية المشكلة ويحفظ ما عليها من الردود والدفوعات والاعتراضات برمتها يمليها كما يملي غيره المقطوعين من الشعر بغير تكلف ولا توقف ولا تردد يحفظ التواريخ وأيام الخلفاء والسلاطين على ترتيبهم ومدة أيامهم ووقائعهم وما اتفق في عصورهم لا يملّ جليسه مجالسته ولا أنيسه مؤانسته وكان يحذو في كتبه وترسله حذو أهل الصدر الأول فربما جاء في بعض مكاتباته بأبلغ بلاغة وأفصح فصاحة، وفي أشعاره يحذو حذو أبي تمام في جزالته وفخامته وقد سبق من كلا النوعين فيما مدح به شيخ الإسلام فعليك به.

---

(١) قال زبارة في نيل الوطر (ج ٢ ـ ٢٥٧): وكانت وفاة صاحب الترجمة في سنة ست وثمانين ومائتين وألف، وقبل وفاته بثمانية عشر يوماً مات ولده العلامة علي بن محمد بن الحسن وولده العلامة محمد بن محمد بن الحسن بعد عوده من الحج.

قرأ على شيخ الإسلام في الحديث والأصول وكثرت ملازمته له وهو في هذا الأوان قد اختير لمجالسة مولانا حفظه الله أمير المؤمنين المهدي عبد الله بن أمير المؤمنين المتوكل يملي عليه غرر الأشعار ويشرح له عجائب القصص والآثار يقضي به أوقاته ويتسلى بأدبه في خلواته[(١)].

السيد العلامة محمد بن عز الدين النّعمي التهامي[(٢)]:

ولد سنة ثمانين ومائة وألف بمحل من تهامة يسمى «العذير»[(٣)] بفتح المهملة وكسر المعجمة وسكون المثناة التحتية، ثم مهملة وهي بالقرب من بندر اللحية من بنادر تهامة ثم ارتحل إلى صنعاء فقرأ في الفقه على القاضي العلامة أحمد بن محمد الحرازي وغيره.

وقرأ على شيخ الإسلام في النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان والأصول والحديث والفقه وبرع في جميع ذلك وصار من العلماء المشار إليهم في بلده ثم عاد إلى صنعاء وقرأ على شيخ الإسلام في العضد وحواشيه ثم عاد إلى بلده في قيام الشريف حمود فكان ممن شملتهم دولته وكان عنده بالمحل الرفيع ثم مات في أيام الشريف حمود، وكان لصاحب الترجمة أخ يسمى السيد إسماعيل بن عز الدين النّعمي كان كثير البقاء في صنعاء وكان أكبر من صاحب الترجمة وكان يتوجر[(٤)]

---

(١) ذكر وفاته المؤرخ زبارة في نيل الوطر (ج ٢ ــ ٢٦٦) قال: وموت صاحب الترجمة سنة ثلاث وستين ومائتين وألف. ومن أعجب ذلك أن المؤرخين المذكورين لم يذكروا مؤلفه الكبير القيم الذي يدخل في عشرين جزءاً واسمه «مسالك الأبصار» وقد نشرنا الجزء الأول وحكينا كيف كان الالتقاء به في المقدمة فإنه كتاب جليل يحق لكل يمني له إحساس متابعة إخراج الأجزاء الأخرة لأنها مفرقة ما بين العراق وتركيا وغير ذلك.

(٢) ترجمه الإمام الشوكاني (ج ٢ ــ ٢٠٥) كما هنا قال: ووفاة صاحب الترجمة سنة اثنتين وعشرين وألف.

(٤) كذا في الأصل يتوجر أي يستأجر.

للحج إلى بيت الله الحرام ولم يكن مشغولاً بشيء من العلوم وآخر أمره أنه جمع مجموعاً من الكتب الموضوعة لداعية الرفض وكان يمليه على العوام بمجامع صنعاء فكان ذلك من أسباب الفتن التي كانت في سنة ست عشرة ومائتين وألف في شهر رمضان.

وذلك أنه كان يجتمع العوام فيه لسماع قراءة السيد يحيى بن محمد الحوثي وكان يقرأ قبيل العشاء على كرسي وتسرج له الشموع فيجتمع لسماع تلك القراءة الجمّ الغفير من أهل الأسواق وغيرهم في جامع صنعاء وينظم إليهم الفقهاء المهاجرون في الجامع في ذلك الزمان، ففي بعض الليالي أذّن القيم قبل الوقت بيسير فثاروا ومنعوا الناس صلاة العشاء «وقالوا إن المؤذن وكان الفقيه أحمد بن محسن حاتم هو المؤذن في الجامع في ذلك الزمان»[1]، فأذن العشاء قبل أن يقرأ السيد يحيى في مناقب أهل البيت عليهم السلام وفي طيّ ذلك تتقد نيران الفتنة فخشي الفقيه أحمد حاتم أن تثور تلك الليلة فتْنَة لما رأى من تجمع العوام ولغْنهم حال القراءة بأعلى أصواتهم من يبغض أهل البيت عليهم السلام، ويعتقدون لجهلهم أنهم أهل السنّة صانهم الله ونزّههم عن ذلك فخطر على بال المؤذن المبادرة بالأذان وإقامة الصلاة فسعى جهلة الفقهاء الأغمار الأشرار في العوام وألقوا إليهم أنه لم يبادر بالأذان إلا ليقطع القراءة في مناقب أهل البيت فثاروا جميعاً وجعلوا يجولون في الجامع ويصيحون وإذا رأوا جماعة تقام للصلاة دخلوا بين المصلين حتى يخرجوهم من صلاتهم ثم خرجوا من الجامع جميعاً يصيحون بلعن معاوية ويدورون في شوارع صنعاء يرجمون بيوت الناس، واجتمعوا على رجم دار الفقيه حسن بن عثمان العلفي وبعض بيوت «العليْفة» ويقولون إنهم من أولاد معاوية فلما سمع ذلك الفقيه حسن بن عثمان وكان أكبر وزراء الإمام المنصور بالله علي بن الإمام المهدي لدين الله العباس أمر مَنْ عنده من أهله وقرابته وعبيده

---

(١) عبارة ما بين القوسين غير منسجمة وكان مقتضاها: وقالوا إن المؤذن في الجامع أحمد بن محسن بن حاتم أذن العشاء إلخ.

بالتوقف وأن لا يحصل منهم شيء إلى هؤلاء الذين يرجمون بيته فلما رأى العوام أنه لا حراك لهم أمنوا فازداد شرهم بالرجم حتى كسروا بعض الطاقات والشبابيك وأما قمريّات الزجاج والرخام كادوا أن يأتوا على الجميع فلما رأى مَنْ كان داخل الدار شدتهم بالرجم رموهم بالبنادق ولكن لا رصاص بها إنما كانوا يرمون بالباروت فلما تيقنوا أنه لا رصاص في البنادق التي يرمونهم بها كادوا أن يثبوا على نهب داره بل قد كانوا دخلوا بعض الأماكن التي في أسفل الدار، وكان ذلك من الفقيه حسن ومن لديه من سوء الرأي وعدم الجزم بأنهم لو رموهم بأول بندق مرصّصة وسمعوا وقعها لتفرقوا فإنهم عند أول بندق سمعوها طاروا متفرقين حتى لحقهم من عرف أنه لا رصاص في البنادق وجعل يصيح لهم إنهم يرمون بباروت فقط فارجعوا فرجعوا فلمّا تيقنوا ذلك كادوا أن يذهبوا بالدار وما فيها، وقد كان اجتمع معهم من الأوباش وبعض الأجناد للنهب والطمع من غير نظر إلى شيء لولا تداركهم الله ببعض أولاد الإمام المنصور وهو سيدي محمد بن المنصور بجماعة من عسكره وقد كانوا ذهبوا إلى بيت الفقيه يحيى بن علي حنش وأرادوا أن يصنعوا به كما صنعوا ببيت الفقيه حسن عثمان فرموا ببندق مرصّصة فطاروا لأوْجاههم لا يلوون على شيء.

فلما كان اليوم الثاني اجتمع جميع الوزراء والأمراء لدى الإمام المنصور فأرسل لشيخ الإسلام ليستشيره عما يكون به دفع هذه الحادثة وجعل الإمام المنصور رحمه الله يؤنب الفقيه حسن عثمان حين لم يرمهم برصاص ويخطئه في فعله فاعتذر أنه ظنّ أن الأمر كان بذلك من الإمام ثم إنهم رجعوا إلى ما يحسم المادة إلى شيخ الإسلام فأمر بأن الجماعة الذين صاروا يجمّعون العوام في الجامع ويوقعون في أذهانهم ما يثيرون به الفتنة يودعون الحبس وكذلك الفقيه أحمد حاتم تسكيناً للفتنة، وكان الذين يقرأون في الجامع هم السيد يحيى بن محمد الحوثي والسيد علي بن إبراهيم الأمير والسيد إسماعيل بن أحمد مغلس الكبسي وأخو صاحب الترجمة إسماعيل بن عز الدين النعمي وهو أجهلهم وأضرهم ثم اقتضى الحال بعد ذلك حبس السيد الفاضل عامل الوقف إسماعيل بن حسن الشامي تظنناً أنه الذي أمر الفقيه أحمد حاتم بتعجيل الأذان.

هـذا وقد كـان عامـة صنعاء وأشـرار الفقهاء يتـواصـون بـالاجتمـاع في الليلة الأخرى لكبس البيوت ونهبها فوقـع الأمر بحبس جماعة من العوام والفقهاء الذين عرفوا تلك الليلة فحبسوا فتفرق شملهم وتواروا ثم أمروا من قـد صار منهم في الحبس أن يعين كل واحد منهم من عـرفه تلك الليلة معهم في إثـارة الفتنة فعيّن كـل رجل من المحبوسين جماعة فما زالوا يطلبون ويحبسون حتى اجتمـع أكثر الأشرار في الحبس ثم شـدد الإمام المنصـور رحمه الله عليهم لعلمـه بأن مثـل ذلك يعـود بالخلل على دولته ومملكته وأن الفتن في الدين من أعظم ما يضعضـع المملكة ويـزيلها ومـا يترتب على ذلك من نهب الأموال وسفك الدماء وهتك الحُرَم ووثوب القوي على الضعيف فمـا زال رحمة الله عليـه يحرص في ضبط المجتمعين تلك الليلة وتتبعهم والتـرصد بهم ليلاً ونهاراً حتى اجتمـع منهم في الحبوس أكثر السـاعين المتسببين لذلـك فأمـر بنصفهم في اليـوم الأول واستدعـاهم إلى سـوح داره وأمـر ببسـطهم على وجـوههم وضربهم الخدم بـالعصيّ ضربـاً مبرحـاً ثم استدعى في اليـوم الثاني النصف الآخـر منهم وصنـع بهم كذلك وكان فيهم من لم يكن أهلاً لـذلك إذ كـان من جانب أهـل الفقه والهيئات ولكنه كان معـروفاً بـالتعصّب في ذلك، وكـان من جملة من قد عيّنـه الـذين قـد صـاروا في الحبس ثم أمـر بهم فجعلوا صحبـة عسكـر إلـى حبس كمـران وبعضهم إلى حبس زيلـع وكـان قـد تـوارى جمـاعـة من الـذين انضمـوا إليهم تلك الليلة من الفقهـاء المهاجـرين في الجامـع الكبيـر والعـوام وغيـرهم ممن يجوز مِنْـه مثل ذلك فلما علموا بما حلّ بأولئـك الجماعـة طاروا لـوجوههم وغيـروا زِيهم وهيئتهم فمنهم من أوغل في بلاد القبائل النازحة ومنهم من ذهب نحو مكة ومنهم من وصل إلى الهند وفارقوا أوطانهم وأهليهم، ووقـع في ذلك من النـاس من لا ذنب له ولا سعي بل منهم من لم يعلم بما وقـع في تلك الليلة لأنـه كان نـائماً في بيتـه مـع أهله ولم يبلغه الخبر بالواقـع إلا في اليوم الثاني، وقضى الناس أغراضهم بعض في بعض وسعى العدو بعدوه لاتساع مجال قبـول كلام السـاعي فيمن يسعى به فخـاف الناس وفزعوا وصاروا في وجل عظيم واستوى في ذلك البار والفاجر والفاعل وغيره حتى لقد كاد أن تخلى المساجد من الجماعات وهكـذا عاقبـة شؤم الفتن في الدين

والتعصب فيه فمن اطلع على سير الأولين وتواريخهم علم أن مثل ذلك يؤدي إلى ضعف الدين وثوران الفتن وتفرق كلمة الإسلام والمسلمين وافتراق سوادهم وتدابرهم فعند ذلك يلقى المنافقون مجالاً للطعن في الإسلام وأهله كالخوارج لعنهم الله[1]، فإنها لما افترقت كلمة أهل الصدر الأول كانت أول فاقرةٍ في الإسلام قتل عثمان رضي الله عنه ثم كان بعدها ما هو معروف لحتى افترقت كلمة من بعده فخرجت الخوارج على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو خير الناس في ذلك الوقت بالإجماع، ثم افترق الناس بعد ذلك فرقتين: فرقة مع من بغي عليه وهو معاوية بن أبي سفيان وفرقة معه وهم أهل الحق بنص قول رسول الله ﷺ فترتب على ذلك البغي على خير الناس وسفك ما لا يحصى من الدماء وأغمدت سيوف أهل الإسلام عن أعدائهم أهل الكفر وسُلّت على بعضهم بعضاً حتى كادوا أن يتفانوا ولولا حفظ الله الإسلام لعادت الروم وفارس إلى ممالكها واستولوا على من بقي فيها من ضعفاء المسلمين وذراريهم ثم انتهى الأمر إلى ما صار إليه وقد صارت سيوف الخوارج مسلولة على أهل الإسلام يَدّعون الكفار ويقتلون المسلمين ويكفرونهم ثم افترقت كلمة أهل الكوفة فصار جلّهم بين خارجي ورافضي، فالخارجي يخرج لقتل المسلمين كافة ما لم يكن خارجياً أو يهودياً أو نصرانياً أو أي ملة كفر ينتمي إليها والرافضي يخرج لأخذ الثار بأهل البيت عليهم السلام ونصرتهم ويجتمع منهم الألوف المؤلفة ويستدعون خير رجل على وجه الأرض في ذلك الزمن من أهل البيت ويحلفون له الأيمان التي يركن بها إليهم فلما وصل إليهم انقلبوا عليه وصاروا مع أعدائه وقتلوه بسيوفهم ثم يظهرون الندم والتوبة ويبكون ويندبون من قتلوه بسيوفهم ويحثون على رؤوسهم التراب[2] ثم لا يزالون

---

(١) انظر الكلام على الخوارج: كامل المبرد والملل والنحل لابن حزم ومقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري وغيرها كثير وقد انقرضت فرقة الخوارج إلا فرقة الأباضية في «عمان» وقليل منهم في طرابلس الغرب: ليبيا.

(٢) بل وأبعد من ذلك يضربون أنفسهم بالسكاكين ويعملون أعمالاً جنونية كما يقع اليوم في النجف من المثقفين والمارقين من الدين عادة عودهم آباؤهم ولا ولن يفيقوا ولن يرعووا هداهم الله.

كذلك حتى يجتمعوا ألوفاً ويتكاتبون فيما بينهم ويجتمعون على استدعاء أكبر رجل من أهل البيت وأفضلهم وأعظم من على وجه الأرض حتى يأتي إليهم ركوناً على عهودهم الوثيقة وكتبهم فإذا أتاهم راجياً لنصرهم الحق وأهله انقلبوا أعداء له وقتلته سيوفهم فما زالوا كذلك يقتلون أهل البيت عليهم السلام ويسمون أنفسهم الشيعة حتى سلّط الله عليهم الحجاج بن يوسف الثقفي فسامهم سوء العذاب وقتلهم قتل ثمود وعاد، وذلك بما كسبت أيديهم، ولهذا إن الحسن بن علي عليه السلام لما رأى اختلافهم وتفرق كلمتهم عليه مال إلى الموادعة والمسالمة، وفي العين قذى وفي القلب شجى[1] ولو علم عليه السلام من بواطنهم ما علمه من ظواهرهم لما أجاب إلى الإصلاح ولأورد الرماح وأصدق الصفاح وأشعل نار الكفاح.

ورضي الله عن زين العابدين علي بن الحسين فإنه لما أتاه رؤوس أهل الكوفة وقالوا له إن وراءهم من أهل الكوفة كذا وكذا ألوفاً سيوفهم على عواتقهم ينتظرون قدومك عليهم، ثم وقعوا في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال لهم أنتم الذين قال الله فيهم: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله وأولئك هم الصادقون﴾[2] فقالوا: لا، فقال: فهل أنتم من الذين قال الله فيهم: ﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم﴾[3] فقالوا: لا، فقال: أما إنكم لستم من المهاجرين ولا من الأنصار ولا من الذين جاءوا من بعدهم يقولون ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقوا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا﴾[4].

وانظر إلى كلامه رضي الله عنه وأرضاه كيف قسّم هذه الأمة المحمديّة إلى ثلاثة أقسام كما قسّم الله في كتابه العزيز، إما أن يكون الرجل المسلم من المهاجرين أو منْ الأنصار أو من إخوانهم المسلمين الذين جاءوا من بعدهم

(١) كذا في الأصل والمحفوظ وفي الحلق شجى.
(٢) سورة الحشر: آية ٨.
(٣) سورة الحشر: آية ٩.
(٤) سورة الحشر: آية ١٠.

المتصفين بالصفة التي وصفهم الله بها فمن جاء من بعدهم وجعل مكان الدعاء لهم بالمغفرة سبّهم وذمّهم فليس هو من هذه الأصناف في شيء[1] بل قد جاء بما جاء به القرامطة والباطنية[2] المتسترون بالتشيّع والمبطنون الكفر البواح المؤسسة أصولهم ومقاصدهم على كيد الإسلام وتفريق كلمة أهله لحتى يتم لهم مرادهم الخبيث.

وقد روى الإمام الهادي عليه السلام[3] في الأحكام بسنده الصحيح في كتاب الطلاق عن آبائه وأجداده عليهم السلام أنه جاء إليه جماعة من رؤوس الرافضة لينصرونه»[4] وانظر إلى ما انتهى إليه طاهر القرمطي[5] من قتل الحجّاج وسفك دمائهم في بيت الله الحرام وكسر الحجر الأسود وحمله إلى بلاده وقوله عند ذلك:

---

(١) لقد أنطق الله الإمام العظيم زين العابدين السجاد رضي الله عنه بنور الحكمة وألجم رؤوس الكوفة بلجام من نار فلم يستطيعوا أن يقفوا إزاء الآيات البينات لحظة واحدة، فما بعد الحق إلا الضلال ولعمري إن الإمام زين العابدين إمام هدى ورشد.

(٢) القرامطة والباطنية من فصيلة واحدة وكذلك مشتقاتها كالعبيديين والحشاشين والنصيرية والعلويين وغيرهم ممن ذكرنا تعدادهم في تعليقنا على كشف أسرار الباطنية وأصلها منظمة سياسية مؤلفة من الفارسيين واليهود والنصارى لكيد الإسلام. انظر ما ذكرنا.

(٣) الهادي هو يحيى بن الحسين: ترجمنا له في قرة العيون، ص ١٦٩، وانظر: طبقات ابن سمرة، ص ٧٥، والاكليل، ج ١٠ ـ بإخراجنا وله سيرة طبعت.

(٤) فلم نجد ذلك في كتاب الأحكام ولا في سيرته لعلي بن محمد العباسي، ثم إن الكلام أو الجملة التي بين القوسين ناقص لم تتم بها الفائدة فما كان أحوج المؤلف من ترك هذه الجملة، ثم إنّا لم نسمع ولم نَرَ كلاماً مثل هذا فأمامنا كتاب: «غاية الأماني» ليحيى بن الحسين بن المؤيد بن القاسم وهو رجل متعصب شديد العلو لم ينوه بهذا، والثاني «أنباء الزمن» ليحيى بن الحسين بن القاسم المؤرخ المنصف لم يشر لا من قريب ولا من بعيد، إلى هذه الحكاية فالله أعلم من أين اختطفها المؤلف وقوله لينصرونه لعل الصواب لينصروه.

(٥) ليس بطاهر: وإنما هو أبو طاهر سليمان بن حسن بن بهرام الجنابي الهجري القرمطي ملك البحرين وزعيم القرامطة، خارجي طاغية جبار. قال الذهبي: عدو الله الأعرابي الزنديق وهلك سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة، انظر: أخباره ـ ابن الأثير.

ولــو كــان هــذا الــبيــت لله ربّنــا   لصبّ علينــا النار من فــوقنــا صَبّــا

وإلى ما انتهى إليه أمر الباطنية من فتنة علي بن الفضل «لعنه الله» ومنصور بن حسن[1] فإنهما خرجا من عند ميمون القداح اليهودي الذي تلبس شعار المسلمين وأمرهما بالخروج إلى أهل اليمن ودعا أهل اليمن إلى التشيع بحب أهل البيت عليهم السلام فلما تم لهما مرادهما وانخدع الناس لهما كونهما جاءا بما جبل الله قلوب المسلمين عليه من حب أهل بيت رسول الله ﷺ أظهرا سرهما المكتوم وقصدهما الخسيس المذموم وصرحا بتعطيل الشريعة وارتكاب كل قبيحة شنيعة فظيعة، فشرب علي بن الفضل الخمور وارتكب الفجور، وحلّ نكاح البنات والأمهات كما قال[2]:

---

(١) علي بن الفضل هو الجدني لا الحنفري لأن ذا جدن لهم بقية في مخاليف ذي رعين الدنيا وأسافل السكاسك، كما كانوا يسكنون مدينة ذي جيشان التي كانت في مخلاف العود: شمال قعطبة وفيها ولد ابن الفضل وترعرع وأخذ مبادىء العلوم فيها فقد كانت مصدر إشعاع كما أن التشيع قد غزاها عن طريق أبناء فارس ثم ارتحل إلى عدن ملتقى الشرق والغرب فارتوى من المبادىء الفارسية ولأمر سياسي اعتنقه وعنده طموح ونزعة للملك فذهب للعراق فكان ما كان مما ذكر ابن مالك الحمّادي المعافري في كشف أسرار الباطنية ولكني ألفت نظر القارىء إلى الظاهرة التي أجدها في نفس اليمنيين أنهم يقللون من شأن قومهم إذا تملكوا أو ارتقوا مناصب رفيعة بينما يرضون للغريب ويذعنون لسوطه وتأمل هنا بالذات كيف صبّ المؤلف اللعنات على ابن الفضل وأظهره بمظهر الكافر الزنديق وكذلك المؤرخون قبله ولم يمسوا منصور بن حسن القرمطي بسوء ولا بجرة قلم، وهذه ظاهرة يجب أن يتنبه لها، ولست مدافعاً عن ابن الفضل وإنما هي الحقيقة التي فرضت هذه المقولة وقد أشبعنا الموضوع في كشف أسرار الباطنية. ومنصور بن حسن هو حسن بن فرج بن حوشب القرمطي ومنصور لقب له. انظر: رسالة الحور العين.

(٢) ناقشت هذه الجملة في قرة العيون، ص ١٩٥، خصوصاً نسبة قول الشعر وتقرر لدى قول الإمام نشوان بن سعيد الحميري أن القصيدة التي أولها «خذي الدف يا هذه والعبي» إلخ من قول بعض شعراء عصره قال الحوالي: ويؤيده ما جاء في آخر القصيدة المذكورة من العسجد المسبوك للخزرجي الذي استحضرت منه ثمان نسخ والبيتان هما:

وصــلّ إلــهي عــلى احــمــد   وأخْــز الــفــويــســق مــن يــعــرب =

أحلّ البنات مع الأمهات ومن فضله زاد حلّ الصبي

وما وصفه في قصيدته هذه فهو غاية ما ينتهي إليه دين الباطنية من تحليل كل شيء حرّمه الله في شريعته كما كشف الله مكتوم أمرهم في كتبهم لما استولى الإمام المتوكل على الله رضي الله عنه على معقلهم المعروف بحصن شبام من بلاد حراز[1] ووصلت بعض كتبهم إلى حضرته وأطلع عليها شيخ الإسلام فقال لما رآها: ما على الأرض كفر أشد من كفرهم، وصدق رحمه الله فإن كفرهم أضر على الإسلام من كفر اليهود والنصارى والمجوس لأن هؤلاء الكفار قد امتاز كل فريق منهم بدين وزي يظن أنه على شريعة والباطنية لم يمتازوا من الإسلام وأهله بزي كما فعل اليهود وغيرهم من الكفار إذ لا دين لهم ولا شريعة بل شعارهم كشعار المسلمين في متاخمة بعضهم بعضاً ويدخلون مساجدهم ويتظاهرون بدين الإسلام فيزاحمون صفوف الجماعات في المساجد[2] مكراً وخداعاً للعامة من المسلمين وممن في حكمهم ممن لا يعرف دسائسهم فينخدع العامي بذلك ويبعد من ذهنه أن يكونوا كفاراً فإذا أرادوا جذبه عن الإسلام أبدوا له من التشيّع وحب أهل البيت عليهم السلام أمراً لم يكن في ذهنه وبالغوا له في ذلك بما لم يكن قد عرفه من أحد غيرهم، ثم يرونه أنه لم يكن أحد على حقيقة التشيّع وفي حب أهل البيت مثلهم وأن الناس لم يعرفوا حقيقة التَّشيع وحب أهل البيت كمعرفتهم وإن جميع من على وجه الأرض من الشيعة جاهلون لحق

وحرّم عليه جنان النعيم فقد باح بالكفر لم يرقب

ولكن القراء والمؤرخين لم يتنبهوا وقال المؤرخ المنصف في إنبائه يحيى بن الحسين إنه لم يكن مما ذكر عنه شيء وإنما كان يتساهل عن النهي للمنكر والأمر بالمعروف أو بمعنى هذا.

(١) شبام هذا أحد الأسماء التي تحمل هذا الاسم الأول شبام كوكبان وقد تقدم ذكره وهذا ثانيهما وهو جبل شاهق يطل على مركز (مناخة) وثالثها شبام الغراس ورابعها شبام حضرموت وخامسها شبام (بُرع) ولم أعثر على هذا الحادث غير هنا، ولا شك أن كفرهم كفر به.

(٢) لا يعرف من الباطنية أنهم يصلون في المساجد هذه المبثوثة ولا يزاحمون أحداً وإنما يصلون على انفراد بدون جماعة إلى غير ذلك مما حكيناه عنهم.

أهل البيت ومذهبهم فبذلك يكون أسرع انخداعاً لهم إلى مذهب الباطنية النجس ظناً منه أنه مذهب أهل البيت صانهم الله وأنه قد صار من خلّص الشيعة وإنه كان على ضلالة فإذا انتهى إلى هذه الحالة وخالف ما عليه أهل الإسلام ووافق دينهم في ضلالتهم وصومهم وحجهم الذين يجعلونه تقية ويأخذون على عوامهم العمل به لئلا يظهر للناس كفرهم ألقوا إليه أن الله قد حرم جسده على النار فيصنع ما يشاء من ارتكاب الفواحش وأنه غير مؤاخذ بها وهذه الدسيسة الشيطانية قد سرت إلى بعض العوام ممن لم يكن من الباطنية وهي من دسائسهم الملعونة فلهذا إنك ترى قبيلة يام الملعونة إذا استولت على قرية من قرى المسلمين قتلوا صغيرهم وكبيرهم وسبوا نساءهم كما يفعلون في تهامة وكما فعلوا في أيامنا هذه بأهل مدينة زبيد لما استولوا عليها في سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف، فإنهم جمعوا من ظفروا به من النساء في الجامع من «شرائف» وعربيات ثم حملوهن إلى نجران[1]، وابتاعوهن فيما بينهم كما تبتاع الإماء ويستحلون الفروج على اختلافها فينكحون النساء والرجال وينكح القريب زوجة قريبه ولا يرى الزوج بذلك بأساً ويأخذون على عوامهم أن لا يفشون سرّهم المكتوم من فضائحهم إلى أعدائهم ويعنون بالأعداء المسلمين، وأن الداعي حقهم يغضب على من أفشى سره إلى أحد من الأعداء فيدعو عليه فيمسخ الله المفشي للسر كلباً وإن هذه الكلاب التي في الدنيا إنما هي التي أفشت سر الداعي فمسخت كلاباً ونحو هذه الخرافات ولكنهم ينمقونها تنميقاً تقبله أذهان العامة الذين قد أضلوهم مع ذكاء ودهاء حتى يجعلوا الداعي حقهم بمنزلة الرب سبحانه فيعطيهم من الجنة ما شاء ويجعل لهم بذلك أوراقاً ويجعل لهم في كل عام ليلة يجتمع فيها الرجال والنساء ثم يقع بعضهم على بعض وقد يقع الرجل على قريبته، ويسمّون من وُلِد من تلك الليلة أولاد الصفوة، وهم أهل الدرجة الخامسة عندهم في

---

(١) يا لله العجب من المؤرخ الواسع الفكر ولكن له ظروفه الخاصة فقد كان ملغماً بالعصبية والعنصرية وإن ذلك الجنس أمة فوق وأبناء الله وأحبّاؤه وقد عشنا المأساة إلى أن ارتفع نير العبودية عن هذه الأمة التعيسة بإعلان الجمهورية والثورة المباركة. وقبح الله قبيلة يام الباطنية. ونجران مخلاف من مخاليف اليمن الشمالية. انظر: صفة جزيرة العرب واليمن الخضراء.

الارتفاع ويرون لهم مزيّة كما يرى المسلم لذوي النسب الشريف هكذا حكاه ابن رزام عنهم[1] بعد أن كشف عن باطن أمرهم وظاهره وتاخمهم زماناً ولهذا إن أئمة أهل البيت عليهم السلام لم يروا واجباً أوجب من جهاد هذه الفرقة الملعونة لعلمهم بضررهم على الإسلام «وسريانهم في عامته»[2] وغيرهم ممن يجهل حقائقهم وأعظم موجب لخروج الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليه السلام إلى اليمن هو جهاد الباطنيّة بعد أن كاد علي بن الفضل يستولي على اليمن فجاهدهم في الله حق جهاده جزاه الله عن الإسلام خيراً[3] وهكذا من بعده من الأئمة رأوا قتال هذه الفرقة أهم من قتال سائر الفرق الكفر إلى عند[4] المطهر بن شرف الدين[5] بل آخر من أخرجهم من قلعة فدة بوادي ضهر[6] الإمام المنصور بالله حسين بن قاسم رحمه الله .

---

(١) ابن رزام: هو أبو عبد الله بن رزام. ذكره ابن النديم في الفهرس، ص ٢٨٧ . طبع القاهرة. ألّف كتاباً في الرد على الباطنية وهو من أوائل من كشف عن مذهب الباطنية وتصدى للرد عليهم وهذا المؤلف ابن رزام لا يعرف تاريخ حياته ولكنه لا يتجاوز بداية القرن الرابع الهجري ويبدو أن المؤلف الشجني قد وقف عليه ونقل منه ولا أدري هل طبع أم لا .

(٢) كذا هذه العبارة وقد تكلمنا على موضوع قتال أئمة الزيدية للباطنية في غير هذا الكتاب.

(٣) لم يكن خروج الهادي إلى اليمن هو هذا السبب الوهمي الذي سبق إلى ذهن المؤلف وإنما السبب هو استجابة الهادي لرغبة نفسه الملحة للعوز والمطاردة واستجابة لرغبة الخولانيين- القضاعيين. انظر الجزء الأول من الإكليل، وقرة العيون ص ١١٧ وما بعدها، ولم يجاهد الهادي القرامطة ولا مرة واحدة وسيرته المطبوعة نعم الشاهد على ذلك.

(٤) كذا في الأصل وهذا لحن فالنحويون أجمع يقررون أن لفظ «عند» لا يجرها أو يدخل عليها من حروف الجر غير «من» وارجع إلى كتب النحو إن شئت.

(٥) تقدمت الإشارة إلى مطهر بن شرف الدين، ولم يقاتل مطهر وغيره من الأئمة، الباطنية من أجل العقيدة، وإنما هو لأمر سياسي كما نوهنا على ذلك في كشف أسرار الباطنية وأين الأئمة هؤلاء من حرب الإمام عبد الله بن حمزة للفرقة الزيدية المطرفية الذي أباد خضراءهم بمجرد أنهم لم يقولوا بإمامته. راجع كتابنا الفرقة المطرفية.

(٦) قلعة فدة: بكسر الفاء من «فدة» وفتح الدال ثم هاء وتقع على فوّهة مدخل وادي ضهر من الطريق العليا وقد بطل نفعها. انظر: الإكليل، ج ٨.

وكذلك في غير اليمن من البلاد «الداخلية»[1] مثل علوي البصرة والقرامطة وبنو عبيد[2] وغيرهم، وقد كادت فتنتهم أن تذهب بالإسلام لولا أن الله سبحانه متولي حفظه ونصرته، وكل ذلك منشؤه الاختلاف وعدم الائتلاف حتى وجد أعداء الدين مطعناً في الإسلام وسبيلاً إلى كيده واختلاف أهله فترى هذه الفرقة التي منشؤها نشأ من عداوة الإسلام لا يجدون مطعناً فيه مثل الطعن على كبار أصحاب رسول الله ﷺ فإذا تم لهم الطعن فيهم طعنوا في الشريعة التي تلقتها الأمة عنهم فيبطلونها فيقولون: هي من طريق الصحابي فلان وهو غير مقبول فيبطلون كل شريعة جاءت من طريقه وغالب من يطعنون فيه من الصحابة أكثرهم رواية وتبليغاً لشريعة الإسلام، ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[3]، ولو علموا أنه يتم لهم الطعن في المبعوث بالشريعة لفعلوا بل قد قالت طائفة منهم إن جبريل عليه السلام غلط بالرسالة، وناهيك بهذا الكفر الذي تجاوز إلى الملائكة المقربين ومع هذا إنهم يدَّعون التشيّع لعنهم الله وملائكته والناس أجمعين فإذا رأيت من يتصف بالتشيع وهو يلهج بشتم أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم فاعلم أنه ليس من التشيع في شيء وإنما هو فتنة أو مفتون إن كان جاهلاً وإن كان ممن له تمييز في الواقع فاتهمه في دينه واحذره على دينك ودنياك ودمك وعرضك وحرمك فإنه لا أمانة له في شيء ولا تغتر بظاهره أبداً وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الفقيه العلامة المجتهد والنبيه الفهامة المنفرد حافظ الآثار ومسند الأخبار محمد بن علي بن حسين العمراني[4] الصنعاني:

ولد في سنة أربع وتسعين ومائة وألف، وقرأ على علماء عصره فمن مشائخه

---

(١) هذه العبارة لا زالت جارية على الألسن إلى عهدنا هذا عند العامة والمراد بالبلاد الداخلية البعيدة وهي في نفس الوقت الخارجة عن اليمن.

(٢) هؤلاء وقد تضمنتهم كتب التواريخ كابن الأثير وابن كثير والمقريزي وغيرهم.

(٣) سورة التوبة: آية ٣٢.

(٤) ترجمه الإمام الشوكاني في البدر الطالع (ج ٢ ـ ٢١٠) وأشاد به وله مؤلف في التاريخ اسمه «خبر إتحاف النبيه، بخبر افتتاح المنصور وبنيه» في المكتبة الغربية بالجامع المقدس.

وكبارهم السيد العلامة حسن بن يحيى الكبسي والقاضي العلامة عبد الله بن محمد مشحم والسيد العلامة إبراهيم بن عبد القادر بن أحمد والفقيه العلامة يحيى بن محسن الحبوري وقرأ في الفقه على الفقيه العلامة الفاضل سعيد بن إسماعيل الرشيدي رحمه الله والفقيه العلامة محمد بن حسين الويناني وبرع في كل المعارف وخرج فيها سابقاً لا سيما في علوم الحديث ورجاله فإنه فتح عليه في ذلك وصار المشار إليه في معرفة الرجال وأسمائهم وكناهم واختلاف طبقاتهم ومراتبهم وثقاتهم وضعفائهم وعمن أخذوا ومن أخذ عنهم وكذلك في خفيات علل الحديث ودقائقه فقلَّ أن يشاركه غيره في ذلك وبلغ في علوم الآلات مبلغ الكمال وعرف منها ما يعرفه فحول العلماء من ذوي التحقيق والتدقيق مع فهم كامل وذهن سائل وحافظة أعانته على كمال إدراكه فيما اشتغل بطلبه وتحصيله حتى حصلت له علوم الاجتهاد، وصار في جميع معارفه معدود من الأفراد مع صلابة في دينه ومتانة في إيمانه ويقينه.

وله تخريج سنن ابن ماجه ثم جعله من بعد شرحاً عليها، وقد شرع في كتاب جامع في الرجال حافل بجميع رجال الكتب التي لم يتكلم على أكثر رجالها مثل حلية أبي نعيم وغيرها من الكتب التي لم يجمع رجالها مع اشتغاله بالدرس والتدريس في سائر الفنون وتولى بعض أعمال الشريعة عن شيخ الإسلام بأمره بتوليها مع عفاف وقنوع، وعدم طمع وهلوع حسن المخارجة مطرح تكاليف أمثاله في ملبوسه وأخلاقه وخلقه.

أخذ عن شيخ الإسلام في التفسير والأصول والمعاني والبيان وفي كتب الحديث في الست الأمهات وغيرها، وفي النحو وفي جلّ مصنفاته مثل تفسيره الفتح القدير وشرح المنتقى وغيرها بل أخذ عنه أكثر مصنفاته وحصَّلها ونسخ أكثرها مع عناية ودراية لا يلتفت إلى القال والقيل، ولا يعوّل على غير الدليل، ولا يتقيد بأقوال الرجال، بل ينظر إلى ما قيل لا إلى من قال، منذ بلغ مبلغ الرجال ذوي الإنصاف والكمال زاد الله في رجاله، وحلّى جيد الزمان بأمثاله(١).

---

(١) قال في هامش الأصل: توفي شهيداً رحمه الله في زبيد سنة أربع وستين ومائتين وألف.

وحيث قد انجز بنا القلم إلى ذكر المحمديين من تلاميذ شيخ الإسلام فلنذكر ههنا بعضاً من مناقب هذا الأستاذ التماساً لما يجده المحب بتكرار ذكر المحبوب من الاستلذاذ، واستطراداً لبعض البعض[1] من مناقبه ما لم يذكر فيما سلف فنقول:

هو مجدد القرن الثالث عشر، والقائم بما قام به سيد البشر، شيخ الإسلام وأستاذ الأعلام إمام المسانيد ومن إليه وعليه تدور الأسانيد، برهان الموحدين وقاصم أعناق الملحدين رافع منار الشريعة وواضع شعار كل بدعة شنيعة سامي الرُّتْبَة عالي الهضبة مشيد أركان الدين وعاضده، ومبدد شمل المعتدين وحاصده، عالم الزمان ومصنّفه ومحلّي جيده العاطل ومشنّفه، بمؤلفات كأنها البدور الطوالع ومصنفات أبهى من شموس الإشراق في المطالع[2]، بحر المعارف الزاخر، وفخر الأوائل والأواخر الجامع علم الأولين وناشره، والمقلد أعناق الآخرين درر محابره:

تقلد عقداً من جواهر علمه | أوائل هذا دهرنا وأواخرهُ
ففي لفّ علم الأولين ونشره | على تابعيهم قد أفاضت محابرهُ

من تاهت على سالف الدهور به أيامه، وتباهت شرفاً بالتماس أنامله أقلامه، وأحيا معالم الإسلام بإحياء دروسها، وأشرقت به أرجاؤها بعد أفول شموسها، فلا ريب فكما ينتفع الناس بطلوع شمس الإشراق في منافع دنياهم فكذلك، ينتفعون بطلوع شمس غرّته في مصالح دينهم فجلّ فضله عن قدح القادح كما كبر نبله عن مدح المادح[3]:

علا عن المدح حتى ما يُزان به | كأنما المدح في مقداره يضعُ
قاضي المراتب داني الفضل تحسبه | كالشمس يدنو سناها ثم يرتفعُ
ذلّت رقاب جماهير الأنام له | فكلهم وهو عالٍ فيهم خضعوا
لا تسمعنّ حديث الحاسدين له | فإنّ ذلك موضوع ومنقطعُ

---

(١) هذه الفقرة في الهامش ومغاير لخط ما في متن التقصار.

(٢) كذا في الأصل ولعل العبارة: «مؤلفاته كأنها البدور الطوالع ومصنفاته» أي بزيادة الضمير.

(٣) كأن هذه الأبيات للمؤلف محمد بن الحسن الشجني.

وقـل لمن رام يحكيـه اصـطبـارك لا تعجـل فـإن الـذي تبغيـه منقـطـعُ

أعني به مَنْ موضوع هذا المختصر صفاته النبيلة، وغاية كنه ذاته الشريفة الجليلة:

محمـد بـن علي مَنْ عـلا رتبـاً في المجد تعجز عنها طاقة البشرِ
سـل عنه ما شئت أخبار الرسول وما يتلى من الذكر في التنزيل من سورِ
هـذي الـدفاتر[1] ينبئـك اليقين بها وصـاحب البيت أدرى منك بـالخبرِ

محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، شكر الله عن الإسلام والمسلمين حميد صنعه، وأعاد على الكافة من بركة تأليفه وجمعه، فهو وإن كان قد تكرر ذكره، وتأرج في أثناء الكتاب عَرْفه ونشره، فذكره ههنا لا لتعريفه، بل لنخص هذا الموضع عما عداه لتشريفه بذكره استقلالاً.

ولد أطال الله بقائه ومدته، وأبقى على مرّ الليالي شمس غرّته سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف، فقرأ القرآن العظيم ثم بعد فينة طلب العلم عن كل حبْر من المشائخ وفحل في فنون الاجتهاد راسخ، فنثل ما في كنانات أهل عصره من العلوم حتى إذا استوعبها وصار مالك زمامها وربّها، وشارك مشائخه المتقدم ذكرهم في تعدادهم حسب تراجمهم، ولما أخذ عن كل واحد منهم ما عنده همَّ بالارتحال وتقويض الرحال، لتحصيل ما لم يجده عند مشائخ صنعاء مما انفرد به بعد دونهم فبينما هو يقدّم رجلاً ويؤخر أخرى إذ بلغ الإمام العلامة المتبحّر الأوحد السيد عبد القادر بن أحمد وكان ذلك عقيب وصوله من كوكبان إلى مدينة صنعاء فأرسل إليه يقول له: إنه بلغني عنك أنك تريد الارتحال عن وطنك لتحصّل من العلم ما لم يكن عند مشائخ زمنك وها أنا بغيتك وعلى الخبير وقعت فعزم إليه شيخ الإسلام لمّا لم يأذن له أبواه بالعزم من صنعاء فقرأ عليه كما تقدم في ذكر مشائخه وصحبه في القراءة على السيد المذكور معاصروه فقرأ عليه في فنون عدة وانفرد عمن شاركه في القراءة عليه

(١) سبق التنكيت على رسم الدفاتر بالتفاتر: لتقارب مخرج الدال والتاء.

بمقروءات أخر، وكان فيمن شاركه بعض مشائخه مثل العلامة الفاضل قاسم بن يحيى الخولاني، ومما قرأ عليه صحيح مسلم وسنن الترمذي لم يفته منهما شيء وبعض موطأ مالك وبعض شفاء القاضي عياض وكذلك سمع منه بعض جامع الأصول، وبعض سنن النسائي وبعض سنن ابن ماجه وبعض المنتقى لابن تيمية وبعض فتح الباري وبعض ألفية الزين العراقي وشرحها له وجميع منظومة الجزاز وجميع شرحها له في العروض، وبعض صحاح الجوهري وبعض القاموس مع مُؤَلِّفه الذي سماه «فلك القاموس» هذا ما حضر مما أسمعه شيخ الإسلام على السيد الإمام عبد القادر بن أحمد ذكرناها هنا لأنَّا أغفلناها فيما سبق في ترجمة السيد المذكور عند تعداد مشائخ شيخ الإسلام وله عليه مسموعات لم يشاركه فيها غيره، وكان قد شارك جميع مشائخه الذين قرأ عليهم وغيرهم من سائر مشائخ عصره ممن لم يأخذ عنهم في جميع معلوماتهم ومقروءاتهم وزاد بما لم يكن عند أحد إلا شيخه المذكور فإنه توفي ولم يكن قد استوفى ما عنده، وأعطي من الحظ في التدريس ما لم يكن لغيره من أهل زمانه فإنه قلَّ أن يتم سماع كتاب وما قد أخذ عنه فيه الطلبة حتى بلغت أدواله درساً وتدريساً نحو ثلاثة عشر دولاً.

ثم انثالت عليه السؤالات في المسائل العلمية من علماء عصره وسائر علماء الجهات اليمنية من علماء تهامة وغيرها من سائر أقطار اليمن مما تحتاج أجوبتها إلى رسائل بسيطة وكذلك سؤالات الفتاوى في القضايا المتفقة حتى كادت أن تنقصر عليه، وكان يرجع حكام العصر إلى ما يفتي به ويقوله ويعملون بترجيحه وهو لا يواجه أحداً منهم ولا يتصل به رجل من أهل الأمر حتى أن حاكم العصر حاكم حكامه القاضي العلامة يحيى بن صالح السحولي رحمه الله تعالى ما زال يتطلع للاتفاق به مدة طويلة ويكاتبه نظماً ونثراً كما تقدم من نظمه مما مدح به وتوسل ببعض أولاده أن يحلف عليه في يوم معين[1] ويخبره بوصوله فلم يتيسر بينهما اتفاق إلا مرة في الجامع المقدس حضر فيه القاضي المذكور رحمه الله

---

(١) يحلف عليه: يدعوه لتناول الغداء أو نحوه، كلمة يمانية مستعملة إلى ذا الحين.

لصلاة جنازة بعض أولاده فلما تهيأت الجنازة للصلاة عليها أراد القاضي رحمه الله أن يحضر يصلي عليها شيخ الإسلام إماماً لعلم القاضي أنه في تلك الساعة في الجامع المقدس ليثبت معرفته فامتنع عن الصلاة عليها إماماً وتصافحا لا غير وليس غير ثم مات القاضي المذكور ولم يكن بينهما من الاتفاق والمعرفة غير ذلك، فقد كان شيخ الإسلام يرى للعلم حقه ويعظمه حق تعظيمه، ويرى كل رئاسة ليست بشيء عند رئاسة العلم التي كان فيها كائنة ما كانت حتى أنه كان كثيراً ما يقول بعد توليه القضاء: ما أراني إلا قد خسف بي وكان هذا حاله في أيام درسه في الجامع المقدس يتصل به صغار الطلبة من الفقهاء الفقراء إذا كان من طلبة العلم وأهله ولا يتصل به أحد من الوزراء والأمراء وأهل الأمر كائناً من كان بل أعطاه الله من الجلال في الصدور والمهابة ما يستصغر بجنبه كل ذي أمر خطير وجاهٍ كبير من مأمور وأمير، وصغير وكبير كما قيل(١):

يلقي الكلام فلا يراجع هيبة ... والسامعون نواكس الأذقانِ
عز الوقار وخوف سلطان النّهى ... فهو المهيب وليس ذا سلطانِ(٢)

ومنها أنه منحه الله من ثبات الجأش وقوة القلب وصدق العزيمة ما لا يسمع بِهِ وَلاَ يُعْهَدْ مثله منذ أيام صغره وحصلت له عجائب ترهيصات لما سيؤول إليه أمره وإنه لا يصدر إلا عمن أَهّلَه الله لمثله فإنه ثبت في متفقات اتفقت معه في أيام صغره لا يثبت لمثلها مَنْ بلغ أشده من أشد الرجال من ذلك أنه طلع في أيام صباه قبل أن يناهز الاحتلام إلى وطن أهله ومحلهم وهو هجرة شوكان من مخاليف بلاد خولان وكان طلوعه أيام الخريف للاختراف فصادف في بعض أيامه هنالك أنها اتفقت مقدمة فتنة بين أهل هجرته وأهل قرية قريبة منها يقال لها قرية «شوبان»(٣) بسبب غنم بعض الرعاة

---

(١) القائل ابن الخياط المديني يمدح إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي

(٢) رواية كامل المبرد (ج ٢ ــ ٤٠٨) يأتي الجواب وقوله عزالوقار: هدى التقى، والسامعون: السائلون.

(٣) قرية شوبان: بفتح الشين المعجمة وسكون واو ثم باء موحدة وألف ونون، بلدة عامرة آهلة بالسكان تقع على فوهة سدّ شاحك الشهير من عزلة تنعمة خولان العالية وشوكان ورائها من الشمال الشرقي.

وقعت في زرع لأهل تلك القرية فوقـع بين صـاحب الزرع وراعي الغنم مـا يحصل مثله في مثـل ذلك فصـاح مولى الـزرع لأهل قـريته بصـوت إذا سمعـوه، أجـابـوا، متحملون أسلحتهم[1] وليس إلا قتـل الراعي أو أخذ الغنم إلا أن يـدفـع ذلـك أهـل القرية الذين لهم الغنم، وإنما يكون الدفـع بالحرب بينهم فلما صاح صاحب الزرع ورأى الراعي أن قد أجابه أهل القريـة وكانت أقـرب إلى المحل الـذي وقعت الغنم بزرعه خشي على نفسه فترك الغنم وذهب يصيـح لأهـل قريتـه وكان شيـخ الإسـلام في محل قريب ومعه بندق صغيرة على نحو ثلث البنـدق الكامـل تسمى (طبنجة)[2] وكانت كبيرة القفلة فلما رأى أهل تلك القرية قد توجهوا على الغنم وكانت في محل مرتفـع وكان شيـخ الإسلام أقرب منهم إلى أعلا ذلك المحـل فسبقهم إليه ثم قعـد وراء حجر حتى إذا شارفـوا، الارتقاء إليـه رماهم بتلك الـطبنجة فعـادوا إلى ورائهم فمـا زال ذلك دأبـه ودأبهم حتى منعهم من الطلوع لأخـذ الغنم وكانـوا عـدداً كثيـراً كاملي السلاح معروفين بالكفاح حتى وصل أهل قرية الراعي وأخـذوا غنمهم، وكان هذا قبيل مقتبل بلوغه، وإنما أوردت هذه القصة ليعرف بهـا نجابتـه وشهامتـه وسمو همته وشدة بأسه، وإن من كان بهذه المثابة عرف غايتـه ومنتهى أمره وإنـه يصير إلى ما صار إليه من الصدع بقول الحق ورد الباطل في وجه من جاء به من صغير أو كبيـر لا يهاب القعقعة، ولا تحركه الزعزعة كما وقـع معه في أيام اجتهـاده من أهل زمـانه فإنه كان يترتب على قوله الحق ما يشفق عليه منه أحبابه وأحباؤه وهو لا يرى ذلك إلا طنين ذباب، أو لمع سراب حتى أنه في بعض متفقاته في رسائله كثرت الأراجيف به من أهل الجهل وتعدى ذلك إلى الأجنادفلما علم أصدقاؤه بذلك أحجموا ولم يجسـر أحد منهم أن يخبره بالواقـع فأجمـع رأيهم على أنهم يشغلونه بـالاجتماع يجتمعـون

---

(١) مثل هذه القضية تجري عادة بين القرى المجاورة ويحدث حرب ويذهب لـذلك ضحـايا من النفوس وغيرها ولا زالت، إلى يوم الناس هذا ولا أقلعوا عن هذه العادة السيئة ودواؤها قريب وهو تسكين غليان الغضب والصبر والاحتمال ولكن البداوة أعيت من يداويها.

(٢) لا زالت معروفة الطبنجة وهي من البنادق العربـي التي ظهرت مـع الجراكسة المصريين سنة ٩٢٢هـ وقد اختفت اليوم والقفلة والبارود والرصاص.

به كل يوم عند أحدهم كيما تهدأ تلك الجلبات وتقل تلك الصولات فبينما هُمْ في خلل تلك الاجتماعات إذ عرف مقصدهم بذلك ومرادهم فما هو إلا أن حان وقت دروسه في الجامع ، فوثب غير ملتفت إليهم ، فلم يشعر به أهل الدرس إلا وهو حاصل عندهم وقد كانوا استنكروا تخلفه لما يعهدونه منه من شدة الشكيمة به ومن بأسه فلما استكمل درسه للتلاميذ قام لصلاة العشاء الآخرة وعاد إلى محل درسه في الجامع المقدس بصنعاء فبينما هو يقرىء الآخرين من التلاميذ بعد أن صلّى إذ هو بسواد عليه قائم من جميع جوانب الحلقة متلفعين يسمع عليهم قعقعة السلاح وبعضهم يتكىء بسيفه على السواري ليسمع الحاضرين خفق جفن سيفه هذا وشيخ الإسلام على درسه لم يرفع نظره إليهم وقد صار الحاضرون من التَّلَاميذ في وجل من الخوف والرعب فلما استكمل الدرس خرج أولئك المتجزبون عليه من الجامع فلما خرج تفرقوا ولاذ كل واحد بما يستره عنه ولم يتكلم أحد منهم بكلمة فرضاً عما عدا ذلك بل لم يواجهه أحد بمكروه على الإطلاق إنما كان قصارى أهل الجهل من الفقهاء أن يجيبوا عما نسفه من معتقداتهم فإن كان في الجواب بعض شيء من إساءة الأدب كتموا أنفسهم وتوصلوا إلى من يؤديها إليه ولم يُظهروا المجيب ولم يعرف مَنْ هو وما كان ذلك إلا في بعض الجوابات اليسيرة المتكلفة إقامة للمنصب، وتأثيراً للتعصب وهكذا جرت عادة الله في حزب الحق وأهله منذ قام رسول الله ﷺ لا يزال الحق وأهله منصوراً ولا يضره من خالفه وتكون له العاقبة في الدنيا والدين.

ومن نجابة شيخ الإسلام وشهامته الدالة على غايته وإلى ما صار إليه في نهايته أنه كان في حال صغره يلعب مع الصبيان الذين في سنّه من أترابه وكان يمرّ به جماعة قد صاروا في السن فوقه وقد صاروا يطلبون العلم وهم يعرفونه فيعدلون إليه ويقولون له أنت ابن القاضي فلان ونحن نطلب العلم وأنت تلعب مع الصبيان فيقول لهم: أنا إن شاء الله أطلب العلم طلباً لم تطلبوه فما دارت أيام قلائل حتى صار أولئك من بعض تلامذته يقرأون عليه.

ومن نجابته وتأهيل الله له وعنايته التي أودع به أنه لما توجه لطلب العلم

وشرع لدرس أول معشر بين يدي أبيه الفاضل العلامة ليدرسه عليه وكان ذلك المعشر في أول العبادات في شرح الأزهار فجعل يملي المسألة والخلاف فيها فسأل أباه: ما المأخوذ به في المسألة؟ فأجاب عليه: إن المأخوذ به ما قاله الإمام(١) فقال: وهل يؤخذ به لكونه أعلم من هؤلاء؟ فقال أبوه: وكان متورعاً تقياً: كلهم علماء، فقال: إنما يؤخذ بقوله ويترك ما عداه لمرجح وما زال يكثر عليه في ذلك وترك الدرس حتى أبرم أباه فقال له: يا ولدي إسمع ما أمرتك وخذ به وإن يفتح الله عليك فستعلم الراجح من المرجوح فقال: من أعلم الناس اليوم؟ فقال له رجل يقال له السيد عبد القادر بن أحمد من أهل كوكبان، فما دارت أيام قلائل حتى استدعاه السيد عبد القادر ليقرأ عليه كما تقدم بعد وصوله إلى صنعاء وقد فتح الله عليه بعلوم الاجتهاد دقيقها وجليلها، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء(٢).

ولما انتهى إلى غاية في علوم الاجتهاد لم يبلغها مشاركوه من مجتهدي زمانه ودارت عليه رحى التدريس والافتاء وقصده الطلبة من المحلات النائية وأتته السؤالات المكرسة من علماء الأمصار في المسائل المشكلة وكذلك مما قرب من صنعاء ونواحيها لما عرفوا أن حكام صنعاء يرجعون إلى ما أفتى به فيما شجر عندهم وكانوا يسمعون عنه أنه ينهى عن أخذ الأجرة على الفتوى ويلوم من أخذها وكادت شغلته بذلك أن تأتي على جميع أوقاته، توفي القاضي العلامة الصدر حاكم حكام صنعاء يحيى بن صالح السحولي رحمه الله فأمر الإمام المنصور رحمه الله بتغليق ديوان الحكم الذي يجتمع به أعيان الحكام بساحة دار الإمام وما زال يسأل عن شيخ الإسلام ليتعرف حاله ممن يدخل عليه من وزرائه فكلهم يقول لا نعرف شخصه وإنما نعرف مكتوباته وشهرته وبأنه قد صار الآن مرجع العلماء في الحضرة وذلك لتقبض شيخ

---

(١) أتذكر هذه الحادثة بما حدثني والدي رحمه الله أنه سأل والده بمعنى هذا السؤال أي ما هو المعمول عليه من هذه الخلافات فقال له والده: البيرق الأحمر: أي متن الأزهار للإمام احمد المرتضى لأنه يكتب بمداد أحمر وشرحه بمداد أسود.

(٢) سورة المائدة: آية ٥٤.

الإسلام عن جميع أرباب الدولة بل عمّن لم يكن من أهل العلم على الإطلاق، وانكشف أنَّ عند الإمام رحمه الله من أحواله ما لم يكن عند أحد من أرباب دولته فأرسل إليه من ذات نفسه القاضي الأجل الأكمل محمد بن علي بن محمد بن عبد الواسع، وكان وزراء الإمام المنصور يوردون ويصدرون عن رأيه لكمال عقله وتدبيره ومعرفته وجوه الأمور من أدبارها ولاختباره وممارسته، وكان الإمام المنصور رحمه الله يعدّه من أعقل وأكمل من يدخل عليه، فلما وصل إلى شيخ الإسلام أخبره أن الإمام أرسله إليه ليصل صحبته لأمر اقتضاه الإرسال فأجاب عليه إنه لم يكن ثَمّ أمر متعلق بي من أمور الدولة حتى يقتضي وصولي إلى الإمام ولا لي تعلق بالدولة ولا بأربابها فقال القاضي محمد بن عبد الواسع: إنه لا يليق ولا يحسن إلا إجابة الإمام فإنما جعلني الرسول إليك واختصني بالرسالة لما يعرفه من عظيم حقك فلا تظنه يجهل حقيقتك وكنه شأنك، وكان ذلك يوم الخميس عاشر شهر رجب سنة تسع ومائتين وألف فما زالا كذلك حتى وعده شيخ الإسلام إلى بعد صلاة الظهر فعاد القاضي إلى الإمام رضي الله عنه فأخبره بمضمون ما اتفق وأنه قد وعده. بالوصول إلى بعد صلاة الظهر في ذلك اليوم، فلما حان وقت الظهيرة وصل القاضي وصحبته مركوب من الإمام ليصل عليه إليه شيخ الإسلام فقام صلى الظهر ثم استخار الله في العزم ثم عزم فألقى إليه الإمام رضي الله عنه بعد أن بحث معه عن أوقاته وعدد أدواله وبعض أحواله ــ إني قد رأيت بعد أن استخرت الله أن أجعل إليك أمر الديوان وأنيط بك أمر الحكام فامتنع شيخ الإسلام وقال: هذا أمر يقوم به بعض تلامذتي لأن حاجة الناس إليّ فيما هو فوق ذلك أعظم وأنفع فيما يرجع إلى الديرة[1] فقال له الإمام: إني قد كنت بنيت على هذا قبل اليوم منذ أيام ولكن رأينا القاضي يحيى يريد القاضي الأول وقد طعن[2] في السنّ وتعلقت به الأمراض وقد

---

(١) أي البلد.

(٢) كان في الأصل قد (ضعن) بالضاد المعجمة وهو وهم، وإنما هو (طعن) بالطاء المهملة المشالة ولا نعرف من هو القاضي الأول كما زدنا الواو من قد ضعن وفي هذه الجملة قلق ولعله القاضي يحيى السحولي.

طـال تعلقه بنـا فكرهنـا إيحاشـه وإلا فهذا أمـر لا يليق به تعلق غيـرك مـع وجودك، فانقضى المجلس أن شيـخ الإسلام ينظر في أمره فلمـا ظهر الأمـر وبلـغ الخبر إلى أكابر من[1] أعيان علماء العصـر أن شيـخ الإسلام لم يسعـد إلى ما دعي إليـه فوقـع منهم التعويل عليه والإكثار وأخبروه بما سيترتب على امتناعه وإنه ربّما تصدّر لـه من لا معـرفة لـه بحقائق أحكـام الله وشريعـة رســـول الله ﷺ فيكـون عليـه من إثم ما يصدر منه لامتناعه وإن تولي ذلك من أكبر ثمـرة العلم وفائـدته ومـا زالوا بـه حتى أسعد الإمام المنصور رضي الله عنه وأكثر من كثر عليه في ذلك وحمله على الإسعاد من كبار أهل العلم مجتهد العصر ابن شيخه صارم الإسلام إبـراهيم بن عبد القـادر بن أحمد والعلامة الفاضل شيـخ آل الرسول إبراهيم بن محمد بن إسحاق ابن الإمام المهـدي أحمد بن الحسن.

وكان شيـخ الإسلام يعظمه ويرى له من الحق مـا يراه لـوالده ويقتـدي بآرائـه السديدة ولا يكاد يخالفه وقد كان الإمام رحمه الله لما امتنـع شيـخ الإسلام قال له: إنما سنجعل عليك حضور الديوان في اليوم الذي يجتمـع فيـه الحكام ليكـون منك تولي أحكامه فلما حصل منه الإسعاد استرّ بذلك أهل الفضل والدين وحمدوا الله على إناطة الشريعة بمن يعرف حقيقة كتاب الله وسنّة رسـوله ﷺ واشتـرط شيـخ الإسلام على الإمام شروطاً وفّى له بها حتى توفّاه الله.

فمن جملة شروطه أنه ينفذ كل أمـر يأمره بإنفاذه كائناً مـا كان وعلى أي امـرئ كان ولو على الإمام نفسه فأجاب عليه: إني إنما أنا منفّذ لما قلته وحكمت بـه كائنـاً مـا كان فبـذلك صـار الناس في الأحكام على منهـج واحـد لا فرق بين أميـر ومأمـور وجليل وحقير وغني وفقير وخادم ومخـدوم حتى لقد أنفـذ الإمام رحمـه الله أحكامـه على نفسه وخاصة خواصه، وكان إذا سعى إليه ساع فيما فيه مخالفة لما قد حكم به شيخ الإسلام اشتد غضبـه وتغير مـزاجه ويقـول: لم يكن معي إلا حاكم واحـد قد جعلته بيني وبين الله ولم أعرف حاكماً سـواه ــ رضي الله عنه وغفـر له وتجـاوز عنه

(١) كذا في الأصل ولا حاجة (لمن).

وكذلك ولده المتوكل رحمه الله فإنه حـذا حذو والـده، وزاد في ذلك حتى أنَّـه كان لا يصدر أمراً من أمور مملكته حتى يرسل وزيره الفقيه علي بن إسماعيل فارع يشاور فيه شيـخ الإسلام ويعمل بما يراه وكان إذا أنكر عليه شيـخ الإسلام شيئاً وعاتبه عليه يكون جوابه عليه إنك إذ لم تراني صالحاً لما أنا فيه أقمت غيري لهذا الأمر وسأكون معه سيفاً ويحلف له مـع ذلك أنـه فاعـل ما قـاله ويكـرر مِنْه ذلـك مراراً فـرحمه الله وغفـر له، وكذلك ولده إمام الزمن وبيضة الإسلام أميـر المؤمنين المهدي لـدين الله حفظه الله سلك في التعظيم له مسلك أبيـه وجده وزيـادة رضي الله عنهما، وبعـد أن ولي القضاء لم يزل مشغولاً بالتآليف المفيدة فإن أكبر تـآليفه وأكثـرها إنمـا كانت بعـد أن ولي القضاء ووسّـع الله له في أوقاته توسيعاً يلحق بالمعجز.

أخبـر السيد العـلامة يحيـى بن المـطهـر بن إسمـاعيـل عن بعض النسَّـاخين الفحول أنه شكى إليه من توالي كـراريس التأليف إليـه من شيـخ الإسلام وإنـه يأتي إليه الكراس فيشرع في نسخه فلا يأخذ في أبعاضه حتى يـأتي إليه مـا بعده على أنَّ النُّسَّـاخ لم يكن معه نسيخ غيره وقد صـار مستغرقـاً به فـأعجب لتباين الحـالتين بين الاشتغـال بالتـأليف والقيام بـأعباء القضـاء الأكبـر والقـراءة، وبين اشتغـال النـاسـخ المعتبـر المشغول بتبييض مـا وصل إليـه ولم يقم بذلـك، ﴿ذلك فضل الله يؤتيـه من يشاء﴾[1].

* * *

(١) سورة المائدة: آية ٥٤.

﴿التدريس وأدواره فيه﴾

وأما القراءة فما زال مستمراً على ذلك ولم يدع الاشتغال بالعلم وإن كان اشتغاله بعد توليه القضاء الأكبر ليس شيئاً بالنسبة إلى ما كان عليه قبل ذلك وكان دخوله في القضاء وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين هذا ما أردنا إثباته من بعض أحواله لئلا يخلو هذا المختصر عن ذكره مستقلاً فسح الله مدته.

الشيخ محمد الكردي[1]: أحد طلبة العلم القادمين إلى صنعاء وأصله من الكرخ من قرية مجاورة لمدينة بغداد. خرج من بلاده لطلب العلم وتنقل في بلدان وذكر شيخ الإسلام أن صاحب الترجمة أخبره أن بغداد وما حولها من البلاد قد صار أكثر أهلها رافضة من روافض الإمامية، وكذلك غالب بلاد خراسان قال: وحكى لنا أن أكثر الناس اشتغالاً بالعلم أهل أصفهان لكن غالب اشتغالهم بعلوم العقل وفيهم رافضة تجري بينهم وبين غيرهم فتن عظيمة.

وكان قدومه إلى صنعاء في أوائل القرن الثالث عشر وقدم معه كتب من أحسنها رسالة في علم المناظرة طويلة جداً بالنظر إلى آداب البحث، العضديّة ولها شرح نفيس مفيد في كراريس وسأله شيخ الإسلام عن مؤلف تلك الرسالة وشرحها فقال: هي معروفة في بلاد الهند وغيرها بمناظرة يوسف فسأله عن يوسف هذا من أبوه وفي أي زمان هو فقال: لا يدري وطلب من شيخ الإسلام القراءة في تلك

(١) ترجمه الإمام الشوكاني (ج ٢ ــ ٢٢٨) كما هنا.

الرسالة وشرحها فقال له: هذه رسالة لم أقف عليها إلا منك فكيف تأخذها عني؟ فقال: لا بد من ذلك فقرأها على شيخ الإسلام وقد استنسخها جماعة من علماء صنعاء وكثير من الطلبة، قال شيخ الإسلام: وهي من أنفس المؤلفات وأكثرها فوائد، ولا ينبغي لطالب علم بعد وقوفه عليها أن يشتغل بآداب البحث وشروحها فإنها ليست بشيء بالنسبة إلى تلك الرسالة وشرحها، وكان عمر صاحب الترجمة عند قدومه إلى صنعاء في نحو الأربعين السنة، وله قراءة على شيخ الإسلام غير ذلك.

الشيخ محمد عابد بن علي بن أحمد بن محمد مراد السِّندي[1]:

ثم الأنصاري كما أخبر عن نسبه نفسه، له إسمان محمد عابد، ولأبيه اسمان علي أحمد ولجده اسمان محمد مراد وذلك عرفهم، ولد تقريباً في سنة تسعين ومائة وألف، وكان لوالده حظ من العلم وأما جدّه فمن أكابر العلماء. له تصانيف حكاها حفيده صاحب الترجمة، وكان مستقر جده «السِّند»[2] ثم حج وجاور حتى مات ثم مات ابنه والد صاحب الترجمة فلما مات أبوه خرج إلى بندر الحديدة مع عمه وكان عمه مشهوراً بعلم الطب مشاركاً في غيره وصاحب الترجمة له يد طولى في علم الحديث ولكنه يرجح في عمل دينه مذهب الحنفية على ما صح له وله معرفة حسنة بالنحو والصرف وفقه الحنفية وأصولهم ومشاركاً في سائر المعارف، وصل إلى صنعاء باستدعاء الإمام المنصور بالله له فوصل إلى حضرته العلية من الحديدة لاشتهاره بالطب وانتفع به جماعة من الناس، وكان وصوله إلى صنعاء في سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف ثم عاد إلى الحديدة ثم تكرر عوده إلى صنعاء مرة بعد أخرى في أيام الإمام المنصور رحمه الله ثم في أيام ولده الإمام المتوكل رحمه الله ثم في أيام إمام العصر الإمام المهدي حفظه الله ابن المتوكل وأرسله الإمام المهدي رسولاً إلى صاحب مصر بهديّة عظيمة من جملتها فيل في سنة اثنتين وثلاثين ومائتين وألف، وأخبر بعد

---

(١) ترجمه الإمام الشوكاني (ج ٢ ـ ٢٢٧) مثل ما هنا.

(٢) السِّند هو ما يسمى اليوم (باكستان) وفي باكستان مقاطعة تسمى السند.

رجوعه من مصر باندراس العلم وأهله في الديار المصرية ولم يبق بها إلا القليل من العلم والتصوف.

قرأ على شيخ الإسلام في هداية الأبهري وشرحها لمبيدي في علم الحكمة الإلهية فكان يفهم ذلك فهماً جيداً مع كون الكتاب وشرحه في غاية الدقة والخفاء ثم عاد إلى بندر الحديدة وقرر له الإمام المنصور رضي الله عنه مقرراً من الحديدة يقوم به ومن معه.

السيد العلامة محمد بن محمد بن هاشم بن يحيى الشامي:

نسبة إلى جماعة من السادة الواصلين إلى اليمن من الشام الساكنين في بلاد خولان، ولد سنة ثمان وسبعين ومائة وألف، وأخذ على جماعة من علماء صنعاء في فنون مختلفة ولازم الطلب وحصّل وهو من نجباء السادة مشتغل بخاصة نفسه رصين العقل ملازم للطاعات عزيز النفس وهو من بيت معمور بالعلم والأدب والفضل.

قرأ على شيخ الإسلام ولازمه في القراءة عليه طويلاً وهو من قدماء تلامذته قرأ عليه في النحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق والأصول والحديث وهو الآن حال تحرير هذا يقرأ على شيخ الإسلام في مؤلفاته وتحصيلها بخطه فممّا سمعه عليه من مؤلفاته، شرح المنتقى والدرر والسيل الجرار وشرح العدة وغير ذلك وحصّل أكثر أبحاث شيخ الإسلام ورسائله، حريص على ذلك مع حسن محاضرة وخفة على القلوب سريع الجواب بالبديهة البادرة في الأجوبة النادرة.

وله أشعار إلى شيخ الإسلام عجيبة لم أقف على شيء منها حال تحرير هذا[1].

---

(١) في هامش الأصل وتوفي سنة ١٢٥٢هـ وترجمه شيخ الإسلام (ج ٢ ـ ٢٦٥).

السيد العلامة محمد بن يحيى بن إسماعيل الأخفش:

الصنعاني[1] المولد، من السادة بني الأخفش وهم فخذ من السادة بني الشامي وهؤلاء السادة بنو الأخفش أقاموا في بلاد كوكبان وتولوا هناك القضاء ثم انتقلوا إلى صنعاء وتولوا بها أيضاً القضاء من جملة حكامها، ولد صاحب الترجمة في سنة عشر بعد المائتين والألف، وطلب العلم على المشائخ كالسيد العلامة أحمد بن زيد الكبسي والقاضي العلامة علي بن عبد الله الحيمي وأدرك في علوم الآلات مع فهم صادق وتعقل تام وعناية كاملة وصار من أعيان الطلبة النبلاء مع كمال نجابة واشتغال بالعلم حتى أدرك فيه أحسن الإدراك وعرف علم الآلات معرفة تامة واشتغل به.

وهو من نجباء تلاميذ شيخ الإسلام قرأ عليه في الرضي وفي مؤلفه السيل الجرار وبعض كتب الأمهات في الحديث، وهو الآن قاضٍ على بلاد «ثلا»[2].

القاضي العلامة محمد بن يحيى بن سعيد بن حسن العنسي الذماري[3]:

ولد تقريباً سنة مائتين وألف، وقرأ على مشائخ ذمار في الفقه واستفاد واعتنى بذلك كما يعتني أمثاله من أفاضل علمائها وصار من جملة مشائخها وولي القضاء في بلاد وُصاب الأسفل[4] مدة ثم عاد إلى صنعاء مرة أخرى في سنة إحدى وأربعين

---

(١) ترجمه المؤرخ زبارة في نيل الوطر (ج ٢ ــ ٣٣٩) مثل هذا ولم يحدد وفاته بل اكتفى بقوله: وموت صاحب الترجمة في القرن الثالث عشر رحمه الله.

(٢) ثلا: بضم الثاء المثلثة سميت بثلا بن لباخة: قيل من حمير وهي شبه مدينة عامرة بالأهل والسكن وأنجبت زمرة من الأفاضل، تقع شمال صنعاء وهي معاندة لمدينة شبام كوكبان. انظر: زبارة المعجم.

(٣) ترجم له آخذاً من التقصار هذا ووفاته في القرن الثالث عشر.

(٤) وصاب بضم الواو وآخره باء موحدة مخلاف واسع خصيب في غربي مدينة ذمار، وهو وصاب العالي ومركزه نعمان: دنّ وصاب ووصاب الأسفل ومركزه المصباح. والآن سوق الأحد.

ومـائتين وألف، وقرأ على شيـخ الإســلام في بعض كتب الحديث والنحـو والتفسيـر وفي بعض مؤلفاته ثم أذن له بتولي القضاء في مدينة ذمار بين من يرد عليه وعاد إلى بلده هنالك وهو الآن باق مستمر على ذلك.

* * *

﴿حرف الهاء﴾

الفقيه العلامة الفاضل الورع الزاهد الكامل النبيل التقي العبّادة الذكي هادي بن حسين القارني[1] الصنعاني:

ولد سنة أربع وستين ومائة وألف، كان في مقتبل أوانه وعنفوان شبابه وزمانه من جملة أعيان الأجناد مع الإمام المهدي العباس رحمه الله ثم انخلع عن ذلك وأقبل على حفظ القرآن العظيم حتى أكمله، غيباً عن ظهر قلبه، ثم أسمعه للسبع القراءات على مشائخ صنعاء حتى صار من أعيان مشائخه ثم قدم إلى صنعاء الشيخ علي بن عثمان بن حجر الرومي فتلا عليه صاحب الترجمة السبع القراءات ثم جاوز ذلك إلى العشر وقرأ في جميع ما يحتاج إليه المشائخ من علوم القراءات السّبع فأدرك فيها وفي علومها ما لم يدركه غيره من المشائخ في عصره المعتبرين في صنعاء اليمن بل في قطر اليمن بأجمعه وصار شيخا لجميع مشائخها إليه النهاية في ذلك والغاية ثم أخذ الفقه عن القاضي العلامة أحمد بن محمد الحرازي ولازمه وقرأ عليه إشرافاً حتى صار من مشائخ الفقه المدرسين وأخذ علم النحو والصرف على جماعة من مشائخ صنعاء فبرع فيهما عن تحقيق وتدقيق وأخذ علم المعاني والبيان والأصول والتفسير والحديث عن القاضي العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي شيخ مشائخ وقته وكان مشاركاً لشيخ الإسلام في هذه القراءة على المذكور فبرع في كثير من تلك الفنون على

---

(١) القارني: نسبة إلى قرية قارن من أعمال عمران البون وفي غربيه ترجمه الإمام الشوكاني (ج ٢ ــ ٣١٩) بما يشبه ما هنا ووفاته كما ذكر المؤلف.

اختلافها وأخذ عنه شيخ الإسلام في أوائل الطلب في شرح الجزريّة وفي الملحة وشرحها وتلا عليه القرآن مع غيره من مشائخ القراءان، وصار صاحب الترجمة من الأكابر من علماء صنعاء وأما في القراءات وعلومها فهو شيخ جميع مشائخ عصره بالاتفاق وإليه المرجع لجميع المتصدرين من كبار القراء لأنه أستاذ الجميع في ذلك وكلهم أخذوا عن طريقه، وأما عفافه ودينه وورعه وعبادته فقال شيخ الإسلام في حقه: «هو ذو دين متين وورع وعفاف وقنوع ومحبة لمقاصد الخير ونفع الفقراء والاشتغال بخاصة النفس والوقوف على مقتضى الشرع الشريف والانعزال عن بني الدنيا، والإقبال على الطاعة والتلاوة والأذكار والاستزادة من التودد وحسن الخلق وبمجموع ما حواه من خصال الكمال صار محبباً إلى الناس مقبولاً عندهم معروفاً بالديانة والصيانة والأمانة وكثيراً ما يقصدونه في فصل كثير من الخصومات وتخصيص التركات فيحكم ذلك غاية الأحكام ويقنع بما تطيب به نفوسهم وقد يفعل ذلك بغير أجرة وكثيراً ما يأمرَه شيخ الإسلام أن ينوب عنه في أعمال الشريعة فيقوم بها قياماً تاماً ويفصلها تفصيلاً حسناً أدام الله النفع به.

أخذ عن شيخ الإسلام في شرحه للمنتقى بعد أن كتبه وسمع عليه بعض صحيح البخاري وبعض الأحكام للإمام الهادي عليه السلام، وأخذ عن شيخ الإسلام في تفسيره فتح القدير وكان كثيراً ما يتكلم معه في حال القراءة في اختلاف القراءات فيعزو كل قراءة إلى قارئها بسندها عمّن أخذ عنه.

قال شيخ الإسلام: واستفدنا منه في القراءات فإنه إمامها الذي لم يأت الزمن بمثله. ثم مات رحمه الله في سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف، وهو ملازم للقراءة دائباً على مكارم الأخلاق وفعل الخير والسعي فيه فرحمه الله ورضي عنه.

* * *

﴿حرف الياء﴾

السيد العلامة الفاضل عالم مدينة ذمار وعاملها وخطيبها وأديبها ومفتيها ومدرّسها السيد يحيى بن أحمد بن أحمد الديلمي(١):

ولد تقريباً سنة تسعين ومائة وألف، وقرأ على مشائخ علماء ذمار في الفقه والفرائض حتى بَلَغ في الفروع وما يتعلق بها كمال التحقيق وصار من رؤوس المشائخ المدرسين والأعلام المحصلين، وجلّ قراءته على أستاذ علماء ذمار وبركتهم السيد العلامة حسين بن يحيى الديلمي فسح الله في مدته وعليه تخرّج في علم الفروع والفرائض وغيرهما من علوم الآلات وصار من محققي أهل بلده في ذلك متصدراً لمن أراد القراءة في العلوم الآلية من طلبة مدينة ذمار مع رغوبهم وميلهم إلى قراءة علوم الآلة في هذا الزمان وكان لا يميلون إلى ذلك ولا يلتفتون إلى ما هنالك ويعدّون ذلك من الاشتغال بما لا يجدي نفعاً ولا يروي نقعاً حتى أن ربه لا يوجد فيهم على الإطلاق من يقيم لسانه ولا يوضح بلسان العرب حجته وبيانه وإن تطاول إلى معرفة ذلك متطاول فإنما هو يقف على مجرد ظواهر غير محصّلة وجمل غير مفصّلة حتى نشأ فيهم السيد العلامة حسين بن يحيى المذكور فرحل إلى مدينة صنعاء وأخذ عن علمائها ما زيّن به جيد أهل بلده من ذلك فأخذوا عنه من تلك العلوم وجلّى أفراد منهم في منطوقها والمفهوم فتمت بذلك محاسنهم العديدة الحميدة، وكملت به مباني فضائلهم الرفيعة المشيدة.

---

(١) ترجم للديلمي الذماري هذا المؤرخ زبارة بنيل الوطر (ج ٢ ــ ٣٧٨) ولم يذكر وفاته.

هـم سـادة الـسـادات إلا أنـهـم بهم يهتـدي السـاري بجنح الغيـاهبِ

أخـذ صاحب الـترجمة على شيـخ الإسـلام في صحيـح البخاري مـع وروده إلى مـدينة ذمـار صحبة الإمـام المهدي حفـظه الله في سنـة ثمـان وثـلاثين ومـائتين وألف.

القاضي العلامة الفهامـة أخو شيـخ الإسـلام وشقيقه، والمقتفي آثـار مساعيـه وطريقه.

قال في حقه شيـخ الإسلام في ترجمته: وحسبك به مقالاً فهو الذي كمـا قيل

إذا قـال لـم يتـرك مـقـالاً لـقـائـل وإن صـال لم يتـرك مجـالاً لصـائـلِ

هو يحيـى بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني الصنعاني، وقد تقدم تمام نسبـه في ترجمـة والده، ولـد ضحوة يـوم الأربعـاء الثـامن والعشـرين من شهـر رجب سنة تسعين ومائة وألف بمحروس صنعـاء ونشأ بهـا وقرأ على جمـاعة من المشـائـخ المتصدرين الآن بجامـع صنعـاء كالعـلامة محمـد بن أحمد السـودي المتقدم ذكـره والعلامة سعيد بن إسماعيل الرشيدي وآخرين، وهو الآن قد قرأ عدة من كتب النحو والصرف والمنطق والفقـه وبعض مختصرات الأصـول وله عنـاية كـاملة بهذا الشـأن ورغبة ونشاط وإقبال على الطاعة ورصانة وحفظ لسان عن الفلتات التي لا يخلو عنها غالب أمثاله ونجابـة كاملة وذهن وقّـاد وفكر إلى إدراك الحقـائق منقاد وحسن سمت وقنـوع وعفـاف، ومحـاسن أوصـاف فتـح الله عليـه بـالمعـارف وجعله من العلمـاء العاملين.

وبعد هذا قرأ على جماعة من أكابر العلماء كالسيد العلامة الحسن بن يحيـى الكبسي والقـاضي العلامـة عبد الله بن محمـد مشحم والقـاضي العـلامـة حسين بن أحمد السياعي واستفاد في علوم الاجتهاد وصار من علماء العصر وقرأ على أخيه في مصنفاته وغيرها وصـار الآن يقرىء الـطلبة في علوم متعـددة من علوم آلية وتفسيـرية وحديثيّة كالأمهات وغيـرها، وقـد سمـع الأمهات وغيـرها من كتب الحـديث وسمـع

منه تفسير الزمخشري والمطول وحواشيهما والرضى في النحو وغير ذلك، ومن كتب الآل الأحكام للإمام الهادي عليه السلام وأمالي أحمد بن عيسى والتجريد للإمام المؤيد بالله وشفاء الأمير الحسين وغير ذلك، وسمع من مؤلفاته نيل الأوطار والسيل الجرار وتحفة الذاكرين بعدّة الحصن الحصين وتفسيره المسمى بفتح القدير، الجامع بين فنّيْ الرواية والدراية من علم التفسير وغيرها، وقال أخوه في البدر الطالع: قد أخذ عني العلوم بطريق السماع ثم أكدت ذلك بالإجازة العامة له في جميع ما اشتمل عليه كتابي الذي سميته «إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر» وجميع مصنفاتي، وجميع ما لي من نظم ونثر وهو كثّر الله فوائده ومتع بحياته جيد النظم إلى الغاية القصوى وله من ذلك قصائد فرائد وبالجملة فهو حسنة من حسنات الزمن وفرد من أفراد قطر اليمن وله شيوخ غير من ذكرته سابقاً كالقاضي العلامة أحمد بن محمد الحرازي شيخنا رحمه الله، فإنه قرأ عليه في الفروع، والقاضي العلامة عبد الرحمن بن أحمد البهلكي فإنه قرأ عليه في النحو. والقاضي العلامة حسين بن محمد العنسي رحمه الله قرأ عليه في المنطِق والنحو والأصول وسيدنا العلامة يحيى بن محسن الحبوري رحمه الله قرأ عليه في النحو وسيدي العلامة محمد بن عبد الرب بن محمد بن زيد الفهّامة قرأ عليه في النحو وقد برع في كثير من العلوم زاده الله كمالاً انتهى ما ذكره شيخ الإسلام بلفظه في أمام طلب المترجم له.

القاضي العلامة يحيى بن علي الردمي[٢]:

ولد تقريباً في أوائل القرن الثالث عشر ورحل عن وطنه قرية بيت ردم[٣] من أعمال حضور، إلى صنعاء وطلب العلوم على مشائخها في الفقه والعلوم الآليّة وقرأ

(١) قال في هامش الأصل: وتوفي في شهر شعبان سنة ١٢٦٣هـ.

(٢) الردمي: نسبة إلى بيت ردم الآتي ذكرها ترجم له المؤرخ زبارة بنيل الوطر (ج ٢ ـ ٣٩٤).

(٣) بيت ردم: بلدة وحصن من مخلاف حضور جنوب طريق السيارات صنعاء ـ الحديدة ويسكنه قبيلتان إحداهما بنو الكندي والأخرى بنو العريق، ووفاة صاحب الترجمة كما ذكر زبارة سنة ١٢٩٩.

على القاضي العلامة محمد بن أحمد السودي والقاضي العلامة يحيى بن علي الشوكاني والسيد العلامة محمد بن عبد الرب والقاضي العلامة حسين بن محمد العنسي وقرأ على غير هؤلاء واستفاد مع عناية وحسن فهم ودقة ذهن وصار من أعيان أهل العلم ثم ولي القضاء بجهته من عند شيخ الإسلام وصار حاكماً بها.

قرأ على شيخ الإسلام في الكشاف وحواشيه والمطول وحواشيه وشرح الرضي على الكافية، وفي تفسيره فتح القدير، ومؤلفه الذي سمّاه «إرشاد الفحول»، وفي الصحيحين وفي سنن أبي داود وغير ذلك وقد صار له تلاميذ يأخذون عنه من جملتهم ولد شيخ الإسلام القاضي العلامة علي بن محمد الشوكاني أصلحه الله وفتح عليه.

السيد العلامة يحيى بن محمد الأخفش من السادة المشهورين الكائنين في صنعاء وكوكبان:

ولد تقريباً في سنة خمس ومائتين وألف أو قبلها أو بعدها بقليل، قرأ على جماعة من علماء صنعاء في علوم الآلة واستفاد وحصّل وولي القضاء بكوكبان ثم بقي فيه أياماً وعاد إلى صنعاء وطلب العلم على شيخ الإسلام فقرأ عليه في الكشاف والرضي وغيرهما وفي شرحه على المنتقى ومؤلفه السيل الجرار وفي تفسيره فتح القدير وغير ذلك من مؤلفاته ثم عاد إلى كوكبان فبقي فيه أياماً قلائل في سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف ولم يطب له البقاء فيه وعاد إلى صنعاء فأذن له شيخ الإسلام في فصل خصومات من ورد إليه فصار من حكامها وأكبّ على الطلب على شيخ الإسلام وله فيه قصائد سنِيَّة، ورسائل بليغة بهيَّة وهو دقيق الذهن حسن الفهم جيِّد الذكاء حسن التصور للحقائق له شغل بالأدلة والعمل بها يعمل بما صح له[1].

السيد العلامة البدر، والنحرير الفهامة الصدر فرد الكمال وخلاصة لباب الاكمال، دسكرة المعالم[2] وزينة الآل من آل الإمام القاسم:

---

(١) في هامش الأصل قوله وتوفي سنة ١٢٦٣هـ.

(٢) الدسكرة: القرية العظيمة.

يحيى بن المطهر بن إسماعيل بن يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم(١):

ولد في شهر جمادى الأول من شهور تسعين ومائة وألف وطلب العلوم طلب المحصلين على مشائخ عصره المتصدرين فقرأ الفقه على الفقيه العلامة سعيد بن إسماعيل الرشيدي رحمه الله وقرأ في علوم الآلات على اختلافها على المشائخ المتصدرين مثل السيد العلامة علي بن عبد الله الجلال، والقاضي العلامة عبد الله بن محمد مشحم رحمهما الله وغيرهما مثل السيد العلامة إبراهيم بن عبد القادر فنبُل في المعارف الآليّة وغيرها وصار صدراً من صدور أهل العلم مع التفرغ عن جميع ما عدا الدرس والتدريس من شغل الدنيا ومتعلقاتها فلم يكن له شغل في غالب أوقاته بلْ في جميعها بما عدا التحصيل والإفادة والتدريس للطلبة يأتونه إلى مقامه المأهول بالعلم وأهله فلا يرد طالباً ولا مستفيداً في أي وقت من أوقاته باذلاً كتبه لمن طلبها منه للاستفادة منه ومن غيره مع سعة صدر ووقار وتؤدة مجبول على مكارم الأخلاق ومحاسنها سالكاً طريق الإنصاف، متجافياً عن سبيل التعصب والاعتساف، حريصاً على العمل بالدليل معرضاً عن كل قال وقيل، قابلاً للحق ولو من أصغر الطلبة مع سعة صدر وانشراح خاطر والتغاضي عما لا يتغاضى عنه غيره من أمثاله بل ربما سمع من بعض معاصريه حال القراءة وغيرها ما يحصل مثله بين طلبة العلم في بعض الأحيان من نفثات تكون فلا يلتفت إلى ذلك بل ربما تلقى قائله بلين الكلام وأحسنه وأعجبه كأن لم يسمع ولم يقل.

ومن فرائده، وتحصلاته لنفسه عافاه الله «بلغة المرام، في رحلته إلى بيت الله الحرام»، والعلم الثاقب، من منح الإلطاف، شرح مسالك الإنصاف وتخميسها

---

(١) ترجمه الإمام شيخ الإسلام في البدر الطالع (ج ٢ ـ ٣٤٩) وأنعم عليه بالثناء والمحامد ووعد شيخ الإسلام إن وسع الله في مدته فإنه سيحرر له ترجمة مستوفاة مطولة فهو حقيق بذلك. وقال في هامش البدر الطالع: ثم توفي المترجم له في شوال سنة ١٢٦٨هـ ثمان وستين ومائتين وألف.

للقاضي إسماعيل الحماطي، و «عقد اللآل، شرح منظومة إيساغوجي» للسيد العلامة عبد الله بن علي الجلال رحمه الله، و «الزبدة، حاشية العمدة»، «وحيلة النحور وشفاء الصدور»، «والعطايا والمنن، ذيل على أنباء الزمن» لجده يحيى بن الحسين رحمه الله[٢] وله غير ذلك من التحصيلات والرسائل، وقد كان ولي فصل خصومات القضاء بين الناس أياماً ثم رغب عن ذلك وتركه.

ومن حميد صفاته أنه يقتات من غلول أموال تركها له سلفه الصالح ويكتفي بها ويستغني عما دونها.

سمع على شيخ الإسلام الأمهات، كمُل له سماع البعض منها، وفي العضد وحواشيه والمطول وحواشيه وفي الكشاف وحواشيه وفي الرضي بعض هذه تماماً وبعضها إلى أبعاضها وفي مؤلفاته مثل شرح المنتقى والدرر وشروحها وفي تفسيره فتح القدير وقرأ عليه بعض فتح الباري وبعض العواصم وبرع في كثير من الفنون.

وله رسائل ومباحث يكتبها إلى شيخ الإسلام ويجيب عليه فيها وله أشعار إليه كثيرة قد تقدم بعضها أكثر الله في علماء الآل من أمثاله[٢]. انتهى ما أريده من ذكر مشايخ شيخ الإسلام وتلاميذه وبعض ماجرياته والحمد لله أولاً وآخراً.

* * *

(١) لا تزال هذه المؤلفات في طي الخفاء ولو أن الأخ العلامة محمد بن محمد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن يحيى بن المطهر يقوم بنشرها للاستفادة منها لكان خيراً له من مايشتغل بما لا يجدي منه نفعاً، وجده الإمام العلم المفرد والجوهر الفرد يحيى بن الحسين بن القاسم المؤرخ الصادق والناطق بالحق والإنصاف واسع الاطلاع متفتح الذهن وافر العقل ومؤلفاته في التاريخ وغيره كثيرة أكثرها بخط يده ومحفوظة بخزانة جامع صنعاء لم يتناولها أحد بالنشر والطبع منها «أبناء الزمن في تاريخ اليمن» في ثلاث مجلدات و «طبقات الزيدية» مجلدان و «بهجة الزمن، لمن تولى اليمن» لفترة معينة من أيام جده القاسم إلى أيام المؤلف شرّح أسرته بالإنصاف في مجلدين وله غير ذلك، وهذا يحيى بن الحسين بن القاسم هو غير يحيى بن الحسين بن المؤيد بن القاسم صاحب «غاية الأماني» المطبوع مشوهاً وهما متعاصران وشتان ما بين اليزيدين وكانت وفاة إمامنا يحيى بن الحسين بن القاسم سنة ١٠٩٩ تقريباً.

(٢) وفي الهامش: وتوفي سنة ١٢٦٨هـ.

انتهى كتاب «التقصار في جيد زمان علامة الأقاليم والأمصار» وهو شيخ الإسلام محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني رحمه الله.

لمؤلفه العلامة الأديب الكاتب القاضي محمد بن الحسن بن علي بن أحمد بن ناصر الشجني الحميري الذماري المتوفى سنة ١٢٦٨هـ ثمان وستين ومائتين وألف.

بقلم خويدم العلم الشريف محمد بن علي بن الحسين بن أحمد بن عبد الله الأكوع الحوالي نسباً الذماري مولداً ومنشأ، وذلك في عصر الساعة التاسعة بالتوقيت المحلي ـ من نهار يوم الثلاثاء غرة جمادى الأولى أحد شهور سنة تسع وأربعماية وألف من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والتسليم، الموافق إحدى عشرة مضت من شهر ديسمبر سنة ١٩٨٩ ميلادية.

وذلك بمنزلي بجبيل الجحملية جوار مشروع المياه وحيّ أحواض الملك الأشرف إسماعيل بن الملك الأفضل العباس بن الملك المجاهد علي بن الملك المؤيد داود بن الملك المظفر يوسف بن الملك المنصور عمر بن علي رسول ومن أرباض شرقي «تعز».

وأنا من عمري في ثمان وثمانين سنة سائلاً من الله حسن الختام والتوفيق وأن يغفر لي ولوالدي والمؤمنين والمؤمنات وأن لا يجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وكذا انتهى التعليق بعد ذلك بمقدار شهر زمان.

قال في الأصل المنقول منه ما هذا نصه:

وكان الفراغ من تحصيله بعناية المخدوم به وهو شيخ الإسلام حفظه الله وبارك في أيامه آخر نهار الجمعة خامس شهر شوال من شهور ١٢٤٢هـ.

بقلم الحقير أسير الذنوب والمأثم أحمد بن محسن بن قاسم غفر الله له ولوالديه. آمين.

وفي هامشه بخط آخر: بلغ قصاصة ٣٣٥.

وصلى الله وسلم على سيدنا الأمين وآله وصحبه الطاهرين.

*

الفهارس

(١) فهرس الموضوعات.
(٢) فهرس الأعلام.
(٣) فهرس القبائل والفرق.
(٤) فهرس البلدان والأماكن.
(٥) فهرس المراجع.
(٦) قائمة بمؤلفات الشوكاني الهمداني.

(١)

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

(٢)

فهرس الاعلام

[أ]

(٣)
فهرس القبائل والفرق

* * *

(٤)

فهرس البلدان والأماكن

[خ]

[د]

[ذ]

[ر]

[ز]

* * *

(٥)

فهرس المراجـع

١ ـ الأعلام، لخير الدين الزركلي.

٢ ـ الإكليل بأجـزائه الأربعـة الأول، والثاني، والثـامن والعاشـر، لأبـي محمد الحسن أحمد الهمداني، المتوفى حوالى سنة ٣٥٠هـ.

٣ ـ البدر الطالـع بمحاسن القرن السابـع، للإمام الشوكـاني الهمداني، المتـوفى سنة ١٢٥٠هـ.

٤ ـ تاريخ بهاء الدين محمد بن يوسف الجندي، المتوفى سنة ٧٣٢هـ.

٥ ـ تفسير الدامغة، لأبـي محمد الحسن بن أحمد الهمداني.

٦ ـ التلخيص في المعاني والبيان، للقزويني.

٧ ـ حياة عالم وأمير، لمحمد بن علي الأكوع الحوالي.

٨ ـ ديوان أبـي تمام حبيب بن أوس الطائي، المتوفى سنة ٢٤٧هـ.

٩ ـ ديوان أبـي بشار بن برد العقيلي، المتوفى سنة ١٧٦هـ.

١٠ ـ ديوان أبـي حسان بن ثابت الأنصاري، المتوفى سنة ٥٠هـ.

١١ ـ ديوان الحماسة لأبـي تمام الطائي.

١٢ ـ ديوان طرفة بن العبد.

١٣ ـ ديوان الطرماح بن حكيم الطائي، المتوفى سنة ١٢٥هـ.

١٤ ـ ديوان المتنبـي أبـي الطيب أحمد بن الحسين، المتوفى سنة ٣٥٤هـ.

١٥ ـ ديوان محمد بن حمير الوصابـي، المتوفى سنة ٦٥١هـ.

١٦ ـ ريحانة الألباء، وزهرة الحياة الدنيا، للخفاجي.

١٧ ـ السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام المعافري، المتوفى سنة ٢١٦هـ.

١٨ ـ صفة جزيرة العرب، لأبـي محمد الحسن بن محمد الهمداني.

١٩ ـ الضوء السافر في أعيان القرن العاشر، للعيدروس.

٢٠ ـ الضوء اللامع لمن في القرن التاسع، للسخاوي، المتوفى سنة ٩٠٢هـ.
٢١ ـ طرفة الأصحاب في الأنساب، للملك الأشرف عمر بن الملك المظفر الرسولي، المتوفى سنة ٦٩٦هـ.
٢٢ ـ العسجد المسبوك فيمن تولى اليمن من الملوك للخزرجي، المتوفى سنة ٨١٢هـ.
٢٣ ـ فهرس ابن النديم.
٢٤ ـ القاموس، للفيروزآبادي، المتوفى سنة ٨١٧هـ.
٢٥ ـ قرة العيون، في تاريخ اليمن الميمون، للحافظ الربيع، المتوفى سنة ٩٤٤هـ.
٢٦ ـ قصيدة محمد بن زريق.
٢٧ ـ كامل المبرد، محمد بن يزيد الأزدي الثماني، المتوفى سنة ٢٨٦هـ.
٢٨ ـ مجموع لآل المفتي المذحجيين الإبيين.
٢٩ ـ مطالع الأقمار، في تراجم علماء ذمار، لحيدرة.
٣٠ ـ معاهد التنصيص شرح شواهد التلخيص للعباسي.
٣١ ـ معجم البلدان، لياقوت بن عبد الله الحموي، المتوفى سنة ٦٢٦هـ.
٣٢ ـ مقصورة محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، المتوفى سنة ٣٢١هـ.
٣٣ ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، لشيخ الإسلام.
٣٤ ـ نيل الوطر، لمحمد بن محمد زبارة، المتوفى سنة ١٣٨٠هـ.
٣٥ ـ وفيات الأعيان، لأحمد بن خلكان، المتوفى سنة ٦٨١هـ.
٣٦ ـ اليمن الخضراء مهد الحضارة، لمحمد بن علي الأكوع الحوالي.

* * *

(٦)

قائمة بمؤلفات الإمام شيـخ الإسلام الشوكاني الهمداني

من كتاب التقصار، حيث قال مؤلفه: أعد منها ولا أعددها،

ومن غيره مرتبة على حروف المعجم مـع ذكر ما طبـع بحسب الإمكان:

١ ـ إبطال دعوى الإجماع على تحريم السماع، طُبـع بحيدرآباد بالهند.

٢ ـ إتحاف الأكابر، بإسناد الدفاتر. طُبـع بحيدرآباد بالهند.

٣ ـ إتحاف المهرة، في حديث إلا عدوى ولا طيرة.

٤ ـ أدب الطلب، ومنتهى الأرب. طبـع على نفقة مركز البحوث اليمنية.

٥ ـ إرشـاد الثقات، على اتفـاق الشرائـع، على التـوحيـد والمعـاد والنبـوات، طبـع بتحقيق الأستـاذ إبراهيم هلال.

٦ ـ إرشاد الأعيان، في تصحيـح ما في عقود الجمان.

٧ ـ إرشاد الغبـي، إلى مذهب آل البيت في صحب النبـي.

٨ ـ إرشاد الفحول في تحقيق الحق إلى علم الأصول. طُبـع في المطبعة المنيرية.

٩ ـ إرشاد المستفيد، إلى دفـع كلام ابن دقيق العيد، في الاطلاق والتقييد.

١٠ ـ إرشاد الطلعة في عدم الاعتداد بالركعة من الجمعة.

١١ ـ إشراق النيِّرين، في بيان الحكم إذا تخلف أحد الخصمين.

١٢ ـ اطلاع أهل الكمال، على ما في رسالة الجلال في الهلال من الاختلال.

١٣ ـ إفادة السائل، في العشر المسائل.

١٤ ـ إقناع الباحث، بدفـع ما ظنَّه دليلًا على جواز الوصية لوارث.

١٥ ـ أمنية المتشوق، إلى معرفة المنطق.

١٦ ـ الإيضاح لمعنى التوبة والاصلاح.

بحوث كثيرة منها ما يلي:

١٧ ــ البحث المسفر عن تحريم كل مسكر ومفتر.

١٨ ــ البحث المسلم، المتعلق بقوله تعالى: ﴿لا يحب الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾.

١٩ ــ في الاستدلال على كرامة الأولياء.

٢٠ ــ بحث في الاستبراء.

٢١ ــ بحث في الإضرار بالحال.

٢٢ ــ بحث في التصور.

٢٣ ــ بحث في أن إجابة الدعاء لا ينافي القضاء.

٢٤ ــ بحث في بيع وقف الذرية.

٢٥ ــ بحث في تبادر اللفظ عند الاطلاق.

٢٦ ــ بحث في تبادر اللفظ عند الاطلاق.

٢٦ ــ بحث في الرد على الزمخشري.

٢٧ ــ بحث في التصوف.

٢٨ ــ البدر الطالع، بمحاسن القرن السابع في التاريخ. طُبع عدة طبعات.

٢٩ ــ تحرير الدلائل، على قدر ما يجوز وما لا يجوز بين الإمام والمأموم من الارتفاع والانخفاض والبعد والحائل.

٣٠ ــ التحف، في مذهب السلف. طُبع.

٣١ ــ تحفة الذاكرين، شرح عدة الحصن الحصين. طُبع.

٣٢ ــ التوضيح، في تواتر ما جاء في المهدي المشظر والدجال والمسيح.

٣٣ ــ جواب السائل عن قوله تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل﴾.

٣٤ ــ جواب طلبة مدينة ذي جبلة.

٣٥ ــ جيد النقد، بين الكشاف والسعد.

٣٦ ــ الدراية في مسألة الوصاية.

٣٧ ــ الدر النضيد، في إخلاص كلمة التوحيد. طُبع.

٣٧ ــ در السحابة في مناقب القرابة والصحابة. طُبع.

٣٨ ــ الدرر البهية، وشرحها الدراري المضيئة. طُبع.

٣٩ ــ الدواء العاجل، في دفع العدو الصائل. طُبع.

٤٠ ــ ديوان شعره المسمى أسلاك الجوهر. طُبع.

رسائل منها:

٤١ ــ رسالة أجزاء الصفات الإلهية على ظاهرها من دون تأويل.

٤٢ ــ رسالة الابطال، في دعوى الاحتلال.

٤٣ ــ رسالة بغية المستفيد، في الرد على من أنكر الاجتهاد من أهل التقليد.

٤٤ ــ رسالة البغية في مسألة الرؤية بين فيها مذهب أهل السنة، وزيف مقال أهل البدعة.

٤٥ ــ رسالة التشكيك على التفكيك.

٤٦ ــ رسالة تنبيه الأمثال على عدم جواز الاستعانة من خالص المال.

٤٧ ــ رسالة تفويق النبال، على إرسال المقال.

٤٨ ــ رسالة تشنيف السمع إلى إبطال أدلة الجمع.

٤٩ ــ رسالة تنبيه ذوي الحجي، على حكم بيع الرجا.

٥٠ ــ رسالة حل الإشكال في إجبار اليهود على التقاط الأزبال.

٥١ ــ رسالة الطود المنيف في الانتصاف للسعد من الشريف.

٥٢ ــ رسالة في اختلاف العلماء في تقدير أقل مدة النفاس.

٥٣ ــ رسالة في وجوب توحيد الله تعالى.

٥٤ ــ رسالة في الرد على القائل بوجوب التحية.

٥٥ ــ رسالة في حد السفر الذي يجب معه القصر.

٥٦ ــ رسالة في ربع المظالم والمأثم.

٥٧ ــ رسالة في قول المحدثين رجال إسناده ثقات.

٥٨ ــ رسالة في الطلاق البدعي هل يقع أم لا.

٥٩ ــ رسالة في أن الطلاق لا يتبع الطلاق.

٦٠ ــ رسالة في إرضاع الكبير هل يقتضي التحريم أم لا.

٦١ ــ رسالة في حديث الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه.

٦٢ ــ رسالة في حكم التسعير.

٦٣ ــ رسالة منحة المنان، في أجرة القاضي والسجان.

٦٤ ــ رسالة في مسائل العول.

٦٥ ــ رسالة في الاتصال بالسلاطين.

٦٦ ــ الرسالة المكملة، في أدلة البسملة.

٦٧ ــ رسالة رفع الجناح عن نافي المباح، هل هو مأمور به أم لا.

٦٨ ـ رسالة رفع الريبة، فيما يجوز وما لا يجوز من الغيبة، طُبع.
٦٩ ـ رسالة في الرد على القائل بوجوب صلاة العيدين.
٧٠ ـ رسالة في الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم.
٧١ ـ رسالة بلوغ المنى في حكم الاستمناء.
٧٢ ـ رسالة الأبحاث الرضية، في حديث الدنيا رأس كل خطية.
٧٣ ـ الروض الوسيع، في الدليل المنيع على عدم انحصار علم البديع.
٧٤ ـ زهر النسرين في فضائل المعمرين. طُبع.
٧٥ ـ السيل الجرار، المتدفق على حدائق الأزهار.
٧٦ ـ شرح الصدور، في تحريم رفع القبور.
٧٧ ـ شفاء الغلل في زيادة الثمن لمجرد الأجل.
٧٨ ـ الصوارم الهندية، المسلولة على الرياض الندية.
٧٩ ـ الصوارم الحداد، القاطعة لعلائق الألحاد.
٨٠ ـ عقود الجمان، في شأن حدود البلدان، وما يتعلق بها من الضمان.
٨١ ـ العقد الثمين، في إثبات وصية أمير المؤمنين.
٨٢ ـ عقود الزبرجد، في جيد مسائل علامة ضمد. طُبع بالهند.
٨٣ ـ الفتح الرباني، في فتاوى الشوكاني في أربع ملجدات.
٨٤ ـ الفتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية في التفسير. طُبع.
٨٥ ـ القوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة. طُبع.
٨٦ ـ قطر الولي في حديث الولي. طُبع.
٨٧ ـ القول الصادق في إمامة الفاسق.
٨٨ ـ القول المحرر في لبس المعصفر، وسائر أنواع الأحمر.
٨٩ ـ القول المقبول في رد خبر المجهول من غير صحابة الرسول.
٩٠ ـ كشف الأستار، عن حكم الشفعة بالجوار.
٩١ ـ كشف الأستار في إبطال القول بفناء النار.
٩٢ ـ المقالة الفاهرة في اتفاق الشرائع على إثبات الأخرة.
٩٣ ـ نثر الجوهر في شرح أبي ذر.
٩٤ ـ نزهة الأحداق في علم الاشتقاق.
٩٥ ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار. طُبع.

٩٦ ـ وبل الغمام، على شفا الأوام. تحت الطبـع.

٩٧ ـ وبل الغمامة، في قوله تعالى: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فـوق الذين كفـروا إلى يوم القيمة﴾.

٩٨ ـ الوشي المرقوم، في تحريم التحلي بالذهب للرجال على العموم.

وللإمام الشوكاني الهمداني مؤلفات غير هذه المصنفات.

* * *